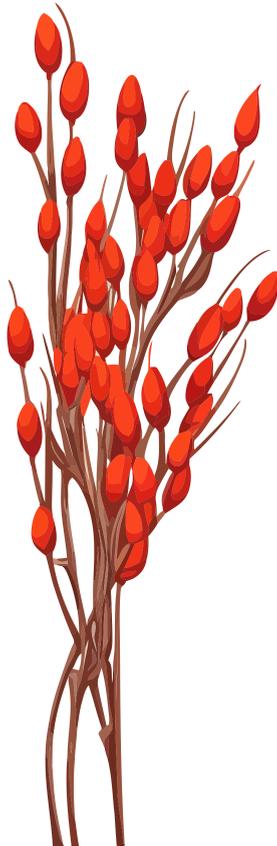


الذرة الرفيعة الحمراء

مويان



ترجمة حسنين فهمي حسين

الذرة الرفيعة الحمراء

تأليف
مويان

ترجمة
حسانين فهمي حسين



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٢ ٣٦١٠٠

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الصينية عام ٢٠١٠.

صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٣.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور حسانين فهمي حسين.

المحتويات

٧	رواية الصين
٩	تقديم المترجم
١٩	هذا العمل تحية ...
٢١	١- الذُّرَّة الرفيعة الحمراء
٩٥	٢- نبيذ الذُّرَّة
١٨٩	٣- موقعة الكلب
٢٦٥	٤- جنازة وسط الذُّرَّة
٣٦١	٥- النهاية الغربية

رواية الصين

«الذرة الرفيعة الحمراء» هي رواية الصين بامتياز ... طفلٌ صينيٌّ كبير، يستعيد بوعي وحنين نُنْفًا من «تاريخ عائلته» في قرية دونغ بي بمدينة قاومي، وهي نفسها قرية المؤلف. يستعيد الطفل حكايات عن الأب والأم والجد والجددة وزوجة الجد ... وما أحاط بعالمهم من أساطير، خلال مقاومة الغزو الياباني للصين في ثلاثينيات القرن العشرين. ومن هذه النُتف والحكايات، تتألف لدى القارئ في النهاية لوحةً ملحميةً واسعةً للصين والصينيين، بتقاليدهم وعاداتهم الغرائبية، وفي خلفية كل ذلك تتبدى طبيعةٌ خاصةٌ، نباتها وحيوانها وإنسانها.

تلك هي بإيجاز رواية مو يان، التي ينبُع عالمها السُّحري من استخدام عنصرين رهيفين يعكسان وُعي كاتبها بفن الرواية: العنصر الأول هو ذلك الراوي/الطفل الذي يتذكَّر ويحكى ما رآه وما رُوي له، مستندًا إلى وُعي بهوية الصين، يكاد يكون وُعيًا أيديولوجيًا؛ والعنصر الثاني هو المشهد الثابت المُتكرَّر عند كل مُنحَى من الرواية، مشهد حقول الذرة الرفيعة الحمراء التي تُشكِّل الخلفية الطبيعية والسُّحرية لعالم هذه الرواية البديعة، ففي هذه الحقول وحولها تقع كل الأحداث والأسرار والأفراح والجنازات، الذرة الرفيعة الحمراء التي يكتب الراوي مرثيتها بعد عودته وحضوره المفاجئ في نهاية الرواية، معلنًا عن رعبه من الذرة المُهَجَّنة التي زحفت واحتلَّت الصين.

ترسم الرواية عالمًا صينيًا واقعيًا، لكنه في الوقت نفسه يقترب من أن يكون غرائبيًا، أهم ما يميزه هو ذلك الطابع البدائي المرعب، القائم على القتل بسهولة والتعذيب وقَطْع الطريق، وذلك التمازج المُهول الذي يصل إلى حد التطابق بين البشر والحيوانات والطيور والنبات وكل مظاهر الطبيعة، إنها قرية صينية صُنعتُها ذكريات مو يان التي أراد أن يُكْتَب

لها الخلود، وصنعها خياله بالطبع، كما صنعها وعيه السياسي والأيدولوجي الحاضر بقوة وراء كثير من مشاهد الرواية.

في هذه الرواية مشاهد لن ينساها القارئ بسهولة. كيف يمكن لقارئ أن ينسى مشهد تعذيب المعتدي الياباني لأبناء القرية؟ تعذيب يبدأ من التلذذ بقطع الأذن، ويمتد إلى ما هو أشنع، وكيف يمكن أن ننسى مشهد جنازة الجدة الذي يكاد يستغرق مائة صفحة من الرواية، وكذلك مشهد مُفارقة زوجة الأب للحياة، في طقس غرائبي مرعب لا يكاد ينتهي؟ كيف يمكن لقارئ أن ينسى مشهد الكلاب الذي يحتل قسماً كاملاً من الرواية يُدعى «موقعة الكلب»؟ الكلاب التي تدخل في معركة مع البشر، بحيث تختلط الجثث وتتناثر العظام، وفي فانتازيا دموية مرعبة تضم الجميع: اليابانيين إلى الصينيين إلى الكلاب.

يمكن للمرء أن يقرأ كُتُباً كثيرة عن الصين وثقافتها وعاداتها، لكنه لن يعرفها في العمق، ومن داخل قلوب أبنائها وعيونهم، كما يمكن له أن يعرفها من قراءة هذه الرواية. تلك هي معجزة فن الرواية، الرواية التي هي تاريخ للواقع، تفصيليٌ وخارجي، بقدر ما هي — كما قيل — تاريخٌ للقلب، عاطفيٌ وداخلي.

استمتعتُ بقراءة هذه الرواية وأنا أعمل — لأسبوعين — على تحرير نصّها العربي في صورته النهائية، وأدركتُ ما بذله مُترجمها الشاب من جهد، خلال محاولته نقل هذا العالم الغرائبي، المكتوب — كما أخبرني — بلغة صينية محلية خاصة بالمقاطعة التي تدور فيها الأحداث.

تحية للمترجم الدكتور حسانين فهمي، الذي لولا مبادرته، ولولا جهود زملائه وأساتذته من المتخصصين المصريين في اللغة الصينية، ما كان للمركز القومي للترجمة أن يسبق إلى ترجمة هذه الرواية البديعة، قبل أن يحصل صاحبها مؤخرًا على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠١٢م، وتكون هذه الرواية على رأس مُبررات منحه الجائزة. قراءة ممتعة للصين وعالمها كما يصنعه فن الرواية.

خيري دومة

تقديم المترجم

الروائي الصيني الكبير «مو يان Mo Yan» كاتب قدّم للقراء الصينيين ولقراء العالم صورةً دقيقةً عن الريف الصيني، وعن حياة الفلاحين الصينيين وعاداتهم وتقاليدهم وأسباب تخلفهم وخبراتهم الحياتية الثرية، ومعاناتهم في ظل ظروف الاستعمار الأجنبي (العدوان الياباني على الصين ١٩٣٧-١٩٤٥م)، وفي ظل القهر السياسي، وتدني القيم الأخلاقية، وانتشار الظواهر السلبية التي عمّت مجتمع الصين الحديثة بما في ذلك الرشوة، والفساد الإداري، وضياع حقوق الإنسان البسيط. إن أعماله تُعدُّ لوحةً فنيةً صادقةً لحياة فئة أصيلة من فئات الشعب الصيني الكبير. وتُعبّر عن حياة مجتمع الفلاحين في مسقط رأسه قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي - مقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين وعاداتهم ومعاناتهم اليومية، كما تُعبّر عن القهر السياسي الذي يتعرض له الإنسان البسيط المهتمّش في مجتمع الصين الحديثة، وفي ظل الحضارة الحديثة التي أجبرت ذلك الإنسان على التخلي عن الكثير من القيم التي كانت جزءاً أساسياً من تكوينه الأصيل.

ويُقدّم مو يان موضوعات أعماله الثرية في أسلوب يجمع بين المحافظة على الأساليب الفنية الأصيلة للأدب الصيني والتأثر الواضح بالتيارات الأدبية الغربية، خاصةً تيار الواقعية السحرية ورائده الروائي العالمي ماركيز. ونرى أن مو يان في اهتمامه الكبير بكتابة البيئة الريفية، وعلمه ببواطنها، ورصده للكثير من الأحداث والقضايا التي تخص تلك البيئة، وتأثره الواضح بتيار الواقعية السحرية، ووضوح ذلك في أكثر من عمل من أعماله الروائية المهمة، جاء شبيهاً بالروائي الراحل الكبير خيري شلبي، يُعدُّ أكثر كُتّابنا المعاصرين احتفاءً بالواقعية السحرية أو اهتماماً بها. إذ برزت الواقعية السحرية عنده كما

يرى الدكتور حامد أبو أحمد في أربع روايات؛ هي: «الشطار»، و«نسف الأدمغة»، و«بغلة العرش»، و«السنيرة»^١.

ومو يان اسمه الكامل قوان مو يي، وُلِدَ في عام ١٩٥٥م بمدينة قاو مي مقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين لعائلة صينية تعمل بالزراعة. وفي عام ١٩٧٦م التحق بالعمل في جيش التحرير الصيني الشعبي. بدأ نشر أعماله الأدبية منذ عام ١٩٨١م، وكان أول عمل له قصة قصيرة بعنوان «أمطار ليلة ربيعية» ١٩٨١م (حيث كان قد أُحرق بنفسه أكثر من عمل قبل ذلك نذكر منها قصة «حكاية أم»، ومسرحية «الطلاق» وغيرهما) وبعدها توالى أعماله الأدبية بين قصة قصيرة، ونوفيل، ورواية، ونصوص سينمائية. فقد نُشر له عددٌ من القصص القصيرة التي حازت إعجاب الأوساط الأدبية الصينية آنذاك، ومنها قصة «الموسيقى الشعبية» (١٩٨٣م)، التي نالت فور نشرها إعجاب الكاتب الصيني الكبير «سون لي Sun Li» (١٩١٣-٢٠٠٢م، وهو واحد من أهم أربعة كُتّاب صينيين انصبَّت كتابتهم على الريف الصيني). ثم نشر مو يان بعد ذلك القصة الطويلة (النوفيل) «الفجلة الذهبية» (١٩٨٤م)، التي جعلت اسم مو يان يتردد داخل الأوساط الأدبية الصينية، ثم توالى أعماله بعد ذلك، إلى أن بلغت حتى الآن أكثر من ٥٠ عملاً ما بين مجموعة قصصية ورواية ونثر. أشهرها على الإطلاق روايات: «الذرة الرفيعة الحمراء»، و«الطفل ذو الشعر الأصفر»، و«النهود الكبيرة»، و«أنشودة الثوم»، و«أرجوحة الكلب الأبيض»، وغيرها من الأعمال. وحصلت روايته الشهيرة «الذرة الرفيعة الحمراء» فور صدورها على جائزة الرواية الممتازة على مستوى الصين، ثم حصلت بعد ذلك على الكثير من الجوائز المحلية والعالمية. ورُشِّحت روايته «جريمة خشب الصندل» للحصول على جائزة ماودون، وهي أرفع جائزة أدبية صينية.

ورواية «الذرة الرفيعة الحمراء» الصادرة لأول مرة في مايو عام ١٩٨٧م عن دار نشر الفنون والآداب بجيش التحرير الصيني، هي العمل الذي دخل به مو يان في عالم الشهرة، فلمع اسمه ليس في الأوساط الصينية فحسب، بل العالمية أيضاً. وقد تحوّلت الرواية فيما بعدُ إلى فيلم سينمائي للمخرج الصيني الشهير جانغ إي موو (صاحب فيلم «البطل»

١ د. حامد أبو أحمد، «كتاب الهلال»؛ (خيري شلبي وتد الرواية المصرية، ملف خاص). عدد ديسمبر

٢٠١٠م، صفحات ١١ و١٣.

وغيره من الروائع السينمائية الصينية)، وحصل الفيلم على جائزة الدُّب الذهبية بمهرجان برلين السينمائي الثامن والثلاثين. كما تحوّلت أعمال أخرى لمو يان إلى أفلام ومسلسلات تليفزيونية، وحصدت جوائز عالمية منها مجموعته القصصية الشهيرة «يا أسطى إنك ستفعل أي شيء في سبيل الضحك»، والتي تحوّلت إلى فيلم بعنوان «زمن السعادة» للمخرج جانغ إي موو، و«أرجوحة الكلب الأبيض»، التي تحوّلت إلى فيلم بعنوان «الدفء» للمخرج الصيني خوا جيان تشي، وحصل على الجائزة الكبرى لمهرجان طوكيو السينمائي الدولي لعام ٢٠٠٣ م.

وكان لأعمال مو يان، وروايته الشهيرة «الدُّرة الرفيعة الحمراء» على وجه الخصوص؛ صدق واسع في مختلف أنحاء العالم، وتُرجمت إلى العديد من لغات العالم؛ منها: الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية، والإيطالية، والإسبانية، واليابانية، والسويدية، والنرويجية، والهولندية، والكورية، والعبرية، وغيرها من اللغات، وتُعتبر هذه الترجمة لرائعته «الدُّرة الرفيعة الحمراء» أول ترجمة إلى العربية لأعمال مو يان. وتأتي اللغة الفرنسية على رأس اللغات الأجنبية التي تُرجمت إليها أعمال مو يان، فقد تُرجم له أحد عشر عملاً إلى اللغة الفرنسية، حيث تتربع أعماله على عرش الأعمال الأدبية الصينية الحديثة التي تُرجمت إلى الفرنسية.

حصل مو يان في عام ٢٠٠٤ م على وسام فارس في الفنون والآداب من فرنسا، وحصل الأستاذ دو ته لي أستاذ اللغة الصينية بجامعة بولون الفرنسية عام ٢٠٠١ م على جائزة «لوراي باتيلين» لأفضل عمل أجنبي مُترجم إلى الفرنسية عن ترجمته لرواية «مملكة النّبيذ» للكاتب مو يان. كما حصل مو يان في عام ٢٠٠٥ م على جائزة «نونينيو» الأدبية الإيطالية الدولية عن روايته «الدُّرة الرفيعة الحمراء» وعلى جائزة «فو قانغ يا» اليابانية للثقافة الآسيوية عام ٢٠٠٦ م، والتي تُمنح للأعمال التي تدعو إلى المحافظة على التراث والثقافة الآسيوية وقيمتها ٥٠٠ مليون ين ياباني، ومُنحت حتى الآن لثمانى شخصيات صينية، ومو يان هو الكاتب الصيني الثاني بعد باجين صاحب رواية «العائلة» الذي حصل على هذه الجائزة الكبرى. وأخيراً توجت أعمال كاتبنا الكبير مو يان بحصوله في سبتمبر من العام الحالي ٢٠١١ م على جائزة «ماو دون الأدبية»، والتي تُعتبر «نوبل الأدب الصيني»، وذلك عن روايته المهمة والمعروفة «الضفدع»، والصادرة في ديسمبر عام ٢٠٠٩ م عن دار نشر الفنون والآداب بشنغهاي. وقد استقبلت الأوساط الأدبية الصينية خبر حصول مو يان على هذه الجائزة الرفيعة بحفاوة بالغة.

وذكر الأستاذ ما يوي ران، خبير اللغة الصينية بالأكاديمية السويدية ومساعد مكتب جائزة نوبل للآداب، في أكثر من محفلٍ أدبيٍّ داخل الصين، أن مو يان هو الأديب الصيني الذي تستحق أعماله عن جدارة جائزة نوبل في الآداب.

وقال الكاتب الياباني الكبير «دا جيانغ» الحاصل على نوبل في الآداب لعام ١٩٩٤م: «إن مو يان وأمثاله من الكُتَّاب الصينيين هم خير من يُمثِّل أدب القرن العشرين، وإذا كان لي حرية الاختيار في ترشيح اسم للفوز بنوبل، فسوف أختار الكاتب مو يان.» وتَمَّت مُقَارَنَة أعمال مو يان الأدبية مع أعمال كُتَّاب عالميين كبار من أمثال جارتيا ماركيز؛ إذ تَمَّت المُقَارَنَة بين رواية «مائة عام من العزلة» لماركيز، ورواية «النهود الكبيرة» لمو يان، والتي صَوَّرَ فيها مو يان بِدَقَّة المشاهد الوحشية وجرائم العدوان الياباني على الشعب الصيني، وفَرَّقَ الفدائيين الصينيين خلال حرب المُقاوَمَة ضد اليابان (١٩٣٧-١٩٤٥م).

ومو يان كاتب تَمَيَّزَ بين كُتَّاب جيله الذين يمثلون أدب الفترة الجديدة في الصين (منذ عام ١٩٧٨م حتى الآن)، وقد ولد روائياً، في أعماله وصف ساحر لمسقط رأسه مدينة قاو مي بمقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين. ومنذ صغره عاش في معاناة بين الجوع والوحدة والحرب التي عانى منها أهل مقاطعة شان دونغ وغيرها من مدن شمال شرق الصين، وهذا ما شكَّلَ لدى مو يان الشعور بالمسئولية تجاه شعب مدينته والتعبير عنهم في معظم أعماله، والتي دائماً ما نلمس فيها آلام الجوع والمعاناة لشعب شمال شرق الصين. أهم ما يميز أسلوب الكاتب والروائي الصيني الكبير مو يان أنه يجمع بين التأثير بالنظريات الأدبية الغربية (وخاصة التأثير بمذهب الواقعية السحرية) والثراء الإبداعي الذي يقوم على التأثير الشديد بالثقافة المحلية، وخاصةً ثقافة فلاحي شمال شرق الصين وعاداتهم وتقاليدهم، واللغة الريفية الواضحة جداً التي تشعر عند قراءتها وكأنك تستمع إلى صوت فلاح أصيل، كما أنَّ كثيراً من أعماله تأخذ أسماء محاصيل زراعية وحيوانات وأشياء أخرى مرتبطة بالبيئة الريفية؛ مثل: «الفجلة الشفافة» (١٩٨٦م)، و«الذرة الحمراء» (١٩٨٧م)، و«القطن الأبيض» (١٩٩١م)، و«العائلة العشبية» (١٩٩٣م)، و«أنشودة الثوم» (١٩٩٣م)، و«الغابة الحمراء» (١٩٩٩م). وغيرها من الأعمال التي جَمَعَتْ بين كتابة التاريخ، والواقع المعاصر، والأسطورة والعادات الشعبية لأهل شمال شرق الصين. والتي جعلت أعمال مو يان تتميز عن إبداعات غيره من الكُتَّاب الصينيين الذين كتبوا في مجال أدب الريف والأدب المحلي. فالريف الذي يصوره قلم مو يان يُعْتَبَر ريفاً صينياً خاصاً

به دون غيره من الكُتَّاب الصينيين، حتى أولئك الذين ينتمون لنفس المقاطعة التي ينحدر منها مو يان مثل الكاتب الصيني المعاصر جانغ وي (١٩٥٦م-...). فالريف الذي يُصوِّره قلم مو يان هو ريف عريق يضرب بجذوره في عمق التاريخ، ريف مليء بِشَتَّى أشكال المعاناة. فإذا كان جابريل جارتيا ماركيز قد «اخترع لرواياته مكاناً خاصاً أطلق عليه أم ماكوندو (Macondo) تعد جزئياته مفردات مأخوذة من كثير من الأماكن في كولومبيا وفي أمريكا اللاتينية. فهو مكان سحري اختُرِعَ خِصِّصِي لهذا الغرض».^٢ نقول فإن مو يان قد سار على نفس الطريق باختياره ريف دونغ ييي بمدينة قاو مي مقاطعة شان دونغ الصينية. فما إن يُذكَر اسم مو يان وعالمه الروائي الخاص، حتى يُذكَر هذا الريف الصيني الذي شكَّل مملكة مو يان الخاصة به وحده.

ويمكن تقسيم حياة مو يان الإبداعية إلى ثلاث مراحل: المرحلة المبكرة، وتمتد من عام ١٩٨١م حتى عام ١٩٨٥م، واتَّسمت أعماله في تلك الفترة بالتركيز على الخبرات الحياتية للكاتب والوصف الدقيق لعالم الريف والفلاحين في شمال شرق الصين، وبالتعبير عن الحياة الواقعة لأهل الريف من خلال أسلوب الرمزية وفوق الواقعية. ومنذ عام ١٩٨٦م بدأت أعماله تدخل في مرحلة إبداعية جديدة اتسمت بالتأثر الواضح بالواقعية السحرية ورؤاها من أمثال الكاتب الجنوب أمريكي جارتيا ماركيز؛ حيث بدأ مو يان ببناء عالم روائي خاص يقوم على الخيال الواسع والمعالجة الأسطورية للواقع. والذي تمثل جلياً في أعماله «الذرة الرفيعة الحمراء»، و«أنشودة الثوم» وغيرهما من الأعمال الروائية والقصصية. أما المرحلة الثالثة في مشوار مو يان الإبداعي فقد تركَّزت إبداعاته خلالها في مجال الرواية وإبداع أعماله المعروفة «مملكة النبيذ»، و«النهود الكبيرة» وغيرهما من الروايات التي أدَّت إلى جدل كبير وتباينت آراء النقاد حولها.

وبالإضافة إلى الوصف الدقيق للثقافة المحلية وعادات وتقاليد أهل مقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين، فإن أعمال مو يان، وخاصة أعماله المبكرة؛ مثل «الفجلة الشفافة»، و«النهر الجاف»، و«البقرة»، و«النهود الكبيرة»، وغيرها من الأعمال، فإنها تُعبِّر عن القهر السياسي ومعاناة عامة الشعب، وكثيراً ما تعكس أعماله النقد اللاذع للمجتمع وسياسة

^٢ د. حامد أبو أحمد «كتاب الهلال»، (خيري شلبي وتد الرواية المصرية، ملف خاص)، عدد ديسمبر ٢٠١٠م، صفحة رقم ١٧.

القهر، وذلك من خلال صور الطفل البطل والكوميديا الساخرة والمواقف الشعبية التي تتخلل حياة شخص أعماله، فالقهر السياسي هو الفكرة الرئيسية في أعمال مو يان منذ عام ١٩٨٦م.

وتتميز أعمال مو يان أيضًا بالنزعة الفلسفية التي تتمثل في الغوص والتأمل في جوهر الحياة الإنسانية، والكشف عن مزايا ومساوئ النفس البشرية، كما في أعماله الروائية الشهيرة «التعذيب بخشب الصندل»، و«مملكة النبيذ»، ونرى ذلك بوضوح في شخصية الضابط «دينغ قو أر» بطل رواية «مملكة النبيذ»؛ حيث كان ضابطًا ناجحًا وذا كفاءة عالية في التحقيقات البوليسية، ويتحلل بروح تحمّل المسؤولية والنزاهة والتطلع إلى كشف الغموض في أحداث قضية (أطفال مملكة النبيذ)، ولكنه يفقد كل هذه الصفات العظيمة تحت إغراء الخمر والنساء إلى أن يتحوّل من ضابط ناجح إلى مجرم قاتل حتى يلقي حتفه. فعالم «مملكة النبيذ» هو صورة مُصغّرة للمجتمع الصيني المعاصر بما فيه من السعي وراء الملذات، فهي رواية ضد الفساد.

فهو في معظم أعماله يبحث في خبايا النفس البشرية، ويكشف عن مزاياها، والرغبة الإنسانية في الحياة الآمنة، والحرية، ومجتمع تسوده العدالة والمساواة، حيث يهتم بتمجيد الحياة والبقاء لمناهضة التقاليد القديمة البالية، والنموذج السياسي الحالي الذي يتسم بالقهر والظلم للنفس البشرية. فالكاتب الكبير مو يان يُعَبّر رائدًا من رواد «تيار البحث عن الجذور»^٣ الذي ظهر في الصين عقب فترة «الثورة الثقافية الكبرى»، والذي هو امتداد لروح نقد التراث التي بدأها الرائد العظيم لوشيون (١٨٨١-١٩٣٦م) عميد الأدب الصيني

^٣ أدب البحث عن الجذور: هو تيارٌ أدبيٌّ مهمٌ ظهر على الساحة الأدبية الصينية في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، عقب «أدب الجراح». حيث بدأ عدد كبير من الكُتّاب الصينيين آنذاك بالاهتمام بكتابة الموضوعات التي تتعلق بالوعي بالتقاليد الصينية والتراث الصيني والثقافة القومية الصينية، حتى أُطلق على الأعمال التي يكتبونها في هذا الصدد مسمى «أدب البحث عن الجذور». وقد بدأ الإعلان عن هذا التيار الأدبي الجديد في عام ١٩٨٥م، حيث أعلن الكاتب الصيني المعاصر «خان شاو قونغ Han Shao Gong» في ورقة بحثية له بعنوان «جذور الأدب» عن أن: الأدب له جذور، وأن جذوره تمتد في التربة الثقافية للثقافة القومية. ومن أهم الأعمال الرائدة في مجال «أدب البحث عن الجذور» رواية «با با با» للكاتب خان شاو قونغ، ورواية «ملك الشطرنج» للكاتب آه تشينغ، والقصة الطويلة «الفجلة الذهبية» للكاتب مو يان، وغيرها من أعمال مهمة في هذا المجال للكاتب لو ياو، وتشين جونغ شه، وجيا بينغ وا، ووانغ آن إي، وغيرهم من الكُتّاب المعاصرين. (المترجم)

الحديث في عشرينيات القرن العشرين في الصين لنقد الثقافة الصينية القديمة. وأعمال مو يان تغوص في البحث عن الثقافة الصينية الأصيلة لأهل قاو مي شمال شرق الصين، وهو يربط في أعماله بين أشخاص الحاضر وأشخاص وأحداث أخرى من التاريخ الصيني القديم، كما في روايته «الذرة الرفيعة الحمراء» التي تتشابه فيها صور الأشخاص ومصائرهم مع أبطال حركة يي خه توان عام ١٩٠٠م المعروفة في التاريخ الصيني. ورواية «التعذيب بخشب الصندل» تعبير عن التعذيب وتقدم وسائله في سياسات المجتمع الإقطاعي الصيني القديم، حيث كشفت الرواية عن الكثير من مساوئ الثقافة الإقطاعية في الصين القديمة، فأعمال مو يان تُعد امتدادًا، بل تطورًا، لأعمال الرائد لوشيون في نقد مساوئ الثقافة الإقطاعية في الصين القديمة التي تقوم على أساس «أكل الإنسان». فمو يان يؤكد أن جذور هذه الثقافة البالية ليس فقط لم تُمَح حتى الآن، بل تُعاود الظهور من خلال أشكال أخرى أكثر فسادًا ووحشية.

أما رواية «الذرة الرفيعة الحمراء» فتحكي، باختصار، قصة عائلة صينية ريفية تمتلك فرنًا لصناعة نبيذ الذرة في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي بمقاطعة شان دونغ شمال شرق الصين، وتتكون هذه العائلة من الجد يو جان أو الذي كان يعمل بالأمس القريب حمالًا في شركة لنقل توابيت الموتى وهوادج الأفراح، ثم أصبح بعد ذلك قائدًا كبيرًا في عصابات قطّاع الطُرق، والتي انضمت إلى قوات الجيش الثامن التابع للحزب الشيوعي الصيني، وقاتلوا المعتدي الياباني دفاعًا عن بلدتهم، وقد قام يو جان أو في شبابه بقتل صاحب أكبر وأشهر فرن لصناعة النبيذ وابنه الذي تزوج من أجمل فتاة في القرية، حتى تمكن يو جان أو من الاستيلاء على الفرن وصاحبه التي أعلن زواجه منها، ثم خرج بعدها مصطحبًا معه ابنه في معاركه الطاحنة ضد عصابات قطّاع الطُرق المعادية له، ثم مقاومة العدو الياباني، حتى كانت النهاية الغربية المفجعة بقيام القوات اليابانية بقتل زوجته الثانية وابنته الطفلة الصغيرة صاحبة الأعوام الخمسة في عام ١٩٤١م، ذلك العام الذي «يعتبر أكثر الأعوام التي شهدت فيها حرب المقاومة ضد اليابان وحشية وقسوة لم يسبق لها مثيل خلال سنوات حرب المقاومة ضد اليابان.»

فالرواية تسلط الضوء على بيئة ريف دونغ ببي بمقاطعة شان دونغ، وعادات وتقاليد هذه المنطقة بما فيها عادات الزواج وانتشار الزواج القسري الذي يستمد شرعيته من التقاليد القديمة المتوارثة وموافقة الوالدين، والجنازة الصينية التقليدية، والتي لا يزال كثير من عاداتها باقية حتى الآن في مجتمع صين القرن الحادي والعشرين، وغيرها من

العادات والتقاليد الصينية الأصيلة التي توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل. فهي واحدة من أهم الروايات المهمة لمو يان؛ اتخذت من القرية فضاءً كاملاً لها، ومسرحاً لأحداثها ومثلت شخصها هذه البيئة الريفية في منطقة شمال شرق الصين، والتي ينتمي إليها الكاتب مو يان، فقد بدأ مو يان بهذه الرواية المهمة في تاريخ الأدب الصيني المعاصر مشروعه الطموح عن الناس والحياة والتاريخ في ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي بمقاطعة شان دونغ الصينية. وهو المكان الذي ترعرع فيه الكاتب واختاره نموذجاً للحياة الشعبية في الريف الصيني، وسكب فيه عصاره وعيه بهوم القرية في حياة جيل الكُتاب الرواد الذي ينتمي إليه، وخالصة رؤيته لآفاق تطورهم. فتنحاز هذه الرواية للريف وتجيد التعبير عنه وتقديمه بصورة دقيقة بقلم مبدع وإع. فصورة القرية عنده هي صورة القرية الواقعية، بكل ما يدور فيها من صراعات وعلاقات اجتماع ومنظومة القيم التي تتحكم في سلوكيات أفرادها الذين هم شخوص الرواية. وهي بكل المقاييس ليست صورة للقرية الرومانسية المرسومة عن بعد. وقد كتبت حول هذه الرواية دراسة نقدية موسَّعة في ملحق صحيفة «نيويورك تايمز» للكتب، وقد ذكر كاتب الدراسة أن: «الكاتب الروائي الصيني مو يان استطاع من خلال شخصيات الرواية الحية أن يجعل القارئ الغربي باستطاعته التَّعرُّف على الثقافة الغربية التي تتمتع بها المناطق الصينية على مستوى مقاطعات الصين، وكانت نتيجة ذلك أن استطاع جمهور القراء الغرب بالتعاون مع مو يان أن يضعوا «ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي الصينية» على خريطة الأدب العالمي.»

هذه الرواية واحدة من أهم الروايات الصينية الحديثة التي تُورِّخ لحرب المقاومة الصينية ضد المعتدي الياباني خلال الفترة من ١٩٣٧م حتى ١٩٤٥م. حتى عدّها نقاد الأدب الصيني واحدة من الروايات المهمة التي كان لها تأثير كبير على تاريخ تطوُّر رواية الحرب في الصين. إلا أن هذه الرواية تختلف عن غيرها من الروايات الصينية المعروفة التي اهتمت بكتابة تاريخ الثورات والحروب الصينية، فهي تقدم تاريخ حرب المقاومة ضد اليابان من خلال قصص مثيرة حدثت لزعيم عصاة قُطَاع الطُّرق البطل المعروف يو جان أو.

وتذخر رواية «الذرة الرفيعة الحمراء» لمو يان بالكثير من العناصر السحرية المهمة التي تُؤكِّد تأثره الواضح بتيار الواقعية السحرية ورائده الكاتب الكولومبي جابريل جارتيا ماركيز. ونرى أن مو يان، كما ذكر الراحل الكبير خيري شلبي في مَعْرِض حديث عن الجوانب المشتركة بينه وبين جابريل جارتيا ماركيز، «بيننا مشتركات. كلانا يقتطع من

لحمه، وكلانا لا يخشى الكشف عن عوراته في سبيل الحقيقة، وكلانا صاحب تجربة عميقة في الحياة يستخدمها في طهو أعماله.» وقد عبّر مو يان عن ذلك في رائعته «الذرة الرفيعة الحمراء» خير تعبير. وقد تجلّت العناصر السحرية في الرواية في عالم عصابات قُطَاع الطُّرُق الغريب والقواعد الخاصة التي تحكم هذه الجماعة الخاصة من البشر، وعالم الحمالين البسطاء الذين يعملون في مجال حمل توابيت الموتى وهوداج الأفراح، وعالم مقابر الأطفال الموتى، والذي يُعتَبَر أكثر هذه العناصر غرابة للقارئ «وكانت تلك المقابر عبارة عن مكان فسيح يقوم الأهالي بإلقاء موتاهم من الأطفال الصغار في هذا المكان المكشوف. وحيث كانت تنتشر في القرية آنذاك عادة تقول بأن الطفل الذي يموت دون الخامسة من عمره لا يمكن دفنه مثل باقي الأموات، وإنما يجب إلقاؤه في مكان مكشوف لتأكله الكلاب الضالة.» وعالم الجن والعرافيت وغيرها من العوالم الغريبة التي تنفرد بها الرواية بين الأعمال الأدبية الصينية المعاصرة، والتي ترسّخ مكانة مو يان كرائد في فن السرد المعاصر والتأثر بالنظريات الأدبية الأجنبية.

وتتميز هذه الرواية بلغتها المحلية الشاعرية الجميلة، والتي تفيض بالوصف الدقيق للكثير من مكوّنات البيئة الريفية؛ من نباتات وحيوانات وطيور وحشرات وأنهار وجداول. كما برع المؤلف في استخدام كمّ كبير من الألفاظ والتعبيرات الشائعة في أوساط العامة في ريف شمال شرق الصين، وكمّ كبير من التشبيهات الغنية بالخيال الخصب، والتي تُنافي الواقع، وقد نجح مو يان في تطويع اللغة في الرواية بما يتوافق مع الواقع السحري والتعمق في بواطن شخوص العمل، ليعبر عن تأثره الواضح بماركيز وتيار الواقعية السحرية، حيث يعتبر مو يان أكثر الكُتّاب الصينيين احتفاءً بالواقعية السحرية واهتمامًا بها كما صرح بذلك بنفسه. وهكذا فإن استخدام المؤلف للغة العامية والكلمات الخاصة ببيئة ريف مقاطعة شان دونغ شمال شرق الصين، فقد مثلت هذه اللغة المحلية والتشبيهات الخاصة جداً صعوبة كبيرة خلال الترجمة. وقد تمكّنت من زيارة المؤلف في العاصمة الصينية بكين وتناقشتُ معه حول الكثير من الاستخدامات اللغوية الخاصة في الرواية، كما اجتهدتُ في قراءة ما أمكن من أعمال أدبية صينية تنتمي لنفس البيئة، واستعنتُ برأي عدد من الأصدقاء الصينيين العاملين في حقل اللغة الصينية. وأتمنّى، بفضل الله وعونه، أن ينال جهدي هذا في ترجمة هذه الرواية الصينية المهمة جداً إلى اللغة العربية رضا القارئ العربي الكريم. مع وعد مني أن أجتهد، إن شاء الله، في الأعمال القادمة. والله وحده وليُّ ذلك والقادر عليه.

الذرة الرفيعة الحمراء

ويُسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى من كان لهم الفضل الكبير في تشجيعي على ترجمة الأعمال الأدبية الصينية وهذه الرواية المهمة على وجه الخصوص. وأخصُّ بالشكر أساتذتي الأفاضل المترجم الكبير د. عبد الغفار مكاوي، والروائي المصري الكبير الأستاذ جمال الغيطاني، وأستاذي الفاضل الذي أُكِنُّ له كل الاحترام والتقدير الدكتور محسن فرجاني بكلية الألسن جامعة عين شمس.

والله الموفق.

حسانين فهمي حسين

القاهرة، في سبتمبر ٢٠١١م

هذا العمل تحية ...

إلى هؤلاء الأبطال والمظلومين الذين ترفرف أرواحهم وسط حقول الذرة الرفيعة في مسقط رأسي؛ فأنا لست حفيدًا بارًّا لكم جميعًا، وكم أودُّ لو أنتزع قلبي الذي تشرب بزيت الصويا، وأقطعه إربًا إربًا، وأضعه في ثلاثة أوانٍ، وأوزعه على حقول الذرة الرفيعة؛ تكريمًا لكم أيها الأبطال! تكريمًا لكم أيها الأبطال!

المؤلف

الذرة الرفيعة الحمراء

١

في اليوم التاسع من الشهر الثامن حسب التقويم القديم عام ١٩٣٩م، كان أبي — أحد أفراد عصابة قُطَاع الطُّرُق — قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره. وكان قد رافق القائد يو جان أو — ذلك البطل الأسطوري الذي ذاع صيته فيما بعد — رافقه إلى الفريق الذي كان يُنْصَب كميناً للعدو على الطريق العام عند جياو بينغ. خَرَجَتُ جدتي تُودِّعهم وهي ملتحفة بعباءتها. فقال القائد يو: «فلترجعي! فوَقَّفتُ في مكانها، ولم تُواصل التقدّم لوداعهم. وقالت لأبي ناصحة إيَّاه: «دوو قوان، استمع جيداً إلى كلام والدك!» فأُنصتُ أبي إليها، ولم يَنْبَس ببنت شفة، وراح يُمَعِن النظر في قامتها العالية ويشم الرائحة المنبعثة من خلال عباءتها، ثم شعر ببرودة شديدة، وراح يَرْتَجِف حتى بدأ القائد يو يمسح على رأسه قائلاً: «فلنمض يا صغيري!»

وهكذا بدأ وَقَع أقدام أفراد العصابة يبتعد عن المكان شيئاً فشيئاً. وبدأ الضباب الكثيف يحجب الرؤية أمام أبي، كان لا يرى أمامه بوضوح، كان فقط يسمع وَقَع أقدام أفراد العصابة ولا يراهم. ومضى أبي يمسك بطرف ثياب والده القائد يو وهو يهرول وراءه. وأدرك أن جدتي مَضَتْ تبتعد عنه كثيراً، والضباب يبدو كثيفاً كأموج البحر الهائج، وهو يمسك بطرف ثياب القائد يو وكأنه طَوْق النجاة الوحيد من هذا الموج الهائج.

بدأ أبي يقفز نحو قبره الحجري الذي سيكون فيما بعد هنا وسط حقول الذرة. كان ذلك القبر محاطاً بالأعشاب الكثيفة، وقد جاء إلى ذلك القبر صبي يجر ماعزة، وكانت الماعزة تأكل من تلك الأعشاب والصبي يَنْبُول على حافة القبر وهو يَتَغَنَّى قائلاً: «لقد احمرَّت الذرة، وجاء اليابانيون، فيا أيها الأشقاء! استعدُّوا لإطلاق الأعيرة النارية والمدافع.»

قال البعض إن ذلك الصبي هو أنا. ولكنني لا أعرف إن كنتُ هو أم لا. كنتُ أعشق كثيراً ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي، وكنتُ أحقد على ذلك المكان. وبعد أن كبرتُ واجتهدتُ في دراسة الماركسية، أدركتُ أن ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي هو أجمل وأقبح مكان على سطح الأرض، وأهله هم أشجع الشُّجعان وأحقر الناس، وأنهم أكثر الناس قدرة على شرب النبيذ وعلى الحُب. عاش آبائي وأجدادي هنا، وتَغَدَّوا على الذُّرة، وكانوا يزرعونها سنويًا بكميات كبيرة. وفي أغسطس من كل عام، كانت الحقول تبدو كبحور من الدماء وسط زراعات الذُّرة الرفيعة. وكان أهل قاو مي ينشغلون بهذا العرس في كل عام. كما أنهم كثيراً ما قاموا بالقتل والنهب، وأخلصوا دفاعاً عن وطنهم، وقد قَدَّموا صورة مسرحية بطولية حزينة، جعلتُنا نحن الأحفاد غير البارزين نشعر أمام كل تلك الإنجازات بتراجع النوع الإنساني في مدينة قاو مي. وبعد أن خرج فريق العصابة من القرية، ساروا في طريق ترابي ضيق. واختلط الضُّباب الكثيف بكميات التراب المنبعثة من تحت أقدامهم، وهم يسرون في ذلك الطريق الترابي، كانت قطرات المياه تبدو على وجه أبي وكأنها قَطَع بلورية. وكان أبي قد تَعَوَّد على رائحة النعناع الذكية والروائح الأخرى المنبعثة من وسط زراعات الذُّرة. وفي تلك المرة حيث اختلَّطت الرائحة بالضُّباب الكثيف، أحس أبي بأنه يشم رائحة جديدة أيقظت في نفسه ذكريات بعيدة. وبعد مُضي خمسة عشر يوماً، وفي الخامس عشر من شهر أغسطس الذي يوافق عيد منتصف الخريف، كان البدر يملأ السماء وينير حقول الذُّرة، وكانت حبات الذُّرة تبدو كأنها حبات فضية. وراح أبي يشم رائحة ذكية تفوق أضعافاً رائحة الذُّرة في العصر الحالي. في ذلك الحين كان القائد يو يجره وراءه، وخلفهم تظهر بركة من دماء ما يزيد على ثلاثمائة من أهل القرية، جعلت الأرض السوداء تبدو مخضبة بالدماء. وقد جعلت الرائحة بعضهم يشعر بالاختناق. كانت مجموعة من الكلاب التي جاءت لتأكل من لحم القتلى تقبع هناك وتنظر إلى أبي والقائد يو. فأطلق القائد يو رصاصة من مسدسه فاختمى كلبان، ثم أطلق رصاصة ثانية اختمى على دُوَيْبِهَا كلبان آخران. فتفرَّقت جماعة الكلاب ووقفت بعيداً تنظر إلى الجثث الملقاة على الأرض. وبدأت تلك الرائحة تزداد شيئاً فشيئاً. وراح القائد يو يصيح في الكلاب: «أيتها الكلاب اليابانية، اللعنة على اليابانيين!»، ثم صَوَّب مسدسه تجاهها حتى اختفت تماماً. وقال لأبي: «هيا بنا يا بني!» ودخل الأب وابنه وسط زراعات الذُّرة. وتَسَرَّبَت تلك الرائحة إلى أعماق أبي حتى أنها باتت ترافقه طيلة حياته.

كانت سيقان الدُّرَّة تُصْدِر عند اصطدامها ببعضها البعض أصواتًا مسموعة، أحيانًا قوية وأحيانًا أخرى ضعيفة. ولكي يلاحق أبي الرُّكْب، كان يهرول وسط الدُّرَّة وهو يصطدم بسيقانها. وفي ذلك الحين كانت تصدر أصوات أخرى نتيجة اصطدام مسدس أحد أفراد العصابة بمسدس رفيقه، أو نتيجة اصطدام أحدهم برأس جثة من تلك الجثث الملقاة وسط الدُّرَّة. وسمع أبي صوت سُعال ذلك الرجل الذي كان يسير أمامه، وقد عرف من صوت السعال صاحب الصوت وانغ وين إي المعروف بأذنيه الكبيرتين اللتين ما إن تهتزان حتى تَنزِفًا. كانت أذنا وانغ وين إي أكثر أعضاء جسمه دلالة عليه. وكان الرجل يتميز بأنه قصير القامة ذو رأس كبير. جاهد أبي في السير حتى تَحَقَّق من وانغ ونظر إليه نظرة فاحصة. وتذكَّر حكاية وانغ عندما كان في ساحة التدريب، وصاح فيهم نائب القائد أن استديروا صوب اليمين، ولكنه لم يسمع جيدًا، ولم يعرف الوجهة التي نادى بها القائد، فما كان من نائب القائد إلا أن ضربه بالسوط فراح وانغ يصيح: يا أمي! وتَغَيَّر لون وجهه من شدة الضربة، حتى سمع الجميع صوت ضحك الأطفال الذين كانوا يُتَابِعُونَ التدريب من خارج السور.

وضرب القائد يو وانغ وين إي على مُؤخَّرته، ثم سأله: «لماذا تسعل؟»
 «أيها القائد!» تحمَّل وانغ وين إي سعاله. وقال: «أشعر بألم في حنجرتي.»
 - «لا تسعل مَهْمًا كان السبب! واعلم أنني سأقطع رأسك إذا اكتُشِفَ أمرُنَا!»
 «سمعا وطاعة أيها القائد». أجاب وانغ، ثم صدر عنه صوت سعال لم يستطع أن يكتمه.

وهنا أحس أبي بأن يد القائد يو تنزل من خلف رأس وانغ وين إي، وأحس أيضًا أن هناك قطرات كحبات العنب تسيل من رقبة وانغ، ورأى عيني وانغ تبدوان في غاية الامتنان والشفقة.

بعد وقتٍ قصيرٍ، غابت العصابة وسط زراعات الدُّرَّة. وأحس أبي أن العصابة تسير صوب الجنوب الشرقي. وأن الطريق الترابي الذي سلكته العصابة هو الطريق الوحيد المؤدي إلى حافة نهر موا شوى.^١ الطريق الضيق أبيض يبدو مائلًا إلى الزُرْقَة في وَضَح

^١ نهر موا شوى: نهر يجري في منطقة شمال شرق الصين على حدود مقاطعة شان دونغ الصينية، يصل طول مجراه إلى ٥٢,٤١ كيلومترًا، ومساحة حوضه ٢,٣١٧ كيلومترًا مربعًا. وينقسم إلى أربعة فروع رئيسية هي: نهر ليو تسون، ونهر لونغ تشوان، ونهر تو تشياو توو، ونهر شي ليو فينغ. (المترجم)

النهار. كان الطريق مُكوَّنًا من الطَّمِي الأسود، غير أنه الآن غني بالكثير من روث الأبقار والبالغ والحمير. سار أبي في ذلك الطريق أكثر من مرة، حتى إنه كان يذكره أثناء فترة العذاب التي قضاها في اليابان. لا يعرف أبي كَم من الأحران والأفراح التي عاشتها جدتي على ذلك الطريق، لكنني أعرف. وكذلك لا يعرف أبي أن جُتَّة جدتي كانت قد أُلْقِيَتْ على ذلك الطريق الترابي الأسود الذي تظله زراعات الذُّرَّة، لكنني أعرف.

كان أبي قد لعب في صغره في مياه نهر موا شوى، وكان حُبَّ اللعب في المياه كان موهبة طبيعية اتصف بها في طفولته وصباه. حيث تذكر جدتي أن لهفته إلى المياه كانت أشد من لهفته إلى أمه. كان وهو في الخامسة من عمره يسبح في المياه مثل البط الصغير. كان يعرف تمامًا طين قاع نهر موا شوى، وكانت تنمو على ضفاف النهر أعشاب وأزهار كثيرة ويسبح على الشاطئ بعض من كائنات النهر. وفي الخريف عندما كانت تهب الرياح الخريفية وتزداد برودة الجو، كانت تفر إلى الجنوب جماعات من الإوز الصيني. وعندما استمع أبي إلى صوت صرير مياه النهر، تَذَكَّر الجدَّ ليو لوو خان الذي كان قد خدم في منزل العائلة عشرات السنين، وكان مسئولًا عن صناعة النبيذ التي كانت تديرها عائلتي، كان أبي يحبه كثيرًا مثل جده الحقيقي تمامًا.

كثيرًا ما كان أبي يرافق الجد ليو في الخروج إلى النهر للعب مع سرطان البحر على ضفتي نهر موا شوى. ويُمِضِي هناك وقتًا جميلًا، حيث صيد الأسماك الصغيرة ونصائح الجد ليو بعدم الاستعجال على الفريسة. وكان أبي يتابع فريسته وهي تدنو من الشاطئ، وتظهر جلية تحت ضوء الشمس حتى يُصِدِر له الجد ليو أوامره بأن: «اقبض عليها!» وبعد أن توغَّل أبي بصحبة أفراد العصابة في زراعات الذُّرَّة، كانت قدماء لا تُكْفَنان

عن الاصطدام بأعواد الذُّرَّة، بينما هو غارق في التفكير في ماضي النهر وألعاب الطفولة. كان لا يزال ممسكًا بطرف ثياب القائد ليو وهو يهرول وراه، وقد أحس بالنوم يغلبه، فثقل رأسه، وبدت على عينيه علامات النوم. مضى أبي يفكر في أن رحلته لن تضع سُدى ما دام في رفقة الجد ليو إلى نهر موا شوى. وكان أبي قد شبع كثيرًا من أكل سرطان البحر وكذلك جدتي. وكان الجد ليو يقوم بتقطيع سرطان البحر إلى قطع صغيرة ويضيف إليها فول الصويا والملح، ويضعها في إناء لإعداد حساء سرطان البحر، ذلك الحساء الذي كانوا يتلذَّذون جميعًا بشرا به. وكنت قد سمعت بأن جدتي كانت تتعاطى مخدر الحشيش، ولكنها لم تُصَل إلى حد الإدمان؛ لذا فقد كانت تبدو دائمًا في حالة من الانتعاش. وكان الاهتمام بالصحة والمحافظة عليها شعارًا معروفًا في قريتنا التي كانت معروفة بإنتاج أنواع

من الأسماك الغنية بقطع اللحم. فجأة تَدُكَّرُ أبي حادثة وفاة الجد ليو في العام الماضي عند طريق جياو بينغ العام. وكانت جثته قد قُطِّعَتْ إربًا إربًا، وتم توزيع تلك القطع في جميع الاتجاهات. كانت الجثة قد سُلِّحَتْ مثل الضفدعة. وما إن تَدُكَّرُ أبي حادثة مقتل الجد ليو شعر برعشةٍ شديدةٍ أصابَتْ جسمه كاملًا. ثم تَدُكَّرُ حادثة كانت قد وقعت منذ سبعة أو ثمانية أعوام مَضَتْ، في ذلك المساء كانت جدتي قد شربت حتى سكرت، ووصلت إلى ساحة فناء صناعة النبيذ في منزل العائلة الكبير، وهناك تعلَّقت بكتف الجد ليو وهي تتوسل إليه: «أيها العم ليو، أتوسَّلُ إليك ألا تُغادرنا! وإن لم يكن لأجلي فلأجل الصغير دوو قوان، أتوسَّلُ إليك أيها العم ليو ألا تغادرنا! وإن أردتَ أن أهبَ لك نفسي فسأفعل على الفور، فأنت مثل أبي تمامًا.» أذكر أن الجد ليو كان قد أزاح جدتي عنه وغادر المكان إلى زريبة البغال ليُطعم بغاله. فقد كانت أسرتي تُربِّي بغلين أسودين يتم استخدامها في فرن صناعة النبيذ، وكان البغلان من أجود أنواع البغال المعروفة في القرية. ولم يغادر الجد ليو الأسرة إلا بعد قيام اليابانيين بالاستيلاء على البغلين واستخدامهما في صيانة وتعبيد طريق جياو بينغ العام.

في ذلك الحين، سمع أبي صوت الحمير القادم من القرية، ففتح عينيه ورأى أن الجو لا يزال مُلبدًا بالضباب، وأن أعواد الدُّرَّة تحجب عنه رؤية أقرب الأشياء إليه. ومضى يُفكِّرُ في زراعات الدُّرَّة التي لا تنتهي، لا يدرك كم من الوقت قضاه بين جنباتها. وفقد أبي وهو بين تلك الحقول التي لا تنتهي التركيز في الاتجاهات. وتَدُكَّرُ أنه كان في العام قبل الماضي قد ضل طريقه وسط حقول الدُّرَّة، ولكن صوت مياه النهر آنذاك دلَّه على طريق النجاة من غيابات الدُّرَّة. فعندما سمع أبي صوت صرير مياه النهر، عرف على الفور أن العصابة تمضي في اتجاه الشرق صوب النهر. وبمجرد أن تأكد من وجهة السير، تأكد أن الرُّكْب يمضي إلى ذلك الخندق لمواجهة وقتال الجيش الياباني، نعم إنهم يَمُضون إلى القتل، قتل البشر وكأنهم يقتلون الحيوانات. وعرف أن الرُّكْب سيسير صوب طريق جياو بينغ الذي قام الجيش الياباني وعملاؤه بتعبيده مُسخرين شعب القرية.

اشتد صوت اصطدام أفراد العصابة بعيديان الدُّرَّة، فقد أتعبتهم الرحلة الطويلة وسط زراعات الدُّرَّة التي لا تنتهي. حتى وانغ وين إي لم يتوقف عن السُّعال رغم سيل التوبيخ والسب الموجه له من القائد يو. ولما أحسَّ أبي أن الرُّكْب يقترب من الطريق العام، راح يتأمل عيديان الدُّرَّة المنغرس في الأرض الطينية والمشبعة بمياه الأمطار. وفجأة سمع أبي صوتًا حادًا، ثم اجتهد ليعرف مصدر الصوت.

وهنا سمع القائد يو يصيح بصوت مرتفع: «مَن الذي أطلق النار؟ يا شياو جيو تسه مَن الذي أطلق النار؟»

وسمع أبي دويّ طلقة نارية أحدثت جلبة كبيرة وسط زراعات الذرة، وقد أصابت الطلقة في طريقها الكثير من عيدان الذرة وسنابلها، ولا أحد يعرف أين استقرت. ثم سمع صوت وانغ وين إي وهو يصيح بصوت به الكثير من الأسى والخوف: «أيها القائد يو، إنني عديم الرأس، أيها القائد يو إنني عديم الرأس!»

ركله القائد يو برجله. ثم قال: «عليك اللعنة! عديم الرأس ولكنك جريء في الحديث!» وقال أبي: «أيها العم وانغ إنك جُرحت.»

– «دوو قوان، أنت دوو قوان، انظر جيدًا هل لا يزال رأس العم وانغ في مكانه؟»

– «نعم، إنه لا يزال مستقرًا في مكانه، فقط تبدو أذنك مجروحة.»

مد وانغ وين إي يده يتحسس أذنه المجروحة، ولامست يده الدماء التي تسيل من أذنه، وهنا بدأ يشكو حاله إلى القائد يو: «أيها القائد يو، لقد جُرحت، لقد جُرحت، لقد جُرحت.»

رجع القائد يو إلى الخلف، وجلس القرفصاء، وأمسك برقبة وانغ وين إي، وقال بصوت منخفض: «كُفَّ عن الصراخ، وإلا فصلت رقبتك عن جسدك!»

وهنا كَفَّ وانغ وين إي عن الصراخ.

وعاود القائد يو يسأله: «أين مكان الجرح؟»

فرد وانغ باكيًا: «إنها أذني!»

أخرج القائد يو من جيبه قطعة قماش بيضاء وشقها نصفين ومدها إلى وانغ قائلاً:

«غط بها الجرح، وكف عن الصراخ، وسنعاود لف الجرح ثانيةً في الطريق.»

ونادى القائد يو على أبي: «دوو قوان.» فأجابه أبي، ثم اقترب منه وواصل السير

معًا. بينما كان وانغ يسير خلفهما وهو يتألم من جرحه.

كانت تلك الطلقة الطائشة التي دوى صوتها وسط زراعات الذرة، قد خرجت عن غير

قصدٍ من بندقية الأخرس. وكان الأخرس صديقًا قديمًا وحميمًا للقائد يو، وكان بطلًا رافقه

طويلاً، وأكلًا معًا الخبز وسط زراعات الذرة، وكانت إحدى قدمي الأخرس قد جُرحت وهو

لا يزال في بطن أمه، كان يعرج عليها أثناء السير، ولكنه كان يسير عليها بسرعة، وكان

أبي يخشاه كثيرًا.

وعندما تَبَدَّدَ ضُبابُ الفجرِ، وصلت العصابة أخيراً إلى طريق جياو بينغ العام. وعندما سلك الرُكْبُ الطريق العام، بدأ أبي أكثر مرونةً وحيويةً وقدرة على السير بمفرده، حتى إنه لم يَعدْ يمسك بطرف ثياب القائد يو. وكان وانغ وين إي لا يزال يغطي أذنه المجروحة بتلك القماشة البيضاء وهو غارق في بكائه. وهنا مد القائد يو يده وساعده في ربط الجرح بإحكام حتى شمل الغطاء نصف رأسه. وراح وانغ يتأوه من شدة الألم.

قال القائد يو: «آه من عمرك الطويل!»

فرد وانغ وين إي: «لقد نزلتُ دمائي كلها، ولا أستطيع الذهاب!»

قال القائد يو: «عليك اللعنة! إن جُرحك هذا لا يعادل لدغة بعوضة، هل نسيتَ ثأر أبنائك الثلاثة؟!»

فطأطأ وانغ رأسه، وقال وهو يغمغم: «لا لم أنس، لم أنس أبداً.»

ومضى وانغ يسير وهو يحمل بندقيته التي تلوّثت بدمائه التي لم تتوقف بعد.

كان الضباب قد تَبَدَّدَ تماماً، وبدأ الطريق العام صحواً، ولم يكن على الطريق أي أثر لأقدام الأبقار والخيل أو حتى البشر. وكان الطريق المحاط من جانبيه بزراعات الذرة كفيلاً بأن يجعل المارة يشعرون بعدم الاطمئنان. كان أبي يعلم أن عصابة القائد يو المكونة من أربعين شخصاً، من بينهم الأبكُم والأخرس والأعرج، كانوا جميعهم جنوداً شجعاناً عاشوا في القرية، واختلطوا بجميع ما فيها من حيوانات وطيور. والتفّ ثلاثون رجلاً منهم مُكوِّنين دائرة تشبه الحية أثناء نومها، وكان من بينهم من يحمل البنادق والمسدسات والمطارق والتروس الحديدية. ولم يكن أبي يعرف آنذاك شيئاً عن نَصْبِ الأكمة وعن فائدة التروس الحديدية في نصب الأكمة لمواجهة العدو.

٢

كنتُ قد عدتُ إلى قرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي لأقوم بزيارات ميدانية وتحقيقات، رغبةً مني في أن أُخَلِّدَ مآثر عائلتي. وكانت النقطة الرئيسية التي ركزتُ عليها في زياراتي هي تلك المعركة التي كان أبي قد شارك فيها لمُقاومة العدوان الياباني على القرية. قالت لي عجوز من القرية تبلغ من العمر اثنين وتسعين عاماً: «لقد عاش أهل دونغ بيبي الكثيرون هنا على ضفاف نهر موا شوى خه. وكان القائد يو الشجاع يتقدّمهم في المعارك الكثيرة التي استطاعوا خلالها أن يُبددوا جيش العدو الياباني. وكانت البطلة داي فينغ ليان قد وقفتُ بالمطرقة الحديدية أمام العدو واعتزّت طريقه إلى القرية.»، كان رأس العجوز

يبدو أصلع مثل قَدْر من الفخار، وتبدو على وجهها آثار الزمن. وكانت تلك العجوز قد نَجَتْ من مذبحه خريف أغسطس عام ١٩٣٩ م، بعد أن أُصِيبَتْ آنذاك بِدُمْلٍ في قدمها جعلها غير قادرة على ملاحقة الرُّكْب والهروب من العدو، فأدخلها زوجها في سرداب، واختفت داخله حتى زال الخطر. كان داي فينغ ليان — تلك المرأة التي تتغنى بشجاعتها العجوز — هو لقب لجدتي. وقد تأثرتُ كثيراً عند سماعي لقب جدتي على لسان العجوز. وعرفتُ أن كلام العجوز يدل على أن جدتي هي التي كانت قد اعترضتُ طريق العربات اليابانية بالمطربة الحديدية. فهي تُعْتَبَر أيضاً رائدة من رواد المقاومة ضد العدوان الياباني وبطلة شعبية دافعتُ عن بلادها.

عندما ذكرتُ للعجوز اسم جدتي، أسهبتُ في الحديث عنها. وكان حديثها عن جدتي متفرقاً، فتحدّثتُ عن قدميها اللتين كانتا أصغر أقدام القرية. وتحدّثتُ عن صناعة النبيذ التي كانت تزاولها عائلتي. وتحدّثتُ بكلامٍ مترابطٍ عن طريق جياو بينغ العام، حيث قالت: «عندما وصل تشييد الطريق إلى هنا، قام اليابانيون بجمع أكثر أهل القرية شدةً وأجبروهم على العمل في تشييد الطريق، كما استولوا على البغلين اللذين تمتلكهما عائلتك، وأقام اليابانيون جسراً حجرياً أعلى نهر موا شوى، أما لُوو خان، أقصد ذلك الأجير الذي كان يخدم في منزل عائلتك، فقد كانت بينه وبين جدتك علاقة غير واضحة، والجميع كان يتحدّث عن هذه العلاقة، كان هناك الكثير من الحكايات حول جدّتك في شبابه، وكان أبوك شجاعاً استطاع القتل وهو في الخامسة عشرة من عمره، فقد تربّى على يدي قُطَاع الطُّرُق. كان الأجير لُوو خان قد تعرّض للقتل والتمثيل بجثته عندما راح يبحث عن البغلين ويحاول استعادتهما من أيدي اليابانيين.»

ويُعتَبَر الجد ليو لُوو خان شخصية مهمة في تاريخ عائلتي الطويل. وحتى الآن لا توجد أي أدلة تؤكّد تلك العلاقة المزعومة بينه وبين جدتي. وإن كنت شخصياً لا أرغب في الاعتراف بهذه العلاقة.

جعلني حديثُ العجوز الصلحاء أشعر بالحيرة، على الرغم من وجود مبررات لتلك العلاقة بين جدتي والجد ليو لُوو خان. مَضَيْتُ أفكر في أنه ما دام الجد ليو يعاملني كحفيده، فإنه يعتبر مثل جدّي لأبي، وإذا كان له نزوات طائشة مع جدتي، فإن هذا سيكون مجرد افتراضات فحسب. لم تكن جدتي زوجة له بل كانت سيدها، وكان الجد ليو يرتبط بعائلتي بصفة اقتصادية فحسب لكونه أجيّراً عند العائلة، ولم تكن تربطه بنا صلة قرابة. كان فقط أجيّراً عمل لمدة طويلة على خدمة العائلة، وكان له دور في ازدهار تجارتها،

وإذا كانت جدتي وقعت في حبه أم لم تقع، وإذا كان هو وقع في حبايل جدتي أم لم يقع، فإن ذلك كله مُجرَّد افتراضات. وماذا لو كان حدث ذلك الحب؟ أتق تماماً أن جدتي كانت قادرة على فعل أي شيء ما دامت ترغب فيه. وأنها لم تكن بطلّة شعبية فحسب، بل كانت أيضاً رائدة في مجال تحرُّر الذات ونموذجاً في اعتماد المرأة على نفسها.

قمتُ بمراجعة سجلات المدينة، وتوصَّلتُ إلى أن تلك السجلات تذكر: أنه في العام السابع والعشرين من تأسيس جمهورية الصين الوطنية^٢ قام الجيش الياباني بالقبض على أربعمائة ألف من أهل مدن قاو مي، وبينغ دو، وجيان شيان، لتشييد طريق جياو بينغ العام. وقد أدّى ذلك إلى تبوير مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية. والاستيلاء على عددٍ كبيرٍ من البغال والخيول للاعتماد عليها في تشييد الطريق. اعترض الفلاح ليو لوو خان على ذلك، وحاول استعادة بغليه من العدو الياباني، الأمر الذي أدّى إلى ردٍّ عنيفٍ من الجيش الياباني. قاموا بقتله والتمثيل بجثته أمام الجماهير العريضة من أبناء القرية. غير أن الفلاح ليو لم يستسلم للعدو بسهولة وناضَل حتى لَفَظ أنفاسه الأخيرة.

٣

وهكذا كانت تلك الواقعة، حيث جاءت القوات اليابانية وواصلت تشييد الطريق على حدود قرينتا. وقد أدّى ذلك إلى الإضرار الكبير بحقول الدُّرَّة، وغير الطريق الكثير من معالم القرية. وعندما سمع الأهالي بأمر الطريق، وأن الجيش الياباني قادم إلى القرية لتشييد الطريق، كانوا في غاية القلق وبدءوا يترقّبون وقوع الكارثة. ووقعت الكارثة بالفعل، وجاءت القوات اليابانية.

وعندما وصل العدو الياباني إلى القرية وقاموا بالقبض على الفلاحين، واستولوا على البغال والخيول، كان أبي يغطُّ في نومٍ عميقٍ. وقد أيقظه آنذاك صوت طاحونة صناعة النبيذ. وسحبته جدتي من قدميه الصغيرتين إلى فناء الطاحونة. كان يوجد بالفناء آنذاك ما يزيد على عشرة قدور كبيرة ممتلئة بالنبيذ الأبيض عالي الجودة، تفوح رائحته في جميع أرجاء القرية. ودخل إلى الفناء جنديان يابانيان يرتديان زياً أصفر اللون ويمسك كل منهما

^٢ جمهورية الصين الوطنية تأسست في عام ١٩١١م وظلَّت قائمة حتى أكتوبر عام ١٩٤٩م، إذ سقطت بتأسيس جمهورية الصين الشعبية. (المترجم)

برشاش مُزوّد بخنجر، بصحبتهما شابان صينيان في زي أسود يحمل كل منهما بندقية وقد انشغلاً بفكّ البغلين المربوطين إلى الشجرة. وحاول الجد ليو جاهداً منع العميلين الصينيين من فك البغلين، لكنه لم يستطع الصمود أمام ضرباتهم المتتالية، وبعد وقت قصير، بقي الجد ليو بمفرده وسط شمس الصيف المحرقة، وقد تمرّقت ثيابه جميعها إلا سترة بسيطة بدتّ مبللة بقطعة أرجوانية داكنة.

قال الجد ليو للمُغتصبين: «أيها الإخوة الصغار، علينا أن نتفاهم في الأمر، علينا أن نتفاهم.»

فردّ العميل صاحب القامة السامقة: «أيها الحيوان العجوز، اغرّب عن وجهنا.» قال الجد ليو: «هذه حيوانات أصحاب الدار التي أعمل بها، وليس أمامي إلا الدفاع عنها.»

فقال أحدهم: «اغرب عن وجهي وكُفّ عن الجدل وإلا قتلتك!» وفي تلك الأثناء كان الجنديان اليابانيان يحملان سلاحهما واقفين وكأنهما صنمان مثبتان في مكانهما.

وما إن دخلتْ جدتي وأبي إلى الفناء، حتى راح الجد ليو يصيح: «إنهم يريدون أن يستولوا على بغالنا.»

فتدخّلتْ جدتي وقالت: «أيها السيد، إننا مواطنون صالحون.» فنظر الجنديان اليابانيان إلى جدتي وهما يضحكان.

قام العميل صاحب القامة القصيرة بفك البغلين، وحاول جرّهما بقوة، غير أنهما كانا يرفعان رأسيهما إلى أعلى متشبّثين في مكانهما لا يرغبان في مغادرة المكان. فتدخل العميل صاحب القامة السامقة وضرب البغلين ببندقيته على أردافهما، ولكنهما اشتاطا غضباً وراحا يركان الأرض بقدميهما حتى أصاب الطين وجه العميل.

وهنا أشار العميل صاحب القامة القصيرة بالبندقية إلى الجد ليو وصاح فيه: «أيها العجوز الأحمق، فلتسحب أنت البغال إلى موقع تشييد الطريق.» تقرّص العجوز في مكانه.

وأخذ الجندي الياباني برشاشه وراح يلوح به أمام عيني الجد ليو وهو يُغمغم بكلمات غير مفهومة. ولم يستطع الجد ليو أن ينهض من على الأرض، وظل قابلاً في مكانه. ثم استلّ الجندي الياباني خنجره ولوّح به أمام عيني الجد ليو، ثم مال على رأسه وخذشها مُحدّثاً بها فتحة ظاهرة.

تدخّلتْ جدتي قائلة: «أيها العم ليو، فلتترك لهم البغال.»

اقترب الجندي الياباني من جدتي، ونظر أبي إلى ذلك الجندي فرآه شاباً وسيماً ذا عينين كبيرتين وشعر أسود لامع وأسنان صفراء. وتراجعتُ جدتي إلى الجد ليو، وراحتُ تتحسس الدم الذي يسيل من رأسه، وتُحاول أن تُوقفه وهي تنظر نظرات غريبة إلى الجنود والعملاء وكأنها شيطانة. فتراجع عنها الجندي الياباني، وتدخلَّ العميل الصيني قائلاً: «أيها القائد أرى أن هذه المرأة قد أُصيبت بالجنون.»

واقترب الجندي الياباني من جدتي ثانيةً، وأطلق أعلى رأسها طلاقة جعلتها تفتersh الأرض.

أجبر العميل الصيني القصير الجد ليو على أن ينهض من جلسته تحت تأثير سلاحه، وجعله يأخذ بحبل البغال ويجرها إلى خارج الفناء. وعندما خرج الجد ليو بالبغال إلى الخارج، كان الشارع يمتلئ بالبغال والأبقار والأغنام. ولم تكن جدتي قد أُصيبت بالجنون أو ما شابه ذلك. فما إن خرج المغتصبون، سارعت بفتح أحد القدور في الفناء وغسلت وجهها بالماء. تم احتجاز الجد ليو مع البغلين في موقع العمل.

وهكذا تم الاستيلاء على الجد ليو والبغلين ليُصبَحاً رهائن في موقع تشييد طريق جياو بينغ العام. وعندما اقترب الانتهاء من دكَّ الطريق، ظهر الكثير من سيارات النقل الكبيرة والصغيرة التي كانت تسير على الطريق الجديد مُحَمَّلة بالأحجار الصغيرة والرمال، كانت تُفرغ حمولتها على جانب النهر. في ذلك الحين كان يوجد على النهر جسر خشبي صغير، لذا فكر اليابانيون في استبدال جسر حجري كبير به، وفي أثناء ذلك تم دكُّ مساحات واسعة من الدُّرَّة، حتى الطريق بدأ وكأنه مُغطَّى بطبقة خضراء. وكانت البغال والخيول تدوس في حقول الدُّرَّة لتحمل الأحجار والرمال من جانب النهر إلى موقع العمل. وكان العمال المكلفون بسحب البغال والخيول ينظرون في أسى إلى حقول الدُّرَّة التي تَحَرَّبَتْ تماماً، واختلطت محاصيلها بالأحجار والرمال وروث الحيوانات.

كان الجد ليو قد كُفِّفَ بنقل الأحجار من جنوب النهر إلى شماله، ولم يكن يرغب في أن يترك البغلين لشيخ آخر ليشرف على عملهما. وكان يَعْبُرُ الجسر الخشبي الذي يتمايل بشدة وكأنه على وشك السقوط. وبينما هو يَعْبُرُ الجسر إلى جنوب النهر وقد وقف برهة يأخذ قسطاً من الراحة، دنا منه رجل صيني يبدو أنه رئيس عمال وضربه بالعصا على رأسه قائلاً: «انهض وواصل حَمْلَ الأحجار إلى شمال النهر.» ففرك الجد ليو عينيه ومسح الدم الذي بدأ يسيل من رأسه ثم مضى إلى عمله. ورأى ذلك الشيخ يسحب البغلين فدنا

منه وقال: «رفقًا بهما، فإنهما حيوانات العائلة التي كنت أقوم بخدمتها.» ولم يُعره الشيخ أي اهتمام، وواصل عمله. كان رأس الجد ليو لا يزال ينزف، فجلس على الأرض وأمسك بحفنة تراب، وراح يسد بها فوهة الجرح والألم يزيد، وكأن رأسه انقسم إلى شطرين. في موقع العمل كانت تقف مجموعة من الجنود اليابانيين والعملاء الصينيين المسكين ببنادق، وكان ذلك المشرف الصيني صاحب العصا التي جرحت الجد ليو يذرع المكان نهابًا وإيابًا. والجد ليو يروح ويجيء في موقع العمل ورأسه لا يتوقف عن النزيف، والعمال الصينيون ينظرون إليه في شفقة. وبينما هو يمضي في حمل قطعة حجرية، إذا بذلك المشرف الصيني ينزل عليه بضربة عصا أحس الجد ليو بعدها أن جسده انشطر نصفين، ففاضت عيناه بالدموع وسالت دماؤه بغزارة.

فقال الجد ليو: «أيها القائد!»

فضربه القائد ضربة ثانية.

قال الجد ليو: «ما السبب الذي يحملك على أن تضربني أيها القائد؟»

فرد القائد مبتسمًا: «لكي أزيد من همتك أيها الحيوان.»

واشتد غضب الجد ليو، ومضى إلى عمله يحمل الأحجار الكبيرة وكأنه لا يشعر بأدنى ألم.

كان المشرف الصيني يقف آنذاك في مكانه، وما إن رأى الجد ليو يمر من أمامه حتى أشاح بيده، ونزل على رقبة الجد ليو بضربة عصا. ومشى الجد ليو يتألم حتى سقط الحجر من بين يديه على الأرض، وأصاب يديه بجروح متفرقة راح بعدها يبكي مثل الطفل الصغير. وبينما هو يبكي، إذا بقطعة لهب تشتعل فوق رأسه.

راح الجد ليو يقفز من فوق الأحجار ويجري هنا وهناك.

ونظر إلى رجل في منتصف العمر، كان غارقًا في الضحك، ثم اقترب من مشرف العمال وأشار إليه بقطعة خشب ملتهبة في يده.

وقال الرجل الذي في منتصف العمر للجد ليو: «أيها الجد، لا داعي لأن تغضب من هذه القطعة الخشبية.»

وفي تلك الأثناء كان مشرف العمال ممسكًا بسيجاره ينفثه في الهواء الطلق.

واقترب منه ذلك الرجل الذي في منتصف العمر، ودسَّ في جيبه علبة سجائر، بعدها تحرك المشرف وغادر المكان.

وسأل الرجل الذي في منتصف العمر الجد ليو: «أيها الأخ الأكبر، هل أنت جديد في هذا

المكان؟»

أجاب الجد ليو: «نعم.»

وسأل: «ألم تُقدِّم له أية هدية؟»

فرد الجد ليو غاضبًا: «إنه مجرد كلب لا يستحق الهدايا! كلاب قبضوا عليّ بدون

سبب.»

قال الرجل: «أهد له بعض النقود أو علبة سجائر أو أي شيء تتق به شره.» ثم مضى

الرجل إلى عمله.

وهكذا أمضى الجد ليو صبيحة يوم كامل في نقل الأحجار ورأسه ويده وجميع أطرافه

تبدو مخضبة بالدماء.

في وقت الظهيرة، جاءت سيارة صفراء اللون تسير على الجزء الذي تم تعبيده من

الطريق، وراح العمال يهرولون إلى السيارة القادمة، ولكن الجد ليو بقي قابلاً في مكانه

لم يتحرَّك في اتجاه السيارة.

اقترب منه الرجل في منتصف العمر، وسحبه من يده قائلاً: «حان وقت الطعام، هيا

لتتذوق الأرز الياباني!»

فوقف الجد ليو وسار برفقة الرجل إلى سيارة الطعام.

ووقفت السيارة، وقام العمال بإنزال برميلين كبيرين من على سطحها. برميل ممتلئ

بالأرز الأبيض، والآخر ممتلئ بسلطانيات خزفية مرسومة، إلى جانب البرميلين وقف رجل

صيني نحيف يمسك بمغرفة نحاسية كبيرة، ورجل صيني سمين يُمسك بمجموعة من

السُّلطانيات. وكان العمال يقتربون أولاً من الرجل السمين ليحصلوا على السلطانية، ثم

إلى النحيف ليغرفَ لهم غُرْفَةً من الأرز المطبوخ. ولم يكن هناك عصا طعام، فكان العمال

يأكلون الأرز بأيديهم.

وعاد مشرف العمال ثانيةً وببيده العصا، ولا يزال تعلق وجهه ابتسامة فاترة. وقد

جعل اللهب الذي أصاب رأس الجد ليو يستعيد جميع ما حدث له على مدى ذلك اليوم

الحزين الذي هو أشبه بكابوس مُروِّع. وجاء أيضاً الجنود اليابانيون والعملاء الصينيون،

والتفتوا جميعاً حول قدر كبير من الأرز، وانهمكوا في تناول وجبة الغداء. بينما كان يرقد

خلف القدر كلب ذو أنف طويلة يلحق بلسانه في تجاه العمال الفلاحين.

وبعد أن أحصى الجد ليو عدد الجنود اليابانيين والعملاء المرافقين لهم، وكان عددهم

مجتمعين لا يزيد على بضعة وعشرين فرداً، فكر في الهروب. نعم الهروب، ولا طريق أمامه

سوى حقول الدُّرَّة، ولن يتمكن هؤلاء الكلاب من اللحاق به وسط الدُّرَّة. وبدأ القلق يساوره

منذ أن فكر في الهروب. فراح ينظر إلى مشرف العمال وابتسامته الفاترة التي تخفي وراءها الكثير من الشر.

وقبل أن يشبع العمال، قام الرجل الصيني السمين بجمع سلطانيات الطعام. وراح العمال يلحسون أطراف شفاههم بألسنتهم وهم ينظرون إلى بقايا الأرز المترسبة بقاع القدر الكبير، ولكن لم يجروا أحدهم على مد يده لطلب المزيد من الأرز. وفي تلك الأثناء صاح بغل على الضفة الشمالية للنهر، وعلى الفور مَيَّز الجد ليو صوت البغل، وعرف أنه صوت بغل سيده الأسود. وكان البغل مربوطاً هنالك إلى حجر كبير يأكل في كومة من سيقان الذرة.

وبعد ظهر ذلك اليوم، استغل شاب فوق العشرين عدم انتباه مشرف العمال، وفراً هارباً إلى حقول الذرة المجاورة لموقع العمل، فلاحقته على الفور رصاصه أردته قتيلاً. وعندما أذنت الشمس بالمغيب، عادت تلك السيارات الصفراء ثانيةً إلى موقع العمل. كانت مَعْدَة الجد ليو قد تَعَوَّدت على ذلك النوع من الأرز الياباني، ومع مرور الوقت كانت رغبتة في الهروب تزداد؛ حيث كان شوقه يزداد إلى قريته البعيدة وإلى فناء منزل العائلة تفوح منه دائماً رائحة النبيذ، جميع العاملين في صناعة النبيذ فرُّوا بمجرد دخول اليابانيين إلى القرية. كان شَوْقه يزداد إلى جدي وأبي، فقد كان الدفاء الذي كانت تمنحه إياه جدي شيئاً لا يُنسى.

بعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء، تم تسكين العمال في سقيفة خشبية ذات باب حديدي مغطاة بقطع من القماش، بينما كان اليابانيون والعملاء الصينيون يبيتون في خيمتين على بعد حوالي عشر خطوات من سقيفة العمال. كان ذلك الكلب مربوطاً أمام خيمة اليابانيين، وأمام سقيفة العمال كان هناك عمود خشبي يتدلى منه مصباح كهربائي. وكان الشياطين اليابانيون والعملاء الصينيون يتناوبون على مراقبة العمال في سقيفتهم. والبغال مربوطة هنالك على مقربة من سقيفة العمال ترعى في بقايا الذرة التي دهستها سيارات الرُصْف.

وكان المرء باستطاعته أن يسمع داخل السقيفة أصوات شخير بعض العمال، أو يرى أحدهم يخرج إلى جوار السقيفة لقضاء حاجته.

واشتدَّت البرودة بعد منتصف الليل، وقد راح النوم من عَيْنِي الجد ليو. كان لا يزال يفكر في أمر الهروب من الموقع. ولما كان صوت وقع أقدام الحراس لا يتوقف، فقد أسلم الجد ليو نفسه إلى النوم حتى راح في نوم عميق، ورأى في حلمه أن هناك خنجراً حاراً ينفذ

إلى داخل رأسه، وأنه كان ممسكاً بسخ حديديٍّ. وبعد أن استيقظ وجد بنطاله مبللاً بآثار بول. وسمع في ذلك الحين أصوات الدِّيكة تصيح من القرى البعيدة، كما سمع أصوات شخير البغال، ورأى من خلال غطاء السقيفة نجوم السماء البعيدة.

وفجأة نهض ذلك الرجل الذي كان قد ساعد الجد ليو في الظهرية. وعلى الرغم من ظُلْمَة الليل، فإن الجد ليو استطاع أن يميز عينيه اللتين كانتا تبرقان مثل كرة نارية. ولما كان الجد ليو قد عرف قليلاً عن تاريخ ذلك الرجل غير السوي، فقد راح يراقب حركاته وسط ظلمة الليل البهيم.

ركع الرجل عند حافة السقيفة وراح يتحرك ببطء. ومضى الجد ليو يراقب الرجل وينظر إلى ظهره ورأسه من الخلف. كان يقفز ويتلوى في حركات دائرية، وتطلق عيناه نظرات ثاقبة إلى جميع الأشياء من حوله. كان يقبض بيديه على عَصَوَيْن حديديتين، وفجأة قفز قفزة سريعة، ونظر الجد ليو إلى الرجل، فإذا به يَنْقُضُ على أحد الجنود اليابانيين ويقبض على سلاحه ثم يختفي فجأة.

ومرَّ وقتٌ طويل حتى استطاع الجد ليو أن يفهم تلك الحادثة التي وقعت أمام عينيه. فقد كان ذلك الرجل بطلاً في رياضة الوو شو، وقد فتح ذلك البطل الطريق أمامه إلى الهروب من أيدي الشياطين اليابانيين! ونجح الجد ليو في أن يتسلل إلى خارج السقيفة من خلال تلك الفتحة التي قفز من خلالها ذلك البطل، ورأى الجد ليو الجندي الياباني الذي قَتَلَهُ بطل الوو شو مُلقىً ووجهه على الأرض.

قفز الجد ليو إلى داخل حقول الدُّرَّة، ومضى يَتعمَّقُ داخلها وهو في غاية الحذر، حتى وصل إلى ضفة نهر موا شوى. وفي ذلك الحين كانت السماء لا تزال مظلمة بظلام قُبيل الفجر، والنجوم تبدو مضيئة على صفحة مياه نهر موا شوى. وجلس الجد ليو على ضفة النهر وهو يتلوى من شدة البرد الذي ظهر جلياً من خلال صوت أسنانه. لم يكن الجد ليو يُصدِّق حقيقة أنه استطاع النجاة من أيدي الشياطين اليابانيين. ثم قادته قدماه إلى الجسر الخشبي الصغير، ليرى أسفله تلك الأسماك الصغيرة تلهو وسط مياه النهر، وتلك النجوم المضيئة أعلى صفحة النهر. وأحس كأن شيئاً لم يحدث. كان يفكر في أنه سيعود إلى القرية، ويختفي من هؤلاء الشياطين وعملائهم وسيُشفى من جراحه، ويواصل حياته في منزل سيده. ولكنه عندما كان يسير أعلى الجسر الخشبي، سمع صوت بغل يصهل على الضفة الجنوبية للنهر. وعندما رجع ليرى ذلك البغل، واجه نهايته المأساوية.

كانت البغال والخيل مربوطة هناك إلى دعائم خشبية على مقربة من سقيفة العمال، عاد الجد ليو إلى هناك ودخل وسط البغال، شم على الفور رائحة بغلي سيده. وقد رأهما

بأم عينيه. فانقض عليهما رغبةً منه في إنقاذ رفيقيه في تلك الرحلة المؤلمة. غير أن البغال — تلك الحيوانات التي لا تفهم — راحت تدكُّ الأرض بأقدامها وتقفز هنا وهناك. وراح الجد ليو يتحدث إلى أحدهما: «أيها البغل الأسود، أيها البغل الأسود، لا تقلق سنهرب معاً!» ولكن البغلين لم يفهما كلامه وراحا يدوران في مكانهما، وكأنهما لم يتعرَّفَا عليه، كانت رائحة الجد ليو قد تَغَيَّرت، وغيَّرت الجروح من ملامح وجهه. وبدأ الجد ليو يشعر بالقلق، وعندما بدأ يقترب من البغال، رفسه أحدهما رفسة في ظهره. فسقط العجوز على الأرض، ولم يقوَ على الحركة لفترة طويلة. واستمرت البغال في هيجانها حتى استجمع الجد ليو قُوَّته، ونهض محاولاً الخلاص من تلك الورطة. وعندئذٍ سمع صياح الديكة القادم من القرى المجاورة. كان الصباح قد بدأ يرسل نوره على الفضاءات المحيطة.

٤

سارت العصابة على حافة نهر موا شوى والشمس تلعو وجوههم. كان أبي مثله مثل أعضاء العصابة يراقب عن كثب ذلك الضباب المُتَبَقِّي أعلى مياه النهر. وهناك كان يظهر جسر شه سه كونغ الحجري الذي أقامه اليابانيون ليربط بين ضفتي النهر الجنوبية والشمالية. وقد شُيِّدَ الجسر الجديد في الناحية الغربية من موقع الجسر الخشبي القديم. كنت ترى من أعلى الجسر الجديد سنابل الذُّرة التي كانت ثابتة في مكانها وكأنها وجوه حمراء مألوفة لمن يسير أعلى الجسر الجديد، وكانت بعض أعواد وسنابل الذُّرة تتجمع مع بعضها مكوِّنة وحدة متكاملة تحمل مغزًى عميقاً. وكان أبي في ذلك الحين لا يزال صغيراً، ولا يفهم معنى اتحاد أعواد الذُّرة، هذا ما ذكَّرْتُهُ به فيما بعد.

كانت الذُّرة مثل فلاجي القرية تنتظر موعد جني الثمار. وكان الطريق العام يمتد مباشرةً تجاه الجنوب، ويضيق شيئاً فشيئاً حتى يتوارى تماماً وسط زراعات الذُّرة الكثيرة. ليبدو موحشاً عند نهايته.

راح أبي ينظر بفضول إلى أعضاء عصابة القائد يو، ويتساءل في نفسه: من أين جاءوا؟ وإلى أين يمضون؟ ولماذا ينشغلون بنصِّب هذا الكمين؟ وماذا بعد نصِّب هذا الكمين وسط ذلك السكون الذي خيم على المكان؟ سمع أبي صوت خرير المياه أسفل الجسر الحجري. ثم بدأ يرى تَغْيُرَ لون مياه النهر تحت ضوء الشمس التي بدأت أشعتها تنتشر في أرجاء المكان. ومضى يتذكر، عندما كانت تهب رياح الخريف ويشعر ببرودة الجو وتطير جماعات الإوز

صوب الجنوب ويجري هو وراءها والجد ليو يشجعه قائلاً: اقبض عليها، اقبض عليها! وبدأ أبي يشم رائحة سلطعون النهر المميزة، وتذكر أن عائلتنا كانت قبل فترة حرب المقاومة ضد اليابان تروي بعض محاصيلها بصلصة هذا السلطعون، كانت الثمار دائماً وفيرة وذات رائحة قوية.

وقال القائد يو: «عليكم جميعاً بالاختفاء أسفل السد. وأنت أيها الأخرس عليك بإبقاء الأمشاط الحديدية.»

وهنا أخرج الأخرس من جعبته بعض الرقائق الحديدية وربط بها أربعة أمشاط، ونادى على بعض رجال العصابة، فقاموا بنقل الأمشاط الحديدية إلى مكان التقاء الطريق العام بالجسر الحديدي.

قال الجد ليو: «أيها الرفاق، علينا أن نختبئ جيداً، وأن ننتظر حتى تصعد سيارات الشياطين اليابانيين أعلى الجسر، ثم نُطَلِّق جميعاً النار بمجرد أن أعلن لكم إشارة البدء، وأن نقدم هؤلاء الحيوانات وجبة سمينة لأسماك النهر.»

وأشار القائد يو إلى الأخرس بيديه، فهز الأخرس رأسه، وحمل على الفور مدفعا في نصف طول قامته الإنسان، ونصَّبه وسط حقل الذُّرَّة على الناحية الغربية للجسر. وسار العم وانغ وين إي غرباً برفقة الأخرس، ثم أشار الأخرس عليه بالعودة. فاستقبله القائد يو قائلاً: «لا تذهب معه واتبعني، هل أنت خائف؟»

هزَّ العم وانغ رأسه قائلاً: «لا أخاف ... لا أخاف.»

وأمر القائد يو الرفيق فانغ جيا بأن يحمل العمود الكبير إلى ضفة النهر، ثم وجه كلامه إلى الطَّبَّال والرَّمَّار ليو الذي كان ممسكاً بمذراع كبير قائلاً: «أيها الرفيق ليو، بمجرد أن تشتعل النيران عليك فقط أن تجتهد في نفخ مزارك، فإن الشياطين اليابانيين يخشون آلات الصوت، أسمعْتَ؟»

ويُعتَبَر الرفيق ليو أحد أصدقاء القائد يو منذ الصَّغَر، وتعود صداقتهما إلى وقت كان القائد يو يَجُرُّ هودجاً، وكان ليو ينفخ المزمار ويقرع الطبول، وكانت يده تمسك بالمزمار كأنها تقبض على بندقيّة.

هنا وَجَّه القائد يو كلامه لجميع أعضاء العصابة قائلاً: «سأبدأ بالكلام القبيح أولاً، سأقتل كل من تسوّل له نفسه التَّسبُّب في فشل حُطَّتْنَا. فعلينا أن نقاتل بحماس حتى يرى ذلك أعضاء عصابة لينغ هؤلاء الأوغاد، وأن نرفع راية النصر حتى يدبَّ الفزع في قلوبهم. وإذا لم نبادر نحن بذلك، فإنهم سوف يحاولون القضاء علينا!»

احتشد الجمع وسط الذرة، وأخرج الرفيق فانغ ليو مَبْسَم السجائر وراح يلف سيجارته، ثم بدأ يدخن والدخان يتطاير أمامه حتى تدخّل القائد يو قائلاً: «انفض رماذ سيجارتك، فكيف سيصعد اليابانيون الجسر إذا شموا رائحة الدخان؟»

أخذ ليو نفسين في عجالة، ثم نفّض سيجارته، وأحكم غلق علبة السجائر. قال القائد يو: «علينا جميعاً أن نرابط على ضفة النهر لكيلا نَفْجأً باليابانيين أعلى الجسر.» وساور الجميع شعور بالقلق، ثم أسرعوا، وانبطحوا على ضفة النهر ممسكين بأسلحتهم في وضع الاستعداد لملاقاة العدو. وانبطح أبي آنذاك إلى جوار القائد يو الذي سأله: «هل أنت خائف؟» فأجاب أبي: «لا أخاف!»

قال القائد يو: «يا لك من بطل شجاع، من شابه أباه فما ظلم! إنك ستخلفني في قيادة هذه العصابة، وعليك ألا تفارقني أثناء القتال، وسأبلغك بأية توجيهاات مني للرفيق، ثم تنشرها أنت إلى ناحية الغرب.»

هزّ أبي رأسه بالموافقة. ثم راح ينظر إلى المسدسين اللذين كانا مُعلّقين في وسط القائد يو، كان أحدهما كبيراً والآخر صغيراً.

والمسدس الكبير صناعة ألمانية، والمسدس الصغير صناعة فرنسية. وكان لكل منهما تاريخه وقصته الخاصة.

قال أبي: «المسدس!»

فقال القائد يو: «هل تريد مسدساً؟» فهزّ أبي رأسه قائلاً: «نعم، المسدس.»

سأله القائد يو: «هل تُجيد استخدامه؟»

فأجاب أبي: «نعم.»

استلّ القائد يو المسدس الصغير من حزامه، ونظر إليه ملياً. وقد بدت عليه آثار الزمن وتغيّر لونه. وضغط القائد يو على خزينة المسدس، وأطلق رصاصة عالية، ثم أحكم إغلاق الخزينة.

قال القائد يو مُحدّثاً أبي: «أعطيك هذا! وعليك أن تحسن استخدامه مثلي تماماً.»

فاستلم أبي المسدس من القائد يو، وقبض عليه ومضى يتدكّر القائد يو عندما استخدمه في تحطيم كأس النبيذ.

وراح أبي يستعيد تلك الواقعة القديمة التي حدثت أمام عينيه في ساحة فرن صناعة النبيذ بين القائد يو وجدّته وقائد عصابة لينغ السيد لينغ ماتزه. كانوا يشربون النبيذ وكان القائد يو أكثرهم قدرة على الشراب، ذكّرتهم جدّتي بدماء الجد ليو وأمي اللذين لقيتا حتفهما على أيدي القوات اليابانية.

وبينما كانت جدتي تقف وسط القائد يو وقائد عصابة لينغ، ضَغَطْتُ بيدها اليسرى على مسدس القائد لينغ وبيدها اليمنى على مسدس القائد يو الفرنسي الصغير. وسمع أبي صوت جدتي وهي تقول: «إذا لم تتم الصفقة فلن تفسد العلاقة التي بيننا، وهذا المكان ليس ساحة لاستخدام السلاح، ومن عنده الرغبة في ذلك فليخرج لملاقاة اليابانيين.»

وهنا بدأ القائد يو يسب: «يا ابن العم حتى لو استطعت تحطيم سارية القائد وانغ فلن ترعبني. أنا ملك لهذه المنطقة، وقد تغذيت طيلة عشرة أعوام على خبز تشيا، ولن أبالي بملاقاة هؤلاء اليابانيين الأوغاد!»

ضحك القائد لينغ قائلاً: «الأخ جان أو، إنني أفكر في مصلحتك، وكذا القائد وانغ ليو جانغ. فقط نريد منك أن ترجع إلينا بسارية العلم، وسنعلن تنصيبك قائداً، وسيمنحك القائد وانغ وساماً أفضل من كونك مُجرِّد قاطع طريق.»

– «من قاطع طريق؟ ومن منا ليس قاطع طريق؟ البطل الصيني الحقيقي هو من يجرؤ على قتال اليابان. لقد تَمَكَّنْتُ في العام الماضي من القبض على ثلاثة حراس يابانيين، واستوليتُ على ثلاثة مسدسات كانت بحوزتهم. وأنت يا قائد لينغ لا تُعْتَبِرُ قاطع طريق فكم قتلتَ من الشياطين؟ وهل حصلتَ على شعرة جندي ياباني واحد؟»
فجلس لينغ وأشعل سيجارة.

وفي تلك اللحظة دخل عليهم أبي بقدر النبيذ. فأخذتُ جدتي منه القدر وقد تَغَيَّرَ لون وجهها، ونظرت إلى أبي نظرة غير مريحة، ثم راحت تصب النبيذ في ثلاثة كئوس. قالت الجدة: «النبيذ تفوح منه رائحة دماء العم ليو، ومَن يرى منكما نفسه رجلاً فليُقدِّم على شرابه. ومن الآن فصاعداً عليكم مواجهة القوات اليابانية معاً، وبعد ذلك سنرى شجاعة كل منكما، حتى لا يختلط الحابل بالنابل.»
حملت جدتي كأسها، وراحت تتلذذ بالشراب.

ورفع جَدِّي كأسه وأفرغ محتوياته في جوفه في شربة واحدة. ولكن القائد لينغ لم يستطع شرب الكأس كاملاً، فبعد أن شرب نصف كأسه راح يخاطب القائد يو قائلاً: «أيها القائد يو، إنني لستُ مُنافسك في الشراب، فلاستأذن للانصراف.»

وهنا ضغطت جدتي على مسدسها، وسألت لينغ: «وهل ستقاتل؟»
فأجابها القائد يو: «لا داعي لأن تتوسلي إليه، إن لم يقاتل هو، فأنا لها!»

فأجاب لينغ: «سأقاتل».

تركتُ جدتي المسدس، واستلّمتها منها لينغ وعلقه في وسطه.
وقالت جدتي: «جان أو، سأسلمك ابني دوو قوان، على أن تصطحبه معك من الآن فصاعدًا».

نظر القائد يو إلى أبي، وسأله وهو يبتسم: «ابني العزيز، هل ستقوى على ذلك؟»
نظر أبي إلى أسنان القائد يو الصفراء بازدياء واضح، ولم ينبس ببنت شفة.
فأخذ القائد يو بكأس نبيذ، ووضعه أعلى رأس أبي، وطلب منه أن يرجع حتى يقف عند مدخل الباب. ثم أخذ القائد يو مسدسه الفرنسي برونينج، وسار إلى جانب الحائط.
ورأى أبي أن القائد يو يقترب من الحائط في خطوات بطيئة، ونظر إلى جدتي فإذا بوجهها يبدو شاحبًا، أما القائد لينغ فكانت تلعو وجهه ابتسامة فاترة.

وبعد أن وصل القائد يو إلى جانب الحائط استدار بجسمه في حركة مباغتة، ورأى أبي أن ذراع القائد يو تبدو في وضع مستقيم، بينما تطلق عيناه شررًا أحمر. وفجأة خرج دخان أبيض من فوهة مسدس برونينج. وسمع أبي دوي صوت عالٍ رأى على إثره قطعًا كبيرة تتطاير من قذح النبيذ، وقد استقرت إحدى تلك القطع الصغيرة على رقبة أبي، ثم انزلت إلى جسده. وعندها ذهل أبي ولم ينبس ببنت شفة. وبدأ عندها وجه جدتي أكثر شحوبًا. بينما كان القائد يو يجلس مسترخيًا على مقعد وهو يُردّد: «يا لها من تصويبة رائعة!»

قال القائد يو: «ما أمهرك أيها الغلام!»

وحمل أبي مسدس برونينج وقد أحس فجأة أنه ثقيل.

قال القائد يو: «لا داعي لأن أعلمك فنون التصويب، فأنت تعلمها جيدًا. عليك أن تخبر

الأخرس ورفاقه أن يكونوا على أهبة الاستعداد فور سماع إشارتي!»

حمل أبي مسدسه الفرنسي، وتسلسل وسط زراعات الذرة حتى وصل إلى المكان الذي يختبئ عنده الأخرس. كان الأخرس يُقرئ وسط زراعات الذرة ممسكًا بحجر أخضر اللون يشحذ به خنجره. بينما كان رفاقه في اجتماع حوله بين جالس ومضطجع.

قال أبي للأخرس: «القائد يو يأمركم بالاستعداد».

وحجج الأخرس أبي بنظرة، ثم استمر في شحذ خنجره، وبعد أن انتهى من تجهيز الخنجر راح يضرب به سيقان الذرة وأوراقها.

فعاود أبي تذكره قائلاً: «القائد يو يأمركم بالاستعداد».

أعاد الأخرس خنجره إلى جيبه، وارتسَمَتْ على وجهه ابتسامة عريضة، ثم رفع يده الكبيرة، وراح يلوح بها منادياً على أبي.

وتقدّم أبي إلى الأمام حتى توقّف على بُعد خطوات قليلة من الأخرس. وتقدّم الأخرس ومد جسده تجاه أبي وجذبه حتى ارتمى أبي في حوض الأخرس. وأحكم الأخرس قبضته على أبي الذي فقد القدرة على الحركة وهو في حوض الأخرس الذي انفجر ضاحكاً.

ضحك رفاق الأخرس الذين كانوا يحيطون به.

– «انظروا أليس يشبه القائد يو؟»

– «إنه بذرة ألقاها القائد يو.»

– «دوو قوان، إنني أشتاق إلى أمك.»

– «دوو قوان، إنني أريد أن أكل قطعتي المعجنات المحشية بالتمر التي صنعتها أمك.»

واشدد الغضب بأبي فرفع مسدسه وصوبه تجاه ذلك الرجل الذي يريد أن يأكل تلك المعجنات التي صنعتها جدتي. وضغط أبي على زناد مسدسه محدثاً صوتاً مسموعاً ولكن لم تخرج منه طلقة واحدة.

وبدا وجه ذلك الرجل شاحباً، وراح يقفز بسرعة ملحوظة، محاولاً أن يستولي على المسدس الذي كان بحوزة أبي. وراح أبي يطلق طلقات متتابعة نحو السماء، ثم راح يقفز هنا وهناك حتى ارتمى في حوض ذلك الرجل وهو يركله ويعضه في جميع مواقع جسده.

وعندئذٍ وقف الأخرس وأحكم قبضته على رقبة أبي، وهزّه هزات متتالية، ثم ألقى به وسط زراعات الدُّرَّة، وسقط أبي على الأرض، وقد تسبب سقوطه في تحطيم بعض سيقان الدُّرَّة. وراح أبي يحاول جاهداً أن يقف مرة أخرى وهو يلعن جميع من حوله حتى ارتمى أمام الأخرس. ورأى أبي وجه الأخرس الصامد. مدّ الأخرس يده وأخذ المسدس الذي كان بحوزة أبي وسحب بيت الطلقات النارية حتى أخرج الطلقة التي كانت داخله. وراح يلوح بتلك الطلقة أمام عيني أبي، ثم صوب المسدس تجاه ظهر أبي وهو يمسح رأس أبي ويهزها بيده الأخرى.

«ما الضوضاء التي أحدثتها هنالك؟» سأل القائد يو.

فرد أبي وهو يشعر ببعض الظلم: «إنهم ... إنهم يريدون أن يُضاجعوا أمي.»

سأله القائد يو وقد تغيّر لون وجهه: «وماذا كان ردُّ فعلك؟»

رفع أبي ذراعه وراح يمسح به عينيه، ثم قال: «أطلقت عليهم طلقة من مسدسي!»

– «أطلقت رصاصاً؟»

– «لم يكن بالمسدس أية طلقات.» ثم قدم أبي بيت نار المسدس إلى القائد يو. تسلم القائد يو الطلقة الفارغة من يد أبي، وراح يتفحصها، ثم ألقى بها في عرض النهر.

وقال القائد يو: «ما أشجعك من غلام! عليك أن تُقاتِل أولاً العدو الياباني، وبعد الانتهاء من قتال العدو الياباني، يمكنك أن تُصوّب مسدسك تجاه مَعِدَة كل من يجروُ على التّفوّه بأنه يرغب في مشاركة أمك النوم. ولا تُصوّب مسدسك تجاه رأسه أو صدره، تذكر جيداً! عليك أن تصوب فقط صوب مَعِدَتِه.»

تمدّد أبي إلى جانب القائد يو. وكان على يمينه الأخوة من عائلة فانغ. وقف فانغ تشي على حافة النهر، وفوهة البندقية مصوبة نحو الجسر الحجري. وكانت الفوهة مسدودة بقطعة من القطن البالي. وتظهر خلف الحامل المنتصب على حافة النهر صمامة ما. وإلى جانب الأخ فانغ تشي كان يظهر فتيل من اللهب مصنوع من بعض عيدان الذُّرَة، وقد ظهر الفتيل مشتعلًا. أما الأخ فانغ ليو فكان يظهر إلى جواره بعض الأعشاب وصندوق حديدي ممتلئ بالحبوب.

وإلى يسار القائد يو كان يرقد العم وانغ ون إي، ممسكًا ببندقية صيد وهو يرقد متكوّمًا وسط الذُّرَة. وقد ظهرت القماشة البيضاء التي تغطي أذنه المجرّوحة مُخَضَّبَة بالدماء.

ارتفعت الشمس وتلوّنت باللون الأحمر. وبدت مياه النهر متلاثلة، وراحت جماعات البط البرّي تُحلّق فوق حقول الذُّرَة، وتفرّقت إلى ثلاث مجموعات، راح معظمها يرمي بنفسه إلى داخل الأعشاب على ضفة النهر، بينما سقط الجزء الآخر إلى أسفل النهر، وراح يجري ويندفع مع مياهه. ولم تكن جماعات البط التي تسبح في عرض النهر قادرة على السكون، كانت تجري هنا وهناك وهي تترنح برقبته. وبدأ أبي يشعر بالدفء بعد أن جفّت تمامًا ملابسه التي بللتها مياه النهر، وانبطح أبي بعض الوقت، وعندما تألّم من قطعة حصى أسفل جسده، رفع جسده على الفور. فخاطبه القائد يو موبخًا إيّاه: «انبطح ثانية.» فرضخ لأمر القائد على غير رغبة منه. وفي تلك الأثناء كان الجمع يسمع صوت شخير الأخ فانغ ليو. فمدّ القائد يو يده، وأمسك بقطعة طمي وألقاها على وجه الأخ فانغ ليو. انتفض فانغ ليو وجلس على الأرض، وراح يتنّاب.

وصاح مذعورًا: «هل جاء العدو الياباني؟»

لعنه القائد يو قائلاً: «اللعنة على أمك» «اعلم أنه غير مسموح بالنعاس.»

وعَمَّ السكون جنوب النهر وشماله، لَفَّ الصمت الطريق العام الواسع، وبدأ الجسر الحجري أعلى النهر في غاية الجمال. واستقبلت حقول الدُّرَّة الممتدة على جانبي النهر الشمس العالية المتلألئة. وبَدَّت جماعات البط البري تبحث بمنقارها عن شيء ما، وهي تصدر صوتاً مسموعاً. وتوقَّفت نظرات أبي عند جماعات البط البري، ومضى يُحدِّق فيها، في ريشها الجميل وأعينها الثاقبة. ثم حمل مسدسه الثقيل، وحدد هدفه في اتجاه جماعات البط البري. وما كاد يضغط على زناد مسدسه صوب جماعات البط، حتى ضغط القائد يو على يده قائلاً: «أيها الحَمَل الصغير، ماذا عساک أن تفعل؟»

أحس أبي باضطرابٍ شديدٍ، ونظر إلى الطريق العام فوجده لا يزال يلفه صمتٌ مخيفٌ. وقد بدت سنابل الدُّرَّة أكثر حمرة مما كانت عليه منذ قليل.

قال القائد يو بلهجة صارمة: «هل يجرؤ لينغ ماتزه هذا الحيوان على خداعي.»

حَيَّم السكون على جنوب النهر وشماله، ولم يُعَد يُرَى أي أثر لفريق لينغ ماتزه. وعلم أبي أن القائد لينغ ماتزه قد حصل على معلومات حول مرور عربات العدو الياباني من هذا الطريق، وأنه يخشى ملاقاته العدو الياباني بمفرده، ومن ثم فقد قصد هذا المكان ليلتحم مع قوات القائد يو.

شعر أبي ببعض التوتُّر، ثم هدأ شيئاً فشيئاً. وكانت نظراته لا تكاد تفارق جماعات البط البري. وتذكَّر عندما كان يخرج مع الجد لوو خان لصيد البط، كان الجد يمتلك بندقية صيد ذات ماسورة حمراء داكنة وجراباً من الجلد. استولى عليها الآن العم وانغ ون إي.

وترقرق الدمع في عيني أبي، دون أن تنحدر منهما دمعة واحدة. تماماً مثلما حدث في ذلك اليوم. فتحت أشعة الشمس الدافئة. أحس أبي بلفحة برد شديدة ارتجف على إثرها جسده كله.

في ذلك اليوم كان العدو الياباني وجيش العملاء الخونة قد قاموا باختطاف الجد ليو لوو خان والبغلين اللذين كان يرعاهما، بينما كانت جدتي تغسل الدماء التي ملأت وجهها في قدر النبيذ. كانت تفوح منها رائحة النبيذ النَّفَّاذة، وقد احمرَّ جلدها وتورم جفناها، وتبلت ملابسها بالنبيذ وبالدماء. وتسمَّرت جدتي إلى جوار قدر النبيذ تتأمله. وقد انعكس وجهها داخل القدر. ولا يزال أبي يذكر أنها قد ركعت أمام قدر النبيذ ثلاث مرات. ثم قامت بعدها وهي تحمل بين يديها بعض النبيذ تشربه. وخداها متوردتان، بينما جبهتها وذقنها في غاية الشحوب.

وأمرت جدتي أبي قائلة: «اركع»، «اسجد».
فركع أبي وسجد أمامها.
«احمل كوبًا من النبيذ واشربه!»
فحمل أبي النبيذ وراح يتجرعه.

راحت خيوط الدم تغرق داخل قدر النبيذ، وكأنها مثل الأشعة تنفذ إلى داخل القدر. وتطايرت داخل قدر النبيذ بعض السحب البيضاء الصغيرة، غطت وجه جدتي وأبي. ووقفت جدتي وقد خرج من عينها شعاع لامع، لم يجرؤ أبي على النظر إليه. وارتجف قلبه بشدة، ثم مد يده، وأخذ بعض النبيذ من داخل القدر، وبدأ النبيذ يتساقط من بين أصابعه. وشرب أبي جرعة جديدة من النبيذ، حتى فاحت رائحة الدم على طرف لسانه. وتركزت خيوط الدم في أسفل قدر النبيذ مكونة كتلة بارزة عند قاع القدر. راحت تتأملها جدتي وأبي لفترة طويلة. وسحبت جدتي غطاء القدر، ثم جاءت بجزء من المطحنة الحجرية من جانب الحائط ووضعتها أعلى فوهة قدر النبيذ.

قالت جدتي: «حذار أن تحرك هذه الكتلة الحجرية!»

فهز أبي رأسه بالموافقة وقد شعر بالخوف بعد أن رأى الطين الذي يغطي المطحنة والحشرات التي تتطاير من حوله.

في تلك الليلة، وبينما كان أبي يرقد في سريره، سمع صوت وقع أقدام جدتي تقطع الفناء جيئةً وذهابًا. وقد صادف وقع خطوات جدتي مع صوت احتكاك عيدان الذرة بعضها ببعض، محدثة صوتًا نسج أحلام أبي المضطربة. هناك سمع أبي في عالم الأحلام صياح البغلين الأسودين.

وعند شروق الشمس، نهض أبي من نومه وجرى عاريًا إلى الفناء ليقضي حاجته. فرأى جدتي لا تزال واقفة في عرض الفناء تنظر إلى السماء في ذهول. فناداها يا أماه، لكنها لم تسمع نداءه. وبعد أن قضى أبي حاجته، سحب يدي أمه إلى داخل الحجرة. فاستجابت له ودخلت معه بكل لين. وما إن دخلت الغرفة سمعًا صوتًا قويًا أشبه بصوت الموج قادمًا من جهة الجنوب الشرقي، ثم تبعه صوت طلق نارٍ. كان صوت الطلق الناري قويًا وحادًا جدًا، أشبه ما يكون بحدة مقصّ حادّ أثناء قطع قطعة من الحرير.

أما هذه البقعة التي ينبطح عليها أبي الآن، فكانت آنذاك ممتلئة بالأحجار الناصعة البياض، تتكوّم على ضفة النهر مكونة تلالًا صغيرة أشبه بصفوف قبور كبيرة. وفي مطلع صيف العام الماضي، كانت حقول الذرة خارج حاجز النهر تبدو موحشة، وكان هذا الطريق

الحجري العام يمتد نحو الشمال. لم يكن الجسر الحجري قد تم تشييده بعد، كان هناك فقط جسر خشبي صغير، أنهكه سير مئات الآلاف من البشر والبغال والخيول، حتى ترك هذا كله بصمة واضحة على سطح الجسر. أما تلك الرائحة التي كانت تنبعث من شتلات الذُّرَّةِ الرفيعة، فكانت رائحة نفاذة. وكانت حقول الذُّرَّةِ الواسعة تبكي بحزنٍ شديدٍ. لم يكد يمر وقت طويل على سماع جدتي وأبي لصوت الطلق الناري، حتى قامت القوات اليابانية بملاحقتهم وبعض من شيوخ ومرضى وأطفال ونساء القرية إلى هذا المكان. في ذلك الحين، كانت الشمس قد أشرقت منذ وقت قصير على حقول الذُّرَّةِ، فوقفت جدتي وأبي وجماعة من أهل القرية على الضفة الجنوبية للنهر، وأقدامهم تدوس بقايا من عيدان الذُّرَّةِ الرفيعة. وراح أبي ينظر إلى سياج الذُّرَّةِ وإلى جماعة الفلاحين المحيطين به. قام بعد ذلك اثنان من جنود العملاء بمطاردة الفلاحين إلى غرب الطريق، والتحموا بجدتي وأبي مُكوِّنين جماعة واحدة. وأمام المكان الذي عسكر عنده أبي وجماعة الفلاحين، كان يقع مكان ربط البغال والخيول، والذي كان يجعل الإنسان يقف أمامه شاحباً فيما بعد. ووقف الجميع هنالك لفترة ليست قصيرة، وأخيراً تمكَّنوا من رؤية مسئول ياباني قادم من ناحية الخيمة، وظهر للجميع وهو يعلق على كتفيه زوجاً من الشارات الحمراء ويحمل سيفاً ويجر كلباً، مرتدياً زوجاً من القفاز الأبيض. كان الكلب يجري وراءه وهو يلهث، وخلف هذا الكلب يظهر اثنان من أفراد جيش العملاء يحملان جثة جندي ياباني، وفي الخلف يظهر جنديان يابانيان يحرسان جثة الجد لولو خان، يحملها اثنان من أفراد جيش العملاء. والتصق جسد أبي بجسد جدتي، فاحتضنته جدتي بذراعيها.

سحب المسئول الياباني كلبه وتوقف عند منطقة قريبة من إسطنبول والخيول والبغال. وراحت تطير حوله جماعة من الطيور البيضاء بلغت ما يزيد على خمسين طائرًا، راحت تطير في جميع الاتجاهات، وهي تُركِّز على الطيران صوب قرص الشمس الذهبي. ونظر أبي إلى بعض الحيوانات الموجودة داخل الإسطنبول، فرأى بغلي العائلة الأسودين ملقيين على الأرض. ورأى أحد البغلين جثة هامة، وإلى جوارها تلك المطرقة الحديدية، وقد لطح الدم الأسود بعضاً من عيدان الذُّرَّةِ، لطح وجه البغل الذي كان في غاية اللمعان. أما البغل الثاني فكان جالساً على الأرض، وهو يضرب بذيله الأرض محدثاً صوتاً مسموعاً. كان منخاره يصدران صوتاً أشبه بصوت الصفير. كم كان أبي يعشق هذين البغلين. كانت جدتي تركب على ظهر البغل، ويجلس أبي في حضنها، ويسير البغل وهو يحمل على ظهره الأم وطفلها، وينطلق يعدو على الطريق المحاط بحقول الذُّرَّةِ. كان أبي آنذاك في غاية المتعة

بهذه الرحلة. وتنظر جماعات الفلاحين المسكين بالمعاول أو غيرها من أدوات الزراعة إلى تلك المرأة، ويحسدونها على ما هي فيه من سعادة. الآن أمامه البغلان أحدهما مُلقَى على الأرض جثة هامدة، وقد شُقَّت شفتاه، والآخر جالس وحالته أصعب من حال أخيه الميت. هنا همس أبي إلى جدتي: «أماه، إنهما بغلانا.» فمدت جدتي يدها ووضعتها على فمه لعله يصمت.

توقَّفت جثة الجندي الياباني أمام المسئول الياباني الذي كان لا يزال ممسكًا بحبل كلبه. ثم ظهر جنديان من جيش العملاء، يسحبان الجد لولو خان إلى التود المخصص لربط الدواب. ولم يتعرف أبي في الحال على الجد لولو خان. رأى أبي شيخ إنسان شبه قتيل. كان الجد مصلوبًا ورأسه يترنح صوب اليمين واليسار، وقد بدأ الدم يتساقط من رقبتة وظهر مثل قطع الطمي التي تترسب على ضفة النهر، وتعرض جسده لضوء الشمس التي كشفت عن جروح تملأ جسده. تجمَّع حوله حشد من المارّة. وأحسّ أبي أن يد جدتي تقبض بشدة على كتفه. وبدأ الجميع أمامه وقد قصرت قاماتهم، فرأى وجوه بعضهم مثل الطمي الأصفر، ووجوه البعض الآخر مثل الطمي الأسود. وفجأة عم الصمت المكان، وسمع الكلب يلهث، بينما صاحبه يرقد إلى جواره، ثم رأى جنود جيش العملاء يسحبون ذلك الشبح المُنْهَك بقوة نحو التود، وما إن أرخى الجندي يده، حتى سقط الشبح على الأرض مُحدِّثًا صوتًا.

هنا انتبه أبي مفزوعًا: «إنه الجد لولو خان!»

فعاودت جدتي إجباره على السكوت.

كان الجد لولو خان يجاهد ليتحرك أسفل التود، وقد بدأ وجهه متورمًا وعيناه ترسلان شعاعًا ينمُّ عمًا به من تعبٍ شديد. وعندما أصبح أبي في مواجهة الجد لولو، كان واثقًا أن الجد لولو قد رآه جيدًا. وظهر التوتر على وجهه، ولم يعرف إذا ما كان هذا التوتر بسبب فزعه من منظر الجد لولو أم من السخط على ما حلَّ به. فكر في أن يصيح بأعلى صوته، ولكن جدتي كانت لا تزال تكتم صوته.

صاح المسئول الياباني صاحب الكلب في الجمع المحتشد، وقام رجل صيني أصلع بترجمة ما صاح به المسئول الياباني وأذاعه على مسامع الجمع.

ولم يسمع أبي ما أذاعه ذلك المترجم. فكان لا يزال تحت قبضة جدتي.

قام شخصان صينيان في زي أسود بتجريد الجد لولو خان من ملابسه تمامًا، ثم قاما بربطه إلى التود. ولوَّح المسئول الياباني بيده، فظهر شخصان صينيان آخران في زي أسود، ظهرًا وهما يسحبان السيد سون وو الجزار المعروف في قرية دونغ ببي.

وكان الجزار سون وو رجلاً قصير القامة، ممتلئ البطن، ذا كرش كبير، ورأس أصلع، ووجه أقرب إلى الحمرة، وعينين صغيرتين تظهران أعلى أنفه الأفتس. ظهر الجزار وهو يحمل في يده اليسرى سكيناً حاداً وفي يده اليمنى دلوّاً ممتلئاً بالماء، وتقدم إلى أمام الجد لoo خان وهو يتمم بكلمات غير مفهومة.

وقال المترجم: «يأمرك السيد المسئول بأن تسلخه سلخاً جيداً، وإذا لم تفعل ما أمرت به، فسيترك لهذا الكلب يشق صدرك.»

رد الجزار في الحال بالسمع والطاعة، وجفناه يرتعشان في تَوَتُّر واضح. ثم أخذ بالسكين في فمه، وحمل دلو الماء، وسكبه على رأس الجد لoo خان. فارتجف الجد لoo من الماء الذي سال على جسده مروراً بوجهه ورقبته حتى أخصم قدميه. وقام أحد العمال بملء الدلو ثانيةً من مياه النهر، وأخذ الجزار بقطعة قماش بالية، وبللها بالماء، وراح يغسل ويجفف جسد الجد لoo خان. وبينما هو يفعل ذلك تَحَدَّث إلى الجد لoo قائلاً: «أخي الأكبر.»

فرد الجد لoo: «أخي الحبيب، أرجو أن تقضي عليّ بضربة واحدة، ولن ينسى لك الجميع صنعك الكريم.»

فصاح المسئول الياباني.

وقال المترجم: «ابدأ بسرعة!»

تَغَيَّرت ملامح وجه الجزار سون، ومد أصابعه الصغيرة، وأمسك بأذني الجد لoo، ثم قال: «أخي الأكبر، اعذرنى فإنه ليس لي حول ولا قوة.»

رأى أبي سكين الجزار سون تنزل على أذن الجد لoo خان وكأنها منشار حاد. ولم يتوقف الجد لoo حينها عن الصياح بجنون، حتى بال على نفسه. وبدأ أبي يرتعش بشدة. ثم تَقَدَّمَ جندي ياباني يحمل بين يديه طبقاً من الخزف الأبيض، ووقف إلى جوار الجزار سون، وقام بوضع أذن الجد لoo السميقة، ثم قام الجزار بقطع أذن الجد لoo الأخرى، ووضعها داخل الطبق الأبيض. ورأى أبي أذني الجد لoo تقفزان داخل الطبق الأبيض وتحدثان صوتاً مسموعاً.

وحمل الجندي الياباني الطبق الخزفي الأبيض، ومراً ببطءٍ أمام جَمْع الفلاحين، فنظر إليه الجمع من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال. ونظر أبي إلى أذني الجد لoo خان الجميلتين، فرأهما تتراقصان داخل الطبق الأبيض.

تَقَدَّمَ الجندي الياباني بالطبق إلى المسئول الياباني، فهز القائد رأسه. ثم قام الجندي بوضع الطبق الذي توضع فيه أَدْنَا الجد لوو خان إلى جانب جثة ذلك الجندي الياباني، وتركه قليلاً من الوقت، ثم عاد فحمله وقَدَّمه إلى فم الكلب. راح الكلب يلهث ويشم الصيد الملقى أمامه. ثم هزَّ رأسه، وأخرج لسانه، وقعد القرفصاء.

وخاطب المترجم الجزار سون وو قائلاً: «يا هذا، استمر في عملك!» كان الجزار لا يزال واقفاً في مكانه، وهو يتمم بكلمات غير مفهومة، فنظر أبي إلى وجهه، كان متصبباً بالعرق، وعيناه ترتعشان بسرعة فائقة، تماماً مثل الطير في بحثه عن الحَب.

وبعد أن انتهى الجزار من قطع أَدْنِي الجد لوو خان، نزع الجد لوو قليلاً من الدم، وتغير شكل رأسه كثيراً بدون الأذنين. عاود المسئول الياباني صياحه. فقال المترجم: «أسرع يا هذا!»

فانحنى الجزار سون وو، وقام بقطع عضو الجد لوو خان الذكري، ووضع داخل الطبق الخزفي الأبيض. فحمل الجندي الياباني الطبق مرة ثانية، وهو يُدقق النظر في الشيء الذي بداخله، وراح يعرضه على الجمع. وهنا أحس أبي بأن أصابع جدتي الباردة كادت تنغرس في فروة رأسه.

قام الجندي الياباني بوضع الطبق أمام الكلب، فعض الكلب ما بداخله عذتين، ثم ألقى به جانباً.

وكان الجد لوو لا يتوقف عن الصياح بأعلى صوته، وهو يخطب جسده بشدة في الوجد. وهنا ألقى الجزار سون وو بالسكين على الأرض، ثم سارع بالسجود وهو لا يتوقف عن البكاء الشديد.

وأرعى المسئول الياباني الحبل قليلاً، فانقض الكلب يعدو نحو الجزار سون، وراح يُمسك برأسه، فسارع الجزار سون، ورفع يديه محاولاً إخفاء وجهه.

وما إن سمع الكلب صوت صفارة المسئول الياباني، حتى عاد مسرعاً إلى جواره. قال المترجم: «واصل عملك أيها الجزار بسرعة!»

فنهض الجزار سون، وأخذ بالسكين، وتوجه إلى أمام الجد لوو خان. وهنا كان الجد لوو خان لا يتوقف عن السَّب بأعلى صوته، والجمع يرفعون رءوسهم ناظرين إليه.

فقال الجزار سون وو: «أخي الأكبر ... أخي الأكبر ... فلتتحمل قليلاً.»

فبصق الجد لوو خان بعض الدم على وجه الجزار سون وو.

– «استمر في السلخ، اللعنة على أسلافك، استمر!»

فأخذ الجزار سون وو سكينه، واستمر في تنفيذ أوامر المسئول الياباني.

كان أبي قد حدثني عن منظر الجد لوو خان، وعمّاً أصابه من سكين الجزار سون وو، ذلك الجزار الشرس الذي سلخه سلخاً لا هواده فيه. وقد ركع الأهالي المحتشدون آنذاك أمام ما تَبَقَّى من جسد الجد لوو خان. في تلك الليلة هطلت أمطار غزيرة، غسلت ساحة الدواب ونظفتها جيداً، حتى لم يُعَد هناك أي أثر لما أصاب الجد لوو خان. وتناقل أهل القرية سر اختفاء جثة الجد لوو خان، ثم تناقلتها الأجيال المتعاقبة من أبناء القرية حتى أصبحت قصة الجد لوو خان حكاية أسطورية.

«إذا جرؤ على خداعي فسأقطع رأسه وأجعله قِدرًا أتبول فيه!» وبينما كانت الشمس تقترب من الغروب، وقد طارت جماعة كبيرة من البط البري، وظهرت جماعة أخرى، ولم تكن قوات القائد لينغ ماتزه قد وصلتْ بعدُ، وقد بدأ الطريق العام خاليًا تمامًا إلا من بعض الأرانب البرية. ثم ظهر بعد ذلك ثعلب أحمر اللون يتسلل عبر الطريق. وبعد أن انتهى القائد يو من سب القائد لينغ ماتزه، صاح قائلاً: «انهضوا جميعاً، فيبدو أننا قد وقعنا في الفخ الذي نصبه لنا الملعون لينغ ماتزه.»

كان أفراد عصابة القائد يو قد أصابهم التعب منذ وقتٍ طويل، ومن ثمَّ فلم يَرُقْهم سماع هذا الخبر، وأمرهم القائد يو أن ينهضوا على الفور، وفي تلك الأثناء كان بعض منهم يجلس يدخلن السجائر على الحاجز الترابي إلى جانب النهر، والبعض الآخر يقضي حاجته خلف هذا الحاجز.

قفز أبي بسرعة إلى خلف الحاجز الترابي، وكان لا يزال يُفكِّر في بعض المشاهد التي وقعت في العام الماضي، وتكاد لا تفارقه صورة الجد لوو خان وما تعرَّض له في ذلك اليوم العصيب. وانزعجت جماعات البط البري من هؤلاء الأفراد الذين نهضوا مرة واحدة، وطارحت حتى استقرت ثانيةً عند الحاجز الترابي.

تقدَّم الأخرس إلى أمام القائد يو وهو يحمل خنجره وبنديته. وقد بدأ عليه الحزن الشديد وهو يرفع ذراعيه ويشير إلى الشمس، وما إن مالت الشمس نحو الجنوب الشرقي، حتى خفض ذراعيه وأشار نحو الطريق العام. وصمَّت القائد يو قليلاً، ثم صاح في الأفراد الذين كانوا في الجهة الغربية أن: «اتَّجهوا غرباً!»

فعبّر جميع الأفراد الطريق العام، وتجمّعوا أعلى الحاجز الترابي. صاح القائد يو: «أيها الرفاق، إنه إذا جرؤ لينغ ماتزه، ورفاقه على خداعنا، فسأتي إليكم برأسه! ولا يزال الوقت مبكرًا، فلننتظر قليلًا حتى الظهرية، وإذا لم تظهر العربات، فسنعدو نحو منخفض تانجيا لنُصَفِّي حساباتنا مع لينغ ماتزه ورفاقه. ولتستريحوا داخل حقول الذُّرة لبعض الوقت، وسأرسل ابني دوو قوان ليستعجل لنا الطعام.» «دوو قوان!» رفع أبي وجهه ونظر إلى القائد يو. قال القائد يو: «عد إلى المنزل، وأخبر والدتك لتأمر بإعداد الطعام. وأن تأتي به إلينا بنفسها في الظهرية.»

هز أبي رأسه، ورفع بنطاله قليلًا، وأحكم وضع مسدسه. ونزل مسرعًا من أعلى الحاجز الترابي، وسار بمحاذاة الطريق العام. واختبأ فجأة وسط حقول الذُّرة. وبينما كان يسير وسط الذُّرة، اصطدمت قدماه ببعض جماجم الخيل والبغال. كان يركلها بقدمه ويفسح الطريق أمام نفسه، وكان من بين الجماجم التي ركلها بقدميه جماجم زوج من الفئران البرية، نظر إليها أبي نظرة سريعة ثم استمر في سيره. ثم عاد يفكر في زوج البغال التي كانت تملكها العائلة، وتذكَّر بعد أن تم إصلاح هذا الطريق العام بفترة طويلة، فكان أهل القرية لا يزالون يشمون رائحة الجثث مع هبوب الرياح الجنوبية الشرقية. وفي العام الماضي، كانت قد طفت على سطح مياه النهر عشرات من جثث الخيل والبغال. كانت قد توقفت في المنطقة الممتلئة بالعشب على جانب النهر. كانت تلك الجثث تطفو على السطح شيئًا فشيئًا، ثم تمضي تسير في عرض النهر.

٥

عندما بلغت جدتي الثامنة عشرة، زوّجها أبوها إلى دان بيان لانغ الابن الوحيد للسيد دان يان شيو أحد أشهر الأثرياء في قرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي. كانت عائلة دان تمتلك فرناً لصناعة نبيذ الذُّرة، حيث كانت تستخدم الذُّرة الرفيعة التي تشتهر بها هذه البلدة كمادّة خام رخيصة في صناعة نوع من النبيذ الأبيض، له شهرة واسعة في محيط القرية. كانت قرية دونغ بيبي تشتهر بإنتاجها الوفير جدًّا من الذُّرة الرفيعة. وكانت عائلة دان تستخدم هذه المادة الخام في صناعتها التي كانت تُدرُّ عليها ربحًا وفيرًا، فكانت أيسر عائلة على مستوى القرية. ولهذا السبب كان من عظيم الفخر لأسلافي من ناحية جدتي أن تتزوج

جدتي من الثري دان بيان لانغ. كان هناك الكثير من العائلات آنذاك تَتَمَنَّى أن تَشْرُفَ بعلاقة مع عائلة دان الثرية، على الرغم من إصابة دان بيان لانغ بالبرص. أما والده السيد دان يان شيو فقد كان شيخًا نحيفًا، تَدَدَلَى خلف رأسه ضفيرة صغيرة. وعلى الرغم من الكنوز التي كان يمتلكها، فإنه كان دائمًا ما يظهر في ثياب بالية، ويربط حول خصره حبلًا من القش. كان زواج جدتي من الابن الوحيد لعائلة دان الثرية ترتبًا من السماء.

في ذلك اليوم الذي صادف عيد تشينغ مينغ،^٢ كانت جدتي تلعب مع بعض الفتيات من سنّها، وقد بدت أشجار الخوخ في حمرة تجذب الأنظار، وكان المطر خفيفًا، وتنعكس أزهار الخوخ على وجوه الجميع، والفتيات تلهو بكل حرية. وفي ذلك العام كان طول جدتي ١٦٠ سم ووزنها ٦٠ كيلوجرامًا، وكانت ترتدي جلبابًا مزركشًا، يظهر تحته سروال من الحرير الأخضر، ويحيط بكاحل قَدَمها شريط من الحرير الأحمر. وبسبب ذلك الجو الممطر، فقد كانت جدتي تنتعل حذاءً مزركشًا من المشمع، يحدث صوتًا مسمومًا أثناء السير به. وتَدَدَلَى خلف رأسها ضفيرة طويلة لامعة، وحول رقبتها قلادة فضية ثقيلة الوزن، فقد كان والدها أحد الحرفيين العاملين في صناعة الأدوات الفضية. أما عن والدتها، فكانت سليلة أسرة إقطاعية انهارت وفقدت ممتلكاتها، كانت على دراية كبيرة بأهمية أن تمتلك المرأة قدمًا صغيرة. كان جدتي قد بدأت عملية الضغط على قدميها حتى لا تُصِبح كبيرة الحجم، حيث كانت والدتها تستخدم قطعة قماش لتلف بها قَدَمي صغيرتها، يبلغ طولها ما يزيد على واحد تشانغ (حوالي ثلاثة أمتار ونصف المتر)، وكانت تُحَكِم ربطها حول قَدَمي جدتي بطريقة كانت تَوَلِّمها كثيرًا! كانت والدتي أيضًا تمتلك قدمين صغيرتين، حتى إنني عندما كنتُ أرى قدميها أشعر بالأسف الشديد، وأودُّ أن أصيح بأعلى صوتي: لتسقط الأعراف الإقطاعية! وتحيا حرية أقدام البشر! فَلكم تَأَلَّمتُ جدتي من ذلك الصنيع بقدميها، حتى أصبحت تملك قدمين مقاس ثلاث تسون.^٤ وعندما بلغت جدتي السادسة عشرة، كان عودها قد اشتد وأصبحت تتمتع بجسدٍ جميل، وقوام ممشوق مُلَفَت للانتباه.

^٢ عيد تشينغ مينغ والذي يعني اسمه عيد الصفاء والنقاء، وهو أحد الأعياد التقليدية المهمة التي تعطل فيها الهيئات في إجازة عامة بالبلاد لمدة ثلاثة أيام. وموعد هذا العيد في الخامس من شهر أبريل كل عام. ويرجع تاريخ هذا العيد إلى عصر أسرة جيو الصينية أي حوالي ٢٥٠٠ عام. ويُسمَّى أيضًا عيد زيارة الموتى، حيث يخرج الكثيرون في هذا العيد لزيارة قبور موتاهم. (المترجم)

^٤ تسون: وحدة لقياس الأطوال في الصين قديمًا، والمتر الواحد يُعادل ٣٠ تسون. (المترجم)

وكان السيد دان يان شيون قد اختار جدتي من بين الكثير من الفتيات الحسنات أثناء جولته في القرية التي كان يعيش فيها والد جدتي. وبعد ثلاثة أشهر من تلك الجولة، حضر الهودج الذي حمل جدتي إلى دار عائلة دان الثرية.

جلسَتُ جدتي داخل الهودج المُغلق وهي تشعر بدوارٍ شديدٍ. وقد حجب الشال الأحمر الضوء عن عينيها، وفاحت منه رائحة طعام فاسد. فرفعت يدها وأزاحت الشال الأحمر قليلاً — علماً بأن والدها كان قد أوصاها مرارًا وتكرارًا بالألّا تُحرّك من تلقاء نفسها ذلك الشال الأحمر الذي سينزل من على رأسها — وبقيت الأسورة الفضية الثقيلة في يديها، وعندما رأَتُ جدتي النقوش في شكل الحية التي تزين تلك الأسورة، شعرت باضطراب شديد. وهنا هبَّتْ رياح دافئة حرّكتُ سيقان الذُّرَّة الممتدة على جانبي الطريق الترابي. وجاء من وسط حقول الذُّرَّة صوت هديل الحمام. أما سنابل الذُّرَّة التي كانت قد ازدهرت منذ وقتٍ قريبٍ، فقد تطاير عُبار طُلَّعها في جميع الأرجاء. وظهرت رسوم العنقاء التي كانت تزين ستارة الهودج، أما قماش الهودج ذو اللون الأحمر، فقد بدأ باهتًا بسبب طول كثرة تأجيره لمدة طويلة. كان حامِلُ الهودج يسيرون تحت شمس الخريف بخطوات سريعة، والرياح تُحرّكُ الجلد المربوط به ذراع الهودج الرئيسي، حتى سَرى بعض الضوء إلى داخل الهودج. وفي تلك الأثناء كانت جدتي تتصبَّب عرقًا، وقلبها يدق بسرعة، وازداد خوفها وقلقلها عندما سمعت صوت وقع خطوات حاملي الهودج وأنفاسهم السريعة.

ومنذ اليوم الذي وقع فيه اختيار السيد دان يان شيو على جدتي لتكون زوجة لابنه الوحيد، بدأ يتوافد الكثير من الأهالي على منزل والدها ليُقَدِّموا التهاني لوالد ووالدة العروس. وعلى الرغم من أن جدتي كانت قد تَمَنَّتْ قبل تلك الأيام السعيدة بعد الزواج أن تَتَنَعَّم في الذهب والفضة، فإنها كانت تَتَمَنَّى من أعماق قلبها أن تفوز بزواجٍ متعلمٍ وسيم يحسن الاهتمام بزوجته وأهل بيته. وقد رَسَمَتْ جدتي بثياب عرسها المُطرَّز لوحة جميلة لمستقبل ذلك العريس الذي أصبح جدِّي فيما بعد. ولكم تَمَنَّتْ الزواج المبكر، ولكنها شعرت بخوف شديد من ذلك اليوم بعد أن سمعت من رفيقاتها عن برّص الابن الوحيد لعائلة دان. وقد شكَّتْ جدتي إلى والدها ما يُساوِر قلبها من مَخاوف. وكان والدها يتهرب من الإجابة على تساؤلاتها، أما والدتها فقد اكتفت بسبِّ رفيقاتها، ظنًّا منها أنهن يَحْسَدْنَ ابنتها على هذا الزوج الثري. تَحَدَّثْ والدها إليها فيما بعد عن أن الابن الوحيد لعائلة دان مُتَقَفٍّ واسع الاطلاع، لا يُفَضِّلُ البقاء خارج منزله، رجل وسيم وذو أخلاق حميدة. وهكذا أصبحت جدتي في حيرة من أمرها، وهي تعتقد أنه لا يوجد في هذا العالم والدان يُضْمِران الشر

لأبنائهما. وربما يكون ما سَمِعْتُهُ مُجَرَّدَ مزاح من رفيقاتها. ومن ثَمَّ فقد عاودَت التَّطَلُّعُ إلى يوم العرس. كانت تعيش آنذاك وحدة قاسية، وكَم تَمَنَّتْ أن تقضي على هذه الوحدة بين أحضان زوج عظيم. وأخيراً جاء يوم الزواج، وجلسَتُ جدتي داخل الهودج الذي يحمله أربعة أشخاص، ويسير أمامه الطبالون والزمارون، ويترك خلفه الكثير من الأحران، حتى إنها لم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء. ومع تحرك الهودج، عَمَّت الفرحة الجميع، وحيّاً أهل القرية هودج العروس بالتصفيق والتهليل، وانتهى ذلك مع ابتعاد الهودج خارج حدود القرية، وتساوَرَت خطوات حاملي الهودج. وتسَلَّت رائحة الدُّرَّة إلى الأنوف. وتعالَت أصوات الطيور وسط حقول الدُّرَّة. ومع كثرة الضوء المنبعث إلى داخل الهودج، بدأت صورة الزوج تتضح أكثر فأكثر عند جدتي. وبدأ القلق يُساورها من جديد.

بدأت شفَتاً جدتي تتمم بالدعاء أن «احفظني يا إلهي!» وكانت شفاتها طَرِيئَتَيْن نَضْرَتَيْن. وبدأت أدعيتهما مسموعة داخل الهودج الذي يُمَيِّزُه السكون التَّام. وسَحَبَت الغطاء وغطت ركبتيها، وحسب تقاليد الزواج التي كانت مُتَّبَعَةً آنذاك، كان عليها أن ترتدي سُترة وسروالاً قطنياً جديداً في ذلك اليوم السعيد. وقد بدأ الهودج باليّا غير نظيف من الداخل. بدأ وكأنه تابوت حَمَلَ الكثير من العرائس اللائي سيصبحن حتماً فيما بعد جثثاً تُرْفُ إلى القبور. نفذت خمس ذبابات إلى داخل الهودج، رَكَزَت ثلاث منها على وجه جدتي، بينما وقفت الرابعة والخامسة على ستارة الهودج. ولم تُعدْ جدتي تتحمَّل ذلك الجو الخانق داخل الهودج، فدفعت ستارة الهودج بقدمها، وتمكَّنت من الكشف عن فتحة صغيرة تنظر من خلالها إلى الخارج. حيث رأت. أول ما رأت، أقدام حاملي الهودج الكبيرة السوداء الجميلة، ينتعلون أحذية من القش، تطأ الطريق الترابي مُحِدَّةً صوتاً مسموعاً. ومَضَتْ جدتي تتخيل النصف الأعلى من جسد هؤلاء الحَمَّالِين، وودَّت أن تكشف عن ذلك الجزء الخفي. ورأت ذراع الهودج وأكتاف الحمالين تتدلَّى تحته. ورأت حقول الدُّرَّة الممتدة على جانبي الطريق، ورأت سنابل الدُّرَّة تغطي سطح المكان وسط الحقول الممتدة إلى ما لا نهاية، وكأنها نهر يخر ماؤه خريراً. كان الطريق يضيق أحياناً، حتى إن عيدان الدُّرَّة تقترب أكثر فأكثر وتخبط حواف الهودج.

شَمَّتْ جدتي رائحة عَرَق الرجال التي تفضلها، وقد جاءتها الآن من تجاه حاملي الهودج، الذين كانوا يسرون في خطوات سريعة واسعة مُنَزَّنة، كأنهم «يَدْكُون الطريق». كانت هذه الحركات تهدف من جانب إلى جذب انتباه الطرف الذي استأجرهم، لعله يُجزل لهم العطاء، ومن جانب آخر كانت دليلاً على عملهم الجادَّ المتقن. وكانت خطواتهم السريعة

ووقع صوتها على الأرض دليلاً على قوتهم، كما كانت هذه الأصوات تلتجّم مع أصوات البوق التي تسير مع الركب، لتنسج معاً لحناً أشبه ما يكون بلحن حزين يُشير إلى المعاناة التي تعقب كل لحظة سعادة يعيشها الإنسان. وعندما وصل الركب إلى منطقة عراء فسيحة، بدأ حاملو الهودج يتصرّفون تصرّفات مريبة وبها بعض القسوة، وكان هدفهم من ذلك تسلية أنفسهم خلال هذه الرحلة الطويلة، وأيضاً بهدف إرهاب العروس لبعض الوقت. في مثل هذا الموقف، كانت بعض العرائس يصحن بأعلى صوت، ويصبن بالإغماء الشديد حتى التقيؤ الذي يملأ ثيابهن المزركشة، وأحذيتهن المطرزة بالقاذورات، في حين أن حاملي الهودج يكونون في غاية السرور بوصول العروس إلى هذه المرحلة من الخوف. وبالتأكيد فإن هؤلاء الرجال الأشداء لم يكن يروقهّم حمل مثل هذه الضحية إلى غرفة العريس.

من بين هؤلاء الرجال الأربعة الذين كانوا يحملون جدتي في تلك الليلة، كان ذلك الرجل الذي أصبح جدّي فيما بعد، إنه القائد يو جان أو. كان وقتها قد بلغ العشرين من عمره، وكان يعتبر أفضل الشباب العاملين في مجال حمل توابيت الموتى وهودج الزفاف، وكان جيل جدي من شباب قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي آنذاك، خير من يُمثّل صفات أهل هذه البلدة من الشجاعة والقوة والجسارة والإقدام، تلك الصفات التي لا مجال لأن يُقارن بها ذلك الجيل مع جيلنا الضعيف الجبان، وكان من بين الأعراف المتبعة آنذاك، أن يقوم حاملو هودج العروس بالمزاح معاً أثناء الرحلة، مثل ما قام به حاملو هودج جدتي، حيث ذكروا لها أنه كما يحق للعاملين في صناعة النبيذ تذوّقه كما يحلو لهم، فإن حاملي هودج العروس يحق لهم أيضاً إرهابها والمزاح معها كما يحلو لهم.

كانت أوراق الذرة تُخبط بين الحين والآخر حواف الهودج، وفجأة جاء صوت بكاء مسموع من مكان بعيد وسط حقول الذرة، وكسر الصوت حاجز الصمت الذي كان يخيم على الطريق الترابي. كان صوت البكاء يشبه كثيراً الألحان التي كان تشدو بها جماعة الطبالين والزمارين في بداية سير الهودج. هنا أدركت جدتي أن هذا الصوت الكئيب بالتأكيد هو صوت الآلات التي يمسك بها هؤلاء. ودفعت جدتي ستارة الهودج قليلاً لترى من خلالها حصر أحد الحمالين وقد تصبّب عرقاً. كما رأت جيّداً قدميها في الحذاء الأحمر المطرز، رأت قدميها الصغيرتين النحيفتين وقد غشاهما الضوء القادم من خارج الهودج. رأتهما وكأنهما برعمان من أزهار اللوتس، أو كأنهما زوج من صغار السمك ينام في القاع. وهنا تدلّت على جفني جدتي دمعتان رقيقتان كحبات الذرة البراقة، وسارت حتى استقرت عند حافة فمها. بدت جدتي وقد شعرت بكثير من الحزن، حيث تجلّت أمامها صورة الزوج التي

كثيراً ما رسمتها في خيالها مثل صورة أبطال الأعمال المسرحية، وبدت صورة هذا الزوج غامضة ومريبة. وعندما رأت جدتي وجه بيان لانغ الابن الوحيد لعائلة دان، رأته وجه رجل مُصاب بالبرص، شعرت ببرودة شديدة تنسّل إلى جميع أجزاء جسمها. وراحت تُفكّر في قدميها الجميلتين، ووجهها الوردي الوديع، وشخصيتها الرومانسية، أليس هذا كله سيضيع مع هذا الزوج المصاب بالبرص؟ إنها لتُفضّل الموت عن أن تواجه هذا المصير. وسمعت بعض الكلمات القادمة من ناحية صوت البكاء وسط حقول الدُّرَّة، سمعت صوتاً يردد: يا لزرقة السماء! يا لجمال الأزهار! أه من حزني على رحيلك أخي الأكبر! لقد ضاعت أختك الصغيرة بموتك يا عزيزي! إنني مضطرة لأن أبوح لك بأن صوت نَحِيننا نحن نساء قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي لهو في جمال صوت الغناء الرقيق العذب. في العام الأول بعد تأسيس جمهورية الصين الوطنية،^٥ جاءت إلى هنا جماعة من «النائحات» من عائلة الفيلسوف الحكيم كونفوشيوس من مدينة تشيو فو لدراسة نغمة النواح التي تتميز بها نساء بلدتنا. وشعرت جدتي بأن مُصادفة هذه المرأة النائحة في يوم عُرسها فأل غير طيب، وهكذا زاد شعورها بالحزن والكآبة التي بدأت تسيطر عليها. وفي تلك اللحظة خاطبها أحد حاملي اليهودج قائلاً: «أيتها العروس، فلتشاركي إخوتك الكبار الحديث، حتى لا يفتكك الشعور بالوحدة خلال هذه الرحلة الطويلة.»

سارعت جدتي بسحب الشال الأحمر وغطت وجهها جيداً، وسحبت أيضاً قدميها إلى داخل اليهودج، ليغشاه الظلام من جديد.

«فلتتغنّي بأنشودة بسيطة لإخوتك الذين يحملونك طوال الطريق!»

عندئذٍ نهض أحد الزمّارين وكأنهم أفاقوا من حلمٍ طويلٍ، وأخذ بالبوق: دنغ ... دنغ.

«مينغ دنغ ... مينغ دنغ»، بدأ أحد الرجال أمام اليهودج يُقلّد صوت البوق، وعمّ

الضحك.

تصبّب جسد جدتي عرقاً. وتذكّرت توصيات والدتها لها قبل أن تصعد إلى هذا اليهودج،

بأنه مهماً حدث فإنها لا يجب أن تنخرط في الثرثرة مع حاملي اليهودج. هؤلاء الحمالون

والزمّارون مُجرّد صعاليك، يجرءون على فعلٍ أقبح ما يتخيله المرء.

وهز الحمالون اليهودج بقوة، لدرجة أن جدتي لم تكن قادرة على الجلوس بثبات

داخله، وراحت تمسك بالمقعد الذي تجلس أعلاه.

^٥ ويقصد به العام الذي أعلن فيه تأسيس سلطة سياسية جديدة، ويُشير هنا إلى عام ١٩١٢م. (الترجم)

- «لا يوجد أي صوت؟ استمّروا، فإن لم نسمع صوتها، فإننا حتماً سنسمع صوت جريان بولها!»

بدأ الهودج يتحرّك بقوة وكأنه قارب صغير تقذفه الأمواج العاتية، وجدتي تتشبّث بكل ما في وسعها بحواف المقعد، وبدأت تسمع أصوات طعام الإفطار في بطنها، وأحسّت بإغماء شديد. لا يمكن أن أتقياً! لا يمكن أن أتقياً! وراحت تأمر نفسها بضرورة أن تتماسك حتى النهاية وهي تُحدّث نفسها، عزيزتي جين ليان يذكر الجميع أن التقيؤ داخل هودج الزفاف فالّ غير طيب على الإطلاق، وأنك إذا وقعت في هذا الخطأ، فلن تنعمي طيلة حياتك بالخط السعيد.

بدأ كلام الحمالين يصبح أكثر همجية، فمنهم من كان يلعن والدها بأنه إنسان وضعي يضحى بأغلى ما يملك أمام المال، ومنهم من كان يردد: الغراب زوجوه من أحلى يمامة، ومن كان يردد أن العريس دان بيان لانغ مُجرّد أبرص لا حيلة له ولا قوة. وراحوا يُردّدون معاً أنه يمكن للواقف في فناء دار عائلة دان أن يشم رائحة اللحم المتعفّنة، وأن هذا الفناء يعج بالذباب في جميع أرجائه.

- «أيتها العروس الصغيرة، حذارٍ أن تسمحي لذلك الأبرص أن يقترب منك، فأنت الخاسرة إذا وقع ذلك!»

اشتد صوت البوق، وكانت جدتي لا تزال تُجاهد الصراع داخل بطنها خوفاً من التجشؤ أو التقيؤ، وفجأة انهارت عزميتها، وأخرجت جميع ما في جوفها، امتلاً داخل الهودج بالقاذورات.

- «استمّروا، استمّروا! فإنها ستنتطق إن عاجلاً أم آجلاً.»
وأخيراً سمعوا صوت جدتي تستغيث: «أيتها الأخوة الأعزاء ... ارحموني»، ثم أجهشتُ بالبكاء بصوتٍ مرتفعٍ. وأحسّت بأنها ليست سوى امرأة مظلومة، وأنه ينتظرها مستقبل مُظلم، ولن يكون بإمكانها أن تنجو منه إلى الأبد. وراحت تولول يا أبتاه، يا أماه، أيها الأب الطماع، أيتها الأم القاسية، لقد دمّرتم مستقبلتي.

ومع ارتفاع صوت بكاء جدتي، واهتزاز عيدان الذرة بقوة، توقّف هؤلاء الحمالون والزمارون عن المزاح والسخرية من العروس والعريس. وبقي فقط صوت بكائها الذي كان أجمل من صوت بكاء أي امرأة أخرى. وفجأة توقّفت عن البكاء وراحت تستمتع بصوت الموسيقى القادم من مكانٍ بعيدٍ. في تلك الأثناء، تناثرت المساحيق على وجهها وترقرق

الدمع في عينيها، وأحسَّت في هذا الجو الكئيب بأنها سمعت صوت الموت، وشمَّت رائحته، ورأت وجه ملك الموت الباسم.

هنا سكت الحَمَّالون، وتناقلت خُطاهم. وتلاقت أصوات تلك الضحية المسكينة داخل الهودج مع الألحان الحزينة خلف الهودج، مما جعل هؤلاء في حيرة واضطراب شديد. وبدا هذا الرُّكْب وكأنه ليس لزفاف عروس إلى بيت عريسها، وإنما هو أشبه بتشييع جنازة. أما ذلك الرجل الذي كان على مقربة من أقدام جدتي، والذي أصبح جدِّي فيما بعد، فقد أحس بإحساس لم يعهده من قبل، إحساس حار سَرَى في داخله وأثار مستقبله. وأخيراً أثار صوت بكاء جدتي مشاعر الشفقة في أعماق قلبه.

وفي منتصف الطريق وقف الرُّكْب للراحة، وأنزل الحَمَّالون الهودج على الأرض. وأحسَّت جدتي بالدوار من كثرة البكاء وشِدَّتته، حتى سقطت إحدى قدميها إلى خارج الهودج. فنظر الحَمَّالون على الفور إلى هذه القدم الصغيرة الجميلة، وتاهوا في سحر هذا الجمال الرائع. وتقدم يو جان أو وأمسك بقدم جدتي بكل رفقٍ وحُنوٍ، وكأنه يمسك بعصفور صغير لم يجتمع ريشه بعد، ثم أعادها برفق إلى داخل الهودج. وتأثَّرت جدتي كثيراً بهذا اللطف، وودَّت أن تزيح ستارة الهودج لتنظر إلى هذا الحَمَّال صاحب اليد الكبيرة الحانية.

أعتقد أن القَدْر كان قد شاء وربَّت لهذا اللقاء، فلقد تَسبَّبَتْ لمسات ذلك الحَمَّال يو جان أو في تفجير طاقات الإحساس الكامنة داخل جدتي، ومنذ تلك اللحظات تَغَيَّرَتْ حياتهما معاً.

وواصل الرُّكْب السير، وبدأ الزمار عمله، ثم عم الصمت من جديد. وهبَّت رياح شمالية شرقية، وتجمَّعت الغيوم وامتلأت السماء بالسحب الداكنة، وحجبت الضوء عن الهودج الذي بدا مظلمًا. وسمعتُ جدتي حركة عيدان الدُّرَّة تتحرك بشدة بفعل الرياح العاتية، ثم سمعتُ صوت رعد. وأسرع الحَمَّالون الخُطى. لم يكونوا قد اقتربوا بعدُ من منزل عائلة دان، ولم تكن جدتي تعلم عن ذلك شيئاً، فقد كانت مثل دابة مربوطة، يزداد سكونها وصمتها كلما اقترب موعد ذبحها. كانت جدتي تَدُسُّ داخل صدرها مقصاً حاداً، ربما كانت قد أعدَّتَه للعريس دان بيان لانغ، وربما أعدَّتَه لنفسها.

أما حكاية اختطاف هودج جدتي عند نفق الضفادع، فكان حدثاً مهماً في تاريخ حكايات العائلة. كانت منطقة نفق الضفادع عبارة عن منخفضٍ كبيرٍ يتميز بخصوصية أرضه ووفرة مياهه، وكانت الدُّرَّة في تلك المنطقة كثيفة أكثر منها في غيرها من المناطق

المجاورة. وعندما وصل هودج جدتي إلى هذا المكان، كانت الغيوم قد غطت السماء، واشتد دَوِيّ البَرْق. وكان الحَمَّالون يلهثون وقد تصببت أجسادهم بالعرق. وعندما دخلوا في نفق الضفادع، انعكس الظلام داخل المكان وعمَّ الظلام حقول الذُّرَّة المجاورة، وكأن الأعشاب البرية قد سدَّت الطريق. كانت هناك مساحة كبيرة من نبات الأَقْحوان، ظهرت سيقانه بالألوان البنفسجي والأزرق والوردي والأبيض. وكان صوت نقيق الضفادع داخل حقول الذُّرَّة مرعبًا، ثم صاحبه صياح الثعالب. شَعَرْتُ جدتي داخل الهودج برجفة شديدة، أَحَسَّتْ وكأن جَسَدَهَا قد تَغَيَّرَ وظهر على جلدها ورم لم تَرَهُ من قبل. لم تكن تعلم أي شيء عمَّا يحدث حولها، وهنا سمعت صوت رجل يصيح أمام الهودج بصوت مرتفع قائلاً: «ادفعوا رسوم عبور الطريق!»

دَقَّ قلبها، ولم تَدْرُ أترفح أم تحزن، يا إلهي، أخيرًا صادفنا بشرًا!

كانت جماعات قُطَاعِ الطُّرُق تنتشر بكثرة في قرية دونغ ببي، حتى إن ظهورهم وسط حقول الذُّرَّة كان أمرًا عاديًّا، وكان لديهم العدة والعتاد، وكانوا لا يَتَوَرَّعون عن فعل أي شيء، بل كانوا أيضًا يفعلون شتى الأفعال الخيرة. في يوم من الأيام، شعر أفراد إحدى عصابات قُطَاعِ الطُّرُق بالجوع، فَهَمُّوا بالقبض على شخصين، واعتقلوا أحدهما، وأطلقوا سراح الآخر، وجعلوا الشخص الذي أطلقوا سراحه يرجع إلى القرية لينشر خبر القبض على زميله، ويحضر لهم فطيرتين كبيرتين محشوتين بالبيض والبصل. وكانوا أثناء تناوُل هذا النوع من الفطائر يمسكون قطع الفطير بكلتا يديهم، ومِن ثَمَّ فقد أُطلق على هذا النوع من الفطائر: «الفطائر التي تؤكل باليدين.»

صاح أحدهم: «عليكم بتقديم رسوم عبور الطريق!»، فتوقَّف حاملو الهودج، وراحوا ينظرون إلى قاطع الطريق بكل ذهول. وكان ذلك الرجل قصير القامة، أسمر الوجه، يرتدي أعلى رأسه قبعة مصنوعة من شرائح عيدان الذُّرَّة، ويلبس معطفًا كبيرًا من القش، وترك معطفه مفتوحًا، وكشف عن لباس أسود وحزام عريض ملفوف حول خصره، مشبوك به شيء ما ملفوف بقطعة قماش من الحرير الأحمر. وقد استخدم ذلك الرجل إحدى يديه وضغط على تلك اللقافة.

هنا، وفي لمح البصر، أَحَسَّتْ جدتي بأن الأمر لا يدعو للخوف، فماذا تخشى بعد أن أصبحت لا تخشى الموت ذاته؟ أزاحت الستارة قليلًا ونظرت إلى قاطع الطريق.

وعاد الرجل يصيح ثانية: «عليكم بتقديم رسوم عبور الطريق! وإلا فإنني سأقضي عليكم!»، وراح يضرب على ذلك الشيء الملفوف حول خصره.

أخرج الرِّمَّارون على الفور رُزْم النقود النحاسية التي كانوا قد حصلوا عليها من والد جدتي، وألقوا بها أمام ذلك الرجل. وأنزل الحمالون اليهودج وأخرجوا جميع ما في جيوبهم من نقود، وألقوا بها أمام الرجل.

ومدَّ الرجل قدمه، وسحب بها النقود الملقاة أمامه، وعيناه لا تكاد تتوقف عن النظر إلى جدتي التي كانت لا تزال داخل اليهودج.

وعاد يضرب على ذلك الشيء المختبئ بيده وهو يصيح: «أسرعوا جميعاً خلف هذا اليهودج، وإلا بادرت بإطلاق النار!»

سار الحمالون ببطء وتردَّد إلى حيث أمرهم. وكان يو جان أو يسير في مؤخَّرتهم، وقد استدار بجسده بشجاعة، ونظر إلى ذلك الرجل أكل الفطائر باليد، فتغيرت ملامح الرجل للتو، وراح يقبض على ذلك الشيء المختبئ، ثم صاح: «لا تنظر إلى الخلف، وإذا فعلتها ثانية سأقتلك في الحال!»

وضغط الرجل على الشيء المختبئ عند خصره، وتقدم خطوة إلى الأمام نحو اليهودج، ومد يده وأمسك بقدم جدتي. فأشرقت الابتسامة على شفيتها، ثم خطف الرجل يده بسرعة وكأنها قد لامست ناراً حامية.

وقال الرجل: «انزلي عن اليهودج، واتبعيني!»

بقَّيت جدتي جالسة في مكانها، وتجمدت الابتسامة على وجهها.

– «انزلي عن اليهودج!»

نهضت جدتي قليلاً، وتحركت عن مقعدها، وتجاوزت عمود اليهودج، ثم وقفت عند أزهار الأقحوان المشرقة. وكانت تنظر بعينها اليمنى إلى ذلك الرجل أكل الفطائر، وباليسرى إلى الحمالين والزمارين.

وضغط الرجل على ذلك الشيء، ثم قال: «اتجهي إلى داخل حقول الذُّرَّة!»

فوقفت جدتي في مكانها، وقد اختفت ابتسامتها المشرقة.

راح الرجل يحثها على التوجه إلى داخل حقول الذُّرَّة، ويده لا تكاد تفارق ذلك الشيء المختبئ عند خصره. فراحت جدتي تنظر إلى يو جان أو نظرات تُعبِّر عن قلقها وخوفها من قاطع الطُّرق.

فتوجه يو جان أو نحو الرجل وهو منتصب القامة، وشفاته النحيفتان مشدودتان، واحدة إلى أعلى والأخرى إلى أسفل.

«قف مكانك!» صاح الرجل بقوة، ثم استمر في تهديده: «إذا تقدَّمت خطوة ثانية فسأطلق عليك النار!» وكانت يده تضغط بشدة على ذلك الشيء.

فسار يو جان أو في هدوءٍ نحو الرجل، وكلما تَقَدَّم يو خطوة إلى الأمام، تراجع الرجل خطوة إلى الخلف. وتطاير الشرر من عينيه، وبدأ العرق ينزل على وجهه. وعندما كان يو جان أو على بُعد ثلاث خطوات منه، صرخ صرخةً مؤلمةً ثم فر هاربًا. فلاحقه يو جان أو وركله بقدمه في مُؤخَّرته ركلة قوية. فتخبط الرجل قاطع الطريق في الأعشاب البرية، وقفز على نبات الأَقْحوان، وطار مثل الطفل البريء إلى داخل حقول الذُّرة.

«العفو يا سيدي!» إن من بين أفراد أسرتي عجوزًا بلغت الثمانين تنتظرني أعود لها بهذه الوجبة. وهكذا كان قاطع الطريق يطلب العفو من يو جان أو بعد أن وقع في قبضته. فأمسك به يو جان أو، ودفعه إلى أمام الهودج، ثم ألقى به على الأرض، وأتبعه بركلة قوية في فمه. فتألم الرجل ألمًا شديدًا، وراح ينزف دمًا من أنفه.

فانحنى يو جان أو قليلًا واستل الشيء الذي خبَّاه قاطع الطريق في خصره، ونفض تلك القماشة الحمراء عن خصر الرجل، ليخرج منها كتلة من الأعشاب الصغيرة. وهنا لم يتوقف الجمع عن التأوه.

وسقط الرجل على الأرض، وراح يسجد أمام يو جان أو يطلب منه الصَّفْح. فقال يو جان أو: «جميع قُطَاع الطُّرُق يذكرون أن هناك عجوزًا في الثمانين تنتظرهم في منازلهم.» ثم تراجع إلى الخلف، ونظر إلى الحَمَّالين والزَّمَارين، وكأنه قائد مجموعة من الكلاب يتشاور مع رفاقه حول أمر ما.

تجمَّع الحَمَّالون والزَّمَارون وكَوَّنوا دائرةً صغيرةً، ثم التفوا حول قاطع الطريق، وأوجعوه ضربًا وركلاً. حتى لم يُعَد أحد يسمع صوت بكائه وطلبه الصفح كما كان عليه منذ قليل. ووقفت جدتي على جانب الطريق تستمع إلى صوت الهجوم على الرجل. ونظرت إلى يو جان أو نظرة خاطفة، ثم راحت تنظر إلى البرق في السماء والابتسامة تكاد لا تفارق وجهها.

ورفع أحد الزمارين البوق وضرب به قاطع الطريق على رأسه، فانغrust حافة البوق داخل رأس الرجل، حتى استلبها الزمار بعد معاناة. فراح الرجل يصرخ ويَنلَوِي، ثم ارتدى على الأرض. وبدأ الدم يتدفق ببطء من جرحه الغائر.

قال الزمار وهو ممسك بالبوق: «هل مات الرجل؟»

— «نعم مات، فلم يستطع هذا الوضع أن يتحمَّل كل هذا الضرب!»

وبدت على وجوه الحَمَّالين والزمارين علامات الحزن والقلق.

نظر يو جان أو إلى الميت، ثم إلى الأحياء من حوله، ولم ينبس ببنت شفة. ومد يده إلى حقول الذُّرة وقطع ورقة من عيدان الذُّرة الطويلة وراح ينظف بها تلك القاذورات التي

كانت تَقِيَّأْتُهَا جدتي داخل الهودج، ثم عاد يتفحص تلك الكتلة التي كانت تختبئ عند خصر قاطع الطريق، ثم دفعها بقوة حتى سقطت قطعة القماش التي كانت تلف بها على الأرض، وظهرت وكأنها طبق كبير أحمر اللون سقط أعلى سيقان الدُّرَّة الخضراء. وساعد يو جان أو جدتي حتى صعدت إلى الهودج، ثم قال: «لقد بدأت السماء تمطر، هيا نسرع!»

مدت جدتي يدها وقطعت جزءاً صغيراً من ستارة الهودج، وألقت بها إلى زاوية داخل الهودج، وراحت تننفس هواء الحرية، وتنظر عبْر هذا الثقب إلى كنفى يو جان أو العريضة وخصره النحيل. فلقد كان يو على قُرْب منها، فما إن تمد قدمها، حتى يكون في استطاعتها ملامسة رأسه القوي الأسمر.

وزادت شدة الرياح، وبدأت سيقان الدُّرَّة تتلاطم بقوة، ودفعت الرياح سيقان الدُّرَّة إلى وسط الطريق، وكأنها جاءت لتقدم التحية إلى جدتي داخل هودجها. كان الحمالون يطيرون بأقصى سرعة، ولكن الهودج على غير العادة كان يبدو متزناً وكأنه قارب صغير ينزلق بفعل الموج. وبدأت تسمع صوت نقيق الضفادع، التي راحت تُعبّر عن ترحيبها بالمطر الغزير. ونظرت إلى أعلى حقول الدُّرَّة لترى البرق يضيء ويلمّع سماءها، وزلزل صوت الرعد أرجاء المكان. أثر هذا كله في جدتي، وراحت تنظر بشجاعة إلى حقول الدُّرَّة الممتدة أمامها. كانت أول موجة من مياه المطر قد هزّت سيقانها هزّاً عنيفاً، واقتلعت الحشائش الصغيرة من مكانها، وحملت معها التراب الذي تجمّع في كتل صغيرة راحت تضرب سقف الهودج. وراحت مياه الأمطار تضرب حذاء جدتي ورأس يو جان أو، ثم وصلت إلى وجه جدتي.

وفر يو جان أو ورفاقه مُسرّعين مثل الأرناب الجبانة، ولكنهم لم يستطيعوا التّخفّي من نوبة المطر الشديدة وقت الظهرية. والتي أسقطت عدداً كبيراً جداً من سيقان الدُّرَّة. كانت قطرات المطر تنزل بجنون، وكانت جماعات الضفادع تختبئ تحت سيقان الدُّرَّة، والثعالب تجلس متربصة في كهوفها، وهي تنظر إلى قطرات المطر التي تنزل بشدة على حقول الدُّرَّة. وتحوّل الطريق بسرعة إلى بركة من الوحل، وأنحنت الأعشاب على جانبي الطريق، وغرقت نباتات الأقحوان. واشتد تلاصق سراويل الحمالين الكبيرة الفضفاضة بأجسادهم، حتى بدوا جميعاً ممشوقي القوام. أما رأس يو جان أو فقد غسلته مياه الأمطار جيداً، حتى أصبحت تبرق مثل بريق عيني جدتي. وبللت الأمطار ملابس جدتي.

وعلى الرغم من أنه كان بإمكانها أن تنزل ستارة الهودج لتحمي نفسها من المياه، فإنها لم تفعل ذلك، استطاعت من خلال هذه الفتحة أن ترى عالماً كبيراً يعج بالفوضى.

٦

مضى أبي يقتلع بعض أعواد الذُّرة مفسحاً الطريق أمام نفسه، وهو يسير بسرعة نحو قريننا صوب الشمال الغربي. ولم يكن أبي يبالي بأعواد الذُّرة الكثيرة التي كانت تعترض طريقه. وعندما بلغ الطريق الترابي، تحرَّر من مضايقة أعواد الذُّرة، وانطلق مسرعاً إلى وجهته، ومسدسه الثقيل لا يزال مربوطاً عند خصره. وقد كان المسدس يتسبب له في بعض المعاناة أثناء سيره وسط حقول الذُّرة، التي اجتازها أبي بنجاح، مما جعله يشعر بأنه قد أصبح رجلاً قوياً يشق طريقه وسط الصعاب رافعاً سلاحه. لاحت أمامه قرينته من بعيد، وأحس كأن أشجار الفواكه العتيقة تقترب منه لتستقبل هذا البطل العائد من الرحلة الطويلة. أخرج أبي مسدسه ورفع بيده وراح يجري وينظر إلى الطيور التي كانت تحلق في السماء.

بدأت شوارع القرية خالية تماماً من البشر، غير أنه رأى حماراً أعرج أعمى مربوطاً هنالك إلى إحدى الحيطان المصنوعة من الطين، وكان الحمار متسمرًا في مكانه يبدو كئيباً مهموماً. سقط من السماء زوج من الغربان، وكان أهل القرية يتجمعون هنالك في ساحة واسعة أمام فرن النبيذ الخاص بعائلي، وكانت هذه الساحة دائماً ممتلئة بأكوام الذُّرة التي تقوم عائلي بجمعها من الفلاحين، كانت جدتي تظهر ممسكة بالمنشة وتنشغل بتنظيف الذُّرة المكومة داخل هذه الساحة، وتشاهد العمال الذين كانوا يقومون بحمل الذُّرة على ألواح خشبية، بينما تنعكس السحب الوردية على وجهها. ولم يكن أي من الأطفال الذين هم في عمر أبي آنذاك يجرؤ على إثارة الفوضى في هذا المكان.

كان أبي قد تسلل إلى هذه الساحة، وفي مواجهته الجزار سون وو الذي كان قد تولى في العام الماضي سلخ الجد لوو خان. وكان الجزار سون قد أصيب عَقِب فعلته هذه باضطراب نفسي شديد، دائماً يرقص ويصفق، وعيناه زاهلتان، ولُعابه يسيل، ولا يتوقف عن الهذيان وهو منبطح على الأرض يصيح بأعلى صوته: «أخي الأكبر، أخي الأكبر، أخي الأكبر، أجبرني القائد المُعتدي على ما فعلتُ، ولم أكن أجروُ على عدم الطاعة ... صعِدت بموتك إلى السماء، لتكون مع القديسين.» وعندما رآه أهل القرية بهذه الحالة، تناسوا ما كانوا يضمرونه له

من كراهية شديدة. كان الجزار سون قد أصيب بأعراض جديدة بعد جنونه ببضعة أشهر، عيناه دائماً تبدو شاردة ومُخاطه يسيل بلا توقف، ويهذي بكلام غير مفهوم. وكان أهل القرية يقولون إن هذا الذي حلَّ به إنما هو عقاب السماء.

تسلل أبي إلى داخل الساحة ممسكاً بمسدسه، وقد غُطِّي رأسه بدقيق سنابل الدُّرَّة. أما الجزار سون فقد ألقى بنفسه إلى داخل الساحة في ثياب بالية قدرة، وجسده ممتلئ بالتجاعيد، وهو في غاية التعب، ولم يهتم أحد بظهوره. اهتموا فقط بأبي هذا البطل الشجاع.

وتقدَّمت جدتي إلى أمام هذا البطل الصغير. وكانت قد بلغت منذ وقت قريب الثلاثين من عمرها، على رأسها بعض دبائيس الشعر، وخصلات شعرها تنزل على جبهتها الجميلة. أما عينها فقد كانت على الدوام تبدو صافيتين مثل مياه الخريف، ويذكر البعض أن السبب في ذلك هو أنها كانت لا تفيق من السكر بنبيذ الدُّرَّة. تحوَّلت جدتي خلال هذه الأعوام الخمسة عشرة من صبيبة فاتنة إلى سيدة ماجنة.

وسألت جدتي ابنها: «ما الذي جاء بك؟»

فراح أبي يُحكِم وضع المسدس داخل حزامه وهو يلهث بشدة.

عاودت جدتي تسأله: «ألم يأت اليابانيون؟»

فردَّ أبي: «إنها قوات القائد الملعون لينغ ماتزه، وإننا لن نرحمه!»

سألت جدتي: «ما الذي حدث؟»

فأجاب أبي: «يأمر القائد يو بإعداد الفطائر.»

قالت جدتي: «لن نسمع صوت أي مصادمات!»

وقال أبي: «نطلب إعداد الفطائر، وأكثروا من الحشو بالبيض والبصل.»

فسألت جدتي: «لم يأت الشياطين اليابانيون بعد؟»

– «يأمر القائد يو بإعداد الفطائر، وأن تحضرها بنفسك إلى هناك!»

قالت جدتي: «فلتعدُّن الآن أيتها الأخوات وتبدأن في جمع الدقيق لإعداد الفطائر التي

يحتاجون إليها.»

استدار أبي بجسده قليلاً، وهم أن يفرَّ مسرعاً، فأعاقته جدتي بيدها وقالت: «يا

صغيري دوو قوان، فلتخبر والدتك، ماذا حدث من القائد لينغ ماتزه؟»

تخلص أبي من يد جدتي، ثم قال بلهجة عنيفة: «لم نعر على أي أثر لقوات لينغ

ماتزه، وتوعدهم القائد يو جان أو بأنه لن يرحمهم.»

وفراً أبي مسرعاً. ومضت جدتي تلاحقه، وهي تلهث بشدة. وفرغت الساحة ممن فيها، وبقي الجزار سون مُتسمِّراً في مكان يركز النظر إلى جدتي، ويدها لا تتوقفان عن الحركة، ولعابه يسيل بغزارة.

ولم تُعَرِّه جدتي أدنى اهتمام، وتوجَّهت نحو فتاة ذات وجهٍ طويلٍ كانت تقف هناك إلى جانب الحائط. فابتسمت الفتاة صاحبة الوجه الطويل لجدتي. وعندما اقتربت منها جدتي، جلست الفتاة فجأة على الأرض، وراحت تضغط بكلتا يديها على حزام بنطالها، ثم أجهشت بالبكاء. بينما كان الشرر واللهب ينبعث من عينيها المُتقدِّتين. لمَسَت جدتي وجهها برفقٍ، ثم قالت: «حبيبتي لينغ تزه، لا تخافي يا حبيبتي.»

كانت الفتاة لينغ تزه ذات السبعة عشر عاماً أجمل فتاة في قريتنا. وعندما بدأ القائد يو جان أو في تجهيز قواته، كان قد جمع فريقاً قوامه ما يزيد على خمسين رجلاً من رجال القرية، كان من بينهم شابٌ نحيف في زي أسود، ينتعل حذاءً جلدياً أبيض اللون، ذو وجه شاحب، وشعر طويل أسود. ويُحكى أن الفتاة الجميلة لينغ تزه كانت تُعشِّق هذا الشاب. وكان الشابُ يتحدَّث بلهجة بكين الجميلة الواضحة، كان دائماً ما يبدو عبوس الوجه، وقد ملأت التجاعيد وجهه من كثرة التَّكشير، وكان الجميع ينادونه بالسيد رن نائب القائد. وكانت الجميلة لينغ تزه تشعر بأن خلف مظهره الخارجي الوسيم قوة جذب فائقة تشدها إليه، في ذلك الحين كانت فرقة القائد يو تداوم يومياً على التدريب أعلى الهضبة التي تستخدمها عائلتي في جمع الذُّرة لصناعة النبيذ. وكان السيد الزمَّار ليو سه شان يقوم بعمل جندي الإشارة بفرقة القائد يو. ويقوم بالنفخ في البوق ليجمع أعضاء الفرقة قبل كل تدريب. وكانت الجميلة لينغ تزه بمجرد أن تسمع صوت البوق، تخرج من منزلها مُسرعة نحو هذه الساحة، وتتسلق السور الترابي وتنتظر رؤية نائب القائد رن. كان نائب القائد هو المُدرِّب المسئول لأعضاء الفريق، وكان يضع حول خصره حزاماً جلدياً واسعاً يُعلَّق فيه المسدس الخاص به.

تقدَّم نائب القائد أمام أعضاء الفريق نافخاً صدره، وصاح أن استعدوا جميعاً، فلبَّى الجمع نداءه، واصطفوا جيداً في صفين متوازيين تماماً.

قال نائب القائد: «عند الاستعداد يجب أن تكون أرجلكم مستقيمة مع شفت البطن للداخل، ويكون الصدر منفوخاً ومشدوداً جيداً، والعينان مفتوحتان، مثل الفهد في حالة انقضاضه على الفريسة.»

«أه منك أيها الحيوان!» ركل نائب القائد وانغ بيبي ون ركلة، ثم قال: «انظر إلى فتحة رجلك، وكأنك بغل يستعد للتبول، ليس صعباً أن أكسرها لك أيها الحيوان.»

كانت الجميلة لينغ تزده تحب أن ترى نائب القائد وهو يضرب أعضاء فريقه، وتحب أيضًا سماع توبيخه وسبابه لهم. كانت تعبيرات وجهه تسيطر عليها تمامًا. وعندما يكون نائب القائد غير منشغل بأي عمل من أعمال التدريب، كنت دائمًا ما تراه داخل هذه الساحة الفارغة في فناء عائلتي وهو يَتَمَشَّى واضعًا يديه خلف ظهره، بينما الجميلة لينغ تزده تختبئ خلف السور الترابي لتتمتع برؤيته عن قرب.

سألها نائب القائد: «ما اسمك أيتها الفتاة؟»

– «لينغ تزده.»

– «وماذا تفعلين خلف السور؟»

– «أنظر إليك.»

– «هل تجيدين القراءة والكتابة؟»

– «لا أجيد.»

– «هل ترغبين في العمل كجنديّة؟»

– «لا أرغب.»

– «أوه، لا ترغبين!»

وقد شعرت لينغ تزده بعد ذلك بالندم الشديد، وقالت لأبي إنه إذا عاد نائب القائد يسألها نفس السؤال، فستجيب بأنها ترغب في العمل كجنديّة. ولكنه لم يسألها هذا السؤال مرة ثانية.

وانبطحت لينغ وتزده مع أبي أعلى السور، وراحا ينظران إلى نائب القائد وهو يقوم بتعليم أعضاء الفريق التغني بالأغاني الثورية، كان أبي قصير القامة، يقف أعلى ثلاث قطع من الطمي حتى يتمكن من رؤية المشهد داخل السور. أما لينغ تزده فكانت تسند ذقنها على السور الترابي وتُحدِّق النظر في نائب القائد. بينما نائب القائد ينشغل بتعليم أعضاء الفريق أنشودة:

«لقد نضجت الدُّرَّةُ، لقد احمرت الدُّرَّةُ، وجاء الشياطين اليابانيون، وجاء الشياطين اليابانيون. وتدمرت البلاد، وهلك العباد، فانفضوا أيها الرفاق، احملوا خناجركم وأسلحتكم، قاتلوا الشياطين واحموا بلادكم.»

كان جميع أعضاء الفريق ثقيلي اللسان، لا يستطيعون إتقان كلمات هذا النشيد الثوري. أما الأطفال الذين كانوا يراقبون التدريب من أعلى السور، فكانوا يتقنون هذه الكلمات جيدًا. وكان أبي طيلة حياته يحفظ هذا النشيد جيدًا.

ذات يوم تجرأت الجميلة لينغ تزه وخرجت تبحث عن نائب القائد، ودخلت بطريق الخطأ إلى غرفة رئيس قسم المهمات العسكرية بالفرقة. كان الرجل يدعى يودا يا العم الشقيق للقائد يو جان أو، تجاوز الأربعين من عمره، وكان رجلاً شهوانياً يعشق الخمر والمال، وفي ذلك اليوم كان قد أفرط في الشراب حتى بلغ أقصى درجات السكر، فما إن رأى الجميلة لينغ تزه في غرفته، حتى انقض عليها مثل الثور الهائج.

وأمر نائب القائد بعض رجاله بالقبض على السيد يودا يا الذي اعتدى على الفتاة لينغ تزه.

خلال وقوع هذه الواقعة، كان القائد يو جان أو يستريح في منزله، وعندما ذهب نائب القائد السيد رن إليه ليخبره بما حدث، كان القائد يو نائباً في غرفة جدتي. وأثناء انشغال جدتي بإعداد بعض الطعام والنبيد، دخل نائب القائد فجأة إلى فناء الدار، فانتفضت جدتي مذعورة.

وسألها نائب القائد: «أين القائد يو؟»

– فأجابت: «نائم بالداخل!»

– «أيقظيه على وجه السرعة.»

فراحت جدتي توقظ القائد يو.

خرج القائد يو من الغرفة، ولم يكن قد أفاق من نومه تماماً، وراح يميل بجسده ويتثائب، ثم قال: «ماذا حدث؟»

فسأله نائب القائد: «أيها القائد، ما قولك إذا اعتدى أحد اليابانيين على أخواتي، أليس يحق لي أن أقتله؟»

أجاب القائد يو: «اقتله!»

– «أيها القائد، وما قولك إذا اعتدى أحد الصينيين على أخواته، أليس يحق لنا قتله؟»

– «نعم يحق لنا ذلك!»

«حسناً أيها القائد، وقد كنت أنتظر ردك هذا.» ثم قال نائب القائد: «لقد اغتصب يودا

يا المواطنة تساو لينغ تزه، وقد أمرت الرفاق بأن يقبضوا عليه ويحكموا وثاقه.»

قال القائد يو: «هل حدث هذا بالفعل؟»

– «أيها القائد، متى ننفذ الحكم؟»

تثائب القائد يو، ثم قال: «أن يقضي الرجل وقتاً بجوار امرأة، فإن هذا لا يُعد قضية

كبرى.»

– «أيها القائد، إذا ارتكب الملك خطأ فلا بد أن يُحاسب على خطئه مثل الرعية!»
 فسأل القائد يو وقد بدا عابساً: «وماذا ترى في الحكم عليه إنذا؟»
 ردَّ نائب القائد في الحال: «الرمي بالرصاص!»
 تأوَّه القائد يو، وراح يتقدم نحوه وهو في غاية القلق. وعاود الابتسامه مرة أخرى،
 ثم قال: «السيد رن نائب القائد، ما رأيك في أن نحكم عليه بالجلد خمسين جلدة أمام أعين
 الناس، ونقدم لعائلة المواطنة لينغ تزه عشرين دا يانغ؟»
 قال نائب القائد بلهجة ساخرة: «أهذا الحكم لأنَّ الجاني عمك أيها القائد؟»
 – «نحكم عليه بالجلد ثمانين جلدة، ونحكم عليه بأن يتزوج الفتاة لينغ تزه، وأعترف
 بها أنا شخصياً عمه لي!»
 فك نائب القائد حزامه، وأخرج مسدسه، وألقى به إلى القائد يو. وانحنى نائب القائد
 أمام القائد يو وهو يضم يديه مقدماً له التحية، ثم قال: «أيها القائد يو، فلنفتق!» ثم
 خطا خطوات سريعة إلى خارج فناء عائلتي.
 وحمل القائد يو المسدس، ونظر إلى ظل نائب القائد، ثم قال وهو يعض على أسنانه:
 «فلترحل إلى الجحيم، لست سوى تلميذ حقير، وتودُّ أن تتدخل في اختصاصاتي! لم يجرؤ
 أحد على هذا منذ أن تولَّيتُ مهامِّي قبل عشر سنين مضت.»
 قالت جدتي: «جان آو، يجب أن توقف نائب القائد ولا تدعه يرحل، إنه يتمتع بكفاءة
 وخبرة يصعب تعويضها.»
 فرد القائد يو بصوت متذمر: «وماذا تفهم تلك المواطنة البسيطة!»
 فأجابته جدتي: «كنتُ أحسبك رجلاً شهماً، ولم أتوقع أنك أيضاً مجرد شخص تافه
 ليس له في العير ولا في النفير!»
 سحب القائد يو المسدس، ثم قال: «هل سئمت حياتك أيتها المرأة؟»
 فسارعتُ جدتي وقطعتُ حمالة صدرها، وكشفت له صدرها، وواجهته بشجاعة
 قائلة: «فلتطلق الرصاص إنذا!»
 هنا صاح أبي على أمه بصوت عالٍ، ثم ارتمى في حضنها.
 وعندما رأى القائد يو جان آو حُسن خلق أبي وحنو وجمال جدتي، تداعت إلى ذهنه
 الكثير من الأحداث والذكريات الماضية. فتتهد قليلاً، واستعاد مسدسه، ثم قال: «استُري

^٦ دا يانغ: وحدة عملة من الفضة كانت تُستخدَم في الصين قديماً. (الترجم)

نفسك!» وأخذ سوطه وخرج إلى الفناء، ووصل إلى إسطبل الحيوانات وفك حصانه الأصفر، وركبه في عجلة متوجّهاً إلى ساحة التدريب.

كان أعضاء الفرقة يجلسون على سور الساحة، وما إن رأوا القائد يو جان أو حتى انتفضوا وقاموا لتحيته، وخيم عليهم الصمت.

كان يودا يا المتهم بالاعتداء على الفتاة مربوطاً من ذراعيه إلى جذع شجرة.

ونزل القائد يو عن حصانه، وترجل أمام يودا يا، ثم قال: «أحقاً فعلت ما ذكروا لي؟» فرد يو دا يا: «ابن أخي الحبيب، فكّ وثاق عمك، وسأغادر هذه الجماعة على الفور!» نظر جميع أعضاء الفرقة إلى القائد يو.

وقال القائد يو: «عمي، إنني سأرميك بالرصاص.»

صاح يودا يا: «أيها اللعين، أتجرؤ على قتل عمك؟ فلتعمل حساباً لعمك الذي رعاك في طفولتك، وتذكر أن أباك مات وأنت طفل صغير، وأنا عمك الذي عملتُ على إعالتك وأمك الأرملة، ولو لم أفعل ذلك، لأصبحت لقمة سائغة للكلاب الضالة!»

رفع القائد يو يده إلى أعلى، ثم نزل بها على وجه يودا يا، وراح يسبه قائلاً: «يا لك من وغدٍ حقير!» ثم سجد على ركبتيه ومضى يقول: «عمّاه، لن ينسى ابنك جان أو أفضالك إلى الأبد، وسأحزن عليك بعد مماتك وألبس ثياب الحداد، وسأزور قبرك وأقدم لك القرابين في كل عيد.»

قفز القائد يو جان أو بسرعة على ظهر حصانه، وضربه بالسوط، وأسرع في اتجاه نائب القائد، وكان الحصان يسير بأقصى سرعة، ويزلزل الأرض تحت قدميه.

حضر والدي مشهد رمي يودا يا بالرصاص. قاد الأخرس ورجلان آخران من أعضاء فرقة القائد يو، المتهم يو دا يا إلى المدخل الغربي للقرية، واختاروا مكان الإعدام، منطقة تتجمع حولها المياه الراكدة، وممتلئة بالبعوض والصراصير. توجد بها شجيرة صفصاف يتيمة، تقفز حولها جماعات الضفادع.

وحمل اثنان من أعضاء الفرقة يودا يا إلى أعلى الجرف، وأرخوا وثاقه، ونظروا إلى الأخرس. فهز الأخرس مسدسه، واستعدّ جيّداً.

فاستدار يودا يا بجسده تجاه الأخرس، ثم ابتسم له. واكتشف أبي أن ابتسامته آنذاك كانت ابتسامة صادقة طيبة، تماماً مثل الشمس الغاربة. «أخي الأخرس، فكّ وثاقي، لا يمكن أن أموت وأنا مربوط بهذا الحبل!»

ففكر الأخرس قليلاً، ثم تقدم خطوة والمسدس في يده، ونزع الخنجر من حزامه، وقطع الحبل. فمد يودا يا ذراعيه إلى الأمام يريعهما قليلاً، ثم استدار بجسده وراح يصيح: «أطلق الرصاص، أطلق الرصاص، أخي الأخرس، ولا تدعني أتعذب بما فعلت!» ويعتقد أبي أن أي إنسان قُبيل مماته، يجعل الجميع يشعرون تجاهه ببعض المهابة والاحترام. وعلى كل حال فإن يو دا يا يُعَدُّ أحد أبناء قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، وارتكب جريمة كبرى، والموت أَخْفُ عقاب له، غير أنه قُبيل مماته عَبَّرَ عن روح بطولية هو أَهْلٌ لها، وتأثر أبي كثيراً بذلك المشهد، وود أن يقفز إليه.

أعطى يو دا يا وجهه للمياه الراكدة المتعفنة، نظر إلى أسفل قدميه حيث الطحالب الكريهة، ونظر حوله إلى حقول الدُّرَّة، وراح ينشد: «لقد نضجت الدُّرَّة، لقد احمرت الدُّرَّة، وجاء الشياطين اليابانيون، وجاء الشياطين اليابانيون. وتدمرت البلاد، وهلك العباد.» كان الأخرس يرفع سلاحه ثم ينزله، ويُنزله ثم يرفعه. فقال الرجلان الآخران المصاحبان له: «أيها الأخرس، فلتشفع له عند القائد يو لكي يصفح عنه!»

اتكأ الأخرس على سلاحه، وانتظر حتى انتهى يودا يا من الغناء. واستدار يودا يا بجسده ثانية، وراح يطلق نظرات غريبة ومريبة، ثم صاح بصوت عالٍ: «أطلق الرصاص يا أخي الأخرس! ألسنت ترغب في أن تجعلني أقضي على نفسي؟» فحمل الأخرس سلاحه، وحدد هدفه جيداً صوب جبهة يودا يا، وشد زناد سلاحه. ورأى أبي أن جبهة يودا يا قد تناثرت في شكل قطع صغيرة، وكان الأخرس قد طأطأ رأسه مع صوت إطلاق الرصاص، وقد خرج الدخان بكثافة من فوهة المسدس. وتحامل جسد يودا يا قليلاً، ثم سقط داخل المياه الراكدة.

سحب الأخرس مسدسه وغادر المكان، ثم تبعه الرجلان الآخران أما أبي ومَنْ كان بصحبته من الأطفال، فقد تجمَّعوا على حافة التربة وهم في غاية الدُّعر. وراحوا يتأملون جثة يودا يا الملقاة في عرض المياه. ونظروا إلى وجهه، فرأوا أن فمه لا يزال موجوداً كما هو، في حين تشوَّهت جميع أجزاء الوجه الأخرى. كانت جثته قد حطمت أثناء سقوطها الطمي المترسب على الحواف، وتقطعت سيقان أزهار اللوتس. وهنا شم أبي رائحة أزهار اللوتس العطرة.

وجاء بعد ذلك مباشرةً نائب القائد وهو يحمل معه قطعة من الستان الأصفر، وتابوتاً من خشب السرو ملصقاً أعلاه بعض النقود الفضية، وألبس يودا يا ثياب الحداد، واختار

أن يكون قبره أسفل شجرة الصفصاف الصغيرة على حافة التربة. وفي يوم تشييع الجنازة، اتشح نائب القائد بالسواد، وعلّق بذراعه قطعة من الحرير الأحمر. هذا بينما كان القائد يو يظهر وقد لبس ثياب الحداد، يبكي بصوتٍ عالٍ. وما إن تجاوزَ حدود القرية، حتى أخذ بجرة من القرميد وحطمها على كسرة طوب.

في ذلك اليوم، لفتَّ جدتي أبي بثوب من ثياب الحداد البيضاء، ارتدت هي ثياب الحداد حزنًا على يودا يا، وكان أبي يسير خلف القائد يو وجَدَّتِي ممسكًا بعضا من أغصان شجرة الصفصاف، ورأى أبي بأم عينيه مشهدَ تحطُّم تلك الجرةِ أعلى كسرة الطوب، وتذكَّرَ مشهدَ تحطُّم رأس يودا يا. واعتقد أبي أن هناك علاقة حتمية بين هذين المشهدين المتشابهين. وأن المصادفة التي جمعت بين هذين المشهدين، قادرة على أن تُنتج مشهدًا ثالثًا.

ولم تسقط من أبي الذي كان ينظر بفتور إلى مُشيعي الجنازة دمة واحدة. وعندما التفت المشيعون في حلقة واحدة تحت شجرة الصفصاف، رأوا ستة عشر شابًا من الشباب الأقوياء ينزلون التابوت الخشبي برفق إلى القبر العميق. وأخذ القائد يو بحفنة من التراب ونثرها على التابوت الخشبي اللامع، فأحدثت صوتًا اهتزت له مشاعر جموع الحاضرين. وقام بعض الرجال المسكين بخوازيق حديدية، بغرز هذه الخوازيق في الطمي الأسود، وألقوا بها على التابوت الذي بدا كأنه يصيح بأعلى صوته، وهكذا راح التابوت يختفي تدريجيًا تحت كُتل الطمي الأسود. وعلت كتل الطمي حتى تساوى القبر بسطح الأرض، وأصبح تلاً كبيرًا في شكل واحدة المانتو.^٧ أخرج القائد يو مسدسه وأطلق ثلاث رصاصات لأعلى شجرة الصفصاف. واخترق الرصاص أعواد الشجرة، فتساقط بعض من أوراقها الرقيقة الذابلة، وراحت تتطاير في عنان السماء. أما أغلفة الرصاص، فقد سقطت داخل التربة ذات المياه الراكدة. فقفز أحد الصبية إلى التربة، وراح يدوس في الوحل، حتى عثر على تلك الأغطية وعاد إلى حيث كان. وأخذ نائب القائد بمسدسه وأطلق أيضًا ثلاث رصاصات.

^٧ المانتو: أحد أنواع المأكولات الصينية المعروفة داخل الصين، ويُصنع من الدقيق والماء والسكر وبعض المكونات الأخرى، ويكون على شكل نصف كرة أو مستديرًا. وهناك المانتو المحشو الذي يتم حشوه بقطع من اللحوم أو الخضروات، وهناك أيضًا المانتو السادة أو الأبيض الذي يخلو من أي حشو. وينتشر طعام المانتو بشكلٍ كبيرٍ في مناطق جنوب الصين ووسط الطبقات الفقيرة، وذلك لرخص سعره وبساطته. (المترجم)

أحدثت عند خروجه من بيت النار صوتاً مُدَوِّياً اهتزت له جنّبات الدُّرَّةِ المجاورة. فحمل كل من القائد يو ونائبه الشاب رن مسدسه، وراحا ينظران في جميع الأرجاء. وهز نائب القائد رأسه قائلاً: «إنه بطل عظيم ماجن!»، ثم أعاد مسدسه إلى جرابه ومضى بخطوات سريعة في اتجاه القرية.

اكتشف أبي حينها أن يد القائد يو التي تحمل السلاح، كانت ترتفع رويداً رويداً، وتلاحق فوهة السلاح ظل نائب القائد. فذهل جميع الحضور، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على التفوه بكلمة واحدة. بينما كان السيد رن نائب القائد يتقدم مرفوع الرأس بخطوات واسعة غير واعٍ بما يحدث خلفه، وهو يمضي تجاه القرية في محاذاة قرص الشمس. رأى أبي المسدس يهتز قليلاً في يد القائد يو. ولم يكديسمع صوت إطلاق النار الذي كان ضعيفاً وعلى مسافة بعيدة منه. رأى تلك الطلقة تُحلّق على ارتفاع منخفض وتتمر من أعلى شعر رأس نائب القائد. غير أن نائب القائد لم ينظر إلى الخلف، وواصل السير بخطوات واسعة. وسمع أبي صوت صافرة تأتي من ناحية نائب القائد، كان أبي يعرف هذا الصوت جيداً، إنه صوت «لقد احمرت الدُّرَّة»، لقد احمرت الدُّرَّة! وامتلأت عيناً أبي بالدموع. كان شبح نائب القائد يصبح أكبر حجماً كلما ابتعد عن مرمى البصر. وأطلق القائد يو رصاصة ثانية. فزلزلت الأرض والسماء، وقد أحس أبي جيداً بهذا الصوت المُدَوِّى. كانت الرصاصة قد أطلقت أعلى حقول الدُّرَّة، فتساقطت على إثرها بعض من سنابل الدُّرَّة. وخلال تساقط هذه السنابل، إذا برصاصة ثالثة تُحطّمها تحطيمًا. وأحس أبي أن نائب القائد يظهر هناك يحني ظهره ليقطف زهرة من الأزهار البرية ويشمها لفترةٍ طويلة.

كان أبي قد أخبرني بأن نائب القائد كان على الأرجح ينتمي للحزب الشيوعي، من الصعب العثور على مثل هذا البطل في مكان سوى الحزب الشيوعي. ولكن للأسف كان عمر هذا البطل نائب القائد قصيراً، كان البطل الشجاع الذي أطلق النار على نفسه، وأنهى حياته خلال قيامه بتنظيف مسدسه، وذلك بعد مضي ثلاثة أشهر من رؤية أبي له عندما كان يسير مرفوع الرأس بخطوات واسعة. دخلت الرصاصة من ناحية عينه اليمنى لتخرج من فتحة أذنه اليمنى، وامتلاً هذا الشطر من وجهه بالدماء، ونزفت أذنه اليمنى كمية كبيرة من الدم، وما إن سمع أهل القرية صوت إطلاق الرصاص، حتى هبوا فزعين يتبعون مصدر الصوت، وعندما وصلوا إلى نائب القائد وجدوه مُلقًى على الأرض وقد فارق الحياة. مال القائد يو على الجثة وأخذ بالمسدس، وبقي صامتاً لفترةٍ طويلة.

وحملت جدتي الفطائر، بينما حملت زوجة وانغ ون إي برميلين من حساء البازلاء الخضراء، وسارتا في اتجاه الجسر الكبير أعلى نهر موا شوى. كانتا ترغبان في الحقيقة في اختراق حقول الذرة، والمضي في اتجاه الجنوب الشرقي، غير أنه بعد نجاحهما في الدخول إلى حقول الذرة، اكتشفنا أن من الصعب عليهما السير داخل الذرة وهما يحملان ما يحملانه من طعام وشراب. فقالت جدتي مخاطبة رفيقتها: «زوجة أخي، أرى أن نسير في الطريق المستقيم، ففي التأني السلامة في هذا المكان على وجه الخصوص.»

مضت جدتي وزوجة وانغ ون إي تتحركان في هذا الخلاء، كأنهما زوج طيور كبير يطلق في عنان السماء. كانت جدتي ترتدي سترة قرمزية اللون، بينما بدا شعر رأسها الأسود لامعاً براقاً، وقد وضعت عليه بعض الزيت وأحسنتم تمشيته. وكانت زوجة وانغ ون إي تتسم بأنها قصيرة القامة نشيطة، رشيقة الحركة. وعندما كان القائد يو يقوم بتجميع قُواته، كانت قد أرسلت بزوجها وانغ ون إي إلى دار عائلتي، وطلبت من جدتي أن تتوسط له عند القائد يو ليستخدمه كأحد الفدائيين في عصابته، وقد استجاب جدّي لرغبتها من أول مرة. وقيل القائد يو، وانغ ون إي حرصاً على حفظ ماء وجه جدتي. كان القائد يو قد سأل الرجل: «هل تهاب الموت؟» فرد وانغ ون إي قائلاً: «نعم أهابه.» وقالت زوجته: «أيها القائد يو، حتى إذا كان يهاب الموت فإنه لن يهابه هذه المرة، فلقد قصفت الطائرات اليابانية أبناءنا الثلاثة وتطايرت أشلاؤهم في شكل قطع صغيرة.»

ولم يكن هذا الرجل وانغ ون إي طينة صالحة للعمل كجندي، فقد كان رد فعله بطيئاً جداً، ولا يميز بين اليمين واليسار، وأثناء التدريب على الخطة في الساحة، كان لا يُقدّر المسافة التي بينه وبين نائب القائد. وقد اقترحت عليه زوجته اقتراحاً جميلاً، بأن يمسك في يده اليمنى عقلة من عود الذرة، وعندما يستمع إلى نداء نائب القائد بالدوران صوب اليمين، عليه فقط أن يدور ناحية اليد التي تُمسك بعقلة الذرة. ولم يسمح لوانغ ون إي بحمل السلاح بعد اختياره جندياً بقوات القائد يو، وكانت جدتي قد أعطته بندقية الصيد التي كانت تمتلكها عائلتي.

سارت جدتي ورفيقتها بمحاذاة نهر موا شوى، ولم تُباليًا برؤية أزهار الأفيون الكثيفة والذرة الرفيعة الحمراء الدامية، ثم انعطفتا صوب الشرق. كانت زوجة وانغ ون قد ذاعت خلال حياتها شتى أنواع الصعاب، في حين عاشت جدتي شتى أنواع السعادة. فبدت جدتي وقد تصببت عرقاً، في حين لم ينزل من زوجة وانغ ون إي قطرة عرق واحدة.

كان أبي قد عاد منذ وقتٍ طويلٍ إلى أقصى طرف الجسر. وأخبر القائد يو بأن الطعام سوف يصله في أقرب وقت، فضربه القائد يو ضربةً بسيطةً على رأسه فرحًا ومزهوًّا بأبي الذي أنجز المهمة التي كلّفه بها. وكان معظم أعضاء الفرقة آنذاك يرقدون على ظهورهم وسط حقول الدُّرَّة شاخصين بأبصارهم إلى السماء. فأحس أبي بالضيق والوحدة، فتوجه إلى داخل حقول الدُّرَّة على حافة الناحية الغربية للطريق، ذهب إلى هناك لمراقبة الأخرس. كان الأخرس منشغلًا بشحن خنجره، وهنا وضع أبي يده على مسدسه، ثم وقف أمام الأخرس تعلق وجهه ابتسامة البطل المنتصر. فعندما رأى الأخرس أبي بهذه النشوة، ابتسم ابتسامة خفيفة. وفي تلك الأثناء كان هناك أحد أعضاء الفريق يغط في نوم عميقٍ، وقد سمع أبي صوت شخيره العالي. حتى أولئك الأعضاء الذين لم يروحوا في النوم، كانوا جميعًا يضطجعون وسط حقول الدُّرَّة، ولم يكن أحد منهم يرغب في تبادل أطراف الحديث مع أبي. فقفز أبي ثانيةً إلى الطريق العام، وقد بدا الطريق العام أيضًا في غاية التعب. لاحظ أن مساحة الطريق وغيرها من الأدوات قد أصابها الإرهاق الشديد. وبدا الجسر الحجري مستندًا إلى صفحة المياه وكأنه مريض. ثم ذهب أبي ليستريح على حافة النهر. ومضى ينظر تارةً إلى الشرق وتارةً إلى الغرب، وهو يتأمل مياه النهر وجماعات البط التي كانت تسبح وسط مياه النهر الجارية. بدا النهر جميلًا، وهو يمتلئ بالحشائش النضرة، وبدت أمواجه وكأنها تخفي الكثير من الأسرار. ورأى أبي بعض قطع من عظام بغال أو خيل تختفي خلف تلك الحشائش الكثيفة. فتذكر على الفور هذين البغلين اللذين كانت تمتلكهما العائلة. فعندما كان يحل الربيع، وتمتلئ الحقول بالأرانب البرية، كانت جدتي تخرج على ظهر البغل ممسكة ببندقية الصيد لتلاحق جماعات الأرانب البرية، وكان أبي يركب على ظهر البغل متشبثًا بخصر أمه. وكان البغل يطارد الأرانب ويفزعها فرعًا شديدًا، وتسارع جدتي بملاحقة تلك الأرانب واصطيادها. وعندما كانا يعودان إلى المنزل، كنت دائمًا ترى رقبة البغل وقد علق بها بعض الأرانب البرية. رأى أبي أسراب النمل على حافة النهر. كانت هناك وفود من النمل الأحمر تقوم بنقل الطمي. كان يأخذ كتلاً من التراب ويضعها وسط جماعة النمل، فيقوم النمل بالتجمع حولها وتسلقها، ثم يحمل التراب ويلقي به في النهر. وفي وقت الظهيرة، كان أبي يحس بحرارة الجو وانعكاس الشمس على صفحة مياه النهر. ويمضي يستمتع بحمرة الدُّرَّة الرفيعة التي تغطي ما بين السماء والأرض، وبالرائحة الذكية لنبيذ الدُّرَّة. ويريح جسده على حافة النهر، فيدق قلبه دقات متتالية خلال لحظات قليلة، وقد اكتشف أن هذه الأحداث كانت لها نتائجها، وعندما ستتجلى هذه

النتائج ستكون نتائج عادية وطبيعية. اكتشف أبي أن هناك أربعة أشياء غريبة في شكل الخنفس تسير على الطريق العام في هدوء تام.

«إنها سيارات!» هكذا صاح أبي بصوت غامض، غير أن أحداً لم يبال بحديثه. انتفض أبي، ثم قال: «إنها سيارات الشياطين اليابانيين»، ومضى ينظر إلى تلك السيارات التي تخترق الطريق، معلقاً في مؤخرتها ذيل أصفر طويل، وفي المقدمة ترسل بعض الضوء المتوهج.

«وصلت السيارات!»، كان وقع صوته يبدو كأنه خنجر حاد قطع جميع أعناق أعضاء الفريق، بينما كان الصمت يُخيم على حقول الذرة.

صاح القائد يو مسروراً: «أيها الرفاق، لقد جاءوا أخيراً. أيها الأخوة، فلتستعدوا جيداً، وأطلقوا النيران بمجرد أن أمركم بذلك.»

قفز الأخرس من الناحية الغربية من الطريق. بينما كان عشرات الرجال من أعضاء العصابة يحنون ظهورهم حاملين أسلحتهم، منبطحين على حافة النهر في انتظار أوامر القائد يو.

لقد سمعوا بالفعل صوت السيارات القادمة من بعيد. وكان أبي منبطحاً إلى جوار القائد يو، ممسكاً بمسدسه الثقيل، تبللت راحة يديه بالعرق الغزير، وبدأت عليه علامات التوتر، ورأى قطعة لحم من كف يده تقفز قفزات غير منتظمة. وتعجب أبي كثيراً من هذا المنظر الذي كان أشبه ما يكون بعصفور صغير قد خرج لتوه من البيضة. لم يكن أبي يرغب في أن تستمر كف يده في القفز، فضغط عليها ببعض القوة، حتى سيطر على زراعته كاملاً. وضغط القائد يو على ظهره قليلاً، فتوقفت هذه القفزات في الحال، فنقل أبي مسدسه من يده اليمنى إلى اليسرى، وبدأت أصابع يده اليمنى الخمسة وقد أصابها بعض التشنج، ولم يستطع مداها لفترة غير قصيرة.

تحركت السيارات اليابانية بسرعة ملحوظة راحت تتزايد شيئاً فشيئاً، وبدأت السيارة التي كانت في المقدمة ترسل ضوءاً أبيض عبر مصابيحها الأمامية، بينما كانوا يسمعون وقع صوت محركها كصوت الريح العاتية التي تسبق نوبة المطر الغزيرة، ويحمل هذا الصوت شعوراً غريباً يضغط على الأنفاس. كانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها أبي سيارة في حياته، مضى يفكر في أمر هذا الشيء العجيب وهل يتغذى على النبات أم على المواد الأخرى؟ وهل يشرب الماء أم الدم؟ لاحظ أن تلك الكائنات العجيبة تفوق سرعتها سرعة البغلين اللذين كانت تمتلكهما عائلته. أما إطارات السيارات التي تشبه القمر، فقد كانت

تدور بسرعة فائقة، يتطاير معها الكثير من كميات التراب بالطريق العام. وشيئاً فشيئاً استطاع أبي رؤية الشيء الذي كان موجوداً داخل السيارات. وعند اقترابها من الجسر الحجري، أبطأت السيارات سرعتها، وراح بعض الدخان يتطاير من خلف السيارات إلى أمامها، حتى غطى الدخان الكثيف ما يزيد على عشرين شخصاً كانوا يقفون أعلى سطح السيارة الأولى في زي أصفر، ويرتدون قبعات حديدية سوداء، عرف أبي فيما بعد أن تلك القبعات السوداء يطلق عليها خوذة فولاذية. جدير بالذكر أنه خلال دعوة صهر الحديد في عام ١٩٥٨م،^٨ كانت عائلتي قد قدمت جميع الأواني الحديدية التي تمتلكها، وكان أخي الأكبر قد سرق خوذة فولاذية من وسط أكوام الحديد، وعلقها على الفحم المشتعل، واستخدمها في طهي الطعام. ونظر أبي إلى تلك الخوذة التي تغيّر لونها أعلى النار المشتعلة، وانتابه بعض الحزن. أما السيارتان الثانية والثالثة واللتان كانتا في المنتصف، فقد كانتا مُحمَلَتَيْن بتلّ من الأجولة، في حين كانت السيارة الأخيرة مثلها مثل الأولى يقف على سطحها ما يزيد على عشرين من الجنود اليابانيين يرتدون الخوذات الفولاذية.

وعندما اقتربت السيارات الأربعة أكثر فأكثر من حافة النهر، ظهرت عجلاتها الكبيرة، وبدا لأبي أن السيارة التي كانت في المقدمة كما لو كانت جراداً ضخماً للغاية. وبدأ التراب الذي كان يغطي المكان يتضاءل شيئاً فشيئاً، وظهر عند ذيل السيارة دخان أزرق داكن. بدأ الخوف يدب في قلب أبي، راح يضغط على رأسه بقوة، وسرت داخل معدته برودة لم يعدها من قبل، وبدأت هذه البرودة تجتمع حتى سيطرت على جسمه كاملاً. وأحس بأنه في حاجة شديدة لقضاء حاجته، بل وجد صعوبة في التحكم في بوله الذي كان يتناثر في كل مكان. وهنا خاطبه القائد يو بصرامة شديدة: «اثبت أيها الأرنب الجبان!»

^٨ دعوة صهر الحديد: وتعود إلى قرار لجنة الحزب الشيوعي الصيني في نوفمبر عام ١٩٥٧م ودعوة الزعيم الصيني المعروف ماو تسي تونغ إلى حملة شعبية شاملة لصهر أكبر كمّ من الحديد للحصول على كمية كبيرة من إنتاج الحديد سنوياً، وذلك للتحوّل خلال فترة ١٥ عاماً إلى دولة متقدّمة صناعياً ولديها مخزون من الحديد يُعادل بل ويفوق مخزون بريطانيا. وقد استجابت جماهير الشعب الصيني العريضة لهذه الدعوة، وقُدّمت الأسر الصينية ما لديها من أشياء من الحديد لصهرها لتحقيق الهدف من دعوة الزعيم ماو. حيث وصل إجمالي إنتاج الحديد في أغسطس ١٩٥٨م إلى ١٠ ملايين و٧٠٠ ألف طن، وهو ضِعف ما كان عليه عام ١٩٥٧م قبل هذه الدعوة. وعلى الرغم من النجاح الذي حققته هذه الحملة، فإنه كان لها تأثير سلبي على الزراعة والصناعات الخفيفة وأضعفت القوة الجسدية للأيدي العاملة وغير ذلك من الآثار السلبية. (المترجم)

ولم يكن أمام أبي أي اختيار آخر، فراح يتوسل لأبيه القائد يو أن يسمح له بالنزول لقضاء حاجته.

وبمجرد أن حصل أبي على موافقة القائد يو، تراجع بسرعة ونزل إلى داخل حقول الذرة ليقضي حاجته التي حبسها بشدة. وبعدها أحس براحة كبيرة. واختلس نظرة إلى أعضاء الفريق الآخرين، فوجدهم وقد علا وجوههم شيء من الرعب. كان وانغ ون إي يخرج لسانه من شدة خوفه. ونظره يبدو جامدًا مثل السحلية.

ومضت تلك السيارات الأربعة تسير إلى الأمام مثل وحش حذر كاتمة الأنفاس، وشم أبي تلك الرائحة العطرة التي كانت تنبعث منها. وهنا ظهرت جدتي بسترتها الحمراء وزوجة وانغ ون إي التي كانت تلهث، ظهرت هناك على حافة نهر موا شوى المتعرج.

ظهرت جدتي وهي تحمل سلة الفطائر المحشوة بالبيض، وزوجة وانغ ون إي وهي تحمل سلة من حساء البازلاء الخضراء، تنظران بارتياح إلى الجسر الحجري الكبير الكئيب على نهر موا شوى. قالت جدتي لزوجة وانغ ون إي بلهجة سعيدة: «أخيرًا وصلنا يا زوجة أخي.» بعد أن تزوجت جدتي، كانت تحافظ دائمًا على التنعم بحياة رغيدة، وقد أثرت هذه السلة المحملة بالفطائر على كتفها، وتركت عليه علامة بنفسجية، لازمتهما هذه العلامة حتى فارقت الحياة وصعدت إلى السماء. بل كانت هذه العلامة دليلًا على بطولة جدتي في حرب المقاومة ضد اليابان.

كان أبي هو أيضًا أول من اكتشف ظهور جدتي آنذاك، اعتمد على قوة عجيبة في لحظة كان يحدق فيها الجميع إلى السيارات اليابانية التي تقترب منهم شيئًا فشيئًا، كان أبي في تلك الأثناء قد استرق النظر إلى الناحية الغربية، ليرى جدتي تقترب منهم بسرعة فائقة كأنها فراشة حمراء كبيرة وسط حديقة مليئة بالأزهار، فراح أبي يناديها بصوت مسموع: «أماه.»

بمجرد سماع هذا الصوت، قام الجنود اليابانيون بإطلاق سيل من الرصاص. كان اليابانيون ينصبون ثلاثة رشاشات أعلى سياراتهم، وكان صوت إطلاق النار مدويًا، أشبه ما يكون بنباح الكلاب في ليلة ممطرة. وانتبه أبي إلى ثقبين يظهران في قميص جدتي. وسمع صوت جدتي وقد صاحت بصوت مبهتج، ثم مالت ميلًا شديدًا حتى سقطت وأعطت وجهها لسطح الأرض. أما الفطائر التي كانت تحملها، فجزء منها سقط ليستقر عند جنوب حافة النهر، والجزء الآخر عند شمالها. فنظر أبي إلى تلك الفطائر البيضاء الكبيرة المحشوة بالبصل والبيض، وقد تناثرت أجزاءها على الأعشاب الخضراء. وبعد سقوط جدتي، إذا

بأبي يرى جثة زوجة وانغ ون إي والدم يسيل من جبهتها حتى تهاوت تمامًا، وسقطت إلى داخل الدُّرَّة على حافة الطريق. رأى أبي هذه المرأة قصيرة القامة، تأثرت بشدة مما أصابها من طلاقات نارية، حتى سقطت جثة هامدة. أما برميلاً الحساء اللذان كانت تحملهما هذه المرأة قصيرة القامة، فقد سقطاً معاً على الأرض، وسال الحساء في كل مكان وكأنه دم جماعة من الشهداء سقطوا في توقيتٍ واحدٍ. راح أحد البرميلين يجري ثم يجري حتى سقط داخل النهر، واستمر في جريانه داخل مياه النهر، مروراً من أمام عيني الأخرس، ليصطدم بركيذة الجسر الحجري، ثم ليمر من داخل إحدى فتحات الجسر، ثم يمضي في رحلته ليمر من أمام القائد يو وأبي ووانغ ون إي والأخوين فانغ ليو وفانغ تشي.

راح أبي ينادي أمه بصوت يعتصره الألم، حتى سقط على حافة الحاجز الترابي. وحاول القائد يو أن يسحبه بعيداً عن هذا المكان، لكنه لم يستطع. وخاطبه القائد يو: «عد يا صغيري!»، ولكنه لم يسمع أمر القائد، ولم يسمع أي نداء آخر. وهكذا سقط جسم أبي النحيل الضعيف داخل هذا المجرى المائي الضيق، وكان أثناء سقوطه إلى داخل النهر قد ألقى بمسدسه بعيداً عنه، حتى استقر المسدس أعلى بعض أزهار الأقحوان. وبدأ أبي يقاوم ويسبح بسرعة الطيور في اتجاه والدته. كان الطريق على جانبي النهر ساكناً تماماً، ومياه النهر راكدة تماماً، وحقول الدُّرَّة على الجانبين نائمة في طمأنينة وهدوء تامين. ومضى أبي يسبح في مياه النهر، وراح يصيح ثانياً بأعلى صوته: «أماه ... أماه ... أماه»، امتزج صياحه ببكاء شديد تخالطه مشاعر سامية. وأخيراً نجح أبي في العبور من الضفة الشرقية للنهر إلى الضفة الغربية، وتجاوز تلك الدعامات الحديدية التي كانت تعترض طريقه. وبمحاذاة الحاجز الترابي، سمع أبي وقع أقدام الأخرس وجماعته يمرون على مقربة منه، انقض أبو على جثة أمه، ونادى عليها بصوت يملؤه الحزن والحنين في آن. كانت جدتي حينها ترقد مرتاحة على حافة النهر، وقد التصق وجهها الغض بالأعشاب الكثيفة. ولاحظ أبي على ظهرها أثر طلقتين، وشم رائحة دماؤها الذكية تتدفق عبر الفتحتين اللتين أحدثتهما هاتان الطلقتان. مد أبي يديه وسحب جثة أمه، حتى نجح في قلبها على ظهرها، ورأى أن وجهها لم يصب بأي جرح، بدت ملامحها صارمة تماماً، وشعرها لا يزال على هيئته مرتباً لم يطله أي تغيير. حاجباها مالا إلى الأسفل، وبدت شبه مغمضة العينين، شفتاها حمراوان كالورود. أمسك بيدها الرقيقة وراح يناديها: «أماه.» فتحت جدتي عينيها، وابتسمت له ابتسامة بريئة، وسلمت له يدها الثانية.

وتوقفت سيارات الشياطين اليابانيين، وصوت محركاتها تارة يرتفع وتارة ينخفض.

وفجأة ظهر على حافة النهر طيف إنسان طويل قوي البنية، سحب جدتي وأبي إلى أسفل الحافة، كان هذا الصنيع الجيد صنيع الأخرس. وتوقف أبي عن التفكير تمامًا وسلم نفسه وأمه للأخرس، وهنا سمع صوت طلقة نارية حطمت الكثير من أعواد الذرة التي كانت تظللها.

اقتربت السيارات اليابانية أكثر فأكثر، واستقرت أخيرًا خارج حدود الجسر الحجري. وبدأت الرشاشات التي كانت مثبتة أعلى السيارة الأولى والسيارة الأخيرة ترسل نحوهم سيلاً من الطلقات النارية، تارةً نحو شرق الطريق، وتارةً أخرى في اتجاه غرب الطريق، خيم السكون تمامًا على حقول الذرة المجاورة. وحطمت الطلقات النارية أوراق وسنابل الذرة التي راحت تتطاير في كل مكان، وامتلاّت سماء المكان بالدخان الكثيف.

أما أعضاء عصابة القائد يو، فقد كانوا ملتصقين بالأعشاب البرية والحاجز الترابي بمحاذاة النهر. واستمر دوي إطلاق اليابانيين النار لمدة ثلاث دقائق، ثم توقف فجأة، وقد امتلأ المكان المحيط بسياراتهم بفوارغ الطلقات النارية التي زلزلت المكان.

قال القائد يو بصوت منخفض: «غير مسموح بإطلاق النار!»

وساد الصمت بين الشياطين اليابانيين. وبدأ الدخان الكثيف يتطاير شرقًا بفعل الرياح الشرقية.

كان أبي قد أخبرني أنه في تلك اللحظة التي عمّ فيها الصمت، كان العم وانغ ون إي قد حاول الوصول إلى ضفة النهر، حتى نجح في الوقوف أعلاها، وأخذ ببندقية الصيد التي كانت بحوزته، وراح يصيح بصوت يملؤه الحزن والحسرة: «زوجتي، أم أطفالي!» وتسمّر في مكانه بعض الوقت، حتى ناله سيل من الرصاص في بطنه. وكانت تلك الطلقات النارية الكثيفة التي تطايرت إلى بطن وانغ ون إي على مقربة من القائد يو.

سقط وانغ ون إي إلى داخل النهر، والتقى بزوجه إلى جانب الجسر الحجري. وعندما سقط وانغ ون إي كان قلبه لا يزال يدق، ورأسه لم تُصَب بأي أدنى، وأحسّ بشعور عميق لم يعهده طيلة حياته.

وكان أبي قد أخبرني أيضًا أن زوجة العم وانغ ون إي كانت قد ولدت له ثلاثة ذكور. كبر الأبناء الثلاثة، وترعرعوا على طعام الذرة. وذات يوم كان وانغ ون إي وزوجه قد خرجا للعمل في حقول الذرة، وتركوا الأطفال الثلاثة يلعبون في فناء المنزل، وفجأة حلقت طائرة يابانية أعلى سماء القرية الصغيرة. وألقت الطائرة بقذيفة سقطت داخل فناء العم وانغ ون إي، وحطمت تلك القذيفة الأطفال الثلاثة تحطيمًا لم يبق على أي جزء من أشلائهم،

وهكذا وبمجرد أن أعلن القائد يو تكوين عصابته لمقاومة المعتدي الياباني، سارعت زوجة وانغ ون إي بإرسال زوجها ليكون عضواً بين أفراد هذه العصاة الوطنية.
هنا راح القائد يو يَعْضُّ على أسنانه، ويُحَدِّقُ إلى جثة وانغ ون إي التي سَقَطَتْ في عُرْضِ النهر، ثم قال بصوت منخفض: «عليكم بالثبات!»

٨

راحت حَبَّاتِ الدُّرَّةِ تتطاير على وجه جدتي، حتى استقرَّت حبة عند أسنانها البيضاء. ورأى أبي شفقتها وقد تَغَيَّرَتْ تماماً، وأصبحت باهتة بعد حُمُرَتها التي كانت تجذب الأنظار، وراح ينادي أمه في حسرة شديدة. وفي تلك الأثناء فتحت جدتي عينيها، وقالت: «ابني العزيز، أين أبوك بالتبني؟» فردَّ أبي: «إنه في أرض المعركة.» فقالت جدتي: «إنه أبوك.» ... فهزَّ أبي رأسه.

حاولتُ جدتي أن تجلس في مكانها، وكانت كلما حاولت ذلك زاد تدفق الدم الذي كان يسيل من جرحها الغائر.

فقال أبي: «أماه، سأذهب لأنادي أبي.»

لَوَّحت جدتي بذراعها، وفجأة نجحت في الجلوس بمفردها، وقالت: «صغيري دوو قوان ... اسند أمك. فَلتَعُدْ إلى المنزل، لِتَعُدْ إلى المنزل.»

ركع أبي قليلاً، وحاول أن يأخذ بذراع أمه حول رقبتة، حتى نجح أخيراً في حمل أمه على كتفيه. وبللت دماء جدتي رقبة أبي، كان أبي يشم من هذه الدماء الذكية رائحة نبيذ الدُّرَّةِ القوية. وكان يتمايل ويُجاهد في حمل أمه إلى داخل حقول الدُّرَّةِ، والطلقات النارية تكاد لا تتوقَّف عن مطاردتهما. مدَّ أبي يده واقتلع عوداً من الدُّرَّةِ، وراح يتكئ عليه، وقد اختلط عرق أبي ودموعه بدماء أمه على ظهره، حتى غطَّى الدم وجهه تماماً. أحسَّ أبي بأن جسد أمه يتناقل شيئاً فشيئاً، وعيدان الدُّرَّةِ لا تتوقف عن مضايقته واعتراض طريقه، وأوراقها لا تتوقف عن ضرب وجهه، فسقط على الأرض داخل حقول الدُّرَّةِ، والتصق وجه جدتي بوجهه، فألقت إليه بابتسامة غامضة، تركت داخله أثراً لا يُنسى.

رقدتُ جدتي داخل الدُّرَّةِ، وقد بدأت تتحسن بعض الشيء. وأحسَّت فجأة بأن ابنها يفك ملبسه، وهو يمد يده ليغطي الفتحتين اللتين أحدثتهما الطلقات النارية في صدر أمه. وأصبحت يده مخضبة بدمائها، واختلط هذا الدم بصدرها. كانت الطلقات النارية قد

تجاوزت صدرها العالي، لتصيب المنطقة المحيطة به، وتركت هذه الفتحة الغائرة. ونظر أبي إلى صدرها، وهو في غاية الحزن على ما أصابها. لم يستطع أن يسد تلك الفتحة جيداً، فاستمرت الدماء تسيل بغزارة منها، حتى بدت جدتي أكثر شحوباً، وبدأت تضعف شيئاً فشيئاً، وكأنها تنتظر أن تُفارق هذا العالم بين اللحظة واللحظة.

راحت جدتي تنتظر بسعادة إلى أبي الذي كان ثمرة لقاءها بالقائد يو داخل حقول الذرة، وهكذا بدأت تسترجع صفحة ذكرياتها في هذا المكان.

تذكرت ذلك العام، عندما كانت تعبر النهر في ذلك اليوم شديد المطر، وعندما دخلت إلى قرية عائلة دان يان شيو، وكانت الشوارع تمتلئ بمياه الأمطار الغزيرة، وتمتلئ صفحة مياه النهر بسنابل الذرة. وعندما وصل الهودج إلى مدخل منزل عائلة دان، كان قد خرجت لاستقباله عجوز بمفردها. وبعد توقف المطر الغزير، كانت لا تزال هناك بعض قطرات المياه تتساقط متفرقة على سطح الأرض. وعلى الرغم من عدم توقف جماعة الزمّارين والطبّالين عن الضرب على آلاتهم، فإن أحداً من أهل القرية لم يسارع ليشاهد هذا الجمع والطبل والزمر، عرفت جدتي على الفور أن هذا إنما يدعو إلى عدم التفاؤل بهذا الزواج. وساعد جدتي على تقديم التحية للسماء والأرض^٩ اثنان من الرجال، أحدهما يزيد عمره عن الخمسين، والآخر فوق الأربعين. كان الرجل الذي تجاوز الخمسين هو الجد ليو ليو خان، أما ذلك الذي تجاوز الأربعين فهو أحد العمال في فرن صناعة النبيذ.

وقف الحمالون والطبّالون والزمّارون وسط الفناء الذي أغرقته مياه الأمطار الغزيرة، وراحوا ينظرون إلى الرجلين اللذين حملا جدتي إلى داخل غرفتها المظلمة. شمّت جدتي رائحة نبيذ الذرة القوية التي كانت تفوح من جسدي هذين الرجلين، وكأنهما كانا قد انغمسا في النبيذ لفترة طويلة.

وعندما دخلت جدتي العروس إلى غرفتها، قامت بتقديم التحية للغرفة وهي لا تزال تغطي رأسها بذلك الوشاح الأحمر. وتحت ضوء الشموع، أحسّت جدتي بأن يبدأ تسحبها إلى مكان داخل الغرفة. وكانت هذه المسافة القصيرة التي سارت خلالها جدتي مع هذه

^٩ تقديم التحية للسماء والأرض: حيث يقوم العروسان وفق تقاليد الزواج في الصين بتقديم ثلاث تحيات يوم الزفاف. التحية الأولى السجود للسماء والأرض، اعترافاً بشمولهما بالرعاية حتى كبراً ووصولاً إلى سن الزواج. والتحية الثانية للشيوخ الكبار، اعترافاً بفضلهم. والتحية الثالثة للوالدين شكراً لهم وتعبيراً عن البر بهما. (المترجم)

اليَدِ، مسافة أَلَقْتُ على قلبها برعبٍ شديدٍ. فقد سحبتُها تلك اليَدِ لتستريح عند مصطبة التدفئة. ولكن لم يبادِرُ أحدٌ بنزع ذلك الوشاح الأحمر من فوق رأسها، فقامت بنزعه بنفسها. رأت على الفور رجلاً يبدو أنه مصاب بتشنج عصبي يجلس إلى أسفل المصطبة. ورأت رأس الرجل الطويل، ولاحظت احمرار عينيه. ووقف الرجل ومد يده إليها. فصَرَخت جدتي وأخرجت على الفور ذلك المقص الذي كانت تحبُّه داخل ملابسها، ووقفت إلى جانب المصطبة، تنظر إلى ذلك الرجل بغضب شديد. فتراجَع الرجل ثانيةً وجلس على المصطبة. ولم يفارق المقص يدها طوال تلك الليلة الصعبة، ولم يفارق ذلك الرجل مكانه الذي كان قد استقر فيه أعلى المصطبة.

في صباح اليوم التالي، استَعَلَّتْ جدتي نوم زوجها الأبرص وتسلَّلت من جانب المصطبة لتهرب من تلك الغرفة الكئيبة، وعندما أوشكت على فتح باب المنزل لتلوذ بالفرار، اعترضتها يد ما. كانت تلك العجوز النحيفة صاحبة الضفيرة على شكل حبَّات الفاصوليا، أمسكت العجوز بيدها وراحت ترميها بنظرات حادَّة.

وسعل العجوز دان يان شيو، وأخفى غضبه ونظر إلى جدتي بابتسامة خفيفة قائلاً: «ابنتي الغالية، لقد أصبحت بعد زواجك مثل ابنتي من لحمي ودمي، ولتعلمي أن ابني بيان لانغ ليس مصاباً بذلك المرض، فلا تستمعي لما يهذي به الآخرون. أسرُّتُنا تستند إلى تجارة كبيرة، ويتميز ابني بيان بحسن سلوكه، ولتكوني مسئولة عن هذا البيت منذ اليوم.» ومدَّ الرجل إليها سلسلة من المفاتيح النحاسية، ولكن جدتي أبت أن تأخذها من يده. في الليلة الثانية داخل منزلها الجديد، سهرت جدتي حتى بزوغ الفجر وهي تمسك بالمقص.

وفي صباح اليوم الثالث، جاء والدها وهو يجرح حماراً صغيراً، لكي يحمل العروس لتعود لزيارة بيت والدها وفقاً لتقاليد الزواج آنذاك، كان والد العروس يأتي ليصطحب ابنته في اليوم الثالث من الزواج، لكي تعود إلى بيته للزيارة. وجلس والدها يشرب النبيذ بصحبة العجوز الثري دان يان شيو حتى وقت الظهر، ثم عزم والدها على اصطحابها إلى المنزل.

وركبتُ جدتي على ظهر الحمار الذي كان والدها قد وَضَعَ أعلى ظهره لحافاً خفيفاً، وسارت على ظهر الحمار حتى خرجت من حدود القرية. وعلى الرغم من مرور ثلاثة أيام على سقوط الأمطار الغزيرة، فإن الطريق كان لا يزال مبللاً بالمياه، والبخار يتصاعد من داخل حقول الدُّرَّة، حتى غطى الدخان حقول الدُّرَّة الخضراء. خرج والدها وجيوبه مثقلة

بالنقود الفضية، وكان الرجل قد شرب حتى الثمالة، وبدت عيناه غائمتين. ومضى الحمار يسير ببطء ورقبته مرفوعة إلى أعلى، وقد تركت حوافره أثرها على سطح الأرض المبللة بمياه الأمطار. كانت جدتي تَرَكِبُ على ظهره، وقد بدأ عليها الإرهاق الشديد، حيث تَوَرَّم جفناها وتبعثرت صفيرتها. ولاحت نباتات الذُّرَّة التي ارتفعت مقدار عقلة خلال ثلاثة الأيام الماضية تنظر إلى جدتي نظرات تملؤها السخرية.

قالت جدتي: «أبتاه، لن أعود إلى منزله ثانية، نعم، أفضلُّ الموت على أن أعود إليه ثانية.»

رد الأب: «ابنتي الحبيبة، ما أسعد حظك، انظري إلى حماك سيهدي لنا هذا الحمار، سأبيعه وأحصل على ثمنه.»

ومد الحمار رأسه في اتجاه مستقيم ليقضم بعض الحشائش من على جانب الطريق.

وتابعت جدتي: «أبتاه، إنه مصابٌ بالبرص.»

فرد الأب: «إن حماك سيهدي لنا بغلاً.»

كان أبوها قد شرب حتى لم يُعَدْ لديه عقل يفكر، وكان لا يتوقف عن البصق بالقاذورات هنا وهناك. حتى شعرت جدتي بالامتعاض الشديد. وصدرها يغلي حقدًا على هذا الأب الجشع المُجَرَّد من المشاعر الإنسانية.

وسار الحمار حتى وصل إلى نفق الضفادع، الرائحة الكريهة التي كانت تملأ هذا المكان جعلته يخفض أذنيه اللتين كانتا مرفوعتين طوال الطريق. ورأت جدتي جثة ذلك الرجل قاطع الطريق الذي كان قد اعترض الهودج في طريقها إلى منزل دان يان شيو. رأته وقد انتفخت بطنه، وتجمعت على جثته كميات كبيرة من الذباب الأخضر. وسار الحمار بجدتي من أمام هذه الجثة المتعفنة، ورأت الذباب يعلق بكثرة حول هذه الجثة الكريهة. ومضى أبوها يسير وراء الحمار، وقد بدا جسده عريضًا أكثر مما كان عليه من قبل، ولاحظت أنه كان يسير وهو يتخبط في سيقان الذُّرَّة والحشائش على جانبي الطريق. توقف أمام الجثة وراح يلعن صاحبها قائلًا: «أيها الشيطان الوضيع، يا لك من شيطان فقير ... هل غلبك النوم في هذا المكان؟» لم تستطع جدتي أن تنسى ملامح هذا الرجل قاطع الطريق، بدت ملامحه الصفراء الآن على العكس تمامًا من ملامح أي قاطع طريق آخر لا يزال على قيد الحياة. وتقدمت جدتي وهي تقطع المسافة على ظهر الحمار، حتى طلع النهار، وتقدم الحمار في السير حتى لم يستطع أبوها العجوز ملاحقته، ومضى الحمار مسرعًا يحمل جدتي عائدةً إلى منزل أبيها، كان الحمار يعرف هذا الطريق جيدًا. ومع انحدار الطريق

قليلاً، سار الحمار مع هذا الانحدار، بينما كانت جدتي تهتز على ظهره، وهناك امتد إليها ساعدٌ قويٌّ مفتولٌ في صمتٍ وسحبها من على ظهر الحمار الصغير إلى داخل حقول الدُّرَّة. لم تكن لديها القوة لتعترض هذا الساعد القوي، بل لم تكن ترغب في ذلك. كانت حياتها الجديدة خلال ثلاثة الأيام الأخيرة مثل حلم كبير تحطم، فهناك من يكتب له أن يصبح زعيماً عظيماً خلال دقيقة واحدة، إلا أن جدتي أدركت خلال ثلاثة أيام حقيقة الحياة الإنسانية. حتى أنها مدَّت ذراعيها وتشبَّثت بذلك الرجل صاحب الساعد القوي المفتول، لعله يسرع في خطوته. كان الرجل يضرب أثناء سيره ما يعترضه من أوراق الدُّرَّة التي كانت لا تتوقف عن إحداث أصوات مسموعة، ووسط هذا كله سمعت أباهما ينادي بصوت مبوح: «أين أنت يا ابنتي الحبيبة؟»

فجأة سمعتُ صوت بوق حزين وطلقاً نارياً غير واضح بالقرب من الجسر الحجري. كان دم جدتي لا يتوقف عن التدفق، فراح أبي يحذرهما: «أماه، إن دمك لا يتوقف عن التدفق بغزارة، وأخشى أن يسيل كاملاً وتتعرضي للوفاة.» ومد يده إلى أسفل عيدان الدُّرَّة، وأخذ ببعض الطين وحاول أن يسد فوهة الجرح، ولم يتوقف الدم، فراح يأتي بكمية أكبر من الطمي. نظرت إليه جدتي نظرة يملؤها الرضا، ثم راحت تحديق في السماء الزرقاء، وفي نباتات الدُّرَّة التي بدت لها وكأنها أم لطيفة وحنون. ومر بذهنها طيف طريق صغير تحيط به الأزهار البيضاء الصغيرة، كانت جدتي قد سلكته في صباحها على ظهر حمار صغير. وكانت أثناء سيرها في ذلك الطريق تستمع إلى صوت رجل قوي البنية، يغني بصوت يخترق هالة صمت تخيم على حقول الدُّرَّة المجاورة. سارت تتبع هذا الصوت متغلغلة وسط حقول الدُّرَّة.

تملك ذلك الرجل من جدتي وأسقطها على الأرض، وجدها شابة ذات جسم أبيض طري كعجين الدُّرَّة، تنظر إليه بنظرات مثل الحمل الوديع. قام الرجل بنزع الوشاح الأسود الذي كان يغطي عينيها وكشف لها الحقيقة التي كانت تنتظرها. إنه هو! وراحت عيناها تذرفان دموع الفرحة التي غابت عنها خلال الأيام الثلاثة الماضية.

نزع يو جان أو لباس القش الذي كان يرتديه، وانقض كالوحش يكسر بقدميه عيدان الدُّرَّة، ثم فرش لباسه وسط حقل الدُّرَّة. وحمل جدتي بين يديه ليلقي بها على هذه المصطبة التي صنعها بيديه. بينما هي في زهول تامٍّ مما يحدث أمامها، وراحت تسترق النظر إلى صدره العاري، فأحسَّت وكأنها رأت دماءه تغلي بشدة أسفل هذا الجلد الذي تراه بأم عينيها. ثم انفجرت أحاسيسها وشهوتها التي كانت تكتمها منذ زمنٍ طويلٍ.

وهكذا التقت جدتي وجدي وتحاباً وسط حقول الذُّرة، وعاشاً نشوة لم يدُقها كلاهما من قبل. استطاعا في هذا المكان أن يبدآ لحظات فارقة في تاريخ قرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي. ويمكن القول بأن أبي كان ثمرة لهذا اللقاء الذي اختلطت فيه مشاعر الحزن بلذة النشوة، وارتفع صوت نهيق الحمار الصغير، وراح يتغلغل وسط حقول الذُّرة، وهنا عادت جدتي من عالم الأحلام الذي عاشت فيه أجمل لحظات حياتها إلى هذا العالم الوحشي. ونهضت لتجلس وسط الذُّرة قلقة، وراحت عيناها تذرغان الدموع. وقالت: «إنه حقاً أبرص..» كان جدِّي لا يزال راكعاً، وفجأة اكتشفَ أن بحوزته سيفاً صغيراً. وما إن لوح بيديه، حتى أطاح السيف بعودين من عيدان الذُّرة القريبة منه، قال: «عليك أن تفكري فقط في العودة إلى هنا بعد ثلاثة أيام!» فنظرت إليه جدتي وهي في غاية الحيرة. فنهض جدِّي وارتدى ملابسه. وقامت هي بترتيب ملابسها وشعرها. ولم تعرف أين أخفى سيفه الصغير بتلك السرعة. قام وودَّعها حتى حافة الطريق، ثم اختفى من أمامها تماماً.

وبعد مُضي ثلاثة أيام، عادت جدتي على ظهر حمارها الصغير. وما إن دخلت حدود القرية حتى سمعت بأن هناك من يُردد أن الثَّري دان يان شيو وابنه الأبرص قد قُتلا، أُلقيت جُثَّتاها وسط التربة التي تقع في الناحية الغربية من القرية.

اضطجعت جدتي قليلاً، وغرقت في دفء الذُّرة واللحظات الجميلة التي عاشتها بين أحضانها، وأحسَّت بأنها أصبحت أكثر رشاقةً مثل طائر سنونو يُحلِّق أعلى سنابل الذُّرة. وبدأت حركة تلك الصور الخاطفة تصبح أكثر بطئاً، وراح يظهر أمامها ويتلاشى الحقد والامتنان والقسوة والإخلاص صور دان بيان لانغ ودان يان شيو والدها ووالدتها والجد لوو خان و... كتبتُ جدتي آخر كلمة في تاريخ حياتها التي امتدَّت ثلاثين عاماً. مر الماضي بسرعة خاطفة وكأنها ثمرة ذات رائحة عطرية فوَّاحة أصابها سهم قاطع فأسقطها على الأرض، أما المستقبل، فإنها كانت ترى بغموض بعض الدوائر الضيقة التي توشك على الاختفاء. يبقى لديها فقط هذا الحاضر الذي تُجاهد لأجل الحفاظ عليه. وأحسَّت جدتي بيدي أبي الصغيرتين تمسحان على جبينها، وهو يناديها بصوت يملؤه الخوف، هذا الصوت الذي جعل وعيها الذي اختلطت فيه مشاعر الحب والكراهية والفضل والحقد يستعيد الأمل في الحياة مرة أخرى. جاهدت لترفع زراعها لأعلى لتمسح على وجه صغيرها، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك. وعندما كانت تحاول النهوض، رأت ضوءاً شديداً يأتي من السماء، وسمعت صوت موسيقى ولحنًا جميلاً تعزفه آلات البوق الصغير والبوق الكبير.

شعرتُ جدَّتِي بالتَّعَبِ الشديد، وأحسَّت أن الأمل في الحاضر قد بدأ يتضاءل. هل هو الموت؟ هل سأموت؟ هل سأفتقد النظر إلى هذه السماء وهذه الأرض وإلى الذُّرَّةِ وإلى ابني وإلى حبيبي الذي يقود الآن جيشه لملاقاة المعتدلين؟ كانت تسمع دَوِيَّ طلقات نارية على مسافة بعيدة عنها، وبدت السماء أمامها مليئةً بالدخان والضباب الكثيف. فنادت على صغيرها: «دوو قوان، دوو قوان، ابني الحبيب، تعال وساعدني لأنهض، ساعدني لأستند عليك، فأمك لا تتمنى الموت، يا إلهي! يا آلهة السماء ... أنعمي عليّ وعلى حبيبي وطفلي وثروتي وعلى حياتي هذه الحياة القوية مثل الذُّرَّةِ. أيتها الآلهة، لا تسليبيني شيئاً منحتني إياها، فلتصفحي عني، فلتمنحيني الحياة! أيتها الآلهة هل تعتقدن أنني مذنبه؟ ما رأيك في أنني رفضت أن أكون زوجة لذلك الأبرص، رفضت أن أهبه نفسي وأنجب منه شيطاناً مريضاً يفسد هذا العالم الجميل؟ أيتها الآلهة، ما العفة؟ وما الاستقامة؟ ما الخير؟ ما الشر؟ لم تخبريني عن هذا كله من قبل؛ لذا فإنني تصرفت وفق فكرتي ورؤيتي في هذه الحياة، إنني أعشق السعادة، أعشق القوة، أعشق الجمال، إنني حرة في جسدي، أهبه لمن أشاء، لا أخشى الجريمة، لا أخشى العقاب، لا أخشى الجحيم، فعلت جميع ما يجب عليّ فعله. لكنني لا أرغب في الموت، أريد الحياة، أتمنى أن أنعم بالنظر إلى هذا العالم، يا إلهي.»

تأثَّرت السماء بإخلاص جدتي وصدقها، غرقت جدتي في دموعها، واستمر نزيه جرحها الغائر، وانعكست أشعة الشمس على عينيها، وراحت تنظر في عيني طفلها شديد الشبه بأبيه. وبدأت شفتاها تتحركان بصعوبة وهي تنادي على صغيرها، فراح أبي يصيح بصوت مرتفع: «أماه، هل أنت بخير! لن تموتي، لقد أحكمت السيطرة على مصدر النزيه، توقَّف النزيه بالفعل! سأذهب لأنادي أبي، أناديه ليأتي لرؤيتك. أماه، لا تموتي الآن، لا بد أن تنتظري قدوم أبي!»

غادر أبي المكان مسرعاً. وبدا وقع خطواته مثل همسات خفيفة، مثل تلك الموسيقى التي كانت تأتي من كبد السماء منذ قليل. وسمعتُ جدتي صوت هذا الكون المحيط بها، إنه صوت نباتات الذُّرَّةِ. راحت تُحدِّقُ النظر إليها، بدت هذه الذُّرَّةُ أمام عينيها شبه النائمة وكأنها شبح غامض. أحست بأن الذُّرَّةِ تتأوّه وتتمايل وتصيح وتلتفُّ حول نفسها، كانت تبدو لها تارة مثل عفريت مخيف، وتارةً أخرى مثل حبيب قريب إلى قلبها، بدت لها حقول الذُّرَّةِ مثل أفعى، وهكذا حتى عجزت جدتي عن وصف حقول الذُّرَّةِ. رأت عيدان الذُّرَّةِ حمراء وخضراء وسوداء وزرقاء، رأتها تضحك بصوت مرتفع، ورأتها تبكي بصوت أعلى، ورأت دموعها وكأنها أمطار غزيرة تسيل على شاطئ قريب منها. كانت ترى عبر عيدان

الذُّرَّةُ تلك السماء مرتفعة عنها وقريبة منها. أَحَسَّتْ أن هذه السماء قد التَحَمَّتْ مع الأرض مع الإنسان مع الذُّرَّةِ، أَحَسَّتْ بأن غطاءً واحدًا يلفها معًا. ومَرَّتْ على وجه جدتي سحابة بيضاء، وراحت السحابة البيضاء تَتَجَوَّلُ فوق حقول الذُّرَّةِ حرة طليقة. هبط إلى أعواد الذُّرَّةِ سرب من الحمام الأبيض. وأيقظ صوت هديل الحمام جدتي، راحت تنظر إلى سرب الحمام وقد بدا جليًّا أمام عينيها. كما راح الحمام ينظر إليها عن قرب بعيونه الصغيرة في حجم حبة الذُّرَّةِ. ابتسمت جدتي للحمام ابتسامة يعلوها الصدق، كمابادلها الحمام ابتسامة رقيقة، كانت أقل ما يمكن أن يقدم لسيدة مثلها تقديرًا لعشقها للحياة والإنسانية وهي على فراش الموت. راحت جدتي تصيح بأعلى صوتها: أحبائي، إنه ليعز عليّ فراقكم! ومضى الحمام ينقر بعض حبات الذُّرَّةِ، في محاولة منه للرد على ندائها الصامت. وكان الحمام يحوم حولها تارةً ينقر بمنقاره بعض حبات الذُّرَّةِ، وتارةً يبتلع حبات أخرى، انتفخت بطونه بينما كان يبسط أجنحته الجميلة. وبدًا ريش الحمام الجميل كأنه نُتِفَ صغيرة تهزها الرياح. كانت عائلتي قد رَبَّتْ من قبل مجموعة كبيرة من طيور الحمام. وكانت جدتي تقوم في فصل الخريف بوضع حوض كبير ممتلئ بالمياه الصافية داخل فناء المنزل، وبمجرد أن يعود الحمام من رحلته اليومية للبحث تراه يجلس بانتظام داخل الحوض الكبير، ثم ينظر إلى صورته على صفحة الماء الصافي وهو يقضم ما في حلقه من حبات الذُّرَّةِ. كنتُ ترى الحمام وقد خرج في جماعات تسير وسط الفناء الكبير. ونظرت جدتي أمامها لترى هذا السرب الكبير من الحمام الذي استقر فوق أعواد الذُّرَّةِ بعد أن جاء فرارًا من اضطرابات الحرب التي أصبَحَتْ تطارده في كل مكان، وكأن هذا السرب الكبير إنما جاء ليقدم التعازي في وفاة جدتي.

وأصيبت عينا جدتي بشيء من الغموض مرة أخرى، لترى جماعات الحمام تطير بعيدة عنها، وهي تعزف لحنا معروفا لها، ثم ارتفع الحمام بعيدًا في عنان السماء. وأوشك أن ينقطع آخر حبل يربط بينها وبين هذه الحياة، وسقطت جميع شوكها وأحزانها وتوترها وكآبتها داخل حقول الذُّرَّةِ الممتدة على جانبي الطريق، تجمع كل ذلك على أعواد الذُّرَّةِ. وراحت تَغْرِسُ جذورها داخل هذه الأرض السوداء، ليحني ثمارها أبناءها جيلًا بعد جيل. وهكذا طارت جدتي مع جماعات الحمام، طارت لتكتب نهاية حياتها وتحرُّرها، طارت وقد أَحَسَّتْ الآن بمشاعر الفرح والسكون والدفء والراحة والانسجام. وبدت جدتي راضية بهذه النهاية، فراحت تنادي بصدق وإخلاص: «يا إلهي، يا إلهي»

استمرت الرشاشات المثبتة على سطح السيارات اليابانية في إطلاق الرصاص بكثافة، واستمرت محركات هذه السيارات في الدوران بسرعة بينما هي تستمر في صعود الجسر الحجري. حاصرت الطلقات النارية جدي وفريقه حصارًا شديدًا. لقي بعض أعضاء الفريق الذين أطلُّوا برءوسهم بدون حذرٍ إلى حافة الطريق حَتْفهم بعد أن أصابتهم الطلقات النارية التي ترمي بها هذه الرشاشات في كل مكان. كاد جَدِّي ينفجر غضبًا من هول هذه الفاجعة. وبعد أن صعدت السيارات اليابانية إلى أعلى الجسر الحجري، أصبحت الطلقات النارية تطير على ارتفاع ملحوظ. قال جدي: «أيها الرفاق، فلنبدأ الهجوم الآن!»، وبادر هو وأطلق ثلاث طلقات، فأصابت طلقاته اثنين من جنود الشياطين اليابانيين، ولطخت دماؤهم السيارة التي كانت تسير في المقدمة. ومع هذه المبادرة التي بدأها جدي، انتشر صوت إطلاق النار على الجانبين الشرقي والغربي من الطريق، ليسقط حوالي سبعة أو ثمانية من جنود الشياطين. كما سقطت أقدام وأذرع اثنين آخرين من جنود الشياطين إلى داخل المياه على جانبي الجسر الحجري. ورفع الأخوة من عائلة فانغ العصيان وهم يصيحون بصوت مرتفع، ألقوا بالمشاعل الملتهبة، ليفزعوا العدو المرابط أمامهم، ألقوا بالكُرَّات الحديدية المشتعلة على الأجولة البيضاء التي كانت تحملها السيارة الثانية. وبمجرد أن ارتفعت ألسنة اللهب، راحت تسيل كميات كبيرة من الدُّرَّة البيضاء. وجاء أبي زاحفًا من داخل حقول الدُّرَّة حتى وصل إلى حافة النهر، وراح يتحدث بتوترٍ شديدٍ مع جدي، فنظر جَدِّي في عُجالة إلى سلاحه وما به من طلقات نارية. وأسرعت السيارة الأولى من السيارات اليابانية الأربعة بالصعود إلى سطح الجسر الحجري، غير أن عجلاتها الأمامية اشتبكت بطاقم التروس، فتعطلت العجلات الأمامية. اشتد الصوت المنبعث من السيارة، وامتدت سلسلة من الأمشاط الحديدية تقبض على السيارة، وأحس أبي أن السيارة تبدو مثل أفعى كبيرة ابتلعت قنفذًا، وأنها الآن تتلَوَّى من هول ما أصابها. وهنا بدأ جنود الشياطين يقفزون من أعلى السيارة التي كانت تسير في المقدمة. وقال جَدِّي مخاطبًا رجاله: «يا لايو، بلغ الإشارة!» فنفخ لايو في البوق الكبير ليصدر منه صوتٌ حزينٌ ومفزعٌ. وصاح جدي: «اهجموا!» وقفز حاملًا سلاحه، ولم يكن قد حدد هدفه بعد، بينما كان عدد من الجنود اليابانيين ينحنون أمام فوهة سلاحه. كما سارع رجاله الذين كانوا يرابطون في الناحية الغربية بالهجوم على السيارات اليابانية، واشتبكوا معهم في الحال، بينما راح الجنود اليابانيون الذين كانوا يراقبون المكان من على السيارات الخلفية يطلقون الرصاص في

الهواء. كان هناك اثنان من الجنود اليابانيين لا يزالون على سطح السيارة التي كانت في المقدمة، وهنا رأى جَدِّي الأخرس، وقد انقض على هذه السيارة، فقابله الجنديان بالخناجر، رفع الأخرس خنجره، واشتبك معهم في معركة حامية، حتى أسقطهم بضربة قوية. وراح أبي يفكر في قوة الأخرس وحدّة خنجره. ورأى أيضاً التعبيرات التي كانت تملو وجه الجنديين اللذين قضى عليهما الأخرس، رأى خدودهم التي كانت لا تزال ترتعش، وأنوفهم المفتوحة والدم الذي كان لا يتوقف عن التدفق من جراحهم الغائرة. وفي ذلك الوقت، جاءت جماعة الجنود اليابانيين الذين كانوا يَسْتَقِلُّون السيارات الخلفية، وبدءوا في إطلاق سَيْلٍ من الطلقات النارية، فسارع رجال جدي، وألقوا بأنفسهم فوق جثث القتلى اليابانيين، بينما سارع الأخرس، واحتفى بسطح السيارة والدماء لا تزال تسيل من صدره.

ألقي أبي وجدي بنفسيهما على الأرض، وراحا يزحفان مُتَوَجِّهين إلى داخل حقول الذُّرّة، محاولين أن يرفعا رءوسهما ببطء لمراقبة ما يحدث على حافة النهر. وهنا بدأت تتراجع آخر السيارات اليابانية، فسارَعَ جَدِّي بإصدار أوامره إلى رجاله قائلاً: «فانغ ليو، أطلقوا المدافع! اضربوا هؤلاء الكلاب!» فألقى الأخ فانغ ليو بالقذيفة صوب حافة النهر، بينما كان أخوه فانغ تشي يمضي إلى إشعال النار في فتيل جديد، وقد أصيب بطلقة في بطنه خرجت معها معدته. راح فانغ تشي يتأوه وينادي على أمه، ثم سارع بالزحف إلى داخل الذُّرّة. وعندما لاحظ جَدِّي أن السيارة اليابانية أوشكت على تخطي الجسر الحجري، راح يصيح وقد بدأ عليه التوتُّر: «أطلقوا النيران!» فأخذ فانغ ليو الفتيل، ولكنه واجه صعوبة كبيرة في إشعاله. فانقض عليه جَدِّي مسرعاً، وانتزع منه الفتيل، راح ينفخ فيه بفيه حتى نجح أخيراً في إشعاله. غير أن السيارة اليابانية كانت قد نجحت في الهروب من أعلى الجسر الحجري، بل لحقت بها السيارة الثانية والثالثة. تبعثرت بكميات كبيرة من الأرز الذي كانت تحمله تلك السيارات، وسقط الأرز داخل المياه أسفل الجسر الحجري. وظهرت بعض جثث الجنود اليابانيين تطفو وتسبح صوب الشرق والدم يسيل من أجزاء متفرقة منها. وأخيراً تمكَّن رجال جَدِّي من إشعال النيران في تلك السيارات اليابانية.

توقفت السيارات التي نجحت في الهروب، وبدأ الجنود اليابانيون يقفزون من أعلاها، وسارَعوا وانبطحوا على حافة النهر المقابلة، وأحكموا وَضَع مدافعهم، وراحوا يقصفون الجزء المقابل لهم. وأصيب فانغ ليو بطلقة في وجهه، وتَحَطَّم أنفه تماماً، حتى إن دماءه تطايرت لتصل إلى وجه أبي الذي كان على مسافة قريبة منه.

أما الجنديان اللذان كانا لا يزالان على سطح السيارة المشتعلة، فقد دَفَعَا باب السيارة وَقَفَزَا إلى خارجها، ثم ألقيا بنفسيهما داخل النهر. والسيارة التي كانت تحمل الأرز، وجدت نفسها مُحْتَجِزَةً في منتصف الطريق، وراحت كميات الأرز التي كانت على سطحها تتساقط بكميات كبيرة مثل مياه الأمطار الغزيرة.

فجأة توقفت مدافع الشياطين اليابانيين على حافة النهر المقابلة، وبقي فقط عدد من الرشاشات التي كانت تطلق بعض الطلقات هنا وهناك. وانقَضَ ما يزيد على عشرة من الجنود اليابانيين حاملين أسلحتهم صوب الشمال. فصاح جَدِّي أن أطلقوا النيران، غير أن عدد الجنود الذين لبوا نداءه كانوا قليلين جداً. والتفت أبي لينظر إلى جثث أعضاء فريق جَدِّي الملقاة أسفل وأعلى حافة النهر، سَمِعَ تأوهات المصابين منهم، الذين نجحوا في الزحف إلى داخل حقول الدُّرَّة المجاورة. فراح جدي يُطِلق طلقات متتالية حتى نجح في إرغام بعض الشياطين على مغادرة الجسر الحجري. سمع دَوِي طلقات نارية على الناحية الغربية من الطريق، نجحت في إسقاط بعض الشياطين. حتى اضطروا إلى التراجع، وفجأة تطايرت قذيفة صوب حافة النهر الجنوبية لتصيب ذراع جَدِّي اليمنى، وتأثّر ذراعه بهذه الطلقة حتى سقط منه سلاحه. فسارع جَدِّي بالتراجع إلى داخل الدُّرَّة، وراح ينادي على أبي: «دوو قوان، هلمّ لمساعدتي.» وشقَّ جدي كَمَّه، وطلب من أبي أن يساعده في ربط الجرح مستخدماً قطعة القماش البيضاء التي كان يَلْفُها حول خصره. واستغل أبي هذه الفرصة، وقال: «أبي، إن أمي تشتاق إليك.» فرد جدي: «ابني العزيز! فلتقف الآن إلى جوار أبيك للقضاء على هؤلاء الكلاب!» ومد يده إلى خصره، وأخرج المسدس الذي كان قد ألقى به أبي وسلمه له من جديد. وجاء العم ليو دا خاو من جانب النهر وقدمه مُخَضَّبَةً بالدماء، وسأل جدي: «أيها القائد، هل أسرع بتبليغ الإشارة لرجالنا؟»

فرد جدي: «نعم يا رفيقي!»

فوقف ليو دا خاو ورفع البوق وراح ينفخ فيه ليُخْرِج منه صوتاً مليئاً بالحماس الشديد.

وراح جَدِّي يصيح بصوت مرتفع: «اهجموا أيها الرفاق!»

سمع بعض الأصوات التي كانت تُرَدُّ كلامه من داخل حقول الدُّرَّة على الناحية الغربية من الطريق. وأخذ جَدِّي السلاح بيده اليسرى، وعندما همَّ أن يقفز إلى خارج الدُّرَّة، إذا ببعض الطلقات النارية المتواصلة تتطاير من جانب خده، فألقى بنفسه على الأرض، ثم زحف مسرعاً إلى حيث كان. وسمع صوت إنسان يتأوه بشدة على حافة النهر عند الناحية

الغربية من الطريق. فعرف أبي على الفور أن جندياً آخر من رجالهم قد أصيب بطلق نارى.

مضى العم ليو دا خاو ينفخ في البوق، اختلط صوت حماسه مع صوت احتكاك أوراق وأعواد الذرة بعضها ببعض.
فأمسك جدّي بيد أبي قائلاً: «ابني الحبيب، اتبعني إلى الناحية الغربية من الطريق لنلتحم مع بقية الرفاق.»

وابتعدت السيارات التي كانت على سطح الجسر الحجري، بينما بدت حبات الأرز وكأنها حبات جليدية صغيرة تتحرك أعلى صفحة مياه النهر. وسحب جدّي ابنه وعبر بسرعة إلى الطريق العام، بينما كانت الطلقات النارية لا تتوقف عن مطاردتهم وقد زلزلت المكان. وصادفوا في طريقهم اثنين من رجالهم امتلأت وجوههم بحبات الأرز المحترقة وجلودهم مليئة بالتشققات، فراحا يشكوان حالهما لجندي قائلين: «أيها القائد، لقد انتهينا!»

جلس جدّي داخل حقل الذرة مهموماً، ولم يرفع رأسه عن الأرض لمدة طويلة، بينما توقفت قذائف الشياطين على ضفة النهر المقابلة. وسمع صوت انفجار السيارة التي كانت على سطح الجسر، وسمع صوت البوق الذي كان ينفخ فيه العم ليو دا خاو على الناحية الشرقية للطريق.

لم يعد أبي يشعر بالخوف، فسار بمحاذاة حافة النهر وتسلل قليلاً ناحية الغرب، ومد رأسه من خلف بعض الأعشاب الذابلة. ورأى أبي أحد الجنود الشياطين يقفز من أعلى مظلة تلك السيارة التي لم تنفجر بعد. ثم قام ذلك الجندي بمساعدة جندي آخر كبير في السن، ساعده على الخروج من داخل السيارة. كان هذا الجندي الكبير نحيفاً جداً، ويرتدي قفازاً أبيض، ويعلق عند ردفه خنجرًا طويلاً، ويتنعل حذاءً جلدياً أسود. سارا معاً إلى جانب السيارة، حتى تسللا إلى أسفل الجسر. فرفع أبي مسدسه، غير أن يده لم تتوقف عن الارتعاش، بينما كانت مؤخرة ذلك الجندي الياباني العجوز تتمايل أمام فوهة مسدسه. فعض أبي على أسنانه، وأغمض عينيه قليلاً، ثم ضغط على زناد مسدسه، فسمع دوي الطلقة، وقد استقرت داخل المياه، وأصابت بطن سمكة داخل مياه النهر. وسقط الجندي العجوز إلى داخل المياه. فصاح أبي: «أبتاه، هناك مستولٌ كبير!»

سمع أبي صوت طلقة نارية تمر من خلفه رأسه، حتى وصلت إلى رأس الجندي العجوز لتحطمه تماماً، وامتلت مياه النهر على الفور بدماء الجندي الياباني. بينما لاذ الجندي الآخر بالفرار إلى خلف الجسر الحجري.

ثم عاود الجنود اليابانيون إطلاق قذائفهم مرة أخرى، فقام جدي بحماية ابنه. وكان اليابانيون يطلقون النيران بصورة عشوائية أعلى أعواد الذرة. فقال جدي: «أحسنت، هكذا تكون من صُلبي!»

لم يكن أبي وجدي يعلمان أن ذلك الجندي الياباني العجوز الذي تَمَكَّنَّا من قتله، هو اللواء الشهير جونج قانغ ني قاو.

لم يتوقف العم ليو دا خاو عن النفخ في البوق، وقد بدت السماء من فوقه مليئة بالدخان المتطاير من لهيب السيارة المشتعلة.

قال أبي: «أبتاه، إن أمي تشتاق إليك، وتطلب منك الذهاب إليها.»

فسأله جدي: «هل لا تزال أمك على قيد الحياة؟»

فأجاب أبي: «نعم، إنها لا تزال حية.»

سحب القائد يو ابنه وسارًا معًا إلى داخل حقول الذرة.

كانت جدتي لا تزال ترقد أسفل أعواد الذرة، وقد ظللت الذرة وجهها، بينما لا تزال تشرق أعلى وجهها ابتسامة رقيقة تنتظر بها جدي. بدأ وجهها أبيض على نحو لم تعهده من قبل، وعيناها لا تزالان مفتوحتين.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أبي دموع جدي القائد يو.

ركع جدي إلى جانب جثة جدتي، وراح يمد يده السليمة ليغمض عينيها.

عندما تُوِّفِّي جدي في عام ١٩٧٦م، كانت أمي قد أغمضت عينيه بيدها التي كانت تحتوي على ثلاثة أصابع فقط. وعندما عاد جدي من التلال والقمم الجرداء في جزيرة ببي خاي اليابانية، كان لم يعد يُحسِن نطق الكلمات. وكان أهل القرية قد أقاموا له احتفالاً كبيراً فور عودته من اليابان، شارك فيه الجميع بمن فيهم رئيس المدينة. وكنتُ آنذاك قد بلغتُ الثانية من عمري. وأذكر أن القرية أعدت في ذلك الاحتفال المهيب ثَماني طاولات كبيرة تم وضْعُها أسفل أشجار التفاح عند مدخل القرية، وُضِعَ على كل طاولة جرة من النبيذ وما يزيد على عشرة أوان صغيرة لشرب النبيذ. وكان السيد رئيس المدينة قد حمل جرة النبيذ وملاً قدحاً وقَدَّمه إلى جدي قائلاً: «أيها البطل الشيخ، فلنشرب جميعاً في صحتك، فأنت فخر لشعب هذه المدينة!» وجاهد جدي نفسه حتى وقف بين الجمع ومُقلَّته لا تكادان تَكْفَأَن عن الحركة هنا وهناك، وأخذ القدح الذي كان يهتز بين يديه، حتى إن معظم النبيذ ضل الطريق إلى فمه وجرى إلى مكان آخر.

أذكر أنه عندما كان جَدِّي يَسْحُبُنِي معه للتجول، وكنت أسحب معي كلبًا صغيرًا أسود، نطوف معًا حقول القرية. كان أكثر مكان يفضل جدي الذهاب إليه هو الجسر الذي يقع أعلى نهر موا شوى، حيث يقف عند رأس الجسر ويمسك بدعامته ويتسمر في مكانه وقتًا طويلًا. وكنتُ أُلَاحِظُ أن عينيه تتوقفان كثيرًا عند بعض الأجزاء المتصدعة في جسم الجسر. وعندما كانت تعلو الذُّرَّة، كان يصطحبني معه إلى داخل حقول الذُّرَّة، والحقل الذي كان يَتَرَدَّدُ عليه كان أيضًا قريبًا جدًّا من نهر موا شوى. أُحَمِّنُ أن هذا المكان هو بالضبط المكان الذي صعدت فيه روح جدي إلى السماء، وأن تلك البقعة من أرض هذا الحقل هي التي تشربت يومًا ما بدمائها الذكية. حتى ذلك الحين لم يكن منزل العائلة قد تهدم بعد، وكان جَدِّي قد وقف ذات يوم أسفل الشجرة التي في وسط الفناء وراح ينبش بيديه التراب. حتى عثر على بعض الحشرات الصغيرة وقَدَّمَهَا لي، وألقيت بها على الفور لكلبي الصغير الذي راح يعضها حتى ماتت، ثم ألقى بها بعيدًا ولم يأكلها. فسألته أمي التي كانت تستعد للذهاب إلى المطبخ لإعداد الطعام قائلة: «ماذا تفعل يا أبي؟» فرفع جدي يديه وراح ينظر إلى أمي بنظرة مباغثة. فغادرت أمي المكان وسعت لحاجتها، بينما استمر هو في نبشه أسفل الشجرة. واستمر حتى نجح في حفر حفرة كبيرة، وأتى ببعض جذور الأشجار وحمل صندوقًا حديدياً أصابه الصدأ. وما إن وقع الصندوق على الأرض حتى تحطم تمامًا. ثم أتى بقطعة حديد حمراء أطول من قامتي آنذاك، فسألته عن هذا الشيء الذي أراه بيده، فأجابني قائلاً: «وه، وه، بندقية. بندقية.»

وضع جَدِّي البندقية تحت أشعة الشمس، وجلس أمام بندقيته وراح يتأملها بدقة. ثم نهض من مكانه وراح يبحث حوله حتى عثر على فأس كبيرة كنا نستخدمها في تقطيع الحطب، وراح يضرب بها البندقية. واستمر يضربها حتى حطمها وجعلها مُجَرَّدَ قِطْع حديدية صغيرة، وأخذ بهذه القطع الصغيرة وراح يُلقِي بها هنا وهناك حتى ملأ بها جميع أرجاء الفناء.

فسأله أبي: «أبتاه هل ماتت أمي؟»

فهز جَدِّي رأسه.

فقال أبي: «أبتاه!»

مسح جَدِّي على رأس ابنه، ومد يده إلى مؤخرته، وأخرج سيفًا صغيرًا، وقطع بعض عيدان الذُّرَّة وغطى بها جثة زوجته.

سمع صوت طلقات نارية وصياحًا وانفجارات هناك على جنوب الحاجز الترابي. فأخذ جَدِّي بابنه وألقى به إلى أعلى الجسر.

واتجهت جماعة تزيد على المائة رجل في لباس عسكري رمادي إلى داخل حقول الدُّرَّة الواقعة على جنوب الجسر. وجاء إلى حافة النهر ما يزيد على عشرة من الجنود اليابانيين، كان من بينهم من لقي حتفه بالرصاص ومن قُتل بطعنات الخناجر. ورأى أبي القائد لينغ الذي كان يضع الحزام الجلدي حول خصره، والذي كان معلقاً فيه مسدسه، رأى القائد لينغ وهو يحيط به بعض الجنود ذوي القامات العالية، رآهم جميعاً يدورون حول السيارات اليابانية، قادمين نحو شمال الجسر. فما إن رأى جدِّي القائد لينغ حتى ابتسم ابتسامة يملؤها الغضب، ثم أمسك بسلاحه ووقف عند رأس الجسر.

جاء إلينا القائد لينغ مزهواً مغروراً، ثم قال: «أيها القائد يو، لقد أحسنت القتال!»
 فلعنه جدي: «أنت، أيها اللعين ابن الكلاب!» «لو كُنْتُ قد تأخَّرْتُ خطوة واحدة!»
 - «ابن الكلاب!»، «لو لم نكن لحقنا بكم، لكنتم انتهيتم تماماً!»
 - «ابن الكلاب!»

ووجَّه جدِّي فوهة سلاحه تجاه القائد لينغ. وبمجرد أن أعطى القائد يو إشارة صغيرة، كان هناك اثنان من رجاله الأشداء استولياً على سلاح جدي.
 رفع أبي مسدسه، وأصاب به ذلك الجندي الذي كان يحكم قبضته على مؤخرة جدي.
 فمدَّ أحد الجنود قدمه في حركة سريعة لتطرح أبي أرضاً، ثم سلب منه المسدس.
 قام الجنود بالسيطرة على جدِّي وأبي.
 - «أيها الكلب لينغ ماتزه، افتح عينيك وانظر إلى رفاقي!»

كان هناك على ضفة النهر، وعلى جانبي الطريق العام وداخل حقول الدُّرَّة، جُثث قتلى وجنود مصابين، وكان العم ليو دا خاو لا يزال ينفخ في البوق والدماء تنزف من فمه وأنفه.

خلع القائد لينغ ماتزه قبعته، وسجد سجدة لحقول الدُّرَّة الواقعة على الناحية الشرقية للطريق العام، ثم أتبعها بسجدة للحقول الواقعة على الناحية الغربية.
 وقال القائد لينغ ماتزه: «فلتطلقوا سراح القائد يو وابنه الأمير الصغير!»
 قام الجنود على الفور بإطلاق سراحهما. بينما كانت الدماء لا تزال تسيل من جرح ذلك الجندي الذي أصابه أبي.

مد القائد لينغ يده، وأخذ البندقية من يدي الجندي، وأعادها إلى القائد يو.
 عبر جنود القائد لينغ الجسر، واتجهوا صوب السيارات اليابانية وجثث الجنود اليابانيين. وقاموا بجمع المدافع والرشاشات والأعيرة النارية وصناديق الذخيرة والخناجر

والمحافظ وغيرها من الغنائم. حتى إن بعضهم نزل إلى داخل النهر وأمسك بأحد الشياطين اليابانيين الذي كان لا يزال حياً مختبئاً خلف دعامة الجسر، ورفع أيضاً جثة أحدهم.

قال الجندي الصغير: «أيها القائد لينغ، إنه القائد!»
فتقدم القائد يو إلى الأمام متأثراً بما سمع، ثم قال: «جرّده من لباسه العسكري، واستول على جميع ما لديه.»

وقال القائد لينغ مخاطباً جدي: «أيها القائد يو، سنلتقي يوماً ما!»
فأحاط بعض الجنود بالقائد لينغ، وغادروا في اتجاه الجنوب.
صاح جدي قائلاً: «قف يا لينغ!»
فالتفت القائد لينغ إليه، ثم قال: «أيها القائد يو، سأسامحك لأنك لن تستطيع النيل مني!»

فقال القائد يو: «أما أنا فلن أسامحك!»
رد القائد لينغ: «يا وانغ خو، اترك للقائد يو رشاشاً!»
فقام بعض الجنود بحمل رشاش ووضعوه أمام جدي.
«وسنترك لك أيضاً هذه السيارات بما تحمله من الأرز.»
قام جميع رجال القائد لينغ بعبور الجسر، وساروا في صفٍّ واحدٍ في اتجاه الشرق بمحاذاة النهر.

عند غروب الشمس، كانت تلك السيارة قد احترقت تماماً، وبقي منها فقط بعض القطع الحديدية السوداء، وكانت رائحة الإطارات المحترقة خانقة للغاية. أما السيارتان اللتان لم تحترقا، فكانتا لا تزالان أعلى الجسر. وقد امتلأ النهر بالمياه السوداء، وبدت على جانبي الطريق حقول الذرة الحمراء.

مدّ أبي يده إلى حافة النهر ليُمسك بقطعة فطير سليمة بعض الشيء، وقدمها لأبيه قائلاً: «فلتأكل يا أبي، إنها من صنّع أُمي.»
قال الأب: «فلتأكل أنت يا صغيري!»

فدسّ أبي قطعة الفطير داخل يد والده، ثم قال: «سأذهب لأبحث عن قطعة أخرى.»
عاد أبي وقد عثر على قطعة فطير جديدة، وراح يلتهمها بشراهة.

الباب الثاني

نبذ الذرة

١

كانت أمي قد أخبرتني بأنها لا تعلم السبب الذي جعل من الذرة الرفيعة الحمراء بريف دونغ بيي بمدينة قاو مي؛ مادة خامًا رئيسية لنبيذ الذرة ذي الرائحة العطرة الذكية والطعم اللذيذ الذي لا يصيب خلایا المخ بأدنى ضرر، كانت أمي دائماً تكرر على مسامعي: إن العائلة تتوارث هذه الوصفة الخاصة، وأنه غير مسموح بإفشاء سر هذه الوصفة إطلاقاً؛ لأن في إفشائها إضراراً بسمعة عائلتي الطيبة أولاً، ثانياً: لأنه في يوم من الأيام ستقوم الأجيال اللاحقة بإدارة شركة لصناعة النبيذ، وإذا تم إفشاء سر هذه الوصفة، فإن تلك الأجيال ستفتقد إلى الأبد تلك السمات المميزة لهذه الصناعة. كما أن جماعة الحرفيين في بلدنا، إذا ما كانت لديهم وصفات خاصة، فإنهم كانوا يفضلون توريثها لزوجات أبنائهم وليس لبناتهم، حتى إن هذا الأمر كان في غاية الجدية، ولا بد من الالتزام به كما تلتزم بعض الدول بقوانينها.

قالت أمي: إنه عندما كان السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ يُشرفان على فرن صناعة النبيذ، حقاً نجاحاً معقولاً. وعلى الرغم من أن نبيذ الذرة الذي كانت تنتجه العائلة آنذاك كان ذا طعم جيد، فإنه لم يكن بنفس الدرجة الممتازة التي أصبح عليها فيما بعد، ولم يكن إطلاقاً بنفس الطعم اللذيذ الذي أصبح يتميز به خلال السنوات الأخيرة. والسبب الحقيقي الذي كان وراء تفرّد نبيذ الذرة الذي اشتهرت به عائلتي عن جميع ما كانت تنتجه العائلات الأخرى على مستوى البلدة، يرجع إلى حكاية قيام جدّي بقتل السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ، وما قامت به جدي من استعادة شهرة ومكانة نبيذ عائلة دان بعد فترة قصيرة من الهلع والرعب وقدرتها على التقدم

وإثبات موهبتها في هذا المجال. فكما تكون المصادفة والأمور الهزلية سبباً في العديد من الاكتشافات العظيمة، فإن قيام جدي بالتبول داخل قدر النبيذ كان هو السبب وراء تفرد وذيوع شهرة نبيذ الذرة الذي تخصصت في صناعته عائلتي. إذًا فلماذا أصبح ذلك القدر الذي امتلأ ببول جدي ينتج نوعاً متفرداً من نبيذ الذرة؟ في الحقيقة هذا أمر علمي، وليس بإمكانني أن أتعرض له، وقد قررت أن أترك هذا الأمر لأهله من العلماء المتخصصين في صناعة النبيذ لدراسته والوقوف على حقيقته. كانت جدتي والجد لولو خان قد قاما بعد ذلك بمزيد من التجارب في مجال صناعة النبيذ، قاما بتلخيص التجارب السابقة للعائلة، وقاماً باستخدام ذلك القدر الذي امتزج بالبول ليحل محل الطريقة القديمة التي كنت تعتمد على خلط مختلف أنواع النبيذ لصناعة نبيذ الذرة. كانت طريقتهم هذه تعتبر سراً مهماً، ولم يكن يعرف هذا السر آنذاك سوى ثلاثة أشخاص فقط هم جدتي وجدتي والجد لولو خان. ويحكى أن طريقة الخلط السرية كانت تتم في ساعة متأخرة من الليل والناس نيام، كانت تقوم جدتي بإشعال البخور وحرق عدد ثلاثمائة ورقة من النقود الورقية، ثم تأتي ببعض الأعشاب وتلقي بها داخل القدر الكبير. كما يقال إنها كانت تعتمد القيام بهذه الأمور أمام جمع من الحاضرين، لكي تستعرض أمامهم ما بجعبتها من طرق سحرية تتفرد بها هذه العائلة، حتى تراهم في زهول شديد معتقدين بأن السماء تبارك هذه الصناعة وهذه الطريقة التي تنفرد بها العائلة. وهكذا حازت العائلة شهرة واسعة في مجال صناعة نبيذ الذرة، وكانت تسيطر على هذه السوق خلال السنوات الماضية.

٢

عادت جدتي إلى منزل أبيها، ومكثت به ثلاثة أيام حتى حل موعد العودة إلى منزل زوجها الأبرص. وخلال هذه الأيام الثلاثة، كانت ترفض الطعام والشراب، وتبدو شاردة طوال الوقت، حتى عندما كانت تقوم بإعداد ما لذ وطاب من الطعام والشراب، وتداعب ابنتها لكي تأكل أقل قدر من الطعام، كانت جدتي لا تزال ثابتة على موقفها مُحجمة تماماً عن الإقبال على الطعام والشراب، حتى أصابها ضعف وإرهاق شديد. وعلى الرغم من قلة ما دخل جوفها من طعام وشراب خلال تلك الأيام الثلاثة، فإن ملامحها لم تتغير، كنت لا تزال ترى جبهتها البيضاء، ووجنتيها الحمراء وعينيها السوداوين. وبالطبع كانت أمها لا تتوقف عن توجيه اللوم لها قائلة: «أيتها الابنة، إلى متى ستستمرين هكذا ممتنعة عن

الطعام والشراب؟ هل ارتقيتِ إلى مصاف الآلهة أو أصبحت في مكانة بوذا؟ لقد أوشكتُ أن أموت حزناً على حالك!» ثم تنظر الأم إلى صغيرتها القابعة في مكانها ممتنعة عن الزاد، حتى لا تتمالك الأم نفسها، وتذرف الدموع على حال صغيرتها المسكينة. بينما كانت الابنة تَسْتَرِقُ النظر إلى أمها بعينين تملؤهما الحيرة. وكأنها سمكة كبيرة تُراقب ظلام النهر من أعلى حافة عالية. وفي اليوم الثاني من عودتها إلى منزل أبيها، كان أبوها قد أفاق من سُباته، وتذكر جيداً وَعَدَ حما ابنته له، حيث وعده بأن يُهديه بغلاً كبيراً أسود اللون، فراح الأب يسرح بخياله بعيداً يرى البغل وهو يعدو بسرعة بين الحقول. بغل أسود اللون، ذو عينين بارقتين وحوافر قوية. قال الأب مخاطباً نفسه وهو في غاية القلق: «أيها العجوز، إن ابنتك تمتنع عن الطعام والشراب، فما العمل إذًا؟» ثم قال: «دعها في عنادها حتى تهلك.»

ووقف الأب أمام ابنته وقال وهو يلهث: «أيتها الصغيرة، ماذا تنوين أن تفعلي؟ إن الزواج قسمة ونصيب. وستتزوجين من يختاره لك هذا النصيب. وعليك أن تعلمي أنني لستُ مسئولاً كبيراً ذا مالٍ وفيرٍ وجاهٍ عريق، وأنتِ لستِ جميلة الجميلات، من عظيم حظك أن يكون لك هذا الزوج الثري، بل من عظيم حظي أنا أيضاً. انظري لقد قرَّرَ حموك الثري أن يهديني بغلاً كبيراً، فما أجوده من حمٍ عظيم.»

وكانت جدتي لا تزال قابعة في مكانها مغمضة عينيها. وقد بدأ عليها التعب الشديد من قلة النوم. فراح الأب يُحدِّقُ فيها ثم قال غاضباً: «إلى متى ستستمرين في عنادك، اعلمي جيداً أنه حتى ولو أصبحتِ جثة هامدة، فأنتِ زوجة لابن عائلة دان، وأنه ليس لك نصيب في مقبرتي الخاصة!»

فابتسمتُ جدتي ابتسامة تعلوها السخرية مما سمعته.

فرفع الأب يده وصفعها على وجهها صفعاً قوياً.

وبدت جدتي حزينة، وقد ظهر الشحوب على وجهها الذي كان متورداً، واستمر وجهها في الشحوب حتى بدا مثل شمس الأصيل. فراحت تعض على أسنانها، وتضحك ضحكات ساخرة، وتنظر إلى أبيها بكل قسوة، ثم قالت: «إنك تخشى فقط ... إذا حدث أن ... فإنك لن ترى حتى شعرة من بغلك الكبير!»

طأطأتُ جدتي رأسها، وخطفتُ عصا الطعام، ثم أخذت بسلطانية الطعام الذي كان لا يزال دافئاً بعض الشيء، وألقت بها بعيداً، ثم أخذت بسلطانية أخرى ورمتها لأعلى، فراحت السلطانية تبرق أمامها حتى اصطدمت بسقف الحجر، ثم سقطت قطع صغيرة

ملأت أرجاء الحجرة. ثم ركلت سلطانية الثالثة، ركلتها ركلةً قويةً لتصطدم بالحائط لتتكسر إلى نصفين. فأصيب الأب بذهولٍ شديدٍ من هول ما رأى، وبقي مكانه صامتاً لفترة طويلة. فقالت الأم: «ابنتي الحبيبة، أخيراً انتبّهتِ إلى الطعام!»

كانت جدتي قد بدأت نوبة بكاءٍ شديدة بعد أن قامت بتحطيم آنية الطعام، وكان بكاؤها بكاءً عذباً رقيقاً، يفيض بالمشاعر، بكاء بدموع غزيرة، وتجاوز بكاؤها حدود الحجرة الصغيرة، ليُسمع نويّه في الحقول الممتدة خارج المنزل، وليتمزج صوت بكائها مع صوت اهتزاز أعواد الذُّرة في نهاية الصيف. وخلال استغراقها في هذا البكاء الحارّ المُفجِع، كانت تتنازعها الكثير من الأفكار، وهي غارقة في الذكريات التي مرت بها خلال هذه الأيام الثلاثة منذ أن صعّدت الهودج، وغادرت منزل أبيها حتى عادت إليه ثانية على ظهر ذلك الحمار الصغير. فكانت جميع الصور التي مرت أمام عينها خلال هذه الأيام الثلاثة، وجميع الأصوات التي سمعتها، والروائح التي شمّتها، كان ذلك كله ينال قدرًا كبيرًا من تفكيرها، بما في ذلك الرياح التي هبّت على حقول الذُّرة، والأمطار التي هطلت أثناء رحلتها، والعواصف وجميع ما عاشته خلال هذه الأيام الثلاثة، تذكّرت الحركات البطولية التي قام بها ذلك الشاب عندما اعترض طريقهم قاطع الطريق، كان ذلك الشاب أقوى وأشجع هؤلاء الشباب الذين كانوا يحملون الهودج، كان زعيم هؤلاء الكلاب. وكان عمره لا يزيد على أربعة وعشرين عامًا، وقد بدأ لها وجهه القوي يخلو من التجاعيد. وتذكّرت أيضًا عندما كان ذلك الوجه القوي قريبًا جدًا من وجهها، وعندما التقت شفثاهما. وهنا احمرّ وجهها وسرى الدم في عروقها. كانت الذُّرة هي الشاهد الوحيد على لقاءهما، لفتها أعوادها وامتلاّت سماؤهما برحيق ثمارها. حاولت هي كثيرًا أن تكبح جماح رغبتها، ولكن باءت محاولاتها بالفشل أمام إصرار ذلك الرجل الذي كان يبدو لها مثل فجلة متعفنة. تذكّرت أصابع يده العشرة التي كانت طويلة وقوية مثل مخالب الطيور. وشعر رأسه الذي كان قد تركه في ضفائر صغيرة، وسلسلة المفاتيح النحاسية التي كانت معلقة في الحزام الملفوف حول خصره. جلست جدتي تتذكر، وعلى الرغم من بُعد المسافة التي كانت تفصلها عن ذلك المكان الذي شهد لقاءهما، فإنها كانت تشعر وكأنها تشم رائحة ذلك المكان جيدًا. تذكّرت ذلك الرجل عندما استلّ سيفه الصغير وقام بتقطيع عدد كبير من أعواد الذُّرة، تذكّرت تلك الرائحة التي كانت تشمها من أعواد الذُّرة المتقطعة وكأنها رائحة دماء نكية. وتذكّرت أيضًا ما قاله لها ذلك الرجل: عليك أن تفكري فقط في العودة إلى هنا بعد ثلاثة أيام! لا تزال تذكّر جيدًا ذلك الشرر الذي لمحت في عينيه حينما كان

يوجه حديثه إليها. وأحسَّت جدتي أن المستقبل الذي ينتظرها لهُو تغيير كبير لم تعهده طيلة حياتها.

يعلم الكثيرون أن البطولة موهبة طبيعية يولد الإنسان وهو مُرَوِّد بها، وأن الروح البطولية روح كامنة داخل الإنسان، وأنها تتحوَّل إلى تصرُّف بطولي عندما يصادف الإنسان إغراءات من العالم الخارجي. كانت جدتي آنذاك قد بلغت السادسة عشرة من عمرها، وكانت منذ صغرها تداوم على مختلف أنواع اللعب المحببة لدى الفتيات الصغيرات من القص والتطريز والتصنيف. ولم تكن علاقاتها تتعدَّى الأخت الكبرى والأخت الصغرى من بنات جيرانهم من الناحية الشرقية والغربية، فأين لها القوة التي تمكنها من تحمُّل ومواجهة هذه التغيرات الكبيرة التي تشهدُها حياتها؟ وأين لها القوة التي تجعلها تتحلَّى بالبطولة في مثل هذه المواقف الخطيرة؟ هذه أمور يصعب توضيحها.

وخلال نوبة البكاء الطويلة التي قَصَّتْها جدتي في حجرتها بمفردها، أقول: لم تشعر خلال ذلك بحجم المعاناة التي تعرَّضت لها، بل وتنتظرها فيما بعد، ولكنها على العكس تمامًا أحسَّت وأدركت أن بداخلها شعورًا بالسعادة، نعم فقد كانت تبكي وهي تتذكر مشاعر السعادة والسرور والمعاناة والحزن التي عاشتها خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وأحسَّت أن صوت البكاء الذي تسمعه إنما هو صوت موسيقى تعزف من مكان بعيد. وأخيرًا راحت تُفكِّر في أمر هذه الحياة، أدركت أنها قصيرة مثل حياة الأزهار الصغيرة التي تنتهي بانتهاء فصل الربيع، فلماذا كل هذا الخوف الذي يسيطر عليها؟

وسمعت صوت أبيها يناديها باسمها قائلاً: «حان وقت الرحيل يا جيو إرا! هيا بنا، هيا بنا، هيا بنا!»

طلبتُ جدتي بعض الماء وغسلت وجهها، ثم وضعت عليه بعض المساحيق. ونظرت إلى المرأة، وفكت دبابيس الشعر التي كانت تثبت بها شعرها الطويل المرسل، فتفرَّق شعرها الكثيف، وانساب على ظهرها. ووقفت أعلى المصطبة، وأخذت المشط الخشبي بيدها اليمنى، وبدأت تمشط شعرها الطويل، بينما كانت يدها اليسرى تقوم بتجميع خصلات الشعر ولفها أمام صدرها. وكان شعرها يتميز بأنه شعر أسود ناعم طويل ذو لمعان قوي. وهكذا مَضَّت تُرتَّب خصلات شعرها التي انتهت من تمشيطها جيدًا، وراحت تثبتها ببعض الدبابيس الصغيرة. كما قامت بتهديب خصلات الشعر التي تنزل على جبينها. ثم قامت بربط قدميها الصغيرتين، وارتدت زوج الجوارب الصغير الأبيض، وارتدت سروالها الطويل، وانتعلت الحذاء المطرز، وانتبَهت إلى ضرورة أن تكون قدميها الصغيرتان بارزتين.

كانت قدمها الصغيرتان أول ما لفت انتباه السيد التَّريِّ دان يان شيو، كانت هاتان القدمان الصغيرتان أيضًا أول ما حرك شهوة الشاب حامل الهودج يو جان أو. وكانت جدتي شديدة الفخر والاعتزاز بقدميها الصغيرتين. فإذا كانت الفتاة تمتلك قدمين صغيرتين فإنها ستفوز بالزَّوج المناسب مَهْمَا كان قُبْح وجهها، أما إذا كانت الفتاة تمتلك قدمين كبيرتين، فإنها ستظل عانسًا حتى لو كانت في جمال الحُور العين. كانت جدتي تمتلك قدمين صغيرتين ووجهًا جميلًا، كانت جميلة الجميلات، أعتقد أن أقدام النساء قد تحولت خلال فترة زمنية طويلة إلى عضو جنسي مهم، فلقد كانت الأقدام الصغيرة تمنح الرجل قوة وشهوة جامحة. وأخيرًا انتهت جدتي من لباسها وزينتها وخرجت إلى خارج الحجرة. وكان الأب قد جهَّز حماره، ووضع على ظهره حاشية مناسبة. وراح الحمار ينظر إلى جدتي. وانتبهت جدتي إلى نظراته، وأحسَّت بأن هذا الحيوان لديه القدرة على إدراك ما يدور بداخلها الآن. فرفعت رجلها وصعدت إلى أعلى ظهر الحمار الصغير. ولم تجلس على ظهر الحمار كما تجلس النساء على ظهور الحمير والبغال والخيول في ذلك الحين، ولكنها جعلت ظهر الحمار بين رجليها الاثنتين. فطلب منها أبوها أن تجلس كما تجلس النساء على جانب من ظهر الحمار، فرفضت وركلت الحمار في بطنه حتى يُسرِع في السير. ونفخت صدرها وراحت تنظر إلى الأمام غير عابئة بما كان وبما سيكون.

وهكذا ذهبَ جدتي ولم تُعد. وفي البداية كان أبوها هو الذي يمسك الحبل ليجر الحمار، وما إن وصلوا إلى خارج حدود القرية، قامت جدتي بسحب الحبل وجعلت تقود الحمار بمفردها. وراح الأب يجري خلف الحمار. وخلال الثلاثة أيام الأخيرة، كانت قد هطلت نوبة من الأمطار الرعدية، ونظرت جدتي إلى يمين الطريق فوجدت بعض الذرة التي بدت أوراقها ذابلة. فعرفت على الفور أن هذه المنطقة قد تأثرت بالرعد الشديد، وتذكَّرت زميلتها تشينغ إر التي كانت قد توفيت في العام الماضي بسبب عاصفة رعدية شديدة، كانت زميلتها شابة في السابعة عشرة من عمرها، احترق شعرها وتمزقت ملابسها، وامتلأ ظهرها بالكثير من التجاعيد، وهناك من ذكر أن هذه التجاعيد لم تكن بسبب هذه العاصفة الرعدية، وإنما كانت تجاعيد وُلدت بها الفتاة. وانتشرت الأقاويل في البلدة لتقول إن تشينغ إر أودت بحياتها بسبب طمعها في الأموال، وأنها قد قضت أيضًا على حياة طفل صغير. يذكر أن تشينغ إر أثناء سيرها في الطريق سمعت صوت بكاء طفل صغير، فاقتربت منه لتتصَفَّح أمره، فوجدت طفلًا صغيرًا ملفوفًا في صرة. فراحت تفتح الصرة لترى الطفل، فظهر لها طفل ذكر وإلى جانبه قصاصة صغيرة مكتوب عليها: أبي

عمره ثمانية عشر عامًا، وأمي فتاة في السابعة عشرة من عمرها، وأنجبا طفلاً اسمه لو شي. وتزوج أبي بالأخت الكبرى جانغ إر صاحبة القدمين الكبيرتين من القرية الغربية، وتستعد أمي للزواج من با يان تزده من القرية الشرقية، هان عليهما أن يُلقيا برضيعهما، وكانا قد غرقا في دموعهما من شدة الموقف، وحاولا أن يخفيا دموعهما حتى لا يفتضح أمرهما. وأعلنا أن الأسرة التي ستحتضن لو شي وتقوم بلفه بقطعة من الحرير ستحصل على مكافأة قدرها عشرون دا يانغ، فليخبر القاضي الداني، ولتتقدوا هذا الرضيع. وحكى الكثيرون أن الفتاة تشينغ إر كانت قد أخذت بقطعة من الحرير لفت بها الطفل، وحصلت على المكافأة الكبيرة، غير أنها قامت بإلقاء الطفل داخل حقول الذرة، ومن ثم فقد أصابتها لعنة السماء. وبما أن جدتي كانت صديقة حميمة للفتاة تشينغ إر، لم تُصدّق ما تداوله الناس حول موت صديقتها، ولكن بمجرد أن فكّرت في أمر هذه الحياة الإنسانية، وأنه من الصعب التكهّن بالحياة والموت، لم تستطع إخفاء ما بداخلها من حزنٍ وخوفٍ.

كان الطريق لا يزال رطباً بعد توقّف تلك الأمطار الرعدية، نظّفت مياه الأمطار الطريق جيداً، وتركت بعض النتوءات في مناطق مختلفة من الطريق. وهكذا قام الحمار الصغير بترك أثر أقدامه مرة ثانية على هذا الطريق الذي يعرفه جيداً. وظهرت أزهار الأقحوان الكبيرة وأوراقها مغطاة بطبقة من الطين. بينما كانت بعض الجنّاب تملأ أعواد الأعشاب البرية وأعواد الذرة، وهي تهز أجنتها مُصدّرة صوتاً حزيناً. اقتربت نهاية الصيف الطويل، وبدأت تنتشر تباشير الخريف، فبدأت جماعات من الجراد التي أحسّت بقرب حلول الخريف، بدأت تخرج من داخل حقول الذرة ببطونها الممتلئة لتتجمع وتتركز في عرض الطريق، لتعلن استعدادها للبيض وسط هذا الطريق العام.

مد الأب يده وكسر غصناً من أعواد الذرة، وراح يضرب به الحمار ليحثه على السير، فرفع الحمار ذيله قليلاً، وأسرع بعض الشيء، ثم عاد ثانية إلى مشيته المعهودة بين السرعة والبطء. وبدا أن الأب كان مسروراً من أعماق قلبه، حيث كان يسير خلف الحمار وهو يتغنّى بأغنية «خاي ماو تزده تشيانغ» المعروفة في ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي. فكان الأب ينشد: «شرب وو دا لانغ السم وشعر بألم شديد ... وأحس باضطراب شديد شمل أمعاه ورتته ... تزوج الرجل القبيح من حسناء فاتنة، فكلّت مصيبة كبيرة على العائلة ... آه ... آه ... وأحس وو دا بامتعاض شديد في بطنه فراح يأمل فقط في حل مشكلة أخيه الصغير ... فعاد إلى المنزل لرفع الظلم عن أخيه ورماه بنظرات ساخرة.»

اشدت خفقان قلبها عند سماعها غناء أبيها العجوز، وسيطرت عليها حالة من السكون. وظهرت أمامها فجأة صورة ذلك الشاب الذي التقت به قبل ثلاثة أيام، والذي كان ممسكاً بسيفٍ صغيرٍ وهو ينظر إليها نظرات عابسة. وراحت تُفكّر في أمره، فَمَن يكون ذلك الشاب؟ وما هدفه؟ وعلى الرغم من أنها لم تكن تعرفه من قبل، فإن ما تراه الآن ليس إلا حالة من التقاء السمك بالماء بعد رحلة طويلة على الشاطئ، وبعد معركة داخلية من التردد في الاستجابة إليه والتسليم له، فإنها استجابت لترتيبات القدر، وتنهّدت تنهّدت عميقة.

أطلقت العنان لحمارها الصغير، بينما كانت تستمع إلى صوت غناء أبيها الشيخ الكبير، وأخيراً وصلت بعد رحلة من المعاناة إلى نفق الضفادع. فراح الحمار يُطأطئ رأسه ويرفعها، وأنفه مغلق تماماً، ثم راح يقفز ثابتاً في مكانه. فضربه الأب بعود الذرة على مؤخرته ليواصل السير، ثم ضربه على قدميه الخلفيتين وهو يلعنه: «إلى الأمام أيها الحمار الخسيس! إلى الأمام أيها الحيوان الهجين!» وهكذا استمر في ضربه حتى سمعت جدتي صوت عود الذرة على ظهر الحمار، غير أن الحمار لم يستجب للشيخ الكبير وتحذيراته، بل كان يبطن الحصى ويتراجع نحو الخلف. وشمّت جدتي رائحة كريهة، فنزلت من على ظهر الحمار، ووضعت كمها على أنفها لعلها تتقي شر هذه الرائحة الكريهة، ومدّت يدها لتسحب الحمار. فرفع الحمار رأسه ومضى خلف الفتاة، وقد فاضت عيناه بالدموع. فحاطبته جدتي قائلة: «أيها الحمار الشجاع، تحمّل قليلاً وامض إلى الأمام، واعلم جيداً أنه لا مستحيل عند أهل العزيمة.» تأثر الحمار بكلامها، ورفع رأسه ونهق بصوت مرتفع، ثم مضى يشق طريقه بسرعة فائقة، حتى إنها شعرت بصعوبة كبيرة في اللحاق به. وعندما مر الحمار وصاحبته بجثة قاطع الطريق، حاولت جدتي أن تنظر إليها نظرة خاطفة، لاحظت نكوم أعداد كبيرة من الذباب والحشرات حول الجثة.

وسحبت جدتي الحمار لتتخطى نفق الضفادع، ثم صعدت على ظهره من جديد، وتركت لأنفها العنان في شم رائحة نبيذ الذرة القادمة مع الرياح الشمالية الشرقية. كانت جدتي فخورة جداً بشجاعته التي أظهرتها مؤخراً، غير أن الحيرة عادت تتملكها من جديد. فلا تزال قرية زوجها دان بيان لانغ تبعد عنها كثيراً، وبينما هي مُستغرقة في شم رائحة نبيذ الذرة الذكية التي كانت تشدّد شيئاً فشيئاً، أحسّت بأن عظامها بدأت تتجمد من شدة البرد. وانتبهت إلى صوت رجل داخل حقول الذرة على الناحية الغربية للطريق يتغنّى بصوت خشن قائلاً:

تَقْدَمِي أيتها الأخت الصغيرة!

تَقْدَمِي بكل شجاعة وجرأة،

فالطريق أمامك طويل جدًا.

تقدمي أيتها الأخت الصغيرة!

ستسكنين من اليوم المقصورة الحمراء،

وتضربين رأسي بالكرات المطرزة الحمراء،

فلتشاركنيني شراب كأس من نبيد الذرة الرفيعة الحمراء.

راح الأب الشيخ يصيح بصوت مرتفع موجّهًا صياحه إلى صاحب ذلك الصوت قائلاً:

أنت يا هذا، يا من تتغنّى داخل الذرة! اخرج لمواجهتي، فما هذا الهراء الذي تصيح به!

٣

وبعد أن انتهى أبي من أكل قطعة الفطير، راح يدوس على بعض الحشائش البرية التي انعكست عليها أشعة الغروب في طريقه للنزول من أعلى حافة النهر، ثم مضى حتى وقف على ضفة النهر. ونظر إلى السيارات الأربعة، وقد تحطّمت إطارات السيارة التي كانت في المقدمة تمامًا، والتي لا تزال في مكانها أعلى الجسر الحجري على نهر موا شوى، بينما يظهر على سطح السيارة وعلى جسمها بقايا دم. رأى الجزء الأعلى من جسد أحد الجنود اليابانيين معلقًا على سطح السيارة، وقد بدأ رأسه وكأنه كاد ينفصل عن رقبته. وقد امتلأت خوذته بدمائه. واستمع إلى صوت مياه النهر التي بدت كأنها تبكي بشدة. وحدّق في حقول الذرة المجاورة التي لا تتوقف عن النمو. وفي ضوء الشمس الذي بدأ غير واضح أعلى صفحة مياه النهر الحزين. واستمع إلى صوت بكاء الحشرات الصغيرة التي كانت تختفي أسفل الحشائش البرية. ونظر إلى السيارتين الثالثة والرابعة اللتين كادت أن تحترقا بالكامل. وسط كل هذه الأصوات والمناظر التي سمعها وشاهدها، راح أبي ينظر ويستمع إلى صوت نزيف الدم الذي كان يسيل من جثة الجندي الياباني. كان أبي حينذاك يزيد قليلاً عن الرابعة عشرة من عمره. فإذا به ينظر إلى شمس اليوم التاسع من شهر أغسطس لعام ١٩٣٩م حسب التقويم القديم، وقد توارت تمامًا، وإلى الجثث التي تركت دماؤها أثرًا واضحًا على جميع الأشياء المحيطة به، وإذا به ينظر إلى وجهه النحيف وقد تلطخ بقطع صغيرة من الطين الممزوج بدماء تلك الجثث. ثم جلس على موقع مُتقدّم

من النهر إلى جوار جثة زوجة العم وانغ ون إي، وعندما لامست شفثاه مياه النهر، إذا به يشعر بامتعاضٍ شديدٍ من مياهه، وقد أحسَّ بطعم ورائحة الدماء، وأحس بتشنج شديد سيطر على حلقة تماماً، ومضى يجاهد نفسه حتى عاد حلقة إلى حالته الطبيعية. وعندما دخلت مياه نهر موا شوى حَلَقَه، رَطَّبَتْ جفأفه فشعر ببعض السعادة الممتزجة بالمعاناة، فعلى الرغم من رائحة الدم القوية التي تفوح من مياه النهر، فإنه لم يتوقف عن الشرب حتى ارتوى بعد ظمأً شديداً. وعندما اقترب حلول الظلام، وبقي بصيص من أشعة الشمس الحمراء، بدأت رائحة احتراق السيارتين الثالثة والرابعة تتضاءل بالتدرج. وفجأة سمع صوتاً جعله يشعر بذهول شديد، رفع رأسه وراح يتتبع الصوت، فإذا به صوت انفجار بقايا إطارات السيارات، استمر في مشاهدتها وهي تطير أعلى وحول الجسر الحجري مثل الفراشات السوداء حتى سقطت داخل مجرى النهر، كما شاهد أجولة الأرز الياباني، وقد ملأت صفحة مياه النهر. واستدار بجسمه ليرى جثة تلك المرأة القصيرة زوجة وانغ ون إي الملقاة إلى جانب النهر، بدت غارقة في دمائها. فصعد أبي إلى أعلى حافة النهر، وراح ينادي على أبيه بصوت مرتفع: «أبي!»

كان جَدِّي يقف آنذاك أعلى حافة النهر، وقد بدأ عليه الإرهاق الشديد، ونظر أبي إلى شعر والده فوجده قد ابيضَّ، فشعر بمزيد من الحزن والأسف على ما أصابه، ثم اقترب منه ودفعه برفقٍ قائلاً: «أبي! ماذا بك؟»

فلاحظ على وجهه خطين من الدموع، وسمع صوت بكاء أبي أن يخرج من حلقة. ورأى ذلك الرشاش الذي تركه له القائد لينغ شفقة به، رأى الرشاش الياباني مُلْقَى أمام جَدِّي وكأنه نذب كبير يحرسه، ونظر إلى فوهة الرَشَّاش وقد بدت وكأنها عين كلب.

«أبي، فلتتحدث إليّ، ولتأكل هذه القطعة من الفطير، ثم لتذهب لتروي ظمأك ببعض الماء، وإلا فإنك ستموت من الجوع والعطش.»

فمدَّ الأب رقبته إلى الأمام، وقد بدا في غاية الإرهاق. ثم جلس على حافة النهر، ووضع يديه حول رأسه وصمت لحظات قليلة، ثم رفع رأسه. وراح ينادي أبي قائلاً: «دوو قوان! ابني الحبيب، هل ترى أننا مُنينا بهزيمة نكراء؟»

فنظر أبي إليه وهو في زهولٍ تامٍّ. وكانت عينا أبي مفتوحتين وقد أظهرتا بعض الشجاعة التي ورثها عن أمه، أضاءت هذه النظرات التي تبعث على الأمل في هذه الظروف الصعبة، قلب جَدِّي الحزين.

نبيذ الدُّرَّة

قال الابن: «أبي، أرجو منك ألا تشعر بالحزن الشديد، فسأتعلم إطلاق الرصاص، وسأتقنه كما كنتَ تتقنُ الصيد في صباحك، ثم سأخذ بثأرك من ذلك الكلب اللعين لينغ ماتزه!»

قفز الأب في مكانه، وأصدر صوتاً ما بين البكاء والضحك. وقد سألت بعض الدماء من بين شفتيه: «أحسنَت يا صغيري! نعم لقد أحسنَت، ابني العزيز!»

مد جدِّي يده والتقط قطعة الفطير التي كانت قد أعدَّتْها جدتي بيديها، وراح يلتهمها بشراهة، وقد ظهرت بعض آثار الدم حول شفتيه. وعندما سمع أبي صوت الطعام وقد اختنق داخل جوف أبيه، خاطبه قائلاً: «أبي، فلتنزل إلى النهر لتروي عطشك وحتى ينزل الطعام بسهولة إلى معدتك.»

نزل جدِّي عن حافة النهر وهو يتمايل، ثم جنأً بركبتيه على بعض الحشائش على ضفة النهر، ومد رقبته الطويلة يشرب من مائه، وكأنه بغل أو حصان. ونظر إليه أبي، فإذا به بعد أن ارتوى من مياه النهر يغطس رأسه حتى النصف الأعلى من رقبته داخل المياه، وراح يُحرِّكه داخل المياه. وترك رأسه داخل المياه لوقتٍ غير قصير، كان أبي يراقب جدي وقد نسي رأسه في المياه، فانتابه بعض القلق على أبيه، وأخيراً رفع الأب رأسه، وأخذ نفساً عميقاً، ثم وقف وصعد إلى أعلى حافة النهر، حتى وقف أمام ابنه. فنظر الابن إلى رأس أبيه، كانت لا تتوقف عن التقطير. رفع الأب رأسه، فتطايرت حوله كمية كبيرة من قطرات المياه التي بدت وكأنها حبات من اللؤلؤ.

وقال الأب مخاطباً ابنه: «دوو قوان، فلترافقني حتى نذهب للاطمئنان على أعضاء

الفريق!»

سار جدِّي يتمايل داخل حقول الدُّرَّة الواقعة على الجانب الغربي من الطريق، ثم تبعه أبي في عجالة. وقد داسا بأقدامهما الكثير من أعواد الدُّرَّة، ومضياً داخل حقول الدُّرَّة، وكانا ينحنيان بين الحين والآخر لمشاهدة أعضاء الفريق الذين كانوا يرددون داخل الدُّرَّة في صمتٍ تامٍّ. لقد ماتوا جميعاً، راح جدِّي وأبي يُحرِّكان جثث أعضاء الفريق لعلهم يجدون من بينها أحياء، لكن باءت محاولتهم بالفشل، حيث مات جميع أعضاء الفريق. ورفع جدِّي وأبي أيديهما، وقد بدت ملطخة بالدماء. نظر أبي إلى اثنين من أعضاء الفريق كانت جثتهما مَلْقِيَتَيْنِ هناك في أقصى الطرف الغربي، واكتشف أن هناك مسدساً مَحَلِّي الصُّنْع يعلق فم إحدى الجثتين، بينما كانت الجثة الثانية ملقاة على الأرض وبها خنجر مَعْلَق في بطنها. راح جدِّي يُقَلِّب في الجثتين، بينما اقترب أبي منهما لينظر إلى أقدامهما

المكسورة ومعدتيهما المحطمتين. فأخذ جدِّي نفسًا عميقًا، ثم مدَّ يده لينتزع المسدس، من داخل فم الجثة الأولى، والخنجر من بطن الجثة الثانية.

تبع أبي جدِّي في السير على الطريق العام الذي بدأ منيرًا وسط السماء المكفهرة، ومضيًا يُقلِّبان النظر في جثث أعضاء الفريق التي كانت ملقاة في مناطق مُتفرِّقة داخل حقول الذُّرَّة على الناحية الشرقية من الطريق. لاحظًا أن جثة العم ليو دا خاو لا تزال في مكانها وعلى هيئتها، وبدا العم ليو ممسكًا بالبوق وكأنه في وضع الاستعداد للنفخ فيه. فبدأ منه جدي، وقال بصوت متأثر: «يا ليو دا خاو!» فلم يرد عليه العم ليو، فتقدَّم أبي ودفع العم ليو دفعة بسيطة ثم صاح: «عمي الكبير!» فسقط البوق على الأرض، وعندما أحنى أبي رأسه ليلتقط البوق، رأى وجه العم ليو قد أصبح جامدًا تمامًا وكأنه قطعة حجرية.

وأخيرًا عثر جدِّي وأبي على بُعد عشرات الخطوات من حافة النهر وداخل حقول الذُّرَّة التي لم تتعرض للتخريب الخطير، على اثنين من أعضاء الفريق هما فانغ تشي، و«الأخ الرابع المسلول» (وقد أُطلِّقت عليه هذه التسمية؛ لأن ترتيبه بين أخوته هو الرابع، كما أنه أصيب في صغره بمرض السُّل الرئوي)، ولاحظًا أن قدم المسلول مصابة بطلق نارِي، وأنه قد أغمي عليه تمامًا بسبب شدة النزيف. فوضع جدِّي يده المملّخة بالدماء على شفتي المسلول، أحس بالرائحة والنفس الجاف القادم من أنفه. أما أمعاء فانغ تشي فقد بدت محشورة داخل بطنه، حاول سد الجرح بورقة من أوراق أعواد الذُّرَّة. فما إن انتبه فانغ تشي إلى القائد يو وابنه حتى راح يخاطبهما: «أيها القائد يو ... انظر إليّ لقد انتهيتُ ... وإذا قابلت زوجتي ... فأعطيها بعض المال ... ولا تدعها تتزوَّج من بعدي ... فإنه ليس لدينا أبناء ... فإذا ما غادرت زوجتي ... فستنتهي عائلة فانغ.» كان أبي يعلم أن فانغ تشي لديه ابن يبلغ عمره ما يزيد على عامٍ واحدٍ، وأن زوجته كان لديها ثدي كبير ممتلئ باللبن، وكان كافيًا لإشباع طفلهما.

قال جدي: «أخي العزيز، دعني أحملك على ظهري لتعود إلى منزلك.»
فجلس جدِّي مُقرِّفصًا، ثم شد ذراع فانغ تشي ليجعله خلف ظهره، فسمع صوت صراخ فانغ تشي، فنظر أبي إلى فانغ تشي، فإذا به يتألم من سقوط ورقة الذُّرَّة التي كانت تسد فوهة الجرح، وشم رائحة الدماء المنبعثة من داخل بطنه. وضع جدِّي فانغ تشي على الأرض، فراح فانغ تشي يواصل صراخه قائلاً: «أخي الأكبر ... هذا يكفي هذا يكفي ... أرجو ألا تجعلني أتألم أكثر من ذلك ... فَلتُرْحني برصاصة واحدة.»

فَرَفَصَ جَدِّي ثَانِيَةً، وَأَمَسَكَ بِيَدٍ فَانَغَ تَشِي، ثُمَّ قَالَ: «أَخِي الْعَزِيزُ، دَعْنِي أَحْمُكَ لِنَبِيحَتِ عَنِ السَّيِّدِ جَانِحِ شَيْنِ إِيَّيْ، فَإِنْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يِعَالِجَ مِثْلَ هَذِهِ الْجُرُوحِ.»
- «أَخِي الْأَكْبَرُ ... فَالْتَسِرْ ... وَلَا تَدْعُنِي أَعَانِي كُلَّ هَذِهِ الْمَعَانَاةِ ... فَإِنِّي أَصْبَحْتُ إِنْسَانًا لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ.»

رَزَّ جَدِّي عَيْنِيهِ، وَرَاحَ يَتَأَمَّلُ سَمَاءَ شَهْرِ أَغْسُطُسِ الْمَصْفُورَةِ وَالْمِزِينَةِ بِالْكَوَاكِبِ اللَّامِعَةِ، ثُمَّ قَالَ لِأَبِي: «دُوو قَوَانِ، هَلْ لَا يِزَالُ هُنَاكَ طَلَقَاتُ نَارِيَّةٍ دَاخِلِ مَسْدَسِكَ؟»

رَدَّ أَبِي: «نَعَمْ لَا يِزَالُ يَوْجِدُ بَعْضَ الطَّلَقَاتِ.»

فَأَخَذَ جَدِّي الْمَسْدَسَ مِنْ يَدِ أَبِي، وَفَتَحَ بَيْتَ النَّارِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ الْمَصْفُورَةِ، وَلَفَّ عَجَلَةَ الْمَسْدَسِ. ثُمَّ قَالَ: «أَخِي فَانَغَ تَشِي، فَلْتَطْمَئِنِّ كَثِيرًا، فَلَنْ تَجُوعَ زَوْجَتَكَ وَطِفْلَكَ مَا دُمْتُ أَمْتَلِكُ قُوَّةَ يَوْمِي.»

هَزَّ فَانَغَ تَشِي رَأْسَهُ ثُمَّ أَعْمَضَ عَيْنِيهِ.

وَرَفَعَ جَدِّي الْمَسْدَسَ، وَقَدْ أَحْسَسَ أَنَّهُ أَصْبَحَ ثَقِيلًا جَدًّا، بِالضَّبْطِ كَمَا لَوْ كَانَ يَرْفَعُ بِيَدِهِ صَخْرَةَ تَرْنَ مَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسِمِائَةِ كِيلُوجَرَامٍ، وَارْتَجَفَتْ جَمِيعَ فَرَائِصِهِ.

فَفَتَحَ الْأَخُ فَانَغَ تَشِي عَيْنِيهِ وَنَظَرَ إِلَى جَدِّي قَائِلًا: «أَخِي الْأَكْبَرُ.»

وَفَجْأَةً حَرَّكَ جَدِّي وَجْهَهُ قَلِيلًا، فَخَرَجَتْ كُرَّةٌ مِنَ اللَّهَبِ مِنْ فُوهَةِ الْمَسْدَسِ، أَضَاءَتْ رَأْسَ فَانَغَ تَشِي النَّاعِمَةِ. فَتَهَاوَى جَسَدَهُ بِسُرْعَةٍ خَرَجَتْ أَمْعَاؤُهُ تَمَامًا، وَنَظَرَ أَبِي إِلَى أَمْعَاءِ فَانَغَ تَشِي، وَلَمْ يَكُنْ يَصْدُقُ بِأَنَّ بَطْنَ الْإِنْسَانِ تَحْوِي دَاخِلَهَا هَذَا الْكَمَّ مِنَ الْأَمْعَاءِ.

نَظَرَ جَدِّي إِلَى الْمَسْلُولِ نَظْرَةً، ثُمَّ قَالَ: «وَأَنْتَ أَيْضًا أَيُّهَا الْأَخُ الْمَسْلُولُ. فَلْتَسْتَرِحْ مَبْكَرًا، حَتَّى لَا نَدْعُ فُرْصَةَ لِهَوْلَاءِ الْيَابَانِيِّينَ الْمَلَاعِينَ يَنْهَوْنَ حَيَاتَكَ بِأَيْدِيهِمْ!» وَأَطْلَقَ جَدِّي الرِّصَاصَةَ الْأَخِيرَةَ عَلَى الْمَسْلُولِ.

وَبَعْدَ أَنْ قَتَلَ جَدِّي هَذَا الْقَاتِلَ الَّذِي اعْتَادَ أَنْ يِزْهَقَ الْأَرْوَاحَ بِلَا حِسَابٍ. بَعْدَ أَنْ قَتَلَ الْمَسْلُولُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يِتِمَالِكَ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ الْمَوْقِفِ، فَسَقَطَ مِنْ يَدِهِ الْمَسْدَسُ، وَأَحْسَسَ بِأَنَّ يَدَهُ شَلَّتْ تَمَامًا، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يِنْحَنِي قَلِيلًا لِأَخْذِ الْمَسْدَسِ ثَانِيَةً.

مَالَ أَبِي عَلَى الْأَرْضِ، وَالتَّقَطَ الْمَسْدَسُ وَوَضَعَهُ دَاخِلَ حِزَامِهِ الْمَلْفُوفِ حَوْلَ خَصْرِهِ، وَحَاوَلَ أَنْ يِشْدَ أَبَاهُ الَّذِي كَانَ شَارِدًا تَمَامًا قَائِلًا: «أَبِي، فَلْنَعُدْ إِلَى الْمَنْزِلِ، فَلْنَعُدْ إِلَى الْمَنْزِلِ.»

وَهَكَذَا سَحَبَ أَبِي جَدِّي وَصَعَدَا إِلَى حَافَةِ النَّهْرِ، وَسَارَا بِخُطَى بَطِينَةٍ صُوبَ الْغَرْبِ. وَنَظَرَا إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا بِقَمَرِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ شَهْرِ أَغْسُطُسِ وَقَدْ لَاحَ فِي الْأَفْقِ، وَأَضَاءَ الْقَمَرَ ظَهْرَهُمَا، وَانْعَكَسَ ضَوْؤُهُ عَلَى نَهْرِ مَوَا شَوَى الْعَظِيمِ. وَرَاحَتْ جَمَاعَاتُ الْأَسْمَاكِ

الصغيرة تنطلق وتحوم حول نفسها بعد أن استفزتها مياه النهر الممتزجة بالدماء. امتزجت نسمات برودة مياه النهر مع نسمات الدفء المنبعثة من داخل حقول الذرة، لتكوّنًا معًا هالة من الضباب الخفيف الصافي. وتذكر أبي الضباب الذي شاهده فجر ذلك اليوم عند بدء الرحلة، وأحس بأن هذا اليوم مر عليه كأنه عشر سنين كاملة، بل مر كلمح البصر. وتذكر أمه عندما خرجت تُودّعه وسط ذلك الجو الضبابي، وبدأ له مشهد توديعها بعيدًا وقريبًا في آنٍ. وتذكّر الصعوبات التي لاقاها خلال السير وسط حقول الذرة، ومشهد نزيف أذن العم وانخ ون إي، ومشهد تقدّم أعضاء الفريق الأربعة إلى الطريق العام، وخنجر العم الأخرس، ورعوس الشياطين اليابانيين، ومؤخرة ذلك الشيطان العجوز، ومشهد سقوط أمه على حافة النهر ... ومشهد سقوط وتناثر سلة الفطائر ... وسقوط أعواد الذرة الحمراء ... ومشهد سقوط أعواد الذرة وكأنها أبطال تتساقط في أرض المعركة.

حمل جدّي أبي الذي كان قد غلبه النعاس أثناء سيره، ثم أحس جدّي بأن المسدس الذي كان يعلقه أبي عند خصره يخرّه في صدره، فتألّم الأب كثيرًا، ثم مضى يفكر في أن هذا المسدس هو في الأصل مسدس الرفيق رن نائب القائد، ذلك الشاب الأسمر النحيف الوسيم الذي كان يحمل مؤهلًا جامعيًا. ثم تذكّر الأب أن هذا المسدس هو نفسه الذي قتل نائب القائد والرفيق فانغ تشي والرفيق «السلول» وود لو ألقى به في عرض نهر موا شوى، أه من هذا المسدس المشنوم! نعم إنه يفكر فقط في التخلّص من هذا المسدس، فانحنى قليلًا، ورفع ابنه النائم على ظهره، ليخفف عن نفسه الألم الذي يسببه له المسدس.

استمر جدّي في السير وهو تائه لا يعرف أين يكون، ولا حتى إلى أين يمضي. وبينما هو تائه وقد غلبه الدوار، سمع صوتًا قويًا. فرفع رأسه يتحقق من الصوت، فإذا به يرى تينبًا يتلوى على حافة النهر البعيدة.

ركز جدّي انتباهه قليلًا، وقد بدت أمامه صورة مرتبكة غامضة حينًا وواضحة حينًا آخر، وعندما كانت الصورة تبدو غامضة كان يرى هيئة التنين المفزعة وهو يعدو بسرعة رهيبية، ويهز جسمه الضخم الممتلئ بالحراشف مُحدثًا صوتًا مسموعًا، ويصيح بصوت قوي جدًّا، وقد اختلطت الأصوات من حوله مُتجمعة في صوت قوي مفزع، وكأنه رياح عاتية تهلك جميع ما يقابلها، أما عندما كانت الصورة تبدو واضحة، فكانت عيناى تميز أن ما تراه عبارة عن تسعة وتسعين مشعلًا ناريًا، وقد بدأت المشاعل تقترّب نحوي تحملها مئات البشر. انعكس ضوء المشاعل النارية على مساحات الذرة الرفيعة جنوب

النهر وشماله. حيث سطع ضوء مجموعة المشاعل الأمامية على هؤلاء الذين كانوا يسرون في الخلف، بينما سطع ضوء المشاعل الخلفية على السائرين في المقدمة. فأنزل جدِّي أبي من فوق ظهره، وهزه بقوة، ثم قال: «دوو قوان! دوو قوان! استيقظ استيقظ! لقد خرج أهل البلدة لاستقبالنا، انظر إنهم أهل البلدة جاءوا لاستقبالنا.»
سمع أبي صوت جدِّي المبحوح. ثم نظر إلى عينيهِ وقد نزلت دمعتان تُعبّران عن رضاه وسروره بقدم أهل البلدة.

٤

عندما قام جدِّي بقتل دان يان شيو وابنه، كان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره. وعلى الرغم من أن لقاء جدتي به وسط حقول الذرة قد خالطه شعور بالحزن والسعادة في آن، وعلى الرغم من أن جدتي قد ارتكبت تلك الجريمة، وحملت بأبي الذي أصبح فيما بعد ممثلاً لجيل من أجيال قرية دونغ بيي بمدينة قاو مي، على الرغم من ذلك كله فإن جدتي كانت حينها تُعتَبَرُ زوجة شرعية لأحد أبناء عائلة دان الثرية، لقاءها بجدي كان لقاءً غير شرعي، كان لقاءً عفويًا اعتراضيًا، بالإضافة إلى أن أبي لم يكن قد وُلِدَ بعد، ومن ثمَّ فإنني سأكُتَبُ عن ذلك الرجل هنا باسم يو جان أو أدقُّ من أن أطلق عليه جدِّي.
كانت جدتي قد واجهت يو جان أو آنذاك حزينه من أن زوجها الشرعي دان بيان لانغ مريض بالبرص، فراح يو جان أو يقطع بسيفه الصغير بعض أعواد الذرة، ثم طلب من جدتي أن تنشغل فقط بأمر العودة إلى هذا المكان بعد ثلاثة أيام، لم تكن جدتي تعي آنذاك ما يرمي إليه قوله، فقد أسكرتها نشوة الحب التي أحاطها بها. كان قد أضمر نية التخلص من الزوج الأبرص. وقام ليودع جدتي إلى خارج حقول الذرة، ونظر إليها وإلى الحمار الصغير وإلى أبيها الذي كان في سُكْرِ شديد. وسمع صوته وهو يناديها بصوت إنسان يُمل من كثرة الشراب: «ابنتي ... أنت ... قضيت كل هذا الوقت الطويل لقضاء حاجتك داخل الذرة ... إن حماك ... سيهدي لنا بغلاً كبيراً.»

لم تعبأ جدتي بهذيان والدها، وصعدت على ظهر الحمار، وجعلت وجهها تجاه حقول الذرة الممتدة على الجهة الجنوبية من الطريق. كانت تعرف جيداً أن ذلك الحمال الشاب يراقبها من داخل الذرة. وفجأة استطاعت أن تخرج عن الحالة التي كانت تسيطر عليها منذ قليل، وانتبهت إلى أن أمامها الآن طريقاً جديداً وغريباً ممتلئاً بحبات تشبه كثيراً

حبات الذُّرَّة، وعلى جانبي هذا الطريق تفوح رائحة نبيذ الذُّرَّة. ولا تزال هناك مساحات شاسعة من الذُّرَّة، ثم اختلطت الذُّرَّة الموجودة في الواقع على جانبي الطريق مع الذُّرَّة التي كانت تظهر في خيالها، حتى أصبح من الصعب تمييز الواقعي والخيالي.

كان يو جان أو لا يزال يمسك بأعواد الذُّرَّة، وعيناه تودَّع جدتي وهي تنعطف يمينًا ويسارًا. ثم بدأ يعود إلى محرابه الذي نصبه داخل الذُّرَّة، وسقط بقوة وراح في نوم عميق. ونام حتى الغروب، وما إن فتح عينيه رأى سيقان وسنابل الذُّرَّة وقد انعكست عليها شمس الغروب. فلَبِس رداءه المصنوع من القش، وهمَّ بالخروج من داخل حقول الذُّرَّة التي بدأ يلفها الظلام، وبينما هو كذلك هبت رياح خفيفة تبعها صوت ارتطام أعواد الذُّرَّة بعضها ببعض. وأحس ببرودة الجو، فشد رداءه عليه. واصطدمت يده ببطنه الخاوية التي سمع شكواها من شدة الجوع والعطش. وبينما هو شارد هكذا، تذكر أنه قبل ثلاثة أيام مضت، وعندما كان يسير من هذا المكان حاملاً تلك المرأة على ظهره، كان قد رأى لافتة مطعم بالية أسفل أحد المساكن عند مدخل القرية. وهكذا أرغمه الشعور بالجوع والعطش على كسر حاجز الخوف والتردد، فهَمَّ بالخروج من حقول الذُّرَّة، وأسرع الخُطَى يقصد ذلك المطعم. وراح يفكر في أنه قد جاء إلى هذه البلدة قرية دونغ بيي ليعمل في شركتها لخدمات الأفراح والجنائز منذ أقل من عامين، وأن سكان المنطقة القرية من القرية لن يتعرَّفوا عليه. وعزم على الذهاب بسرعة إلى الحانة التي يوجد بها المطعم ليسد جوعه ويروي عطشه، ثم العودة بأسرع ما يمكن إلى مأواه داخل حقول الذُّرَّة. وما إن فكر في هذه الخطة التي رسمها لنفسه، حتى راح يتأمَّل منظر الغروب والظلمة التي بدأت تلف المكان. ثم توجَّه صوب اليسار، ثم سار يقصد قرية دان بيان لانغ الزوج الشرعي لجدتي. وكانت الحقول قد أصبحت في سكون تام، نام جميع أهل القرية من الفلاحين الذين يعملون في هذه الحقول، فلم يكن أحد منهم يجرؤ على الوجود خارج منزله ليلاً، وبمجرد دخول الظلام، كانت الحقول تتحول إلى فضاء يلفه ظلام الليل وسكونه. وقد حالفه الحظ في تلك الأيام، حيث لم يعترض طريقه أي من قُطَاع الطُّرُق. وعندما دخل يو جان أو القرية كان الدُّخان يتصاعد من مطابخ منازلها، ورأى شابًا وسيماً يأتي من ناحية البئر وهو يحمل جَرَّتَيْن ممتلئتين بالمياه الصافية. ودلف يو جان أو إلى داخل الحانة التي كانت خالية من الأسوار، فيما عدا بسطة صغيرة من الطين تقسم المكان إلى نصفين، ورأى بالداخل موقدًا ومزجلاً وجرة كبيرة. وخارج الحانة توجد منضدتان

قديمتان، تحيط بهما في غير انتظام مجموعة من المقاعد الصغيرة الضيقة. وأعلى البسطة يوجد مجموعة من أدوات النبيذ. وهناك شيخ ممتلئ يقف عند الموقد. وما إن نظر يو جان أو إلى الرجل حتى عرفه على الفور، كان ذلك الرجل يُدعى «قاو لي بانغ تز» وقد اشتهر بقتل الكلاب. وتذكر يو جان أو أنه رأى هذا الرجل في منطقة ما جيان جيي شانغ، وقد تمكَّن من قتل كلب خلال أقل من نصف دقيقة، حتى إن جميع الكلاب في ذلك المكان كانت ترهبه ولا تجرؤ على التقدم نحوه.

وجلس يو جان أو على أحد المقاعد، ثم قال: «أعطني كأساً من النبيذ أيها المعلم!» فلم يتحرك الشيخ السمين من مكانه قيد أنملة، وراح يحرك مقلتيه الرماديتين. فصاح يو جان أو: «يا معلم!»

فنزّل العجوز من أعلى المصطبة وفتح جلد كلب. كان يتغطى بجلد كلب أسود، ويفترش جلد كلب أبيض. رأى يو جان أو جلوداً للكلاب خضراء وزرقاء وملونة مُعلّقة على الحائط.

ومد الشيخ يده، وأخرج من أسفل البسطة سلطانية حمراء بُنيّة، وراح يصبُّ داخلها بعض النبيذ.

فسأله يو جان أو: «ما هذا الشيء الذي تستخدمه في صب النبيذ؟»

فأجابه العجوز بلهجة قاسية: «رأس كلب!»

فقال يو جان أو: «إذاً أرغب في أكل لحم الكلاب!»

فرد العجوز: «لا يوجد سوى لحم رأس الكلب!»

فقال يو جان أو: «فليكن لحم الرأس!»

ففتح العجوز غطاء القدر، ليرى يو جان أو أن بداخله رأس كلب يغلي.

فصاح يو جان أو: «أرغب في أكل لحم الكلاب!»

فلم يُعِره الشيخ أدنى اهتمام، وانشغل بالبحث عن سكين، وراح يقطع الرأس الذي كان يغلي داخل القدر، ثم وضع ما انتهى منه أعلى البسطة. فراح يو جان أو يسبه قائلاً:

«أخبرتني أنني أرغب في أكل اللحم!»

فدفع الشيخ الرأس أمامه قائلاً: «إما أن تأكل، وإما أن تنصرف.»

— «هل تجرؤ على سبّي؟»

فرد الشيخ: «فلتجلس أيها الشاب!»، «هل ترى أنك تستحق أكل اللحم؟ لقد تركتُ

اللحم ليأكله السيد خوا بوه تز.»

كان هذا السيد خوا بوه تزه زعيم عصابة قُطَّاع طُرق مشهور في قرية دونغ بيبي، حتى إن يو جان أو قد دُهِل بمجرد سماع اسمه. وتقول الإشاعات المختلفة إن خوا بوه تزه بارع في إطلاق الرصاص، حتى إنه يُلقَّب «بملك النار»، وما إن تسمع رصاصة في أي مكان داخل القرية، حتى يُؤكِّد الجميع أنه هو الذي أطلقها. وعلى الرغم من أن يو جان أو لم يكن ليستسلم لقول العجوز، فإنه اضطر للسكوت، ومد يده وحمل سلطانية النبيذ وأمسك بلحم الرأس، وبدأ يلتهمها بشراهة. كان يشعر بجوعٍ شديدٍ. فأكل حتى شبع، وراح يتجشأ.

فقال العجوز: «دا يانغ واحدًا.»

«معي سبع عملات نحاسية فقط.» أخرج يو جان أو العملات النحاسية السبعة ووضعها أعلى المنضدة.

- «دا يانغ كاملًا!»

- «معي سبع عملات نحاسية فقط.»

- «أيها الشاب، هل جئتَ إلى هنا ...؟»

«معي فقط سبع عملات نحاسية!»، وقام يو جان أو ليغادر المكان، فتقدم الشيخ إلى أمام البسطة وجذبه إليه. ودخل آنذاك رجل ضخم البنية.

فتساءل الرجل الضخم: «يا معلم قاو لي بانغ تزه، كيف لا تشعل المصابيح؟»

فأجاب الشيخ: «لقد تعرضتُ لأحد الذين يرغبون في الأكل بالقوة.»

فبدأ الرجل الضخم عابسًا، ثم قال: «فلتقطع لسانه! أشعل المصباح.»

ترك الشيخ يو جان أو من بين يديه، وتقدَّم نحو البسطة، وأشعل فتيل المصباح. فانعكس ضوءه على ذلك الرجل الضخم، ليرى يو جان أو الرجل بوضوح، كان يلبس حُلَّةً من الحرير الأسود، وحذاءً مصنوعًا من القماش، وبدأ الرجل ضخم البنية، ذا رقبة طويلة فخرم يو جان أو أنه بالتأكيد زعيم عصابة قُطَّاع الطُرق خوا بوه تزه.

راح خوا بوه تزه يُحدِّق النظر في يو جان أو، ووضع فجأةً ثلاثة أصابع من أصابع يده اليسرى على جبهته.

فنظر يو جان أو إليه وهو في حيرة من أمره.

هزَّ خوا بوه تزه رأسه، ثم قال: «...»

قال يو جان أو: «أنا أحد الحمَّالين المأجورين.»

فقال خوا بوه تزه بازدراء: «إدَّا فإنك تأكل من طعام موائد المناسبات. وكيف تجرؤ

على أن تأكل من الطعام المُخصَّص لي؟»

رد يو جان آو: «إطلاقًا»

فقال خوا بو تزه: «فَلْتَعْرُبْ عن وجهي، ولأرحم شبابك حتى أمنح لسانك هذا فرصة

تقبيل النساء!»

فتراجع يو جان آو بسرعة إلى الخلف، ثم إلى خارج الحانة، وهو لا يعرف حقيقة الشعور الذي يسيطر عليه في تلك اللحظة. فعلى الرغم من أنه يتحلَّى بالسَّمات الأساسية للعمل كأحد أفراد عصابات قُطَاع الطُّرُق، فإنه لا تزال هناك مسافة كبيرة بينه وبين أن يكون قاطع طريق بالمعنى الحقيقي للكلمة. ومن ثمَّ فقد كانت هناك أسباب كثيرة جعلته يتأخَّر في العودة إلى مأواه داخل حقول الدُّرَّة. ويمكن تلخيص هذه الأسباب في ثلاث نقاط أساسية: أولاً خضوعه لثقافة وأخلاقيات المجتمع، واعتقاده بأن العمل كقاطع طريق يُعتَبَر اعتداء وسرقة ومخالفة للتعاليم السماوية. بالإضافة إلى تقديسه للسلطات المحلية وعدم زعزعة ثقته في ضرورة الحصول على الثروة والزوجة بالطرق «الشرعية». ثانياً: أنه لم يتعرض بعد لأي ضغوط تجبره على العمل كقاطع طريق أو القيام بما شابه ذلك من أعمال. ثالثاً: أن وجهة نظره في الحياة الإنسانية في مرحلة التطور، وأنها لم تصل بعد للمستوى الذي يرى به قُطَاع الطُّرُق هذه الحياة. أما فيما يتعلق بالموقف الذي كان قد تعرض له قبل ستة أيام مضت عندما قام بقتل قاطع الطريق الذي اعترض الهودج، نقول على الرغم من أنه قد أظهر شجاعة ملحوظة في هذا الموقف وتصدَّى لقاطع الطريق، فإن الدافع الرئيسي لما قام به كان انطلاقاً من الشعور بالعدل والعطف والشفقة، وعدم بروز ما يشير إلى صفات قاطع الطريق. أما قيامه بخطف جدتي قبل ثلاثة أيام مضت إلى داخل حقول الدُّرَّة، فإن ذلك قد وقع منه انطلاقاً من عشقه للنساء الجميلات، ولم يبرز في هذا الموقف أيضاً ما يعبر عن روح وصفات قاطع الطريق. وتعتبر قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي منطقة تَفَشَّى فيها ظهور عصابات قُطَاع الطُّرُق، بل إن العناصر المكوِّنة لهذه العصابات كانت على درجة كبيرة من التعقيد، كما أنني كنتُ قد قمتُ بتأليف كتاب كبير كَسَجَلِ ضخم لعصابات قُطَاع الطُّرُق في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، وبذلتُ فيه مجهوداً كبيراً إلى حد ما، وها أنا أشير إلى الخطوط العامَّة في هذا المقام حتى أحُد ما إذا كنت قادراً على خداع أو تضليل عدد من القُرَّاء.

وقد امتزج شعور يو جان آو تجاه زعيم العصابات خوا بوه تزه بالاحترام الكبير

وكراهيته والحدق عليه في آنٍ واحد.

كان يو جان أو قد وُلِدَ لأسرة مطحونة، مات أبوه وهو لا يزال صغيراً، فاعتمد على مساعدة أمه في زراعة مساحة ثلاثة مو^١ من الأرض الزراعية للعيش من خيرها. وقد قبل عمه يو دا يا الذي كان يعمل في تجارة الخيل والبغال مساعدة الأم وابنها، ولكنها مساعدة في أضيق الحدود. وفي حوالي الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، ارتبطت أمه بعلاقة ما مع راهب بمعبد تيان تشي مياو،^٢ وكان ذلك الراهب ثرياً، فكان يداوم على مساعدتهم بالحبوب والدقيق. وكانت أمه على علاقة غير سوية بهذا الراهب، كان يداوم على زيارتها في المنزل، والاختلاء بها بطريقة كان ابنها غير راضٍ عنها تماماً، حتى إنه كان يودُّ لو أُحرق عليهما المنزل ليتخلص منهما معاً، وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، كانت علاقة أمه بالراهب قد شهدت تطوراً كبيراً، وكثر الكلام في القرية عن هذه العلاقة السيئة، وكان أحد أصدقائه الذي كان يعمل حداداً قد أهدى له سيفاً، فاستخدم يو جان أو السيف وطعن به الراهب مساء ليلة ربيعية على ضفة جدول بحدود القرية، كانت توجد على جانب ذلك الجدول الكثير من أشجار الكمثرى، قتل الراهب في موعد تفتُّح أزهار أشجار الكمثرى، وبعد أن قام بقتل الراهب لاذ بالفرار من القرية، وأدمن بعدها لعب القمار وعشق المال عشقاً كبيراً، وأثناء تَوَلَّى تساو مينغ شئون مدينة قاو مي، كان يو جان أو قد قُبِض عليه بتهمة لعب القمار ليل نهار وتم الحكم عليه بضربه مائتي ضربة بنعال الأحذية، وأن يطوف شوارع المدينة لمدة شهرين مرتدياً بنظلاً قَدِّمٌ منه باللون الأحمر والأخري باللون الأسود، وبعد إطلاق سراحه، انتقل إلى قرية دونغ ببي للعمل أجييراً، وبعد مغادرته المدينة، كان قد سمع أن أمه حُكِم عليها بالإعدام على باب المنزل بعد موت الراهب، فرجع إلى بلدته ليلاً ليرى أمه، بعدها وقعت على الفور حادثة انفراده بجذتي داخل حقول الذُّرَّة.

بعد مغادرته الحانة الصغيرة، عاد يو جان أو إلى حقول الذُّرَّة مرة أخرى، وراح يراقب من داخل الذُّرَّة تلك الحانة والضوء الذي كان مشتعلًا داخلها، واستمر في مراقبتها حتى ظهور الهلال في السماء ثم اختفائه، وبينما هو قابع في الخلاء داخل حقول الذُّرَّة،

^١ مو: وحدة لقياس الأراضي في الصين. ويساوي المو الواحد حوالي ٦٦٦ متراً مُكعَّباً، وتساوي ١٥ مو مساحة ١ هكتار. (المترجم)

^٢ معبد تيان تشي: معبد لمذهب الطاوية، يقع في مدينة فييي تشينغ بمقاطعة شان دونغ شرقي الصين. وقد تهدمت أجزاء كبيرة من هذا المعبد منذ عام ١٩٥٢م، وهو الآن في حالة سيئة. (المترجم)

أحس ببرودة الجو التي ازدادت عمًا كانت عليه قبل مغادرة الذرة إلى الحانة. وفي منتصف الليل، سمع صوت حركة داخل الحانة الصغيرة، وقد انطفأ ضوء المصباح، ولاحظ ظل رجل ضخم يظهر خلف الضوء، وتقدّم إلى المصباح ثم عاد ثانيًا، فعرف يو جان أو أن ذلك الظل هو ظل الشيخ السمين صاحب الحانة، ودخل العجوز غرفته، وبعد أن قام بإطفاء المصباح، رأى يو جان أو لافتة الحانة من جديد، ورأى زعيم العصابات خوا بوه تزه قادمًا على جانب الطريق، فكنتم يو جان أو أنفاسه وبقي قابلاً في مكانه، وتوقف الزعيم أمام المكان الذي كان يختبئ داخله بالضبط ليقضي حاجته، ومسح يو جان أو على سيفه، مُحدثًا نفسه بأنه إذا تقدّم خطوة واحدة، فإنه سيتمكن من القضاء على هذا الزعيم المعروف، وبدأت ترتعد جميع فرائصه، ومضى يفكر فقط في أنه لا يوجد أي عدا بينه وبين الزعيم خوا بوه تزه، بل إن هذا الزعيم عدو لدود للسيد تساو مينغ رئيس المدينة، وهذا الرئيس هو الذي حكم عليه بالضرب مائتي ضربة بنعل الحذاء، وإنه لا يجد أي مبرر يحمله على قتل الزعيم خوا بوه تزه، ثم عاد ليفكر في أنه: كان في الأصل يملك الفرصة لقتل هذا الزعيم المعروف خوا بوه تزه، لكنه تعمد ألا يقتله.

وبالطبع فإن الزعيم خوا بوه تزه لم يكن يعرف الخطر الذي ينتظره على مقربة منه، بل لم يكن يعرف ما سيحدث من أمر قتله في نهر موا شوى على يد هذا الشاب، وغادر الزعيم المكان بعد أن انتهى من قضاء حاجته.

وعندها سارع يو جان أو بالخروج من داخل مخبئه وسط حقول الذرة، وتسلل إلى داخل القرية، ومضى يتسلل بحذر شديد لم يُثر أيًا من أهل أو كلاب القرية، وعندما وصل إلى فناء دار عائلة دان، حبس أنفاسه وركّز انتباهه جيدًا، وراح يراقب الوضع بحذر شديد، كانت دار عائلة دان تتكون من عشرين غرفة في صف واحد، يفصل بينها سور يقسمها إلى نصفين، به بوابتان كبيرتان، الجزء الشرقي من الدار مخصص لفرن لصناعة النبيذ، أما الجزء الغربي فكان مخصصًا لإقامة أهل البيت، وكان داخل هذا الجزء الغربي ثلاث غرف جانبية، وبالجزء الشرقي ثلاث غرف جانبية يسكنها عمال الفرن، كما كانت هناك خيمة صيفية كبيرة داخل الجزء الشرقي من الفناء، تحتها رَحَى حجرية كبيرة، أمامها زوج من البغال السوداء الكبيرة، كان هناك داخل هذا الجزء الشرقي أيضًا ثلاث غرف جنوبية، تفتح على باب صغير؛ كان يتم داخل هذه الغرف بيع النبيذ الذي ينتجه الفرن الكبير المملوك لعائلة دان، ولم يستطع يو جان أو رؤية منظر الفناء بالكامل؛ كان السور عاليًا جدًا حتى إنه فشل في تسلق السور، فراح يقفز لأعلى محاولاً صعود

السور، ولكن صوت قفزاته أيقظت الكلاب التي كانت داخل الفناء فراحت تنبح بصوتٍ مرتفعٍ، فتراجع بعيداً عن نظر الكلاب، واختبأ هنالك إلى جانب الجزء المخصص لجمع وتشميس الذرة المستخدمة في صناعة النبيذ، وراح يُدبّر خطة الهجوم، وكان هذا الجزء الذي يختبئ به ممتلئاً بكميات كبيرة من أعواد الذرة، وكانت هذه الأعواد مُكدّسة في هذا المكان لتشميسها، وقد نشرت رائحة عطرة عمّت جميع أرجاء المكان، وبينما هو مُقرِّص إلى جانب أعواد الذرة، قام بإشعال النيران في تلك الأعواد، وعندما شارفت النيران على التوهج، تذكّر أمراً ما، فقام على الفور بإخمادها ثانيةً، ثم عاود وأشعل النيران مرة ثانية في كومات أعواد الذرة التي كانت على بُعد بضع وعشرين خطوة من المكان الذي أشعل فيه النيران في المرة الأولى، وبسبب هدوء الرياح في ذلك اليوم، اشتعلت النار بسرعة، ثم انطفأت أسرع، واستمر في محاولاته حتى نجح في إشعالها، لتشتعل بقوة وتُغطي سماء القرية برمتها.

راح يو جان أو يصيح بأعلى صوته: «أطفئوا النيران، أطفئوا النيران»، ثم قفز بسرعة ليختبئ داخل الجزء الغربي من فناء دار عائلة دان، وارتفعت ألسنة اللهب، وعمّ الصخب القرية، ولم يتوقف نباح الكلاب، وأفاق عمال فرن صناعة النبيذ من مخادعهم في الجزء الشرقي من الفناء، وراحوا يصيحون في صوت واحد أن أطفئوا النيران، وتم فتح بوابة الفناء الكبيرة، لتظهر جماعة تزيد على عشرة أشخاص يرتدون ملابس غير مُرتبة، وتم أيضاً فتح بوابة الفناء الغربية، ليظهر الشيخ الثري دان يان شيو مستنداً على البوابة، وهو غارق في البكاء والصياح، وخرج في نفس الوقت زوج من الكلاب الكبيرة ذات الشعر الأصفر، وراحت تحيط باللهب وهي لا تتوقف عن النباح.

سمع صوت صياح الشيخ الثري وهو ينادي: «النجدة ... النجدة..» فلبّى العمال نداءه مُسرعين، وأخذوا بالجرادال وتوجّهوا صوب البئر كما أسرع الشيخ عائداً إلى منزله، وخرج ممسكاً بجرة كبيرة ولحق بالعمال إلى البئر.

وخلع يو جان أو رداءه المصنوع من القش، وتسلّل عبّر سور الفناء؛ ليجد نفسه أخيراً داخل الجزء الغربي من الفناء الكبير، فوقف هنالك خلف السور يراقب الجَمع الغفير من العمال وهم يهرولون نحو مصدر الحريق؛ ورأى أحد العمال وقد حمل دلوّاً من الماء، ثم مضى ليسكبه بسرعة على ألسنة اللهب، وهكذا كان العمال يحاولون جاهدين لإخماد النار التي كانت تشتعل أحياناً وتخمد أحياناً أخرى، مُكوّنة لوحة في غاية الجمال.

سمع صوت أحد الحكماء يقول: «يا معلم دان، لا داعي لإخماد هذه النيران، دعها تخدم من نفسها.»

فرد المعلم الشيخ باكياً: «أطفئوا النيران ... أطفئوا النيران.» «فَلتَسْرِعُوا فِي إِطْفَاءِ النيران ... إن هذه الكومة حصيلة شتاء هذا العام كاملاً.»

ولم يكن يو جان أو مهتماً بمشاهدة ما يحدث بالخارج، فمضى يتسلسل حتى نجح في دخول عُرف الجزء الغربي من الفناء، وما إن دخل إلى العُرف الداخلية، حتى شعر برطوبة شديدة، وسمع صوتاً تفوح منه رائحة تَعْفُن قادم من إحدى الغرف الداخلية يقول: «أبي ... ما الذي احترق.»

وانعكس لهيب النار إلى داخل الغرفة، فتسمر يو جان أو في مكانه، وراح يُحاول التَّخْفِي عن صاحب الصوت، بينما كان صاحب الصوت لا يزال يُوجِّه أسئلته لأبيه، وقد دخل الضوء إلى الغرفة عبر ستارة النافذة المصنوعة من الورق، فنظر إلى أرجاء الغرفة، فإذا برأس إنسان ترقد هنالك على الوسادة، فمد يده يتحسس الرأس، فقبض صاحبها على يده وقال مذعوراً: «مَن؟ ... مَن أنت؟» ثم حاول القبض على يده بقوة، فاستل يو جان أو سيفه الصغير وضرب تلك الرقبة البيضاء الطويلة، فطرطش الدم على يديه، وشعر بامتعاض شديد، فرفع يديه عن الجثة مفزوعاً، بينما كانت الرأس لا تزال تجاهد في مكانها، وبدأت الدماء تنزف بكثرة، فراح يو جان أو يمسح يديه بملاءة المصطبة وهو يشعر بالاشمئزاز، ثم استعاد سيفه الصغير وجرى إلى خارج الغرفة، وانتزع بعض الحشائش من داخل القدر وراح يدعك بها يديه وسيفه وخنجره، حتى بدا السيف يلمع وكأنه دبَّت فيه الحياة من جديد.

كان منذ أن أهدى له صديقه الحميم الحداد تشينغ هذا السيف، يداوم على اللعب به يومياً، وكان يحركه بشدة في كل مرة يزور فيها الراهب منزلهم ويختلي بأمه، وكان الكثير من أهل القرية يضايقونه ويقولون بأنه راهبٌ صغيرٌ، الأمر الذي كان يجعله ينظر إليهم بغضب شديد، ومنذ ذلك الحين، كان السيف لا يكف عن الحركة أسفل الوسادة، حتى إنه لم يكن يقدر على النوم، فعرف حينها أن الوقت قد أُرِف، وحسب المعتاد فإن تلك الليلة كانت من المفترض أن تكون ليلة مقمرة، إلا أن الغيوم الكثيفة حجبت القمر تماماً، ونام أهل القرية مبكراً، وهطلت أمطار خفيفة تركت آثارها على سطح الطريق، ودخل الراهب إلى منزلهم وهو يحتمي بمظلة من القماش الأصفر، وبينما كان يرقد داخل حجرته الصغيرة، رأى الراهب وهو يلم المظلة، وانشغل بمسح الطين العالق بحذائه،

وسمع صوت أمه تسأل الراهب: «لماذا تأخَّرت هكذا؟» فرد الراهب: «كنت منشغلاً بزيارة القبر في اليوم السابع لوفاة زوجة «دا ياو رن» من غرب القرية؛ حيث ذهبتُ إلى هناك لتلاوة بعض الترانيم.»

- «كنتُ أحسب أنك لن تأتي هذه الليلة.»

- و«كنت أستطيع ذلك؟!»، «سأتي إليك حتى ولو سُلط السيف على رقبتني.»

- «فلتدخل بسرعة!»

وعندما دخل الراهب عتبة المنزل سألهما بصوت منخفض: «هل لا تزالين تشعرين بألم في معدتك؟»

- «لقد زال الألم بعض الشيء.» «فيمَ تُفكِّر؟» «لقد مرت عشرة أعوام على رحيل زوجي ... بالإضافة إلى أنه قد تقدّم بي العمر، من الصعب أن يحدث ما تفكر فيه الآن»

- «حسنًا، اصعدي إلى جوارِي لأتلو عليك بعض الترانيم.»

ولم تغمض عيناه في تلك الليلة، بقي ساهراً يستمع إلى حركة السيف تحت الوسادة، وإلى صوت تساقط المطر خارج النافذة، حتى استمع إلى صوت شخير الراهب بعد أن غطّ في نومٍ عميقٍ ثم صوت همهمات أمه وهي غارقة في عالم الأحلام، وفجأة انتفض مذعوراً إثر سماع صوت البومة التي كانت تُعشّش أعلى الشجرة القريبة من نافذته، فقام من سريره وارتدى ملابسه، ثم حمل سيفه الصغير، ومضى حتى وقف خارج الحجرة التي ينام داخلها الراهب وأمه وجعل يتنصّص عند باب الغرفة، ومد يده وفتح باب غرفته، ثم مضى إلى الفناء، ونظر إلى السماء، فرأى بعض الغيوم الخفيفة، ونظر إلى ضوء الفجر الذي بدأ ينبثق ليضيء الفناء، ولم تكن الأمطار قد توقفت بعد؛ حيث كان يسمع صوت تساقط حبات المطر داخل بركة المياه، ثم مضى يسير ناحية الطريق المتعرج الصغير المؤدي إلى معبد تيان تشي مياو، وكان هذا الطريق يمتد طوله حوالي واحد ونصف كيلومتر، يمر الطريق بجدول صغير، يمتلئ الجدول ببعض الصخور السوداء، وفي النهار، كانت مياه الجدول تبدو صافية تماماً، لترى عبّرها عدداً كبيراً من الأسماك الصغيرة تتراقص في قاع الجدول الصغير، أما الآن فقد بدأ الجدول وقد لفه الضباب، في مشهد يجعل الناظر إليه يشعر ببعض الخوف، فوقف أعلى الصخور، وأحنى رأسه وراح يتأمل الموج الذي لا يتوقف عن الاصطدام بالصخور، وبقي يشاهدها وقتاً طويلاً، وعلى جانبي الجدول، كانت هناك مساحة من الأراضي الرملية المزروعة بأشجار الكمثرى، التي كان قد حان موعد تفتح أزهارها، فعَبّر الجدول الصغير، ليجد نفسه وسط أشجار الكمثرى، وراح

يسير أسفل تلك الأشجار على الأراضي الرملية، ويستمتع برائحة أزهار أشجار الكمثرى العطرة.

وفي عمق غابة أشجار الكمثرى، عثر على قبر أبيه، وقد نمت بجانبه مجموعة من الحشائش البرية، ثم رأى عدة فتحات لدخول وخروج الفئران بين تلك الحشائش، وراح يُركِّز تركيزاً شديداً لكي يستعيد صورة أبيه المرسومة في ذاكرته؛ حيث كان يذكر أنه كان رجلاً طويل القامة نحيفاً ذا بشرة صفراء، وشاربٍ أصفر.

وعاد إلى طريق فرعي بالقرب من الجدول الصغير، وراح يتأمل الموج الذي كان يصطدم بتلك الصخور الموجودة داخل الجدول، وكانت الغيوم قد بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً، فبدأ الطريق واضحاً أمامه، ثم رأى الراهب قادماً في عجلة وهو يحتمي بمظلته الصفراء، ولم يتمكن من رؤية رأس الراهب التي كانت تختفي تحت المظلة، ولاحظه وهو يعبر الجدول الصغير وقد رفع ملابسه الطويلة ومظلته، استطاع حينها أن يرى وجهه الأبيض النظيف، فضرب على سيفه ليرى حركة السيف وكأنه يرد له التحية، وبعد أن عبر الراهب الجدول الصغير، أنزل ملابسه مرة أخرى، ولاحظ أن هناك بعض الطين قد علق بملابسه الطويلة، فأخرج منديلاً وراح يُنظف بقع الطين، كان ذلك الراهب الأبيض النظيف يعيش النظام والنظافة، كنت دائماً تشمُّ رائحة صابون عطرة تفوح من جسده الأبيض النظيف.

اقترب يو جان أو ليشم رائحة الصابون العطرة، وينظر إلى الراهب وهو يلم مظلته الصفراء — كان يقوم أثناء ذلك بهزها لتصفية قطرات المياه التي علقَتْ بها — ثم وضع المظلة تحت إبطه، ونظر إلى رأس الراهب كانت تلمع، وتذكَّر عندما كانت أمه تمسح بكلتا يديها هذه الرأس، بينما يكون الراهب نائماً على حجرها وكأنه طفل رضيع، وعندما اقترب من الراهب، سمع صوت تنهداته، بينما كان السيف لا يتوقف عن الحركة داخل الجراب، فتصعب وجه يو جان أو عرقاً، وشعر بدوارٍ شديدٍ، وكاد أن يهوي على الأرض، ومضى يلاحق الراهب في كل تحركاته، فإذا به يميل إلى بعض الحشائش ويتقل ثم يمضي في طريقه، وفجأة أحس بأن السيف كما لو كان قد اتخذ قراره بنفسه وانغمس داخل ضلع الراهب، فتمايل الراهب قليلاً ثم راح يتكئ على إحدى الأشجار القريبة، ثم التفت إليه، وبدت عيناً الراهب ممتلئتين بالحزن والشفقة، فشرع يو جان أو حينها ببعض الندم على ما فعل، ثم غاب الراهب في صمت تام، وسقط أسفل الشجرة.

مدَّ يده وانتزع السيف من ضلع الراهب، بينما راحت دماء الراهب تسيل في مشهد يثير الشفقة، حتى إن حبات المطر التي كانت مخترنة أعلى أشجار الكمثرى لم تعد تقوى

على تحمُّل هذا المشهد المثير للشفقة، تساقطت مياه الأمطار على الأرض الرملية، وامتلأت الأرض ببراعم أزهار أشجار الكمثرى، وهبَّت رياح باردة، يذكر أنه قد شم حينها رائحة أزهار أشجار الكمثرى العطرة.

لم يشعر بأي ندمٍ أو دهشةٍ بعد قتل الأبرص دان بيان لانغ، فقط شعر آنذاك ببعض الاشمئزاز من منظر القتل، وكانت النيران قد بدأت تهدأ تدريجيًّا، لكنها كانت لا تزال تضيء جنبات المكان. ولم تكن الكلاب قد توقفت عن النباح الذي غمر القرية بأكملها، وسمع صوت غطاء برميل الماء المصنوع من الحديد، وصوت سكب المياه داخل النيران المشتعلة.

كان قد غرق هو ورفاقه من الحمَّالين خلال الأمطار الشديدة التي تساقطت قبل ستة أيام، كما تبَّلَّ وجه تلك الفتاة، وكان قد وقف ومن معه من الحمَّالين والطَّبَّالين والزَّمارين داخل هذا الفناء، وقفوا يدوسون على مياه الأمطار التي غطت سطح المكان، فإذا برجلٍ كبيرٍ في السن يخرج إليهم ليصحب الفتاة إلى داخل الغرفة، ولم يأت فرد واحد من هذه القرية الكبيرة لمشاهدة ذلك الموكب الصاحب، ولم يلمح أي ظهور للعريس، وشم رائحة غير طيبة تأتي من ناحية تلك الغرفة التي دخلت إليها العروس، فراح يغمغم ومن معه من الحمَّالين: «من المؤكد أن يكون هذا العريس الذي يخبئ بالداخل مصابًا بالبرص»، وعندما انتبه الطَّبَّالون والزَّمارون إلى أن أحدًا لم يخرج لرؤية الموكب، لم يهتموا بعملهم وراحوا ينفخون ويزمرون بشيء من عدم الاهتمام، وخرج إليهم ذلك الشيخ حاملاً صرة من العملات النحاسية وراح يصيح فيهم: «هذه مكافأتكم! هذه مكافأتكم! فتأخذوا هذه العملات النحاسية وتصعدوا لأعلى.» فنظر الحمَّالون والطَّبَّالون والزَّمارون إلى العملات النحاسية وهي تسقط إلى أعلى مياه الأمطار التي غطت سطح أرض الفناء، ولم يهتم أحد منهم بجمعها، فنظر إليهم العجوز ثم أحنى ظهره وراح يجمع تلك العملات النحاسية، حتى جمعها كاملة، وكان يو جان أو قد فكر آنذاك في أن يجهد على رقبة ذلك الشيخ النحيفة، والآن بدت أمامه النيران وقد أضاءت جميع أرجاء الفناء الكبير، وانعكست على اللصقات المعلقة على باب غرفة العروس، ثم راح يحاول قراءة الكلمات المكتوبة على هذه اللصقات، محا غضبه في تلك اللحظة شعوره بالبرد والرجفة، وراح يسوق الأعدار لنفسه، مضى يفكر أن القتل وإشعال النيران وغيرها من هذه الطُّرق الشرسة هي وحدها الطريق إلى الثراء والجاه، وأنه ما دام رغب في تلك العروس، فلم لا يقدم على قتل والد العريس؟ حتى لا يتركه يتوجَّع ويحزن على ابنه، وحتى يساعد تلك الفتاة على أن ترى عالمًا جديدًا

غير عالم ذلك الأبرص، راح يغمغم في داخله: «أيها الشيخ دان، أيها الشيخ دان، ستكون الذُّكْرَى السنوية لك في نفس اليوم من العام القادم!»
وبدأت النيران تنحسر، وعم الظلام أرجاء المكان، ورأى سماء الفناء وقد امتلأت بالنجوم، وكانت لا تزال هناك بعض بقايا الرَّماد التي لا تزال مشتتة بعض الشيء، فراح العمال يسكبون الماء على الرماد، ثم حملوا جرادل الماء ووضعوها على الأرض.
سمع صوت ذلك الشيخ الحكيم يقول: «يا معلم دان، لا تحزن، لقد انتهت هذه النكبة.»

فرد عليه المعلم دان يان شيو وهو يثرثر بكلمات تحمل تأنيب الرجل: «أظن أنه من الأدب أن نراعي التعاليم السماوية ولا نشمت في غيرنا ... نعم لا داعي للشماتة.»
- «يا معلم دان، فَلْتَدْعُ هؤلاء العمال يعودون إلى أماكن راحتهم؛ ليستريحوا بعض الوقت، فإنهم سيعاودون العمل ثانية صباح الغد.»
- «التزّم تعاليم السماء ... التزّم تعاليم السماء ولا داعي لهذا الهراء.»

قصد العمال العودة إلى أماكن راحتهم داخل الجزء الشرقي من الفناء وهم مُتَعَثِّرو الخُطى، وبينما كان يو جان أو يختبئ خلف السور، أحس بأن المكان قد لفه الصمت تمامًا بعد آخر صوت سمعه عند قيام العمال بوضع جرادل المياه على الأرض، وبعد أن تعب المعلم صاحب الفرن دان يان شيو من تكرار «التزم التعاليم السماوية»، «التزم التعاليم السماوية»، عاد إلى داخل الفناء ممسكًا الجِرَّة المصنوعة من الطين، وسبقه إلى الداخل كلبان كبيران، وقد بدأ عليها شدة التعب، حتى إنهما لم يُصِدِرَا أدنى صوت عندما سمعا صوت حركة يو جان أو، وسمع يو جان أو صَوْت حركة أسنان وحوافر زوج البغال في الجزء الشرقي من الفناء، واقترب طلوع الفجر، وكان لا يزال قابلاً في مكانه ينتظر خروج المعلم لينقض عليه عندما يكون على بُعد ثلاث إلى خمس خطوات من باب الفناء، وقد هجم على العجوز بقوة، حتى إن السيف انغمس كاملاً داخل صدر الشيخ الكبير، فحاول الشيخ أن ينظر خلفه قليلاً، ثم سَقَطَت الجِرَّة التي كان ممسكًا بها، ثم تهاوى على الأرض، فسمع صوت نباح خفيف أصدره الكلبان، ثم هداً تماماً ولم يهتم بما حدث، فمدَّ يو جان أو يده واستل السيف، ومسحه في ملابس القتيل، وعدل ملابسه ليغادر المكان، لكنه توقّف ثانيةً.

دخل إلى الغرفة وسحب جثة الابن الأبرص دان بيان لانغ إلى وسط الفناء، وعثر على حبل من ناحية السور، وربط القتيلين معاً، ثم حملهما وخرج إلى الشارع، واستمر في

جر القتيلين والدماء لا تزال تنزف من جرحيهما، وسحبهما إلى جانب ترعة عند الناحية الغربية للقرية، كانت مياه الترعة ساكنة في ذلك الحين، وعندما قام الأخرس بقتل عم يو جان أو السيد يو دا يا بعد مرور ثلاثة عشر عامًا من هذا اليوم، كانت مياه الخليج قد جفت إلى حدٍ كبير، وقام يو جان أو بإلقاء الجثتين داخل الخليج لتحديثًا صوتًا مسموعًا، واستقرت الجثتان في قاع المياه، ثم مال يو جان أو إلى مياه الخليج ليغسل يديه ووجهه وسيفه، ولكن لم يستسغ أن يستخدم هذه المياه التي تعكرت بدماء الجثتين، ومضى إلى الناحية الغربية من الطريق، وقد نسي أن يرجع إلى منزل عائلة دان ليأخذ ملابسه، وعندما كان على بُعد مائتين وخمسين مترًا من الخروج عن حدود القرية، انعطف إلى داخل حقول الذُّرة، وقد عاقته أعواد الذُّرة بعض الشيء، فسقط وسط الذُّرة، وشعر حينها بتعبٍ شديدٍ شمل جميع فرائصه، وانقلب على ظهره ولم يُبالِ ببرودة الجو، ونظر من خلال أعواد الذُّرة إلى السماء، ثم راح في نومٍ عميقٍ.

٥

كان السيد دان وو خوه تزه عمدة القرية قد عزم على الذهاب للمشاركة في إطفاء الحريق؛ ليقوم بدوره عمدة لهذه القرية، إلا أن المرأة «شياو باي يانغ» تاجرة القنب اعترضت طريقه ومنعته من الذهاب إلى منزل دان يان شيو، كانت سيدة سمينة بيضاء، عوراء، وكانت قد تسببت في قتال شديد بين جماعتين من عصابات قُطَاع الطُّرُق استُخدمت فيها الخناجر والأسلحة من أجل الفوز بهذه السيدة السمينة، من قبيل ما يطلق عليه «الصراع على الأوكار بين قُطَاع الطُّرُق».

وقبل أن يمر ثلاثة أعوام على تولي السيد تساو مينغ جيو رئيس مدينة قاو مي رئيسًا معينًا من حكومة الشمال،^٢ كان قد اشتهر بقراره حول المحظورات الثلاثة. ويُعتَبَر السيد تساو مينغ جيو واحدًا من الشخصيات الشهيرة في تاريخ مدينة قاو مي، وعلى الرغم من أن سُمعته وإنجازاته لم تصل لمستوى سُمعة وإنجازات السادة يان بينغ (الذي عمل رئيسًا للوزراء في عصر مملكة تشي)، والسيد جينغ شيوان (أحد العلماء

^٢ حكومة الشمال: ويُطلق عليها أيضًا «حكومة بكين» وهي الحكومة التي كانت تُمثّل شمال الصين منذ عام ١٩١٢م أي منذ مطلع تأسيس جمهورية الصين الوطنية حتى عام ١٩٢٨م. (المترجم)

البارزين في عصر أسرة خان الشرقية)، وغيرهم من أبناء مدينة قاو مي، فإن شهرة السيد تساو قد فاقت بكثير كبار الموظفين في مدينة قاو مي خلال فترة «الثورة الثقافية الكبرى»، كان قد أُطلق عليه لقب «نعل الحذاء تساو إر»، وذلك بسبب حُبّه لاستخدام نعال الأحذية في تطبيق العقوبات على المجرمين، وقد التحق بالمدارس الخاصة آنذاك لمدة خمسة أعوام، وعمل عدة سنوات جندياً، وكان تساو ينظر إلى عصابات قُطَاع الطُّرُق وتجار الأفيون والمُقامرين على أنهم يعملون على نشر الفوضى بين أبناء الشعب، ويعتقد أنه لكي تستقيم أمور البلاد فإنه لا بد من القضاء على قُطَاع الطُّرُق، ومَنع المخدرات والقمار، كان لديه الكثير من الطُّرُق الشريرة التي يستخدمها لإجبار المتهمين على الرجوع عن الجريمة، وقد تناقل شعب مدينة قاو مي الكثير من الحكايات حول هذا الرجل، لم تنقطع حتى يومنا هذا، كان تساو شخصية مُعقّدة؛ من الصعب أن تنعته بكلمة واحدة مثل كونه «طيب»، أو «شرير» أو غيرها من الصفات، وكانت تربطه علاقة وثيقة بعائلتي، ومن ثم فإنني سأقحمه الآن داخل السرد المُتعلّق بالعائلة ليكون «خيّطاً» للأحداث التالية.

أما عن المحظورات الثلاثة التي اشتهر بها السيد تساو رئيس مدينة قاو مي، فهي مَنع القمار، ومنع المخدرات، والقضاء على عصابات قَطْع الطُّرُق، نَفَّذَهَا على مدى عامين، وحقق خلالها نتائج كبيرة داخل المدينة، ولكن لم تكن قراراته تُنفَّذ بصرامة في قرية دونغ بي، بسبب بُعد هذه القرية عن مركز المدينة، ورافق العمدة دان وو خوو تزه شياو باي يانغ حتى صباح اليوم التالي، واستيقظت شياو باي يانغ قبله، وأشعلت الأرجيلة وملأتها بالمخدرات وقدمتها إلى العمدة دان، فاستلمها وراح يدخنه حوالي دقيقة واحدة، وجذبت رائحة المخدر الموضوع في الأرجيلة، فاستمر في التدخين دقيقتين، حتى جاءه أحد العمال الذين يعملون في فرن صناعة النبيذ المملوكة لعائلة دان وأخبره: «أيها العمدة! أيها العمدة! حدثت كارثة كبرى، وقعتْ حادثة قُتْل!»

فتبع العمدة دان وو خوو تزه العامل حتى وصل إلى فناء عائلة دان الكبير، وتبعه عددٌ كبيرٌ من عمال الفرن.

قال العمدة دان: «من المؤكد أن الجثث الآن في الخليج.»

فلم يردّ عليه أحد.

سأل العمدة دان بصوتٍ مرتفع: «مَن يتشجّع للنزول إلى الخليج لانتشال الجثث؟»

فنظر الجميع بعضهم إلى بعض، ولم يتشجع أي منهم على الرد عليه.

وكانت مياه الخليج تبدو آنذاك خضراء مثل الجاديت الصافي الخالي من أي عيوب، أما نباتات النيلوفر فقد كانت ثابتة في أماكنها، وقد تغطت أوراقها ببعض قطرات المياه، كانت تبرق وكأنها حبات من اللؤلؤ الجميل.

- «سأرصد لمن يقوم بذلك مكافأة مقدارها واحد دا يانغ، فمن قال أنا؟»
ولا يزال الجميع واجمين.

شمَّ الجميع رائحة مصدرها داخل الخليج، وبدت الحشائش التي كانت على جانبي الخليج ممتلئة بالدماء البنفسجية، كانت واضحة تمامًا بعد أن انعكست عليها أشعة الشمس، ثم تجاوزت الشمس حقول الذرة المجاورة لتسطع أعلى الخليج.
راح العمدة دان وو خوو تزه يصيح بأعلى صوته: «من سينزل لانتشال الجثث رصدت له واحد دا يانغ أصرفه له في الحال!»

وأخبرتني عجوز في الثانية والتسعين من أهل القرية قائلة: «ومن يجرؤ على القيام بمثل هذا العمل؟ إن الخليج ممتلئ بدم مريض بالبرص، فالنازل إلى هذه المياه سيصاب حتمًا بالبرص، ومهما عرضتم من مال فلن يجرؤ أحد على قبوله والقيام بهذا العمل ... إن كل ذلك كان وراءه إثم اقترفته جدُّك وجدُّك!»، وحيث أَلَقْتُ تلك العجوز بالمسئولية كاملة على جدِّتي وجدِّي، ولم أكن سعيدًا بسماع ذلك منها، ولكنني حافظت على ابتسامة خفيفة أمامها احترامًا لشبيبتها.

- «لا يوجد أي منكم يرغب في قبول العرض والنزول لانتشال الجثتين؟ اللعنة عليكم جميعًا، لا أحد يجرؤ على ذلك، إذا فلندع السيد دان وابنه داخل المياه بعض الوقت، يستمتعان ببرودة مياه الخليج! أيها الأخ ليو لولو خان، إنك أقدم عامل لدى هذه العائلة، فلتذهب إلى المدينة لتخبر السيد «نعل الحذاء تساو إر» بهذه الحادثة.»

قام الجد ليو لولو خان وأكل بعض الطعام في عجالة، ثم شرب قليلًا من النبيذ وهمَّ بالذهاب إلى المدينة، وسحب بغلاً أسود، ووضع أعلى ظهره جوالاً من الخيش، وصعد على ظهر البغل، وسار بمحاذاة الطريق الواقع في الناحية الغربية من القرية قاصداً مدينة قاو مي.

وبدا الجد ليو لولو خان في صباح ذلك اليوم واجمًا، ولم يعرف أحد سبب وجومه، وهل كان غاضبًا أو حزينًا؟ وكان هو أول من اكتشف مقتل السيد دان يان شيو صاحب عمله وابنه الأبرص دان بيان لانغ، كان قد ساوره الشك في أمر الحريق الذي أصاب فناء العائلة في تلك الليلة، وبمجرد أن استيقظ في الصباح التالي، كان قد نوى البحث وتقصي

حقيقة حريق الفناء، وفجأة لاحظ أن بوابة الجزء الغربي من الفناء كانت مفتوحة، فشرع بغرابة شديدة، فدخل إلى قلب الفناء ليرى بركة من الدماء، ثم تقدّم إلى الغرفة الداخلية ليرى المزيد من الدماء، فأصيب بذهول شديد، ولكن فكر خلال تلك اللحظات البسيطة أن هناك شخصاً واحداً وراء جريمتي القتل والحرق.

كان الجد لولو خان وغيره من العمال الذين كانوا يعملون لدى العائلة، كانوا يعلمون أن المعلم دان يا شيو لديه ابن مصاب بالبرص، وكانوا لا يرغبون في الدخول إلى الفناء لرؤيته، وفي حالة قيامهم بذلك كانوا ينثرون على أجسادهم بعضاً من النبيد؛ حيث كان الجد لولو خان يقول بأن نبيد الذرة قادر على الوقاية من وعلاج آلاف الأمراض، وعندما تزوج الابن الأبرص دان بيان لانغ، لم يجرؤ أحد من أهل القرية على المشاركة في العرس؛ حيث كان الجد لولو خان وعامل آخر هما اللذان قاما باستقبال جدتي وأنزلاها من الهودج؛ وكان الجد لولو خان قد قام آنذاك بمساعدة جدتي ومسكها من ذراعها، ورأى خلسة ذراعها الأبيض، وعلى الرغم من حادثة مقتل السيد دان يان شيو وابنه وما أصاب العائلة من مصيبة كبرى، فإن الجد لولو خان وسط دهشته من هذا الأمر وحزّنه على ما حدث كان دائم التفكير في قدسي الصغيرتين وذراعها الأبيض، وعندما رأى الدماء داخل فناء المنزل، لم يكن يعرف إن كانت هذه الدماء تحمله على أن يشعر بالحزن أم السعادة. وخلال رحلته إلى المدينة، لم يكن الجد لولو يتوقف عن ضرب البغل لحنه على السير بأقصى سرعة ممكنة، وود لو طار البغل إلى المدينة طيراً، فقد كان يعلم أنه لا يزال هناك مسلسل رائع ينتظره بعد هذا الحادث، فالزوجة الشابة الجميلة سوف تعود إلى الدار في صباح الغد على ظهر الحمار، وترى إلى من ستنتقل كل هذه الأملاك الخاصة بعائلة دان. وهكذا انشغل الجد لولو خان في التفكير في جميع هذه الأمور، وأن هذه الأمور سيحسمها السيد تساو مينغ جيو رئيس مدينة قاو مي، وكان أهل البلدة يطلقون على السيد تساو خلال السنوات الثلاث التي قضاها رئيساً للمدينة، لقب «الحاكم العادل تساو»، وكان الجميع يتحاكى عن نزاهته وعدله وحكمته في معالجة الأمور وعدم ميله للمحاباة، وعدم تردده في إنزال العقاب على من يستحق، وهنا ضرب الجد لولو خان البغل ليحثه على السير بسرعة ليصل إلى هذا الحاكم العادل.

راح البغل الأسود يجري بسرعة ويدكُ بأقدامه الطريق الترابي المؤدّي إلى مدينة شي تونغ، بينما أردافه تلمع وقد انعكست عليها أشعة شمس النهار، ومضى البغل في طريقه وهو يتقدم بجسمه كاملاً إلى الأمام وأقدامه تتلوى في انسجام تام، وهي تدك الأرض غير

عابثة بصلابتها، وبينما كان البغل يمضي بهذه السرعة، كانت تظهر وراءه كميات كبيرة من التراب الذي ملأ سماء الطريق، وعند منتصف النهار، كان الجد لوو خان قد وصل ببغله إلى منطقة سكة حديد جياو جي، امتنع البغل عن عبور السكة الحديد، فنزل الجد لوو خان من على ظهر البغل، وراح يسحب بقوة، ولكن البغل لم يستسلم وظل يتراجع للخلف، وعرف الجد لوو خان أنه لن يقوى على التصدي للبغل القوي العنيد، فجلس يستريح ويفكر في تجاوز هذه المشكلة، ونظر إلى قضبان السكة الحديد الممتدة من الشرق وقد انعكست عليها أشعة الشمس، حتى لم يُعد يستطيع النظر إليها جيداً، وخلع الجد لوو خان جلبابه، وغطى به وجه البغل، ثم جعل يسحب البغل ليدور في مكانه بضع دورات، ثم سحبه بعدها ليتخطى قضبان السكة الحديد.

وعند المدخل الشمالي للمدينة، كان يقف شُرطيّان في زي أسود وقد حمل كل منهما بندقية صنع خان يانغ، صادف ذلك اليوم يوم سوق المدينة؛ حيث رأى حشوداً من أهل المدينة خرجوا إلى الشارع بين من يدفع بعربته أو يحمل بعض الأشياء أو يركب الحمير أو السائرين على أقدامهم، ولاحظ أن الشرطيين كانا في معزل تام عن مراقبة تلك الحشود، فلم يهتموا بسؤال المارة عن وجهتهم، وشغلوا أنفسهم فقط بمراقبة الحسناوات من بين جموع المارة.

بعد أن نجح الجد لوو خان في الدخول إلى داخل سور المدينة، جعل يسير بين الهضاب، حتى استطاع أخيراً أن يسحب البغل ويسير على الطريق الحكومي المرصوف بالأحجار الزرقاء، فمضى البغل يسير على ذلك الطريق محدثاً صوتاً مسموعاً، وكان البغل قد شعر ببعض الخجل في بداية السير على هذا الطريق المرصوف بالأحجار الزرقاء، وكانت جموع السائرين على هذا الطريق قليلة ومتفرقة، وتعلو وجوههم الصرامة والقسوة، أما المساحة الفارغة التي تقع جنوب الطريق المرصوف بالأحجار الزرقاء، فكانت تعج بجموع الأهالي من مختلف الطوائف، وكانوا يقفون وسط الساحة يتسامون في أسعار السلع المختلفة، وينادون على بضاعتهم ما بين بائعين ومشتريين، ولم يكن لدى الجد لوو خان المتعة ليقف أمامهم يشاهد هذا السوق المزدهم، فسحب بغله ومضى في طريقه حتى وصل إلى أمام المدخل الكبير لمقر حكومة المدينة، وكان المقر عبارة عن معبدٍ قديمٍ يحتوي على بعض الممرات التي تحتوي بدورها على عدد من الحجرات القديمة المبنية من القرميد، وكانت تنمو داخله بعض الحشائش الصفراء والخضراء، وقد تساقط الدهان الذي كان يزين بوابة المدخل الحمراء، حتى بدت مزركشة ببعض ما بقي من الدهان الأحمر، وإلى

يسار المدخل، كان يقف جندي ممسكاً ببندقية، أما على يمينه، فرأى شخصاً ذراعه عارٍ، وقف منحنيًا ممسكًا بعضا خشبية، أسفلها جرة ممتلئة بقاذورات مقززة. سحب الجد لُوو خان بغله وتقدّم إلى أمام الجندي، ثم انحنى أمامه للتحية وقال: «سيدي الفاضل، جنّت لأقدم شكوى إلى السيد تساو رئيس المدينة.» فرد عليه ذلك الجندي قائلاً: «لقد اصطحب سيادة رئيس المدينة السيد بيه وذهبًا إلى السوق.»

فسأله الجد لُوو خان: «ومتى يعود سيادة رئيس المدينة؟» قال الجندي: «وكيف لي أن أعرف؟ إذا كانت لديك حاجة مُلحة، فإذهب لتبحث عنه في السوق.»

فانحنى الجد لُوو خان لتحية الجندي مرة ثانية، ثم قال: «عظيم الشكر لتوجيهكم الكريم.»

وعندما رأى ذلك الشخص المخيف الواقف إلى يمين المدخل الجد لُوو خان ينوي الانصراف، تحرك فجأة؛ وراح يستخدم عصاه ويعبث بالجرة المملوءة بالقاذورات ثم صاح: «فلتقتربوا جميعًا، فلتقتربوا جميعًا لمشاهدتي، أنا أدعى وانغ خاو شان، متهم في قضية تزوير عقود رسمية، ولقد حكم عليّ السيد تساو رئيس المدينة بأن أحمل هذه الجرة المملوءة بالقاذورات وأعبث داخلها هكذا.»

سحب الجد لُوو خان بغله ومضى إلى سوق المدينة، وعندما وصل إلى السوق راح ينظر إلى جموع الأهالي الذين احتشدوا داخله ما بين بائعي أغطية المواقد، وبائعي الفطائر، وبائعي الأحذية المصنوعة من القش، وبائعي الكتب، والعرفانين، والشحاذين، والقائمين على استعراضات القروود، وبائعي الحلوى، وبائعي العرائس المصنوعة من الصلصال، والمُغنّين، وبائعي الخضروات والثوم والخيار، وبائعي أدوات التدخين، وبائعي الشعرية الباردة، وبائعي سم الفئران، وبائعي الكيوي، وبائعي الأطفال حيث كان هناك «سوق أطفال» مُخصّص لهذا الغرض، وكانوا يعلقون عودًا من العُشب الجاف في رقبة الطفل الذي تم بيعه. كان البغل الأسود يسير وسط جموع الأهالي وهو يرفع رأسه بين الحين والآخر؛ ليصدر بعض الأصوات من احتكاك القيود الحديدية المعلقة بجسده، وكان الجد لُوو خان يخشى كثيرًا أن يهيج البغل فيؤذي أحد الأهالي داخل السوق.

وأخيرًا عثر الجد لُوو خان على السيد رئيس المدينة داخل سوق الدجاج. كان السيد تساو رئيس المدينة رجلًا ذا وجه مُتورّد، يرتدي زيًا صينيًا أزرق اللون، وقبعة من الصوف بنية اللون، ممسكًا بعضا جميلة، كان يقف داخل سوق الدجاج لحل

بعض النزاعات، وقد تَجَمَّع حوله حشدٌ كبيرٌ من الأهالي، ولم يجرؤُ الجد لوو خان على التقدم إليه، فسحب بغله ووقف خارج حلقة الأهالي المحتشدين حوله، وقد تَعَدَّر عليه أن يشاهد ما يجري داخل الحلقة من كثرة المحتشدين، فاهتدى الجد لوو خان بسرعة إلى حيلة بارعة، فقفز أعلى ظهر البغل وراح يشاهد ما يجري داخل الحلقة بوضوح تام.

ورأى السيد تساو فإذا به رجل طويل القامة، يقف إلى جواره رجل نشيط قصير القامة، فحَمَّن الجد لوو خان على الفور أن ذلك الرجل قصير القامة هو بالتأكيد ذلك «السيد ييه» الذي تحدث عنه الجندي، وكان يقف أمام السيد رئيس المدينة رجلان وامرأة مُكَبَّلِي اليدين، وقد تَصَبَّبَتْ وجوههم عرقاً، ولم تكتفِ المرأة بالعرق الذي ملأ وجهها، بل كانت عيناها تذرّفان الدموع، بينما كانت هناك دجاجة سميحة تجلس أمام قدمي المرأة. وسمع صوت المرأة تقول وهي منخرطة في البكاء: «سيدي الحاكم العادل، لقد أصيبت حماتي بنزيف الدم وليس لدينا من المال الكافي لشراء ما تحتاجه من دواء، ولذا فقد حضرت إلى السوق لبيع هذه الدجاجة التي تبيض لنا ... هو يصر على أن هذه الدجاجة تخصه هو.»

- «هذه الدجاجة تخصني، وهذه المرأة تريد أن تغتصبها مني، فلا تصدقها يا سيادة رئيس المدينة، ويشهد جميع جيراني على كلامي هذا.»

قال الرجل الذي كان يرتدي قبعة من قشر البطيخ: «سيادة رئيس المدينة، أنا خادمك جار المدعي وو سان لاو، ودجاجته هذه تأتي إلى منزلي كل يوم للتنافس على الطعام مع الدجاج الذي أملكه، وكثيراً ما تُعبّر زوجتي عن استيائها تجاه هذا.»

فبدا القلق على وجه تلك المرأة، وغشيتها الصمت، ثم أجهشت بالبكاء وهي تغطي وجهها.

خلع رئيس المدينة قبعته، وثبتها على إصبعه الوسطى وجعل يلفها عدة مرات، ثم وضعها فوق رأسه مرة أخرى.

وسأل رئيس المدينة وو سان لاو: «ماذا أطعمت دجاجك صباح اليوم؟» فأجاب وو سان لاو وهو يحرك مقلتيه: «أطعمته اليوم بعض الحبوب المخلوطة بقليل من النخالة.»

قال الرجل الذي كان يرتدي قبعة من قشر البطيخ: «حقاً حقاً، وعندما ذهبْتُ إلى منزله أستعير الفأس، رأيت بعيني زوجته وهي تخلط طعام الدجاج.»

وسأل رئيس المدينة المرأة التي كانت لا تزال تبكي: «أيتها الأخت الريفية، لا عليك بكل هذا البكاء، هل لي أن أسألك ماذا أطعمت دجاجتك اليوم؟»

فأجابت المرأة وهي تنسج: «أطعمتها بعض الذرة». فقال رئيس المدينة: «أخي يان، فلتذبح هذه الدجاجة!» أمسك يان بالدجاجة وقطع حوصلتها بمهارة فائقة؛ ليخرج منها بعض حبات الذرة.

فضحك السيد رئيس المدينة، وقال: «أنت أيها المكأر وو سان لآو، لقد ذبحنا لك هذه الدجاجة، فلتأتِ بثمانها، ثلاثة دا يانغ كاملة في الحال.» انتفض وو سان لآو مذعورًا، وأخرج من جيبه اثنين دا يانغ وعشرين وحدة من العملات النحاسية، ثم قال: «سيادة رئيس المدينة، لا أملك الآن غير هذا القدر من المال.» فقال رئيس المدينة: «تبًا لك أيها الطماع!» فأخذ رئيس المدينة النقود وقدمها للمرأة. فقالت المرأة: «سيادة رئيس المدينة، إن دجاجتي لا تستحق كل هذا السعر، ولن أقبل ما يزيد على سعرها.»

فوضع السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة يديه على جبهته، متعجبًا من أمر المرأة ثم قال: «نعم المرأة الطيبة المتسامحة، أما أنا تساو مينغ جيو فأنحني أمامك لأحيي تسامحك وشهامتك!» فتقدم إلى الأمام وخلع قبعته، وانحنى أمام المرأة. ذهلت المرأة القروية، وراحت تنظر إلى رئيس المدينة وعيناها تذرغان الدمع، ثم أفاقت بعد لحظات، وسجدت على الأرض لتحية رئيس المدينة وهي تقول: «سيادة الحاكم العادل! سيادة الحاكم العادل!»

فلمس تساو مينغ جيو ذراع المرأة بعصاه الخشبية، ثم قال: «انهضي، انهضي.» فقامت المرأة القروية ووقفت أمامه.

قال السيد رئيس المدينة تساو مينغ جيو: «بالنظر إلى ملابسك القديمة المهترئة، وإلى نحافة وجهك، وأنتك جئت إلى المدينة لبيع الدجاجة لأجل شراء الدواء الذي تحتاجه حماتك، فإنني أثق في أنك زوجة ابن بارة بحماتها، وإن حكمي هذا حكم عادل احترامًا مني لطيبتك وكونك بارة بحماتك، فلتأخذي هذه النقود كاملة، لأجل أن تشتري الدواء اللازم لحماتك، ثم خذي هذه الدجاجة أيضًا، لتطعمي العجوز المريضة.» فتقدمت المرأة وأخذت النقود وحملت الدجاجة بين يديها، وغادرت المكان وهي لا تتوقف عن شكر السيد تساو.

هذا بينما كان المحتال وو سان لآو وجاره شاهد الزور يرتجفان خوفًا أسفل الشمس الحارقة.

فقال السيد تساو مينغ جيو: «أيها الطماع وو سان لآو، فلتخلع بنطالك.»
بدا وو سان لآو في غاية الخجل من أن يفعل ذلك.
فقال السيد تساو مينغ جيو: «ألم تشعر بالخزي لأن تظلم هذه المرأة الطيبة في
وضّح النهار؟ وهل تعرف سعر «الخزي»؟ أسرع بخلع بنطالك.»
فخلع وو سان لآو بنطاله.

وخلع السيد رئيس المدينة حذاه، وألقى به إلى السيد يان الذي كان واقفاً إلى جواره
ثم قال: «اضربه مائتي جلدة، وأوجعه ضرباً حتى يتقطع إلى أشلاء منفصلة.»
فأخذ السيد يان بحذاء رئيس المدينة، وجعل الطماع وو سان لآو يواجه مؤخرته
تجاه السماء، ثم راح يضربه مائة ضربة، بينما وو سان لآو لا يتوقف عن البكاء، وبعد
أن انتهى من ضربه على مؤخرته، بدأ يضربه مائة أخرى على وجهه، حتى لم يعد وو
سان لآو يقوى على البكاء.

و ضرب السيد تساو مينغ جيو الطماع وو سان لآو بالعصا على جبهته قائلاً: «أيها
الطماع، هل ستجرؤ على النصب والاحتيال مرة أخرى؟»
فإذا بالطماع وو سان لآو مُلقى على الأرض ووجهه محمر من كثرة الضرب.
ثم أشار السيد رئيس المدينة إلى الجار شاهد الزور قائلاً: «وأنت!»، «لقد قمت بتزوير
الحقيقة، وما أشد خطر الكذابين أمثالك، ولا أرغب في ضربك أيها الكذاب، أخشى أن تلوث
مؤخّرتك حذائي النظيف، وسأجعلك تلعق فقط، ثم طلب من السيد يان أن يذهب لشراء
سلطانية من العسل.»

قام السيد يان مسرعاً متوجّهاً إلى حيث أمره السيد رئيس المدينة، فأفسح له الأهالي
الطريق، بينما كان شاهد الزور ساجداً على الأرض.

قال السيد تساو مينغ جيو: «انهض انهض انهض، فإنني أولاً لن أضربك، ثانياً لن
أعاقبك، وسأشتري لك العسل لتأكله، فلماذا تسجد هكذا؟»

وعاد السيد يان بسلطانية العسل، فأشار السيد تساو مينغ جيو إلى الطماع وو سان
لآو ثم قال: «ادهن مؤخرته بهذا العسل.»
فقلب السيد يان الرجل على وجهه، ثم جاء بقطعة خشب وجعل يدهن مؤخرته
بالعسل.

ثم وجه السيد تساو حديثه إلى شاهد الزور قائلاً: «العق، ألم تكن تنوي جني بعض
الفائدة من وراء شهادة الزور؟ العَق.»

راح الرجل يسجد أمام السيد تساو، ويقول: «سيادة رئيس المدينة، سيادة رئيس المدينة، لن يجرؤ خادمكم على الكذب ثانية.»
فقال السيد تساو مينغ جيو: «أيها الأخ يان، جهز الحذاء، واضرب هذا الكذاب ضرباً مبرحاً.»

فقال شاهد الزور: «لا داعي للضرب، لا داعي للضرب، سألق، سألق.»
فسجد الرجل على الأرض وراح يفعل ما أمره السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة. بينما كان الجميع يشاهدون ما يحدث أمام أعينهم وهم في ذهول تام.
جعل الرجل يستمرّ فيما أمر به، حتى ظهر عليه التعب الشديد، فقال رئيس المدينة: «كفاك أيها الحيوان.»

فنهض الرجل ورفع جلبابه ليغطي وجهه.
وعندما همّ السيد تساو مينغ جيو أن يغادر المكان مع السيد يان، إذا بالجد لود خان يستغل هذه الفرصة وينزل من على ظهر البغل، وينادي بصوت مرتفع: «سيادة الحاكم العادل! إن هناك مظلوماً يحتاج إلى نصرتكم.»

٦

وعندما همّت جدتي أن تنزل من على ظهر حمارها الصغير، أوقفها السيد دان وو خوو تزه عمدة القرية قائلاً: «أيتها المرأة، لا تنزلي عن الحمار، فإن السيد رئيس المدينة يدعوك للذهاب إليه.»

مضت جدتي على حمارها وقد تبعها جنديان يمسكان بسلاحهما يحرسانها وهي في طريقها إلى خليج المياه الذي يقع في غرب القرية، بينما كان والد جدتي يقف هناك منهكاً لا يقوى على الحركة، فوَحَزَه الجندي بالبندقية في ظهره، فجعله يمضي مسرعاً خلف الحمار.

ونظرت جدتي إلى شجرة صغيرة إلى جانب الخليج، فرأت بغلاً أسود صغيراً مربوطاً بجذع الشجرة، ثم نظرت إلى سرج البغل وإلى القلادة الحمراء التي كانت مُعلّقة في جبهته. وعلى بعد خطوات من البغل، رأت منضدة مربعة وقد وُضِعَ أعلاها براد شاي وعدد من الأكواب، ورأت أن هناك رجلاً يجلس إلى جوار المنضدة، ولم تكن جدتي تعرف آنذاك أن هذا الرجل هو السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة المعروف، كما كان يقف إلى جوار المنضدة رجل آخر، ولم تكن جدتي أيضاً تعرف أن هذا الرجل هو السيد يان لوا قو

الشجاع والماهر والصدیق المُقرب للسید رئیس المدينة، وأمام المنضدة، كان یقف جمیع أهل القرية وقد ظهر على وجوههم الوجوم، یحیطهم ما یزید على عشرين جندي من رجال رئیس المدينة.

ووقف الجد لoo خان أمام المنضدة وقد تبَلَّل جسده بالكامل.
رأت جُنَّتِي زوجها وحماها موضوعتین على لوح خشبي إلى أسفل شجرة الصفصاف بالقرب من ذلك البغل الأسود الصغیر، وشمّت رائحة تَعْفُن الجتتین، ورأت میاهًا ملوثة صفراء تنزل من حواف اللوح الخشبي الذي یحمل الجتتین، بينما كانت هناك عشرات الغربان تحوم فوق شجرة الصفصاف، وكأن قمة الشجرة تحولت إلى قدرٍ كبيرٍ ممتلئٍ بالحساء.

وعندئذٍ انتبه الجد لoo خان ورأى وجه جدتي بوضوح تام، ظهر وجهها ممتلئًا، وكانت أهدابها جميلة ورقبتها طويلة بیضاء، وشعرها الطویل الجمیل ینزل خلف رأسها، وتوقف الحمار أمام المنضدة، بينما كانت جدتي لا تزال تركز على ظهر حمارها رافعة الرأس فی أناقة وسحر جذاب، ورأى الجد لoo خان عینی السید تساو مینغ جیو رئیس المدينة السوداوین لا تتوقّفان عن النظر إلى وجه وصدر جدتي، وفجأة طرأت على ذهن الجد لoo خان فكرة خاطفة: إن هذه المرأة حتمًا وراء موت السید المعلم دان یان شیو وابنه الأبرص! وأنها بالتأكید تواطأت مع القاتل، وأشعلت النيران فی الفناء، لإغراء السید یان وابنه على الخروج إلى النار المشتعلة، ثم تم قتل الرجل وابنه، وهي الآن تقوم بهذه الخدعة، ومن الیوم فصاعدًا ستصبح ...

نظر الجد لoo خان إلى جدتي نظرة خاطفة، وكأنه یشك فی هذه الفكرة التي طرأت علیه فجأة، إن أي قاتل مهما حاول أن یخفي جریمته، لن یمتدح أن یخفيها حتى النهاية، غیر أن هذه المرأة التي تركز الحمار ... كانت جدتي تجلس على ظهر الحمار وكأنها حسناء من الشمع تُحرک قدمیها، وقد ظهر على وجهها الاتزان والحزن، إلى درجة تفوق بوذا نفسه، كما زاد والدها من الهالة التي كانت تحیط بجدتي، حیث كان ...

قال السید تساو رئیس المدينة: «فلتنزل تلك المرأة عن حمارها لتجیب عن أسئلتی.»
كانت جدتي لا تزال على ظهر حمارها، فتقدم نحوها السید دان وو خوو تزه عمدة القرية ووبخها قائلاً: «فلتنزلی عن حمارك! سیادة رئیس المدينة یأمرک بالنزول.»
رفع السید تساو یده لیوقف تویخ العمدة لجدتي، ثم قال رئیس المدينة بصوت رقیق: «أيتها المرأة، فلتنزلی عن حمارك، لتنزلی عن حمارك، إن رئیس المدينة لیده بعض التساؤلات لك.»

فقام والدها بإزاحتها عن ظهر الحمار.

وسأل السيد تساو رئيس المدينة: «ما لقبك؟ وما اسمكِ أيتها المرأة؟»

كانت جدتي لا تزال واقفة في مكانها مغمضة العينين، ولم تنبس ببنت شفة.

فقال والدها مرتجفاً: «فلتجيبني على سيادة رئيس المدينة، سيدي الفاضل إن لقبها

داي واسمها فينغ ليان، وكنيتها جيو إر، وقد ولدت في اليوم التاسع من الشهر السادس

حسب التقويم القديم.»

فصاح السيد رئيس المدينة: «يا لك من ثرثار!»

فسأل السيد دان وو خوو تزده عمدة القرية موبخاً إيَّاه: «ومن أين لك بالكلام أيها

العجوز؟!»

فخبط رئيس المدينة بيده على المنضدة قائلاً: «مزعج!» فأرهب كلاً من عمدة القرية

ووالد جدتي العجوز، ثم استعاد رئيس المدينة قناع الرقة والحنو، وراح يشير بيده إلى

الجثتين الموضوعتين أسفل شجرة الصفصاف، وسأل جدتي: «أيتها المرأة هل بإمكانك أن

تتعرفي على هذين الشخصين؟»

فنظرت إليهما جدتي بطرف عينيها وقد بدت حزينة، ثم هزت رأسها بدون أن

تتكلم.

فصرخ السيد رئيس المدينة بشدة قائلاً: «إنهما زوجك وحموك، لقد تم اغتيالهما.»

تمايلت جدتي قليلاً ثم سقطت على الأرض، فتقدم جماعة الحاضرين نحوها

لمساعدتها، فاصطدمت أيديهم ببنس شعرها المفلوف، وغطت السماء سحابة سوداء،

وكان وجه جدتي في غاية الشحوب، كانت تارةً تبكي وتارةً تضحك، ثم سألت بعض

الدماء من شفرتها السفلى.

ضرب السيد تساو رئيس المدينة بيده على المنضدة ثانيةً، ثم قال: «استمعوا أيها

الحضور الكرام، هذا هو حكم رئيس المدينة، إننا وجدنا أن المرأة داي سيدة ضعيفة،

حليمة واسعة الصدر، لا تميل إلى التذلل أو التكبر، وأنها شعرت بالحزن الشديد بمجرد

سماع خبر وفاة زوجها وحميها، وتأثرت بهذا الخبر كثيراً، واسودت الدنيا في عينيها، وأنها

نعم الزوجة البارة، فكيف لمثل هذه الزوجة الطيبة أن تتواطأ مع مجرم لقتل زوجها

وحميها؟ أما فيما يخص السيد دان وو خوو تزده عمدة القرية، فإنني أرى أنه يظهر

عليه جميع علامات الجوع والطمع، وأنه بالتأكيد مُدْمِنٌ مُقَامِرٌ وَضِيعٌ، وأنه باعتباره

عمدة لهذه القرية خالف قوانين المدينة التابعة لها قريته، وأنه ليس فقط تسبب في هذه

الجريمة، بل إنه كان يخطط لإلصاق التهمة بالأبرياء، فزاد جريمة جديدة على جريمته، وأنه بعد التحقيقات الجادّة والصارمة التي يأمر بها ويتابعها رئيس هذه المدينة، فإنه لا أحد فوق القانون، وأنت أيها العمدة من المؤكّد أن لك علاقة ما بقتل السيد دان وابنه، حيث إنك أولاً تحسّد السيد دان وابنه على ثروتهما الكبيرة، ثانياً أنك تطمع في المرأة الشابة داي، ومن ثم فإنك تسعى إلى خداعي اعتماداً على منصبك في هذه القرية، ويبدو أنك أخطأت وجئت ترفع فأسك أمام منزل لوبان، وتهز سيفك أمام قوان ييه، وترتل «كتاب الجمل الثلاث» للفيلسوف الحكيم كونفشيوس، وجئت تقرأ «كتاب الطب» على مسامح الطبيب لي شه جين، أقول إنك: «تبيع المياه في حارة السقاين، فاخلع عنك هذا الرداء.»

فصعد بعض الجنود وقاموا بتشبيك يدي العمدة دان وو خوو تزّه وأوثقوه، فراح دان وو خوو تزّه يصيح: «مظلوم، مظلوم أيها الحاكم العادل.»

– «ائتوا بنعال الأحذية واصفوه على وجهه.»

– «مظلوم مظلوم مظلوم.»

– «إذا لم تكن أنت وراء هذه الجريمة، فمنّ القاتل إذا؟»

– «نعم ... لا أعلم، لا أعلم.»

– «منذ قليل تحدثت إليّ بكلام واضح، والآن تقول: إنك لا تعلم، أسرعوا بصفعه على وجهه.»

فقام شياو يان برفع نعل الحذاء وصفعه ما يزيد على عشر صفعات على وجهه، حتى تشققت شفّته وامتلأ وجهه بالدماء، فراح عمدة القرية يتألم قائلاً: «سأتكلم ... سأتكلم.»

– «منّ القاتل؟»

– «إنه ... إنه ... إنه قاطع طريق، إنه خوا بوّه تزّه.»

– «وأنت الذي استأجرته للقيام بهذه الجريمة؟»

– «إطلاقاً! نعم نعم نعم، أبي الفاضل، أرجوك لا تصفني ثانية!»

وبينما كان الحضور يستمعون إلى العمدة دان وو خوو تزّه، قال السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة: «إنه منذ تولي رئيس هذه المدينة مهام عمله، فإنه يسعى جاهداً إلى تحقيق ثلاثة أهداف كبرى: منع المخدرات والقمار والقضاء على قُطَاع الطُّرُق، وقد حققنا نتائج كبيرة في مجالي منع المخدرات ومنع القمار، ولم نحقق نتائج مرجوة في مجال القضاء على ظاهرة قُطَاع الطُّرُق. وتُعتبر قرية دونغ ببي معقل قُطَاع الطُّرُق في

هذه المدينة، وإننا نهيب بالمواطنين الصالحين في هذه المدينة أن يتعاونوا مع الحكومة لأجل المعلومات السرية الخاصة بقطاع الطرق والإخبار عنهم، للعمل على تحقيق الأمن والأمان في جميع ربوع المدينة! وبما أن المرأة داي هي الزوجة الشرعية في عائلة دان، فإن جميع ثروات عائلة دان ستؤول إليها، وإننا سوف نعامل كل من يسعى لظلم هذه المرأة الضعيفة ويحوك لها المؤامرات، نقول: فإننا سوف نعامله كما لو كان أحد أفراد عصابات قُطاع الطرق!»

تقدّمت جدتي ثلاث خطوات إلى الأمام، وركعت أمام سيادة رئيس المدينة، ثم رفعت وجهها قليلاً ونادت: «أبي! أبي!»

فرد السيد رئيس المدينة قائلاً: «أنا لست أباك، إن أباك هناك يسحب الحمار.»
فقامت جدتي على ركبتيها وأمسكت بقدمي السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة وصاحت: «أبي، أبي، كيف لا تعترف بابنتك بعد أن أصبحت رئيساً للمدينة؟ فقبل عشرة أعوام مضت، كنت قد بعثت ابنتك بسبب المجاعة آنذاك، وإذا كنت لا تعرف ابنتك الآن، فإنها تعرفك جيداً.»

- «كيف يحدث هذا؟ إنه مجرد افتراء!»

- «أبي، هل ما زالت أمي بخير وبصحة جيدة؟ وهل بلغ أخي الصغير ثلاثة عشر عاماً؟ وهل التحق بالمدرسة لتعلم القراءة والكتابة؟ أبي، لقد بعثتني آنذاك بمقدار عشرين دوو^٤ من الذرة الرفيعة، أمسكت حينها بيدك وودتُ ألا تفارقني حتى قلت لي: ابنتي العزيزة جيو إر، عندما تتحسن ظروف أبيك فسأعود لأخذك ... واليوم بعد أن أصبحت رئيساً للمدينة تنكر ابنتك؟!»

- «يا لك من مجنونة أيتها المرأة، لقد أخطأت في معرفتي.»

- «لم أخطئ! لم أخطئ! أبي، أبي العزيز!» وأخذت جدتي تتشبث بقدمي السيد رئيس المدينة ولا تتوقف عن هزهما، وقد فاضت دموعها، وانخرطت في نوبة بكاء عميق.

فمد رئيس المدينة يده وسحب جدتي قائلاً: «سأعترف بك ابنةً لي.»

- «أبي العزيز!» فمالت جدتي لترتكع ثانيةً أمام رئيس المدينة الذي اعترضها وأمسك بذراعيها، فقبضت جدتي على يديه، وقالت بتدل: «أبي، متى ستصحبني معك لرؤية أمي؟»

^٤ دوو: وحدة وزن تساوي ١٠ ليتر. (المترجم)

فرد السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة قائلاً: «فوراً، فوراً، فلترخي يديك، فلترخي يديك.»

خفت جدتي من قبضتها على يدي رئيس المدينة. وأخرج رئيس المدينة منديلاً وراح يمسح عرقه. وراحت جموع الحاضرين تنظر إلى رئيس المدينة وإلى جدتي بغرابة. وخلص رئيس المدينة قبضته، ثم ثبتها أعلى إصبعه الوسطى وراح يلفها بسرعة، وقال وهو يتهته: «أيها الأخوة الريفيون، أيها الإخوة الريفيون، إن رئيس هذه المدينة يدعو دائماً إلى منع المخدرات ومنع القمار ومحاربة قُطَاع الطُّرُق.» صمت السيد رئيس المدينة صمتاً تاماً، ثم سمع صوت طلق نارٍ، كان مصدره حقول الذُّرَّة الواقعة خلف خليج المياه، جاءت ثلاث طلقات نارية استطاعت أن تصيب تلك القبعة البنية التي كان يعبث بها رئيس المدينة أعلى إصبعه الوسطى، فطارت القبعة في الهواء وكأنها أصابتها روح عفريت، ثم سقطت على الأرض ثانيةً وراحت تلفُّ حول نفسها.

وخلال ذلك الصخب، لم يتوقف جمع الحاضرين عن الصفيح، حتى إن بعضهم راح يصيح بأعلى صوته قائلاً: «لقد جاء قاطع الطريق خوا بوه تزه.» «لقد جاءت العنقاء الثلاثية.»

ودخل رئيس المدينة أسفل المنضدة، وراح يصيح: «الهدوء! الهدوء!» بينما كانت جموع الحاضرين في هرج ومرج تام. أسرع شياو يان بفك الحصان الذي كان مربوطاً إلى أسفل شجرة الصفصاف، وسحب رئيس المدينة إلى الخارج، وأحكم وضع السرج على ظهر الحصان، ثم ضرب الحصان بنعل الحذاء، فاستسلم الحصان للسيد رئيس المدينة وطار به حتى توارى عن عيون الجميع، بينما انشغل ما يزيد عن عشرين جندياً بإطلاق الرصاص عشوائياً تجاه حقول الذُّرَّة، ثم انطلقوا ليلحقوا بالسيد رئيس المدينة. وعمَّ الصمت جانبي الخليج.

وبقيت جدتي في مكانها عابسة، تضع يدها على ظهر الحمار بينما هي منشغلة بالتحديق إلى مصدر الطلقات الثلاث التي هرب فور سماعها رئيس المدينة، أما والدها السيد داي، فقد اختبأ أسفل بطن الحمار، واضعاً يديه على أذنيه ساكناً في مكانه، كما كان الجد لولو خان لا يزال أيضاً قابلاً في مكانه وقد بدت ملابسه متبخرة.

هدأت مياه الخليج، وبدت نباتات النيلوفر هادئة في أماكنها، وبتلاتها قوية صامدة مثل العاج.

أما عمدة القرية السيد دان وو خوو تزه الذي تورم وجهه من كثرة الضرب بنعال الأحذية فقد راح يصيح: «أطلقوني! أطلقوني! أنقذني يا خوا بوه تزه!» وما إن أنهى العمدة دان وو خوو تزه كلامه، حتى سمع دوي ثلاث طلقات نارية مكثفة، ورأت جدتي بأم عينيها الطلقات الثلاث وهي تُصيب مؤخرة رأس عمدة القرية، وأثناء دوي الطلقات النارية، كان قد وقف شعر رأسه رعباً، ثم سقط على الأرض، ورأسه لأعلى وهي تنزف سائلاً أبيض.

لم يطرأ أي تغيير على ملامح جدتي، استمرت في النظر إلى حقول الذرة مصدر الطلقات النارية، وكأنها تنتظر شيئاً ما، وهبت نوبة رياح، راحت تهتز على إثرها نباتات النيلوفر في خليج المياه، وانعكست الأضواء داخل المياه، أما الغربان التي كانت تقف أعلى شجرة الصفصاف، فقد سقط نصفها على جثتي السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ، بينما بقي نصفها الآخر واقفاً أعلى شجرة الصفصاف مُحدثة بعض الضوضاء، وبدت أجنحة الغربان فوق الشجرة تهزها الرياح مفتوحة وكأنها مراوح تتطاير بفعل الرياح، وكانت الغربان تكشف عن مؤخراتها الزرقاء.

خرج من داخل حقول الذرة رجل ضخم، وبدأ يسير بمحاذاة خليج المياه، وكان يرتدي لباساً من القش، وقبعة مصنوعة من أوراق الذرة، يتخلل حبل القبعة حبات من الزجاج الأخضر، ويربط حول رقبتة وشاحاً من الحرير الأسود، وتقدم الرجل نحو جثة عمدة القرية السيد دان وو خوو تزه، ونظر إليها نظرة خاطفة، ثم مضى إلى أمام قبعة السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة، والتقط الرصاصة الفارغة ولفها بيده عدة لفات ثم ألقى بها بعيداً، وألقى بالقبعة التي راحت تلف حتى استقرت داخل المياه.

ونظر الرجل إلى جدتي، فالتقت عيناه بعينيها.

وسألها الرجل: «هل ضاجعك دان بيان لانغ؟»

فردت جدتي: «نعم.»

فسبَّ الرجل «اللعنة على أمه»، ثم استدار بجسده ومضى إلى داخل حقول الذرة. وكان الجد لوو خان في حيرة وارتباك تام من سلسلة الأحداث التي وقعت أمام عينيه، حتى إنه أصبح حائرًا تائهًا لا يقوى على تحديد يمينه من يساره.

وكانت الغربان قد غطت جثتي السيد دان يان شيو وابنه، وكانت تدور بمناقيرها الحادة حول الجثتين تبحث عن عينيهما.

وتذكر الجد لولو خان عندما كان ينادي بالأمس داخل سوق مدينة قاو مي السيد رئيس المدينة ليستمع إلى بلاغه، وكان السيد تساو رئيس المدينة قد اقتاده إلى مقر حكومة المدينة، وراحًا يتجاذبان أطراف الحديث على ضوء الشموع في بهو المقر الحكومي، وقد أمسك كل منهما برأس فجلة يقضمها، وفي صباح اليوم التالي، ركب بغله عائداً إلى قريته دونغ بيي، بينما ركب السيد رئيس المدينة حصاناً أسود اللون، وسار خلفه مساعده شياو يان وما يزيد على عشرين جندياً، ووصل الركب إلى القرية في فترة الصبيحة ما بين السابعة والتاسعة صباحاً، وقام السيد رئيس المدينة بتفقد مكان الحادث. ثم استدعى عمدة القرية السيد دان وو خوو تزّه ليقوم بجمع أهل القرية، لأجل تنظيم أعمال انتشار الجثث من داخل مياه الخليج.

في تلك الأثناء كانت مياه الخليج تلمع، وبدت عميقة إلى درجة لا يمكنك الوقوف على مدى عمقها، وأمر السيد رئيس المدينة عمدة القرية دان وو خوو تزّه بالنزول إلى المياه لانتشال الجثث، فتعلل العمدة بأنه لا يتقن السباحة بينما كان يرجع إلى الخلف، فتقدم الجد لولو خان وقال بشجاعة: «سيادة رئيس المدينة، هؤلاء عمال لدى المتوفيين، فلتأذن لهم بالنزول إلى المياه لانتشال جثة السيد دان وابنه.» ثم طلب الجد لولو خان من أحد العمال سرعة العودة إلى المنزل ليحضر نصف دلو من النبيذ، ويدهن به جسده، ثم لينزل إلى المياه، وكان عمق مياه الخليج حوالي طول عصا البامبو، وقام الجد لولو خان بحبس أنفاسه، ومد أطراف قدميه إلى داخل طمي مياه الخليج، وراح يعبث داخل مياه النهر كالأعمى الذي يبحث عن شيء ما، ولم يتوصل إلى أي نتيجة، ثم حبس أنفاسه أكثر وتوغل إلى طبقة أعمق، وأحس بأن المياه عند هذه الطبقة أشد برودة من الطبقة الأعلى، وفتح عينيه ليجد أمامه شرائح صفراء، وسمع طنين أذنيه، وإذا بكائن غامض يقترب منه، فمد يده يتحسس، فأحس أن أظافره تتألم كأنه قد لدغته نحلة، وصاح صيحة ليلقي من فمه بكمية من المياه المشبعة برائحة الدم، وعندها لم يُعد الجد لولو خان يهتم بأي شيء سوى محاولة الصعود إلى سطح المياه، ثم مضى يقاتل للسباحة حتى شاطئ الخليج، وتسلق إلى حافة المياه، وجلس على الأرض وهو يلهث.

سأله السيد رئيس المدينة: «هل لمست الجثث؟»

فرد ووجهه مصفر: «لا ... لم ألمسها بعد.» ثم قال: «هناك كائن غريب ... داخل

المياه.»

نظر السيد رئيس المدينة إلى مياه الخليج، ثم خلع قبعته وراح يلفها أعلى إصبعه الوسطى، ثم أعاد القبعة إلى رأسه، واستدار بجسمه ونادى على اثنين من الجنود قائلاً: «ألقوا بالقنابل داخل المياه.»

وقام مساعد رئيس المدينة شياو يان بإبعاد الأهالي عن حافة الخليج بحوالي ما يزيد على عشرين خطوة.

وعاد رئيس المدينة وجلس إلى جانب المنضدة.

وانبطح هذان الجنديان إلى جانب حافة خليج المياه، واضعين بندقيتهما إلى الخلف، ثم أخرج كل منهما من حول خصره قنبلة سوداء في شكل ثمرة الشام، وخلعاً منها مسماراً ثم قاما بتثبيت القنبلة على غطاء البندقية وألقيا بها إلى داخل المياه. فكوّنت القنبلة عدداً كبيراً من الدوائر أعلى سطح المياه، فأحنى الجنديان رأسيهما خشية أن يُصابا بأي أدنى، وخيم الصمت على أرجاء المكان، بعد مُضي وقت غير قصير، ساد الصمت داخل المياه، وتفرقت تلك الدوائر التي نتجت عن اصطدام القنابل بالمياه إلى حافة المياه، حتى بدت صفحة المياه غامضة.

قال السيد رئيس المدينة وهو يعرض على أسنانه: «فَلْتَلْقِيَا المزيد من القنابل.»

فأخرج الجنديان قنابل جديدة وألقيا بها إلى داخل المياه بنفس الخطوات التي اتبعها في المرة الأولى، فأحدثت القنابل السوداء صوتاً أثناء تطايرها إلى داخل المياه، مخلفة دخاناً أبيض على جانبي المياه، وفي لحظة سقوط القنابل إلى داخل المياه سُمع صوت مكتوم من أعماق المياه؛ تساقط هذان العمودان المنتصبان داخل مياه الخليج، كان يبلغ ارتفاعهما حوالي ثلاثة أو خمسة أمتار، لهما قمة غير منتظمة كالأشجار المصنوعة من الثلج.

فر السيد رئيس المدينة إلى جانب المياه، وتبعه الأهالي، بينما كانت كتل المياه المتجمعة لا تزال في غليان شديد، حتى توقفت بعد وقت طويل، وتلاشت أعداد كبيرة من فقاعات المياه، ثم ظهر على سطح المياه ما يزيد على عشرة من صغار الشبوط، وبدأت أمواج المياه تتلاشى شيئاً فشيئاً، ثم امتلأت المياه برائحة كريهة، وسطعت أشعة الشمس على صفحة المياه، واهتزت سيقان وأوراق نباتات النيلوفر، وقد بدت في غاية الأناقة والروعة. أضاءت الشمس وجوه الحاضرين، وبدأ وجه السيد رئيس المدينة يلمع تحت أشعة الشمس، ووقف الجميع ينتظرون مُتجهِّمين، وكانوا يمدون رقابهم إلى الأمام لمشاهدة مياه الخليج التي بدأت تهدأ شيئاً فشيئاً.

وفجأة انطلقت فقاعتان ورديتان في منتصف خليج المياه، فتوقفت أنفاس الجميع، وبدءوا ينصتون إلى صوت تلاشي هاتين الفقاعتين، واشتدت أشعة الشمس، وتغطت صفحة المياه بطبقة من القشور الذهبية الباهرة، ولحسُن الحظ ظهرت آنذاك غيمة سوداء حجبت ضوء الشمس، ليختفي اللون الذهبي الباهر، ويسيطر اللون الأخضر على مياه الخليج، وظهر شبح كائنين أسودين يبرزان من منطقة الفقاعتين الورديتين اللتين كانتا قد ظهرتتا في منتصف المياه، وزادت سرعة هذين الشبحين بمجرد اقترابهما من سطح المياه، لتظهر عندهما مؤخرتان، ثم تنقلب المؤخرتان ليظهر السيد دان وابنه الأبرص، ووجههما يكاد يختفي أسفل المياه وكأنهما في حجلٍ شديدٍ من الظهور على سطح المياه. أمر السيد تساو رئيس المدينة بسرعة انتشار الجثتين، فعاد بعض عمال فرن النبيذ إلى منزل السيد المرحوم دان يان شيو وأتوا بلوح خشبي، وربطوا به خُطافاً من الحديد، وأمسك الجد لوو خان باللوح الخشبي ومد الخطاف ليمسك بقدمي السيد دان وابنه، وعندما سمع الحضور صوت الخطاف ينغمس داخل جسدي السيد دان وابنه تأثروا تأثراً شديداً.

ورفع الحمار رأسه تجاه السماء وراح ينهق بصوتٍ مسموعٍ.

وسأل الجد لوو خان: «ما العمل يا سيدتي؟»

ففكرت جدتي لبعض الوقت ثم أجابت: «فلتأمر العمال بأن يذهبوا إلى متجر الأخشاب ويأتوا بتابوتين من الخشب الخفيف، ونسرع بوضع الجثتين بداخلهما، ثم لنبحث عن موضع لدفنهما، ويفضل أن نقوم بهذا العمل على وجه السرعة، وبعد الانتهاء من عملية الدفن، أريدك أن تقصدي في الفناء الغربي؛ حيث إن لدي بعض الأمور أود مناقشتها معك.»

فأجاب السيد لوو خان باحترام ووقار: «حسنًا يا سيدتي.»

قام الجد لوو خان بوضع جثة السيد دان يان شيو وابنه الأبرص داخل التابوتين، ودفنهما وسط حقول الذرة، وساعده في ذلك ما يزيد على عشرة من عمال فرن النبيذ الذين كانوا في صمت تام خلال عملية الدفن، وانتهوا من عملية الدفن في ساعة الأصيل، وراحت جماعات الغربان تحوم حول القبر، وقد بدت أجنحة الغربان مُصطبغة بلون شمس الأصيل، وقال الجد لوو خان مخاطباً عمال فرن النبيذ: «أيها الرفاق، فلتعودوا إلى أماكنكم وتنتظروا إشارتي، والتزموا قلة الكلام في هذا الموضوع.»

وجاء الجد لولو خان إلى الجانب الآخر من الفناء ليستمع إلى توجيهات جدي، كانت تفتش آنذاك الحاشية التي كانت تجلس عليها أعلى ظهر الحمار، بينما كان والدها ينشغل بإطعام الحمار بكومة من الأعشاب الجافة.

قال الجد لولو خان: «سيدتي، لقد انتهينا من مراسم الدفن، وهذا هو المفتاح الذي كان يحمله المعلم دان يان شيو.»

فأجابت جدي قائلة: «فلتحفظ بالمفتاح معك الآن، ودعني أسأل هل يوجد في هذه القرية من يبيع فطائر باو تزه؟»

فرد الجد لولو خان: «نعم سيدتي.»

فقالت جدي: «إذا فلتذهب لشراء سلتين من فطائر باو تزه وتوزعها على جميع عمال الفرن، وبعد أن ينتهوا من أكل الفطائر، انتني بهم إلى هنا، وأحضر لي معك عشرين فطيرة باو تزه.»

جاءها الجد لولو خان بعشرين فطيرة من فطائر باو تزه ملفوفة داخل ورقة من أوراق اللوتس النضرة، فمدت جدي يدها لتأخذ الفطائر قائلة: «فلتذهب إلى الفناء الشرقي وتنادي جميع العمال ليأتوا إلى هنا لنأكل معًا الفطائر.»

فانصرف الجد لولو خان من أمامها وهو لا يتوقف عن قول نعم نعم سيدتي. حملت جدي الفطائر ووضعتها أمام والدها ثم قالت: «فلتحمل معك هذه الفطائر لتأكلها في طريق عودتك!»

فقال الوالد: «جيو إر، إنك ابنتي من لحمي ودمي.»

فقالت جدي: «فلتغادر بسرعة، ودعك من كثرة الكلام في هذا الموضوع.»

فقال الوالد بلهجة قاسية: «اعلمي جيدًا أنني والدك.»

فردت جدي: «إنني أتبرأ منك، ومن الآن فصاعدًا غير مسموح لك بأن تخطو عتبة هذا المنزل.»

– «إنني والدك.»

– «ألم تسمع بأن والدي الحقيقي هو السيد تساو رئيس المدينة؟»

° باو تزه: أحد أنواع المأكولات الصينية التقليدية، التي تتميز بأنها رخيصة السعر، وتُصنع من الدقيق وتكون محشوة بالخضروات أو اللحم أو الحلوى. (المترجم)

- «ليس الأمر بهذه البساطة، وهل يُعقل أن تتخلى عن والدك القديم بمجرد العثور على والد جديد؟ وكم عانيتُ أنا وأمك في تربيته!»
فأمسكت جدتي بالفطائر وألقت بها في وجه والدها؛ لتحدث صوتاً مسموعاً عند اصطدامها بوجه الرجل العجوز.

سحب الرجل حماره وجعل يخطو إلى خارج باب المنزل وهو لا يتوقف عن السباب: «ابنة حرام! ابنة حرام، حيوانة! حيوانة تتبرأ من لحمها ودمها! سأذهب إلى حكومة المدينة لشكواك، سأشتكيك بأنك ابنة عاقلة لوالديك! وأنتِ مارستِ جريمة الزنا مع قاطع الطريق! وأنتِ تواطأتِ معه بقتل زوجك.»

وبينما والد جدتي يغادر المنزل وهو لا يتوقف عن سب ولعن ابنته، إذا بالجد لـو خان يدخل وبصحبه ثلاثة عشر رجلاً من عمال فرن النبيذ.

رفعتُ جدتي يدها وراحت تُرتب خصلات شعرها، ثم مدت يدها وجعلت تفرد ملابسها وقالت بكرم واضح: «لقد أجهدتم أنفسكم أيها الرفاق! إنكم ترونني أمامكم شابة ترمّلت بعد أيام من أول زواج لها، وليس لي علم بهذه الدنيا الكبيرة، وأتمنى أن أجد منكم المساعدة والدعم، وأنت أيها العم لـو خان، إنك تعمل لدى عائلتنا منذ ما يزيد على عشرة أعوام، واسمح لي أن أعتد عليك من اليوم في أمور فرن النبيذ، وكما ترون فقد رحل المعلم دان يان شيو وابنه، وأتمنى أن نتعاون معاً لأجل استعادة العمل بهذا الفرن، وكما تعلمون أننا من الممكن أن نستند إلى مساعدة أبي في المدينة، وإنني على ثقة بأننا سننجح في عملنا هذا إذا راعينا التعاون الجاد مع الأصدقاء في المزارع، وإذا لم نُسئ التعامل مع أقربائنا في هذه البلدة والتجار الذين يتعاملون معنا، وسيتوقف العمل بالفرن لمدة ثلاثة أيام بدءاً من الغد، وأتمنى أن تساعدوني في إعادة ترتيب المنزل، وأن نتخلص من الأشياء القديمة التي كان يستعملها المعلم دان وابنه زوجي دان بيان لانغ، وذلك بحرق ما يمكن حرقه ودفن ما يصعب عليكم حرقه، ولتستريحوا هذا المساء مبكراً بعض الشيء، فما رأيك أيها العم لـو خان؟»

رد الجد لـو خان قائلاً: «سنعمل وفق توجيهاتك سيدتي.»

فقالت جدتي: «هل يوجد من لا يرغب في العمل معنا؟ وإذا كان أي منكم لا يرغب في العمل مع هذه المرأة الأرملة، فلن نجبره على البقاء، وبإمكانه أن يبحث له عن عمل في مكان آخر.»

تبادل العمال النظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا في صوت واحد: «نرغب جميعاً في العمل معك.»

فقال جدتي: «إِذَا فلتتفرقوا الآن.»

فتجمّع العمال داخل غرفتهم في الفناء الشرقي، وراحوا يتهايمسون فيما بينهم، فقال الجد لـ لوو خان: «فلتناموا الآن، فلتناموا الآن، سنستيقظ غدًا مبكرًا.»

وفي منتصف الليل، نهض الجد لـ لوو خان من فراشه ليقدّم بعض الحشائش للبالغين، فسمع جدتي تبكي بصوتٍ منخفضٍ داخل الفناء الغربي.

وفي اليوم التالي، نهض الجد لـ لوو خان من فراشه مبكرًا، وراح يلف خارج باب المنزل الكبير، فرأى باب الفناء الغربي موصدًا وقد خيم السكون على جميع أرجاء الفناء، فعاد الجد لـ لوو خان إلى الفناء الشرقي، وصعد أعلى كرسي عالٍ وجعل ينظر إلى داخل الفناء الغربي، فإذا بجدتي تنام جالسة على حاشية وظهرها تجاه حائط الفناء.

خلال تلك الأيام الثلاثة، حدثت تغيرات كبيرة جدًّا في منزل عائلة دان، تَصَبَّبت أجساد الجد لـ لوو خان وعمال الفرن بالنبيذ، وقاموا بتنظيف المكان من الأحفة والملابس والأواني والأطباق والخيوط وغيرها من الأشياء والأدوات التي كان يستخدمها المعلم دان يان شيو وابنه الأبرص، وحملوا هذه الأشياء إلى ميدان الفناء، وسكبوا عليها النبيذ وأضرموا فيها النيران، ثم دفنوا الرماد الذي تخلف عن عملية الحرق.

وبعد أن أفرغوا الحجرة مما كان بداخلها من أشياء وأدوات تخص المعلم دان وابنه الأبرص، جاء الجد لـ لوو خان بسلسلة المفاتيح وقد وضعها داخل سلطانية ممتلئة بنبيذ الدُّرَّة، وقال مخاطبًا جدتي: «سيدتي، لقد غمسنا هذا المفتاح في النبيذ ثلاثة مرات.»

فقال جدتي: «أيها العم لـ لوو خان، فلتتولَّ أنت أمر هذا المفتاح، فثروتي تعتبر ثروتك ولا فَرَقَ بيننا.»

دُهِل الجد لـ لوو خان ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.

ثم قالت جدتي: «أيها العم لـ لوو خان، الآن ليس وقت الاعتذار، ولتسارع بشراء بعض القماش والقطن، حتى نتمكن من إعادة تهيئة المنزل من أحفة وخيام وغيرها، واستدع بعض العمال للقيام بذلك ولا تقلق بشأن التكاليف، واطلب من عمال الفرن أن يحملوا بعض النبيذ ويرشوه داخل الغرف وخارجها وعلى سور المنزل.»

سألها الجد لـ لوو خان: «وما كمية النبيذ التي تأمرين بها؟»

فأجابت جدتي: «فليستخدموا الكمية التي يرونها مناسبة.»

فجاء العمال بالنبيذ وجعلوا يرشونه في جميع أرجاء المنزل، بينما وقفت جدتي تراقبهم وهي تبتسم.

استخدموا هذه المرة مقدار تسعة أوانٍ من النبيذ، وبعد الانتهاء من رش النبيذ، أمرت جدتي العمال بأن يحملوا القماش الجديد والنبيذ، وأن يمسحوا به جميع الأشياء التي يمكن مسحها، ثم ليقوموا بعد ذلك بدهان السور بالجير، وطلاء الأبواب والنوافذ وفرش المنطقة المحيطة بمصطبة التدفئة بالأعشاب الجديدة وتغيير الحصير القديمة بأخرى جديدة، وهكذا حتى يجعلوا المكان يبدو في صورة جديدة تمامًا عما كان عليه من قبل. وبعد انتهاء المهمة، قامت جدتي بصرف مبلغ ثلاثة دا يانغ مكافأة لكل عامل من العمال الذين اشتركوا في هذه المهمة.

وهكذا سارت تجارة النبيذ على ما يرام، وحققت نتائج فائقة تحت إشراف جدتي والجد لولو خان.

وفي اليوم العاشر من القيام بتعقيم جميع أرجاء المنزل بالنبيذ، وبعد زوال رائحة النبيذ التي كانت تعبق المكان، بدأت تسري داخل المكان رائحة الجير الذي تم استخدامه في طلاء سور المنزل، وبدت جدتي في غاية السعادة، وخرجت إلى متجر الخرداوات بالقرية واشترت مقصًا وكمية من الورق الأحمر وإبرة وخيوطًا ذهبية وغيرها من الأدوات التي تستخدمها المرأة، وبعد العودة إلى المنزل، سعدت إلى أعلى مصطبة التدفئة وجلست أمام النافذة وأخذت بالورق الأبيض المدهون بالغراء، وراحت تستخدم المقص في عمل بعض الأشكال، كانت جدتي معروفة بمهارتها الفائقة، وأثناء إقامتها في منزل أبيها قبل الزواج، كانت كثيرًا ما تتعاون مع جاراتها في أعمال القص وينتجن الكثير من الأعمال الجيدة، كانت جدتي فنانة شعبية من الدرجة الأولى، وقد قدمت إسهامات بارزة في مجال تطور فن قص الورق في قرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي.

وكان فن قص الورق بمدينة قاو مي يتميز بالروعة والدقة والتفرد والأسلوب الخاص الذي يميزه عن فن قص الورق في المناطق الصينية الأخرى.

أخذت جدتي بالمقص وراحت تقص ورقة حمراء مربعة، وفجأة انتابها شعور بالاضطراب، وأحست للحظة أن جسدها لا يزال هنا أعلى مصطبة التدفئة، بينما طار قلبها إلى خارج النافذة إلى حقول الذرة وكأنها حمامة لا تتوقف عن التحليق فوق الذرة ... وقد كانت جدتي منذ صغرها محبوسة في منزل أبيها لا تغادر عتبة البيت، وكأنها كانت في عزلة تامة عن العالم الخارجي، ومع تقدم سنها والتزامًا منها بطاعة والديها، قُبلت الزواج من العريس الذي أتت به إليها الخاطبة، وخلال الأيام القليلة الماضية، هبت رياح وأمطار، وامتألت الترع بأوراق اللوتس ... وخلال تلك الأيام الأخيرة مرت جدتي بالكثير

من الأحداث التي لم تتعرض لها من قبل بما فيها الخوض في المياه الباردة والانغماس في نبيد الذرة وغيرها، ولم تعد تعرف، ما الذي تتطلع إليه، فأخذت بالمقص وتكاد لا تعرف ماذا تنوي أن تفعل به، تلاشت جميع أحلامها وتخلياتها قبل الزواج، ووسط هذه الحالة من الاضطراب والتشتت التي كانت تسيطر عليها، سمعت جدتي صوت جندب حزين وجميل في نفس الوقت قادم من داخل حقول الذرة، كان الوقت بداية الخريف، وأحسّت جدتي وكأنها رأت تلك الحشرة الخضراء تتحرك فوق سنابل الذرة الحمراء وهي لا تتوقّف عن الهز بجناحيها، وتخيّلت أن الصوت الجميل الذي سمعته إنما يصدر عن هذه الحشرة الصغيرة.

وبعد أن انتهت جدتي من قص صورة الجندب وهو يخرج من داخل القفص، قامت أيضًا بقص غزاة صغيرة، وقد نمت على ظهرها زهرة حمراء، وكانت الغزاة تسير شامخة الرأس مرفوعة الصدر وسط هذا الكون الحر وهي تبحث عن حياتها الجميلة الخالية من الأحزان والقيود.

كانت جدتي طيلة حياتها فتاة «...» كانت حاملة لديها الكثير من الأحلام، ولكنها كانت في الوقت ذاته عاجزة عن تحقيق هذه الأحلام، كانت تمتلك الشجاعة لتعبّر عن رفضها لما تتعرض له، ومما لا شك فيه أن ما يُعرّف بتطوّر الشخصية يحتاج إلى ظروف موضوعية تدفع هذا التطور، ولن يتحقق هذا التطور ولن تُغني هذه الظروف الموضوعية في غياب الظروف الداخلية للشخصية، تمامًا كما ذكر الرئيس ماو تسي تونغ: ^٦ «إن درجات الحرارة يمكنها أن تجعل البيض يتحوّل إلى دجاج، ولكن لا يمكن أن تجعل الأحجار تتحول إلى دجاج»، وكما قال كونفشيوس: ^٧ «لا يمكن النقش على الأخشاب

^٦ وهو الزعيم الصيني المعروف ماو تسي تونغ المولود في مقاطعة خونان جنوب الصين عام ١٨٩٣/١٢/٢٦ والمتوفى في ١٩٧٦/٩/٩م بالعاصمة الصينية بكين، وهو ثوريّ ومفكر وشاعر كبير، ويُعدّ الزعيم والرائد الرئيسي للحزب الشيوعي الصيني وجيش التحرير الصيني وجمهورية الصين الشعبية، ومؤسس فكر ماو تسي تونغ، تولّى رئاسة الصين عقب تأسيس جمهورية الصين الشعبية في عام ١٩٤٩م حتى وفاته في عام ١٩٧٦م. (المترجم)

^٧ الفيلسوف الصيني الكبير كونفشيوس: واسمه الأصلي تشيو جونغ ني (٥٥١-٤٧٩ قبل الميلاد) عاش في بلدة زوو إي (جنوب شرق مدينة تشيو فو بمقاطعة شان دونغ حاليًا) في عصر دولة لو خلال أواخر فترة الربيع والخريف المعروفة في التاريخ الصيني، وهو مفكر ورجل تعليم ومؤسس المدرسة الكونفشيوسية

المُتَعَفِّنة البالية، ولا يمكن طلاء السور المبني من الروث»، وأرى أن هذه مبررات مناسبة لهذه القضية.

ولا شك أن تلك الأفكار والتخيلات التي تسيطر على جدتي أثناء قيامها بقص الورق، إنما توضح أنها في الأصل سيّدة شجاعة، يمكن لمثلها فقط القيام بإضافة أزهار المايخوا إلى ظهر الغزاة، وكلما رأيتُ أعمال الورق التي أبدعتها جدتي، أشعر بمزيد من الاحترام والتقدير لهذه المرأة الموهوبة، فلو كانت جدتي مارست الكتابة الأدبية، كانت ستطرح بعددٍ كبيرٍ من الأدباء، إنها حقاً مبدعة أصيلة صادقة فيما تقول وتبدع. جدتي، أشعر أمامك كأنني حشرة صغيرة هزيلة.

وبينما كانت جدتي مشغولة بقص الورق، سمعتُ فجأةً صوت الباب، ثم سمعتُ صوتاً يبدو معروفاً لها وغريباً عنها يصيح داخل الفناء: «أيها المعلمة، هل أنتم بحاجة إلى عمال؟»

فسقط المقص من يدها أعلى مصطبة التدفئة.

٧

استيقظ أبي متأثراً بالقلق الذي كان يسيطر على جدي، استيقظ ليرى أمامه ذلك التنين الطويل الممتد على حافة النهر يدنو منهم بسرعة، وسمع صوت تشجيع وحماس يصاحب المشاعر، وكان من الصعب على أبي أن يفسر آنذاك مدى تأثر جدي ذلك القائد الذي لا تهتز له شعرة من قتل الأنفس، لم يستطع أبي تفسير تأثره برؤية المشاعر والصوت المصاحب لها، وراح جدي يبكي بصوتٍ منخفضٍ، ثم بدأ يتمتم قائلاً: «دوو قوان ... ولدي ... لقد جاء أهالي القرية.»

ظهر أهالي القرية متجمعين، ظهر المئات من الشباب والشيوخ والرجال والنساء، ظهروا يحملون بأيديهم المشاعر والمعاول والمجارف والعصي، وكان أصدقاء أبي المقرَّبون يقفون في الصفوف الأمامية، حاملين المشاعر المرفوعة على أعواد الذرة: «لقد انتصرنا أيها

في أواخر فترة الربيع والخريف، له ما يزيد على ثلاثة آلاف من التلاميذ والحواريين الذين تعلموا على يديه، وقاموا بعد وفاته بجمع عصارة حكمته في الكتاب المعروف «محاورات كونفوشيوس» أو «كتاب الحوار».

(المترجم)

القائد يو!» «أيها القائد يو، لقد قام أهالي القرية بذبح الأغنام، وأعدوا مأدبة للاحتفال بالنصر، وهم الآن في انتظار عودة الرفاق.»

سجد جدي أمام تلك المشاعل التي كان ضوءها ينعكس على حقول الذرة الممتدة على جانبي النهر بصورة مهيبه، ثم قال بصوت يغلبه البكاء: «أهلي وعشيرتي الأفاضل، لقد وقعتُ أنا المجرم يو جان أو فريسة أمام غدر لينغ ماتزه ... أيها الرفاق ... لقد ضاع كل شيء!»

وتجمعت المشاعل أكثر فأكثر، وعلا الدخان في الأفق، ولم تتوقف قمم المشاعل عن الحركة، بينما كانت تتساقط بعض من كرات اللهب المشتعلة على الأرض، حتى بدت الأرض تحت أقدام الجمع المحتشدين مفروشة بكرات اللهب، وسُمع صوت ضباح ثعالب داخل حقول الذرة المجاورة، وتجمعت أعداد كبيرة من الأسماك وسط النهر محدثة صوتاً مسموعاً، ولفَّ الجميع صمت تام، وفجأة سُمع صوت قوي قادم من داخل حقول الذرة. وظهر شيخ كبير، أسود الوجه، أبيض اللحية، إحدى عينيه كبيرة والأخرى صغيرة جداً، وقدم المشعل الذي كان يحمله بيده إلى إنسان كان يقف إلى جواره، ثم أحنى ظهره، وأمسك ذراع جدي بكلتا يديه وقال: «أيها القائد يو، انهض، انهض، انهض.» فصاح الجميع في صوت واحد: «انهض أيها القائد يو، انهض، انهض.» قام جدي على مهل، وقد أحس بدفء شديد من خلال تشبث ذلك الشيخ العجوز بذراعه، وقال: «أيها الأهل الكرام، هيا بنا إلى أعلى الجسر.»

وسار جدي وأبي في المقدمة، وتبعهم جموع الأهالي حاملين المشاعل، وقد أضاءت السنة لهب المشاعل المنطقة المحيطة بالنهر وحقول الذرة، وصولاً إلى المنطقة القريبة من الجسر الكبير، وظهرت في سماء اليوم التاسع من شهر أغسطس بعض الغيوم المحيطة بالقمر، وأضاءت المشاعل الجسر، ليروا اصطدام تلك العربات البالية، ثم شمتم أنوفهم رائحة الدماء التي كانت تملأ ساحة المعركة، والتي كانت تختلط برائحة الذرة النهر الخالد.

بكت عشرات النساء في صوت واحد، وتساقطت قطرات من زيت المشاعل الملتهبة على أيدي وأقدام الجمع المحتشدين، وبدت وجوه هؤلاء الرجال تحت ضوء المشاعل مثل قطع حديد ملتهبة، بينما بدأ الجسر الحجري الكبير وكأنه قوس قزح.

وصاح الشيخ العجوز ذو الوجه الأسمر واللحية البيضاء: «ما الذي يُمكن أن يتها النساء؟ أليس ما تم تحقيقه يُعدُّ انتصاراً كبيراً؟ فالصين يبلغ تعدادها حوالي أربعمائة

مليون نسمة، بينما يُعتَبَرُ تعداد الأقرام اليابانيين ضئيلاً أمام إجمالي تعداد المواطنين الصينيين، وإذا واجهناهم وجهاً لوجه، فمن أين لهم بالعدد الكافي لمواجهةنا؟ فإذا تَرَكْنَا مائة مليون من الصينيين للقضاء عليهم تمامًا، فسيبقى لدينا عدد ثلاثمائة مليون مواطن صيني، ألا ترون أن هذا انتصار كبير؟ أيها القائد يو، ما أعظمه من انتصاراً!»
فرد جَدِّي القائد يو جان أو: «أيها الأب الفاضل، إن كلامك هذا إنما يهدف إلى طمأنتي.»

قال الشيخ العجوز: «ليس كما تقول، أيها القائد يو إنه حقاً لانتصار عظيم، فلتسرع بإصدار الأوامر، وأؤمّر بما ترى، فالصين ليس لديها شيء سوى هذا التعداد السكاني الكبير.»

فنصب جَدِّي قامته ثم قال: «أنتم هذا الجمع، عليكم بجمع جثث الرفاق الذين لقوا مصرعهم خلال المعركة.»

فتفرق الحشد وراحوا ينشغلون بجمع جثث أعضاء فرقة القائد يو جان أو من داخل حقول الذرة الممتدة على جانبي الطريق العام، ويحملونها إلى حافة النهر عند الناحية الغربية للجسر الحجري، وبدءوا في رصّها وجعلوا رءوس الجثث ناحية الجنوب والأقدام إلى ناحية الشمال، ورصوها في صف طويل، وسحب جَدِّي أبي من يده وتقدّمًا إلى الأمام لإحصاء الجثث، فتعرف أبي من بين تلك الجثث على وانغ ون إي وزوجته، وفانغ ليو وشقيقه فانغ تشي، والعم ليو دا خاو، و«المسلول» وغيرها من الوجوه المألوفة وغير المألوفة له، ولاحظ أبي التشنج والضييق الذي ملأ وجه جدي، إذ راحت الدموع تتساقط من عينيه.

قال جدي: «أين الأخرس؟ يا صغيري دوو قوان، هل رأيت عمك الأخرس؟»
فتذكّر أبي على الفور ذلك المشهد عندما كان قد رأى العم الأخرس يجهد بجنجره الحادّ على أحد العفاريت اليابانيين ليقطع رأسه، لتطير رأس القتيل إلى السماء، وقال أبي: «إنه داخل العربات اليابانية.»

فتجمّع بعض من حاملي المشاعل حول العربات اليابانية، وقفز ثلاثة رجال من بينهم إلى داخل إحدى العربات، وحملوا العم الأخرس إلى خارج العربة، ومضى نحوهم جَدِّي القائد يو، وتقدم ليساعد في حمل ظهر الأخرس، ثم تقدم رجلان آخران، وأمسك أحدهم برأس الأخرس وأمسك الآخر برجليه، ومضوا إلى حافة النهر، ثم قاموا بوضع الجثة في أقصى شرق صف الجثث الطويل، وبدأ ظهر الأخرس منحنيًا، وكانت يده لا تزال

تقبض على ذلك الخنجر الملوخ بالدماء، وعيناه مفتوحتان، وفمه أيضاً وكأنه في حالة استعداد للصياح بأعلى صوته.

سجد جدِّي أمام الجثة، وأمسك بركبة العم الأخرس وصدرة وراح يضغط عليهما بقوة، حتى سمع أبي صوت عظام الأخرس، وأخيراً استقامت جثة الأخرس بفعل حركة جدي، ثم راح جدِّي يتقدم ليأخذ الخنجر، ولكنه عجز عن سحبه من يد الأخرس؛ لذا فقد قام بلم ذراعي الجثة، ليجعل الخنجر يلتصق أكثر فأكثر برجل الأخرس، وتقدّمت سيدة وسجدت أمام الجثة، وجعلت تفرك عيني الأخرس المفتوحتين، وهي تقول: «فلتغلق عينيك أيها الرفيق الحميم، فلتغلق عينيك، وسيأخذ لك القائد يو جان أو بتأرك.»

قال أبي باكياً: «أبي، إن جثة أُمِّي لا تزال ترقد داخل الذرة.»

فلوَّح جدِّي بيده، ثم قال: «فلتذهب ... فلتذهب بصحبة بعض من الأهالي لحمل

جثتها.»

غاص أبي إلى داخل الذرة، وتبعه بعض من حاملي المشاعل، واصطدمت المشاعل بأعواد الذرة لتتساقط قطرات الزيت الملتهبة داخل الذرة؛ لتشتعل أوراق الذرة شبه الجافة، وبدأت أعواد الذرة تحني رءوسها متأثرة بما حلَّ بها.

راح أبي يزيح أعواد الذرة التي تعترضه، حتى نجح في الكشف عن جثة جدتي التي كانت ترقد داخل الذرة ناظرة إلى سماء قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي اللامعة، وكانت جدتي قبيل موتها اجتهدت في مناداة السماء التي عاشت تحت ظلها، حتى تأثرت السماء بمناداتها، وبدا وجه جدتي بعد موتها وجهاً جميلاً كأحجار الجاد الجميلة، وبدت أسنانها بيضاء جميلة، وصدورها الذي أصابته الطلقات النارية منتصباً في زهو، في إشارة منه لازدراء أخلاقيات البشر والمواعظ الكبرى، لتُعبّر عن ذلك الشرف والكبرياء العظيم الذي تمتلكه، من قوة وحرية وحب عظيم للحياة!

ثم وصل جدِّي إلى حيث ترقد جثة زوجته، وكانت تحيط بجثتها عشرات من المشاعل، وكانت تتطاير كميات من أوراق الذرة التي اشتعلت بفعل قطرات الزيت المتساقطة من المشاعل، بدت سنابل الذرة متأثرة بما أصابها.

قال جدي: «فلتحملوها.»

وتجمعت زمرة من النساء الشابات حول جثة جدتي، وقد أحاطت بهن المشاعل من أمامهن وعن اليمين وعن اليسار، ليغطي ضوء المشاعل جميع الأرجاء داخل حقول الذرة.

حُملت جثة جدتي إلى حافة النهر، ووضعت في أقصى يسار صف الجثث المصطفة هنالك.

وسأل الشيخ العجوز ذو الوجه الأسمر واللحية البيضاء جدِّي قائلاً: «أيها القائد يو، من أين ستدبر هذا العدد من التوابيت لدفن هذه الجثث؟»

فأجاب جدِّي بعد أن فكر قليلاً في سؤال الشيخ العجوز: «لا داعي لأن نعود بهذه الجثث، ولا حاجة لنا بالتوابيت، ولنقم بدفن الجثث هنا داخل حقول الذُّرة، وسنقيم جنازة مهيبة لهؤلاء الرفاق بعد أن نعيد ترتيب صفوفنا.»

أبدى الشيخ العجوز موافقته على اقتراح جدي، وراح يطلب من البعض سرعة العودة إلى القرية لتجهيز المشاعر والاستعداد لدفن الجثث ليلاً، فقال جدي: «ولتأتوا ببعض الدواب لجرّ هاتين العربتين وتعودوا بهم إلى القرية.»

بدأ الجمع في حفر القبور تحت ضوء المشاعر الملتهبة، حتى انتهوا من الحفر عند منتصف الليل، وأمر القائد يو بعضاً من الرجال بقطع عدد من أعواد الذُّرة وفرش جزء منها داخل القبور ثم تغطية الجثث بالبعض الآخر، ثم ليهيلوا عليها التراب في شكل تلال صغيرة.

كانت جثة جدتي آخر الجثث التي واروها التراب، تغطت الجثة تماماً بأعواد الذُّرة، وراح أبي يتأمل مشهد تغطية جثة أمه بأعواد الذُّرة وقلبه يتمزق ألماً وكأنه قد جرح جرحاً غائراً، ولم يلتئم هذا الجرح الغائر طيلة حياته، كان جدِّي أول من أهال التراب على جدتي، أحدثت ذرّات التراب الأسود صوتاً عند اصطدامها بأعواد الذُّرة التي كانت تُغطي الجثة، وبدا هذا الصوت مسموعاً ليكسر حالة السكون التام التي خيَّمت على المشهد، وأحس أبي بانقباض قلبه، وبأن الدماء تسيل بشدة من جرحه الغائر، وراح يعض شفته السفلى الرقيقة بثناياه.

وأخيراً تم الانتهاء من تشييد قبر جدتي؛ ليظهر داخل حقول الذُّرة ما يزيد على خمسين قبراً، فقال ذلك الشيخ العجوز: «فلتسجدوا أيها الإخوة تحية لهذه القبور!»

فسجد جميع أهل القرية من الكبار أمام هذه القبور الجديدة، ثم علت أصوات البكاء والنَّحيب لتملاً جميع الأرجاء، وانطفأت المشاعر، وهبط كوكب من السماء وملاً ضوءه المكان، حتى اختفى هذا الضوء عند ملامسة الكوكب لقمّة أعواد الذُّرة.

ثم قام الجمع بحمل مشاعل جديدة، لتملاً أضواؤها المكان من جديد، واختلطت الدواب التي أتى بها الأهالي من القرية مما يزيد على عشرة رءوس من الخيل والبغال والحمير والأبقار، ثم راحت تلك الدواب تقضم أعواد وسنابل الدُّرَّة بنهمٍ شديدٍ.

أمر جَدِّي بجمع الآلات التي استخدمت في حفر القبور، ثم أمر بأن يتم سحب العربة الأولى التي تم تحطيم إطاراتها بواسطة تلك الآلات إلى الطريق العام، وإلقائها إلى داخل المياه، ثم أخذ جَدِّي ببندقية وصوبها نحو تنك الزيت الخاص بتلك العربة؛ لينفجر التنك وتمتلئ المنطقة المحيطة بالعربة بعدد كبير من القطع الحديدية الصغيرة، وعمت رائحة الزيت جميع أرجاء المكان، ثم أخذ جَدِّي مشعلًا من أحد أهالي القرية القرييين منه وتراجع بضع خطوات إلى الخلف، ثم ألقى بالمشعل تجاه العربة؛ لتشتعل النار في بدن العربة لتصبح قطعة حديدية متفحمة.

ونادى جَدِّي على الجمع المحتشدين، وأمرهم بأن يسحبوا العربة الثانية التي كانت ممثلة بالآرز إلى قمة الجسر، ثم إلى الطريق العام، وأمرهم أيضًا أن يقوموا بإلقاء الهياكل التي تبقت من العربتين الثالثة والرابعة إلى داخل المياه، كما قام بتصويب طلقة نارية تجاه تنك الزيت الخاص بالعربة الخامسة، وألقى عليها مشعل، لتحترق في الحال، وخلا الجسر الكبير من الأجسام الكبيرة التي كانت تظهر أعلاه، وبقي فقط بعض من بقايا ترابية وبقايا الأشياء المحترقة، وسمع دوي أصوات انفجارات متلاحقة لتلك الأشياء على جنوب وشمال النهر، وتفحمت الجثث اليابانية التي كانت داخل تلك العربات تفحمًا، وعمت رائحة تلك الأجساد المحترقة المكان، وقد بدت تلك الرائحة خانقة.

عاود الشيخ العجوز سؤال جدي: «أيها القائد يو، ماذا ستفعل في هذه الجثث

اليابانية؟»

فرد جدي: «هل نقوم بدفنها؟ إنها ستصيب هذه الأرض الذكية بالتعفن! هل نلقي بها داخل النار؟ إنها ستلوث سماء بلادنا! سنقوم بإلقائها داخل عرض النهر ونجعلها تسبح حتى تصل إلى اليابان.»

فأمسك الأهالي بالصنارات الحديدية، وقاموا بسحب ما يزيد على ثلاثين جثة من جثث جنود الشياطين اليابانيين إلى أعلى الجسر، بما فيها جثة ذلك القائد الياباني الكبير الذي قام لينغ ماتزه بتجريده من زيه العسكري.

وقال جدي: «فلتختفِ النساء بعض الوقت.»

وأخرج سيقًا صغيرًا، قام بقطع الأعضاء التناسلية لجميع جثث الشياطين اليابانيين، ثم نادى على بعض الرجال وقاموا بحمل تلك الجثث ليلقوا بها إلى داخل النهر وهم

يصيحون: «فلترجعوا إلى حيث أتيتم أيتها الكلاب اليابانية.» فامتلأت صفحة النهر بجثث الشياطين اليابانية التي سارت جميعها في اتجاه الشرق.

وعند ظهور ضوء الفجر الباهت، بدا على الأهالي جميعاً التعب والإرهاق، وتضاءل ضوء المصابيح، لترى زرقة السماء الصافية في بعض الأماكن التي لم يصل إليها ضوء المشاعل، وأمر جَدِّي بعض الأهالي بسحب الدواب من الخيل والبغال والحمير والأبقار أمام تلك العربة المحملة عن آخرها بالأرز، وأمر بعض الرجال بأن يلازموا الدواب لحثها على سحب تلك العربة المحملة بالأرز، وأحكمت الدواب قوتها وراحت تسحب ذلك الحمل الثقيل، حتى أخذت العربة تتلوى مثل الخنفساء، وبدت عجلات السيارة الأمامية تسير بدون انتظام، فأمر جَدِّي بإيقاف الدواب التي كانت تسحب العربة، وفتح باب العربة ودخل إلى كابينة السائق وراح يقلد حركات قائد السيارة وهو يحرك عجلة القيادة يميناً ويساراً، بينما كانت الدواب تقفز أمام العربة، وراح يحرك عجلة القيادة حتى عرف أن العربة خالية تماماً، وتقدمت العربة بشكلٍ مستقيمٍ إلى الأمام، وتبعها جموع الأهالي وهم يرتجفون خوفاً، وكان جَدِّي يجلس داخل الكابينة وقد جعل إحدى يديه تُمسك بعجلة القيادة والأخرى تعبث هنا وهناك، حتى عبثت هذه اليد بمفتاح ما، فإذا به مفتاح الإضاءة حيث رأى الضوء الأبيض المنبعث من المصابيح الأمامية.

وسمع صوتاً يصيح خلف السيارة قائلاً: «افتحوا أعينكم! افتحوا أعينكم!»

وأضاء نور المصابيح مسافة طويلة من الطريق العام، وكان الضوء شديداً حتى إن الناظر باستطاعته أن يميز كل شعرة من شعر الخيل والبغال والحمير والأبقار، وعندئذٍ بدا على جَدِّي السرور والرضا، وقد راح يستمر في العبث بالمفاتيح المجاورة لمفتاح الإضاءة، فإذا به يضغط على مفتاح الكالكس الذي أحدث صوتاً قوياً انتفضت على إثره الخيل والبغال والحمير والأبقار مذعورة، ومضى جَدِّي يفكر في نفسه: هل لا زلت قادرة على الصياح! وفجأة تقدمت العربة إلى الأمام بسرعة جنونية وصدمت الحمير والأبقار وقلبت الخيل والبغال، وأرعبته هو رعباً شديداً وتصبب جسده عرقاً.

وأصيب الجميع بالذهول الشديد عندما رأوا العربة تتقدم بهذه السرعة الجنونية وتصطدم وتقلب هذه الدواب القوية، وتقدمت العربة إلى الأمام لمسافة عشرات الأمتار حتى وصلت إلى الخندق الذي يقع غربي الطريق، ونجح جَدِّي في الخروج من داخل العربة بعد أن قام بكسر زجاج الكابينة، وقد تلطخت يداه ووجهه بالدماء.

وراح جَدِّي يتأمل هذا الشيء الساحر وهو في غاية الذعر، وفجأة علت وجهه ابتسامة

حزينة.

وقام الأهالي بنقل حمولة الأرز التي كانت على ظهر العربة، وأخذ جدي بندقيته وأطلق طلقة تجاه تنك الزيت ثم ألقى إليها بأحد المشاعل لتحترق ويملاً دكانها الكثيف عنان السماء.

٨

قبل أربعة عشر عاماً مضت، كان يو جان أو قد وقف وسط فناء منزل عائلتي وهو يلتحف بعباءة صغيرة ويرتدي سروالاً من القماش، وقف وسط الفناء وراح يصيح بأعلى صوته: «أيتها المعلمة، هل أنتم بحاجة إلى عمال جدد؟»

فجاشت داخل صدر جدتي كل الأحاسيس، وشعرت ببعض الاضطراب، حتى سقط المقص الذي كانت تمسك به أعلى حصيرة مصطبة التدفئة، وشعرت ببعض الهزال، وسقطت على الغطاء الذي انتهت من صناعته مؤخراً من القماش الملون.

وشم يو جان أو رائحة ماء الكلس الطازجة ورائحة نسوية قادمة من داخل الغرفة فتجراً ودفع باب الغرفة.

«أيتها المعلمة، هل أنتم بحاجة إلى عمال جدد؟»

وكانت جدتي مضطجة أعلى الغطاء الملون، وراحت تنظر إليه نظرات غامضة. وألقى يو جان أو بعباءته، وتقدم بضع خطوات إلى جانب مصطبة التدفئة، ومال بنصف جسده الأعلى في مواجهة جدتي، وبدا يو جان أو في تلك اللحظة التي اقترب فيها من جدتي في غاية الرفق، وفي تلك اللحظة وعندما اقترب وجهه كثيراً من وجه جدتي، إذا بها ترفع يدها عالية وتصفعه صفعه على صلعته البيضاء، ثم قامت جدتي وأخذت بالمقص وراحت توبّخه بلهجة قوية: «من أنت؟ يا لك من وقح! كيف تجرؤ على دخول غرفتي بدون سابق معرفة وتصطنع هذه الرقة أمامي؟!»

أصيب يو جان أو بذهول شديد، وتراجع بضع خطوات إلى الخلف ثم قال: «أنت ... هل حقاً لا تعرفيني؟»

فأجابت جدتي: «يا لك من إنسان وقح، كيف لي أن أعرفك وقد كنت ألزم منزل أبي في صغري، ولم يكد يمر خمسة عشر يوماً على زواجي؟»

فقال يو جان أو مبتسماً: «فلتنكري معرفتي كما يحلو لك، سمعت أن حضرتك تحتاجين لبعض العمال للعمل في فرن النبيذ الذي تمتلكينه، وها أنا جئت لأبحث عن عمل أتحصل منه على قوت يومي.»

قالت جدتي: «موافقة، موافقة، ما دمت قادرًا على تحمل الصعاب، ما لقبك؟ وماذا تدعى؟ وكم عمرك؟»

- «لقبي يو، وأدعى جان أو، وعمري أربعة وعشرون عامًا.»

قالت جدتي: «فلترتد عباءتك ولتخرج إلى خارج هذه الغرفة.»

أطاعها يو جان أو وخرج إلى خارج الغرفة، ووقف ينتظر أوامرها، وسطعت أشعة الشمس على البرية، وبدأ الطريق الموصل إلى مدينة شي تونغ ضيقًا وطويلاً جدًا وسط حقول الذرة التي تحيطه من الجانبين، وكانت لا تزال توجد بقايا براعم الذرة المحترقة، وانتظر يو جان أو خارج باب المنزل لمدة نصف ساعة كاملة، ساوره خلالها الاضطراب والقلق، وود أن يقتحم الباب ويدخل إلى تلك المرأة ويتناقش معها، ولكنه منع قدميه من الدخول، وفي ذلك اليوم الذي قام فيه بقتل السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ، لم يكن يو جان أو قد هرب إلى مكان بعيد، ولكنه اختبأ داخل حقول الذرة القريبة وراح يتابع تلك المسرحية الرائعة التي حدثت إلى جانب الخليج، وكان عرض جدتي البارز كفيلاً بأن جعله يشعر بكثير من الدهشة، يعرف جيدًا أن جدتي على الرغم من صغر سنها، فإنها شابة ذات أنياب طويلة، ماهرة في رسم الخطط، وأنها امرأة خطيرة للغاية، وربما تكون معاملتها له اليوم بهذه الطريقة، إنما لتجنب نظرات الآخرين، وانتظر مدة أخرى، ولم تخرج جدتي لملاقاته، بدا الفناء في غاية السكون، إلا من صياح طائر العقعق الذي كان يقرفص أعلى سقف الغرفة، وأضمر يو جان أو نيته الشريرة بضرورة أن يقوم باقتحام الباب، وقبيل تنفيذ نيته الشريرة، إذا به يسمع صوت جدتي تناديه من وراء ستارة الشباك قائلة: «اذهب إلى المسئول في الفناء الشرقي وأفصح له عن طلبك.»

فانتبه يو جان أو فجأة، وعرف أنه يجب ألا يتعدى توجيهات المرأة الأهم في هذا المكان، فهدأ بعض الشيء، والتحف عباءته وخرج قاصدًا الفناء الشرقي، وما إن دلف إلى الفناء الشرقي حتى رأى أعدادًا كبيرة من أوعية النبيذ، وأكوامًا من الذرة، والفرن تعج بالكثير من العمال الذين كانوا جميعًا منشغلين في أعمالهم، فدخل يو جان أو تلك الخيمة الصيفية وسأل أحد العمال الذي كان يقف أعلى مقعد مرتفع ويقوم بإلقاء كميات الذرة داخل دلو مربع في الفرن، سأله يو جان أو: «أي، أيها العامل، أين الشخص المسئول في هذا المكان؟»

نظر إليه العامل بطرف عينه، واستمر في عمله إلى جانب فرن النبيذ، ثم نزل من أعلى المقعد المرتفع بعد أن انتهت من إلقاء كمية الذرة إلى داخل الفرن، نزل وإحدى يديه تأخذ

بالجاروف والأخرى تسحب المقعد المرتفع من جانب الفرن، وراح العامل يصيح بصوت مرتفع، وما إن سمع ذلك البغل الذي كانت عيناه مغطاة بقطعة قماش سوداء الصياح حتى استدار بجسده وجرى مسرعاً، وقد طبعت أقدام البغل على حجر طاحونة الفرن، وكان صوت الرحى عالياً؛ كانت تدور بسرعة لتخرج من أسفلها كميات من مسحوق الدُّرَّة، تنزل داخل الإناء الخشبي الكبير المُعد لذلك، وقال ذلك عامل الطاحونة: «إن العم المسئول داخل المتجر.» وأشار العامل إلى الغرف الثلاث الواقعة على الجانب الغربي لمدخل الفناء. حمل يو جان أو عباءته ودخل إلى تلك الغرف من الباب الخلفي، وما أن دلف إلى داخل الغرف حتى رأى ذلك العجوز المعروف له جالساً خلف الخزينة وقد انشغل بمراجعة بعض الحسابات على المحسب،^٨ وقد وضع جرة من النبيذ إلى جوار المحسب، يحتسي ما بداخلها من نبيذ خلال انشغاله بحساباته.

فسأله يو جان أو، «أيها المدير، هل أنتم في حاجة إلى عمال جدد؟»
نظر الجد لـ يو خان إلى السائل وكأنه يساوره بعض الشك في أمره، ثم سأله: «هل ترغب في العمل لفترة طويلة أم لفترة قصيرة؟»
فردَّ يو جان أو: «ما ترونيه سيادتكم، أما أنا فأتمنى العمل لأطول فترة ممكنة.»
قال الجد لـ يو خان: «أنا أملك الحق في الموافقة على مدة العمل القصيرة حوالي عشرة أيام، أما الفترات الطويلة فلا بد من موافقة المعلمة حتى نقبلك في هذا المكان.»
قال يو جان أو: «إذاً فلتسارع بسؤال المعلمة.»
وخرج يو جان أو إلى خارج غرفة الحسابات، وسحب مقعداً وجلس يرتاح بعض الوقت. وترك الجد لـ يو خان المحسب، واستدار بجسده وغادر المكان من الباب الخلفي

^٨ المحسب أو كما يُطلق عليه بالصينية suan pan: وهو آلة حسابات صينية تقليدية، تم اختراعها في الصين قديماً وانتشرت انتشاراً واسعاً قبل معرفة الأرقام العربية، وهناك من يقول بأن لها علاقة بالاختراعات الصينية الأربعة الكبرى (الورق - البارود - الطباعة - البوصلة)، وهي عبارة عن آلة حسابات مستطيلة الشكل، لها حواف خشبية من الجهات الأربعة، مثبت بداخلها دعائم خشبية، معلق عليها حبات خشبية تشبه حبات المسبحة، وهناك عمود خشبي يقسمها إلى نصفين، ولا تزال هذه الآلة التقليدية موجودة في الصين حتى يومنا هذا، ويتم استخدامها داخل مختلف المتاجر الكبرى؛ حيث يعتقد أصحابها أن استخدامها ليس فقط من أجل سهولة استخدامها لديهم، بل إنها تساعد على التدريب على القدرات الفكرية للمستخدم، حيث يتطلب استخدامها تركيزاً كبيراً تتواصل خلاله العين مع المخ والأيدي، فهي طريقة مهمة لتشغيل العقل. (المترجم)

للغرفة، ثم عاد ثانيةً ليأخذ سلطانية من الخزف كانت ممتلئة بالنيبذ إلى حد المنتصف، ووضعها على الخزينة ثم قال: «فلترو عطشك باحتساء بعض النيبذ.»
أخذ يو جان أو السلطانية وجعل يشرب ما بداخلها، ومضى يُفكّر في حيل ومكائد تلك المرأة، والتي أعجب بها كثيرًا، وعندئذٍ دخل إليه الجد لـو خان وقال: «إن المعلمة ترغب في رؤيتك.»

وسارا معًا حتى وصلًا إلى الفناء الغربي، وعندها قال الجد لـو خان: «فلتنتظر قليلاً.»

خرجت جدتي إليه، وقد بدت في غاية الوقار والاتزان، وغاية الغرور، وراحت تسأل يو جان أو بعض الأسئلة، وأخيرًا لوحث بيدها قائلةً: «فلتأخذه إلى الفرن، وليعمل مدة شهر تحت التدريب، وليحسب له راتبه من الغد.»

ومنذ ذلك اليوم أصبح يو جان أو أحد عمال فرن النيبذ المملوكة لعائلتي، وكان الرجل قوي البنية، بارعًا وماهرًا، يؤدي عمله على خير وجه، وكان الجد لـو خان كثيرًا ما يثني عليه أمام جدتي، وبعد مرور شهر من عمله في الفرن، استدعاه الجد لـو خان إلى غرفة الخزينة، وأخبره: «إن المعلمة راضية عنك كل الرضا، وقد قرّرت الإبقاء عليك لتكون أحد عمال هذا الفرن.» ثم قدّم له الجد لـو خان كيسًا من القماش قائلاً: «وهذه مكافأة من المعلمة.» ففتح يو جان أو الكيس القماشي، ليجد بداخله زوجًا جديدًا من الأحذية المصنوعة من القماش، قال يو جان أو: «أيها المعلم الثاني، أستأذنك في أن تخبر المعلمة بأنني يو جان أو أشكرها عظيم الشكر.» فقال الجد لـو خان: «فلتذهب الآن، ولتجتهد في عملك.» قال يو جان أو: «أعدك بأنني سأجتهد في عملي.»

ومرّت سريعًا فترة ستة أشهر من عمل يو جان أو في فرن المعلمة جدتي، بينما كان يو جان أو يشعر بشيء من عدم الصبر وعدم الرضا تجاه بعض الأمور في الفرن، كانت المعلمة تأتي كل يوم إلى الفناء الشرقي لتقصّي أحوال العمل والعمال، وكانت تروح وتجيء بصحبة الجد لـو خان، ولا تهتم بهؤلاء العمال الذين كانوا يبدون في غاية التعب والإرهاق، وهكذا شعر يو جان أو ببعض الظلم من تصرّف المعلمة تجاه عمال الفرن.

وحينما كان السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ يتولّيان إدارة الفرن، كانا يعتمدان على بعض المطاعم في القرية لإعداد وجبات الطعام اللازمة لعمال الفرن، أما بعد تولّي المعلمة جدتي شئون الفرن، فقد قامت باستئجار سيدة فوق الثلاثين من العمر تُدعى العمة ليو بواتزه، وفناة في حوالي الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر تدعى

ليان إر؛ كانت العمدة ليو بواتزه والفتاة ليان إر تقيمان داخل الفناء الغربي، وتتوليان مهام إعداد الطعام، كما قامت جدتي بشراء ثلاثة كلاب جدد، كلب أسود وآخر أخضر وثالث أحمر، وذلك بالإضافة إلى كلبين آخرين كانت تملكهم العائلة من قبل، وهكذا فقد أصبح الفناء الغربي عالمًا خاصًا يسكنه ثلاث سيدات وخمسة كلاب، وإذا ما هبت أدنى رياح في الليل، أو حدث أدنى حركة قريبة من الفناء، فإن الكلاب الخمسة كانت تنبح بصوت عالٍ، ولم يكن يفلت منهم أحد، فكانوا إما يتغلبون عليه بعضه، أو أن يموت اللص من شدة الخوف من الكلاب الخمسة.

وعندما مر شهران على عمل يو جان أو في القرن، كان قد حل شهر سبتمبر، نضجت محاصيل الذرة التي كانت تملأ أرجاء القرية، وأمرت جدتي الجد لوو خان باستئجار بعض عمال اليومية للقيام بتنظيف ساحة القرن؛ لتكون جاهزة لتخزين كميات جديدة من الذرة تشتريها جدتي هذا الموسم، سطعت شمس سبتمبر على الساحة الكبيرة، وظهرت جدتي ترتدي ثوبًا من الحرير الأبيض، وتنتعل زوجًا من الأحذية الحمراء المصنوعة من الستان، تمسك بعضا من خشب الصفصاف نزعت قشرتها، تتبعها زمرة من الكلاب، هكذا راحت جدتي تروح وتجيء في جميع أرجاء الساحة، حتى كان جميع أهل القرية في عجب شديد من زينتها وتبخترها بهذه الطريقة، ولكن أحدًا منهم لم يجروا على التفوه بكلمة واحدة، وقد حاول يو جان أو التقرب منها أكثر من مرة، إلا أن جدتي كانت تبدو في غاية الصرامة، ولم تتحدث إليه بكلمة خارج حدود العمل.

في تلك الليلة تجرَّع يو جان أو أكثر من سلطانية من النبيذ، حتى وصل به الأمر إلى بعض التُمالة، فألقى بنفسه على مصطبة التدفئة وراح يتقلب كثيرًا عاجزًا عن النوم، وانعكس ضوء القمر إلى داخل الغرفة عبر نافذتي الفناء الشرقي، ورأى اثنين من عمال الفرن ينشغلان بإصلاح وترقيع ثيابهما تحت ضوء القمر.

كان العم لاو دو الماهر في العزف على آلة بانخو،^٩ يعزف على آله مقطوعة من الألحان الحزينة، حتى إن الآلة كانت ترتجف متأثرة بهذه الألحان الشجية، وقد راح أحد العاملين اللذين كانا ينشغلان بإصلاح ثيابهما يستجيبان إلى ألحان العم دو، وراح

^٩ بانخو: آلة موسيقية صينية يرجع تاريخها إلى حوالي ثلاثة آلاف عام، وتتميز بألوانها الجميلة وأنواعها المتعددة، وهي واحدة من الآلات الموسيقية التي تستخدم في عروض الأوبرا الصينية والفنون المسرحية الصينية خاصة في شمال الصين. (المترجم)

ذلك العامل ينشد بصوت مبجوح: «ما أصعب حياتك أيها العزب، ما أصعب حياتك أيها العزب، وليس لك من أحد يساعدك في إصلاح وترقيع ثيابك.»
- «فلتطلب من المعلمة أن تساعدك في إصلاحها.»
- «تقصد المعلمة؟ تلك الإوزة السمينة، يا ترى من ذا سعيد الحظ الذي سينعم بأكلها.»

- «إن العم المسئول في هذا الفرن يأمل في الفوز بتلك الإوزة السمينة، وتقديم حياته في سبيل تحقيق أمنيته.»

- «آي، لقد سمعت أن المعلمة أقامت علاقة غير شرعية قبل زواجها بأحد الحملين.»

- «إدًا فإن كلامك هذا يؤكد أن السيد دان وابنه قد قُتلا على يد ذلك الحمّال.»

- «فلتسكّتوا عن الخوض في هذا الحديث، فإن الحيطان لها أذان.»

وعندها ضحك يو جان آو الذي كان يرقد على مصطبة التدفئة.

فسأله أحد العمال: «وما الذي يُضحك يا يو؟»

فأمسك يو جان آو بغطاء سلطانية النبيذ وشرب جرعة ثم قال: «أنا الذي قتلتُ

السيد دان وابنه.»

- «لقد سكرت يا يو جان آو.»

انتصب يو جان آو وراح يرد على ذلك العامل الذي اتهمه بالسُّكر، فقال: «سكرتُ؟

إنك أنت السكران! وأنا القاتل!»، ثم مد يده إلى صرة ملابس معلقة على الحائط، وأخرج

منها خنجرًا صغيرًا، وكان يلمع تحت ضوء القمر وكأنه سمكة فضية، ثم قال بلهجة

شديدة: «ولأخبركم أنني ... أنني ضاجعت هذه المعلمة ... ضاجعتها هناك وسط حقول

الذُّرة.»

ساد الجميع صمتٌ تامٌ، ثم تقدّم أحد العمال ونفخ نفخة ليُطْفئ ضوء المصباح؛

ليلف الغرفة ظلام دامس، ويزداد بريق الخنجر الصغير أكثر وأكثر.

- «فلتناموا الآن، فلتناموا الآن، فلتناموا الآن، فستستيقظون غدًا مبكرًا للعمل داخل

الفرن.»

راح يو جان آو يغمغم: «اللعنة عليك ... تُنكريني بعد أن ارتديت الثياب الجميلة

... وترغبين في أن أكون خادمًا لك ... ليس الأمر سهلًا كما تتخيلين ... وسأذبحك الليلة.»

ثم قفز من أعلى المصطبة، وأمسك بخنجره ومضى إلى خارج الغرفة، فانتفض العمال

وفتحوا أعينهم داخل الظلام، وراحوا ينظرون إلى بريق الخنجر، ولم يجروا أحد منهم أن

ينبس ببنت شفة.

ووصل يو جان أو إلى ساحة الفرن، ليرى ظلمة الليل وقد لفت جميع أرجاء الساحة، حتى بدت جرات النبيذ تلمع وكأنها كنوز نفيسة، وشعر ببعض البرودة التي كان مصدرها الرياح الجنوبية القادمة من الخلاء البعيد والمحملة برائحة الدُّرَّة الناضجة، وسمع صوتاً نسائياً قادمًا من الفناء الغربي، وتسلل إلى داخل الخيمة الصيفية، ونقل ذلك المقعد العالي ذا الأرجل الأربعة، وكان أول ما رأى فور تسلله إلى داخل الخيمة، ذلك البغل الأسود الذي كان يغط في نوم عميق، ولم يبالي يو جان أو بالبغل، ومضى يرفع المقعد إلى جانب الحائط، ثم صعد إلى أعلى المقعد، وانتصب لتتساوى قامته مع حافة الحائط، ورأى ضوء المصباح الذي كان ينعكس على ورق الناظفة الأبيض، وقد لصق أعلاه بعض الرسومات الحمراء، كانت المعلمة تنشغل بالحديث مع الفتاة الطباخة ليان إر فوق مصطبة التدفئة، ثم سمع صوت العمة الطباخة ليو بواتزه تقول: «يا لكم من ثرثارتين، فلتنامًا، فلتنامًا!» ثم قالت العمة ليو بواتزه: «يا ليان إر، فلتذهبي إلى القدر لتتظري إلى الخميرة، وترى هل نضجت أم لم تنضج بعد؟»

وأخذ يو جان أو الخنجر بفمه، وجعل يتسلق الحائط، فشعرت به الكلاب الخمسة، فرفعت رءوسها وراحت تنبح، فدهش يو جان أو اندهاشًا شديدًا من تلك الكلاب اليقظة، ثم ألقى بنفسه إلى داخل الفناء الغربي ورأسه ثقيل وقدماه متخادلتان، وفي الحقيقة أنه لو لم تكن قد خرجت جدتي في تلك اللحظة مسرعةً إلى الفناء، لكانت تلك الكلاب كفيلة بأن تلتهم اثنتين في قوة يو جان أو.

قامت جدتي بتوبيخ الكلاب لإقصائها عن المكان، ثم نادت: «يا ليان إر، أوقدي المصباح واثنيني به.»

وجاءت العمة ليو بواتزه وهي تمسك بالمطرقة التي تستخدمها في عجن الخبز، وراحت تصيح بأعلى صوتها: «حرامي، حرامي!»

وجاءت ليان إر بالمصباح؛ لينعكس ضوءه على وجه يو جان أو الذي كان في رعبٍ شديدٍ، وهنا ضحكت جدتي ضحكة باردة وقالت: «إنه أنت!»

ومدت جدتي يدها والنقطة الخنجر، وراحت تقلبه وتتفحصه، ثم وضعته إلى داخل جيبها، وقالت: «يا ليان إر، اذهبي لتنادي الجد ليو خان.»

وما إن فتحت الفتاة ليان إر باب الفناء، حتى دخل الجد ليو خان، وراح يسأل: «ما الذي حدث يا سيدتي؟»

ردت جدتي: «يبدو أن هذا العامل سكران.»

فقال الجد لـ لوو خان: «نعم إنه سكران.»
قالت جدتي: «يا ليان إر، ائتني بالعصا.»
فخرجت الفتاة ليان إر وأحضرت عصا جدتي الخشبية البيضاء، ثم قالت جدتي:
«أما أنا فسأجعلك تفيق من سُكرِكَ.»

رفعت جدتي العصا عالية وراحت تضرب بها يو جان أو على مؤخرته.
وأحس يو جان أو وسط هذا الضرب المبرح ببعض السرور يدخل إلى قلبه، حتى
وصل السرور إلى حنجرته، ثم أسنانه، وتجمع السرور ليخرج في كلمات من الهذيان: «يا
أمي! يا أمي! ... يا أمي! ... يا أمي!»
وبعد أن نعتبت جدتي من ضربه، اتكأت على عصاها وراحت تلهث من شدة التعب.
وقالت جدتي: «احملوه إلى حيث كان.»

فتقدم الجد لـ لوو خان ليسحبه، غير أن يو جان أو كان ملتصقًا بالأرض وأبى أن
يقوم من مكانه، وهو لا يتوقف عن: «يا أمي! ... فلتستمر في ضربتي ... فلتستمر في
ضربتي.»

وجّهت جدتي العصا نحو رقبته، وضربته ضربتين مبرحتين، فراح يو جان أو يللم
قدميه ويتلوى مثل الأطفال، واستدعى الجد لـ لوو خان اثنين من العمال، ليقوموا بحمله إلى
غرفة العمال، ويلقوه على المصطبة، فراح يتلوى أعلى المصطبة كالضفدعة، وهو لا يتوقف
عن الهذيان بالكلام القبيح، فأتى الجد لـ لوو خان بسطل من النبيذ وأمر بعض العمال أن
يمسكوا بذراعيه وقدميه، ثم قام بسكب سطل النبيذ داخل فمه، فأرخى العاملان أيديهما
عنه، فراح يهز رقبته دون أن يتفوه بكلمة واحدة أو يصدر عنه أدنى نفس، فصاح أحد
العمال مفزوعًا: «هل مت؟» ثم راح يأتي بالمصباح في عجالة، ونظر إلى وجهه إذا به
يتحرك، ونفخ في المصباح نفخة قوية أطفأت ضوءه.

ونام يو جان أو في ذلك اليوم حتى وقت متأخر من الصباح، وبعد أن استيقظ من
نومه، راح يسير إلى داخل فرن النبيذ، حيث محل عمله بخطى بطيئة، بينما كان العمال
ينظرون إليه باستغراب شديد، وراح يو جان أو يتذكّر مشهد تعرّضه للضرب ليلة أمس،
ومد يده يتلمس مؤخرته، فلم يحس بأدنى ألم، وكان في غاية العطش، فأخذ بمغرفة من
الحديد وجعل يغرف بها النبيذ، ومضى يشرب وهو رافع رقبته لأعلى.

قال العم لاو دو العازف على آلة بانخو مخاطبًا يو جان أو: «أخي الصغير يو، هل
ستجرؤ على القفز أعلى السور مرة ثانية بعد أن أوجعتك أمك ضربًا؟»

قبل وقوع تلك الحادثة، كان عمال فرن النبيذ يشعرون ببعض الخوف من هذا الشاب المُتَجَهِّم، غير أن هذا الخوف قد زال عنهم تمامًا بعد أن سمعوا بأذانهم صراخه وصياحه في تلك الليلة، وكانوا بعدها يتحدثون عن جنونه ويهزءون منه بكل حماس، ولم يرد عليهم يو جان أو، غير أنه سارع بسحب أحدهم وأوجعه ضربًا، فتلاقت أعينهم، ثم تَقَدَّمُوا معًا نحوه، وطرحوه أرضًا، وانهالوا عليه ضربًا، وبعد أن كَلُّوا من ضربه، فكوا حزامه، وقاموا بوضع رأسه داخل بنطاله وجعلوا يديه متشابكتين خلف ظهره، ثم طرحوه أرضًا، فسقط يو جان أو مغشيًا عليه كالنمر القوي الذي خارت قوته، وراح يجاهد لفك أسر رأسه الذي حُشِرَ داخل حجر بنطاله، بينما كان جسده يَتَلَوَّى على الأرض مثل الكرة التي تتزحلق هنا وهناك، وبعد مجاهدته لمدة كافية لإشعال سيجارتين، إذا بالعم لاو دو لم يتمالك رؤيته على هذا النحو، فتقدم ليخلصه من ورطته، وأخيرًا نجح في تخليص رأسه من داخل حجر البنطال؛ ليظهر وجه يو جان أو وكأنه ورقة ذهبية ذابلة ترتفع أعلى كومة حطب، أو كأنه مثل أفعى ميتة، وأخيرًا استطاع أن يلتقط أنفاسه بعد وقت طويل، أخذ العمال ببعض الأشياء في أيديهم واستعدوا للانتقام منه، غير أنهم رأوه يتمايل ويسير بصعوبة نحو قدر النبيذ، ثم راح يرفع غطاء القدر وبدأ يشرب بجنون، وبعد أن ارتوى من النبيذ، جعل يتسلق كومة الحطب وراح يصيح حتى غلبه النعاس.

ومنذ ذلك الحادث، كان يو جان أو يُرى يوميًّا سكران يرقد فوق كومة الحطب، وعيناه الزرقاوان شبه مغمضتين، وتظهر على أساريه ابتسامتان: ابتسامة تتم عن البلاهة وأخرى عن المكر والخداع، وخلال اليومين الأولين من تَغْيُرِهِ إلى هذا الحال، كانت جموع العمال تتلذذ برؤيته على هذا الحال، ثم بدؤوا يتذمرون منه تدريجيًّا، وبدأ الجد لوو خان يجبره على النهوض من فوق كومة الحطب للعمل، بينما كان يو جان أو ينظر إلى الجد لوو خان بطرف عينيه قائلاً: «ومَن أنت حتى تأمرني هكذا؟ أنا المسئول الحقيقي في هذا المكان، وأنا أيضًا أبو ذلك الطفل الذي هو في بطن المعلمة.»

كان أبي — ذلك الجنين في بطن جدتي — قد أصبح في حجم الكرة الجلدية، كان صوت تقيؤ جدتي صباحًا داخل الفناء الغربي يدوي داخل أرجاء الفناء الشرقي، كان من يعرف سبب هذا الصوت من العمال يتناقشون حول هذا الأمر بصوت خفيض، وفي ذلك اليوم، سأل أحد العمال العمدة ليو بواتزه التي جاءت إلى الفناء الشرقي لتقديم الطعام لجموع العمال، سألتها ذلك العامل قائلاً: «أيتها العمدة ليو بواتزه، هل المعلمة حامل؟»

فرمته العمدة ليو بواتزه بنظرة ازدراء ثم قالت: «الزم حدودك وإلا سيُقطع لسانك.»

- «ما أشد المعلم دان بيان لانغ!»
- «وربما كان الذي فعلها المعلم الكبير.»
- «لا تُخْمن كما يطلو لك! فهل تعتقد أن طباعها تسمح لأحد من أسرة دان بمواقعتها؟ فمن المؤكَّد أن ذلك الحَمَّال هو الذي وراء هذا الحمل.»
وهنا قفز يو جان أو من فوق كومة الحطب، وراح يصيح في سعادة بالغة: «إنني أنا الذي فعلتها! ها ها! أنا الذي فعلتها!»
فنظر إليه العمال وراحوا يضحكون ويسبونونه في صوتٍ واحدٍ.
وكان الجد لوو خان قد اقترح أكثر من مرة أن تقوم المعلمة بفصل يو جان أو من العمل، غير أن جدتي كانت تقول دائماً: «دعه يعانى بعض الوقت، وسترى كيف أوقفه عند حده.»
وفي ذلك اليوم، كانت جدتي قد أتت إلى الفناء الشرقي وهي تنصب ظهرها، أتت للحديث مع الجد لوو خان.
ولم يجرؤ الجد لوو خان على رفع رأسه ليرى جدتي الواقفة أمامه، وقال ببرود: «أيتها المعلمة، لقد حان وقت نصب الموازين لجمع كميات من الذُّرة.»
سألته جدتي: «وهل تم تجهيز الساحة والقذور المخصصة لتخزين الذُّرة؟»
فأجاب الجد لوو خان قائلاً: «نعم تم تجهيزها.»
سألته جدتي: «ومتى كنتم تنصبون الموازين في الأعوام الماضية؟»
فقال الجد لوو خان: «في مثل هذا التوقيت.»
قالت جدتي: «فلنؤخر هذا الأمر العام الحالي.»
فقال الجد لوو خان: «ولكنني أخشى ألا نستطيع جمع ما يكفيننا إذا ما تأخَّرنا بعض الوقت، ولقد بدأت اليوم بعض الأقران الأخرى في جمع ما تحتاجه من الذُّرة.»
فقالت جدتي: «إن محصول الذُّرة هذا العام يبدو وثيراً، وهم لن يسيطروا على كل هذه الكمية، ولتكتب إعلاناً تذكر فيه أننا لم نستعد بعد، ولنبدأ في جمع ما نحتاج إليه بعد أن يشتروا هم ما يكفيهم من الذُّرة، وعندها سنحدد السعر الذي نرغب فيه، بل إن الذُّرة ستكون حينها أخف بكثير.»
فقال الجد لوو خان: «أحسن يا معلمة.»
ثم سألته جدتي: «هل هناك أمور أخرى تودُّ في مناقشتها معي؟»

- «في الحقيقة ليست هناك أمور كبيرة، فقط موضوع ذلك العامل، الذي يبدو يومياً سكران تماماً، وأرى من الأفضل أن نعطيه بعض المال ونتركه يغادر هذا المكان وننتهي منه.»

ففكرت جدتي قليلاً، ثم قالت: «فلتقودني إلى الفرن لرؤيته.»
 سار الجد لُوو خان أمامها، حتى دخلت المعلمة إلى داخل الفرن، كان العمال ينشغلون بوضع كميات الدُّرَّة التي خمرت إلى داخل القدر الكبير المُعد لتبخير الدُّرَّة، بينما كانت تسمع صوت الدُّرَّة داخل الأواني وكأنها كميات من الحطب تحترق، ويصل ارتفاع هذا القدر الكبير إلى ما يزيد على مائة متر، مصنوع من الخشب، موضوع أعلى الغلاية، في أسفله حصيرة مصنوعة من البامبو، كان هناك أربعة من العمال يحملون مغرفة خشبية ويقومون بنقل كميات من الدُّرَّة المتخمرة التي تفوح منها رائحة حلوة من الأوعية إلى القدر الكبير، وكانوا يقومون بتقليب كميات الدُّرَّة داخل المناطق الأكثر حرارة في القدر الكبير. وعندما انتبه العمال إلى مجيء جدتي، هبوا يعملون بهمة وحماسية، بينما كان يو جان أو يرقد فوق كومة الحطب، وقد بدا ذا شعر أشعث ووجه غير نظيف، يرتدي ثياباً مهلهلة تماماً مثل المتسول، راح ينظر إلى جدتي نظرات باردة.

قالت جدتي: «أود أن أرى اليوم كيف تتحول الدُّرَّة إلى نبيذ؟»

فأحضر الجد لُوو خان مقعداً، وطلب من جدتي أن تستريح.

وبينما جلستُ جدتي في وسط ساحة فرن النبيذ، إذا بجموع العمال يتنافسون في بذل أقصى ما في وسعهم من جهد، ويظهرون ما لديهم من مهارات خاصة، راح العمال المسئولون عن إشعال النيران ينهمكون في إلقاء كميات من الحطب داخل النار، حتى اشتعل لهيبها داخل القدر الكبير، وراحت المياه تغلي بشدة داخل ذلك القدر الكبير، بينما اختلط صوت غليانها مع أصوات تَنهُدات العمال، وامتلاً القدر الكبير بكميات كبيرة من الدُّرَّة، وقد تم تغطية فوهته بغطاء مستدير به عدة فتحات في حجم فوهة القدر، وبعد أن زاد اشتعال النار، ظهرت رائحة اللهب تفوح من خلال تلك الفتحات التي تملأ غطاء القدر، ثم جاء العمال بشيءٍ غريبٍ مصنوع من القصدير، مكوّن من طبقتين، به بروز من أعلى، فقال الجد لُوو خان مخاطباً جدتي: هذا هو تزيين^{١٠}، فنَهَضْتُ جدتي وتقدّمت

^{١٠} تزيين: نوع من الآنية في الصين قديماً مستدير الشكل، يكون له يد يمسك بها أو بدون يد، كان يستخدم في تخزين النبيذ خلال مراحل التصنيع. (المترجم)

إلى الأمام قليلاً لتتنظر إلى ما أشار إليه الجد لـو خان، ونظرت بدقة إلى تركيبة تزيينغ، ثم عادت لتستريح فوق المقعد دون أن تسأل عن أي شيء.

حمل العمال تزيينغ وقاموا بتغطية القدر الكبير، حتى اختفت رائحة التبخر من القدر، كانوا يسمعون فقط صوت اشتعال النيران بداخله، وراحوا ينظرون إلى القدر الخشبي الكبير أعلى النيران المشتعلة، كانت النار تبدو أحياناً بيضاء وأحياناً أخرى صفراء، كانوا يَشْمون رائحة خفيفة وحلوة أشبه ما تكون برائحة النبيذ تنبعث من خلال القدر الخشبي الكبير.

قال الجد لـو خان: «أضيفوا الماء البارد.»

فصعد العمال أعلى بعض المقاعد العالية، وقاموا بسكب دلوين من المياه الباردة إلى داخل وعاء مُحَدَّب في القدر الكبير، ثم أخذ أحد العمال بعضاً خشبية في شكل المدافع، وصعد أعلى مقعد عال وراح يُقَلِّب المياه الباردة داخل الوعاء المُحَدَّب، وبعد وقت قصير شمَّت جدتي رائحة النبيذ العطرة.

قال الجد لـو خان: «استعدُّوا لاستقبال النبيذ.»

فقام اثنان من العمال بحمل سلة النبيذ المصنوعة من شرائح الشمع والملفوفة بالورق والمدهونة بالزيت، ووضعوها أمام مجرى النبيذ في شكل فَم البطة الذي يتدفق من القدر الكبير.

قامت جدتي ثانيةً، وراحت تُحَدِّق في مجرى النبيذ، واختار ذلك العامل الصغير بعض الحطب كبير الحجم المدهون بزيت الصنوبر وألقى به إلى داخل الفرن المتوهِّج، فاستعرت النار ثانيةً وامتد لهيبها الأبيض، وانعكس اللهب على صدر ذلك العامل الذي كان يتصبَّب عرقاً.

فقال الجد لـو خان: «فلتغَيروا المياه.»

أسرع اثنان من العمال إلى داخل الفناء، وجاءوا بأربعة جرادل ممتلئة بالماء البارد، وقام العامل الواقف أعلى المقعد العالي بتحريك مفتاح تزيينغ، لِتَتَدَفَّق كميات المياه المغلية، وقام بسكب المياه الباردة وانهمك في تقليب المياه داخل تزيينغ.

وهكذا انشغل العمال بالقيام بمهامهم حول فرن النبيذ الضخم بنظام تام، بينما راحت جدتي تتابع هذا العمل المهيب المُقَدَّس، مُتَأَثِّرة بما ترى بأَم عينيها، شعرت في تلك اللحظة أن أبي يَحْرَك داخل بطنها، ثم أَلَقَتْ نظرة خاطفة على يو جان أو الذي كان يرقد فوق كومة الحطب ويحدق إليها بعينيه الغائرتين، كانت هاتان العينان هما العينين الباردتين في هذا الفرن الحامي، هذا وقد بدأ هذا البرود يُهدِّئ من حماس جدتي، راحت

تنظر بهدوء إلى العامِلين اللَّذِينَ كَانَا يَنْشَغِلَانِ بِالْإِمْسَاكِ بِسَلَةِ النَّبِيذِ الْكَبِيرَةِ فِي انْتِظَارِ اسْتِقْبَالِ النَّبِيذِ مِنْ فَوْهَةِ الْقَدْرِ الْكَبِيرِ.

بدأت تشتد رائحة النبيذ العطرة، وقد انساب أريجها من خلال فتحات ذلك القدر الخشبي، ونظرت جدتي إلى الضوء المنبعث من مجرى النبيذ الأبيض، تجمّع هذا الضوء راح يتحرك ببطء، مكوناً في النهاية بعض قطرات المياه اللامعة، مضت تسيل إلى داخل سلة النبيذ وكأنها قطرات من الدمع.

فنادى الجد لوو خان أن: «غيروا المياه، وزيدوا النار اشتعالاً.»

وانشغل العاملان المنوطان بحمل المياه الباردة بحمل مزيد منها، وقد انفتح صنوبر تغيير المياه في تزينغ، وبدءوا في سكب كميات المياه الباردة من أعلى، بينما كانت تتدفق كميات المياه المغلية من أسفل، كانت تزينغ لا تزال تحافظ على درجة حرارة المياه الباردة داخلها، وقد تجمّع البخار عند طبقات القدر ليخرج من عند مخرج النبيذ. كانت أول كمية نبيذ تخرج من القدر ملتفة للغاية، شفافة، تغلي بشدة، وأتى الجد لوو خان بمغرفة نظيفة، وجمع بداخلها قدرًا من النبيذ وقدمه إلى جدتي قائلاً: «أيتها المعلمة، فلتتذوقي هذا النبيذ.»

راحت جدتي تشم رائحة النبيذ النفاذة، كان لسانها لا يتوقف عن الحركة على حواف فمها، وعندئذ عاود أبي الحركة داخل بطنها، فكأن أبي يود أن يشاركها في شرب النبيذ، أخذت جدتي المغرفة الممتلئة بالنبيذ، وراحت تشمه، ثم مدت لسانها لتلغقه، ثم أخذت قليلاً منه بشفتيها، وراحت تتذوقه على مهل، كان هذا النبيذ ذا رائحة زكية جداً، وحراراً جداً، فأخذت جدتي رشفة منه، واحتفظت بها في فمها، وأحسّت بأن وجنتيها ناعمتان، وكأنهما قد حُفَّتَا بِقِطْنَةِ رَقِيقَةٍ، وأرخت شفتيها لينساب النبيذ بسرعة إلى داخل حلقتها، وتصبّب جسمها عرقاً، وغمرتها نشوة غريبة، وشربت ثلاث رشفات متواصلة، وأحسّت أن هناك يدًا صغيرة تعبت داخل بطنها، فرفعت رقبتها، وشربت الكمية المتبقية داخل المغرفة، وبعد أن انتهت جدتي من شراب النبيذ، إذا بوجهها يبدو متورداً، وعيناها بارقتان، مشرقتان جذابتان، فرّاح العمال ينظرون إليها باستغرابٍ شديدٍ، وقد تناسوا أعمالهم من شدة انبهارهم بما يرون.

قال أحد العمال بوقار شديد: «أيتها المعلمة، يا لك من امرأة قادرة على الشراب!»

فردت جدتي في تواضع: «إنه لم يسبق لي الشراب من قبل.»

قال العامل بمزيد من الوقار: «لم يسبق لك الشراب من قبل وتشربين هكذا، إنك إذا

تدرّبت قليلاً فبالتأكيد ستكونين قادرة على شرب سلة كاملة من النبيذ.»

وهكذا انهكم العمال في استقبال سلة وراء سلة من النبيذ، وقاموا بوضع ما يستقبلونه من النبيذ الجديد إلى جانب كومة الحطب، ونهض يو جان أو من فوق كومة الحطب، وفك بنطاله وراح يتبول داخل إحدى السلال الممتلئة بالنبيذ، بينما انشغل العمال شاردين بملاحقة ذلك البول الصافي وهو يجري وينساب داخل سلة النبيذ، وقد بدأت تتكون بعض الفقاعات أعلى سطح سلة النبيذ، وبعد أن انتهى يو جان أو من قضاء حاجته، إذا به يبتسم لجذتي ابتسامة عريضة، وبدأ يدنو منها وهو يتمايل، فاحمرَّ وجه جذتي، وتسمَّرت في مكانها، ومد يو جان أو ذراعيه واحتضنها، ثم طبع قبلة على وجهها، فتغيَّرت ملامح وجهها للتو، ولم تتمالك نفسها، وهبطت لتجلس فوق المقعد.

قال يو جان أو بأسلوب حادٍّ: «ما قولك في أن هذا الطفل الذي في بطنك هو ابني؟»

فأجابت جذتي باكية: «إذا كنت تزعم أنه ابنك، فليكن ابنك.»

فلمعت عينا يو جان أو، وانتفض مثل الحصان، فخلع ملابسه وأبقى فقط على

سرواله، وقال لجذتي: «انظري إليّ وأنا أقوم بتقطير النبيذ!»^{١١}

كانت عملية تقطير النبيذ من أصعب مراحل العمل داخل فرن صناعة النبيذ، فبعد أن تم تدفُّق كميات النبيذ المتجمعة داخل القدر، تم تحريك القدر وفتح غطاءه، ثم تم الكشف عن كميات حثالة الذرة داخل القدر، وكانت هذه الحثالة صفراء اللون ساخنة جداً. ووقف يو جان أو أعلى مقعد مربع الشكل، وأخذ بمغرفة خشبية صغيرة وراح يغرف الحثالة المتجمعة داخل القدر، ويكومها داخل سلة كبيرة مُعدَّة لذلك، ظهرت حركته بطيئة جداً، كأنه كان يعتمد على طرف ذراعه فقط، وانعكس لهيب الحثالة على جسده، حتى بدا ظهره ينز عرقاً، كانت رائحة النبيذ تفوح من عرقه الغزير.

استطاعت مهارة جدِّي يو جان أو في تقطير النبيذ أن تنال إعجاب جميع عمال الفرن والجد لوو خان، وهكذا استطاع جدِّي يو جان أو أن يستعيد قُوته ومهارته البارعة التي خدمت لعدة شهور، وبعد أن انتهى جدِّي من عملية تقطير النبيذ، استراح ليشرَب قدرًا من النبيذ، ثم قال مخاطبًا الجد لوو خان: «أيها المعلم الثاني، ما زالت لديّ مهارة ثانية، فعند تدفُّق كميات النبيذ من داخل القدر، يكون النبيذ ساخناً جداً، وإذا استطعنا

^{١١} وهي مرحلة مهمة من مراحل صناعة النبيذ آنذاك، حيث كان يتم خلالها تقطير النبيذ وفصله عن

حثالة الذرة المستخدمة في عملية الصناعة. (المترجم)

تركيب قدر صغير آخر عند فوهة تدفق النبيذ، فإننا بالتأكيد سنتمكن من الحصول على تجميع كميات من أفضل أنواع النبيذ.»

فهزَّ الجد لُوو خان رأسه قائلاً: «وربما لا يمكننا ذلك.»

فأجاب جدي: «فلتقطع رأسي إذا فشلت هذه التجربة.»

نظر الجد لُوو خان إلى المعلمة الأولى جدتي، وقالت جدتي بصوت يخالجه البكاء:

«أنا غير مسئولة عن ذلك، أنا غير مسئولة عن ذلك، وليفعل ما يريد.»

ثم عادت جدتي إلى الفناء الغربي وهي تبكي.

ومنذ ذلك الحين، دبَّت مشاعر الحب في قلبي جدِّي يو جان أو وجدَّتي، وقد

صدَّمت هذه التصرفات الغريبة لجدي وجدتي جموع العمال والجد لُوو خان، فلم يعودوا

يعيرونهما الاهتمام الأكبر، وساورتهم مختلف الشكوك حول هذه التصرفات الغريبة التي

لا يجدون لها أية مبررات تُذكر، وقد تحولوا جميعاً بكل احترام إلى مطيعين لجدي يو

جان أو، وهكذا اجتمع وتحقَّق ذلك التجديد الكبير الذي قصده جدي، ومنذ ذلك الحين

ظهر في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي نبيد القدر الصغير من الدرجة الأولى، ولم يجرؤ

عمال الفرن على التعامل المباشر مع تلك السلة الكبيرة المثلثة بالنبيذ التي بال داخلها

يو جان أو، فقاموا بنقلها إلى داخل الفناء ووضعوها فوق سور بداخل الفناء الكبير،

وفي وقت الأصيل ذات يوم، وبينما كانت السماء غائمة، هبت رياح جنوبية شرقية عاتية،

وشم جموع العمال رائحة عطرة قوية تختلف عن رائحة نبيد الذرة التي تعودت عليها

أنوفهم، وكان الجد لُوو خان يتميز بحاسة شم قوية، فراح يتتبع تلك الرائحة الغريبة،

حتى اكتشف في النهاية أن مصدر هذه الرائحة القوية هي تلك السلة المثلثة بالنبيذ

الممزوج ببول يو جان أو الموضوع أعلى السور داخل الفناء، وعندها صمت الجد لُوو

خان صمتاً تاماً، ثم قام بنقل تلك السلة خلسة إلى داخل المتجر، وأحكم إغلاق الباب

الأمامي والخلفي، وكذا أوصد النافذة الأمامية والخلفية، وأشعل مصباح الزيت عالياً وبدأ

في فحص السلة المثلثة بالنبيذ الممزوج ببول جدِّي يو جان أو، وجاء الجد لُوو خان بوعاء

لشرب النبيذ، وملأه من داخل السلة، ثم سكبها إلى داخل السلة، فتفرَّق النبيذ داخل السلة

مكوناً فقاعات خضراء، ذابت داخل النبيذ، وقد كونت تلك الفقاعات بعض أشكال زهور

الأقحوان على سطح النبيذ، بينما كانت تلك الرائحة تزداد خلال تكوُّن تلك الأشكال، فأخذ

الجد لُوو خان ببعض من النبيذ، وقربه إلى فمه وتذوَّقَه بطرف لسانه، وأخيراً شرب رشفة

منه بلا تردُّد، ثم أتى ببعض من الماء البارد ومضمض فمه، ثم سكب قدرًا من النبيذ من

قَدَرُ النَبِيذِ الخالص وشرب منه رشفة كبيرة، وألقى بوعاء النَبِيذِ من يده، وهمَّ بفتح باب الفناء، وضرب النافذة إلى الخارج وراح يصيح بأعلى صوته: «أَيُّهَا المُعَلِّمَةُ، لديَّ خير سارٌّ جدًّا!»

٩

كان والد جدتي قد جَرَّ حماره وعاد إلى بلدته بعد تناوله وجبة فطائر ساخنة في منزل جدتي، ولم يتوقف الرجل في طريق عودته عن سب ابنته ولَعْنِهَا، وبعد أن وصل إلى منزله، راح يشكو إلى زوجته كيف أن جدتي اعترفت أمام الجميع بذلك السيد تساو رئيس المدينة، اعترفت به أبا لها بالتَّبَنِّي، في حين أنكرتَه هو كأبٍ لها في طرفة عين، فراحت والدتها تَسُبُّهَا وتلعنها في غضبٍ شديدٍ، وجلس العجوزان معًا وهما في غاية الغضب والسخط على جدتي وكأنهما زوج من الضفادع التي تتقاتل على أسبقية الصعود أعلى شجرة ما، ثم قالت والدة جدتي: «لا عليك أيها العجوز، فلن تدوم هذه الزوْبعة طويلاً، كما لن يطول النزاع بين أبناء الأسرة الواحدة، ولتسترح يومين ثم تذهب إليها ثانية، ولتحاول أن تأتي لنا بما يكفي لطعامنا منها بعد أن أصبحت تتنعم في هذا الثراء الكبير.» فقال الرجل: «حسناً، فسأنتظر خمسة عشرة يوماً أو عشرين يوماً ثم أذهب إلى هذه الوغدة.»

وبعد مُضي خمسة عشر يوماً، ركب الرجل حماره وجاء إلى منزل عائلتي لمقابلة جدتي، كانت جدتي قد أوصدت أبواب المنزل، فراح الرجل ينادي بأعلى صوته خارج باب المدخل الكبير، حتى تعب من كثرة الصياح، فركب حماره وعاد إلى حيث أتى.

وعندما جاء والد جدتي لمقابلتها ثانية، كان جدِّي يو جان أو قد بدأ العمل في فرن النَبِيذِ، وكانت الكلاب الخمسة التي تمتلكها جدتي قد تَجَمَّعت مكونة قوة لا يُستهان بها، وما إن طرق والد جدتي الباب الكبير، حتى انقضت الكلاب إلى مصدر الطَّرْق وراحت تنبح بصوت عالٍ، وبمجرد أن فتحت العمدة ليو بواتزه الباب، اندفعت الكلاب الشرسة وأحاطت بوالد جدتي العجوز، وراحت تنبح دون أن تعضه، فاحتمى الرجل بالحمار، وراح يحاول التَّوَدُّد إلى تلك الكلاب الشرسة، بينما كان الحمار يرتعش من خلفه.

وسألت العمدة ليو بواتزه: «مَنْ أنت؟»

فقال والد جدتي بلهجة غاضبية: «بل مَنْ أنت؟ لقد جئت لمقابلة ابنتي.»

— «ومَنْ تكون ابنتك؟»

— «إنها المعلمة في هذا المكان الذي تعملين فيه.»

- «فلتنتظر في هذا المكان، وسأدخل إليها لإبلاغها.»

- «إذاً فلتخبرها أن أباه قد جاء لمقابلتها.»

فخرجت إليه العمة ليو بواتزه تحمل في يدها مبلغ واحد دا يانغ، وقالت للرجل: «أيها الشيخ الكبير، لقد قالت المعلمة: إنه ليس لديها أب، وأرسلت إليك هذا المبلغ، فلتشتري به بعضاً من الفطائر لتسد جوعك.»

فراح الرجل يلعنها غاضباً: «آه منك أيتها الوغدة، فلتخرجي لملاقاتي! هل أصبحت تنكرين أبك بعد أن أصبحت ميسورة الحال، تباً لك!»

فألقت العمة ليو بواتزه بالمبلغ على الأرض، وقالت: «يا لك من شيخ عنيد، فلتنصرف بسرعة، وإلا فسنقوم بتأديبك إذا تسببت في مضايقة وإزعاج المعلمة.»

فقال الرجل: «إنني أبوها! فهل ستجرؤ على قتل أبيها كما قتلت حماها؟»

فردت العمة ليو بواتزه قائلة: «فلتنصرف، فلتنصرف، وإذا لم تفعل فسأمر الكلاب لتتنقض عليك!»

أوعزت العمة ليو بواتزه إلى الكلاب، فتجمعت الكلاب بسرعة. ثم تقدّم الكلب الأخضر وعض الحمار عضة في قدمه، فراح الحمار يتوجع، ويجاهد للتخلص من قيده، حتى نجح في ذلك وفر هارباً، ثم انحنى والد جدتي والتقط المبلغ الذي عرضته عليه العمة ليو بواتزه، وفر مسرعاً محاولاً أن يلحق بحماره، وطاردته الكلاب وهي لا تتوقف عن الصياح والقفز، حتى خرج عن حدود القرية.

وفي المرة الثالثة التي جاء فيها والد جدتي إلى منزل العائلة، طلب من جدتي أن تُقدّم له بغلاً كبيراً أسود اللون، وأخبرها بأن هذا البغل كان قد وعده به حماها قبل قتله، وأخبرها أنه على الرغم من موت الرجل، فإن هذا الدّين لا يموت، وأنها إذا لم تنفذ طلبه، فسيشكوها إلى حكومة المدينة.

قالت جدتي: «إنني أساساً لا أعرفك، وقد جئت إلى منزلي أكثر من مرة لإثارة الشغب وإلرهابي، وأنا التي تنوي أن تشكوك إلى حكومة المدينة.»

وقد أثار صياح والد جدتي غضب وسخط جدّي يو جان آو، خرج من غرفته يجرح حذاه، وقام بمساعدة بعض من الرجال بإلقاء الرجل العجوز إلى خارج المنزل.

بحث والد جدتي عن ساعده في كتابة شكوى، وركب حماره قاصداً المدينة، حتى وصل إلى السيد تساو رئيس المدينة، وتقدّم إليه بشكواه.

كان السيد رئيس المدينة قد تعرّض خلال زيارته السابقة لقرية دونغ بيبي، لإطلاق الرصاص عليه من قِبَل أحد اللصوص الأوغاد حتى أصيب بذعر شديد، وتسبب ذلك في

وعكة صحية شديدة أَلَّتْ به، فما إن رأى أن هذه الشكوى ذات علاقة بقضية القتل التي كان قد ذهب للتحقيق فيها هناك، حتى تصبب جسده عرقاً.

سأل رئيس المدينة الرجل العجوز الشاكي: «أيها العجوز، جئتَ تشتكي ابنتك بممارسة الزنا مع أحد قاطعي الطريق، فهل لديك أدلة على ذلك؟»

فقال والد جدتي: «سيادة رئيس المدينة، إن قاطع الطريق الذي أقصده ينام الآن فوق مضجع ابنتي، وأنه هو ذلك اللص الوغد الذي أطلق عليك الرصاص وأصاب قبعتك.»
فقال رئيس المدينة: «أيها العجوز، عليك أن تعرف أنه إذا كان ما تقوله حقيقة، فإن حياة ابنتك ستكون معرضة للخطر.»

فأجاب والد جدتي: «سيادة رئيس المدينة، إنني لا أبالي ببيع أقرب الأقربين إليّ لتحقيق العدالة، ... غير أن ... تلك الثروة التي تمتلكها ابنتي.»

فصاح رئيس المدينة غاضباً: «يا لك من عجوز وغد طمّاع! لا تتورع في التضحية بابنتك أمام قدر من الثروة، إذًا فلا غرابة أن ابنتك تنكرك، وإنك لا تستحق أن تكون أباً! اضربوه خمسين ضربة بنعل الحذاء، ثم ألقوه خارج هذا المكان.»

وهكذا لم تنجح شكوى والد جدتي، بل إنه تعرّض للضرب بالنعال، حتى تورّمت مؤخرته، لدرجة أنه لم يستطع الجلوس فوق ظهر حماره، فراح يجر الحمار ويسير وهو يعرج ويشعر بحزن شديد مما أَلَمَّ به.

وقبل أن يبعد كثيراً عن حدود المدينة، إذا به يسمع وقع أقدام خيل تسير خلفه، فما إن نظر خلفه، رأى أحد الأشخاص جاء لملاحقته راكباً ذلك الحصان الأسود الخاص بالسيد رئيس المدينة، وهنا أحس والد جدتي أن الأمر جدُّ خطير وأن حياته أصبحت معرضة للخطر، ولم يتمالك نفسه وخارت عزمته، وخرَّ راكعاً.

كان ذلك الشخص الذي جاء لملاحقته هو السيد يان أقرب الأقربين إلى السيد رئيس المدينة، وخاطبه السيد يان قائلاً: «أيها العجوز، انهض انهض، لقد اعترف السيد رئيس المدينة أن ابنتك هي ابنته بالتبني، إذًا فإن هناك علاقة قرابة تربط بين ثلاثتكم، وضربك بالحذاء إنما كان لتوجيهك وتعليمك كيف أن تكون إنساناً، والسيد رئيس المدينة يقول: إن كل شيء له قانونه، وإنه يكافئك بعشرة دا يانغ، فلتأخذها وتعدّ إلى بلدتك وتستخدمها في تجارة صغيرة تعيش منها، ولا تعاود القيام بمثل هذه الأمور الشريرة طمّعاً في المال.»
تلقى والد جدتي المبلغ بكلتا يديه، وسجد على الأرض وراح يُعبّر عن عظيم شكره لرسول السيد رئيس المدينة، ولم يقم من سجوده إلا بعد أن تخطى الحصان طريق السكة الحديدية.

جلس السيد تساو رئيس المدينة داخل بهو مبنى حكومة المدينة، وفكّر في هذا الأمر نصف ساعة، وبعد أن عاد رسوله السيد يان من مهمة تقديم مبلغ عشرة دا يانغ إلى والد جدي، استدعاه السيد تساو رئيس المدينة إلى حجرة سرّية، ثم قال له: «إنني أجزم أن ذلك الشخص الذي يرقد فوق مضجع تلك المرأة داي لهو اللص الوغد، وأن هذا هو أكبر عَلم بين جموع قُطَاع الطُّرُق في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، وإذا تمكَّنَّا من القبض عليه فستنهار قوة قُطَاع الطُّرُق في قرية دونغ ببي بأكملها، وإنني أمرتُ اليوم بضرب ذلك العجوز في مبنى حكومة المدينة، إنما لأجل خداع الناس.»

قال السيد يان مساعد رئيس المدينة: «ما أعظم حكمة وذكاء السيد رئيس المدينة.»

فرد السيد تساو رئيس المدينة قائلاً: «كما أنّ تلك السيدة داي قد خدعتني في ذلك الحين.»

قال السيد يان: «لكل عالم هفوة، ولكل جواد كَبُوة.»

فقال رئيس المدينة: «فلتصطحب الليلة عشرين من الرجال، وتركبوا أسرع الخيول، وتذهبوا إلى قرية دونغ ببي؛ لتأتوني بذلك اللص زعيم قُطَاع الطُّرُق.»

«وهل سنقبض أيضاً على تلك المرأة؟»

فرد السيد تساو رئيس المدينة: «لا، لا، لا، حذارٍ أن تقبضوا على تلك المرأة، أليس في ذلك إهانة لسُمتي؟ بالإضافة إلى أنني في ذلك اليوم الذي ذهبت للتحقيق في تلك القضية، إنما كنت أقصد مساعدتها، ولتنتظر إلى امرأة جميلة مثلها تتزوج من مريض بالبرص، فما أتعسها من امرأة! لذا فإن هناك مبرراً لأن تقع في الزنا، لا عليك إذا، فلتقبض على ذلك اللص قاطع الطريق، وتترك المرأة لشأنها، ولتدعها تتمتع بأيام سعيدة.»

قال السيد يان: «إن منزل عائلة دان ذو سور عالٍ وفناء كبير، ولديهم مجموعة من الكلاب الشرسة، وذلك اللص قاطع الطريق يتمتع بيقظة عالية، ألسنا إن تسللنا إلى داخل الفناء في منتصف الليل إنما نسلم أنفسنا لسلح ذلك اللص؟»

فقال رئيس المدينة: «ما أبسط تفكيرك، ما أبسط تفكيرك! لقد فكرت في هذا الأمر جيداً.»

وهكذا خرج السيد يان على رأس عشرين من الجنود ليلاً وفق حيلة السيد تساو رئيس المدينة، وساروا بسرعة بطيئة يقصدون قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، وقد صادف ذلك فصل الخريف في شهر أكتوبر؛ حيث امتلأت الحقول بمحاصيل الذرة الرفيعة، التي عمت أزهارها جميع الأرجاء، وعندما وصل الركب إلى المدخل الغربي لقرينتنا، كان ذلك

وقت انبلاج ضوء الصباح، حيث غطت قطرات الندى تلك الأعشاب الذابلة، شعر الجميع ببرودة الصباح، ونزل الجنود عن خيولهم، ووقفوا ينتظرون أوامر السيد يان، وأمر السيد يان جنوده بجر الخيول إلى خلف كومة من أعواد الذرة، وأن يتم ربط الخيول بحبل متصل، وأن يتولّى اثنان من الجنود الاهتمام بالخيول، وأن يسارع باقي الجنود بتغيير ملابسهم والاستعداد لتنفيذ المهمة التي جاءوا من أجلها.

علت شمس الصباح، وامتلاً الطريق بالغبار الشديد، وظهرت آثار برودة الجو على وجوه الجنود والخيول، بينما انشغلت الخيول في قضم أوراق الذرة.

وأخرج السيد يان ساعة جيبه ونظر إليها نظرة سريعة ثم قال: «فلتبدءوا الهجوم!» فتبعه ثمانية عشر جندياً وراحوا يتسللون صوب قرية دونغ بيي، وكانوا يتسلحون بالمسدسات، وعندما وصلوا إلى مدخل القرية، نصب اثنان منهم كميناً عند مدخل القرية، وعندما تقدّموا إلى مدخل أحد الشوارع، قام اثنان آخران من الجنود بنصب كمين عند مدخل ذلك الشارع، ثم نصب جنديان آخران كميناً ثالثاً عند مدخل شارع آخر، وعندما وصل الفريق إلى مدخل منزل عائلي، كان قد تبقى منهم فقط السيد يان وستة من الجنود الذين كانوا يرتدون لباس أهل القرية، وقام أحد هؤلاء الجنود ضخم البنية بحمل سلتين من سلال النبيذ الفارغة.

فتحت العمّة ليو بواتره باب المنزل، فغمز السيد يان بعينه، ليدخل على إثر غمزته ذلك الجندي الذي كان يحمل سلتَي النبيذ الفارغتين، فسألت العمّة ليو بواتره غاضبة: «مَن أنتم، وماذا تبغون؟»

فردّ ذلك الجندي الذي كان يحمل سَلَّتَي النبيذ الفارغتين قائلاً: «جئنا لمقابلة المعلمة في هذا المكان؛ حيث كنا قد اشترينا منكم سَلَّتَيْن من النبيذ أول أمس، وقد مات عشرة أشخاص فور شربهم من النبيذ الذي كان داخل هاتين السَلَّتَيْن، فما ذلك السم الذي وضعتموه داخل النبيذ الذي تُنَّجونه في هذا القرن؟»

وهنا استغل السيد يان ومن معه من الجنود الموقف وولجوا إلى داخل الفناء، واختبئوا إلى جانب سور الفناء في صمت تام، بينما أحاطت الكلاب الخمسة بهاتين السَلَّتَيْن الفارغتين وراحت تنبح بصوت مرتفع.

خرجت جدتي شبه نائمة، وهي تحاول إحكام عراوي لباسها. وقالت بغضب شديد: «إذا كان لديكم أمر ما، فهيا بنا إلى المكتب لمناقشته.»

قال ذلك الجندي ضخم البنية: «ما ذلك السم الذي تضعونه في النبيذ الذي ينتجه هذا القرن، لقد قَتَلَ ذلك السم عشرة أشخاص منا، وهذا الأمر لا بد أن نناقشه مع المعلمة دون غيرها.»

فقالت جدتي غاضبة: «ما هذا الهراء؟ إننا نقوم بتسويق منتجنا من النبيذ إلى جميع أرجاء البلاد، ولم يُصَبَّ أحد بالتسمم جرَّاء تناوُل هذا النبيذ، فكيف يُصاب عشرة أشخاص منكم بالتسمم جرَّاء تناوله؟»

واستغل السيد يان تلك الفوضى التي حدثت بسبب الاشتباك بين ذلك الجندي الضخم وجدتي والكلاب الخمسة، وأعطى إشارته لخمسة جنود فتبعوه بسرعة فائقة إلى داخل الغرفة، وعندها قام الجندي الذي كان يحمل سلَّة النبيذ الفارغة بإلقائها، وسارع بإخراج مسدس من حول خصره وصوَّبَه نحو جدتي.

كان جَدِّي ينشغل بارتداء ملابسه داخل الغرفة، فانقضَّ عليه السيد يان وجنوده وألقوه على المصطبة، وأحكموها وثاق ذراعيه من الخلف، ثم سحبوه إلى الفناء. وما إن رأت الكلاب الخمسة جَدِّي وقد تم القبض عليه وِجِرُّ إلى الفناء، حتى انقضت على الجنود تحاول إنقاذه، فقام السيد يان وجنوده بإطلاق بعض الطلقات نحو الكلاب، لتمتلئ أرض الفناء بشعر ودماء كلاب العائلة.

كانت العمه ليو بواتزه ملقاة على الأرض، وقد تبللت ملابسها الداخلية تمامًا. قالت جدتي: «أيها الإخوة، لم يكن بيننا وبين أحد عداء فيما مضى، ولم نظلم أحداً خلال الفترة الأخيرة، فإذا كنتم تريدون مالا أو حبوباً فلتطلبوا بشكلٍ مباشرٍ، وما الحاجة إلى استخدام السلاح وإرهاب الغير؟»

فرد السيد يان: «كُفِّي عن هذا الهراء، اقبضوا عليه.»
وما إن التفتت جدتي بعينيهما حتى تعرَّفت على السيد يان، فقالت في عجالة: «ألسْتَ أحد رجال أبي بالتَّبَنِّي؟»

فرد السيد يان: «ليس لك علاقة بهذا الأمر، ولتَنعَمي بحياتك.»
وعندما سمع الجد ليو خان دوي إطلاق الرصاص داخل الفناء الغربي، خرج مسرعاً من متجره داخل الفناء الشرقي، وما إن ظهر الرجل داخل الفناء الغربي، حتى مرَّت إلى جوار أذنه طلقة، فأرعبته رعباً شديداً فرَّ مسرعاً إلى حيث كان، كانت الطُّرُقَات داخل القرية ساكنة وخالية تماماً، إلا من نباح كلاب القرية، وخرج السيد يان وجنوده إلى شوارع القرية وهم يقبضون على جدي، وما إن رأى الجنديان المُكَلَّفان برعاية الخيول

السيد يان وجنوده قادمين، حتى أسرعوا بفك الخيول وتقدّموا بها إلى السيد يان ورجاله، وكذلك تجمّع الجنود الذين كانوا يصبون الأكمة عند مدخل القرية ومداخل الشوارع المختلفة داخل القرية، وقفز كلُّ منهم فوق ظهر حصانه، وتم ربط جدّي أعلى ظهر حصان بنفسجي اللون، وجعلوا بطنه ملتصقة بظهر الحصان. وما إن صاح السيد يان صيحة، حتى فر الحصان مسرعاً نحو المدينة.

عندما وصل الركب إلى أمام مبنى حكومة المدينة، قام الجنود بفك جدّي وأنزلوه من فوق ظهر الحصان البنفسجي اللون، وراح السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة يمسك بلحيته، ثم تقدّم مبتسماً إلى الأمام، وقال: «أيها الوغد قاطع الطريق، لقد طيرت قبعة هذه المدينة بثلاث طلقات من مسدسك، واليوم سترد هذه المدينة لك الجميل بضربك ثلاثمائة ضربة بالنعال.»

وتأثرت عظام جدّي تأثراً كبيراً من طول مدة ربطه فوق ظهر الحصان، وشعر بدوار شديد، ولم يكذ يتوقف عن التقيؤ، حتى إنه عندما أنزلوه من فوق ظهر الحصان، بدا مغشياً عليه وكأنه شبه ميت.

وهنا قال السيد يان: «ابدءوا ضربه بالنعال.»

تقدّم بعض الجنود نحو جدّي وقاموا بربطه من قدميه، ثم أخذوا بنعل حذاء كبير للغاية، كان معلقاً على عصا خشبية، وراحوا يضربونه ضربات متلاحقة مسموعة. تألم جدّي كثيراً من شدة الضرب، وراح يصرخ مستغيثاً بأمه وأبيه.

فسأله السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة: «أيها الوغد قاطع الطريق، هل عرفت مدى شدة نعالي؟»

وكان جدّي قد أفاق بعض الشيء، فراح يصيح بصوت متواصل: «لقد أخطأتم في القبض عليّ، لقد أخطأتم في القبض عليّ، فأنا لستُ زعيم قُطَاع الطُّرُق ...»

زجره السيد تساو وقال غاضباً: «أما زلت تجرؤ على المكر! فلتنصّبوه ثلاثمائة ضربة جديدة.»

فقام الجنود بطرحه أرضاً، وانهالت عليه النعال وكأنها أمطار شديدة كادت تغرقه، وضربوه ضرباً مبرحاً حتى فقدت مؤخرته الإحساس، فجاهد ليرفع رأسه لأعلى وراح يصيح من جديد: «أيها السيد تساو مينغ جيو، الجميع يُطلقون عليك لقب الحاكم العادل، وأنت في الأصل لست إلا مسئولاً أحمق! زعيم قُطَاع الطُّرُق الذي تقصده والذي تسميه (ذو الرقبة الملونة)، هناك علامة في رقبتك، ولتنظر إلى رقبتك هل بها هذه العلامة؟»

فدهش السيد تساو، وأشار بيده ليتراجع هؤلاء الجنود ويكفوا عن ضرب جدي، وقام اثنان من الجند برفع جدي، ثم تقدم السيد تساو إليه؛ ليفحص رقبته ويرى إن كان بها تلك العلامة أم لا.

وسأل السيد تساو مينغ جيو: «وكيف عرفت أن رقبة زعيم قُطَاع الطُّرُق بها علامة؟» فأجاب جدي: «لقد رأيته بأَم عيني.»

- «ما دمت تعرفه، فإنك قطعاً أحد عصابة قُطَاع الطُّرُق، ونحن لم نخطئ في القبض عليك.»

- «إن هناك عدداً كبيراً جداً من أبناء قرية دونغ بي يعرفون زعيم قُطَاع الطُّرُق، فهل لا بد من أن يكونوا جميعاً من جماعة قُطَاع الطُّرُق؟»

- «وكونك تنام في هذا الوقت المتأخر من الليل فوق مضجع سيدة أرملة، فإنك إن لم تكن قاطع طريق فأنت حتماً وغد حقير، ونحن لم نخطئ أبداً في القبض عليك.»

- «لقد كان هذا وفق رغبة ابنتك بالتَّبني.»

- «هل كانت راضية بذلك؟»

- «نعم كانت راضية.»

- «مَن أنت؟»

- «إنني أحد العمال لديها.»

فقال السيد تساو: «آه، آه» ثم قال: «يا سيد يان، فلتحتجزه الآن لنبحث في أمره.» وعند ذلك جاء جدي والجد لُوو خان إلى أمام مدخل مبنى حكومة المدينة، يمتطيان البغلين الأسودين اللذين كانت تمتلكهما عائلتي. وأمسك الجد لُوو خان بالبغلين ووقف خارج المدخل، بينما راحت جدي تبكي بكاءً حاراً، حتى تمكنت من الدخول إلى داخل المبنى، فتقدم الحراس ليمنعوها من ذلك، فاصطدموا بها وقد أمطرتهم بالبصق على وجوههم، وقال الجد لُوو خان: «إنها ابنة السيد رئيس المدينة بالتَّبني»، وعندها لم يجرؤ أحد من الحراس على اعتراض طريقها، فتقدمت جدي واقتحمت المدخل.

وبعد ظهر ذلك اليوم، أرسل السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة أحد رجاله ليأتيه بعربة ذات ستارة مناسبة للطقس، وأمر بتوديع جدي إلى قرية دونغ بي.

وقد رقد جدي مدة شهرين فوق مضجع جدي حتى تلتئم جراحه.

كما قامت جدي بامتطاء البغل الأسود وذهبت مرة ثانية إلى المدينة؛ حيث قامت

هذه المرة بزيارة أمها بالتَّبني وأهدت إليها حقيبة هدايا ثقيلة.

في شهر ديسمبر عام ١٩٢٣م حسب التقويم القمري، تم توديع إله الطهي إلى السماء العليا،^{١٢} وقامت جماعة زعيم قُطَاع الطُّرُق باختطاف جدتي، جاء ذلك الرجل الذي اختطفها في الصباح، جاء بعد ظهر نفس اليوم إلى منزل العائلة لتوصيل رسالة إلى من يهمه أمر جدتي، حيث طلب من الفرن أن يدبروا مبلغًا من المال قدره ألف دا يانغ^{١٣} لافتدائها، وإنه إذا عَزَّ عليهم دَفَع هذا المبلغ، فعليهم أن يذهبوا إلى معبد الأرض عند المدخل الشرقي لقرية لي قو لاستلام جثتها.

راح جَدِّي يُقَلِّب في خزانة الفرن، حتى تمكن من جمع مبلغ ألفي دا يانغ، وقام بوضعها داخل جوال، ثم طلب من الجد لوو خان أن يحمل الجوال إلى المكان الذي حَدَّدته عصابة قُطَاع الطُّرُق لافتداء جدتي.

فسأله الجد لوو خان: «هل طلبوا مبلغ ألف دا يانغ فقط؟»
فأجاب جَدِّي قائلًا: «كفَى من هذا الهراء، وافعل ما أمرتُك به.»
فقام الجد لوو خان باللحاق بالبغل ومضى إلى حيث أمره جدي.
وفي أصيل اليوم، عاد الجد لوو خان بجدي على ظهر البغل الأسود، وقد صاحبهم اثنان من قُطَاع الطرُق حاملين السلاح لحماية جدتي حتى منزلها.
وعندما التقى الرجلان بجدي أخبراه: «أيها المعلم، لقد قال زعيمنا، إنك من الآن فصاعدًا بإمكانك أن تنام وبابك مفتوح على مصراعيه.»
فأمر الجد لوو خان بحمل قدر من النبيذ الممزوج بالبول، وتقديمه إلى رسولي زعيم قُطَاع الطُّرُق، ثم قال جدي: «احملًا هذا القدر لزعيمكما ليتذوق صنْع أيدينا.»
وأمسك جَدِّي بأيدي الرَّجُلَيْن وودَّعهما حتى خارج حدود القرية.

^{١٢} توديع إله الطهي: أو كما يُطَلَق عليه أيضًا طقس «توديع الجد إله الطهي»، أو «الاحتفال بالسنة الصغيرة»؛ حيث كان العامة في الصين قديمًا يعتقدون أن إله الطهي يصعد في ذلك الموعد من العام إلى السماء لتقديم التقارير الخاصة للسماء العليا، وحيث كانوا يقومون بإحياء مأدبة شراب في مغرب يوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر حسب التقويم القمري لوداع هذا الإله، الذي كانوا يبجلونه في الأيام العادية أيما تجيل، أملًا في أن يذكرهم بالخير في السماء العليا. (المترجم)

^{١٣} دا يانغ: وحدة عملة من الفضة كانت تُستخدم في الصين قديمًا. (المترجم)

وبعد أن عاد من توديع الرجلين، قام بإغلاق باب المنزل الرئيسي، ثم أغلق باب الغرفة الداخلية، ثم باب الغرفة، وراح يُعانق جدي عناقاً حاراً، وسألها: «هل ضايك زعيم عصابة قُطَاع الطُّرُق؟»

فهزت جدي رأسها، وراحت تذرِف الدموع.

– «ماذا؟ هل تعرضتِ للأذى على يده؟»

دفنتُ جدي وجهها داخل صدر جدي، ثم قالت: «إنه ... إنه لمس صدري.»

فانتفض جدي غاضباً، ثم قال: «وهل الطفل بخير؟»

فهزت جدي رأسها بالإيجاب.

وفي ربيع عام ١٩٢٤م امتطى جدي بغلاً وسافر إلى تشينغ داو^{١٤} دون علم أحد، واشترى من هناك مُسدَّسَين فئة مسدس شياتزه تشيانغ،^{١٥} واشترى أيضاً خمسة آلاف طلقة نارية، وكان أحد هَديِن المسدسين «مسدس الطبلية الكبيرة» صناعة ألمانية، والآخر «مسدس رأس الإوزة» صناعة إسبانية.

وبعد أن عاد جدي بهذين المُسدَّسَين، أغلق على نفسه باب غرفته لمدة ثلاثة أيام كاملة، قام خلالها بفك جميع أجزاء المسدسين، ثم قام بتجميعها مرة ثانية، وفي فصل الربيع من كل عام، كانت مياه الخليج تتخلَّص من حالة التجمد التي كانت عليها، وكانت أسماك الخليج التي اختبأت طيلة الشتاء تخرج إلى خارج المياه لتتشمس، وخرج جدي إلى هناك حاملاً أحد المسدسين، وحمل معه سلة مليئة بالطلقات النارية، وذهب إلى شاطئ الخليج للصيد، وبعد تعب يوم كامل، لم يتمكن جدي من صيد أسماك كبيرة الحجم، ونجح فقط في صيد بعض الأسماك الصغيرة، كانت عادة جدي أنه لا ينجح في

^{١٤} تشينغ داو: وهي مدينة تشينغ داو الواقعة ضمن الحدود الجنوبية الشرقية لمقاطعة شان دونغ شمال شرق الصين، ويرجع تاريخ هذه المدينة إلى زمن بعيد، وحيث كانت ميناءً عسكرياً مهماً خلال فترة سيطرة الألمان على المنطقة، واستمر دورها هذا على مدار التاريخ الصيني الحديث، فبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩م ولا تزال مدينة تشينغ داو أحد أهم المواقع العسكرية المهمة في الصين، وتُعتبر المدينة أكبر مدينة صناعية في مقاطعة شان دونغ، وحيث تشتهر بإنتاج عدد كبير من المنتجات التي يتم تصديرها إلى مختلف دول العالم أهمها: الغزل والنسيج، الآلات والمعدات والسيارات، المواد البتروكيماوية، المطاط، النبيذ، الأجهزة الكهربائية، ومنتجات التبغ وغيرها من المنتجات المهمة. (المترجم)

^{١٥} شياتزه تشيانغ: أحد أنواع المسدسات المستخدمة في الصين آنذاك، والذي يَتميّز بأن له علبة خشبية من الخارج يتم لفها إلى الخلف عند استخدامه في إطلاق الرصاص. (المترجم)

صيد أي شيء من الأسماك إذا وجدوا أحدًا إلى جواره يراقبه، وعندما يكون بمفرده، كان يقوم بإطلاق الرصاص على رءوس الأسماك، وفي فصل الصيف، كانت الذرة الرفيعة قد نضجت، فأتى جدِّي بمبرِّدٍ مصنوع من الحديد، وقام ببرد الجزء الأعلى من المسدسين. في مساء السابع من شهر يوليو، هطلت أمطار غزيرة، وسُمع دوي رعد وبرق شديد، كانت جدتي قد قامت بتسليم أبي الذي كان قد اقترب من إكمال أربعة أشهر حينها، قامت بتسليمه للفتاة ليان إر لتساعدنا في حملها، وجاءت جدتي مع جدِّي إلى متجر النبيذ داخل الفناء الشرقي، وقامًا بإغلاق الأبواب والنوافذ، وطلبًا من الجد ليو خان أن يضيء المصابيح، وقامت جدتي بعرض سبعة ألواح من النحاس أعلى منصة خزينة الفرن، عرضتُهما في شكل زهرة المايخوا، ثم تراجعنا إلى الخلف، كان جدِّي يسير خارج المنصة متبخرًا، ثم قام بإخراج كلاً المسدسين من حول خصره، ثم استعد جيدًا، وأطلق الرصاص، حتى طارت تلك الألواح النحاسية المعروضة أعلى المنصة إلى أعلى السور، وسقطت ثلاث طلقات على الأرض، بينما اخترقت أربعة أخرى السور.

وتقدّم كل من جدتي وجدتي معًا إلى أمام المنصة، وهما يرفعان المصباح لمشاهدة المشهد أعلى المنصة، وجدًا أن أعلى المنصة خالٍ تمامًا من آثار أي طلق ناري ولم يتأثر أدنى شيء بما حدث.

وهذه هي «الطلقات السبعة على شكل أزهار المايخوا» والتي كان جدي يُتقنها ببراعة فائقة.

وركب جدِّي بغله الأسود، وأتى إلى إحدى الحانات الصغيرة عند مدخل القرية الشرقي، فإذا به يجد أن باب الحانة مُغلق، وهناك عدد من شبّاك العنكبوت مُعلّقة أعلى عتبة باب الحانة، وعندما اقتحم باب الحانة وولج إلى الداخل، شم رائحة جثة متعفنة تزكم الأنوف، فراح يرفع كفه على فمه يتقي الرائحة النتنة ومضى إلى الأمام يتتبع مصدر الرائحة، فإذا بالعجوز السمين يجلس أعلى عمود المنزل، بينما تضغط قدماه على مقعد صغير، ورأى حبلًا أسود يلتف حول رقبة العجوز، وقد بدت عيناه جاحظتين، ولسانه الأسود الطويل يتدلى إلى خارج فمه، وقد اهتز جزء من الحبل الذي كان يلتف حول رقبته متأثرًا بدفعة جدِّي للباب.

بصق جدِّي مرتين متتاليتين، وسحب بغله ومضى حتى وقف عند مدخل القرية، بينما بدأ البغل في حركة دائمة، وهو لا يتوقف عن الهز بذيله الخالي من الشعر محاولًا أن يبعد عنه جماعة الذباب الكبيرة في حجم حبة البازلاء، وبعد أن استغرق جدِّي وقتًا طويلًا

في التفكير، قرر أن يركب بغله متوجهاً إلى جهة منزله، غير أن تلك السلسلة الحديدية القوية التي كانت تقبض على فم البغل أرغمته على تغيير وجهته للخلف، فضربه جدي بقبضته على ظهره، فتقدم البغل للأمام وسار بمحاذاة طريق الذرة الرفيعة.

كان الجسر الخشبي الصغير أعلى نهر موا شوى لا يزال بحالته دون أن يصيبه أدنى خلل، صادف ذلك موسم هطول الأمطار، فبدأ النهر ممتلئاً بالماء، وكانت صفحة المياه تتساوى مع سطح الجسر، وراحت تتلاقى على سطح الجسر بعض من كرات الثلج البيضاء، بينما كان صوت المياه يرن في الأذان، وأحس البغل ببعض الخوف، حتى إنه راح يضرب بحوافره على سطح الجسر ولم يجرؤ على التقدم خطوة إلى الأمام، فضربه جدي قبضتين على ظهره، ولكن البغل كان لا يزال متردداً، ولم يتخل عن موقفه إلا بعد أن رفع جدي نفسه من على ظهره وراح يدفعه بقوة إلى الأمام، وعندها اضطر لطاعته وقفز قفزة سريعة ليجد نفسه في منتصف الجسر الخشبي، فشد جدي سرجه ونجح في أن أوقفه في مكانه، كانت هناك كميات من المياه الصافية تجري على سطح الجسر، وظهرت هنالك سمكة من أسماك الشبوط^{١٦} في طول ذراع الإنسان كانت تقفز عند غرب الجسر، وترسم بذلك لوحة جميلة بقفزها من الناحية الغربية من الجسر إلى ناحيته الشرقية، قفز جدي فوق ظهر البغل وراح يتأمل مياه النهر المتدفقة من ناحية الغرب، فغرزت حوافر البغل داخل المياه، غسلت مياه النهر الجزء الذي يعلو الحوافر من قدم البغل ونظفتها جيداً، وراح البغل يحاول جاهداً أن يمد فمه للماسة تلك الأمواج التي تتهاذى على سطح المياه، فطرطشت المياه على وجهه الطويل، فأغلق البغل أنفه وكشف عن أسنانه البيضاء المتسقة.

وعلى ضفة النهر الجنوبية، كانت تمتد حقول الذرة الرفيعة الواسعة، وكأنها صفحة بحيرة مياه زرقاء مترامية الأطراف، فركب جدي بغله وسار صوب الشرق بمحاذاة ضفة النهر، وفي منتصف النهار^{١٧} بالضبط، قام جدي بسحب بغله إلى داخل حقول الذرة، وبدت التربة السوداء التي تشبعت بمياه الأمطار وكأنها كتل النشا، حتى إنها غاصت فيها حوافر البغل وقدمًا جدي، فراح البغل يهز جسده الثقيل، وينفض حوافره الممتلئة

^{١٦} أسماك الشبوط: وهي نوع من أهم الأسماك الموجودة في المياه العذبة في الصين، وتتميز بأن ظهرها يكون أسود اللون وبطنها صفراء وهناك ما يُشبه الشنب حول فمها. (المترجم)

^{١٧} ويقصد بهذه الفترة في اللغة الصينية توقيت الساعة الثانية عشرة ظهرًا. (المترجم)

بالطين، وخرج من أنفه الكبير هواء أبيض ومسحوق أزرق، فراح جَدِّي يعطس بشدة، وشق جَدِّي وبغله حارة داخل حقول الذُّرة الخضراء، وبعد أن سار جَدِّي والبغل مسافة غير قصيرة، وصلًا إلى منطقة جديدة من الذُّرة كانت أعوادها منتصبه لم تصب بأدنى أدنى.

ترك جَدِّي وبغله آثار أقدامهما على جميع المناطق التي داستها أقدامهما داخل حقول الذُّرة، وكان الجزء الأسفل من جسد جَدِّي ومنطقة بطن البغل قد امتلأ بآثار الوحل، كان جَدِّي يستمع إلى صوت اصطدام أقدامه وأقدام البغل بالوحل داخل الذُّرة، وبعد وقت قصير، ازدادت حركة تنفُّس جدي، وأحس بأن حلقه جافٌ تمامًا، وأن لسانه لزج وكريه، مضى يفكر في أن حلق البغل بالتأكيد سيكون جافًا مثل حلقه، وأن لسانه لزج وكريه مثل لسانه، سال جميع العرق الذي كان يسيل على جسده، وبدأ جسده ينزف سائلًا لزجًا مثل زيت الصنوبر الذي كان يبدو حارًا على جلده، وراحت أوراق الذُّرة الحادَّة تضرب رقبة جَدِّي العارية، بينما كان البغل يرفع رأسه غاضبًا ويحاول أن يطير بسرعة أعلى حقول الذُّرة الممتدة، وربما كان ذلك البغل الثاني الذي تمتلكه عائلتي منشغلًا بجر الرِّحَى وهو مُغشَى العينين، أو ربما كان يقف مُنهكًا يأكل أوراق الذُّرة وبعض الذُّرة المحمصه.

عقد جَدِّي العزم وقرر في داخله أن يمضي في طريقه بمحاذاة الخندق، بينما كان البغل يحاول أن يسترق النظر إلى صاحبه الذي يقوده إلى الأمام بعينيه اللتين كانتا متأثرتين بمضايقة أوراق الذُّرة.

وظهرت آثار أقدام منذ وقت قريب جدًا داخل حقول الذُّرة، وشم جدي رائحة كان ينتظرها منذ وقت طويل، بينما ظهر التوتر على البغل، كان لا يتوقف عن هز رقبته والتمايل بجسده الضخم على أعواد الذُّرة، وهنا راح جَدِّي يسعل بصوت مُبالغ فيه، وجاءت من أمامهما رائحة زكية، تعرَّف عليها جدي، واعتمادًا على خياله الصادق، ما إن تقدَّم جَدِّي خطوة إلى الأمام حتى وطأت قدماه ذلك المكان الذي كان يتطلع إليه منذ فترة طويلة.

كانت آثار الأقدام التي اكتشفها جَدِّي تُلقِي بقدر من المياه أمام جَدِّي والبغل، كان يبدو أن جَدِّي لا ينظر إليها، بل يتقدم إلى الأمام متتبعًا هذه الأقدام، وفجأة علا صوته وهو يتغنى بمقطوعة: «غادر الحصان الحدود الغربية.»

نبيذ الدُّرَّة

وسمع جَدِّي وَقَعَ أقدام خلفه، غير أنه استمر في السير إلى الأمام كالأحمق، وهنا أحسَّ أن شيئاً صلباً خبط رقبته، فرفع يديه مستسلماً، ثم امتدَّت يدان إلى أمام صدره وأخرجت منه المسدسين اللذين كان يحملهما، ثم تم تغطية عَيْنَي جَدِّي بقطعة قماش سوداء.

قال جدي: «إنني أرغب في مقابلة زعيمكم.»

وانقضَّ أحد أفراد عصابة قُطَاع الطُّرُق على جَدِّي وأحاطه بذراعيه، ثم أرخى يديه بعد حوالي دقيقتين، فسقط على الأرض، حتى امتلأت جبهته بالطين، كما غاصت يداه في الوحل عندما حاول الاعتماد عليهما لينهض من مكانه، واتكأ على الدُّرَّة حتى نهض واقفاً، بينما كانت رأسه تدور وقد رأت عيناه هالة من السواد تلف حقول الدُّرَّة، ثم سمع صوت تَنفُّس ذلك الرجل الفظِّ الواقف إلى جواره، ومدَّ ذلك الرجل الفظ يده وقطع عود ذرة، وراح يمدده لجدي تارةً ويمسكه هو تارةً أخرى، ثم قال: «هيا بنا!»

وهنا سمع جَدِّي وَقَعَ أقدام أحد أفراد عصابة قُطَاع الطُّرُق وصوت حوافر البغل التي كانت تدوس في الوحل.

ومد قاطع الطريق يده وأزال تلك العصابة السوداء التي كانت ملفوفة فوق عَيْنَي جدي، فرفع جَدِّي يده ليغطي عينيه ولم ينزلها إلا بعد أن ذرفت عيناه كمية كبيرة من الدمع، وكان أول ما رآه جَدِّي أمامه معسكر؛ حيث رأى مجموعة كبيرة من الدُّرَّة محطمة، ينتصب أعلاها خيمتان، يقف خارج الخيمتين ما يزيد على عشرة من الرجال ملتحفين بعباءات من القش، ثم رأى رجلاً ضخماً يجلس أعلى مقعد خشبي عند مدخل الخيمة، ولاحظ أن هناك وشماً في رقبة ذلك الرجل الضخم.

قال جدي: «أرغب في مقابلة الزعيم.»

فرد عليه ذلك الرجل أبو شامة:^{١٨} «هل أنت المعلم في فرن النبيذ؟»

فأجاب جَدِّي قائلاً: «نعم.»

– «وما الذي جاء بك إلى هنا؟»

– «جئتُ لأتعلَّم على يديكم.»

فضحك أبو شامة ضحكةً باردةً، ثم قال: «ألسْتَ تُرابِضَ يوماً على حافة الخليج

للصيد؟»

^{١٨} أبو شامة: حيث كانت هناك بقعة ملوَّنة في رقبته، وكانوا ينادونه بالزعيم أبو شامة. (المترجم)

فقال جدي: «دائمًا ما أفضل في التصويب.»
فأخذ أبو شامة بمسدسي جَدِّي وراح ينظر إلى فوهتهما ويضغط على زناهما، ثم قال: «ما أجود هذا السلاح، ولكن لماذا ترغب في تَعَلُّم إطلاق النار؟»
فأجاب جَدِّي قائلاً: «لقتل تساو مينغ جيو.»
فسأله أبو شامة: «أليس هو والد زوجتك بالتَّبَنِّي؟»
فقال جدي: «لقد ضربني ثلاثمائة وخمسين ضربةً بالنعال! وقد ضُربت كل هذه النعال نيابةً عنك.»
فضحك أبو شامة، ثم قال: «لقد قتلتَ رجلين، واستوليتَ على امرأة، وتستحق قَطْع رأسك.»

فقال جدي: «لقد ضربني ثلاثمائة وخمسين ضربةً بالنعال.»
فما إن رفع أبو شامة يده اليمنى، حتى أطلق ثلاث طلقات، ثم رفع يده اليسرى لتطلق ثلاث طلقات أخرى، فتَقَرَّصَ جَدِّي على الأرض، ووضع يديه على رأسه ولم يتوقف عن الصياح، بينما انخرط أعضاء عصابة قُطَاع الطُّرُق في الضحك.
قال أبو شامة بغرابة واضحة: «أه من هذا الرجل، جبان مثل الأرنب ويستطيع أن يقتل!»

فقال أحد أفراد العصابة: «ولكنه شجاع في أمور النساء.»
فقال أبو شامة: «فَلْتَرَجِعْ لِتَعْتَنِي بأمر تجارتك، فلقد مات أصحاب العصا الكورية،^{١٩} ومن الآن فصاعدًا سيكون منزلك نقطة تواصل مهمة.»
قال جدي: «إنني أرغب في تَعَلُّم إطلاق النار لضرب تساو مينغ جيو.»
أجاب أبو شامة: «إن حياة ذلك تساو جيو مينغ في أيدينا، وبإمكاننا أن نُربِّيهِ في أي وقت نشاء.»

^{١٩} أصحاب العصا الكورية: لقب معروف في الصين، كان الصينيون قد أطلقوه على الكوريين الذين استقدمتهم الجيوش اليابانية إلى الصين خلال الغزو الياباني للصين، بالتحديد خلال فترة سقوط المقاطعات الصينية الثلاث بشمال شرق الصين في أيدي المعتدي الياباني في حادثة ١٨ / ٩ / ١٩٣١م؛ كان الجنود الكوريون آنذاك يُمسكون بعضا يضربون بها مَنْ يقابلهم من العامة في الشوارع، كانت القوات اليابانية قد منعتهم من حمل السلاح لعدم الثقة فيهم، وهكذا فقد أطلق عليهم عامة الصينيين سرًا لقب «العصا الكورية» لشدة بطشهم. (المترجم)

فقال جدِّي بنبرة بها بعض الشكوى: «إذاً فهل رحلتي هذه راحت هباءً؟»
فألقي أبو شامة بمسدسي جدي، فانقض جدِّي وأمسك بأحدهما، بينما سقط الآخر
على الأرض، فغاصت ماسورته داخل الوحل، فالتقطه جدِّي وراح يزيل الوحل من على
المسدس وينظفه بطرف ثيابه.

وهنا تقدّم أحد أفراد العصابة ليربط تلك العصابة السوداء على عيني جدي، فأشار
له أبو شامة بيده قائلاً: «لا داعي لذلك.»
وقف أبو شامة وقال: «هيا بنا، هيا بنا لنسبح في النهر، ولتكن فرصة لأن نرافق
المعلم في طريقه.»

فتقدّم أحد أفراد العصابة وراح يجز البغل نيابةً عن جدي، بينما راح جدِّي يسير
خلف البغل، ثم سار خلفه أبو شامة وجماعة من أفراد عصابته.
وبينما كانوا يسرون على حافة النهر، راح أبو شامة ينظر إلى جدي نظرات باردة،
فرأى جدِّي وقد انشغل بمسح الوحل والعرق الذي كان يملأ وجهه، ثم قال: «ليس هناك
أدنى فائدة من رحلتي هذه، ليس هناك أدنى فائدة من رحلتي هذه، لقد كدتُ أن أموت
من شدة الحر.»

وقام جدِّي بخلع ملابسه المتلطخة بالوحل، ثم ألقى فوقها المسدسين، وسار بضع
خطوات ثم نزل إلى النهر، وما إن نزل إلى النهر، حتى راح يرتعش؛ حيث كانت رأسه
تغطس داخل المياه أحياناً وترتفع أحياناً أخرى، بينما كانت يده لا تتوقفان عن الارتعاش.
سأل أحد أفراد العصابة: «أترى أن هذا الرجل لا يعرف العوم؟»

فأحدث أبو شامة صوتاً معبراً عن نفي هذا الكلام.
فجاءهم صوت مُجاهدة جدِّي وصوت المياه، وحيث كانت المياه ترمي به صوب
الشرق.

فراح أبو شامة يسير في اتجاه المياه نحو الشرق.

«أيها الزعيم، حقاً إنه يكاد يغرق!»

فقال الزعيم أبو شامة: «انزلوا لإنقاذه.»

فقر أربعة من أفراد العصابة إلى داخل النهر، وأتوا بجدي الذي كانت بطنه ممتلئة
بالمياه وكأنه قد شرب جرة كبيرة من الماء دفعة واحدة، ورقد جدِّي على حافة النهر مثل
الجتة الهامدة.

فقال الزعيم أبو شامة: «ائتوا بالبغل.»

أتى أحد أفراد العصابة مسرعًا بالبغل.
فقال أبو شامة: «ارفعوه على ظهر البغل.»
فقام عدد من أفراد العصابة برفعه على ظهر البغل، بينما بدت بطنه المنتفخة غير مستقرة على ظهر البغل.

قال أبو شامة: «اضربوا البغل لعله يفر مسرعًا.»
فتقدم أحد أفراد العصابة يجر البغل، بينما راح آخَر يحثه على السير بسرعة،
وانشغل اثنان آخَران بِسَنَدٍ جَدِّيٍّ على ظهر البغل، فراح بغل العائلة الأسود الكبير يجري
بسرعة على حافة النهر، وما إن جرى مسافة غير طويلة، حتى راح جَدِّيُّ يَنْقِيًّا ما بداخل
بطنه من مياه.

سارع أفراد العصابة بإنزاله من على ظهر البغل، فرقد جَدِّيُّ على حافة النهر، وراح
يقلب عينيه المنهكتين مثل عيني سمكة ميتة في ذلك الزعيم الضخم أبو شامة.
فخلع أبو شامة عباءته، وراح يضحك ضحكات طيبة، ثم قال: «أيها الرجل، لقد
كُتِبَ لك عُمرٌ جديد.»

بدا وجه جَدِّيُّ شاحبًا، وبَدَت عظام حَدْيِهِ في حالة يُرْتَى لها.
وخلع أبو شامة وجميع أفراد العصابة ملابسهم كاملة، وقفزوا معًا إلى داخل النهر،
كانوا جميعًا يتقنون السباحة إلى درجة كبيرة، وكان نهر موا شوى آنذاك يفيض بالماء
الوفير، فراحوا يستمتعون بالسباحة داخل النهر الكبير.

وراح جَدِّيُّ يتسلق حافة النهر ببطء وتردد، ثم التحف عباءة أبي شامة، ومخط أنفه،
وحاول تسليك حنجرته، وفرد ذراعيه وقدميه، أمسك بملابس أبي شامة وراح ينظف بها
سرج البغل الذي كان مبللًا، ثم مد البغل رقبته اللامعة مثل الحرير وراح يلمس بها جسد
جَدِّيُّ بلطف شديد، فما كان من جَدِّيُّ إلا أن جعل يمسح على رقبة البغل، ثم قال: «أيها
البغل العجوز، انتظر، انتظر.»

وعندما رفع جَدِّيُّ المسدسين، كان أفراد العصابة يحاولون التقدم نحو حافة النهر
مثل البط، فأطلق جَدِّيُّ سبع طلاقات بإيقاع متناغم، فسالت دماء أفراد العصابة واختلطت
بمياه نهر موا شوى القاسية.

ثم أطلق جَدِّيُّ سبع طلاقات جديدة.
كان أبو شامة قد نجح في الصعود إلى الضفة النهر، وكانت مياه نهر موا شوى قد
نَظَّفَت جلدَه تنظيفًا جيدًا فجعلته أبيض بياض الثلج، فوقف بلا خوف هناك وسط بعض
الحشائش على الضفة النهر، وراح يخاطب جدي بتقدير قائلًا: «تصويب بارع!»

سقطت الشمس الحامية على قطرات المياه التي كانت تتحرك وتسكن على جسده.

فسأله جدي: «أيها الزعيم أبو شامة، هل اعتديت على زوجتي؟»

فرد أبو شامة: «نعم للأسف حدث ذلك!»

فسأل جدي: «وكيف تَجَرَّأتَ على هذه الفعلة الشنيعة؟»

فقال أبو شامة: «أعلم أنك لن تهناً بنهاية طبيعية.»

وسأله جدي: «وهل ستكون هذه النهاية بعيداً عن المياه؟»

فترجع أبو شامة بضغ خطوات إلى الخلف، ووقف في منطقة مياه ضحلة على حافة

المياه، وراح يشير بيده إلى قلبه ثم قال: «فَلتصوَّبْ نحو هذا المكان، فما أقبح أن تُحطِّمَ

رأسي!»

فقال جدي: «حسنًا.»

وهكذا أصابت طلقات جَدِّي السبعة قلب أبي شامة وجَعَلَتْهُ مثل خلية نحل، فتأوَّه

الرجل قليلاً ثم سقط داخل مياه النهر، ثم راحت قدماه الكبيرتان تطفوان قليلاً على

سطح الماء قبل أن تغوص إلى الأعماق مثل الأسماك.

وفي صباح اليوم التالي، ركب كلُّ من جَدِّي وجدتي بغلاً، وتوجَّهوا إلى منزل والد

جدتي، وكان والد جدتي مشغولاً آنذاك بصناعة قلادة «العمر المديد حتى مائة عام» من

الفضة،^{٢٠} وما إن رأى جَدِّي وجدتي وقد اقتحما المكان، حتى سارَعَ الرجل بلم الفضة

والأنية الموضوعة أمامه.

قال جَدِّي مخاطباً إيَّاه: «سمعتُ أن تساو مينغ جيو كافأك بعشرة دا يانغ؟»

ركع الرجل العجوز على ركبتيه وراح يتوسل إلى جَدِّي قائلاً: «العفو والصَّفْح يا

زوج ابنتي المحترم.»

^{٢٠} قلادة العمر المديد أو قفل العمر المديد: عبارة عن قلادة من الفضة كانت تُصنع في الصين قديماً،

ويرجع تاريخها إلى عصر أسرة خان الصينية (٢٠٦-٢٢١ قبل الميلاد)، وشهدت تطوراً كبيراً على مر

العصور الصينية، وفي عصر أسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤م) أصبح تعليق هذه القلادة مقصوراً على

الأطفال لحمايتهم من الشرور، وانتشر تقليد هذه القلادة انتشاراً واسعاً منذ عصر أسرتي مينغ وتشينغ

(١٦٤٤-١٩١١م)، وكان الوالدان وأهل الطفل يسارعون بالذهاب إلى الحِرَفِيِّين المُتَخَصِّصين في أعمال

الفضة لصناعة هذه القلائد للحفاظ على عمر الطفل، ومن أهم التعبيرات المباركة التي انتشر نَقْشُها

على هذه القلادة «العمر المديد حتى المائة العام»، «السعادة الدائمة والعمر المديد» وغيرها من العبارات.

(المترجم)

أخرج جَدِّي من جيبه عشرة دا يانغ، وكَوَّمَهَا أعلى صلعة والد جدتي اللامعة.
وراح جَدِّي يصيح بقسوة شديدة «ارفع رقبتك، واثبت جيداً!»
ثم تراجع بضع خطوات إلى الخلف، ومسح على مسدسيه، ثم أطلق النار لِيُطَيِّرَ اثنين
دا يانغ.

أطلق جَدِّي طلقتين جديدتين، أسقط بهما اثنين دا يانغ.
كان جسد والد جدتي العجوز ينكمش، ولم ينتظر حتى ينتهي جَدِّي من إسقاط
العشرة دا يانغ، سقط الرجل على الأرض.
فأخرجت جدتي مبلغ مائة دا يانغ من صدرها، وألقته على الأرض لتملأ جميع
أرجاء المكان.

١١

عاد جَدِّي وأبي إلى منزلهما الذي تحطم تحطيمًا كاملاً، وأخرجًا مبلغ خمسين دا يانغ من
داخل شق في حائط المنزل، وتَنَكَّرًا في صورة شَحَّادَيْنِ حتى وصلًا إلى المدينة، وتوصلاً
إلى سيدة تملأ وجهها بالمساحيق داخل دكان صغير مُعلَق داخلها فانوس مصباح أحمر
بالقرب من محطة القطار، واشترى من هذه المرأة خمسمائة وخمسين رصاصة، وبعد
ذلك حاولًا التَّخْفِيَّ في المدينة عدة أيام، حتى نجحًا في الخروج من المدينة بما يحملانه من
الرصاص، واستعدًا للبحث عن القائد لينغ ماتزه لتصفية حسابهما معه.

وبعد ظهر اليوم السادس عقب معركة كمين جسر نهر موا شوى؛ أي بعد ظهر
الخامس عشر من أغسطس حسب التقويم القديم لعام ١٩٣٩م، استطاع جدي وأبي
الإمساك بخروف جبلي صغير وقد حبس بوله ووصلًا إلى حقول الذرة الواقعة عند حدود
القرية الغربية، كان هناك ما يزيد على أربعمائة من الشياطين اليابانيين، وما يزيد على
ستمائة من قوات العملاء فرضوا حصارًا مطوقًا على قريتنا، فسارع جَدِّي وأبي بقطع
رأس فتحة مؤخرة الخروف؛ ليسقط الخروف كماً كبيرًا من الروث ثم يسقط خمسمائة
وخمسين رصاصة كانت مختزنة داخله، ولم يبال جَدِّي وأبي بالقاذورات الكريهة التي
خرجت من الخروف، وراحا يجمعان الرصاص ويستعدان للتسلُّح، واشتبكا مع الغزاة
في معركة قاسية، وعلى الرغم من أنهما نجحًا في قتل عشرات من الشياطين اليابانيين،
وكذا عشرات من العملاء الخونة، فإنهما لم يستطعا العودة إلى القرية بسبب ضعف
عتادهما، وفي أصيل ذلك اليوم، خرجت جموع أهالي القرية للسباحة في جنوب القرية

نبيذ الذُّرَّة

الذي لم يشهد إطلاق نار، إلا أنهم تعرضوا لإطلاق نار كثيف وبطريقة جنونية من قبل المدافع والرشاشات اليابانية؛ الأمر الذي أدَّى إلى مقتل مئات من الرجال والنساء داخل حقول الذُّرَّة، بينما سارع مَنْ تبقى منهم بالاختفاء داخل حقول الذُّرَّة الممتدة هنالك. وعندما قرر الشياطين اليابانيون الانسحاب من المكان، قاموا بإشعال النيران في جميع مساكن القرية، فامتلأت سماء القرية بالنيران المشتعلة، التي استمرَّت فترة طويلة حتى تم إخمادها، حتى إن قمر تلك الليلة الذي كان من المُفترض أن يكون قمرًا مكتملاً أحمر، جعلته هذه الحرب البشعة يبدو قمرًا شاحبًا مهترئًا، وكأنه قصاصة ورق فقد لونها، وقد تعلَّقت في السماء حزينة مكتئبة.

– «إلى أين سنذهب يا أبي؟»

فلم يردَّ جدِّي على سؤال صغيره.

موقعة الكلب

١

يزخر تاريخ الإنسان بالكثير من الأساطير والذكريات المرتبطة بالكلاب، بما فيها الكلاب الشريرة والمخلصة والمرعبة والمسكينة! وخلال مشوار جَدِّي وأبي الطويل، هناك مئات الكلاب التي داست بأقدامها الصلبة مختلف الطُّرق الرمادية خلال مذبحة الدُّرة التي وقعت في جنوب قريتنا، وقد تَشَجَّعت تلك الكلاب على ذلك تحت قيادة كلاب عائلتي الثلاثة الأسود والأخضر والأحمر، كانت عائلتي قد رَبَّت فيما مضى خمسة كلاب، مات منهما الكلبان الأصفران في نفس العام الذي بلغ فيه أبي الثالثة من عمره بعد أن عاشوا حياة مليئة بالصعاب ومحفوفة بالمخاطر، بينما عمر الكلاب الثلاثة المتبقية الأسود والأخضر والأحمر خلال ظهورهم في مذبحة الدُّرة الشهيرة وقيادتهم لجماعة الكلاب آنذاك، من الخامسة عشرة من عمرهم، وبالطبع فإن هذا العمر بالنسبة للإنسان يعني عمر الصبا، إلا أنه بالنسبة للكلاب إنما يعني أنها قد بلَّغت الأربعين.

خلال الأيام التي أعقبت تلك المذبحة الكبرى، كانت برك الدماء السوداء قد غَطَّت صفحة ذكريات جَدِّي وأبي خلال نَصَبِهِم الكمائن لملاقاة العدو عند الجسر الممتد أعلى نهر موا شوى، وصفحة ذكرياتهم كانت أشبه ما تكون بسماء غطتها السحب السوداء، غير أن اشتياق أبي لجدي كان دائماً مثل ضوء الشمس الذي ينبعث من خلال تلك السحب السوداء، وهذه الشمس المحتجبة بهالات من السحب السوداء كانت بالتأكيد في معاناة كبيرة، والضوء الذي كان يخترق تلك السحب الكثيفة، كان يجعلني في حالة غير مستقرة، كما أنَّ تلك الأوقات التي كان يسترقها أبي خلال تلك المعركة الحامية للتفكير في جدي، أقول: كان اشتياق أبي لأمه يجعلني في غاية الحيرة مثل الكلب الذي فقَدَ جميع أفراد عائلته.

المذبحة الكبرى التي وقعت في مساء يوم عيد منتصف الخريف لعام ١٩٣٩م، تكاد تكون قد أبادت جميع أهل قريتنا، ومن ثمَّ قد جعلت مئات من كلاب القرية تفقد عائلاتها بالمعنى الحقيقي للكلمة، كان جدِّي قد راح يُطَلِّقُ وأبلاً من الرصاص على تلك الكلاب التي استغلَّت رائحة الدماء التي ملأت المكان، وجاءت لتأكل في الجثث الملقاة في كل مكان، كنتُ تسمع دويَّ مسدسه من نوع «مسدس تزه لاي ده^١» في كل مكان، كانت تفوح رائحته الملتهبة في جميع الأرجاء، يخرج من ماسورته لون أحمر داكن، يختلط بلون قمر منتصف الخريف الأبيض بياض الثلج والبارد مثل الجليد، أما حقول الذُّرَّة فقد بدت بعد تلك الحرب الضارية في غاية السكون والوحشة، وقد لفها لون قمر منتصف الخريف الحزين، وامتلأت القرية بالمشاعل النارية، وعلت ألسنة اللهب تملأ سماء القرية، وبعد قيام قوات الجيش الياباني والقوات الصينية المعاونة له بمهاجمة القرية، قاموا بإضرار النيران في جميع منازلها، ثم انسحبوا منها من جهة المدخل الشمالي، كان ذراع جدِّي الأيمن الذي أصيب قبل سبعة أيام من الهجوم على القرية، في حالة سيئة للغاية غير قادرة على الحركة تمامًا، وقد انشغل أبي حينها بمساعدة أبيه في ربط ذراعه المصابة، وكان جدِّي قد ألقى بمسدسه على التربة السوداء داخل حقول الذُّرَّة، وبعد أن أحكم أبي ربط ذراع جدي، جلس جدِّي يستريح على الأرض، وهو يستمع إلى أصوات الخيول اليابانية التي كانت تصيح بصوتٍ عالٍ، وسمع وقع أقدامها التي كانت تهز المكان وكأنها رياح عاتية، كانت وقتها تجري بسرعة تدريجية وتتجمع عند المدخل الشمالي للقرية، ثم اختفت في النهاية داخل حقول الذُّرَّة الواقعة في شمال القرية، كان يسمع أيضًا وقع أقدام البغال التي كانت تعدو بسرعة جنونية، بالإضافة إلى صوت أفراد القوات المُعاونة للجيش الياباني التي كانت قد بلغ بها التعب والإرهاق مداه.

^١ مسدس تزه لاي ده أو كما يطلق عليه أيضًا مسدس بوا كه: هو اسم دَرَج على إطلاقه عامة الشعب الصيني على مسدس ماوزر C96 عياره: (٦٣,٧ × ٢٥ ملم)، (٩ × ١٩ ملم بارابيليوم)، الذي كان قد انتشر استخدامه في مطلع عصر جمهورية الصين الوطنية (١٩١١-١٩٤٩م) بين القوات العسكرية المحلية غير الحكومية، غير أن معظم الكميات التي كانت تُباع داخل الصين من هذا النوع من المسدسات لم يكن من صنع شركة ماوزر الألمانية العريقة، وإنما كان يتم تصنيعه في إسبانيا، كما أن المهندسين الإسبان كانوا قد عدَّلوا فيه بعض التعديلات وجعلوه مسدسًا أليًا ذا جودة عالية. (المترجم)

ووقف أبي إلى جانب جدِّي الذي كان جالسًا يستريح داخل حقول الذُّرة، يُجاهد نفسه ويحاول تتبُّع وقع أقدام الخيول اليابانية، بعد ظُهر ذلك اليوم، أصيب أبي بفضع شديد عندما رأى ذلك الحصان الياباني ذا اللون الأحمر الداكن يقترب منه، ورأى بأمر عينيه حوافر الحصان الكبيرة التي بدت له وكأنها سهام مصوبة نحو رأسه، وراحت حوافر الحصان تنير أمامه مثل البرق، لم يتمالك أبي نفسه من الخوف فراح يصيح وينادي جدي، ثم جعل يغطي رأسه بيديه، ثم جلس في وضع القرفصاء على بعض من أوراق الذُّرة، وغطت رائحة البول الكريهة المحبوسة داخل بطن الحصان ورائحة عرقه؛ المنطقة المحيطة بأبي، ثم تقدَّم الحصان إلى الأمام مقتحمًا الذُّرة بجسده الممتلئ، بينما راحت أعواد الذُّرة الممتلئة بالحَب تتساقط فوق أبي، حتى امتلأت الأرض بكميات كبيرة من أعواد الذُّرة المسكينة، عاد أبي بذاكرته إلى الورا، وتذكَّر مشهد تساقط كميات كبيرة من أعواد الذُّرة فوق جثة والدته التي كانت ملقاة وسط الذُّرة، وقبل سبعة أيام مضت، كانت أعواد الذُّرة قد نضجت كاملًا، غير أنها لم تكن قد أصبحت يابسة بعد، وهكذا تساقطت كميات من الحَب على الأرض بفعل هجوم جماعات الحمام على سنابل الذُّرة الناضجة، حتى امتلأت الأرض بحبات الذُّرة الجميلة التي بدت وكأنها قطرات أمطار تملأ أرضية حقول الذُّرة، كانت شفتا جدتي تكشفان عن أسنانها الجميلة في جمال الصَّدَف، وقد ظهر على أسنانها الجميلة بضع حبات من الذُّرة التي ظهرت لأبي وكأنها تكمل لوحة جميلة تسر الناظرين، ثم اختفت تلك اللوحة سريعًا، وجد الحصان الياباني الذي اقترب من أبي صعوبة في العودة إلى حيث جاء، كانت أعواد الذُّرة لا تتوقف عن ضرب مؤخرته، وكان بعضها ينكسر فور اصطدامه بمؤخرة الحصان، وبعضها ينحني والبعض الآخر ينحني ثم ينتصب ثانية، وهكذا ومع هبوب الرياح الخريفية عمَّت حالة من الفوضى الشديدة حقول الذُّرة التي مر بها الحصان الياباني الممتلئ، ولاحظ أبي كمية السائل التي كانت تسيل من أنف وفم الحصان الياباني الذي كان في غاية التوتر أثناء تعجُّله في الفرار من داخل حقول الذُّرة، حتى إنها سألت لتغطي جزءًا كبيرًا من المنطقة المحيطة بفمه، بدت عينًا الحصان وقد فاضتا بالدموع بسبب كميات المسحوق الأبيض الذي تناثر إلى داخلها أثناء السير وسط الذُّرة، ولع جسد الحصان، ثم ظهرت أعلى سنابل الذُّرة رأس جندي ياباني شاب وسيم كان يرتدي فوق رأسه قُبَّعة صغيرة

مُرْبَعَة، ووسط تلك الحرب الحامية داخل حقول الذُّرَّة، راحت سنابل الذُّرَّة تضرب ذلك الجندي الياباني الوسيم وتضايقه وتعوق طريقه أينما تَوَجَّه، حتى اضطر إلى أنه يغمض عينيه بين الحين والآخر لتفادي مضايقتها له، رآه أبي وهو يأخذ بخنجره ويقطع سنابل الذُّرَّة، كان بعضها يسقط على الأرض باستسلام تامٍّ، ثم تَبَقَّى أعواد الذُّرَّة ثابتة في مكانها عاجزة عن المقاوَمَة، كانت بعض سنابل الذُّرَّة تزأر بأعلى صوتها؛ وتتمايل تلك السنابل التي تم قطعها، وتبقى مُعلَّقة فوق سيقان الذُّرَّة التي لم تكن أوراقها تتوقف عن الحركة، بدت بعض أعواد الذُّرَّة أكثر صلابة؛ كانت تميل مع الخنجر إلى الأمام ثم تعود بسرعة لتنتصب في مكانها، وكأنها حزمة من خيوط الكتان كانت تلتصق على سطح الخنجر، رأى أبي الجندي الياباني الوسيم يَتَقَدَّم مرة ثانية على ظهر حصانه رافعاً خنجره، وهنا استجمع أبي كل قوته الشريرة إلى جانب قوة مسدسه البرونينج وصوبه نحو وجه الحصان المستطيل، فاتجه المسدس في خط مستقيم وبأقصى سرعة تجاه جبهة الحصان، وخرج منه صوت طلق مكتوم، وما إن رفع الحصان الأحمر رقبته، حتى هوت ركبتاه على الأرض، ولامست شفته التراب، ثم لحقت بها رقبته، حتى سقط رأسه كاملاً على الأرض، وسقط الشاب من على ظهر الحصان، ومن المؤكد أن ذراعه الذي كان يمسك بالخنجر قد كسر تماماً؛ حيث رأى أبي حينها الخنجر وقد سقط على الأرض، ثم سمع صوت سقوط ذراعه المبتور على الأرض، خرجت عظمة من عظامه الصلبة من داخل جيب ملبسه، بينما بدأ ذراعه السليم وكأنه كائن حي مستقل راح يتمايل بصورة غير منتظمة، ولم يلاحظ أبي خروج دماء في تلك اللحظة التي سقط فيها ذراع الجندي الياباني من داخل جيبه، وخيمت على المكان رائحة المقابر، غير أنه بعد قليل لاحظ الدم الأحمر الفاتح يسيل من جرح الجندي الشاب، وكان الدم يسيل بشكل غير متوازن؛ كان تارةً يسيل بغزارة وتارةً أخرى يبدو دقيقاً، وتارةً بسرعة وتارةً أخرى ببطء، كان أشبه ما يكون بعنقود الخوخ الأحمر الذي يظهر باستمرار ثم يختفي بنفس الصورة التي ظهر بها، كانت إحدى قدميه قد انحشرت أسفل بطن الحصان، بينما كانت الأخرى تجاوزتها إلى أمام رأسه، وظهرت القدمان مكونتين زاوية مستقيمة، وكان أبي في غاية الدهشة من أمر ذلك الحصان الياباني الكبير وذلك الجندي الياباني المهيب اللذين لم يكن أبي يَتَصَوَّر أنهما من الممكن أن يَسْقُطَا من أول ضربة، وهنا أطل جَدِّي حانئاً ظهره من داخل أعواد الذُّرَّة، وراح ينادي أبي بصوت خفيض قائلاً: «يا دوو قوان.»

وقف أبي وقد ساوره كثير من عدم الاطمئنان، وراح ينظر إلى جدي، وخرجت جماعة كبيرة من الخيول اليابانية مندفعة من قلب حقول الذرة، واختلط صوت وقع أقدام الخيول القوية وهي تعدو داخل الحقول مع صوت تحطيمها لأعواد الذرة، كان الجنود اليابانيون يندفعون إلى الأمام وقد أزعجهم صوت إطلاق النار الذي صدر من مُسدسي جدي وأبي، حتى اضطروا إلى التخلي عن مهاجمة القرية التي أعلنت عن التصدي لهجومهم بكل قوة، وراح الجنود اليابانيون يعسكرون داخل حقول الذرة لصد الغارات المفاجئة التي يتعرضون لها.

واحتضن جدي أبي ومضياً يزحفان داخل حقول الذرة، سمعا أنات تربة الحقول وهي تتوجع من ثقل أقدام الخيول اليابانية التي كانت تدكها دكاً شديداً، ورأياً سنابل الذرة وهي تهتز اهتزازاً عنيفاً، وقد امتلأت الأرض بما تساقط منها رعباً من الخيول الشرسة.

وما إن ابتعدت الخيول اليابانية حتى هدأت أعواد الذرة المسكينة، وانتفض جدي واقفاً داخل حقول الذرة، وعندما حاول أبي أن يقف على قدميه، أدرك مدى القسوة والشدة التي كان يضغط بها جدي عليه وهما منبطحان داخل حقول الذرة.

لم يمت ذلك الجندي الياباني، استطاع أن يفيق من الألم الشديد الذي أصابه، وراح يعتمد على ذراعه الذي لم ينكسر، وحاول جاهداً أن يلم قدمه التي كانت ممدودة إلى أمام الجسر، وراح يحرك قدمه المصابة التي بدت وكأنها لا تخصه وهو يتأوه بصوت خفيض، ولاحظ أبي قطرات العرق وهي تنزل من على جبين الجندي الياباني، وقد اختلطت قطرات العرق بطين الأرض وغبار الطلقات النارية، بدا وجهه شاحباً، لم يمت أيضاً ذلك الحصان الياباني، كان لا يزال يهز رقبته مثل الحية بينما كانت عيناه الخضراوان المثلثتان بالحزن تنظران إلى المنطقة الغربية المحيطة به في ريف دونغ بيي بمدينة قاو مي، وبعد أن استراح الجندي الياباني قليلاً، حاول جاهداً أن يسحب قدمه التي كان محشورة أسفل بطن الحصان.

وتقدم جدي إلى الأمام ناحية الجندي الياباني؛ ليساعده على سحب قدمه المحشورة، ثم أحكم جدي قبضته حول رقبة الجندي وأجبره على النهوض، كانت قدماه في غاية التعب، حتى إنه راح يميل بجسده كاملاً على جدي، وما إن أرخى جدي ساعديه قليلاً، سقط الجندي الياباني على الأرض مثل التمثال المصنوع من الصلصال، مد جدي يده

وأخذ الخنجر اللامع، وصوبه تجاه بعض أعواد الذُّرَّة، وراح يحركه يمينًا ويسارًا وهو يقصف أعواد الذُّرَّة قصفًا شديدًا، حتى امتلأت الأرض بكمية كبيرة من سائل أعواد الذُّرَّة المتساقطة.

أحكم جدِّي حد الخنجر الياباني حول رقبة الجندي ناصعة البياض، ثم خاطبه بصوت منخفض: «أيها العفريت الياباني! أين ذهبت شجاعتك؟!»

لم تتوقَّف عينًا الجندي الياباني السوداوان عن الحركة، وهو يتمم بكلمات سريعة، عرف أبي أنها كانت عبارة عن كلمات توَسَّل يطلب بها الرحمة من جدي، ومد الجندي يده التي كانت تهتز بشدة إلى جيبه مخرجًا حافظة جلدية شفافة، ثم قدَّمها إلى جدِّي وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة.

تقدم أبي لينظر إلى تلك الحافظة، إذا بها تحتوي على صورة شخصية ملونة، يَظْهَر أعلاها سيدة شابة جميلة ذات ذراع بيضاء ناصعة تحتضن طفلًا ممتلئ الجسم، وترتسم على وجه الأم وطفلها ابتسامة رقيقة.

سأله جدي: «هل هذه زوجتك؟»

فراح الجندي الياباني يغمغم بكلمات غير مفهومة.

فعاود جدِّي سؤاله: «وهل هذا ابنك؟»

فاستمر الجندي يغمغم بكلماته غير المفهومة.

فحشر أبي رأسه إلى الأمام ليتفحص الصورة، وراح يتأمل وجه المرأة المبتسمة والطفل اللطيف.

فمد جدِّي يده وانتزع الحافظة بقوة قائلًا: «أيها الحيوان، هل تريد أن تستعطفني بهذه الصورة؟» وتطايرت الحافظة بعيدًا، ليستقبلها خنجر جدِّي قبل أن تسقط على الأرض وقد أصبحت نصفين مستقرة أمام قدم أبي.

سادت هالة من الظلام أمام عيني أبي، وراح يرتعش من برودة الجو، انعكست على عينيه أشعة الضوء الخضراء والحمراء، وشعر حينها بحزنٍ شديدٍ، ولم يُعَد قادرًا على أن يفتح عينيه وينظر إلى صورة المرأة الجميلة والطفل اللطيف التي انقسمت إلى نصفين أمام عينيه.

ارتمتي الجندي الياباني أمام قدمي أبي وهو في غاية التعب، وراح يمد يده غير المصابة التي كانت تهتز بشدة ليلتقط بها صورة المرأة والطفل التي انقسمت إلى نصفين، حاول بالتأكيد أن يعتمد أيضًا على يده المصابة لكنه فشل في ذلك، وكانت لا تتوقف عن

الزيف. فراح يعتمد على يده غير المصابة ليتمكن من أن يلتقط صورة زوجته وطفله وهو لا يتوقف عن التمتمة بكلمات غير مفهومة.

راحت تتساقط دموعه لتملاً جبينه الملتخ بالطين والغبار. نجح في رفع الصورة بيده المصابة ووضعها أمام شفثيه وراح يُقبلها وهو يشعر بكثير من الحزن. سمع صوت جَدِّي يسبُّه بصوت مسموع قائلاً: «تباً لك أيها الحيوان، هل تعرف الدموع؟ وتعرف أن تُقبّل زوجتك وطفلك؟ إذاً فكيف تجرأت على قتل نساءنا وأطفالنا؟ هل تعتقد أنك هكذا ستنجح في استعطافي وأني سأعدل عن قتلك؟» ثم مد جَدِّي يده ورفع الخنجر الياباني عاليًا.

فاستوقفه صوت أبي وهو يصرخ بصوت عالٍ «أبي». ومد أبي يديه وأمسك بذراع جَدِّي ثم قال: «أبي، أتوسل إليك ألا تقتله!»
فراحت ذراع جَدِّي تهتز بين يدي أبي، ثم رفع أبي عينيه وراح يتأمل أباه، صاحب القلب القاسي.

فطأطأ جَدِّي رأسه قليلاً، فإذا به يسمع صوت المدافع والرشاشات اليابانية وقد اختلطت بصوت استغاثة أهل القرية، ثم سمع صوت وَقَع أقدام الخيول اليابانية وهي تهز الأرض متقدمة داخل حقول الدُّرة. وهنا رفع جَدِّي ذراعه بقوة وأزاح يدي أبي من أمامه.

راح جَدِّي يوبخ ابنه بلهجة قاسية قائلاً: «أيها الجبان، ماذا بك؟ وعلى من تذرّف هذه الدموع؟ هل تذرّفها حزناً على أمك؟ هل تذرّفها حزناً على الجد لوو خان؟ هل تذرّفها حزناً على العم الأخرس ورفاقه؟ هل تذرّف الدموع حزناً على هذا الكلب الياباني؟ ألسنت أنت الذي أسقطت فرسه بمسدسك؟ أليس هو الذي كان ينوي أن يُجهز عليك بخنجره ليقتلك؟ امسح دموعك يا صغيري، وتقدّم لتأخذ هذا الخنجر وتقتل هذا الحيوان.»

فترجع أبي خطوة إلى الوراء، بينما لا تزال دموعه تنهمر بشدة.

– «تقدم!»

– «لا أستطيع يا أبتاه ... لا أستطيع.»

– «أيها النذل الجبان!»

وركل جَدِّي ابنه ركلة قوية، ثم تراجع خطوة إلى الوراء، وجعل بينه وبين الجندي الياباني مسافة قصيرة، قبل أن يرفع الخنجر عاليًا.

ولاحظ أبي النور الذي كان يظهر أمامه وقد تحوّل إلى ظلام دامس. وقد فاق صوت قطع رقبة الجندي الياباني بخنجر جدي، صوت المدافع والرشاشات اليابانية القادم من

بعيد، حتى شعر أبي برعشة شديدة تَسَلَّتْ إلى أحشائه. وعندما أفاق من رعشته، رأى ذلك الجندي الياباني الشاب الوسيم وقد فُصِلت رقبته عن جسده. تأثر أبي ممَّا رأى حتى راح يتقيأ سائلاً أخضر. ثم استدار بجسده وفر هارباً من أمام الجندي الياباني. لم يستطع أبي أن ينظر إلى عيني الجندي الياباني المفتوحتين، وإلى مشهد فصل رقبته إلى نصفين بواسطة الخنجر، حيث إن خنجر جَدِّي قد استطاع أن يفصل جميع الأشياء إلى نصفين، حتى إن جَدِّي نفسه قد انقسم إلى نصفين. وشعر أبي فجأة أن هناك خنجرًا تمتلئ حافتاه بالدماء قد قسم جَدِّي وجدتي والجد لُوو خان، والجندي الياباني وزوجته وابنه، والعم الأخرس، وليو دا خاو، والأخوين فانغ، والأبرص، ونائب القائد رن، قَسَمهم جميعاً إلى نصفين تماماً كما تقطع الخضراوات.

وهنا ألقى جَدِّي بالخنجر الذي بدأ ملطخاً بالدماء، وراح يجري وسط حقول الذُّرَّة ليلاحق أبي الذي فر هارباً من أمامه. وسمع صوت وقع أقدام الخيول اليابانية التي جاءت تدك الأرض مثل العاصفة. وسمع صوت المدافع من داخل حقول الذُّرَّة، يبدو أنها كانت لا تتوقف عن قصف الأهالي الذين كانوا يَهْبُون لمواجهتها.

وأخيراً نجح جَدِّي في القبض على ابنه، وأمسك برقبته وهزها هزاً عنيفاً قائلاً: «يا دوو قوان، هل جُنِنت أيها الجبان؟ هل تريد أن تنتهي حياتك بنفسك؟ هل سئمت الحياة؟» وحاول أبي أن يفلت من قبضة جدي، وهو يصيح بصوت مرتفع: «أبي! أبي! أبي! أرجوك خذني من هذا المكان! خذني من هذا المكان! فإنني لا أرغب في القتال! لا أرغب في القتال! لقد رأيتُ أمي! ولقد رأيتُ أعمامي! ولقد رأيتُ الجد لُوو خان!»

وهنا هَوَّت يد جَدِّي لتصفع وجه أبي صفعه قوية تخلو من أي معاني الشفقة. نعم، لقد كانت صفعه قوية جدًّا، انهارت على إثرها رقبة أبي، وراحت رأسه تهتز بشدة، ثم سالت الدماء من فمه.

انسحبت القوات اليابانية المُرابِضة داخل حقول الذُّرَّة، وبدأ القمر الذي كان يرتفع في سماء حقول الذُّرَّة يتضاءل شيئاً فشيئاً. ولفَّ الصمت حقول الذُّرَّة التي شهدت كوارث كثيرة؛ كان قد تساقط الكثير من أعواد الذُّرَّة ذارفة الدموع الغزيرة خلال غارات القوات اليابانية المتلاحقة. وانتشرت رائحة الدم في أرجاء الجزء الجنوبي من القرية. وبدأت السنة

النيران تلف القرية مثل ذيل ثعلب لا يتوقف عن الحركة باستمرار، بينما لا تتوقف أصوات الانفجارات هنا وهناك، اختلطت رائحة الدماء المنبعثة من داخل حقول الذرة برائحة نيران المدافع والرشاشات، مكونة رائحة غريبة خانقة.

عاود جدِّي شعور بالألم إثر ذلك الجرح القديم الذي أصاب ذراعه؛ بدأ الجرح ينزف بشدة، احتاج جدِّي لمساعدة أبي في سد فوهة الجرح لمنع النزيف القوي. فمد أبي إصبعه الصغير البارد ليسد فوهة النزيف. واستطاع جدِّي أن يعثر على ورقة ذابلة كانت ملقاة عند مقبرة على مسافة بعيدة عنهما، وطلب من أبي أن يساعده في الحصول على قليل من مسحوق أعواد الذرة ليضعه فوق الورقة الذابلة، فمد أبي يده التي كانت تحمل الورقة الذابلة وقد وضع فوقها كمية من مسحوق أعواد الذرة، وقدمها لجدِّي. فمال جدِّي بأسنانه وفتح إحدى الطلقات النارية، وأفرغ ما بداخلها من بارود، وخلط البارود بمسحوق أعواد الذرة، وخلطهما جيداً ثم همَّ أن ينثر المسحوق المخلوط على فوهة الجرح، فسأله أبي بصوت خفيض: «أبي، ألا ترغب في إضافة قليل من التراب؟»

فكر جدِّي قليلاً ثم قال: «حسناً، فلنضع قليلاً من التراب.»

فمد أبي يده وأتى بكمية من التراب من أسفل عود من أعواد الذرة، وقلَّب التراب جيداً، ثم نثره أعلى الورقة الذابلة، وخلط جدي المساحيق الثلاثة جيداً، ثم وضع الورقة بما عليها من مساحيق على فوهة الجرح، ثم ساعده أبي في إحكام وضع هذه اللفافة غير النظيفة على فوهة الجرح.

سأل أبي: «أبي، هل زال الألم بعض الشيء؟»

فحرك جدِّي ذراعه قليلاً ثم قال: «تحسَّن كثيراً، صغيري دوو قوان، إن هذه الوصفة الفعالة قادرة على علاج أخطر الجروح.»

فسأله أبي ثانية: «لو حصلتُ أُمي على مثل هذه اللفافة وقتها لم تكن قد تعرَّضت للموت، أليس كذلك؟»

فأجابه جدِّي بصوت يملؤه الحزن قائلاً: «نعم يا صغيري، لم تكن لتموت.»

«أبي، لو كنت قد أخبرتني من قبل عن هذه الوصفة الطبية، لكنك استطعت أن تستخدمها في سد فوهة جرح أُمي، ولو أنني قمتُ بخلط مسحوق الذرة مع البارود لكانت النتيجة أفضل بكثير.»

ووسط همسات أبي، راح جدِّي يضغط بيده المصابة على مسدسه ليطلق بعض الطلقات النارية ردًّا على صوت مدافع اليابانيين التي تهز أرجاء القرية.

كان مسدس أبي الفرنسي برونينج لا يزال مُلقَى أسفل بطن الحصان الياباني، كان أبي قد استطاع خلال آخر معركة حدثت بعد ظهر ذلك اليوم، الحصول على بندقية يابانية يصل طولها إلى أصغر من طوله بقليل، وكان جَدِّي لا يزال يستخدم مسدسه الألماني الصنع. إن كثرة الهجمات اليابانية المتلاحقة وكثرة استخدام جَدِّي لهذا المسدس الألماني الحديث إلى حد ما، جعلته يتحول بسرعة إلى قطعة خردة. وشعر أبي أن ماسورة مسدس جَدِّي الألماني الصنع بدت ملتوية بعض الشيء. وعلى الرغم من أن سماء القرية كانت ممتلئة بالنيران، فإن حقول الذرة كانت لا تزال تبدو هادئة وسط ظلمة الليل. كما بدأ الهلال يعلو سماء حقول الذرة. حمل أبي بندقيته وسار خلف جدي، وراحا يلفان حول موقع المذبحة وقد غاصت أقدامهما في الوحل الممتلئ بالدماء، كانت الجثث الملقاة على الأرض مختلطة بأعواد الذرة المتساقطة في كل مكان. وبدت الدماء تبرق تحت ضوء الهلال الذي ينير سماء الحقول. وهكذا لفت هذه المناظر الدميمة الوحشية آخر مراحل صبا أبي. وأحسّ كما لو كانت أعواد الذرة تتوجع من هول ما أصابها، وكما لو كانت هناك حركة لأحياء وسط هذه الكومة من الجثث، وفكر أبي أن يُنبه جَدِّي لكي ينظرًا إلى هؤلاء الأهالي الذين لم يلفظوا أنفاسهم الأخيرة بعد. وما إن رفع وجهه بعض الشيء، حتى اصطدم بوجه جَدِّي المكفهر القاسي الخالي من أية مشاعر إنسانية، فعدل أبي عن رغبته في الحال.

وفي اللحظات الحاسمة، كان أبي دائمًا أكثر يقظة من جدي، كانت أفكاره دائمًا تُركّز على ظاهر الظواهر المختلفة، ليست عميقة إلى حد كبير، ومن ثمّ فقد انساق بسهولة وراء فرقة العصابات! بينما كانت أفكار جَدِّي تُركّز على نقطة مُعيّنة ببلادة تامة، وكانت هذه النقطة ربما تتمثل في وجه مُعيّن أو بندقية مُعيّنة أو طلقات نارية مُعيّنة. لم يكن يحسن التركيز في رؤية أشياء أخرى أو سماع أصوات أخرى. هذا العيب أو هذه السمة التي كان يتمتع بها جدي، كانت قد شهدت تطورًا كبيرًا بعد ما يزيد على عشر سنوات، فبعد عودته إلى الصين قادمًا من المُرابضة عند قمم مدينة هوكايدو اليابانية، كانت عيناه تحمقان في الشيء وكأنها نيران مسلطة عليه سوف تحرقه حرقًا، غير أن أبي لم يستطع أبدًا أن يصل إلى هذا العمق الفكري الفلسفي، ففي عام ١٩٥٧م، وعندما استطاع أبي أن يخرج من ذلك الكهف العميق الذي وضعته داخله جدتي بعد مروره بالكثير من المتاعب والصعاب، كانت عيناه لا تزالان كما كانتا في عهد الصبا مفعمتين بالحياة محترتين لا يهدأ لهما بال، كما أنه لم يستطع طيلة حياته أن يستوضح تلك العلاقة التي تربط

بين الإنسان والسياسة والإنسان والمجتمع والإنسان والحروب، وعلى الرغم من أنه قد دار كثيراً مع عجلة الحروب، وعلى الرغم من أن حياته كانت رحلة دائمة للتحرُّر من الدروع الحديدية، وعلى الرغم من تمكُّنه في التحرر بعض الأحيان، فإن حياته كانت حياة فاترة تحمل الكثير من الصفات الحيوانية.

وعندما قام جدِّي وأبي بالدوران حول موقع المذبحة التي وقعت داخل حقول الذُّرة، إذا بأبي يخاطب أباه بصوتٍ حزين: «أبي ... لم أعد أقوى على السير.»
أفاق جدِّي من حركاته الآلية، وسحب أبي وتراجماً عشرات الخطوات إلى الخلف، حتى جلساً على بقعة من تراب لم تصل إليه دماء الجثث، وزاد صوت النيران الذي يلف القرية وحدة وكآبة حقول الذُّرة، وبدت ألسنة اللهب الذهبية وكأنها في صراع مع ضوء القمر الأبيض، وبعد أن استراح جدِّي قليلاً، سقط إلى الخلف محدثاً صوتاً مسموعاً مثل السور لحظة انهياره، وأسند أبي رأسه إلى بطن جدي، وراح في نوم عميق، وأحس بأن يد جدِّي الكبيرة تمسح على رأسه، وعندها راح يتذكر ذلك المشهد قبل ما يزيد على عشرة أعوام، عندما كان ينام على صدر جدتي للرضاعة.

كان قد بلغ الرابعة من عمره، وشعر بعد ارتياح بثدي جدتي في فمه. كان لا يشعر بالرضا أثناء الرضاعة من ثديها. حتى إنه كان ينظر إلى وجهها بينما هو ينام على صدرها ثم يعض ثديها بقوة. كان يشعر حينها بانقباض ثديها وجسدها الذي يتأثر من قوة عضته. وقتها كان يحس بسائل ذي مذاق حلو ينعش فمه. كانت جدتي حينها تهم بضربه ضربةً قويةً على مؤخرته ثم تبعده عن ثديها. وبعد أن يسقط من على حجرها، يجلس على قدميه، ويروح يتأمل قطرات الدم التي تتساقط من ثديها، ثم يصدر بعض الأصوات دون أن تذرف عيناه الدموع. وعندها كانت جدتي تشعر ببعض الألم الذي كان يبدو على وجهها. وكان يسمع صوتها وهي تَسُبُّه بأنه مجرد جرو شرير، وأنه حيوان شرير من نفس فصيلة أبيه. كان أبي قد عرف فيما بعد أن جدِّي كان على علاقة عاطفية بالفتاة ليان إر التي كانت تُساعد جدتي في أعمال المنزل. وفي الوقت الذي كان أبي يعض ثدي جدتي، كان جدِّي قد هرب من قسوة جدتي واشترى لفتاته منزلاً جديداً في القرية المجاورة. وقد قيل إن تلك الفتاة، التي تعتبر جدتي الثانية لم تكن هي أيضاً امرأة سهلة. وإن جدتي كانت تخشاها كثيراً — وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما بعد — وكانت هذه الجدة الشابة قد وضعت لي فيما بعد عمّة أصغر مني. وفي عام ١٩٣٨م، كان الجنود اليابانيون قد كَشَفُوا عن هذه العمّة الصغيرة بعد أن تناوبوا اغتصاب جدتي الثانية، وسوف نتحدث عن ذلك أيضاً بشيء من التفصيل فيما بعد.

كان جَدِّي وأبي قد غلبهما النعاس الشديد، وأحسَّ جَدِّي بألمٍ شديدٍ في ذراعه المصابة، وأحسَّ أن راحة قدميهما تستند إلى حذاء من القماش، غير أنهما لا يستطيعان خلعه من شدة الإرهاق والتعب.

واضطجعاً على الأرض بين النوم واليقظة. واستدار أبي بجسده قليلاً، ليجد رقبته تستند إلى بطن جدي، وهو غارق في تأملاته نحو السماء، سمع صوت أمواج نهر موا شوى، الهادئة، ورأى بعض السحب السوداء في المجرة في السماء. وتذكر أبي ما قاله له الجد لُوو خان من أن المجرة طائشة، وأن أمطار الخريف لا تنقطع. كان أبي قد رأى نوبة واحدة من أمطار الخريف الحقيقية، وقتها كان قد اقترب موعد حصاد الذُّرة، فاضت مياه نهر موا شوى، وتصدَّع السد الذي يعلو النهر، ووصلت مياه الفيضان إلى الحقول والقرى. ووسط كل هذا التيار الجارف، كانت أعواد الذُّرة قد جاهدت في التصدي للفيضان، وجاهدت الفئران والأفاعي في التَّخْفِي وسط الذُّرة. وكان أبي قد سار خلف الجد لُوو خان إلى أعلى تَبَّة وسط حقول الذُّرة، وراحا يتأملان المياه العاتية وهما في غاية القلق. وبما أنَّ أمطار الخريف كانت تستمر لفترة طويلة، كان الأهالي قد قاموا بعمل بعض الدعامات الخشبية وحملوها إلى حقول الذُّرة، وراحوا يقطعون سنابل الذُّرة التي كانت تبدو ممتلئة بالبراعم الخضراء. بدت مجموعات من سنابل الذُّرة الممتلئة بالحب، وقد أثقلت الدعامات الخشبية. وظهر مجموعة من الرجال سمر اللون نحيفون عراة الظهر حفاة الأقدام يرتدون قُبَعَات بالية من البامبو، ظهروا واقفين على المجاديف الخشبية وهم يلوحون بعصي خشبية، كما امتلأت شوارع القرية بالمياه، وظهرت جماعات البغال والخيل والأبقار والأغنام تسبح داخل المياه، وقد طفا على السطح نفايات تلك الحيوانات. لو سطعت شمس الخريف على هذه البقعة، فسوف تنصهر صفحة المياه، وسوف تظهر أعلاها صفحة حمراء من تلك السنابل التي لم تُحصَد بعد. راحت جماعات البط البري تحلق فوق أعواد الذُّرة، وهي تهز بأجنحتها مُحدِّثة لفحة من الهواء البارد الذي انعكس على المياه المنسابة وسط حقول الذُّرة. ورأى أبي كمية كبيرة من المياه الصافية تنساب وسط حقول الذُّرة، مختلفة تماماً عن تلك المياه الصفراء خارج الحقول، فعرف على الفور أنها مياه نهر موا شوى. وهنا تَنَفَّس الرجال الذين كانوا يمسكون بالمجاديف الخشبية الصُّعداء، وراحوا يتساءلون فيما بينهم، وبدءوا يقتربون من السور المُكوَّن من الطَّمِي ومن جَدِّي المرابض عنده. وظهرت سمكة من أسماك مبروك الحشائش تنام على مجداف

أحد الفلاحين الشباب، وقد اخترق بطنها عود من أعواد الذُّرة. ورفع الشاب السمكة، وراح يلوح بها أمام الجمع المحتشدين عند السور الترابي، وكانت السمكة كبيرة يصل طولها إلى نصف طول قامة الإنسان، كان الدم يسيل من وجنتها، وكانت تفتح فمها، وتنظر في حزن إلى أبيي.

مضى أبي يُفكّر كيف استطاع الجد لوو خان أن يشتري مثل هذه السمكة، وكيف استطاعت جدتي أن تقطعها بيديها، وتطهوها لتصنع منها قدرًا كبيرًا من الحساء، وأثار التفكير في هذا القدر من الحساء شهوة أبي في تناوله. فجلس أمام جدِّي وسأله: «أبي، ألم تشعر بالجوع بعد؟ أبي، إنني أشعر بجوع شديد، فلتصنع لي شيئًا من الطعام، وإلا سأموت جوعًا.»

جلس جدِّي أعلى السور الترابي، وراح يتحسس خصره، وأخرج عددًا من الطلقات النارية. ثم مد يده وجاء بمسدسه وفتح خزنته، ووضع داخلها مجموعة من الطلقات النارية، وأحكم غلق الخزنة ثم ضغط على الزناد ليحدث صوتًا مسمومًا، خرجت طلقة من داخل الخزنة. قال جدِّي مخاطبًا أبي: «يا دوو قوان، هيا بنا ... هيا بنا نبحت عن أمك.»

فذهل أبي من كلامه وسأله بلهجة حادة: «لا، لا يا أبي، لقد ماتت أمي، ونحن لا نزال على قيد الحياة، أشعر بالجوع الشديد، فلتأخذني إلى أي مكان أجد فيه بعض الطعام لسدّ جوعي.»

وهنا حث أبي جدِّي على النهوض. فراح جدِّي يتمتم قائلًا: «وإلى أين سنذهب؟ إلى أين سنذهب؟» فأخذ أبي يسحب يد جدِّي وهما يمضيان وسط حقول الذُّرة وكأنهما يسيران في خط متعرج بمحاذاة القمر.

وبينما يسيران في طريقهما، سمعا صوت حيوان بري يزأر بين كومة الجثث. فاستدار جدِّي وأبي على الفور ونظرًا إلى مصدر الصوت، فإذا بهما يريان ما يزيد على عشرة أزواج من العفاريات ذوي أعين خضراء مثل أعين اللهب وأشباهًا زرقاء. فأخرج جدِّي مسدسه ولوّح به نحو العينين الخضراوين، وما إن انطلقت النيران حتى اختفت تلك العينان، ثم سمع صوت نباح الكلاب القادم من أعماق حقول الذُّرة. فاستمر جدِّي في إطلاق النيران حتى أطلق سبع رصاصات، لتصيب جماعة من الكلاب كانت تحوم حول الجثث. وبعد أن انتهى جدِّي من إطلاق جميع الأعيرة التي كانت بمسدسه، إذا بعدد من الكلاب التي لم تصبها تلك الطلقات النارية تقفز بعيدًا عن الجثث، ثم راحت تنظر إلى جدِّي وأبي نظرات مخيفة وفي غاية الغضب.

كانت آخر الطلقات النارية التي أطلقها جَدِّي من مسدسه الألماني قد سقطت على بُعد يزيد على ثلاثين خطوة. وكان أبي قد راقب الطلقات النارية وهي تطير في الجو، وكان بإمكانه لو مد يده أن يقبض عليها قبل أن تنزل على الأرض. كانت الطلقات النارية قد فقدت صوتها القوي وبدأ صوتها ضعيفاً مثل صوتِ سُعال، وبَصُق شيخ عجوز. فرفع جَدِّي مسدسه يتفحصه، وإذا به يعلو وجهه تعبير ينم عن الحزن والأسف.

سأله أبي: «أبي، هل فرغت جميع الطلقات النارية؟»

انتهت خلال ما يزيد على عشر ساعات خمسمائة وخمسون طلقة نارية كانا قد جاءا بها من المدينة داخل بطن الخروف الصغير. وهكذا أصبح المسدس بين ليلة وضحاها عجوزاً متهاكاً مثل الشيخ الطاعن في السن. وأحسَّ جَدِّي بأن هذا المسدس بدأ يخالف رغبته شيئاً فشيئاً، وأنه قد حان وقت التَّخْلِ عنه.

مدى جَدِّي ذراعه وراح يتأمل ضوء القمر المنعكس على جسم المسدس، ثم أرخى يده قليلاً ليسقط المسدس على الأرض.

عادت الكلاب ذات العيون الخضراء تتجمع حول الجثث، في البداية كانت الكلاب تبدو خائفة، وقد لاح في عيونها شعاع الخوف والتَّربُّب. وبسرعة اختفت الأعين الخضراء، وانعكس ضوء القمر على أجساد الكلاب الزرقاء، وسمع جَدِّي وأبي صوت أسنان الكلاب وهي تنهش في الجثث المَكُومَة داخل الدُّرَة.

قال أبي: «أبي، هيا بنا إلى القرية.»

فتردد جَدِّي قليلاً قبل أن يستجيب لأبي الذي سحبه من يده ومضياً نحو القرية. كانت كمية كبيرة من السنة اللهب المشتعلة في القرية قد انطفأت، وملاً الدخان سماء القرية ليشعر المارة بحرارة الجو في كل مكان، لف الحر جميع الشوارع، وبدأ الجو خانقاً، واختلطت السنة اللهب البيضاء والسوداء المنبعثة، وراحت تنبعث وسط أعواد الأشجار المحترقة. وكانت تصدر بعض الأصوات عن احتراق الأخشاب، كما سقط بعض من أسقف المساكن التي فقدت توازنها أمام غزو السنة اللهب، مخلِّفةً وراءها كميات كبيرة من الغبار والدخان ملاً سماء القرية. وامتلاً أعلى السور الترابي وجميع الطُّرقات بالجثث الملقاة في كل مكان. وهكذا فتحت صفحة جديدة في تاريخ قريتنا. كانت هذه القرية من قبل عبارة عن منطقة برية مقفرة، تملؤها الأعشاب والأدغال، كانت جَنَّةً للثعالب والأرانب البرية، ظهر فيها فيما بعد عدد من أكواخ الرعاة، ثم فر إليها عدد من المجرمين والصعاليك بنوا لهم بعض المساكن بالقرية وبدءوا في استصلاح أراضيها المقفرة، حتى كشفوا عن

وجه جديد لهذه القرية، فقد هجرتها الثعالب والأرانب البرية، وكنت تستمع في بعض الأحيان إلى أصواتها عندما كانت تأتي لزيارة القرية شاكية مما فعله الإنسان بها. أما الآن فقد أصبحت هذه القرية عبارة عن منطقة أطلال، قرية أسسها الإنسان ودمرها بيده. أصبحت عبارة عن فردوس حزين يجمع بين الأفراح والأتراح تم تأسيسه على الأطلال القديمة فحسب. وعندما حلت تلك المجاعة الكبيرة بمقاطعة شان دونغ في عام ١٩٦٠م، وعلى الرغم من أنني كنت آنذاك في الرابعة من عمري، كنت أشعر أن أهل ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي يعيشون على الدوام وسط هذه الأطلال، وأنهم لم يتخلصوا يوماً من هذا التاريخ الأسود ويعيشوا في مساكن جديدة تليق بكونهم بشرًا.

في مساء ذلك اليوم وبعد أن خمدت ألسنة اللهب التي كانت تغطي جميع منازل القرية، كانت حجرات منزلنا التي تزيد على عشر حجرات لا تزال مشتتة لم تخدم نيرانها بعد. كان يصدر عن اشتعالها ألسنة لهب خضراء ورائحة نبيذ نفاذة، كانت رائحة النبيذ المعتق تنفذ وسط ألسنة اللهب. أما أحجار المنزل الزرقاء، فقد كان يتغير لونها شيئاً فشيئاً إلى اللون الأحمر الداكن تحت تأثير ألسنة اللهب، ثم كانت تتطاير مثل شذرات القنابل المتفجرة. وانعكس اللهب على شعر رأس جدي، الذي كان ابيض شعره الأسود الكثيف خلال سبعة أيام. وبدأت تتساقط أسقف غرفات منزلنا، بينما كانت ألسنة اللهب تنحسر بعض الوقت، ثم تعاود اشتعالها من جديد. أصيب جدّي وأبي آنذاك بذعر شديد من أصوات التدمير التي كانت تعصف بالمنزل الكبير. كانا في غاية الحزن على هذه الغرف المتجاورة التي تنهي الآن «مهمتها التاريخية» بعد أن أوت عائلة السيد دان وابنه الأبرص حتى أصبَحَا من أثرياء المنطقة، وأوت من بعدهم جدّي هذا المجرم قاطع الطريق، ثم أوت جدّي وجدتي وأبي والجد لولو خان وعمال فرن النبيذ. أعلن أنني أكره هذا الملجأ كرهاً شديداً؛ لأنه في الوقت الذي كان يأوي ويحمي الخير ومشاعر اللذة بشرب النبيذ المعتق، فإنه كان يحمي أيضاً الشر والجريمة. أبي، في عام ١٩٥٧م وعندما كنت تخبئ داخل السرداب الداخلي في منزل العائلة الكبير، كنت تفكر طوال يومك في تلك الأعوام الماضية، كنت تفكر فيما حل بهذا المنزل من دمار وخراب. كنت تفكر في أبيك وجدي وما كان يشغله في ذلك الحين، تخيلاتي تلاحق تخيلاتك، وتخييلاتك تلاحق أفكار جدي.

إحساس جدّي وهو يرى أمام عينيه هذا الدمار الذي يصيب منزل العائلة، يشبه ذلك الإحساس الذي شعر به بعد ارتباطه بالفتاة ليان إر، عندما قرّر أن يصحب فتاته إلى القرية المجاورة تاركًا جدتي تُعاني آلام الوحدة، كنت قد سمعت فيما بعد أنها أعلنت

بعد الحرب وارتبطت بأحد الرجال داخل الفرن، ولكنني لا أستطيع أن أجزم إن كان ارتباطها نتج عن عاطفة أم عن حقدٍ وثأرٍ مما لحق بها. كان جدِّي قد عاد فيما بعد إلى أحضان جدتي مرة ثانية، ولكن مشاعره تجاهها كانت قد تغيَّر لونها وطعمها كثيرًا. وحيث إن معاركنا الفدائية في الناحية العاطفية تُركِّز أولاً على تحطيم قلب الواحد منا قبل أن يصل إلى تحطيم قلب خصمه. لم يشعر جدِّي بمدى قسوة العقوبة التي أعدَّتها له الحياة إلا عندما رأى تلك الابتسامة التي واجهته بها جدتي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. كان قد بدا آنذاك في حرصه وتعلُّقه وحبّه لأبي تماماً مثل طائر العقوق الذي يحرص أشد الحرص على آخر بيضة في عشه، ولكن حرصه كان جاء متأخراً، فلقد أعدَّ له القدر نهايةً مأساويةً، وهذه النهاية تنتظره عند مفرق الطريق الأمامي.

خاطبه أبي قائلاً: «أبي، لقد ضاع منزلنا.»

فمسح جدِّي على رأس ابنه، وألقى نظرة على المنزل الذي أصابه الدمار والخراب، ثم سحب ابنه من يده ومضياً في طريقهما إلى غير هدف محدد.

وعند ناصية القرية، استوقفه صوت عجوز وهو يسأله: «هل أنت شياو سان؟ كيف لم تأتِ بالعربة التي تجرها البقرة؟»

فما إن سمع جدِّي وأبي هذا الصوت حتى شعرا بشيء من الألفة ونسيًا ما كانا يشعران به من تعب وإرهاق، ومضياً مُسرَّعين إلى مصدر الصوت.

وهناك استقبلهما عجوز قد انحنى ظهره، وركز بصره على وجه جدي يتفحصه تفحصاً دقيقاً. كان جدِّي غير مطمئن لنظرات العجوز، وشعر بامتعاض شديد من تلك الرائحة الكريهة المنبعثة من فمه.

عاد العجوز يجلس إلى حيث كان، وقد شعر بخيبة الأمل وهو يقول: «إنه ليس ابننا شياو سان.» وكان يجلس على كومة من الأغراض المختلفة، كان من بينها صندوق كبير ودولاب ومنضدة طعام وأدوات تستخدم في الزراعة وأدوات تستخدمها البهائم وسترة قطنية بالية وقدر معدني وغيرها من الأشياء... بدأ العجوز وهو يجلس فوق هذا التل من الأغراض وكأنه ذئب مرابض لحماية فريسته. أما شجرة الصفصاف التي كانت خلفه فقد كان مربوطاً بها عجلان من الأبقار وثلاثة رءوس من الأغنام وأتان صغير.

أعلن جدِّي عن غضبه من العجوز وراح يسبه في غضب شديد: «أيها الكلب العجوز! اغرب عن وجهي!»

فانتفض العجوز عن الكومة التي يجلس أعلاها، وراح يتودد إليه قائلاً: «أي أخي الفاضل، لا داعي لهذا الغضب الشديد، هذه الأغراض هي كل ما استطعنا أن نتحصل عليه من وسط ألسنة النيران التي أصابت القرية.»

فسبَّه جدِّي في غضبٍ شديدٍ: «انزل عن هذه الأغراض أيها العجوز اللعين.»
فراح العجوز يلوم جدِّي بلهجة مؤدبة قائلاً: «أيها الأخ الفاضل، لماذا تتكلم بهذا الأسلوب الفج، وأنا بدايةً لم أتهجم عليك ولم أثر غضبك، فكيف تسبني بهذا الكلام القبيح؟»

– «أسبك؟ إنني سوف أذبحك ذبحاً! إننا قاومنا الغزاة اليابانيين وتصدَّينا لهم وأنقذنا البلاد من شرهم، وما أنتم تستغلون الفرصة وتخرجون لسرقتنا! أيها الحيوان، أيها الحيوان العجوز! يا دوو قوان، أين سلاحك؟»
فأجابه أبي: «لقد تركته أسفل بطن الحصان الياباني.»
قفز جدِّي بسرعة إلى أعلى كومة أغراض العجوز، وركل العجوز ركلة أسقطته من أعلى الكومة.

فسجد العجوز على ركبتيه وراح يتوسل إلى جدِّي قائلاً: «العفو والسماح أيها القائد من الجيش الثامن،^٢ العفو والسماح أيها القائد.»
فقال جدي: «إنني لستُ من أفراد الجيش الثامن أو التاسع. إنني قاطع الطريق الأشهر يو جان آو.»

– «العفو والسماح أيها القائد يو، أيها القائد يو هذه الأغراض كانت ستحترق تماماً إذا أصابتها ألسنة اللهب ... ولستُ الوحيد من أهل قريتي الذي قام بجمع مثل هذه الأغراض، قام هؤلاء اللصوص بالسيطرة على كل الأشياء الثمينة، أنا العجوز الضعيف تمكنت فقط من الحصول على هذه الأشياء البالية.»

^٢ الجيش الثامن: وهو الجيش الثامن من الجيش الثوري الوطني الصيني، الذي يعرف في اللغة الصينية بجيش با لو، وهو أصل جيش التحرير الشعبي الصيني أو الجيش الأحمر الحالي، وقد تكوَّن الجيش الثامن في ٢٢ من أغسطس عام ١٩٣٧م بتوحيد قوات الجيش الأول والثاني والرابع من قوات الجيش الأحمر للعمال والفلاحين الصينيين، الذي تولى قيادته آنذاك القائد والزعيم جو ده، وكان قد تغير اسمه في سبتمبر عام ١٩٣٧م إلى السرية الثامنة عشرة، إلا أنه قد اعتاد الجميع على تسميته الجيش الثامن، وخلال الحرب الأهلية التي نشأت بين الحزب الوطني والحزب الشيوعي فيما بين عام ١٩٤٥-١٩٤٩م، أُطلق عليه جيش التحرير الشعبي الصيني. (المترجم)

أمسك جَدِّي منضدة خشبية صغيرة وألقى بها في وجه العجوز، فتألم الرجل ألماً شديداً وراح يمسك رأسه التي بدأت تسيل منها الدماء بغزارة، وراح يتلوى على الأرض من شدة الألم، فأمسك به جَدِّي من ياقته وجذبه إليه حتى انتفض واقفاً، وخاطبه قائلاً: «أيها اللص الشجاع!» ثم أجهز عليه بلكمة قوية، فأحدثت صوتاً قوياً على وجه ذلك العجوز الضعيف، فارتدى على الأرض لا حول له ولا قوة، ثم تقدّم جَدِّي نحوه ثانية وركل وجهه ركلة قوية.

٣

كانت أمي قد اصطحبت خالي الصغير البالغ من العمر ثلاثة أعوام ومكثت إلى جوار بئر المياه يوماً كاملاً. صباح يوم أمس، كانت أمي قد حملت جرتين فارغتين قاصدة البئر، وما إن انحنت بظهرها للماء الجرة الأولى، رأت وجهها على صفحة مياه البئر الساكنة، ثم سمعت صوتاً قادمًا من عند السور الترابي، كان صوت العم شينغ وو أحد الحمّالين يصيح بأعلى صوته: «لقد حاصر الشياطين اليابانيون القرية! لقد حاصر الشياطين القرية.» ذهلت أمي ذهولاً شديداً، حتى سقطت من يدها الجرة إلى بطن البئر، واستدارت بسرعة فارةً إلى منزلها، وقبل أن تصل إلى المنزل صادفت في طريقها أباه وأمه التي كانت تحتضن خالي الصغير، فمنذ أن أعلنت فرقة جَدِّي القتال عند جسر نهر موا شوى، بدأ أهل القرية يشعرون بأن هناك مصيبة كبرى ستحل بهم عمّا قريب، وكان من بينهم ثلاث أو خمس عائلات فقط اختفت عن المشهد تماماً، بينما بقيت عائلات القرية الأخرى على الساحة في انتظار الدمار والخراب الذي سيصيب القرية. وخلال تلك الأيام السبعة، كان جَدِّي قد اصطحب أبي ونزلا إلى المدينة لشراء كمية من الطلقات النارية، كان جَدِّي حينها يرغب في شراء كمية كافية من الطلقات النارية تكفي لتصفية حسابه مع القائد لينغ ماتزه، ولم يكن يتوقع قط أن يأتي الشياطين اليابانيون لغزو القرية وتحويلها إلى بركة من الدماء. وفي مساء اليوم التاسع من شهر أغسطس، كان السيد جانغ روا لو — ذلك الرجل المثقف الذي لعب دوراً محورياً في دفن الجثث التي امتلأت بها طرقات القرية — الرجل الطموح الذي كانت إحدى عينيه كبيرة والأخرى صغيرة، كان قد جمع الأهالي في اجتماع طارئ ليلة التاسع من أغسطس، وعبّأهم بضرورة تدعيم السور الترابي الذي يلف القرية وصيانة الباب الكبير، وضرورة أن يكون هناك من يسهر في نوبات ليلية للحذر وإيقاظ الأهالي عند ملاحظة أي هجوم على القرية. كان الأهالي ما إن يستمعوا إلى

الصوت الذي يصدر من باب القرية الكبير، حتى يَهْبُوا رجالاً ونساءً أطفالاً وشيوخاً إلى السور الترابي للاستعداد لملاقاة العدو، كانت أمي قد ذكرت أن صوت السيد جانغ في ذلك الحين كان يبدو صوتاً جهورياً خشناً، كان يقف ويصيح قائلاً: «أيها الأهالي، إذا تَوَحَّدْنَا معاً فسيكون بإمكاننا تحريكُ جبل تاي شان الشامخ، ولن نتمكن من حماية قريتنا من هجوم الشياطين اليابانيين، إلا إذا تَوَحَّدْنَا معاً وقاتلنا بقلب رجل واحد.»

كانت أصوات الطلقات النارية قد بدأت تُدَوِّي في الحقول الواقعة خارج حدود القرية، وتَدَافَع على إثرها رجال القرية نحو السور الترابي ليرابضوا عنده. وبدأ الهرج والمرج يسيطر على جميع ما في القرية من بشر وحيوانات. أما السيد جانغ روا لو فقد وقف في منتصف الطريق وراح يصيح في الأهالي قائلاً: «أيها الأهالي، احذروا الفوضى! وتَحَرَّكُوا وفق الخطة التي رسمناها معاً، واندفعوا بسرعة إلى السور الترابي! أيها الأهالي، لا تخشوا الموت، فإن من يخشاه سيلاقيه، ومن يواجهه بشجاعة سينجو منه! ولن تتركوا الفرصة أمام الشياطين اليابانيين حتى لو تعرضتم للموت.»

رأت أمي رجال القرية وهم يتدافعون نحو السور الذي أشار إليه المنادي، ورأت أمها التي كانت واقفة أمامها وقد أصابها الرعب الشديد من هول الموقف، وقفت في مكانها ثابتة لا تقوى على أن تخطو خطوة إلى الأمام. فراحت تصيح باكياً: «أبتاه، يا أبتاه، ماذا ستفعل صغيرتك؟» فجاءها أبوها وهو يحمل بندقيته، وراح يوبخ زوجته بلهجة قاسية: «ما الذي يبكيك؟ بوصولنا إلى هذا المكان أصبح الموت والحياة سيان بالنسبة لنا جميعاً»، لم تُقَوِّ الزوجة على أن تُنْبِس ببنت شفة، وراحت الدموع تتساقط من عينيها. فراح أبوها ينظر خلفه إلى السور الترابي الذي لم تصل إليه السنة اللهب بعد، ثم مد يديه ليجذب أمي بيده وزوجته باليد الأخرى، وسحبهما خلفه حتى وصلوا إلى الحقل المزروع بالفجل والخس خلف مسكن العائلة. كان في وسط ذلك الحقل بئرٌ قديمة، لا يزال أعلاها بكرة قديمة لجلب المياه من بطن البئر. فراح الرجل ينظر إلى داخل البئر، ثم خاطب زوجته قائلاً: «البئر خالية من المياه، فلنضع ابنتنا داخل البئر، ولنعد لالتقاطها فور مغادرة الشياطين للقرية.» فوقفت الزوجة جامدة في مكانها مستسلمة استسلاماً تاماً لأوامر زوجها.

وهكذا بدأ جَدِّي لأمي في فكِّ الحبل من الرافعة التي كانت موجودة أعلى فوهة البئر، وربط به خصر أمي، ثم سمع صوتاً عالياً يرن إلى جواره، فإذا شيء أسود اللون يسقط داخل حظيرة حيوانات الجيران، كان الصوت مدوياً وكأن المنزل قد سقط بأكمله،

فإذا به يرى السنة اللهب تمتد إلى شجرة داخل الحظيرة، وقد تطايرت إليه بعض من بقايا نفايات الحيوانات وأشلاء الأغنام، ثم سقط خروف أمام أمي، أحدث سقوطه صوتاً مدوياً، كانت أول مرة تسمع أمي البالغة من العمر خمسة عشر عاماً صوت قذيفة. أما الحيوانات التي لم تتعرض للموت، فقد راحت تقفز إلى خارج الحظيرة وكأنها قد أصيبت بالجنون. فغرقت أمي وخالي الصغير في نوبة بكاء شديد. قال جدِّي لأمي موضحاً: «لقد أطلق الشياطين اليابانيون مدافعهم! يا صغيرتي تشينغ إر، لقد بلغت الخامسة عشرة من عمرك وأصبحت كبيرة تفهمين كل شيء حولك، فلتهتمي بأخيك الصغير في بطن البئر، وبمجرد أن ينسحب الشياطين، سأتي لأصحبكما إلى المنزل.» استمرت قذائف الشياطين تُدوي في سماء القرية، وأمسك جدِّي لأمي بالرافعة وأنزل أمي إلى داخل البئر. فراحت قدمها تصطم بحواف البئر وهي تنزلق إلى الأسفل حتى استقرت ببطن البئر، ثم سمعت أباها يناديها بصوت عالٍ: «فكي الحبل عن خصرك.» فقامت أمي على الفور بفك الحبل الذي كان مربوطاً حول خصرها، ثم راحت تراقب الحبل بينما يسحبه أبوها إلى أعلى. ثم سمعت بعد ذلك صوت شجار بين أبيها وأمها هناك عند فوهة البئر، وسمعت صوت القذائف اليابانية وصوت بكاء أمها، ثم رأته وجه أبيها وسط الضوء المشع حول فوهة البئر، كان الأب يصيح قائلاً: «يا صغيرتي تشينغ إر، فلتستعدي جيداً لاستقبال أخيك الصغير.» نظرت أمي إلى أعلى فإذا بها ترى خالي الصغير البالغ من العمر ثلاثة أعوام وهو ينزل إليها مربوطاً بالحبل، لا يتوقف عن البكاء بصوت مسموع، بينما كان الحبل يهتز بشدة. وأصدرت الرافعة صوتاً مسموعاً، فإذا بجدي لأمي يقترب من فوهة البئر وينظر إلى أسفل، ثم راح يصيح باسم خالي الصغير قائلاً: «يا آن تزه، يا صغيري آن تزه.» ورأت أمي جيداً قطرات الدمع التي كانت تنزل من عيني جدي لأمي. وأخيراً وصل الحبل إلى قاع البئر، وسقطت قدمًا خالي إلى أرض البئر، وراح يبكي بصوت عالٍ منادياً على أمه وأبيه قائلاً: «أماه، أريد الصعود ثانية، لا أريد الهبوط إلى هذا المكان، أريد الصعود يا أماه.»

ثم رأته أمي أمها وهي تسحب الحبل بشدة، وسمعت صوت بكائها وهي تقول: «يا صغيري آن تزه ... يا قلبي ... يا ابني الحبيب.»

رأت أمي يدي أبيها الكبيرتين وهما تسحبان أمها بعيداً، بينما كانت الأم لا تزال تتشبث بالحبل رافضة أن تفلته من بين يديها، فدفعها الأب دفعة قوية، حتى سقطت على الأرض وتخلت عن الحبل، وهنا سقط خالي الصغير في حضن أمي.

ثم سمعتُ أمي صوت أبيها وهو يصيح بصوت عالٍ موبخًا أمها: «أيها السفية! هل تريدين أن يصعدوا إلينا لانتظار الموت معنا؟ فلتسرعِي إلى السور الترابي، فإذا دخل الشياطين القرية، فإنه لن يبقى أحياء بين أهل هذه القرية.»

سمعتُ أمي صوت نَجِيب أمها وهي تنادي على طفلها قائلةً: «يا صغيرتي تشينغ إر، يا صغيري آن تزه، يا تشينغ إر، يا آن تزه.» ثم عاد صوت القذائف من جديد، كان هذه المرة صوتًا قويًّا تساقطت على إثره كتل من التراب المتجمع على حواف البئر. وبمجرد أن سكت صوت القذائف غاب صوت جدتي لأمي، وغاب كل شيء عن أمي وخالي الصغير فيما عدا صفحة السماء الكبيرة والرافعة القديمة أعلى سطح البئر.

كان خالي لا يزال يبكي أمه وأباه، فراحت أمي تفك الحبل الملفوف حول خصره، وتداعبه قائلةً: «أخي وحبيبي آن تزه، لا تبك هكذا، فإن بكاءك هذا قد يأتي إلينا بالشياطين، فما أفسى قلوبهم، وإنهم سيخرجون علينا من معانقهم إذا ما سمعوا بكاءك.» سكت خالي عن البكاء، وراح ينظر إلى وجه أمي بعينيه السوداوين. بينما لم تكن حنجرته قد توقفت عن إصدار الصوت بعد، ثم مد يديه الصغيرتين ولفهما حول أخته متشبثًا بها. واستمر دوي القذائف والرشاشات في كل مكان، كانت تنطلق على دفعات. فرفعتُ أمي وجهها تنظر إلى السماء البعيدة، وراحت تجهد نفسها لتستمع إلى الحركات المحيطة بسطح البئر، حتى استطاعت أن تسمع إلى صياح الجد جانغ روا لو وأصوات الأهالي من حوله. كان قاع البئر جافًا تمامًا باردًا، تهدمت قطعة من حوافه لتكشف عن الجدار الترابي الأبيض وبعض من جذوع الأشجار المستخدمة في جدرانه. كانت هناك بعض الطحالب الخضراء تنمو بين كتل الأحجار التي لم تتساقط بعد. وقد راح خالي يهتز في حزن أمي ثم عاود البكاء قائلاً: «أختي الحبيبة ... أريد العودة إلى أمي ... أريد الصعود من هنا.»

راحت أمي تهدئ من روع أخيها الصغير قائلةً: «أخي الحبيب آن تزه ... لقد نهدت أمك بصحبة أليك لمقاتلة الشياطين اليابانيين، وبمجرد أن يتمكن الجميع من طرد الشياطين فسوف يأتون إلينا ويصحبوننا إلى المنزل.» وهنا لم تتمالك أمي نفسها وراحت تبكي وهي تحتضن أباها بشدة.

وعرفت أمي من خلال فتحة البئر المؤدية إلى السماء أن الصباح قد تنفّس، والليل قد أدبر، كان البئر حينها ساكنًا إلى درجة الخوف الشديد من سكونه وظلمته، ثم رأت شعاعًا أحمر ينعكس على سطح البئر البعيد عنها كثيرًا، وهنا عرفت أن الشمس قد طلعت.

وراحت تستمع إلى أي صوت قريب منها، كانت القرية آنذاك ساكنة تمامًا مثل البئر الذي تحتمي فيه، فقط كانت تتخيل صوت الرعد الذي كان يضرب في السماء بين الحين والآخر، ولم تكن تعرف هل سيأتي أبوها وأمها إلى هنا في هذا اليوم الجديد، ليصحبها وأخاها الصغير إلى المنزل وينقذاهما من هذه الوحدة، يأخذانهما إلى ذلك العالم المضيء الذي تملؤه أشعة الشمس المبهرة، إلى ذلك العالم الخالي من الأفاعي المخيفة والصفادع السوداء النحيفة. بدأ لها أن ما حدث صباح أمس قد حدث منذ زمن بعيد جدًا، وشعرت أنها قد مكثت في هذا البئر زمنًا طويلًا، ومضت تُفكّر في صميتٍ وهي تتحدث إلى نفسها قائلة: «والديّ إنكما إذا لم تأتيا لإنقاذنا، سنموت في بطن هذا البئر المخيف». كانت أمي تشعر بالكُرّه الشديد تجاه والديها اللذين ألقيا بطفليهما في هذا البئر ثم اختفيا عنهما تمامًا، ولم يشغلها إذا ما كانا على قيد الحياة أم فارقًا الحياة في بطن البئر. ومضت تُفكّر أنها إذا ما قابلتهما فإنها حتمًا ستنفجر في البكاء الشديد، حتى تُفرغ ما بداخلها من شعور بتعريضها وأخيها الصغير للظلم. وكيف كان بإمكان أمي أن تعرف أنها في الوقت الذي كانت تُفكّر فيه في كره والديها وشعورها بأنهما ظلماها وأخاها الصغير، لم تكن تعرف أن أمها كانت في تلك الأثناء قد أصابته إحدى القذائف اليابانية وقسمتها إلى أشلاء، ولم تكن تعرف أيضًا أن أباهما كان قد تعرض عندما ظهر جسده خارج السور الترابي لطلقة من أحد الشياطين اليابانيين أصابت رأسه (كانت أمي قد أخبرتني أن الجنود اليابانيين كانوا رماة بارعين قبل عام ١٩٤٠م).

راحت أمي تتضرّع في صميتٍ قائلة: «أبي! أمي! فلتأتيا في أسرع وقت، إنني أشعر بالجوع والعطش الشديد، مرض أخي الصغير، إذا لم تأتيا لإنقاذنا فإننا حتمًا سنهلك!» وسمعتُ أمي صوت بوق ضعيف أعلى السور وربما بعيد عن السور، وبعد أن سكت الصوت، سمعت رجلاً يصيح قائلاً: «هل لا يزال هناك أناس آخرون، هل لا يزال هناك أناس آخرون، لقد انسحب اليابانيون، ولقد جاء القائد يو.»

وهنا احتضنت أمي أخاها الصغير ووقفت منتفضة، وراحت تصيح في صوت مبجوح: «نعم يوجد، يوجد أحياء في هذا المكان، إننا في بطن البئر، فلتسرعوا لإنقاذنا»، كانت أمي تصيح بصوتها المبجوح وهي تحاول هز بكرة البئر بإحدى يديها، وبعد أن شعرت بالتعب أفلتت يدها الأخرى من حول أخيها الصغير ليسقط على الأرض، ثم راح الطفل يتنهد بشدة حتى انقطع صوته تمامًا. فاستندت أمي إلى سور البئر، وسقط جسدها كاملاً إلى جانب السور حتى أصبحت وكأنها جثة هامدة ملقاة أعلى كومة من الطوب، وعندها شعرت بيبأسٍ شديدٍ.

وراح أخوها الصغير يتسلق على ركبته، ثم خاطبها بصوتٍ خالٍ من المشاعر قائلاً:
«أختاه ... أريد أُمي.»

شعرت أُمي بحزن شديد، ثم مدت يديها وضمت أباها في حضنها وقالت له: «يا آن تزه ... إن أبانا وأمنا تَخَلَّيَا عَنَّا ... وسوف نموت معاً في بطن هذا البئر.»
فارتجفَ الطفل وسَرت سخونة شديدة في جسده، حتى أَحَسَّت أُمي وهي تحتضنه وكأنها تحتضن موقداً من الفحم.

«أختي الكبرى ... أشعر بالعطش.»

نظرت أُمي إلى أحد أركان البئر، وانتبهت إلى بركة صغيرة من الماء المتسخ، ولاحظت أن ذلك المكان كان أعلى وأشد ظلمة من المكان الذي تجلس فيه. ورأت ضفدعاً نحيفاً يرقد وسط الماء، ثم انتبهت إلى أن الضفدع ينظر إليها غاضباً. فراحت أُمي تجمع كل قوتها، وأغلقت عينيها. كانت هي الأخرى تشعر بالعطش الشديد، ولكنها كانت ترى أنها لن تقبل الشرب من هذه المياه القذرة حتى لو ماتت من العطش.

وكانت حرارة جسم خالي الصغير قد بدأت في الارتفاع من بعد ظهر الأمس؛ لم يكن قد توقف عن البكاء منذ أن وطأت قدمه بطن البئر، وقد بكى بكاءً شديداً حتى راح صوته، وبدأ مثل القط الصغير الذي شارف على لُفْظ أنفاسه الأخيرة.

في صباح يوم أمس، عاشت أُمي في زعرٍ واضطرابٍ شديد، وكان مصدر الذُّعر أصوات القذائف القادمة من القرية القريبة، أما سبب اضطرابها فقد كان خوفاً على حالة أخيها الصغير التي بدأت تسوء كثيراً، كانت أُمي ذات الخمسة عشر عاماً تتمتع ببنية جسدية ضعيفة، مما جعلها تتألم كثيراً من حمل أخيها الصغير في الأوقات العادية، فما بالها الآن وهي تسعى جاهدة للصعود به إلى سطح البئر، وكانت قد ضربته ضربةً خفيفةً على مؤخرته، فردها لها خالي النذل عضةً قوية تخلو من أدنى عاطفة تجاهها.

وبعد أن ارتفعت حرارة خالي، وبدأ يشعر بالإغماء المتواصل، احتضنته أُمي وجلست إلى جدار البئر، جلست وقد صارت مُنهكة القوى شاردة الذهن. كان صوت القذائف لا ينقطع. وبدأ ضوء الشمس ينحسر شيئاً فشيئاً عن الجدار الغربي للبئر ويسطع على الجدار الشرقي، حتى بدأ الظلام يملأ بطن البئر. وكانت أُمي تعرف جيداً أنها قد مكثت في بطن البئر طيلة يوم كامل، وأنه لا بد أن يكون حان الوقت ليأتي والداها لإنقاذها وأخيها من هذه المحنة. فمدت يدها وراحت تمسح على وجه أخيها الصغير، وأحسَّت بأن حرارته قد ارتفعت كثيراً، ثم وضعت يدها على قلبه لتستمع إلى دقات قلبه المضطربة.

مضت تفكر لبعض الوقت أن أخاصها قد شارَف على الموت، وعندما سرت في جسدها رعشة شديدة، فراحت تبعد هذه الفكرة عن بالها قدر استطاعتها، ثم راحت تواسي نفسها قائلة: «لقد حان الوقت، لقد حان الوقت، لقد أوت العصفير إلى أعشاشها، واقترب موعد مجيء أبي وأمي.»

تحوّل الضوء المنعكس على جدران البئر إلى اللون البرتقالي ثم إلى اللون الأحمر الغامق، وسُمع صوت صرصار هنالك بين جدران البئر، وبدأت تتحرك جماعة من البعوض المُندس داخل شقوق الجدران. وفي تلك الأثناء، كانت أمي قد سمعت صوت القذائف تدوي بالقرب من السور الترابي، وسمعت هرجاً كبيراً في الناحية الشمالية من القرية، أعقبه صوت الرشاشات يدوي في الناحية الجنوبية. وهنا عمّت الفوضى جميع أرجاء القرية، وسمعت صوت جماعات غفيرة من الخيول والبشر تدك الأرض حول البئر، سمعت أمي أيضاً صوت صياح اليابانيين. وهنا لم يتمالك خالي الصغير نفسه من شدة الألم، فراح يتنهد بصوت مسموع، فسارعت أمي ووضعت يدها على فمه ليسكت عن إصدار الصوت، حاولت هي أن تكتم أنفاسها قدر استطاعتها. وأحست أن وجه أخيها يتحرك تحت قبضتها، وسمعت صوت نبضات قلبها التي كانت تدق دقات سريعة. وتلاشى بعد ذلك الضوء الذي كان ينعكس على بطن البئر، فراحت تنظر من فوهة البئر إلى صفحة السماء العالية. وسمعت صوت القذائف ورأت الأتربة تتطاير إلى داخل البئر، وسمعت أصوات الأطفال والنساء الذين أربعهم صوت القذائف فراحوا يبكون بصوت مُرتفع، كما سمعت أصوات أغنام وأبقار تشاركهم البكاء والإحساس بالرعب الشديد الذي سيطر على المكان. وعلى الرغم من أنها كانت تقبع في بطن البئر، فإنها شمّت رائحة تلك الحيوانات الكريهة.

لا تذكر أمي المدة التي قضتها وهي ترتجف تحت دوي القذائف حولها، كان مفهوم الزمن قد اختفى من قاموسها، ولكنها كانت تعي جيداً كل ما حدث لها خلال الساعات الماضية. عرفت من خلال تلك الفتحة أن النيران المشتعلة قد بدأت تخمد تدريجياً. بدأ ضوء النيران ينعكس على جدران البئر، كانت قد سمعت في البداية أصوات القذائف تدوي في القرية وأصوات سقوط المنازل، حتى هدأت تلك الأصوات وعمّ السكون. ثم لاحت في سمائها المظلمة عدد من النجوم.

كانت أمي تنام وتستيقظ وسط ذلك الجو البارد في بطن البئر، كانت عيناها قد تكيفت مع ظلمة البئر، شعرت بالدوار الشديد عندما رفعت عينيها ونظرت إلى صفحة السماء أعلى سطح البئر. كانت رطوبة البئر قد بلّغت ملابسها، حتى أصيبت بالبرد الشديد،

وراحت تحتضن أباها بشدة، كانت حرارته قد بدأت تنخفض منذ منتصف الليل، ولكنها كانت على أي حال أعلى من حرارة جسمها بكثير. راحت أمي تحصل على الدفء من جسد خالي، بينما كان هو يحصل على البرودة من جسدها، وهكذا ارتبطت حياتهما معًا خلال تلك المدة الطويلة التي قضياها معًا في بطن البئر، وفي ذلك الحين لم تكن أمي تعرف أن والديها قد توفياً منذ وقت طويل، كانت ما تزال تتطلع لرؤيتهما وسماع صوتهما يرن داخل البئر. وإلا فإنها حقًا لا تعرف إذا ما كانت تستطيع الصمود داخل البئر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ أخرى.

عندما أعيدُ النَّظْرُ إلى تاريخ عائلتي، أكتشف أن جميع الشخصيات المحورية في هذا التاريخ كانت تربطها علاقة متشابكة بالأماكن المظلمة. كانت البداية من أمي، ووصلت إلى ذروتها عند جدِّي لأبي، الذي حطَّم الرقم القياسي في ذلك، إلى أن كانت النهاية عند أبي. الذي كان بإمكانه أن يُلَوِّح في الظلام بذراعه الوحيد ويخطو نحو أمي وأخي الأكبر وأختي الكبرى ونحوي شخصياً.

سَرَت البرودة في أطراف أمي، بينما كانت تشعر بسخونة شديدة من داخلها، ولم تقدم على أي طعام أو شراب منذ صباح يوم أمس، بدأت تتألم من الشعور بالعطش الشديد منذ امتداد النيران إلى القرية في مساء أمس. ووصلت ذروة الشعور بالعطش في منتصف الليل. وقُبَيْل طلوع الصباح، كانت قد بدأت تشعر بألم شديد في معدتها. والآن بمجرد أن تفكر في الإقدام على الطعام، يغالباها الشعور بالغثيان. أصبح الشعور بالعطش الشديد أخطر شعور تعجز عن تحمله، أصبحت تشعر بأن رثتها تحوَّلت من شدة العطش إلى ورقة من أوراق أعواد الدُّرَّة الجافة الذابلة، وأصبحت تشعر بألم شديد في حنجرتها. كان أخوها الصغير يحرك شفثيه المتشققتين من شدة العطش قائلاً: «أختاه ... إنني عطشان.» ولم تُعدُّ أمِّي قادرة على مُجَرِّد النظر لوجه خالي الصغير الذي بدت عليه ملامح الذبول الشديد، ولم يُعدُّ لديها أية كلمات تُواسيه بها. وفي مساء أحد الأيام، كانت قد ضاعت جميع الآمال التي وعدتُ أمي بها أباها الصغير، حيث إن تأخر والديهما وعدم مجيئهما حتى الآن جعلها تكذب على أخيها المسكين وعلى نفسها. وكانت قد اختفت أصوات الأبواق التي كانت تسمعها تدق في القرية، وسكنت الكلاب عن النباح. ووسط ذلك السكون مضت أمي تفكر في أن والديها ربما يكونان قد تعرَّضًا للموت، وربما يكونان قد تعرَّضًا للأسر من قِبَل القوات اليابانية. وشعرت بحرقة شديدة في مقلتيها، إلا أنها لم تذرف الدموع، وهكذا بدأت أمي تنضج وهي ترى أباها المسكين يتوجع أمام

عينها. فراحت تتناسى بشكلٍ مؤقتٍ الآلام الجسدية، ورفعت أياها ووضعتة أعلى قطعة من الطوب ووقفت تدقق النظر في جدران البئر. كانت جدران البئر جافة تمامًا، إلا أن الطحالب التي كانت تنمو بين الجدران بدت خضراء، ولكنها لا يمكن أن تروي عطشهما أو أن تكون طعامًا يسد جوعهما. جلست أمي القرفصاء، وراحت تسحب قطعة وراء قطعة من الطوب، بدا الطوب ثقيلًا جدًّا وكأنه كان مشبعًا بالماء، وهنا أطلت عليها حشرة أم أربعة وأربعين حمراء من بين جدران البئر، فراحت أمي تراقبها وهي تصعد إلى أعلى حيث كانت ترقد الضفادع باحثة عن أي فتحة تحتويها. لم تعد أمي تجرؤ على تحريك الطوب كما لم تعد تجرؤ على الجلوس؛ حيث إن الموقف المخزي الذي كانت قد تعرّضت له صباح الأمس قد جعلها تنتبه لأنوثتها.

بعد زواجي، كانت أمي قد تحدّثت مع زوجتي عن الموقف الذي تعرّضت له آنذاك في بطن البئر، كانت أول دورة شهرية تتعرض لها. وكانت زوجتي قد أخبرتني عن مدى التعاطف الذي أظهره الجميع تجاه أمي التي كانت تبلغ آنذاك الخامسة عشرة من عمرها. وهكذا اضطرت أمي أن تُعلّق آخر آمالها على تلك المياه القذرة التي كانت ترقد بها الضفادع. وعلى الرغم من أن صورة تلك الكائنات كانت تجعلها تشعر بالخوف والاشمئزاز، فإنها كانت تدرك جيدًا أن تلك الكائنات تحتل مساحة ممتلئة بالمياه. إن الشعور بالعطش الشديد والذبول الذي أصاب أياها المسكين من نقص المياه، قد جعلها تضطر للتفكير ثانية في هذه البقعة من المياه القذرة. كان كل شيء كما كان عليه بالأمس تمامًا، كانت الضفادع لا تزال قابعة في مكانها لا تتحرّك، محافظة على هيئتها التي كانت عليها بالأمس، لا تزال تقترب من أمي وتنظر إليها تلك النظرات الغريبة التي جعلت أمي تشعر بالخوف الشديد من تلك الكائنات. وفجأة اختفت الشجاعة التي كانت تتمسك بها أمي في محنتها، شعرت فجأة أن نظرات الضفادع تكاد تكون سهامًا حادة تخترق جسدها النحيف. فأشاحت عنها بوجهها، وأحسّت أنه من الصعب عليها التغاضي عن التفكير في صورة هذا الكائن المخيف الذي يكاد يحملها على الصراخ بأعلى صوت علها تجد من ينقذها منه.

وأدارت أمي وجهها ثانية، ومضت تنظر إلى أخيها الصغير الملقى إلى جوارها بين الحياة والموت، وأحسّت بحرارة شديدة تخترق صدرها وحرارة أشد تكتم على حنجرتها. وفجأة اكتشفت بعضًا من نبات عيش الغراب الأبيض ينمو داخل الفجوات التي تتخلل جانبًا من سور البئر. فأحسّت أن قلبها يدق دقات سريعة من شدة الفرح، فمدّت يدها

بحذر شديد إلى داخل تلك الفجوات والتقطت نباتات عيش الغراب، وما إن رأت بعينها هذا الشيء الصالح للأكل حتى شعرت بألم في معدتها، وأخذت بأول نبتة من عيش الغراب وألقت بها في فمها حتى ابتلعته بسرعة شديدة، وأحسّت بأنها حلوة المذاق، وأنها كانت مُغرية لها كثيرًا. فأخذت بالنبتة الثانية وألقت بها داخل فمها. وهنا سمعت صوت أخيها المسكين. فراحت تواسي نفسها: «من المفروض أن أبدأ بإطعامك بهاتين النبتتين من عيش الغراب، ولكنني خشيت أن تكون هذه النباتات مسمومة، ففكرتُ أن أجربها بنفسي، أليس كذلك؟ نعم إنه كذلك.» فأخذت نبتة وألقت بها في جوف أخيها، فراح الصغير المسكين يمضغها بشدة وهو ينظر إلى أمي بعينيه المتعبتين. فراح تشجعه قائلة: «يا أخي أن تز، فلنأكل هذا الطعام الجيد الذي استطاعت أختك أن توفره لك.» وراحتمسك ببعض عيش الغراب وتلوح به أمام عينيه. بينما كان خالي يحرك وجنتيه وكأنه يستمر في مضغ الطعام الذي ألقت به داخل فمه. وهنا تشجعتُ أمي وألقت بنبتة جديدة في فمه، فسمعت صوت سعاله، ثم إذا به يقذف الطعام إلى خارج فمه ثانيةً. ورأت شفثيه وقد تشققنا، ثم ألقى بنفسه أعلى بعض قطع الطوب غير المستوية جثة هامدة لا تكاد تكون قادرة على التقاط الأنفاس.

وهكذا انتهت أمي في عجالة من أكل ما يزيد على عشر نباتات من عيش الغراب، حتى عادت إليها الروح ثانيةً بعد أن كانت منهكة تمامًا من شدة الجوع والعطش، ثم بدأت بطنها تصدر بعض الأصوات التي غابت عنها منذ دخول البئر. ونزل من جسمها أكبر كمية وآخر كمية من العرق منذ النزول إلى بطن البئر، وأحست بأن ملابسها الخفيفة مبللة. ثم أحست بأن ركبتيها أصبحتا مخدرتين لا تقويان على الحركة، وبدأت جميع أطرافها ترتعش، وقد سرت برودة البئر في جسدها كاملًا. وهنا سقطت أمي إلى جوار أخيها الصغير، وأصيبت بالإغماء للمرة الأولى في ظهر اليوم الثاني لنزولها البئر.

أفاقت أمي عند غروب شمس اليوم الثاني. رأت حمرة شمس الغروب من خلال جدار البئر من الناحية الشرقية. حيث حجب الرافعة القديمة ضوء الشمس، لتكشف عن شعور متناقض. وكانت تسمع باستمرار أصوات طنين النحل يرن في أذنيها، يخالطه صوت وقع أقدام بشرية أعلى سطح البئر، كانت لا تعرف إذا ما كان هذا الصوت صوتًا حقيقيًا أم من وحي خيالها، وقد أصبحت الآن منهكة القوى غير قادرة على الصراخ والصياح، أرهقها الشعور بالعطش الشديد، حتى إنها كانت عاجزة عن أن تأخذ نفسًا عميقًا، وكانت تتألم كثيرًا من ذلك. بينما كان خالي الصغير مُلقًى هناك أعلى كومة الطوب،

حتى كاد أن يتحول تدريجياً إلى ورقة من أوراق أعواد الذرة الذابلة، وما إن رأت أُمي هيئته وعينيه الغائرتين، عرفت أن شبح الموت قد بدأ يقترب من بطن البئر. مَضتِ الليلة الثانية في بطن البئر بسرعة شديدة، قَضتْ أُمي الليلة في حالة غير مستقرة. كانت قد حلمت أكثر من مرة أن لها جناحين وراحت تطير عالية تحوم حول فُوّهة البئر، كان البئر عميقاً جداً. وفي منتصف الليل، كانت قد تيقّظت فترة قصيرة، فراحت تتلمس جسد أخيها البارد جداً، ولم تُعد تجرؤ على التفكير في إمكانية أن يكون أخوها المسكين قد فَارَقَ الحياة، ومَضتْ تُفكّر في أنها قد أصابته حرارة عالية. وانعكس شعاع من الضوء على بطن البئر، ليضيء بقعة المياه الخضراء، وهنا بدا الضفدع وكأنه مثل قطعة من الجواهر الثمينة، لاحظتْ عينيه وجلده يلمعان بشدة تحت أشعة الضوء، بينما بدت المياه المحيطة به جميلة مثل أحجار اليشم الأخضر الجميل. وأحسّت أُمي حينها أنها قد غَيَّرت رأيها في تلك الكائنات، ورأت أنه يمكن أن تتوصل معها إلى اتفاق، فمدت يدها وأخذت حفنة ماء من أسفل الضفدع. ومضتْ تُفكّر في أنها لو سمعت غداً وقع أقدام أعلى سطح البئر، فإنها بالتأكيد ستقوم بإلقاء قطعة حجر إلى أعلى سطح البئر، حتى ولو كان هذا الصوت صوت وقع أقدام جنود يابانيين أو من الجنود التابعين للإمبراطور، فإنها بالتأكيد ستقدم على ذلك لكي تلفت انتباههم إليها داخل بطن البئر.

وظلعت شمس صباح اليوم التالي، كانت أُمي قادرة على تمييز جميع الكائنات والأشياء الدقيقة في بطن البئر، وقد تحول هذا المكان جلياً أمام عينيهما. واستغلت تلك الحيوية التي كانت تَتَمَتَّعُ بها في فترة الصباح، واقتلعتْ بعض الطحالب ووضعتها في فمها، كانت رائحة الطحالب غريبة بعض الشيء إلا أنها كانت لذيدة. ولكنها لم تتمكن من بلعها حيث كان حلقها قد جفَّ تماماً من شدة العطش، فوجّهتْ نظرها إلى بركة المياه القذرة في بطن البئر، وهنا عاد الضفدع إلى هيئته الأولى وراح يرمقها بنظراته الشريرة. فلم تستطع أن تتحمل نظراته الشريرة المخيفة، فأشاحت عنه بوجهها وانخرطت في البكاء.

وفي وقت الظهيرة استمعتْ إلى وقع أقدام حقيقية أعلى سطح البئر، بل استمعتْ إلى صوت حوار بين أشخاص قريبين منها، عندها شعرت بسعادة بالغة حتى كادت تطير من شدة الفرحة، وحاولت أن تصيح بأعلى صوتها، ولكن يبدو أن أحداً كتم صوتها فلم تستطع تنفيذ رغبتها في الصياح والتعبير عن سعادتها. وأمسكت بقطعة طوب لكي تقذف بها إلى أعلى سطح البئر، ولكن ما إن رفعتها إلى أعلى حتى سقطت قطعة الطوب من يدها. لقد ضاعت الفرصة، انتبهت إلى أن الصوت الذي سمعته أعلى سطح البئر قد

ابتعد عنها كثيراً. فجلست إلى جوار أخيها المسكين وقد لفها حزنٌ شديدٌ من ضياع هذه الفرصة، وراحت تنظر إلى وجهه الشاحب، حتى عرفت أنه قد فارق الحياة. فوضعت يدها على وجهه البارد، فأحسّت على الفور بشيء من الاشمئزاز، نعم لقد باعد الموت بينها وبين أخيها الوحيد، والضوء الذي ينعكس من عينيه شبه المُغلّقة قد أصبح يُعبّر عن عالمٍ آخر غير هذا العالم الذي تنتمي إليه.

وهكذا قضت تلك الليلة في رعبٍ شديدٍ. شعرت بأنها ترى أفعى سوداء كبيرة الحجم مثل المعول، انعكست ظلمة البئر وبرودته على تلك الحية، شعرت أكثر من مرة أن الحية تتسلق جسدها النحيف وترمي إليها من فمها برسالة حمراء، وتنفث تجاهها نسمات باردة.

كانت أمي قد شعرت بعد ذلك أن الحية بدأت تتسلق جدران البئر، وراحت تُحدّق فيها. أغمضت أمي عينيها وراحت تتراجع إلى الخلف مُبتعدة عن الحية، ولم تُعد بعدها تفكر أدنى تفكير في الشراب من تلك المياه القذرة.

٤

أما الأشخاص الستّة الذين كانوا قد نجوا من تلك الكارثة الكبيرة بمن فيهم أبي والعم وانغ قوانغ (كان حينها شاباً في الخامسة عشرة من عمره، ذا قامة قصيرة ووجه أسمر)، والعم ده جه (شاب في الرابعة عشرة من عمره، طويل نحيف ذو بشرة صفراء وعينين صفراوين)، والجد قوو يانغ (رجل فوق الأربعين، أعرج يستند على عكازين خشبيين)، والرجل الضرير (شخص مجهول الاسم والعمر، كان يحتضن عوداً قديماً متهالكاً)، والجد ليو (رجل فوق الأربعين ذو بنية قوية وقامة عالية، وكان يظهر ورم ما في قدميه)، نقول إن هؤلاء الأشخاص الستة فيما عدا الرجل الضرير راحوا ينظرون إلى جدّي نظرات حمقاء. كانوا قد وقفوا أعلى السور الترابي وقد انعكست على وجوههم شمس الصباح. وكانت المنطقة المحيطة بالسور قد بدت ممتلئة بجثث المقاومين الشجعان والمهاجمين من أبناء القرية الذين كانوا قد انقضوا لمهاجمة العدو بطريقة جنونية. أما الخندق الممتلئ بالمياه خارج السور الترابي، فقد ظهرت به عشرات الجثث وبعض من الخيول اليابانية التي سقطت خلال المعركة. كانت القرية قد امتلأت بآثار الدمار والخراب في جميع أرجائها، أما خارج حدود القرية فقد كانت تمتد حقول الذرة التي تم تدميرها بشكل فوضوي خلال المعركة، كانت الرائحة الأساسية التي ملأت جميع الأرجاء في ذلك اليوم

هي رائحة الدم والأشياء المحترقة، بينما كان اللون الأسود والأحمر هما اللونان الأكثر انتشارًا في ذلك اليوم، وقد عمَّ الجميع شعور بالحزن والأسى.

بدتْ عيناَ جَدِّي محمَّرةً، وشَعْرُ رأسه بدا وكأنه قد شاب عن آخره، يسير مُنحني الظَّهر واضعًا يديه المتورمتين على ركبتيه.

وراح جَدِّي ينادي في الجمع بصوت مُتَحَشِّجٍ: «أيها الأهالي ... لقد تَسَبَّبْتُ لجميع أهل القرية في هذه الكارثة.»

فتنهذ الأهالي في صوت واحد، حتى الجد الضرير بدت عيناه وكأنها توشك أن تذرف الدموع.

تقدم الأعرج مرتكزًا على عكازيه كاشفًا عن أسنانه السوداء وسأل جدي: «ما العمل أيها القائد يو؟»

وسأل العم وانغ قوانغ: «أيها القائد يو، هل سيأتي الشياطين اليابانيون؟» قال الجد ليو بصوت يخالجه البكاء: «أيها القائد يو، فلتقودنا للفرار والنجاة من هذه الكارثة.»

فقال الضرير: «الفرار؟ وإلى أين ستفرون؟ فلتفروا أنتم، أما أنا فسأبقى في هذا المكان حيًّا أو ميتًا.»

وجلس الرجل الضرير على الأرض وهو يحتضن العود القديم، وراح يعزف عليه، بينما كان فمه يبدو ملتويًا ورأسه لا تتوقف عن الحركة مثل طبلية البائع المتجول.

قال جدي: «أيها الإخوة، لا يمكننا الفرار، فكيف نفر الآن وقد مات هذا العدد الكبير من الرفاق، اليابانيون سيأتون مرة ثانية، ولنستغل هذه الفرصة قبل مجيئهم ونتقدم للحصول على الأسلحة التي هي في حوزة القتلى، ولنخض أمام الشياطين اليابانيين معركة حياة أو موت.»

فتفرق أبي ومن معه من الرجال إلى الحقول المجاورة، وراحوا يفتكون الأسلحة التي كانت بحوزة الجثث الملقاة في عرض حقول الذُّرة، ثم عادوا إلى السور الترابي، كما كان الأعرج قوو يانغ والجد ليو الذي يظهر التورم على قدميه يبحثان عن الأسلحة في المنطقة القريبة من جدي، وكان الرجل الضرير يجلس إلى جوار البنادق يتحسس الأصوات المحيطة وكأنه من أفراد جنود الإشارة.

وهكذا تجمع الأهالي بعد ذلك أعلى السور الترابي وراحوا ينظرون إلى جَدِّي وهو يحصي الأسلحة التي نجحوا في جمعها، كانت معركة الأمس قد استمرت حتى المساء، ومن ثمَّ فلم يتمكن الشياطين من تنظيف ساحة المعركة، وكان هذا بلا شك في صالح جدي.

نجح جدِّي ومن معه من الرجال في جمع سبعة عشر مسدسًا من طراز سانباتي الياباني الصنع، وأربع وثلاثين قنبلة من القنابل المُغلَّفة بالجلد، وألف وسبع طلقات نارية، ونجحوا أيضًا في جمع أربعة وعشرين رشاشًا صينية الصنع تقليد ماركة رشاشات ٧٩ التشيكية، وأربع وعشرين خزنة طلقات نارية، وأربعمئة واثنيتي عشرة طلقة من طلقات رشاشات ٧٩ التشيكي، كما تمكَّنوا من الحصول على سبع وخمسين قذيفة يدوية يابانية الصنع، وثلاث وأربعين قذيفة يدوية صينية الصنع. مدفع مربع صنع ياباني وتسع وثلاثين طلقة نارية، وبندقية طراز FN M1910 7.65mm الآلية وسبع طلقات نارية، وتسعة من الخناجر اليابانية؛ وسبع من البنادق القصيرة اليابانية وما يزيد على مائتي طلقة نارية.

وبعد أن انتهى جدِّي من حصر الغنائم من الأسلحة، كان هو والجد قوو يانغ قد طلبًا بعض التبغ، وراحا يشربان لفافات التبغ وهما جالسان أعلى السور الترابي.

قال أبي: «أبتاه، هل بإمكاننا أن نقود جيشًا جديدًا؟!»

نظر جدِّي إلى ذلك التل من الأسلحة والذخيرة، والتزم الصمت التام، وبعد أن انتهى من سيجارته، ردَّ على أبي قائلاً: «ابني العزيز، فلتختر، وليختر كلُّ منَّا سلاحًا من بين هذه الكمية التي جمعناها.» ثم قام هو نفسه بحمل المدفع المربع ذي الغلاف المصنوع من الجلد، ومسدس من طراز سانباتي الياباني الصنع، أما أبي فقد استطاع أن يخطف بندقية طراز FN M1910 7.65mm، بينما حصل كل من العم وانغ قوانغ والعم ده جه على بندقية من البنادق اليابانية القصيرة.

قال جدي: «فلتسلم البندقية طراز FN M1910 7.65mm للعم قوو يانغ، هذا النوع من السلاح ليس من السهل استخدامه أثناء المعركة، ولتحمل بندقية من البنادق اليابانية القصيرة.»

فقال العم قوو يانغ: «فلنستخدم بندقية كبيرة، ولنترك البندقية طراز FN M1910 7.65mm للضير.»

فقال جدي: «وأنتِ أيتها الأخت، فلتساعدينا في تجهيز شيء من الطعام، فلقد اقترب موعد عودة الشياطين.»

فتقدم أبي واختار بندقية يابانية الصنع وراح يتدرَّب على استخدامها.

خاطبه جدِّي محذراً إيَّاه: «احترس من أن تخرج الطلقات النارية عن غير قصد.»

فقال أبي: «لا عليك يا أبي، فأنا أتقن استخدامها جيدًا.»

وقال الرجل الضرير بصوت خفيض: «أيها القائد يو، لقد جاءوا، لقد جاء الشياطين.»
فقال جدي: «فلتنزلوا سريعاً إلى أسفل السور.»

انبطح الجميع أسفل السور الترابي، وراحوا يُحدِّقون النظر في حقول الذُّرَّة الممتدة خارج الخندق، بينما جلس الضرير إلى جانب كومة الأسلحة يعزف على عوده.

فصاح جَدِّي مخاطباً الضرير: «ولتنزل أنت أيضاً إلى أسفل السور.»

بدا الحزن الشديد على وجه الضرير، ولاحظ الجميع فمه يتحرَّك بسرعة وكأنه يَمضغ شيئاً ما، وسمعوا صوت لحن متكرر يصدر عن عوده القديم المتهالك.

ولم يكن هناك ظل أي إنسان خارج الخندق، رأوا مئات الكلاب خرجت من عدة

اتجاهات تنقض على الجثث الملقاة داخل حقول الذُّرَّة، كانت الكلاب تفر مسرعة إلى مكان الجثث، رأوا كلاباً ذات ألوان مختلفة تفر في جماعات، وكانت كلاب عائلتي الثلاثة هي

التي تَصَدَّرت جماعة الكلاب الفارَّة نحو حقول الذُّرَّة.

لم يستطع أبي المتحمس الصبر، فأطلق طلقة من بندقيته نحو جماعة الكلاب طارت

الرصاصة عالية في السماء حتى سقطت بعيداً داخل حقول الذُّرَّة الممتدة أمامه.

نظر كل من العم وانغ قوانغ وده جه اللذان كانت هذه أول مرة يحملان فيها السلاح

إلى أعواد الذُّرَّة التي تتحرك أمام أعينهما، ثم قاما بإطلاق الرصاص من سلاحهما، كانت الطلقات التي خرجت طلقات عشوائية منها ما طار بعيداً في عنان السماء، ومنها ما

سقط على الأرض على بضع خطوات منهما.

فقال جَدِّي غاضباً: «لا تطلقوا الرصاص! فهل لدينا القدر الكافي لكي نعبث به

هكذا؟!»، ثم رفع جَدِّي إحدى قدميه وركل بها أبي.

بدأت الحركة داخل حقول الذُّرَّة تهدأ شيئاً فشيئاً. وسمع الجميع صوتاً جهورياً

يصيح: «لا تطلقوا النيران، لا تسيئوا الفهم، إلى أي فصيلة تنتمون.»

فصاح جدي: «إننا من فصيلة أجدادك، أيتها الكلاب الصفراء.»

ثم صَوَّب جَدِّي بندقيته تجاه مصدر الصوت، وأطلق طلقة مدوية.

فسمع ذلك الصوت الجهوري يصيح ثانية: «أيها الرفيق، لا تُسَيِّ فهمي، إننا من

فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن، إحدى الفرق المقاومة للشياطين اليابانيين، أرجو

أن تتفضلوا بالرد، إلى أي فصيلة تنتمون؟!»

قال جدي: «تباً لكم من جيش، تباً لكم من جماعة تعرف الخداع!»

ثم قام جَدِّي بقيادة بعض من جنوده ووقفوا أعلى السور الترابي.

وعندها خرجت جماعة تزيد على ثمانين فردًا من فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن، خرجوا من داخل حقول الذُّرة الممتدة حول السور الترابي، وقد بدؤا في ثياب بالية وذوي وجوه شاحبة، وكأنهم مثل الحيوانات البرية المخيفة، وظهر معظمهم عُزلاً من أي سلاح، كانوا يلفون حولهم بعض القذائف اليدوية، بينما كانت المجموعة التي تتصدَّرهم يحمل كل منهم بندقية ماركة ماوزر الألمانية، وكان هناك أيضاً من يحمل بنادق محلية الصنع.

كان أبي قد رأى هذه الجماعة من الجيش الثامن بعد ظهر أمس، حيث كانوا مُستخفين داخل حقول الذُّرة، وأطلقوا النيران تجاه القوات اليابانية التي كانت تجتاح القرية.

وتقدَّمت قوات الجيش الثامن حتى أعلى السور الترابي، وراح يصيح رجل طويل القامة كان في مقدمة الفريق قائلاً: «فليتقدم أحد أعضاء الفريق لتولي مهام المراقبة، وليمكنك الآخرون في أماكنهم للراحة.»

جلست قوات الجيش الثامن أعلى السور الترابي، وتقدَّم شاب وسيم ووقف في المقدمة، ثم أخرج من حقيبة معلقة على ظهره قصاصة ورقية صفراء اللون، وراح ينفضها على نراعه، وبدأ يشدو بهذا اللحن: الرياح تصفر، والشاب الوسيم يتغنى، الرياح الرياح الخيول تصهل - والنهر الأصفر، يزأر النهر الأصفر يزأر - النهر الأصفر يزأر النهر الأصفر يزأر - نضجت الذُّرة الرفيعة على ضفتي النهر الجنوبية والشمالية - نضجت الذُّرة الرفيعة على ضفتي النهر الأصفر - وارتفعت معنويات الأبطال لمقاومة المعتدي الياباني - ارتفعت معنويات الأبطال لمقاومة المعتدي الياباني - وحملوا البنادق والمدافع محلية الصنع - حملوا البنادق والمدافع محلية الصنع - ولوحوا بالخناجر الكبيرة - لوحوا بالخناجر - لحماية بلدتهم وحماية منطقة شمال الصين وحماية الصين قاطبة. فراح أبي ينظر بإعجاب شديد إلى تعبيرات وجه ذلك الشاب من الجيش الثامن وقد بدأ وجهه شاحبًا، وراح يستمع إلى نشيد الجيش الثامن، حتى بدأت حنجرته تُحاكي النشيد، ومضى يتذكر الشاب الوسيم الذي يتولى مهام نائب القائد في فرقة جدي، والذي كان يستطيع أيضاً أن يلوح بيده ويتغنى بالأناشيد الحماسية.

تقدَّم أبي وكل من العم وانغ قوانغ والعم ده جه حاملين أسلحتهم، ووقفوا ينظرون إلى قوات الجيش الثامن وهم يتغنون بالأناشيد الحماسية، بينما وقفت قوات الجيش

الثامن تنتظر إليهم وهم يغبطونهم على البنادق اليابانية حديثة الصنع، التي يمسكون بها في أيديهم.

وكان قائد فرقة جياو قاو التابعة للجيش الثامن يُلقَّب بالقائد جيانغ، كان رجلاً ذا قامة كبيرة وقدمين صغيرتين، يُلقَّبونه فيما بينهم «جيانغ صاحب القدمين الصغيرتين»، وقد جاء القائد جيانغ أمام جدِّي وهو يقود شاباً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره.

كان القائد يو يُعلِّق حول خصره مسدس ماوزر، ويرتدي قبعة من القماش رمادية، يظهر أعلاها زوج من العراوي السوداء، وكان يَتَمَتَّعُ بأسنان ناصعة البياض، يتحدث بلهجة بكينية جيدة إلى حد ما، قال مخاطباً جدي: «أيها القائد يو، يا لك من بطل! لقد شاهدنا المعركة البطولية التي خُصَّتها أمس أمام القوات اليابانية والقوات الموالية للإمبراطور.»

ومد القائد جيانغ يده إلى جدي، بينما اكتفى جدِّي بالنظر إليه ببرود، ثم أصدر صوتاً من أنفه.

فسحب القائد يو يده ثانيةً وقد شعر بشيء من الحرج، وقال مبتسماً: «لقد قَدِمْتُ للتفاوض معكم بتفويض من المبعوث الخاص للحزب الشيوعي الصيني لمنطقة بين خاي؛ حيث عبَّر السيد المبعوث الخاص للحزب الشيوعي الصيني لمنطقة بين خاي عن عميق إعجابه بالروح البطولية والتضحية، التي قدمتموها خلال المعركة الطاحنة التي خُصِّمْتُوها أمام المعتدي الياباني من أجل تحرير البلاد، أعطى السيد المبعوث الخاص للحزب توجيهاته لفرقتنا ببدء التعاون معكم أيها القائد يو، وذلك حتى نتمكن معاً من مقاومة المعتدي الياباني، ونؤسس حكومة ديموقراطية متحدة.»

رد جدِّي قائلاً: «اللجنة عليكم جميعاً، إنني لا أثق فيكم أبداً، تقولون الاتحاد والاتحاد، فلماذا لم تتحدوا معنا خلال ضرب سيارات القوَّات اليابانية؟ ولماذا لم تظهروا وتتحدوا معنا عندما حاصر الشياطين اليابانيون قريتنا؟ لقد انهارت قواتي خلال هاتين المعركتين، وسالت دماء جماهير العامة من أهل هذه البلدة، وتأتون الآن لتحذثوني عن الاتحاد!»

ركل جدِّي غاضباً رشاشاً بقدمه ناحية الخندق، بينما كان الرجل الضريع لا يزال هنالك يعبث بعوده مصدراً صوتاً أشبه ما يكون بتساقط قطرات المياه من أعلى المساكن عقب انتهاء نزول الأمطار داخل برميل مياه معدني.

وهكذا تعرض القائد جيانغ من قوات الجيش الثامن التابع للحزب الشيوعي الصيني للسب المقذع من قبل جدي، غير أنه ظل يخاطبه بكل احترام قائلاً: «أيها القائد يو لا

تخب الآمال التي وضعها حزبنا عليكم، ولا تقلل من شأن قوة الجيش الثامن، فمنطقة بين خاي كانت على الدوام تحت حكم الحزب الوطني، وقد بدأ حزبنا العمل منذ وقت قريب، ولم تتعرف جماهير الشعب العريضة على حزبنا جيداً حتى الآن، غير أننا نرى أن هذا الوضع لن يستمر طويلاً؛ حيث حدد لنا زعيمنا السيد ماو تسي تونغ الاتجاه الذي سنسير فيه منذ بداية العمل تحت راية الحزب الشيوعي، أيها القائد يو، دعني أنصحك نصيحة صديق، إن المستقبل في الصين سيكون للحزب الشيوعي الصيني، وإن جيشنا هو خير من يُقدَّر الشُّجعان ويُقدَّر مَنْ يتعاون معه، وإننا لن نخدع أحداً أبداً، وإن حزبنا على دراية تامة بالخلاف الذي نشأ بين قواتكم وقوات القائد لينغ، وإننا نعتقد أن القائد لينغ مخطئ تماماً، وأن تصرفه تصرف غير أخلاقي تماماً، وأن توزيع الغنائم التي تحصلتم عليها معاً لم يكن توزيعاً عادلاً، وثق تماماً أن الجيش الثامن لن يتسبب أبداً في الضرر لأصدقائه الذي سيتعاونون معه، وبالطبع فإن تسليمنا في الوقت الراهن ليس على ما يرام، ولكن قوتنا سوف تتعاضم بالتأكيد خلال الفترة المقبلة، وإننا نعمل بكل إخلاص من أجل مصلحة جماهير الشعب، ونقاتل الشياطين اليابانيين قتالاً حقيقياً من أجل هذا الوطن، أيها القائد يو، لقد رأيت بنفسك أننا وقفنا أمام المعتدي الياباني طوال يوم أمس معتمدين على تلك المجموعة من الأسلحة المتهالكة، ولقد استشهد من قواتنا ستة رفاق فقط، أما تلك القوات التي كانت تمتلك كمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة خلال معركة نهر موا شوى، والتي كانت في موقف المتفرجين، فإنهم هم المسئول الأول عن تلك المذبحة الكبرى التي تعرض لها الأهالي، وهل تخفى عليكم حقيقة المقارنة بين الفصيلين؟»

رد جدي قائلاً: «فلتدخل في الأمر مباشرة، ولتفصح عن قصدك، وماذا تريدون أن أقدم لكم؟»

أجاب القائد جيانغ: «إننا نأمل أن ينضم القائد يو للجيش الثامن، وأن نتوحد معاً لمقاومة العدو تحت قيادة الحزب الشيوعي.»

ضحك جدي ببرود قائلاً: «تريدني أن أعمل تحت قيادتكم؟!»

فقال القائد يو: «يمكنك أن تشارك في قيادة فريق جياو قاو.»

– «وما المنصب الذي سأنتقله في هذا الفريق؟»

– «نائب القائد العام.»

– «تقصد أنني سأعمل تحت قيادتك؟»

– «إننا جميعاً نعمل تحت قيادة المبعوث الخاص للحزب الشيوعي لمنطقة بين خاي، وجميعنا يعمل تحت قيادة الزعيم الرفيق ماو تسي تونغ.»

- «ماو تسي تونغ؟ إنني لا أعرفه! وإنني لن أعمل تحت قيادة أي إنسان على ظهر الأرض.»

- «أيها القائد يو، هناك مقولة تقول: «إن البطل الحقيقي هو من يكون على دراية بالأوضاع المحيطة به، وأن الإنسان النبيه هو من يُحسِّن اختيار القائد الذي يساعده في الكشف عن مواهبه وقدراته»، والرفيق ماو تسي تونغ هو البطل الأكبر على الساحة حاليًا، وعليك ألا تضيع هذه الفرصة!»

رد جَدِّي قائلًا: «هل انتهيت من حديثك؟»

فابتسم القائد جيانغ ابتسامة صريحة ثم قال: «أيها القائد يو، هكذا لم أُخَفْ عليك أي شيء. ولتنتظر إلى فرقتنا التي لا يزال لديها الرجال، ولكن ينقصنا العتاد، والأسلحة والذخيرة.»

فقال جدي: «مستحيل ذلك الذي تفكر فيه!»

- «فلنستعرها مؤقتًا، وسنعيدها لك كاملة عندما تجهز فريقك الجديد.»

- «تبًّا لك، تحسبني أنا القائد الشجاع يو جان أو طفلًا في الثالثة من عمره؟»

- «لقد أخطأت فهمي أيها القائد يو. إننا جميعًا مسئولون عن ازدهار البلاد وانهارها، ويجب أن يقدم كل منا ما بحوزته لأجل الوقوف أمام المعتدي الياباني وإنقاذ البلاد من شروره، سواء أفرادًا أو سلاحًا، وإذا جعلت هذه الأسلحة تبقى هنا إلى جوارك دون أن يستخدمها أحد لصد الغزو الياباني عن البلاد، فإنك ستكون قد أجمرت في حق هذه الأمة.»

- «فلتسكت عن هذا الهراء، إذ إنني لن أسمع لهذا الهراء. وإذا كانت لديكم القوة فلتذهب للحصول على السلاح من أيدي اليابانيين.»

- «لقد شاركت فرقتنا في المعركة التي دارت بالأمس.»

فضحك جَدِّي ببرود قائلًا: «وكم عدد المدافع التي أطلقتموها؟»

- «لقد أطلقنا الطلقات النارية والقذائف اليدوية، ولقد ضحينا بستة رفاق من

قواتنا! ويجب أن نحصل على الأقل على نصف الأسلحة التي جمعتموها.»

- «لقد تم إبادة جميع أفراد فرقتي عند مدخل جسر نهر موا شوى، ولم أحصل إلا

على رشاش قديم متهالك!»

- «إنك تقصد قوات الحزب الوطني.»

- «ألن تفعل قوات حزبكم الشيوعي الأمر نفسه، إذا ما رأت الأسلحة؟ من الآن

فصاعدًا لن يقدر أحد على خداعي ثانية.»

– «أيها القائد يو، يجب أن تفكر جيداً! لقد قدمنا كل ما يمكن تقديمه!»
«ماذا تقصد؟ وهل تنوي أن تقا تلني؟» ثم وضع جَدِّي يده على مسدسه الماوزر.
فحوَّل القائد جيانغ غضبه إلى ابتسامة رقيقة قائلاً: «أيها القائد يو، لا تسيء فهمي،
إن الجيش الثامن لن يقدم أبداً على خطف اللقمة من فم أصدقائه، فإذا لم نتوصل إلى
اتفاق بيننا، فستبقى الصداقة قائمة.»

ثم تقدم القائد جيانغ أمام الفريق وقال: «نظفوا ساحة المعركة، وادفنوا جثث
الأهالي، وانتبهوا إلى جمع فوارغ الطلقات النارية.»

تفرَّق أفراد فرقة القائد جيانغ إلى داخل حقول الذُّرَّة لتنفيذ أوامره. وخلال قيامهم
بدفن جثث القتلى، وقعت معركة حامية بين جماعة الكلاب وبين الأفراد الأحياء، الذين
كانوا يقومون بدفن الجثث، ممَّا أدى إلى تمزيق عدد كبير من الجثث.

فقال القائد جيانغ: «أيها القائد يو، إننا نواجه مأزقاً صعباً للغاية، إننا لا نملك
السلاح ولا الذخيرة، ولقد قمنا بجمع فوارغ الطلقات النارية وسنرسلها لمصنع حربي
لاستبدالها برصاص حي، وإن هناك خمساً من بين كل عشر طلقات هي عبارة عن
طلقات غير صالحة للاستخدام. ولقد خَدَعنا الحزب الوطني، وهكذا فعلت القوات المُعاونة
للإمبراطور، أيها القائد يو، مَهَمَّا يكن فإن عليك أن تجعل لنا جزءاً من هذه الكمية من
الأسلحة والذخيرة، ويجب ألا تحتقر قوة الجيش الثامن وقدرته.»

فراح جَدِّي ينظر إلى أفراد الجيش الثامن الذين كانوا منشغلين بحمل الجثث داخل
حقول الذُّرَّة، ثم قال: «سنجعل لكم الخناجر والبنادق قطر ٩,٧ والقذائف اليدوية.»
فأمسك القائد جيانغ بيدي جَدِّي وقال بصوت مرتفع: «أيها القائد يو، ما أحسنك
من صديق حميم! ... أما القذائف اليدوية فإننا يمكننا أن نصنعها بأيدينا، وأرى أننا
لسنا في حاجة لهذه القذائف اليدوية، ولتعطنا بعضاً من بنادق سانباتي اليابانية.»

فرد عليه جَدِّي قائلاً: «لا يمكن.»

– «نريد خمس بنادق فقط.»

– «لا يمكن!»

– «فلتعطنا ثلاث بنادق فقط، ثلاثاً فقط.»

– «لا يمكن!»

– «إذاً فلتعطنا اثنتين فقط، أرى أن هذا العدد ممكن.»

فقال جدي: «اللعنة، اللعنة عليك أيها القائد من الجيش الثامن، إنك تبدو مثل باعة
البهائم المولعين بالمساومة.»

– «فلتتقدم مجموعة من السرية رقم ١ لحمل بعض البنادق.»

فقال جدي: «مهلاً، تَوَقَّفُوا بعيداً!»

وهنا قام جَدِّي بعزل ٢٤ بندقية صينية الصنع، تقليد البنادق التشيكية، وعدد من الطلقات النارية، وبعد تَرُدُّ قليل، قام بإضافة بندقية طراز سانباتي اليابانية.

قال جدي: «يكفيكم هذا، ولن أعطيكم أي عدد من الخناجر.»

فرد القائد جيانغ: «أيها القائد يو، لقد قلتَ بنفسك إنك ستعطينا بندقيتين من بنادق سانباتي اليابانية.»

فرماه جَدِّي بنظرة حادَّة ثم قال: «إذا واصلت استفزازي هكذا فلن تنالوا شيئاً من هذه البنادق.»

فلوح القائد جيانغ بيديه قائلاً: «حسناً حسناً حسناً، لا تغضب، لا تغضب أيها القائد.»

وهنا سمع جَدِّي صوت ضحك هؤلاء الجنود من الجيش الثامن، الذين تَقَدَّموا لحمل البنادق. كان أفراد فريق «جياو قاو» التابع للجيش الثامن قد عثروا خلال عملية تمشيط أرض المعركة على عدد من الرشاشات، بالإضافة إلى المسدس الماوزر الذي رماه جَدِّي والمسدس البرونينج الذي رماه أبي. بينما كانت جيوب هؤلاء الجنود خالية إلا من بعض الرصاصات الفارغة. وقد تقدم شاب قصير القامة أسمر اللون يحمل بين يديه زوجاً من المدافع وراح يتمتم أمامهم قائلاً: «أيها القائد جيانغ، لقد عثرت على زوج من المدافع.» فقال القائد جيانغ: «أيها الرفاق، فلتعجلوا بدفن الجثث، واستعدوا للانسحاب من هذا المكان، فإن الشياطين اليابانيين من الممكن أن يعودوا لنقل جثث قتلاهم، وإذا تمكنا من قتالهم فعلينا أن نبادر بذلك. وأنت أيها الأرنب الأسمر احمل هذين المدفعين إلى المصنع الحربي للصيانة.»

وعندما تجمع أفراد فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن أعلى السور الترابي واستعدوا للانسحاب تنفيذاً لتوجيهات القائد جيانغ، رأوا ما يزيد على عشرين دراجة قادمة من الطريق الترابي الواقعة في الناحية الشرقية للقرية، كانت الدراجات تضيء أنوارها لتكشف الطريق أمامها. وهنا أصدر القائد جيانغ أوامره بأن يتفرق أعضاء الفريق وينصبوا كميناً على جانبي السور الترابي. وتقدم هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يقودون الدراجات إلى السور الترابي حتى بلغوا مكان جدي. كانوا يرتدون زيّاً عسكرياً رمادي اللون، ويلبسون أحذية من القماش، ويضعون فوق رؤوسهم قبعات مربعة الشكل مرصعة في مقدمتها علامة شمس بيضاء اللون مثل الترس.

كانت هذه المجموعة من أفراد فريق القائد لينغ، كان جميع الأفراد الذين أتوا على ظهر تلك الدراجات يحملون البنادق القصيرة، من الماهرين في استخدامها. ويقال إن القائد لينغ ماتزه يَتَمَتَّعُ بمهارة عالية جداً في ركوب الدراجات، حتى إنه يمكنه أن يسير بالدراجة لمسافة طويلة على قضيب حديدي.

وهنا صاح القائد جيانغ صيحة خرج على إثرها جميع أفراد فريق جياو قاو من مخبئهم، واصطفوا واقفين خلف جدي.

فانشغل أفراد فريق القائد لينغ ماتزه بالنزول عن دراجاتهم، وتقدّموا يدفعون دراجاتهم حتى وقفوا أعلى السور الترابي. ثم تقدم القائد لينغ ماتزه وحوله عدد من الأفراد الذين يحملون البنادق القصيرة.

وما إن رأى جدي القائد لينغ ماتزه حتى مد يده بسرعة ليستل مسدسه.

فصاح القائد جيانغ من الخلف منبهاً جدي: «أيها القائد يو، الهدوء، الهدوء.»

فابتسم القائد لينغ ماتزه ابتسامة عريضة ثم مد يده ليصافح القائد جيانغ، حتى إنه لم يخلع عن يده القفاز الذي كان يرتديه. وابتسم أيضاً القائد جيانغ ابتسامة عريضة. وبعد أن مد يده وصافح القائد لينغ ماتزه، مد يده إلى وسطه وأخرج حشرة صغيرة وألقى بها داخل الخندق.

قال القائد لينغ ماتزه: «إن جيشكم الموقر يتمتع بمصادر ممتازة وواسعة.»

فرد القائد جيانغ: «إن أعضاء فرقتي يُرابضون هنا من بعد ظهر أمس لمراقبة

جيش العدو.»

فسأله القائد لينغ ماتزه: «وهل أنتم متأكدون من أنكم ستحققون نتائج مبهرة في

هذه المعركة؟»

فقال القائد جيانغ: «لقد استطعنا بالتعاون مع القائد يو قتل ستة وعشرين جندياً

من الجنود اليابانيين، وستة وعشرين جندياً آخرين من الخونة، وتسعة من الخيول. ولا

نعرف أين كان أفراد فريقكم الموقر بالأمس؟»

– «لقد أشعلنا التوتر الكبير أمس في مدينة بينغ دو، وأجبرنا قوات الشياطين على

الانسحاب بسرعة، وأرى أننا قد أنقذناكم أيها القائد جيانغ؟»

هنا تدخّل جدي وأخذ يسب القائد لينغ ماتزه قائلاً: «اللعنة على أمك يا لينغ ماتزه،

انظر جيداً إليّ: من الذي أنقذ الآخر! أسأل جميع أهالي القرية والموجودين جميعهم في هذا

المكان!»

وأشار جدي إلى الضرير والأعرج اللذين كانا واقفين أعلى السور الترابي.

فاحمر وجه القائد لينغ ماتزه، ثم قال: «إننا قدّمنا تضحيات عظيمة بالأمس خلال المعركة الحامية التي دارت في مدينة بينغ دو، وإننا نشعر براحة الضمير تجاه ما قدّمنا من تضحيات.»

فقال القائد جيانغ: «طالما أن جيشكم الموقر كان قد عرف أن قوات العدو قد بدأت تهاجم القرية، فلماذا لم تتقدموا لإنقاذ البلدة؟ ولماذا تتخلون عن القريب لصالح البعيد، وتذهبون إلى مدينة بينغ دو البعيدة لإظهار قوتكم؟ وقواتكم قد انسحبت من أرض مدينة بينغ دو، ولا أعرف كيف تصرفتم أيها القائد لينغ في هذه المعركة؟»

فاحمر وجه القائد لينغ ماتزه وأذنه، ثم قال: «إنني لا أنوي أن أخوض معركة كلامية أمامك يا جيانغ! إذ إنني أعرف الغرض من قدومك إلى هنا، وأنت أيضًا تعرف الغرض الذي جئتُ أنا من أجله.»

قال القائد جيانغ: «أيها القائد لينغ ماتزه، أعتقد أن قيامكم بمهاجمة المدينة أمس كان قرارًا خاطئًا. ولو كنتُ أملك حق توجيه قواتكم الموقرة، فإنني حتى إذا لم أتقدم لإنقاذ القرية، كنت سأمر بأن ينصب الأفراد كمينًا داخل المقابر القديمة الممتدة على جانبي الطريق العام. وأن يستعينوا بالرشاشات الثمانية التي حصلت عليها خلال معركة نهر موا شوى، ويتقدموا لقتال الشياطين. فلو اشترك اليابانيون معكم في معركة لمدة يوم كامل، كان ذلك سيؤثر على أفرادهم وخيولهم وذخيرتهم، كما أنهم ليسوا على دراية واسعة بجغرافية المكان، والجو يبدو ملبدًا بالغيوم، وكان باستطاعتكم أن تنقضوا عليهم برشاشاتكم الثمانية، وعندئذٍ فلن يكون أمامهم أي مخرج للنجاة من قبضتكم. وهكذا فإنكم ستكونون أولًا قد قدمتم إنجازًا عظيمًا لصالح هذه الأمة، ثانيًا كنتم ستتمكنون من تحقيق أكبر فائدة لجيشكم الموقر، ويزداد الشرف الذي حققته أيها القائد لينغ خلال معركة نهر موا شوى، فما أجمله من انتصار عظيم! ولكن للأسف، لقد ضاعت هذه الفرصة منك أيها القائد لينغ! ولم تَسعَ لتحقيق الإنجاز العظيم، ولم تَسعَ لتحقيق الفائدة الكبيرة لفريقك، ومكثتُ هنا مع اليتامى والأرامل تبحث عن أبخس الأشياء، وإنني أشعر بالخزي من أجلك أيها القائد لينغ!»

احمرَّ وجه القائد لينغ ماتزه، وقال بصوت يملؤه الخوف: «أنت يا جيانغ ... لقد قلّلت من شأنني ... ولتنتظر حتى أخوض معركة حامية، لترى من أكون.»

فرد القائد جيانغ قائلاً: «ولكنني أعتقد أنك ستكون أذاك تصارع الموت وتطلب المساعدة يا أخي الفاضل.»

فقال القائد لينغ ماتزه: «لن أحتاج لمساعدتك، وسأقاتل بمفردي.»

فقال القائد جيانغ: «عظيم، عظيم!»

وركب القائد لينغ ماتزه دراجته وهمّ أن يتحرك للأمام، وهنا تقدّم جدّي وأمسكه من صدره وقال بغضبٍ شديدٍ: «أنت يا لينغ ماتزه، انتظرُ بعد أن أنتهي من قتال اليابانيين، وسأفرغ لتصفية حسابي معك أيها الوغد!»

فقال القائد لينغ ماتزه: «إنني لا أخشاك!»

وصعد لينغ ماتزه دراجته وفرّ مسرعاً، وتبعه ما يزيد على عشرين فرداً من فريقه، كانوا جميعاً ماهرين جداً في ركوب الدراجات بسرعة فائقة.

وقال القائد جيانغ: «أيها القائد يو، إن الجيش الثامن سيكون صديقك المخلص إلى

الأبد.»

ومد القائد جيانغ يده لجدّي، فمد جدّي يده على مضض وصافحه بسرعة. وشعر

جدّي أن يد القائد جيانغ الكبيرة كانت صلبة ودافئة.

٥

وبعد مُضي ستة وأربعين عاماً، كان ذلك المكان الذي شهد المعركة البطولية التي شارك فيها كل من جدّي وأبي وأمي والكلاب الثلاثة: الأسود والأحمر والأخضر، التي كانت ملك عائلتي، المكان الذي أصبح «مقبرة الألفية» تضم ما يزيد على ألف جثة من جنث رجال الحزب الشيوعي، والحزب الوطني، وعامة الأهالي، والجنود اليابانيين، وجنود القوات الموالية للإمبراطور، كان ذلك المكان قد تعرّض لموجة أمطار كبيرة في ليلة رعديّة شديدة، حتى تصدّعت أسقف المقابر، وتناثرت بعض عظام الجثث التي غسّلتها مياه الأمطار ونظّفتها تنظيفاً. كنتُ في ذلك الحين قد عدتُ إلى بلدتنا لقضاء العطلة الصيفية، وما إن سمعتُ خبر فتح «المقبرة الألفية» حتى سارعتُ لكي أشاهد ما يحدث بأَم عيني، وتبعتني الكلب الأزرق الصغير الذي كانت تربيته العائلة. كانت السماء لا تزال تمطر مطراً خفيفاً، وقد راح الكلب الأزرق يجري أمامي، وهو يركض بسرعة وسط مياه الأمطار. اصطدمنا بسرعة بتلك العظام التي كانت قد تطايرت من داخل المقابر، حيث راح الكلب يتتبعها بأنفه، ثم راح يُلوح برأسه مُعبّراً عن عدم شعوره باللذّة تجاه تلك العظام.

وكانت قد وقفتُ جماعة من الناس حول تلك المقبرة الكبيرة، علا وجوههم شعور

بالرعب الشديد مما يرون. زاحمتُ حتى وقفتُ وسط الجمع، ورأيتُ تلك العظام التي

رأت سطح الأرض مرة ثانية. ولم يكن أحد يستطيع أن يميز أيًا من هذه العظام تخص أفراد الحزب الشيوعي، وأيًا منها تخص أفراد الحزب الوطني، وأيًا منها تخص الجنود اليابانيين، وأيًا منها تخص عامة الأهالي؛ حيث كانت جميع الرءوس تبدو ذات شكل واحد، تجمعت داخل حفرة واحدة، وغمرتها مياه الأمطار بكميات متساوية. فقد كانت تصدر بعض الأصوات الحزينة إثر اصطدام مياه الأمطار بتلك العظام. كما كانت الجماجم قد امتلأت بمياه الأمطار، حتى بدت المياه بداخلها صافية باردة مثل نبيذ الذرة المعتق لفترة طويلة.

قام الأهالي آنذاك بجمع العظام التي تطايرت في جميع الأرجاء، وراحوا يلقون بها ثانية إلى داخل المقبرة. وعندما دقت النظر إلى داخل الحفرة، رأيت عظام رءوس عشرات الكلاب المختلفة، اكتشفت عقب ذلك أنه لا يوجد اختلاف بين جماجم البشر وجماجم الكلاب، كان في الحفرة شعاع أبيض باهت، بدا لي كإشارة مُعبّرة عن الرعب والفرع، وأن تاريخ الإنسان العظيم يرتبط بالأحاديث والذكريات الخاصة بالكلاب، وأن هناك علاقة متشابكة بين تاريخ الإنسان وتاريخ الكلاب. شاركت في أعمال جمع العظام المتطايرة في كل مكان، وارتديت قفازًا أبيض في يدي بدعوى المحافظة على الصحة، مما جعل جميع الأهالي الحاضرين ينظرون إليّ نظرات غاضبة، فخلعت القفاز بسرعة ودسسته في جيبتي. سرت لأبعد حد في الطريق الذي كنا نجمع منه العظام المتطايرة، سرت إلى حافة زراعات الذرة الرفيعة التي كانت تقع على بُعد مائة متر من المقبرة الكبرى، كانت ترقد هناك رأس مُحطمة شبه مستديرة وسط أعشاب خضراء غمرتها مياه الأمطار، وكانت جبهة تلك الرأس تشير أن صاحبها ليس شخصًا عاديًا. ومددت ثلاثة أصابع ورحت أحرك تلك الرأس، ثم سحبت أصابعي ثانية. انعكس شعاع ضوء أبيض على تلك الحشائش المحيطة بالرأس، مما جعلني أدرك أنه ليس هناك ضرورة لأن ألتقط تلك الرأس، حيث كانت من نفس نوع رأس ذلك الكلب الأزرق الصغير الذي كان يجري خلفي. وربما تكون رأس ذئب أو رأس حيوان هجين بين الكلب والذئب. ومن المؤكد أنها كانت قد تطايرت إلى هنا على إثر الانفجار الذي هز المكان؛ فالأتربة العالقة بها ولونها يشيران إلى أنها قد مكثت في بطن المقبرة الكبرى لمدة عشرات السنين. وأخيرًا تمكنت من رفعها لأعلى. راح الأهالي يلقون بعض الجثث التي قاموا بجمعها إلى داخل المقبرة دون أدنى حرص، كانت العظام تصطدم ببعضها البعض حتى تحطم معظمها إلى قطع صغيرة. قمت بإلقاء جمجمة الإنسان التي كانت في يدي، بينما رفعت جمجمة الكلب الكبيرة لأعلى وترددت لبعض

الوقت. فقال شيخ كبير: فُلْتُقِ بها إلى داخل المقبرة، فالكلاب لم تكن أدنى قيمة من البشر آنذاك. فقمْتُ بإلقاء جمجمة الكلب إلى داخل المقبرة. حتى تم إعادة «المقبرة الألفية» إلى ما كانت عليه قبل تَصَدُّعها وتطاير العظام من داخلها في كل مكان. ولمواساة أرواح تلك الأشباح التي قمنا بإزعاجها آنذاك، كانت أمي قد قامت بحرق ورقة صفراء أمام المقبرة. وهكذا كُنْتُ قد شاركتُ في أعمال إعادة تكوين المقبرة الكبرى، ورافقتُ أمي ووقفنا أمام عظام ما يزيد على ألف جثة وسجَدْنَا أمامها.

قالت أمي: «لقد مضى ستة وأربعون عامًا، وكانت آنذاك لا تزال شابة في الخامسة عشرة من عمرها.»

٦

عندما حاصرت القوات اليابانية القرية كُنْتُ في الخامسة عشرة من العمر، وكان جدُّك وجدتك لأمك قد أودعاني وخالك الصغير في بطن البئر، ولم نرهما بعد تلك اللحظة إلى الأبد. كُنْتُ قد عرفتُ بعد ذلك أنهما قُتِلَا في صباح ذلك اليوم الذي تركنا فيه في بطن البئر.

لا أعرف طول المدة التي مكثتها داخل البئر، ومات خالك داخله حتى انبعثت رائحة جثته. وكان الضفدع والحية لا يتوقفان عن النظر إليَّ طوال اليوم، حتى كدتُ أموت من شدة الرعب. وكُنْتُ أفكر آنذاك أنني بالتأكيد سأفارق الحياة في بطن هذا البئر، حتى جاء أبوك وجدك وأنقذاني من تلك الكارثة.

كان جدك قد لفَّ خمس عشرة بندقية طراز سانباتي الياباني جيدًا في ورق مشمع، ثم ربطها بحبل وعلقها على حافة البئر. وقال مخاطبًا ابنه: «يا دوو قوان، انظر حولك جيدًا وتأكد هل يوجد أحد قريب منا؟»

كان جدك يعرف جيدًا أن كلاً من القائد لينغ ماتزه وفريق جياو قاو يرغبان في الاستيلاء على هذه الأسلحة. وفي مساء يوم أمس، كان جدك ورفاقه نائمين في الخيمة المؤقتة التي نصبوها أسفل السور الترابي، جلس الرجل الضرير عند مدخل الخيمة يستمع إلى أي صوت يدنو منهم. وفي منتصف الليل، سمع صوت انهيار السور، وارتطام الأشجار المحيطة به محدثةً صوتًا مسموعًا. ثم أعقبها بعد ذلك صوت وقع أقدام خفيفة تقترب من الخيمة، استطاع الضرير أن يميز ذلك الصوت على أنه صوت وقع أقدام شخصين، أحدهما جريء والآخر جبان. سمع صوت تنهد الرَّجُلَيْنِ، فأمسك بسلاحه جيدًا، ثم قال:

«توقَّفا!» وسمع بعد ذلك صوت الرجلين وقد انبطحا على الأرض في خوف شديد، وراحا يتهربان إلى الخلف، فراح الضرير يتحسس مكان الزناد حتى توصل إليه وأطلق طلقة في الهواء. وسمع صوت الرجلين ينسحبان إلى حافة السور ويختفيان وسط الأشجار. فقارن الصوت الذي يسمعه ثم أطلق طلقة جديدة، حتى سمع صوت إنسان يناديه، كانت هاتان الطلقتان قد أيقظتا جدِّي ورفاقه، فحملوا أسلحتهم وهموا بمطاردة الرَّجُلين، حتى رأوا صورة شبحين يفران إلى أعماق حقول الذُّرة المجاورة.

قال أبي: «أبي، لا يوجد أحد هنا.»

فردَّ جدِّي قائلاً: «تذكَّر هذا البئر جيداً.»

فقال أبي: «تذكَّرته، إنه بئر عائلة تشينغ إر.»

فقال جدي: «إذا ما تعرضتُ للموت، فعليك أن تأتي إلى هذا البئر وتخرج هذه الأسلحة وتقدمها هدية وتستسلم للجيش الثامن، فإن هؤلاء النفر أفضل بعض الشيء من فريق لينغ ماتزه.»

قال أبي: «أبي، لن نستسلم أبداً، وسنقود فريقاً خاصاً بنا! ولدينا أيضاً عدد من

الرشاشات.»

فابتسم جدِّي ابتسامة مصطنعة، ثم قال: «ابني الحبيب، ليس الأمر سهلاً! ولقد

تعب أبوك.»

فأمسك أبي بالحبل المشدود على الرافعة، وقام جدِّي بربط البنادق جيداً.

سأل جدي: «هل هذا البئر جاف؟»

فرد أبي: «نعم، وقد نزلت إلى بطنه أنا ووانغ قوانغ من قبل للعب الاستغماية.»

ثم مد أبي جسده إلى فوهة البئر وراح ينظر إلى أسفل حتى رأى شبحاً أسود لكتلتين منزويتين إلى جانب سور البئر.

فصاح أبي: «أبتاه، إن هناك بشراً داخل البئر!»

جثياً عند فوهة البئر وراحا يُدَقِّقان النظر في ذلك الشبح.

وقال أبي متعجباً: «إنها تشينغ إر!»

فسأله جدي: «انظر جيداً هل ما زالت على قيد الحياة؟»

فرد أبي قائلاً: «يبدو أنها لم تقطع النفس بعد، وهناك حشرة كبيرة ترقد إلى

جوارها، وهناك أيضاً أخوها الصغير آن تزه.» كان صوت أبي يرن داخل البئر.

فسأله جدِّي ثانية: «هل تجرؤ على النزول إلى بطن البئر؟»

فأجاب أبي: «سأنزل يا أبي، فإن علاقتي بتشينغ إر علاقة طيبة للغاية!»

- «احترس جيدًا من تلك الحية.»

- «إنني لا أخاف من الحية.»

فك جَدِّي حبل الرافعة من البنادق وربطه حول خصر أبي، وساعده على النزول إلى بطن البئر، حيث أمسك جَدِّي برأس الرافعة، وترك الحبل يتدلَّى ببطء شديد.

وسمع أبي صوت جَدِّي ينادي عليه بصوت مرتفع «احترس، احترس.» وبحث أبي عن قطعة حجر عالية بعض الشيء ووقف عليها. فرفعت تلك الحية رأسها عالية، وراحت تلعب بلسانها وأطلقت هواءً باردًا تجاه أبي. وكان أبي قد تدرب جيدًا على كيفية التعامل مع الأفاعي عندما كان يصيد الأسماك الصغيرة في نهر موا شوى. كان قد أكل لحم الأفاعي، كان يطهوه بمساعدة الجد لوو خان، كان الجد لوو خان قد أخبره أن لحم الحية مفيد لعلاج مرض البرص. وكان أبي والجد لوو خان يشعران بسخونة شديدة تسري في جسدهما بعد أكل لحم الأفاعي. وتسمَّر أبي مكانه وانتظر تحرك الحية، وما إن نزلت الحية برأسها إلى أسفل، حتى مد يده وأمسك بذيلها وهزه هزًا شديدًا، حتى سمع صوت مفاصلها. ثم أمسك برقبته وضغط عليها ضغطًا شديدًا، ثم صاح بصوت عالٍ: «أبي، سألقى بها إليك.»

فمال جَدِّي إلى جانب البئر، حتى صعدت الحية التي كانت شبه ميتة إلى سطح الأرض، سقطت على الأرض إلى جانب فوهة البئر وكأنها قطعة لحم جامدة. وقف شعر رأس جَدِّي لرؤية هذا المنظر المرعب، وراح يسب أبي: «أنت أيها الذئب الجريء جرأة اللصوص المتمرسين!»

وسند أبي أمي وهو يصيح: «يا تشينغ إر! تشينغ إر! إنني أنا دوو قوان، جئت لإنقاذك!»

فقام جَدِّي بإدارة الرافعة بحذرٍ شديد، حتى استطاع أن يسحب أمي وجثة خالي من داخل البئر.

ثم سمع صوت أبي يناديه: «أبي، أرسل البنادق إلى أسفل!»

فرد عليه جَدِّي قائلاً: «يا دوو قوان، ابتعد إلى جانب سور البئر.»

وأدار جَدِّي الرافعة حتى استطاع أن ينزل البنادق اليابانية إلى بطن البئر. وقام أبي بفك حبل الرافعة وربطه حول خصره.

وصاح أبي: «أدر الرافعة يا أبي.»

فسأله جدي: «هل ربطت الحبل جيداً؟»

- «نعم.»

- «اربطه جيداً، وحذار أن تتهاون في ذلك.»

- «فَلْتَدِرِ الرفاعة يا أبي.»

- «هل ربطتها ربطة سهلة الفك أم أحكمتَ ربتها؟»

- «أبي، ماذا بك؟ أَلَسْتُ أنا الذي ربطت تشينغ إر حتى صعَدت لأعلى؟»

راح أبي وجدي ينظران إلى تشينغ إر الملقاة على الأرض، وقد بدأ على وجهها التعب والإرهاق الشديدان، بدت عيناها غائرتين وأسنانها بارزة للأمام وشعرها وقد ابيض بعض الشيء. بينما بدت أظافر أخيها زرقاء.

٧

استطاعت أمي أن تسترد عافيتها تدريجياً تحت عناية المرأة ليو. كانت أمي وأبي صديقين قديمين، بالإضافة إلى قيام أبي بإنقاذها من بطن البئر، وهكذا كانت تربطهما علاقة حميمة مثل الإخوة. وكان جدي قد أصيبَ بنزلة برد شديدة، حتى أصبحت حياته في خطر. وبينما هو في سرير المرض، شم رائحة ذرة مطبوخة، كان أبي ورفاقه قد قاموا بجمع الذرة من الحقول المجاورة، وقامت المرأة ليو بطهيها أمام جدي. وبمجرد أن أكل جدي سلطانية من هذا الطعام، شعر بتحسن ملحوظ واستعاد شهيته وصحته. وحتى منتصف شهر أكتوبر، كان لا يزال يتوكل على عصا لكي يستطيع الصعود إلى أعلى السور الترابي، ويتشمس بعض الوقت.

وخلال هذه المدة التي مرض فيها جدي، جاءت أخبار بحدوث اشتباك بين فريق القائد لينغ ماتزه والقائد جيانغ من الجيش الثامن بالقرب من سد وانغ با. وقد حدثت خسائر كبيرة في قوات الفريقين، وكان جدي آنذاك يعاني من مرضه الشديد، حتى إنه لم يهتم بأمر هذا الاشتباك.

قام أبي ورفاقه بنصب عدد من الخيم المؤقتة داخل حدود القرية، وبحثوا بين الأطلال عن بعض الأثاث والأدوات اليومية، كما كانوا قد خرجوا إلى الحقول الفسيحة وقاموا بجمع كمية من الذرة تكفي لفصلي الشتاء والربيع. كانت أمطار الخريف قد اشتدت منذ نهاية شهر أغسطس، حتى تحوّل تراب حقول الذرة إلى وحل وسقطت كمية كبيرة من أعواد الذرة. وأنبتت سنابل الذرة التي أصابتها الأمطار. وبدت سنابل الذرة

مُنْحَنِية مثل ذيل الثعلب. وكانت الغيوم السوداء تُخَيِّم على حقول الذُّرَّة. وكانت مياه الأمطار الباردة الصُّلْبَة تنزل على أوراق الذُّرَّة مُحْدِثَةً صوتاً مسموعاً. بينما كانت مجموعة من الغربان تُرْفِرِف بأجنحتها وتحوم فوق الوادي الواقع عند مدخل القرية، وكان ظهور الشمس في ذلك الحين نادراً جداً وكأنها مثل الكنوز الدَّفِينَة، وكان الضباب يظهر طوال اليوم أعلى ذلك الوادي ما بين ضباب خفيف وضباب كثيف.

وبعد مَرَض جدي، كان أبي قد نَصَب نفسه قائداً، قاد كلاً من: وانغ قوانغ، ده جه، الأعرج، الضرير وتشينغ إر، وحملوا الأسلحة واشتبكوا في معركة حامية مع الكلاب التي جاءت لتأكل الجثث الملقاة وسط حقول الذُّرَّة، وكان أبي قد تدربَّ جيداً على إطلاق الرصاص خلال تلك المعركة التي وقعت بين فريقه والكلاب.

كان جدِّي يتحامل على نفسه في بعض الأحيان ويسأل ابنه: «ما خطتك يا بني خلال المرحلة القادمة؟»

يجيبه أبي بلهجة تملؤها القسوة قائلاً: «خطط لقتال الكلاب يا أبي!»

فيجيبه جدي: «ويمكنك أيضاً أن تتراجع عن قتالها.»

فيعترضه أبي «مستحيل، لا يمكن أن ندع هذه الكلاب تأكل جثث البشر.»

تجمعت في ذلك الوادي نحو ألف جثة، كان رجال الجيش الثامن قد قاموا في ذلك اليوم بتكويمها، ولم يتمكنوا من دفنها دفناً جيداً، كانت قد ظهرت بعض الجثث متأثرة بمياه الأمطار التي أذابت التراب الذي كان يغطيها أو بسبب نهش الكلاب. وهكذا فقد استطاعت أقطار الخريف الشديدة أن تعبت بالجثث حتى فاحت رائحتها لثماً أرجاء الوادي، واستغلَّت الغربان والكلاب الفرصة فانقضت على الجثث وراحت تنهش فيها نهشاً، حتى اشتدَّت رائحة الجثث وانتشرت انتشاراً واسعاً.

كان عدد الكلاب التي شاركت في تلك المعركة يتراوح بين خمسمائة وسبعمائة كلب. وتزعم هذا العدد الكبير كلاب عائلتي الثلاثة الأحمر والأخضر والأسود. وكانت القوة الرئيسية لهذا العدد من الكلاب تعتمد على كلاب قريتنا، كان أصحاب تلك الكلاب على وشك أن يكونوا جميعاً بين هذه الجثث التي تفوح رائحتها في كل مكان. وكانت الكلاب، التي تجري هنا وهناك، في حالة جنونية، فقد فقدت المأوى الذي كانت تأوي إليه.

وكان أبي قد قسم فريقه إلى ثلاث مجموعات، المجموعة الأولى تكوَّنت من أبي وأمي، المجموعة الثانية، من العم وانغ قوانغ والعم ده جه، والمجموعة الثالثة من الأعرج والضرير، كانت المجموعات الثلاثة قد تفرقت في ثلاثة اتجاهات مختلفة داخل الوادي.

وكانوا يرابضون عند الطُّرُق الثلاثة الصغيرة التي خرجت من خلالها الكلاب من داخل الذُّرَّة. كان أبي يحمل بندقية طراز سانباتي اليابانية، بينما كانت أمي تحمل بندقية قصيرة. وسألت أمي أبي قائلة: «دوو قوان، لماذا أخطئ دائماً في التصويب؟» فأجابها أبي «لأنك دائماً تكونين في غاية الاستعجال، فيجب أن تحددى هدفك جيداً ثم تحركى الزناد ببطء، وعندها لن يخيب تصويبك أبداً.»

أما الطريق الذي كان أبي وأمي يقومان بمراقبته فقد كان يمتد من ناحية الجنوب الشرقي، وكان طريقاً ضيقاً يصل عرضه إلى أقل من متر واحد، طريق متعرج تطل عليه من الجانبين أعواد الذُّرَّة التي كانت تمثل ستارة تحجب الرؤية، فما إن كانت تدخل إليه الكلاب حتى تختفي تماماً. أما الكلب الذي كان يظهر في مقدمة الكلاب التي تسير في هذا الطريق، فهو الكلب الأحمر الذي يخص عائلتي، والذي كان يبدو كلباً ثميناً بفضل ما تَمَكَّن من أكله من تلك الجثث، كان كلباً قوياً حكيماً استفاد من خبرته الطويلة في الصراع مع البشر.

وما إن صارت الشمس في كبد السماء، حتى بدت الطرق الثلاثة التي صنعتها الكلاب ساكنة وهادئة تماماً وقد لفها الضباب الكثيف. كانت أعداد الكلاب قد تضاءلت تدريجياً خلال تلك المعركة التي طالت لأكثر من شهر، كان هناك نحو مائة كلب قتلت إلى جوار الجثث التي كانت ملقاة وسط حقول الذُّرَّة، وأصيب ما يزيد على مائتي كلب. كانت مهارة أبي ورفاقه في التصويب قد ارتفعت خلال تلك المعركة الحامية، وكانت الكلاب خلال كل هجمة تلقي بعشرات الجثث من بين أسنانها. خلال ذلك الصراع القوي الذي دار بين الكلاب والبشر، أظهرت الكلاب بوضوح عيوبها من الناحيتين الذهنية والفنية. وكان أبي ورفاقه في ذلك اليوم في انتظار أول هجوم من قِبَل الكلاب؛ لأن الكلاب من الصعب أن تُغَيِّر النظام الذي تَعَوَّدت عليه خلال صراعاها مع الإنسان، كانوا يهاجمون مرة في الصباح ومرة في منتصف النهار ومرة عند الغروب، وكأنهم كانوا يضبطون أوقات هجماتهم مع موعد تناول الطعام عند البشر.

رأى أبي أعواد الذُّرَّة تهتز من بعيد، فهمس إلى أمي قائلاً: «استعدّي؛ لقد جاءوا.» فاستعدت أمي ووضعت يدها على الزناد ولصقت خدها على البندقية. وكان صوت اهتزاز أعواد الذُّرَّة قوياً، سمع أبي صوت لهاث الكلاب، فعرف على الفور أن تلك الكلاب جاءت تقصد الأشلاء المتبقية في الوادي، سمع أيضاً صوت مَعِدَّة الكلاب.

خرج ما يزيد على مائتي كلب من داخل حقول الدُّرة بصورة جنونية وكأنهم قد انقضوا فور سماعهم أمراً من إحدى القيادات. وراحت الكلاب تنبح غاضبة، بينما كان شعرها يلعب تحت الضباب الأبيض والشمس المحمرة، وبدأت تنهش في الجثث. وهكذا كانت الأهداف تتحرَّك أمام بنادق أبي ورفاقه. وكان العم وانغ قوانغ والأعرج قد أطلقا الرصاص على الكلاب، فراحت الكلاب التي أصابتها الطلقات النارية تنبح بصوت حزين، أما الكلاب التي لم تصبها طلقاتهم فراحت تستغل الفرصة وتحاول أن تنهش أكبر قدر قبل أن تلوذ بالفرار.

وضع أبي رأس كلب أسود هدفاً لطلقاته الأولى، فأصابت أذن أحد الكلاب، فراح ينبح ثم فرَّ مسرعاً إلى داخل حقول الدُّرة. ورأى أبي رأس كلب أبيض وقد ظهرت بها علامة ما، كان معلقاً بفمه معدة سوداء، وكان يسير في صمت تام. فصاح أبي بصوت مرتفع «يا تشينغ إر، لقد أصبت الهدف!» فسألته أمي منفعلة: «هل أنا الذي أصبته؟» وأمسك أبي بندقيته وحدد هدفه نحو كلب عائلتي الأحمر، فجرى الكلب على مسافة منخفضة من الأرض، فإرّاً من بين مجموعة من أعواد الدُّرة إلى مجموعة أخرى. فأطلق أبي طلقة مرت من فوق ظهر الكلب الأحمر، ففر الكلب وهو يحمل في فمه قدم سيدة بيضاء ممتلئة، كانت أسنانه تمسك بقدم المرأة وتمضغها مُحدثة صوتاً مسموعاً. ثم أطلقت أمي طلقة أخرى أصابت الطين الذي كان يقع أمام الكلب، فتناثر الطين ليملاً وجه الكلب، فراح ينفذ رأسه ثم عاود حمل فريسته وانسحب من أمام أمي. استطاع كل من العم وانغ قوانغ والعم ده جه إصابة عدد من الكلاب بجروح، حتى سالت دماء الكلاب على الجثث البشرية الملقاة على الأرض، بينما راحت الكلاب المصابة تنبح بصوت حزين ومخيف.

وهكذا انسحبت الكلاب، وتجمّع أبي ورفاقه وراحوا يقومون بتنظيف أسلحتهم. ولم يعد لديهم كمية كبيرة من الطلقات النارية. فراح أبي ينبه عليهم بضرورة أن يتوخوا الدقة في التصويب، ويجب أن يركزوا جيداً على قتل الكلاب الثلاثة التي تتولّى أمر قيادة ذلك العدد الكبير من الكلاب. فقال العم وانغ قوانغ: «إن ذلك الكلب يتمكن من الفرار قبل أن تصل إليه عين البندقية.»

وحرك العم ده جه مُقلّته الصفراء قائلاً: «يا دوو قوان، ما رأيك أن نقوم هذه المرة بمباغنتهم؟»

فقال أبي: «كيف ذلك؟»

قال العم ده جه: «هذه الكلاب لديها بالتأكيد مكان ما للراحة، وأتوقع أن هذا المكان هو ضفة نهر موا شوى، هذه الكلاب التي تأكل لحم البشر سنذهب بالتأكيد إلى هناك لشرب المياه.»

قال أبي: «هيا بنا!»

فاعترضه العم ده جه قائلاً: «مهلاً، فلنرجع الآن ونأت بعدد من القذائف اليدوية، ولنقم بتفجيرهم بهذه القذائف.»

وانقسم كل من أبي وأمي والعم وانغ قوانغ والعم ده جه إلى مجموعتين، وسلكت كل مجموعة طريقاً من الطرق التي صنعتها الكلاب وسط زراعات الذرة التي كانت ممثلة بالوحل. وكانت تلك الطرق تؤدي بطبيعة الحال إلى نهر موا شوى، سمع أبي وأمي صوت مياه نهر موا شوى ونباح الكلاب عنده. وعندما اقترباً من حافة النهر، إذا بالكلاب تتجمع مع بعضها حتى بدا الطريق واسعاً ضعف مساحته الأولى. وهنا التقى أبي وأمي بكل من العم وانغ قوانغ والعم ده جه.

وعندما اقترب أبي ورفاقه من حافة النهر، رأى أبي ما يزيد على مائتي كلب متفرقة على ضفة النهر الممتلئة بالعشب، كما رأى عددًا كبيراً من تلك الكلاب منبطحه على الأرض، ومنها ما كان يأكل في أطرافه، ومنها ما كان يبول في مياه النهر، ومنها ما كان يقف على حافة النهر ويمد لسانه يلحق مياه النهر. وشم رائحة ريح تلك الكلاب التي كانت قد شبعت من أكل جثث البشر. وقد امتلأت الأعشاب التي كانت تنمو على حافة النهر بفضلات الكلاب ذات الرائحة الكريهة. وبدت الكلاب التي كانت منبطحه هادئة في أماكنها. أما كلاب عائلتي الثلاثة التي كانت تتزعم جماعة الكلاب، فكانت قد اختلطت وسط الكلاب الأخرى، إلا أنه كان من السهل جداً تمييزها من بين هذا العدد الكبير من الكلاب.

وقال العم وانغ قوانغ: «دوو قوان، هل أرمي الآن؟»

فرد أبي: «استعدوا جيداً، ولنرّم معاً.»

كان كل فرد منهم يمسك بزوج من القذائف اليدوية وانبطحوا في انتظار إشارة البدء، حتى صاح فيهم أبي قائلاً: «ارموا!» فسقطت ثماني قذائف يدوية وسط جماعة الكلاب، فراحت الكلاب تنظر بفضول إلى تلك الأشياء السوداء التي تنزل عليهم من السماء، ثم جلسوا صاغرين. وكان أبي قد اكتشف أنذاك مدى ذكاء كلاب عائلتي الثلاثة ومكرها، كانوا قد لصقوا أجسادهم بالأرض جيداً. وكانت القذائف الثمانية اليدوية اليابانية ذات

الجودة العالية، قد انفجرت في توقيت واحد، وامتلات المنطقة المحيطة بشذرات انتشرت في كل مكان، تمزقت على الأقل أجساد ما يزيد على عشرة كلاب، بينما أصيب على الأقل ما يزيد على عشرين كلباً آخرين. وتطايرت دماء الكلاب وأشلاؤها فوق صفحة مياه نهر موا شوى ثم امتزجت بالمياه الباردة، وتجمعت أسماك النهر العاشقة للدماء وراحت تتصارع للحصول على لحم الكلاب القتيلة ودمائها، بينما كانت الكلاب المصابة تقف متجمعة وهي تبكي قتلها في مشهد مرعب. في حين لاذت الكلاب التي لم تُصَب خلال المعركة بالفرار في جميع الأرجاء، فمنها ما جرى مسرعاً بمحاذاة النهر، ومنها ما سارع بالقفز داخل نهر موا شوى، وراح يقاتل للعبور إلى الضفة المقابلة للنهر. ولسوء الحظ لم يكن أبي يحمل آنذاك بندقيته، رأى عدداً من الكلاب التي أصيب في عيونها تحوم على الضفة النهر، امتلات وجوها بالدماء، في مشهد مؤثر جداً. تمكّنت كلاب عائلتي الثلاثة من العبور إلى الضفة المقابلة للنهر، وتبعهم ما يزيد على ثلاثين كلباً آخرين، صعدت معاً إلى حافة النهر ووقفت هنالك وهي في مأزق خطير. وراحت الكلاب تهز جسمها بشدة وتنفض المياه التي امتلات بها جميع أجزاء جسمها. وهنا راح كلب عائلتي الأحمر ينبح تجاه أبي في غضب شديد، وكأنه يلومه على نقض العهد معها، حيث إنه أولاً اقتحم معسكر راحتهم، ثانياً استخدم في معركته معها أشرس الأسلحة الحديثة وأبشعها.

فقال أبي: «استمروا في رمي القذائف إلى الأمام!»

أخذ كل واحد من رفاقه بقذيفة في يده وراح يرمي بها بكل ما أُوتي من قوة إلى الضفة المقابلة للنهر، وما إن رأَت الكلاب تلك الأشياء السوداء تُعبّر النهر في اتجاهها، حتى راحت تنبح بصوت حزين جداً، ثم بدأت تلوذ بالفرار، فنزلت من على حافة النهر قاصدة حقول الذرة الواقعة جنوب النهر. وهكذا استطاعت فرقة أبي قليلة العدد وضعيفة القوة أن ترمي بالقذائف في عرض النهر، حتى فجرت القذائف مقاييس المياه البيضاء الأربعة، فأحدث تفجيرها صوتاً مدوياً، وتدافعت على إثره أعداد من أسماك النهر.

أما مجموعة الكلاب التي كانت قد تعرضت للهجوم المباغت من قبل أبي ورفاقه، فلم تظهر في أرض المعركة خلال اليومين التاليين للهجوم. وخلال تلك الفترة لم تكن الكلاب أو فرقة أبي قد أخذوا قسطاً كافياً من الراحة واستعدوا لمواصلة القتال.

وعندما أدرك أبي ورفاقه خطورة القذائف اليدوية، اجتمعوا معاً ليتناقشوا في مسألة كيفية استخدامها استخداماً جيداً. وسارعوا بإرسال العم وانغ قوانغ إلى حافة النهر لاستطلاع الأحوال قبل قيامهم بالهجوم، فعاد العم وانغ قوانغ يقول إن هناك بعض

الكلاب الميتة وشعر وفضلات كلاب، وتنتشر هنالك الروائح الكريهة، ولا يوجد أي أثر لكلاب أحياء، والكلاب قامت بنقل معسكرها إلى مكان جديد.

واستنتج العم ده جه من كلام وانغ قوانغ أن الكلاب قد نَفَرَّتْ لفترة مُوقَّتة، ولكنَّ زعماءها لا يزالون موجودين ويؤدون دورهم، وأن مجموعة الكلاب ستُعاود تَجْمَعُها خلال فترة قصيرة، وستستمر في صراعها للحصول على هذه الجثث. وأن الجولة التالية من المعركة مع الكلاب ستكون جولة حامية جدًّا؛ وذلك لأن الكلاب المتبقية الآن جميعها من الكلاب التي تتمتع بخبرة قتالية جيدة.

وفي نهاية الأمر، اقترحت أُمِّي أن يقوم أعضاء الفريق بفتح القذائف ونصبها على الطُّرق التي تمر منها الكلاب. وقد حصلت خطة أُمِّي على تأييد الجميع، وقام أعضاء الفريق على الفور بتقسيم أنفسهم إلى مجموعات، قاموا بنصب ثلاث وأربعين قذيفة يدوية على الطُّرق الثلاثة التي تمر من خلالها الكلاب إلى مكان الجثث. كان أبي ورفاقه يملكون سبْعًا وخمسين قذيفة، استخدموا منها اثنتي عشرة قذيفة خلال الهجوم المباغت الذي شَنُوهُ على الكلاب عند نهر موا شوى، وتبَقَّى منها خمس وأربعون قذيفة. وقد قام أبي بتوزيع القذائف المتبقية بالتساوي بين المجموعات الثلاث التي يضمها فريقه، حيث حصلت كل مجموعة على خمس عشرة قذيفة.

شهد اليومان الأخيران انقسامًا كبيرًا بين صفوف الكلاب، حدث نقص كبير في عدد الكلاب، فقد قُتِلَ وأُصِيب عدد كبير منهم خلال الجولة الأولى من المعركة، كما فرَّ عدد آخر، ممَّا أدَّى إلى تناقص العدد الإجمالي إلى حوالي مائة وعشرين كلبًا فقط. كانت فرقة الكلاب في حاجة مُلِحَّة إلى إعادة التنظيم، ومن ثمَّ تم دمج المجموعات الثلاث في مجموعة قتالية واحدة، وتم نقل المعسكر الأول الذي تم تدميره بواسطة ذلك الشيء الأسود، تم نقله على بعد كيلو ونصف الكيلومتر شرق حافة النهر، وتجمَّعت الكلاب في فرقة واحدة على الضفة الجنوبية شرق الجسر الكبير الواقع أعلى نهر موا شوى.

كان صباح ذلك اليوم صباحًا مصيريًّا، كانت الكلاب في حيرة شديدة من أمرها وفي عجلة شديدة لأن تنفذ خطتها هذه المرة، فمضت تشق طريقها بصورة تُعبِّر عن تحدُّ كبير. وكانت كل مجموعة منها تراقب جيدًا حركات قائدها. في حين ظلت كلاب عائلتي الثلاثة: الأحمر والأسود والأخضر، هادئة مُنَزَّنة كعادتها فيما مضى، واكتفت بابتسامة ماكرة.

تَجَمَّعَت الكلابُ معاً عند الناحية الشرقية من الجسر، وجلسَتْ على أقدامها الخلفية ورفعت رقبتهَا لأعلى، وراحت تتأمل في السماء الغائمة وهي تنبح بصوت مسموع. وقد ظهرتْ أعراضُ تَشَنُّجٍ على كلبِي عائلتي الأسود والأخضر، بدت أعين جميع الكلاب محمرة بسبب التهامها كميات كبيرة من جثث البشر. أصبحت الآن تضمر عداءً شديداً للبشر. فعندما كانت تَنَقِّصُ لالتهام الجثث البشرية، لم يكن ذلك فقط بدافع الجوع والمجاعة التي تعرضت لها، فالأهم من ذلك كله أن تشعر خلال قيامها بهذا العمل أنها تعلن عن تحديها للعالم الإنساني، وأنها كانت تنتقم انتقاماً جنونياً من هؤلاء الحكام المُستبَدِّين الذين استعبدوها لأزمنة طويلة. وبالطبع فإن كلاب عائلتي الثلاثة هي التي كانت تنظر إلى هذا التَّصَرُّفِ الهمجي نظرة عقلانية تعلي من قيمتها وأهميتها بالنسبة لجنس الكلاب وثورتها على البشر. كان هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل هذه الكلاب الثلاثة تحظى بتأييد جميع الكلاب الأخرى. وبالطبع فإن البنية القوية والذكاء والمهارة الحركية والروح القتالية العالية التي كانت تتمتع بها الكلاب الثلاثة، نقول كان ذلك سبباً لا غنى عنه من الأسباب التي جعلتها تتزعم الكلاب الأخرى.

وهكذا استطاعت دماء البشر ولحومهم أن تُغَيِّرَ من شكل الكلاب، بدت الكلاب التي تَغَدَّتْ على دماء الجثث البشرية ولحومها، ذات شعر جميل وقوية البنية، وكأن البروتينات في أجسامها قد ارتفعت بنسب عالية، كما ازدادت رغبتها الجنسية وأصبحت أكثر شراسة وتحملاً للقتال، وعندما تَتَذَكَّرُ تلك الحياة الكئيبة حين كانت عبيداً للبشر تتغذى على فضلات الأطعمة التي تَتَبَقَّى منهم، فإنها تشعر بالخزي الشديد تجاه تلك الحياة الوضيعة. وهكذا أصبح الهجوم على البشر رغبة جماعية تصدر عن جميع الكلاب. وقد زاد هجوم أبي ورفاقه عليهم من نزعة الانتقام التي تولدت لديهم تجاه البشر.

ومنذ ما يزيد على عشرة أيام مضت، ظهر عدم توافق بين مجموعات الكلاب الثلاثة، ولم يكن السبب في ذلك أمراً جليلاً؛ تعود الواقعة إلى قيام أحد الكلاب من مجموعة الكلب الأسود خلسةً بالتهام ذراع إنسان كان يخص كلباً أبيض من مجموعة الكلب الأخضر، فراح الكلب الأبيض ليتناقش مع ذلك الكلب الذي التهم الذراع سراً، فكانت النتيجة أن قام هذا الكلب اللص بَعْضُ الكلب الأبيض في قدمه الخلفية. وقد أثار تَصَرُّفِ الكلب اللص غضب جميع الكلاب في مجموعة الكلب الأبيض، فاتَّفَقوا معاً وانقَضُوا عليه وأحدنوا به إصابات خطيرة، ولم تستطع كلاب مجموعة الكلب الأسود التي ينتمي لها الكلب اللص تَقَبُّلُ هذا التصرف الانتقامي، فاشتبك حوالي عشرين كلباً من الفريقين في معركة

حامية بمحاذاة النهر. واستغل كلاب مجموعة الكلب الأحمر الفرصة، واشتبكوا في المعركة للانتقام من بعض التصرفات السابقة مع أعضاء الفريقين. كان كلاب عائلتي الثلاثة يجلسون كعادتهم يراقبون الموقف في هدوء تام، وقد امتلأت عيونهم بغضب شديد. استمرت هذه المعركة الحامية ما يزيد على ساعتين، وأدت إلى إصابة سبعة كلاب بالشلل التام، وأصيب ما يزيد على عشرة كلاب أخرى بجروح خطيرة، وسقطت في أرض المعركة تتألم من هول ما أصابها. وبعد انتهاء المعركة، وقفت جميع الكلاب تقريباً على حافة النهر وراحت تلعق جروحها.

كانت الجولة الثانية من صراع الكلاب مع بعضها بعضاً قد وقعت في منتصف نهار الأمس. كان كلب ذُكر ذو شفيتين سميكتين وعينين صغيرتين وشعر يخلط بين اللونين الأزرق والأصفر من مجموعة الكلب الأخضر، قد قام بكل جرأة بمعاكسة تلك الكلبة الجميلة التي كانت على علاقة بقائد مجموعة الكلب الأحمر، مما أثار غضبه، فقام بإلقاء ذلك الكلب المُتَّهَم في عُرْض النهر. خرج الكلب المُتَّهَم من النهر وراح ينفذ المياه التي علقت به، ثم راح يسب الكلب الأحمر غاضباً. سَخِرَت مجموعة الكلب الأحمر من ذلك التَّصْرُف الوقح الذي قام به هذا الكلب النَّذْل.

وقام قائد مجموعة الكلب الأخضر بالنُّباح أمام الكلب الأحمر، لم يُعْرَه الكلب الأحمر أدنى اهتمام، ثم قام بإلقاء الكلب المُتَّهَم في النهر مرة ثانية، فاكتفى الكلب المُتَّهَم بفتح منخاريه في المياه وراح يسبح إلى الضفة مثل الفأر الجبان. وفي تلك الأثناء كانت الكلبة الجميلة تقف خلف الكلب الأحمر وهي تهز ذيلها.

صاح الكلب الأخضر في وجه الكلب الأحمر، وكأنه يبتسم له ابتسامة مُصطنَعة. فرد عليه الكلب الأحمر بابتسامة مصطنعة.

ووقف الكلب الأسود بين صديقيه وراح يصيح فيهما وكأنه يسعى للتوسُّط بينهما. وتجمَّعت الكلاب جميعها في الاستراحة الجديدة، فكان من بينها من يلعب المياه ومن يلعب جرحه، وقد سطعت الشمس أعلى صفحة نهر موا شوى، وظهر على حافة النهر أرنب بري كبير إلى حد ما، وما إن رأى الكلاب المتجمعة حتى فرَّ هارباً.

ظهرت الكلاب متكاسلة تحت شمس الخريف. وجلست كلاب عائلتي الثلاثة إلى جوار بعضها مكوّنة دائرة، وأغمضت عيونها وراحت تتذكَّر ماضيها.

استغرَق الكلب الأحمر مفكراً في الحياة الهادئة عندما كان يقوم بحراسة فناء منزل العائلة للسيد صاحب فرن النبيذ، وكان الكلبان الأصفران لا يزالان آنذاك على قيد الحياة،

وعلى الرغم من وجود بعض الخلافات بين كلاب العائلة الخمسة، فإنها كانت يدًا واحدة. ويذكر أنه كان هناك كلب نحيف ضعيف، جسمه ممتلئ بالقروح الجلدية، حتى تم طرده من حظيرة الكلاب. وكان قد تم علاجه فيما بعد في فرن النبيذ بالفناء الشرقي، ولكنه بعد عودته إلى الحظيرة، كان لا يزال يشعُر بعدم الوفاق مع الكلاب الأربعة الأخرى. وكان يكره ظُلم الكلبين الأسود والأخضر وطمعهما، وكان يعلم جيدًا أنه لا بد أن تحدث معركة بينها للتنافس على الزعامة. وهكذا فقد تحوّل الصراع بين مجموعات الكلاب الثلاثة إلى سلام، ولكن الكلب الهجين المُتَّهم أبي الأ يُغيّر طبعه، فراح يُروِّج للإشاعات بين جميع الكلاب.

وحدثت بعد ذلك نقطة تحوّل مهمة في هذا الصراع بين الكلاب بعضها بعضًا، رأت الكلاب مشهدًا عاطفيًا يجمع بين الكلب الأسود وكلبة عجوز، وراحت جميع الكلاب تُراقب ذلك المشهد دون أي تدخل يفسد الجو العاطفي الذي جمع بينهما. وهكذا حتى استطاعت معًا أن تنهي ذلك الصراع الجنوني الذي نشب بينها، وقد انتهى ذلك المشهد بانتحار الكلب الأسود غرقًا.

تَسبَّب الاختفاء المفاجئ للكلاب في توتُّر وفوضى كبيرة في ترتيبات أبي ورفاقه، نزلت آنذاك أمطار خريفية شديدة، وفقد أبي ورفاقه حماسهم بانتهاء تلك المعركة الحامية التي خاضوها ضد الكلاب، وأصبحوا في حالة تراخ وكسل شديد، مثل المدمن الذي اشتد به الإدمان.

وفي صباح اليوم الرابع من اختفاء الكلاب، تَجَمَّع أبي ورفاقه عند حافة الوادي وراحوا يشاهدون الضباب والرائحة الكريهة التي عبقّت المكان، وهم يتناقشون حول أصل هذه الرائحة.

وكان العم الأعرج قد سلم بندقيته وانسحب من الفريق المُكَلَّف بصيد الكلاب، وعاد إلى قريته البعيدة للعمل مع ابن عمه الصغير في المطعم الذي كان يديره. أما الأعمى فلم يكن بإمكانه العمل بمفرده، لكنه كان قد جلس في الخيمة لمرافقة جَدِّي المريض في وحدته. وتبقى من أعضاء الفريق كل من أبي وأمي والعم وانغ قوانغ والعم ده جه.

قالت أمي مخاطبة أبي: «يا دوو قوان، إن الكلاب لن تأتي ثانية، إنها تخشى القذائف اليدوية.» وراحت أمي تنظر إلى الطُّرق الثلاثة التي كانت تأتي منها الكلاب، وفي حقيقة الأمر أنها كانت أكثرهم شوقًا لأن تأتي الكلاب مرة ثانية، كانت القذائف الثلاث والأربعون التي نُصِبَت على الطرق الثلاثة، تُعبّر جيدًا عن ذكائها وحكمتها.

فقال أبي: «يا وانغ قوانغ، فلتنهب ثانيةً لتقصّي الوضع!»
فرد العم وانغ قوانغ قائلاً: «لقد ذهبُ بالأمس، وأخبرْتُكم بأن الكلاب كانت قد
اشتركت في معركة مع بعضها بعضاً شرق الجسر، ومات الكلب الأخضر. وأنها بالتأكيد
قد تفرّقت. وإنني أرى أنه لا فائدة من ضياع جهدنا في هذا المكان، وعلينا أن نسارع
بالاستسلام للجيش الثامن.»

فقاطعه أبي قائلاً: «لا، إن الكلاب حتماً ستأتي مرة ثانية، إنه يعز عليها كثيراً أن
تتخلّى عن هذه الغنائم الشهية.»

قال العم وانغ قوانغ: «وأي الأماكن تخلو حالياً من جثث القتلى؟ والكلاب ليست
بتلك الحماسة، وهل يعقل أن تعود لملاقاة القذائف اليدوية مرة ثانية؟»
فأجابه أبي: «إن عدد القتلى هنا كبير جداً، ويعز على الكلاب أن تترك هذا المكان
بهذه البساطة.»

وقال العم ده جه: «إذا نويْنَا أن نستسلم فيجب أن نستسلم للقائد لينغ ماتزه، فإن
فرقته فرقة قوية مُسلّحة جيداً.»

قاطعتهم أمي قائلة: «انظروا إلى هناك!»

فانحنى الجميع وراحوا ينظرون إلى الاتجاه الذي أشارت إليه أمي، إلى طريق الكلاب.
وتحركت أعواد الذرة الكثيفة التي كانت تحفُّ بالطريق من جانبيه، كانت أوراق الذرة
تتلقى قطرات الأمطار الفضية. وامتلاً الطريق براعم الذرة المتساقطة التي اختلطت
بمياه الأمطار وتراب الطريق. كما اختلطت رائحة براعم الذرة برائحة تعفن سنابل الذرة
وكذلك برائحة الجثث الكريهة وفضلات الكلاب وبولها. وهكذا واجه أبي ورفاقه عالماً
مرعباً قذراً مليئاً بالشور.

هنا صاح أبي منفعلاً: «لقد عادت الكلاب!»

كانت أعواد الذرة المطلة على الطُرق الثلاثة تَهْتزُّ، بينما لم يصدر أي صوت عن تلك
القذائف اليدوية المنصوبة على جانب الطريق.

وسألت أمي وهي في قلق شديد: «ماذا حدث يا دوو قوان؟»

فأجابه أبي: «لا تتعجلي، ستنفجر بمجرد أن تلمسها الكلاب.»

وقال العم ده جه: «فلنطلق رصاصة لإرهابهم.»

فأطلقت أمي على الفور رصاصة من بندقيتها. فعم الهرج والمرج وسط حقول
الذرة، وانفجر عدد من القذائف في توقيت واحد، وتطايرت أعواد الذرة وأشلاء الكلاب

إلى السماء، بينما سمعوا بكاء عدد من الكلاب المصابة داخل الدُّرّة. وانفجر عدد أكبر من القذائف، وتطايرت كميات كبيرة من أجزاء القذائف والأشياء الأخرى فوق أبي ورفاقه. وأخيراً خرج ما يزيد على عشرين كلباً من خلال الطرق الثلاثة، فأطلق أبي ورفاقه بضع طلقات، ففرت الكلاب هاربة وانفجر عدد من القذائف. راحت أمي ترقص فرحاً.

ولم يكن أبي ورفاقه يعلمون ذلك التغيير الكبير الذي طرأ على صفوف الكلاب. فبعد أن تسلّم الكلب الأحمر صاحب الحيل المتعددة قيادة الكلاب، سحب الكلاب إلى مكان يقع على بعد عشرات الكيلومترات، وأجرى لهم تدريبات صارمة. كانت خطته التي وضعها للهجوم خطةً مُحكّمةً يعجز الإنسان الحكيم عن تخيلها، فقد كان الكلب الأحمر يعلم جيداً أن خصومهم مجرد بشر وضعيين، وأن من بينهم شخصاً يشك أنه يعرفه. إذا لم نقض تماماً على هؤلاء الحيوانات، فإن الكلاب لن تتمنّع بهذه الوجبة الشهية. كان الكلب الأحمر قد أمر كلباً هجيناً ذا أذن حادة، أن يخرج على رأس نصف الكلاب الموجودة وتهاجم خصمهما من خلال نفس الطريق القديم، وأن عليها أن تقاوم قتالاً مستميتاً ولا تفكر في الانسحاب مَهَمًا حدث. قام الكلب الأحمر بقيادة ستين كلباً بنفسه، وعادت إلى خلف الوادي، واستعدت لشن هجوم مُباغت على خصومها، ولكي تتمكن من القضاء على هؤلاء الحيوانات الأندال المدينين لهم بالدم. وقُبيل تحرُّكه على رأس مجموعة الكلاب، قام الكلب الأحمر بهز ذيله وراح يلمس بأنفه أنوف جميع الكلاب، ثم قام بعد ذلك برفس قطعة طين صلبة أسفل قدمه، وقلده في ذلك جميع الكلاب التي كانت تقف وراءه.

وعندما وصل إلى خلف الوادي، رأى هؤلاء الأندال الذين كانوا في فرحة غامرة، وعندها سمع صوت انفجار القذائف على الطرق الثلاثة التي سلكتها الكلاب، شعر بقلق شديد، وكذلك شعرت الكلاب الأخرى التي كانت تقف خلفه. لقد استطاعت تلك الأشياء السوداء الفتاكة أن تُبَيّد جميع الكلاب. وكان يعلم جيداً أنه إذا ظهر أمامهم جباناً يخشى المواجهة، فإن الخطة التي وضعها ستفشل تماماً. فحرك أسنانه الحادة وراح يصيح تجاه الكلاب التي كانت تقف خلفه وهي في حيرة شديدة، ثم تقدّم بعدها أحد الكلاب وتبعته الكلاب الأخرى، وانقضوا جميعاً بقلب كلب واحد وتجمّعوا خلف أبي ورفاقه.

صاح أبي بصوت يملؤه الخوف: «لقد حاصرتنا الكلاب من خلفنا.» ثم أدار بندقيته وأطلق رصاصة عشوائية، فأصابت الرصاصة كلباً ذا شعر أحمر داكن، فتقدّمت الكلاب إلى الأمام لمسافة مترين وأحاطت بالكلب المصاب.

قام العم وانغ قوانغ والعم ده جه وأمي بإطلاق الرصاص، فاندفعت أعداد أكبر من الكلاب صوبهم، حيث وصل كُرّه الكلاب للإنسان إلى ذروته. ألقى وانغ قوانغ ببندقيته وفرَّ هاربًا، فحاصره ما يزيد على عشرة كلاب. وهكذا اختفى هؤلاء البشر الوضيعون خلال لحظات قصيرة. كانت الكلاب آكلة لحوم البشر قد أصبحت منذ زمن طويل هي الحيوان البري الحقيقي، وكانت تتمتع بحركات سريعة ومهارة فائقة، وانقضت الكلاب على العم وانغ قوانغ حتى أتت عليه تمامًا.

ووقف أبي وأمي والعم ده جه وهم في رعبٍ شديدٍ من هول الموقف الذي تعرَّضوا له، حتى إن أمي بالت على نفسها من شدة الخوف، وقد اختفت تمامًا تلك الشجاعة التي كانوا يتحلَّون بها أثناء مواجهة الكلاب. وتقدَّمت الكلاب وحاصرتهم من جميع الاتجاهات. كانوا لا يتوقفون عن الدفاع عن أنفسهم بإطلاق الرصاص حتى أصابوا بعض الكلاب بجروح، انتهت الذخيرة التي كانت بحوزتهم. كانت بندقية أبي السانباتي اليابانية مزودة بخنجر لامع، كان مصدر تهديد وتخويف كبير للكلاب، كانت أمي والعم ده جه يستخدمان بندقية قصيرة غير مزودة بمثل هذا الخنجر، ومن ثمَّ فقد حاصره أكبر عدد من الكلاب. وهكذا تم حصار ثلاثتهم، فكانوا يرتعشون من شدة الخوف، فراحت أمي تنادي بصوت خفيض قائلة: «دوو قوان، يا دوو قوان!»

فأجابها أبي: «لا تخافي، ولتنادي بصوت مرتفع، لتنادي أبي ليأتي لإنقاذنا.»
فانتبه الكلب الأحمر إلى نكاء أبي، فمال بعينه وراح ينظر بازدراء إلى خنجر أبي.
ونادى أبي بصوت مرتفع: «أبي، أنقذنا أنقذنا!»
وراحت أمي تنادي جدي باكية: «يا عمي، أسرع لإنقاذنا!»

شنت الكلاب هجومًا جديدًا، تصدَّى له أبي ورفاقه باستماته، حتى إن أمي استطاعت أن تغرز مقدمة بندقيتها في فم أحد الكلاب حتى كسرت له نابين. كما استطاع أبي أن يغرز خنجره في وجه كلب آخر. وعندما شنت الكلاب هجومها، كان الكلب الأحمر القائد، يقف خارج جماعة الكلاب التي شنت الهجوم يراقب أبي.

وبعد أن تماسك أبي لبضع دقائق قليلة، شعر بانهيار قوته أمام هجوم الكلاب الشرس، فراح ينادي أباه من جديد بصوت مرتفع. وأحس أن جسد أمي كان مثل جدار سور ملتصق بجسده.

فقال العم ده جه بصوت خفيض: «يا دوو قوان ... سأحاول سحب الكلاب في اتجاه آخر لئلا نتمكَّن من الفرار.»

فرد عليه أبي قائلاً: «مستحيل!»

فقال العم ده جه: «سأهرب أنا»

فانفصل العم ده جه عن أبي وأمي ثم فرَّ هارباً إلى داخل حقول الدُّرَّة، فلاحقته عشرات الكلاب. ولم يكن أبي يستطيع النظر إلى العم ده جه، حيث كان الكلب الأحمر لا يزال يراقبه بكل دقة.

جاء صوت انفجار قذيفتين يدويتين من الاتجاه نفسه الذي فر منه العم ده جه، وقد أحدث صوت الانفجار جلبة في أعواد الدُّرَّة، وهز صوت الانفجار أبي وكذلك تلك الكلاب المصابة. أما الكلاب التي كانت تحاصر أبي وأمي، فقد أربعاها صوت الانفجار فتراجعتْ بضع خطوات بعيداً عنهما، فاستغلَّتْ أمي هذه الفرصة وأخرجتْ قذيفة وألقتْ بها على مجموعة الكلاب التي كانت تحاصرهما. وما إن رأت الكلاب ذلك الشيء الأسود يتطاير في اتجاهها، حتى راحت تنبح بصوت مرتفع، راحت تنبح وتصح بصوت غير مفهوم. وعندما همَّ أبي أن ينسحب من أرض المعركة، راحت الكلاب تضربه حول وجهه، وقد فشل الكلب الأحمر في إصابة وجه أبي. تعرَّضْ خده لإحدى تلك الهجمات، فراحت الدماء تسيل من خده بغزارة. وانقضَّ عليه الكلب الأحمر ثانيةً، فرفع أبي بندقيته يتقي شر الكلب، فأمسك الكلب الأحمر بالبندقية بمخليه، وطأطأ رأسه أسفل الخنجر حتى استطاع النفوذ إلى حوض أبي. وما إن رأى أبي خصلات الشعر البيضاء في بطن الكلب الأحمر، حتى راح يرفسه بقدميه. وأخيراً نجح الكلب الأحمر في الوصول إلى بنطال أبي، ولكن أمي تمكَّنت من ضرب الكلب بالبندقية على رأسه الصلبة. فتراجع بضع خطوات، ثم همَّ بالهجوم ثانيةً، ولكنه تعرض لخبطة بندقية جديدة حطمت إحدى عينيه. ونظر أبي وأمي إلى جدِّي الذي كان يمسك في يده اليسرى عصا خشبية، وتقبض يده اليمنى على بندقية يابانية الصنع، وقد بدا شيخاً ضعيفاً مُنحني الظهر اشتعل رأسه شيئاً. أطلق جدِّي بضع طلقات في اتجاه تلك الكلاب، فما إن أحسَّتْ بالخطر فرَّتْ إلى داخل حقول الدُّرَّة تلتمس النجاة.

ثم تقدَّم جدِّي إلى الأمام وهو يرتعد، وراح يضرب بعصاه على رأس الكلب الأحمر، ثم راح يلعنه قائلاً: «أيها الحيوان المتمرّد!» ولم يكن الكلب الأحمر قد فارق الحياة بعد، كان لا يزال يتنفس، وقدماه الخلفتان تضربان على الأرض، وبدأ شعره الأحمر الجميل مثل قطع اللهب المشتعلة.

لم تَكُن العضة التي تَلَقَّها أبي من الكلب الأحمر قوية جدًّا، ولكنها أصابته في مكان خطير جدًّا، تمكَّن الكلب الأحمر اللعين من عضُّ أبي في الطرف السفلي من جسمه وتحديدًا في منطقة الفخذ بل أصاب الخصيتين، الأمر الذي جعل جدِّي يشنط غضبًا من ذلك الكلب اللعين.

راح جدِّي يُتابع جرح أبي المصاب في هذا المكان الخطير من جسده وهو في غاية القلق على مصير ابنه. فسألته أمي: «ما الذي حدث يا عماه؟» كانت أمي قد لاحظتِ الحزن الشديد الذي بدأ على وجه جدِّي وهو ينظر إلى ابنه الجريح.

فسمعتِ جدِّي يتحسر بلهجة حزينة وهو يقول: «لقد انتهيت ... نعم لقد انتهيت هذه المرة.»

أخرج جدِّي سلاحه وراح يسب الكلب الأحمر بصوت مرتفع: «أيها الكلب اللعين! لقد دمَّرتني تدميرًا!»

ثم رمى الكلب الأحمر المُتَّهم بعدة طلقات أردته قتيلاً. كان أبي يحاول النهوض والدم يسيل من بين فخذه، ولكنه لم يكن يشعر بتعب شديد، وقال مخاطبًا جدي: «أبتاه، لقد انتصرنا.» وصاحت أمي: «عماه، أسرع بعلاج جرح دوو قوان!» وعندما انتبه أبي إلى حقيقة إصابته في خصيته، شعر بتقزز ودُوار شديدين حتى سقط مغشيًا عليه.

ألقي جدِّي بالعصا الخشبية التي كان يتوكأ عليها، وانشغل بجرح ابنه انشغالًا كاملاً، ونادى على أمي قائلاً: «يا تشينغ إر، اهتَمِّي به جيدًّا، وهيا بنا نذهب إلى السيد جانغ شين إي.» جلس جدِّي على الأرض وساعد أبي حتى وقف على قدميه وسارًا يقصدان السيد الطبيب جانغ شين إي. بينما كانوا لا يزالون يسمعون صوت انفجار القذائف اليدوية القادم من الطُّرق الثلاثة التي تمر من خلالها الكلاب.

وكان السيد جانغ شين إي رجلًا فوق الخمسين، ذا شعر طويل مرسل، يرتدي جلبابًا أزرق طويلًا، ذا وجه أصفر، نحيفًا جدًّا.

وهكذا استطاع جدِّي أن يصل بأبي الجريح إلى مكان السيد الطبيب جانغ شين إي، وقد بدأ على جدِّي التعب والإرهاق الشديدين.

قال السيد جانغ شين إي: «أليس هذا القائد يو؟ لقد تَغَيَّرَتْ كثيراً أيها القائد يو.»
فرد جدي: «سيدي الفاضل، لك كل ما تريد من المال.»
كان جَدِّي قد سارع بوضع أبي على سرير خشبي في حجرة الطبيب جانغ. فقال
الطبيب: «أليس هذا ابنك أيها القائد يو؟»
هَزَّ جَدِّي رأسه.

فسأله الطبيب: «أليس هو ابنك الذي تمكَّن من قتل الضابط الياباني عند جسر نهر
موا شوي؟»

فأجابه جدي: «نعم، إنه ابني الوحيد.»
فقال الطبيب: «سيدي الفاضل، اعلم أنني سأبذل قصارى جهدي لإنقاذه!» ثم مد
يده إلى حقيبته وأخرج ملقأطاً ومقصاً وزجاجة ميكروكروم. وانحنى قليلاً وبدأ في فحص
حالة أبي.

دنا منه جَدِّي وقال بلهجة حازمة: «أيها السيد، فلتفحص أولاً الجزء السفلي من
جسمه.»

فاستجاب السيد جانغ لطلب جدي، وراح يتفحص الإصابة الخطيرة في خصيتي
أبي. ثم قال: «أيها القائد يو، لست معترضاً على علاج ابنكم، ولكن إصابته هذه ليست
من صميم تخصصي، كما أنني لا أملك الدواء المناسب لهذه الإصابة ... أيها القائد يو،
أرى أنه من الأفضل أن تقصد حكيمًا آخر بارعًا في مثل هذه الإصابات.»
أمال جَدِّي ظهره قليلاً وراح ينظر إلى السيد جانغ بعينين يتطاير منهما الغضب،
ثم قال بصوت أجش: «وأين سأبحث عن هذا الحكيم؟ فلتخبرني أين يوجد هذا الحكيم؟
أتريد أن تجعلني أقصد حكيمًا يابانيًا؟»

فقال السيد جانغ شين إي: «أيها القائد يو، لم يكن هذا قصدي إطلاقاً ... إن الجرح
أصاب منطقة خطيرة جداً من جسم ابنكم، وأي خطأ في التعامل معه ستكون عاقبته
القضاء على نسل أسرتكم الكريمة إلى الأبد.»

فقال جدي: «طالما أننا قصدناك، فإن هذا يعني ثقتنا فيك، فلتبدأ في علاجه وإنقاذه.»
فراح السيد جانغ يعض على أسنانه، ثم قال: «طالما أن هذا رأيكم أيها القائد يو،
فإنني سأبدأ على الفور.»

أخذ السيد جانغ قطعة من القطن ونظف الجرح جيداً، حتى أفاق أبي من إغماءته.
وراح أبي يحاول النزول عن المصطبة، لكن جَدِّي منعه من ذلك، فراح أبي يضرب بقدميه
معتزلاً على منعه من النزول.

فقال السيد جانغ شين إي: «أيها القائد يو، اربطه جيداً كي لا يتحرك.»
راح أبي يتوجّع وهو يصيح: «أبتاه، إنني أتألم كثيراً!»
فصاح فيه جدّي غاضباً، «تحمّل يا بني، وتذكّر جرح الجد لولو خان!»
فسكت أبي على الفور، وراح يتماسك قدر استطاعته، بينما كان العرق يسيل بكثرة من جبهته.

أتى السيد جانغ بإبرة، وبدأ في خياطة الجرح الغائر. وطلب منه جدي أن يخيّط الخصيتين جيداً.

فقال السيد جانغ وهو يشعر بحرج شديد: «أيها القائد يو، إنه لا سبيل لذلك.»
رد عليه جدّي وقد بدا وجهه عابساً: «أتريد أن تقضي على نسلي إلى الأبد؟»
فأجاب السيد جانغ والذي كان وجهه يتصبّب عرقاً: «أيها القائد يو ... فلتشاركني الرأي، إن الإصابة خطيرة للغاية، ولا سبيل لأن تستعيد هاتان الخصيتان وظيفتهما الطبيعية ثانية.»

- «فلتجهد لوصلهما معاً.»
- «أيها القائد يو، لم أسمع بأي طبيب قام بذلك على مستوى العالم أجمع.»
- «أتظن أنني سأنتهي بهذه البساطة؟»
- «من الصعب القول بذلك أيها القائد، وربما يكون الأمر عكس ذلك، وقد يكون بإمكاننا الإبقاء على واحدة فقط.»
- «وهل ينفع ذلك؟»
- «نعم، من الممكن.»
- راح جدّي يلعن أبي وقد بدا عليه الحزن الشديد: «اللعنة عليك، لقد جعلتني أتعرض لكل المصائب.»

وبعد أن انتهى السيد جانغ من علاج الجزء السفلي من جسم أبي، قام بعلاج وجهه، كان السيد جانغ قد أصيب بإرهاق شديد. فسأله جدي: «كم أتعاكب أيها السيد جانغ؟»
فرد السيد جانغ بصوت متعب: «لا تتحدث معي في أية أموال أيها القائد يو، إن كل ما أتمناه أن أرى ابنكم يتعافى من إصابته.»

«أيها السيد جانغ، إنني يو جان أو أمرُّ الآن بفترة عصيبة في حياتي، وثقّ تماماً أنه سيأتي اليوم الذي أكافئك أعظم مكافأة على صنيعك هذا.»
سند جدّي ابنه وغادراً منزل السيد جانغ شين إي.

راح جَدِّي ينظر بقلب مفعم بالأسى إلى ابنه الملقى مغشياً عليه داخل الخيمة، كان وجه أبي مربوطاً بالشاش تماماً إلا من فتحتين صغيرتين عند عينيه. وكان السيد جانغ شين إي قد زار أبي مرة ليطمئن عليه وقام بتغيير الدواء الذي وصفه له من قبل، وأخبر السيد جانغ شين إي قائلاً: «أيها القائد يو، من حسن حظنا أن الجرح لم يلتهب.» فسأله جدي: «وهل ترى أنه لا يزال هناك أمل في هذا الابن الوحيد؟» فقال السيد جانغ: «أبها القائد يو، دعنا الآن من التفكير في ذلك الأمر، إن ابنكم تعرّض لعضة خطيرة من قِبَل كلب مصاب بالجنون، ولنحمد السماء على أنه لا يزال على قيد الحياة.» فقال جدي: «وماذا يجدي بقاؤه حياً إذا كان يعجز عن الحفاظ على نسل العائلة؟» وما إن رأى السيد جانغ جَدِّي على هذه الحالة، حتى حاول الانسحاب آمناً.

وهكذا كان جَدِّي مضطرباً للغاية، فحمل بندقيته وخرج ليختلي بنفسه بالقرب من الوادي، كان الجو خريفياً. فمضى جَدِّي يفكر أنهم الآن في نهاية شهر أكتوبر، وقد اقترب دخول الشتاء، وأنه لا يزال عليلاً ضعيفاً، وها هو ابنه الوحيد يرقد بين الحياة والموت، وقد تَشَتَّت شمل أسرته، وأصبح في مأزق شديد، مات وانغ قوانغ وده جه، وهجره الأعرج قوو يانغ إلى بلدته، ولا زالت قدم المرأة ليو تنزف حتى الآن، وها هو الرجل الضرير يجلس إلى جواره طوال اليوم، وها هي الفتاة تشينغ إر فتاة صغيرة لا تفهم هذه الحياة الكبيرة، وها هو الجيش الثامن يسعى لضمه إليهم، وها هو لينغ ماتزه يسعى للقضاء عليه، وها هو قد أصبح الآن عدواً لدوداً لليابانيين ... استند جَدِّي على عصاه وراح ينظر إلى الذرة الرفيعة الممتدة أمامه والممتلئة ببقايا الجثث، وراوده شعور بالقلق والحزن الشديدين. ومضى يتذكر الأحداث الماضية التي مر بها، ما بين الثراء والنعيم الذي عاشه، والزوجة والعشيقة، والعدة والعتاد، وحياة المجون التي عاشها بالأمس البعيد، ضاع كل هذا في لمح البصر. ضاع صراعه وكفاحه وبقي على هذه الحالة التي يُرئى لها. كان جَدِّي قد وضع يده على زناد بندقيته أكثر من مرة، ولكنه كان في كل مرة يتردد رافعاً يده بسرعة.

لقد كان خريف وشتاء عام ١٩٣٩م هُما أصعب فترة في تاريخ حياة جدي المليئة بالأحداث الكبرى، شهدت تلك الفترة انهيار فرقته، وقَتْل زوجته المحبوبة، وإصابة ابنه الوحيد إصابة خطيرة، وتدمير منزله تدميراً، وأصابه مَرَضٌ عُضال، وهكذا دَمَّرت الحرب كل شيء في حياته. ووقف جَدِّي هنالك أمام جثث البشر وجثث الكلاب، وراح يتأمل ذلك المشهد وهو في غاية الاضطراب. عاود وضع إصبعه على زناد بندقيته من جديد راغباً في أن يودع هذا العالم الوغد، إلا أن الرغبة القوية في الثأر سيطرت عليه. إنه يكره اليابانيين

ويكره لينغ ماتزه وفرقته، ويكره فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن كرهًا شديدًا. لقد استولى فريق جياو قاو على ما يزيد على عشرين قطعة سلاح من عنده، واختفوا تمامًا، حتى إنه لم يسمع أنهم اشتبكوا مع القوات اليابانية أي اشتباك، بل سمع فقط أنهم اشتبكوا ذات مرة مع فرقة لينغ ماتزه، بل إن جَدِّي كان يشك في أنهم هم الذين سرقوا الخمس عشرة قطعة سلاح التي أخفاها هو وأبي في بطن البئر.

جاءت المرأة ليو التي يزيد عمرها على الأربعين بقليل، والتي كان وجهها لا يزال يبدو جميلًا نضراً، جاءت إلى الوادي تبحث عن جدي. وراحت تنظر إليه نظرات يملؤها الود والشفقة، ومدّت يديها الغليظتين وراحت تمسك بذراعه قائلة: «أخي العزيز، لا تجلس هنا وتفكر بعيداً ... هيا بنا نرجع معاً. لقد قال أجدادنا: «كل قضية ولها حل». ولتهتم الآن بطعامك وشرابك وراحتك حتى تتعافى من مرضك ثم نفكر بعد ذلك في الخطوة التالية.»

راح جَدِّي ينظر متأثراً إلى وجه تلك المرأة الطيبة، ثم قال: «زوجة أخي العزيزة.» ثم كادت عيناه تذرفان الدموع.

فراحت المرأة ليو تمسح على ظهره قائلة: «انظر إلى نفسك، كيف تبدو على هذه الحالة وأنت لا تزال فوق الأربعين بقليل.»

سحبت المرأة ليو جَدِّي لتعود به إلى الخيمة، فنظر إلى قدميها اللتين كانت بهما آثار عَرَج وسألها: «هل تحسنت قدمك؟»

فأجابته المرأة ليو قائلة: «لقد اختفت القروح تماماً، ولكن هذه القدم أصبحت أكثر نحافة من أختها.»

فقال جدي: «ستتحسن فيما بعد.»

قالت المرأة ليو: «وأرى أنه ليست هناك خطورة كبيرة بشأن جرح دوو قوان.»
فسألها جدي: «زوجة أخي العزيزة، هل تعتقدين أن هناك أملاً في هذا الابن الوحيد؟»
قالت المرأة ليو: «نعم هناك أمل كبير، فكل ذي عاهة جبار.»

فقال جدي: «أحقاً كذلك؟»

قالت المرأة ليو: «ولقد وُلِدَ ابنك غلاماً، ولم يكن غير ذلك.»

فقال جدي: «أليس كذلك!»

وفي المساء، أراح جَدِّي رأسه المتعب في حضن المرأة ليو، وراحت المرأة ليو تمسح على رأسه وعظامه النحيفة بيديها الغليظتين، ثم همست إليه: «أخي العزيز ... هل لا تزال بخير؟ وهل لديك من القوة لتتسى كل همومك إلى جواربي؟»

وهكذا راح جَدِّي يتقرب إليها حتى غطَّ في نومٍ عميقٍ.
ولم تستطع أُمِّي أن تنسى المشهد عندما كان السيد الطبيب جانغ شين إي يُعالج جرح أبي، وقد بدأ في خياطة ذلك الجرح الخطير في الجزء السفلي من جسمه، فشعرت أُمِّي حينها بخجلٍ شديدٍ.

ثم اكتشفتُ بعد ذلك أن جَدِّي كان ينام جنباً إلى جنب إلى جوار المرأة ليو.
وقد صارحتُها المرأة ليو قائلةً: «يا تشينغ إر، إنك الآن قد بلغتِ الخامسة عشرة من عمرك ولم تعودِي فتاة صغيرة، فاهتمي جيداً بجرح دوو قوان، فإذا شُفي من جرحه هذا، فستكونين زوجةً له.»

عندها كادت أُمِّي أن تبكي من شدة الخجل.
وأخيراً التأم جرح أبي.

وبينما كان أبي يرقد داخل الخيمة، كانت أُمِّي تعمل جاهدة على خدمته. وذات مرة مدت يدها وراحت تلمس قضيبه كما كلَّفتها السيدة ليو، فانتهبه إليها أبي وسألها متعجباً: «ماذا تفعلين يا تشينغ إر؟»

صرخت أُمِّي في وجهه وفرَّت من أمامه حتى اصطدمت بجدي الذي كان قد أوشك على دخول الخيمة.

فأمسك جَدِّي برأسها وراح يسألها: «ما الذي حدث يا تشينغ إر؟»
فراحت أُمِّي تنشج بالبكاء. وخلصت رأسها من يدي جَدِّي وفرَّت إلى خارج الخيمة.
ودخل جَدِّي الخيمة ليطمئن على ابنه.

ثم خرج جَدِّي بعدها مسرعاً وكأنه قد أصابه الجنون، راح يبحث عن السيدة ليو، حتى وجدها وأمسك بنهديها وراح يصرخ في وجهها قائلاً: «لقد صدقتِ يا ليو، إنها رأس ثوم مفردة، رأس ثوم مفردة!»

ورفع جَدِّي بندقيته وأطلق ثلاث طلقات في عنان السماء. ثم رفع يديه ومضى يشكر السماء على شفاء ابنه الوحيد.

راح جَدِّي يَطْرُق بيده على جدار منزل العائلة، وقد انعكس شعاع الشمس إلى داخل فناء المنزل، حتى أضاء ذلك التمثال المصنوع من الصلصال والموضوع أعلى منضدة المدفأة. وظهرت النافذة التي كانت ممتلئة بالقصاصات الورقية ذات الألوان الجميلة المتعددة،

والتي كانت جدتي قد قصتها بيديها من قبل. وبعد خمسة أيام من هذه الزيارة لمنزل العائلة، كان كل شيء هنا قد تحوّل إلى رماد بفعل تلك الحرب الطاحنة. وفي ذات يوم من الأيام العشرة الأولى من شهر أغسطس عام ١٩٣٩م، عاد جدّي ثانيةً إلى المنزل قادماً من الطريق العام، وقد أُصيبت ذراعه ويفوح جسده برائحة الزيت. وقام بمساعدة أبي بدفن الرّشّاش الذي عادًا به أسفل شجرة الكاتالبا وسط فناء المنزل، ثم دخلًا إلى غرفة جدتي ليبحثًا عن العملات الفضية التي كانت جدتي قد أخفتها داخل الغرفة.

وطرق جدّي على جدار الغرفة فسمع صوت فراغ داخل الجدار، فسحب بندقيته وراح يضرب على الجدار، حتى أحدث فتحة في جدار الغرفة. فمد يده إلى داخل الفتحة، ليخرج كيسًا قماشياً أحمر، وراح يهزه حتى أفرغ ما بداخله من عملات على الأرض، ثم بدأ في عدها حتى بلغت خمسين عملة فضية.

أعاد جدّي العملات الفضية إلى داخل الكيس، وقال: «هيا بنا يا بني.»
فسأله أبي: «إلى أين يا أبتاه؟»

فأجابه جدي: «إلى المدينة لشراء ذخيرة، ولنستعد لتصفية حسابنا مع لينغ ماتزه.» وعندما وصلًا إلى شمال المدينة، كانت الشمس قد مالت إلى الغروب، وبدا شريط السكة الحديد في مدينة جياو جي وسط أعواد الدُّرّة مثل اللتين الطويل، وكانت القطارات السوداء تروح وتجيء على شريط السكة الحديد محدثةً صوتًا عاليًا. وقد غطّى غبار القطارات سماء الدُّرّة، وبدأ أبي يشعر بالفزع من صوت القطارات، فراح يتشبّث بيد جدي.

سحب جدّي ابنه حتى وصلًا إلى أمام قبر عالٍ وكبير، أمامه شاهد يبلغ ارتفاعه طول شخصين، والكلمات المكتوبة عليه تبدو غامضة جدًا ويصعب التّعرّف عليها، وكان القبر محاطًا من الجهات الأربع ببعض أشجار السرو الضخمة، والظلام يخيم على تلك الأشجار التي كان يصدر عنها صوت مسموع حتى مع توقف الرياح. وكان القبر محاطًا بالدُّرّة الحمراء حتى بدا كأنه جزيرة سوداء معزولة.

وقام جدّي بحفر حفرة أمام القبر، وأنزل داخلها مسدسه الماوزر، كما أنزل أبي أيضًا مسدسه الرونينج.

عبر أبي وجدي شريط السكة الحديد وراحا ينظران إلى باب المدينة. وقد علّق أعلى المدخل علم اليابان، وبدت الشمس التي تظهر على العلم جلية. وكان يقف عند فتحة الباب اثنان من جنود الحراسة، كان الجندي الذي يقف ناحية الشمال يابانيًا، بينما كان

الجندي الواقف ناحية اليمين صينياً. وكان الجندي الصيني مسئولاً عن سؤال العامة وتفتيش الذين يمرون عبر المدخل، وكان الجندي الياباني يقف في مكانه ممسكاً بسلاحه ومكتفياً بالنظر إلى عمل الجندي الصيني وقيامه بتفتيش الصينيين.

كان جدِّي قد حمل أبي على ظهره بمجرد أن عبراً شريط السكة الحديد، ثم خاطبه قائلاً: «تظاهراً أن ألماً يصيبك في بطنك، وابدأ في الصراخ بصوت مرتفع.»
فأصدر أبي صوتاً مسموعاً ثم سأل جدي: «أليس هكذا يا أبتاه؟»
فأجاب الوالد: «يجب أن تصرخ بصوت أعلى.»

ووصلنا مع بقية العامة إلى المدخل. فسألهم الجندي الياباني: «من أي قرية جئتم؟ وما الذي جاء بكم إلى المدينة؟»

فأجاب جدِّي بصوت مكتوم: «جئنا من قرية يو تان بشمال المدينة، وقد مرض ابني وجئنا إلى المدينة نقصد السيد الطبيب للعلاج.»

اهتم أبي بسماع حوار جدِّي مع الحارس ونسي ما أمره به أبوه من التظاهر بالألم. فقرصه جدِّي قرصة مميتة في قدمه، فصاح أبي بصوت مرتفع.

وأشار الحارس إيداناً منه بالسماح لجدي وابنه المريض بعبور المدخل. وعندما وصلنا إلى منطقة هادئة داخل حدود المدينة، راح جدِّي يسب ابنه غاضباً: «أيها الوغد، لماذا لم تتأوه كما أمرتك؟»

فرد أبي قائلاً: «أبتاه، ما أوجع قرصتك!»

اصطحب جدِّي ابنه وساراً عبر طريق ضيق ممتلئ بالحصى في اتجاه محطة القطار. بدأ الطريق مظلماً والهواء محملاً بالأتربة. وانتبه أبي إلى وجود دشمتين عاليتين إلى جوار مبنى محطة القطار المتهاك. ورأى هالة حمراء لون الدم تتوسط علم اليابان المعلق أعلى الدشمتين، كما انتبه إلى اثنين من الجنود اليابانيين على رصيف المحطة يسحبان زوجاً من الكلاب، بينما كان هناك عشرات من الركاب يصطفون خارج سياج حديدي ما بين جلوس ووقوف. ورأى رجلاً صينياً في زي أسود يمسك بمصباح أحمر ويقف على الرصيف، بينما سمع صوت صافرة القطار القادم من ناحية الشرق. كان أبي في رعب شديد، ثم انتبه فجأة إلى نباح الكلبين في اتجاه القطار القادم من بعيد. ورأى عجوزاً تبع ورق التبغ تقف حائرة بين المسافرين. وأخيراً دخل القطار المحطة ووقف على الرصيف القريب منهم. ورأى أبي أن القطار يسحب خلفه ما يزيد على عشرين صندوقاً طويلاً، كانت الصناديق الأمامية مربعة لها باب ونافذة، بينما كانت الصناديق الخلفية خالية من السقف والأغطية، كان بداخلها كميات من الأشياء مغطاة بغطاء كبير من القماش

الأخضر في لون العشب. وكان يقف داخل القطار عدد من الشياطين اليابانيين راحوا يُتمتَمون ليحيوا الشياطين الواقفين على الرصيف.

سمع أبي صوت طُلق ناري مدوّ قادمًا من حقول الذرة الواقعة إلى شمال شريط السكة الحديد، ثم انتبه إلى مشهد تمايل جندي ياباني ضخم الجثة، ظل يتمايل حتى هوى من فوق سطح قطار البضائع. دوى صوت صافرات الإنذار من أعلى الدُشم العالية، بينما تفرقت جموع الركاب الذين نزلوا للتو من القطار وهؤلاء الذين يستعدون لاستقلاله وراحوا يفرون في جميع الاتجاهات، وارتفع صوت نباح الكلاب بشكل مستمر، تم تصويب الرشاشات المثبتة أعلى الدشم العالية صوب الشمال. ووسط هذا الصخب والفوضى العارمة تحرك القطار مسرعًا وتناثر الدخان الأسود ليملاً سماء المحطة. وسحب جدي ابنه وفرًا مسرعين داخل زقاق صغير مُظلم.

دفع جدي بابًا شبه مُغلق ودلفًا إلى داخل فناء صغير. ورأى جدي فانوسًا أحمر صغيرًا معلقًا أسفل أحد المنازل، ينعكس منه ضوء أحمر باهت بعض الشيء. ورأى سيدة كبيرة في السن إلى حدٍّ ما وقد امتلأ وجهها بالمساحيق تقف عند باب المنزل، تكشف شفتاها عن صفيين من الأسنان البيضاء، ترتسم على وجهها ابتسامة مشرقة، ذات شعر أسود لامع مُرسل.

نادت تلك المرأة عليه بصوت فيه دلال «أيها الأخ، أهكذا نسيت أختك الصغيرة بمجرد أن أصبحت قائدًا». ثم اقتربت من جدي والتصقت به.
رد عليها قائلاً: «فلتتزمي الوقار أمام ابني.»

انصرفت المرأة من أمامه، ودفعت الباب الكبير ليسقط ذلك الفانوس الأحمر. ودخلت إلى المنزل وضمت شفتيها وقالت: «لقد أصاب مكتب الحرس أخي الخامس!»
فقال جدي: «أليس أن سونغ شون من مكتب الحرس هو الأخ الأكبر لهذا الأخ الخامس الذي تقصدينه؟»

فأ قالت المرأة: «وهل تعتقد أنه يمكن الاعتماد على مثل هذه الإخوة التي تكوّنت على مائدة شراب؟ بمجرد أن حدثت الحادثة هناك في تشينغ داو، أصبحت هنا في مأزق صعب للغاية.»

قال جدي: «إن الأخ الخامس لن يضحى بك، إنه رجل شديد الحمية، وقد أبدى ذلك خلال عهد رئيس المدينة تساو مينغ جيو.»

– «وما الذي جاء بك إلى هنا: وقد سمعت أنك قاتلت اليابانيين؟»

- «لقد مُنيتُ بخسارة فادحة! اللعنة كل اللعنة على لينغ ماتزه.»
- «ابتعد عن هؤلاء الشياطين، فإنهم آية في المكر والدهاء، وأنت لست نداءً لهم.»
أخرج جَدِّي صرة العملات الفضية من جيبه وألقى بها على المنضدة، ثم قال: «لك هذا أيتها العاهرة.»
- «أي عاهرة تقصد، لقد انتهيتُ تمامًا منذ رحيل الأخ الخامس، كما أنني كما ترى لا أتقن استخدام السلاح.»
- «كفك من اللّف والدوران! ولتأخذي هذا المبلغ لتصرفي شئون حياتك، ولتتذكري جيدًا أنني لم أُسئ معاملتك من قبل.»
قالت المرأة: «أخي الفاضل، ما هذا الذي تقوله، أنا لست غريبة عنك.»
رد جَدِّي ببرود: «لا تثيري غضبي!»
فقالت المرأة: «لن تتمكّنا من الخروج من المدينة.»
- «لا شأن لك بهذا الأمر. عليك فقط أن تعطيني خمسمائة طلقة كبيرة وخمسين طلقة صغيرة.»
خرجت المرأة إلى الفناء وراحت تتحسّس الوضع هناك، عادت ثانيةً إلى الغرفة، ثم دفعتُ بابًا مظلمًا داخل جدار الغرفة، ومدّت يدها لتأخذ من صندوق أصفر لامع الطلقات النارية التي تستخدم في المسدسات والطبنجات.
وجاء جَدِّي بجوال وعبّاه بالطلقات النارية وربطه حول خصره ثم قال: «هيا بنا يا بني!»
اعترضت المرأة طريقه قائلةً: «ما خطتكم في الخروج من المدينة؟»
فقال جدي: «سنخرج من خلال محطة القطار، سنقفز فوق شريط السكة الحديد.»
قالت المرأة: «مستحيل، يوجد هناك دشم عالية مزودة بكشافات إضاءة كبيرة. وهناك أيضًا كلاب وجنود حراسة.»
فابتسم جَدِّي ثم قال: «فلنحاول، وإذا فشلنا سنعود ثانيةً.»
وسار جَدِّي وأبي بمحاذاة الزقاق الصغير المظلم حتى قريبًا من محطة القطار، لا يوجد هنا سور يلف المدينة. اختبأ أسفل جدار كشك عامل السكة الحديد، وراحا ينظران إلى الرصيف المضاء بالمصابيح الكبيرة، وإلى جنود الحراسة الواقفين على الرصيف. فهمس جَدِّي لأبي همسة ثم سحبه واستدارا عائدَيْن ناحية الغرب، كان يوجد هنا غرب مبنى المحطة سوق بضائع كبير مكشوف، يمتد حول شبكة أسلاك من مبنى المحطة حتى

أعلى السور المحيط بالمدينة. وكانت الكشافات الكبيرة أعلى الدشم تضيء المنطقة لمسافات بعيدة. كما كان هناك عدد من المصابيح الكبيرة؛ مصابيح النيون مثبتة أعلى أعمدة عالية وسط السوق، أضواء كل شبر داخل السوق إضاءة تامة.

وانبطح أبي إلى جوار جدِّي وراحا ينظران إلى جنود الحراسة الذين كانوا يَدْرَعُونَ السوق جيئةً وذهاباً.

ثم دخلت من الناحية الغربية سيارة بضائع كبيرة، وأضواء مصابيحها المكان ثم سلط السائق يده على بوق السيارة.

ونجح جدِّي وأبي في الزحف إلى جانب السلك الشائك، وراحا يستخدمان أيديهما في محاولة لفتح فتحة في السلك يمكن الخروج من خلالها إلى خارج المدينة. ولكن السلك كان معقداً جداً، لدرجة أن قطعة منه أصابت كف يد أبي، فراح يتأوه بصوتٍ ضعيفٍ.

وسأله جدِّي بصوت خفيض: «ماذا بك؟»

فأجابه أبي بنفس الصوت: «لقد جرحت يدي يا أبتاه.»

فقال الأب: «إذا لم نستطع العبور من خلال هذا السلك فعلينا العودة ثانية!»

قال أبي: «ليتنا نستخدم السلاح في هذا الموقف.»

فقال جدي: «لن ننجح في الخروج من هنا حتى ولو كنا نمتلك سلاحاً.»

قال أبي: «إذا كان لدينا سلاح فسنضرب به ذلك المصباح الكبير!»

ترجع جدِّي وأبي إلى منطقة مظلمة، وتحسس جدِّي قطعة طوب ثم رماها بما أوتي من قوة على شريط السكة الحديد. فصاحت صافرات الإنذار بطريقة جنونية، وسُمع دوي طلقة نارية، تم تسليط الكشافات على جميع أرجاء المنطقة، ثم سمعوا صوت طلقات نارية بشكل متواصل، كادت تُصاب أذن أبي بالطرش من شدة الصوت الذي زلزل المكان. وفي الخامس عشر من شهر أغسطس الذي يوافق عيد منتصف الخريف،^٢ ازدحمت مدينة قاو مي بالأهالي احتفالاً بالعيد. وعلى الرغم من الحرب الدائرة آنذاك فإن الأهالي

^٢ عيد منتصف الخريف: الذي يوافق الخامس عشر من شهر أغسطس حسب التقويم القمري الصيني من كل عام (الخامس عشر من سبتمبر حسب التقويم الميلادي)، هو أحد الأعياد الصينية التقليدية الأربعة الكبرى، التي تضم عيد الربيع، وعيد منتصف الخريف، وعيد الفوانيس، وعيد قوارب التنين. يتم الاحتفال بهذا العيد أيضاً في اليابان وفيتنام وشبه الجزيرة الكورية فهو أحد الأعياد التقليدية المهمة في منطقة شرق آسيا. ويعتبر من الأعياد التي تُعطل فيها المصالح الحكومية لمدة يوم كامل في الصين. ويتمتع هذا العيد ببعض العادات والتقاليد الخاصة مثل تناول الكعك وبعض الرقصات. (المترجم)

كانوا يجب أن يعيشوا حياتهم، وبالتالي فهم في حاجة للمأكل والملبس والتَّردُّد على الأسواق ليبتاعوا ما يلزمهم من ضرورات الحياة. وهكذا كان الطريق يَعَج بالعائدين من المدينة والغادين إليها. وفي الثامنة صباح ذلك اليوم الموافق عيد منتصف الخريف، كان هناك شاب يُدعى قاو رونغ استلم نوبة حراسته عند المدخل الشمالي لمدينة قاو مي، وكان يقوم بتفتيش الأهالي الغادين إلى المدينة تفتيشاً دقيقاً صارماً، كان الشاب الصيني قاو رونغ قد انتبه إلى أن الجندي الياباني الواقف أمامه يراقبه وينظر إليه نظرات مرتابة.

مر من أمامه شيخ فوق الخمسين معه صبي فوق العاشرة، وكانا في طريق عودتهما من المدينة يجران خروفاً صغيراً. وقد بدأ وجه الشيخ متشخَّحاً بالسواد ويبدو على عينيه التعب والإرهاق الشديد، بينما كانت عيناً الصبي حمرة وقد امتلأ وجهه بالعرق من شدة التوتر.

وقف عدد كبير من الأهالي عند المدخل في انتظار التفتيش، حيث بدأ الشاب قاو رونغ في مزاوله عمله بصرامةٍ شديدة.

– «ما وجهتك؟»

فأجاب الشيخ الكبير: «في طريق العودة إلى منزلي.»

– «وهل ستتخلف عن السوق؟»

– «لقد انتهيت من شراء ما أحتاج إليه، لقد اشترت هذا الخروف الذي شارف على

الموت من شدة المرض، إنه رخيص جداً.»

– «ومتى دخلت المدينة؟»

«دخلتها بعد ظهر يوم أمس، وكنت أقيم في منزل أحد أقربائي، وقد اشترتُ هذا

الخروف في وقت مبكر جداً.»

– «وإلى أين ستذهب الآن؟»

– «سأغادر المدينة عائداً إلى منزلي.»

– «مع السلامة!»

وهكذا استطاع جدِّي وأبي أن يخرجًا من المدينة بهذا الخروف المريض. الذي كانت بطنه ممتلئة جداً حتى كان يسير بصعوبة شديدة. كان جدي يمسك بورقة من أوراق الدُّرة ويضرب بها على مؤخرته ليحثه على السير. بينما كان الخروف يَتَّغو بصوت مبجوح ويهز ذيله بصعوبة وهو يجري صوب الطريق الترابي الواصل لقرية دونغ بي التابعة لمدينة قاو مي.

أخرج جَدِّي وأبي الأسلحة التي كانا قد دفناها أمام القبر.
وسأل أبي: «أبتاه، هل سنطلق هذا الخروف؟»

فرد جدي: «لا، سنأخذه معنا ونقتله فور عودتنا إلى القرية ونقضي به عيد منتصف الخريف.»

ووصل جَدِّي وأبي إلى القرية في وقت الظهر، وعندما نظرًا من بعيد إلى السور الترابي العالي الذي تم تشييده مؤخرًا والذي يحيط بالقرية، سمعًا صوت طلقات نارية تدوي داخل حدود القرية وخارجها، فتذكر جَدِّي على الفور قلق السيد جانغ روا لو قُبيل توجهه وأبي إلى المدينة، وتذكَّر أيضًا ما كان يدور برأسه خلال الأيام الأخيرة، وعرف على الفور أن المصيبة قد نزلت بهذه القرية. وعلى الرغم من المخاطرة الشديدة في الخروج من المدينة، فإنه قد استطاع أن يخرج منها بهذا الخروف، وسيفعل ما يمكنه أن يفعله تجاه هذه القرية.

قام جَدِّي وأبي بحمل الخروف شبه الميت إلى داخل حقول الذُّرة. ثم قام جَدِّي بفك الحبل الذي يربط مؤخرة الخروف. وعندما قام جَدِّي بفك الحبل تذكر مشهد قيام تلك المرأة بوضع الطلقات النارية داخل مؤخرة الخروف، وقد نجحت في وضع خمسمائة وخمسين طلقة داخل مؤخرته حتى تَقَوَّسَتْ مؤخرة الخروف من شدة ثقلها. وكان أبي في غاية القلق طوال الطريق، فكان أحيانًا يساوره القلق لأن تنفجر الطلقات النارية داخل بطن الخروف، وأحيانًا أخرى يخشى أن يقوم الخروف المسكين بابتلاع هذا العدد الكبير من الطلقات النارية.

قام أبي بفتح مؤخرة الخروف لتنزل منها كمية كبيرة من الفضلات التي تخزنت لفترة طويلة، حتى شعر أبي باشمئزاز شديد من تلك الرائحة الكريهة التي ملأت المكان. وساعد جَدِّي الخروف على النهوض، ثم راح ينظر في جميع الاتجاهات من حوله، ثم بدأت تتساقط الطلقات النارية من بطن الخروف.

وبدأ جَدِّي وأبي في جَمْع الطلقات النارية من على الأرض ووضعها داخل جوال وقد انشغلًا انشغلاً تاماً بجمع الطلقات النارية دون أن يَهْتَمَّا بأمر الخروف المسكين، ثم خرجا من حقول الذُّرة قاصدين القرية.

كان الشياطين اليابانيون قد نجحوا في محاصرة القرية حصارًا تامًا وامتلأت سماء القرية بدخان الطلقات النارية، وكانت هناك كُرَات من اللهب تبدو مشتعلة في سماء القرية. وبدأ جَدِّي وأبي بالنظر إلى المدافع الصغيرة التي كانت مدسوسة داخل حقول

الدُّرَّة. والتي كان يبلغ عددها ثمانية مدافع، يصل طول ماسورة المدفع إلى نصف طول الإنسان، تتقدم الماسورة فتحة دقيقة. كان هناك ما يزيد على عشرين جندياً يابانياً في زي عسكري أصفر يقومون بإطلاق المدافع صوب القرية، وكان هناك أيضاً شيطان ياباني نحيف جداً يقف هناك ويلوح بعلمٍ صغير. وكان يقف خلف كل مدافع شيطان ياباني ممسكاً بدانة المدفع في انتظار إشارة ذلك الشيطان النحيف المسك بالعلم. وبمجرد أن أطلق الشياطين المدافع تزلزلت الأرض من حولهم وامتلاّت سماء المنطقة بالدخان الكثيف، كانت هناك أشياء سوداء صغيرة تطير إلى السماء محدثةً صوتاً قوياً قبل أن تسقط على السور الترابي. ثم قام الشياطين بإطلاق كمية جديدة من المدافع، وعندها أصيب جدّي بذعر شديد وكأنه قد أفاق من حلم طويل وأخذ بمسدسه وأردى ذلك الشيطان الياباني النحيف قتيلاً. وبمجرد أن انتبه أبي إلى تساقط ذلك الياباني النحيف مثل الفجلة الجافة عرف على الفور أنه قد دقت طبول الحرب. فأمسك بسلاحه وأطلق طلقة نحو قاعدة المدافع اليابانية. قام الشياطين بإطلاق النار تجاه جدّي وأبي، حتى قام جدّي بسحب أبي إلى داخل حقول الدُّرَّة.

وهنا بدأ هجوم الشياطين اليابانيين والقوات التابعة للإمبراطور، كانت القوات التابعة للإمبراطور في المقدمة، بينما كان الشياطين من خلفهم.

وهكذا تم إطلاق عدد من القذائف داخل حقول الدُّرَّة. بينما كان السور الترابي ساكناً تماماً. وعندما تقدّمت القوات التابعة للإمبراطور إلى السور الترابي، بدأت تدوي عشرات القذائف اليدوية على السور الترابي — ولم يكن جدّي يعلم أن هذه قذائف غير جيدة اشتراها السيد جانغ روا لو من مصنع فريق لينغ ماتزه للأسلحة — وبمجرد أن انفجرت القذائف دفعة واحدة، سقط عشرات من جنود القوات التابعة للإمبراطور، بينما لاذ البعض الآخر منهم بالفرار، وقد تبعهم الشياطين اليابانيون. وظهر على السور الترابي عشرات الأشخاص يحملون أسلحة ومدافع محلية الصنع، وراحوا يطلقون النيران بسرعة ثم اختفوا ثانيةً. ليعم السكون فوق السور الترابي من جديد.

وقد عرف أبي وجدي فيما بعد، أن هذه المعركة الحامية كانت قد وقعت أيضاً في شمال القرية وشرقها وغربها.

ثم بدأ الشياطين في إطلاق المدافع من جديد، وقد حدّدوا هدفهم هذه المرة صوب مدخلي القرية، حتى استطاعوا تحطيمهما وأحدثا بهما فتحة كبيرة.

قام جَدِّي وأبي بقصف الجنود اليابانيين. أطلق جَدِّي أربع طلقات أسقطت اثنين من الشياطين. بينما أطلق أبي طلقة واحدة، وقد حدَّد أبي هدفه صوب جندي ياباني كان يقف فوق المدفع ممسكًا بدانته. ولمزيد من الأمان، كان أبي قد أمسك بمسدسه البروننج بكلتا يديه وصوَّب نحو الجندي الياباني طلقة أصابت مؤخرته. فراح الجندي الياباني يتهاوى حتى وقع على المدفع الذي انفجرت دانته وكادت أن تفتك بأبي. وبعد عدة سنوات من ذلك اليوم، كان أبي قد نسي ذلك الانتصار العظيم الذي حَقَّقْتَهُ تلك الطلقة.

وهكذا تم تدمير الباب الرئيسي للسور الترابي، ثم بدأ الجنود اليابانيون المُمتَطون الخيول في الهجوم على القرية شاهرين سيوفهم. وقد راح أبي ينظر إلى تلك الخيول الأجنبية الجميلة وهو في غاية الإعجاب بها. وهكذا انطلقت الخيول اليابانية وسط الذُّرَّة حيث اعترضتْها أعواد الذُّرَّة حتى كانت لا تستطيع أن تجري بسرعتها المعهودة. وعندما هاجمت الخيول باب السور، كانت قد تجمعت هنالك وراحت تضرب بأقدامها وكأنها تقف أمام باب الإسطبل الخاص بها. وبينما هي كذلك، إذا بعدد كبير من المناجل الخشبية والأمشاط الحديدية وتقريبًا كميات كبيرة من الذُّرَّة المطبوخة تسقط فوق رءوس الجنود اليابانيين، الذين راحوا يضعون أيديهم فوق رءوسهم لحمايتها من تلك الأشياء التي تنزل عليهم من جميع الاتجاهات، وقد راحت الخيول تضرب بأقدامها مذعورة، فمنها ما حاول اقتحام السور ودخل إلى القرية ومنها ما لاذ بالفرار.

وعندما رأى جَدِّي وأبي مشهد هجوم الخيول، ارتسمت على وجهيهما ابتسامة غريبة. وهكذا أثارت مضايقات جَدِّي وأبي تحرك الأعداد الغفيرة من القوات التابعة للإمبراطور، ثم شاركت بعد ذلك جموع كبيرة من الخيول. وكانت السيوف اليابانية قد لمعت أكثر من مرة فوق رأس أبي، ولكن كانت تمنعها في كل مرة أوراق الذُّرَّة وأعوادها التي كان أبي يحتمي بها. كما أصيبت صلعة جَدِّي بطلقة نارية أحدثت بها فتحة واضحة. استطاعت أعواد الذُّرَّة الكثيفة أن تحمي حياة جَدِّي وأبي وتنقذهما، كانا يَفْران من أمام القوات اليابانية مثل الأرانب ويلجآن إلى أعواد الذُّرَّة لينزرا أسفلها زرعًا. وأخيرًا عند الظهيرة، استطاع جَدِّي وأبي أن يَفْرًا إلى ضفة نهر موا شوى.

وقد قاما هنالك بإحصاء ما تبقى معهم من طلقات نارية، ثم دلَّفًا ثانية إلى داخل حقول الذُّرَّة. وما إن سارا مسافة حوالي نصف كيلومتر، حتى سمعا أمامهما صوتًا ينادي قائلاً: «أيها الرفاق، انقَضُوا، انقَضُوا للقضاء على الإمبريالية اليابانية.»

وبعد أن سكت الصوت، سمعًا صوت صافرة إنذار عسكرية، كان صوتها قويًا وكأنه صوت انفجار زوج من الرشاشات الثقيلة داخل حقول الذُّرة.
شعر جَدِّي وأبي بإثارة وانقضًا نحو مصدر الصوت. وما إن تقدَّمَا إلى الأمام، لاحظًا أنه لا يوجد أحد في هذا المكان، وشاهدًا فقط زوجًا من علب الزيت الحديدية مُعلَّقة على أعواد الذُّرة، وهناك بداخلها زوج من عناقيد المفرقات تنفجر بصوت مدوٍ.
ثم سمعًا صوت الإنذار العسكري وصوت الصياح ثانيةً.
فابتسم جَدِّي ابتسامة ساخرة ثم قال: «تبًّا لكم أبناء الجيش الثامن، لقد تعلَّمتم هذه الحيل.»

وهكذا راحت العلب الحديدية تحدث صوتًا مدويًا استطاع أن يرغم حبات الذُّرة التي تعهدتها جيدًا على التساقط.

كانت القوات اليابانية والقوات التابعة للإمبراطور تارةً تطلق النيران وتارةً أخرى تهاجم للأمام. وهنا سحب جَدِّي أبي وتراجعًا إلى الخلف. ثم تقدَّم عدد من أفراد الجيش الثامن إلى الأمام وهم يضعون القذائف اليدوية حول خصورهم. كان أبي قد رأى أحدهم يسجد على الأرض ممسكًا بمسدس، ثم أطلق طلقة تجاه أعواد الذُّرة التي كانت تهتز بشدة بسبب اصطدام الخيول اليابانية بها، كان صوت الطلقة ضعيفًا. ثم راح ذلك الرجل من الجيش الثامن الذي أطلق الطلقة يجر كمية من أغلفة الطلقات النارية، ولكنه بدأ غير قادر على جرِّها. تقدَّم حصان ياباني نحو الرجل، وقد رأى أبي الجندي الياباني الذي كان يركب الحصان يهوي على الرجل بخنجره، فألقى الرجل بمسدسه وفرَّ هاربًا، فلاحقه الجندي الياباني، وقد أصابه الخنجر في رأسه إصابة خطيرة شقت رأسه نصفين، وسالت منها كمية كبيرة من الدماء ملأت أوراق الذُّرة المحيطة به. فأغمض أبي عينيه عن هذا المنظر البشع وانبطح على الأرض ليتفادى النظر إلى الرجل الجريح.

استطاعت الخيول اليابانية أن تفرق بين جَدِّي وأبي. وغطت الشمس أعواد الذُّرة، وممرت ثلاثة ثعالب من أمام أبي، فمد أبي يده وأمسك بالذيل اللطيف لأحدهم، فسمع على الفور صوت صياح ثعالب داخل حقول الذُّرة، وقفز نحوه ثعلب كبير ذو شعر أحمر وأعلن عن غضبه تجاه أبي، فهبَّ أبي للدفاع عن نفسه حتى استطاع طرد الثعلب الكبير والصغير.

ودوت أصوات الطلقات النارية في شرق القرية وغربها وشمالها، في حين بدت المنطقة الجنوبية من القرية هادئة وساكنة تمامًا. وراح أبي بدايةً ينادي جَدِّي بصوت خفيض،

ثم ارتفع صوت صياحه عاليًا. ولكنه لم يسمع صوت جدي. وظلَّت الغيوم رأس أبي، فراح يجري قلقًا نحو مصدر الطلقات النارية. وقد بدت حقول الذُّرة أكثر ظلامًا، وبدا المنظر داخلها مرعبًا جدًّا، وهنا أجهش أبي بالبكاء.

وخلال رحلة البحث عن أبيه، كان أبي قد صادف ثلاثة جثث لأفراد من الجيش الثامن التابع للحزب الشيوعي، ولقوا حتفهم بواسطة سيوف الشياطين اليابانيين، وبدت وجوه الجثث الثلاثة مرعبة جدًّا. واقتحم أبي جماعة من أهالي البلدة كانوا يمسون بحبال وسلاسل، جالسين داخل حقول الذُّرة وقد لفهم الخوف والرعب الشديدان.

سألهم أبي: «هل رأيتم أبي؟»

فسأله الأهالي: «أيها الابن الصغير، هل فتحت القرية بعد؟»

وقد عرف أبي لهجة مدينة جياو التي كانوا يتحدثون بها. وسمع صوت شيخ كبير يوصي ابنه قائلاً: «الأعمدة الفضية، الأعمدة الفضية، تذكر هذا جيدًا، وبالطبع فإنني أريد أيضًا الألفية القطنية المتهاكّة، وابدأ بالحصول على قدر صناعة الطعام فقد تهالك القدر الذي نستخدمه منذ مدة طويلة.»

ولم يُعِزهم أبي أدنى اهتمام، واستمر في طريقه صوب الشمال. وعندما اقترب من القرية، ظهرت أمامه تلك المشاهد التي كثيرًا ما راودت أمه وأباه وراودته هو شخصيًا في أحلامه. ودوّت أصوات الطلقات النارية في شرق وشمال وغرب القرية، وخرج جميع الأهالي، شيوخ وأطفال ورجال ونساء مذعورون، وراحوا يحتمون بحقول الذُّرة الممتدة خارج حدود القرية.

دوّت الطلقات النارية بالقرب من أبي، رأى حينها عددًا كبيرًا من الطلقات النارية تطير أمامه وتُزلزل حقول الذُّرة. حتى أسقطت تلك الطلقات النارية هؤلاء الأهالي الفارين وأعواد الذُّرة التي كانوا يحتمون بها. وسالت دماؤهم لتغطي مساحة كبيرة جدًّا أمام مرمى بصره. أصيب أبي بذهول شديد، وجلس مكانه وراح ينظر إلى برك الدماء التي ملأت المكان من حوله.

وهكذا نجحت القوات اليابانية في دخول القرية.

وغربت شمس ذلك اليوم مخضبة بدماء الشهداء، واقترب موعد طلوع قمر يوم عيد منتصف الخريف من شهر أغسطس فوق حقول الذُّرة الممتدة أمام القرية.

وهنا سمع أبي صوت جدِّي يناديه بصوت مبوح: «يا دوو قوان!»

جنازة وسط الذرة

١

سطعت شمس أبريل الحارقة على نهر موا شوى، وبدت مياهه دافئة مثل زيت الصويا الذي تم عَصْره للثَوِّ. وبدأت تخرج من النهر جماعات من صغار الضفادع راحت تنتشر في كل مكان. وامتلاَّت ضفة النهر بفضلات الكلاب. وكان هذا اليوم يوماً ساراً بالنسبة لجماعات الطيور المُحلَّقة فوق النهر. فراحت العصافير تشدو بأصواتها الجميلة. وراحت طيور السنونو تسبح وسط النهر. وبدت التربة السوداء بقرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي في حركة مستمرة تحت أجنحة الطيور المُحلَّقة فوق سمائها. وهبَّت الرياح الجنوبية الغربية الحارة. وتناثرت كميات كبيرة من الأتربة على طريق جياو بينغ العام.

كان هذا اليوم من الأيام السعيدة في حياة جدتي، كان جدِّي الذي تولى زعامة الجماعة الحديدية خلفاً للزعيم «أبو شامة»^١ قد قرر أن يقيم جنازة كبيرة لجدتي التي تُوفِّيت منذ ما يقرب من عامين. وكان قد عبَّر عن رغبته هذه أمام القبر المؤقت الذي شيَّده لجدتي. ذاع خبر هذه الجنازة الكبيرة وانتشر في جميع أرجاء قرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي قبل شهر من اليوم، وتم تحديد يوم موعد الجنازة لتكون في اليوم الثامن من الشهر الرابع. وفي صباح اليوم السابع من الشهر الرابع، توافدت إلى القرية وفود كبيرة من الأهالي القادمين من أماكن بعيدة مستقلين العربات التي تجرها الحمير والأبقار،

^١ الزعيم أبو شامة: حيث كانوا قد لقبوه «أبو شامة»، بسبب تلك الشامة السوداء التي كانت تظهر إلى جانب عينه اليمنى. (المترجم)

وكانت محملة بالنساء والأطفال. كما جاء إلى القرية عدد كبير من صغار التُّجَّار والباعة المتجولين لاستغلال فرصة تَجْمُع هذا الحشد الكبير من الأهالي وتحقيق الأرباح. امتلأت شوارع القرية وأسفل الأشجار الواقعة عند مدخل القرية بالأفقران والقذور والخيم التي تم تجهيزها لاستقبال هذا اليوم الكبير. كما امتلأت القرية بالشيوخ والرجال والنساء من كل الأعمار.

في ربيع عام ١٩٤١م، وخلال الاشتباك الذي وقع بين فرقة لينغ ماتزه التابعة للحزب الوطني، وفرقة جياو قاو التابعة للحزب الشيوعي، وخلال الهجوم الذي خَطَّط له جَدِّي زعيم التنظيمات الحديدية، وخلال الالتحام مع القوات الموالية لليابانيين، تَدَهَوَّرت حالة لينغ ماتزه كثيرًا. وقيل إنه فرَّ هاربًا إلى غابات منطقة سان خه الجبلية للراحة والاستشفاء، بينما اختبأت قوات جياو قاو التابعة للحزب الشيوعي في منطقة دا تزه الجبلية حتى تلتئم جراحهم. وعلى الرغم من التنظيمات الحديدية التي كَوَّنَهَا جَدِّي مع عدد من منافسيه القُدَامَى، واستطاعوا خلال فترة زمنية قصيرة تطويرها ليكونوا قوة عسكرية تَمْتَلِك ما يزيد على مائتي بندقية وما يزيد على خمسين حصانًا من الخيول الأصيلية المدربة على الحرب، نقول على الرغم من ذلك فإنه بسبب غرابة هجماتهم والطابع الديني الذي كان يغلب عليهم، لم يَتَمَكَّنُوا من جَذْب انتباه القوات اليابانية والقوات الصينية الموالية لليابانيين. ويُعْتَبَر عام ١٩٤١م أكثر الأعوام التي شَهِدَتْ فيها حرب المقاومة ضد اليابان وحشية وقسوة لم يَسْبِقْ لها مثيل خلال سنوات هذه الحرب، ولكن على الرغم من ذلك، كانت قرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي تبدو خلال هذا العام قرية هادئة يَعمُها السلام والأمان؛ إذ قام الأهالي ببذر محصول الذُّرَّة الجديد فوق الجثث الكثيرة التي امتلأت بها حقولهم. وبعد بذر البذور، كانت قد نزلت نوبة أمطار متوسطة، خضبت الأراضي الخصبة بقرية دونغ بيبي، وَسَطَعَت الشمس حتى ظهرت براعم الذُّرَّة. وقبل موعد المرة الأولى لحرث الذُّرَّة، حل موعد اليوم الثامن من الشهر الرابع، موعد جنازة جدتي، التي صادفت موسم الفراغ من العمل في مجال الزراعة.

وفي مغرب اليوم السابع وعشية يوم الجنازة، امتلأت القرية بالأهالي الذين خرجوا يُلْمِلمون الأشياء الكثيرة التي دَمَّرَتْهَا النيران التي أصابت القرية في الخامس عشر من الشهر الثامن عام ١٩٣٩م. وقفت عشرات العربات التي تَجَرَّها الحيوانات في عُرْض الطُرُقَات التي امتلأت بالغبار الشديد، وقفت العربات الكبيرة لتفريغ حمولتها من البهائم: الحمير والأبقار والأشجار. وسطعت شمس الربيع على جلود تلك البهائم، واكْتَسَتْ أوراق

الأشجار التي لم تنضج بعدُ بالحرمة، وبدت أوراقها مثل الأوراق النَّدقية القديمة التي كانت تبدو مطبوعة على ظهور البهائم المحيطة بها.

وعند غروب شمس ذلك اليوم، دخل القرية طبيب مُتخصِّص في الطب التقليدي من خلال الطريق الواقع عند الناحية الغربية للقرية على ظهر بغل. وظهر رجل ذو أنف أسود كبير، يرمي جميع ما حوله بنظرات حادَّة. وما إن دخل الرجل القرية حتى نزل عن ظهر بغله النحيف، وراح يهز الجرس النحاسي اللامع المُعلَّق في رقبة البغل، ومضى يسحب البغل من الحبل الأزرق المربوط برقبتة، ومضى إلى الأمام قاصدًا وسط القرية. وكانت قد بدت على البغل النحيف معالم الشيخوخة، فكان يسير بخطوات متباطئة وبدأ جسده ممتلئًا بالقروح.

مضى الطبيب وبغله النحيف يتقدمان جموع الأهالي، حتى أثارًا فضول تلك الجموع الكبيرة المحتشدة التي تجمَّعت لرؤية الطبيب عن قُرب. بدأ الرجل وبغله غريبين تمامًا، وبدأ صوت الجرس النحاسي صوتًا ساحرًا. وتبعه عدد من الأهالي الذين كانوا في غاية الإثارة لمراقبة هذا الرجل، مَضُوا وراءه مُسرِّعين حتى تطاير الغبار من تحت أقدامهم ليغطي الرجل. فراح الرجل يحرك عينيه ويمسح على أنفه التي بدت ملفتة للجميع. وعطس الرجل عطسة قوية، كما خرجت ريح كريهة من بطن البغل النحيف. فوقف الأهالي جامدين، ثم هموا بالضحك وتفرَّقوا وراح كل منهم يبحث لنفسه عن مأوى.

اتَّسخت القرية بالظلام، وهبَّت عليها رياح باردة قادمة من الخلاء الواسع خارج حدود القرية، وسمع الأهالي أصوات نقيق الضفادع القادم من اتجاه نهر موا شوى، وبدأت جموع القادمين إلى القرية للمشاركة في جنازة جدي في التجمع، لم تسعهم حدود القرية، فخرجوا إلى حقول الدُّرة واتخذوها مأوى لهم حتى الصباح، تم تدمير مساحات شاسعة من حقول الدُّرة خلال الجنازة، دمرتها جموع الأهالي التي افترشت هذه الحقول طوال فترة الجنازة، واستمر هذا التدهور والدَّمار الذي أصاب هذه المساحات الشاسعة من الدُّرة حتى شهر مايو عندما نزلت الأمطار التي أعادت الحياة لهذه المساحات الكبيرة.

مضى الطبيب يتقدم إلى الأمام وهو يهز الجرس النحاسي. وبعد أن قطع الطريق الترابي الممتد وسط القرية، راح يلف حول الخيمة المُوقَّنة التي نصَّبَتْها عصابة جدي الحديدية. وكانت أكبر خيمة تشهدها القرية. تم وضع الصندوق الخاص بروح جدي وسط الخيمة، وامتلائت الخيمة بالشموع التي أضاءتها تمامًا. وكان يقف عند المدخل اثنان من أفراد التنظيمات الحديدية مُقلِّدين بالسلاح، وانعكس الضوء على صلعتهما،

كانت رعوس جميع أفراد التنظيمات الحديدية على هذه الشاكلة، والإنسان يراوده الشعور بالخوف بمجرد النظر إلى صلعة هؤلاء الأفراد. أحيطت الخيمة الكبيرة بما يزيد على مائتي رجل من أفراد التنظيمات الحديدية ذوي الرعوس الصلعاء، ورُبط بالأشجار المحيطة بالخيمة ما يزيد على خمسين رأساً من الخيل المدرّبة على الحرب. وكانت الخيول آنذاك منهمة في تناول العلف الموضوع أمامها، تُصدِر أصواتاً وتهز ذبولها لإبعاد الذباب الذي كان يضايقها. وكان السائس منشغلاً بوضع المزيد من الأعشاب أمام الخيول، وقد انتشرت أسفل أشجار الصفصاف رائحة حبوب الذرة الرفيعة الذكية.

وأغرّت هذه الأعشاب الخضراء ذات الرائحة الذكية البغل النحيف، فراح يجتهد في التقرّب من تلك الخيول المربوطة إلى أشجار الصفصاف، بينما راح الطبيب يتابع بغله بابتسامة مصطنعة، وأخذ يتمم وكأنه يريد أن يتحدث إلى بغله: «هل اشتهيته أيها البغل؟ فلتسمع مني هذه الحكمة، فإنني قد تعرّضتُ لمواقف مشابهة لما تتعرض له الآن، فالإنسان قد يقدم حياته ثمناً لسعيه وراء المال والجاه، والحيوان مثلك قد يُقدّم حياته ثمناً للسعي وراء الطعام، فلا يجب استعجال الأمور، فما أقصر عمر الزهور، وإذا كان بوسعك أن تصفح عن الآخرين فاصفح عنهم وأمنّحهم الفرص المناسبة، وثق تماماً أن ذلك ليس بسبب ضعفك وحمافتك، وإنك ستجني فيما بعد ثمرة ما تقدمه من معروف

«...»

أثار كلام الطبيب وتصرّفاته انتباه أحد أعضاء التنظيمات الحديدية كان متخفياً في زي العامة لمراقبة جميع ما يحدث خلال ذلك اليوم المشهود. تبعه اثنان من أفراد التنظيم، وانتظروه وهو يهذي بكلامه هذا حتى وصل قريباً من تجمّع الخيول، فوقف أحدهم أمامه والآخر خلفه وصوبوا نحوه مسدساتهم وقبضوا عليه.

ولم يبدُ على الرجل أدنى خوف أو ارتباك، راح يضحك بلهجة صارمة، بينما انشغل أفراد التنظيمات الحديدية بالحديث إلى بعضهم بعضاً. انشغل ذلك الذي كان يقف أمام الطبيب بالنظر إلى عينيه اللتين بدتاً مثل قطعة فحم مشتعلة، ونظر الآخر إلى رقبته السوداء التي كانت تبدو صلبة ومستقيمة. وهنا سقط البغل النحيف على الأرض محدثاً صوتاً مرتفعاً، ثم سمعوا صوت صراع زوج من الخيول على بعض من العشب.

وأضيئت داخل الخيمة الرئيسية أربع وعشرون شمعة حمراء، كان ضوء الشموع لا يتوقّف عن الحركة في جميع الاتجاهات، حتى بدأ كل شيء داخل الخيمة يتحرّك بصورة مريبة. وكان الصندوق الذي وُضعت فيه روح جدتي لا يزال وسط الخيمة، أحاطت به

الشموع الحمراء التي اكتست بطبقة ذهبية وبدأ لونها ساحراً. وضع حول الصندوق بعض الأزهار وقصاصات على هيئة صبي وفتاة. كانت هذه القصاصات من أعمال السيد «باو إن» فنان الورق المعروف وصنعها من سيقان الذرة، فقد كانت الأشياء العادية البسيطة تتحوّل تحت يدي هذا الفنان إلى أعمال فنية حية، وُضِعَ خلف الصندوق شاهدٌ لجدتي مكتوب عليه: المرحومة داي كانت سيدة مطيعة للآلهة وكانت زوجة صالحة مخلصة للسيد يو وأمّاً حنوناً للطفل دوو قوان. ووُضِعَ أمام الشاهد مِبْخَرة ذات رائحة نكية ممتلئة بأعواد البخور المشمشية اللون، كانت تستمر لفترة طويلة حتى تحترق تماماً. وظهر أبي آنذاك برأسه الصلعاء تعبيراً عن أنه ينتمي للعصابة الحديدية. كان جدّي قد رسم على صلعته شكل نصف قمر، وجلس هو والسيد أبو شامة رئيس التنظيم إلى جانب الخيمة، وراحا ينظران إلى السيد الراهب سه شه العالم بأمر الجنازات، وجاء من مدينة جيا وشيان وكان منشغلاً بتدريب أبي على تقديم التحية لروح أمه. كان الراهب سه رجلاً في حوالي الستين من عمره، يطلق ذقناً بيضاء تميل إلى اللون الفضي، وذا أسنان ناصعة البياض، ولسان حاذق، تعرف من الوهلة الأولى أنه إنسان عليم واسع المعرفة ماهر في أداء عمله؛ كان السيد سه قد انهك في تدريب أبي غير عابئ بعدم اهتمامه، فقد كان لا يُحسن الانتباه إلى محاكاة حركات السيد الراهب سه.

كان جدّي يعنف أبي بلهجة صارمة قائلاً: «دوو قوان، لا يمكن التّساهل في هذه الأمور، واعلم أنه يجب أن تفعل أي شيء لأجل أن تكون ابناً باراً بروح أمك!»

فاستمع أبي إلى نصيحة جدّي واهتم بالتدريبات لبعض الوقت، وما إن ينتبه إلى انشغال جدّي بالحديث مع أبي شامة حتى يُعاود التدريب بصورة عشوائية. دخل نفر إلى داخل الخيمة للتفاوض مع الراهب حول بعض الحسابات الخاصة بالجنازة، وخرج معهم الراهب بعد أن أذن له جدي بالخروج، وكانت التنظيمات الحديدية قد أنفقت مبلغاً كبيراً من المال على هذه الجنازة المهيبة التي أقيمت لتأبين جدتي. ولكي يتمكّن جدّي من جمع هذا المبلغ الكبير بطريقته غير المشروعة، بعد أن انسحبت قوات لينغ ماتزه وقوات جياو قاو من البلدة، قام جدّي بِنَشْر عملة مالية ورقية مصنوعة من أوراق العشب داخل قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، استحدث ورقتين بفتة ألف يوان وعشرة آلاف يوان، كانت صورة هذه الأوراق النقدية بسيطة جداً (كان يظهر عليها صورة مخلوق غريب شبيه بالإنسان يَرْكَب فوق نَمْر)، وكانت الطباعة غير دقيقة تماماً (كانت تستخدم الألواح الخشبية المستخدمة في طباعة ملصقات عيد الربيع). أيامها، كانت هناك على الأقل أربعة

أنواع من الأوراق النقدية تنتشر في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي. أما قيمة كل نوع من هذه الأوراق النقدية وصعودها وهبوطها في السوق، فقد كان يتوقف بشكل رئيسي على نفوذ الشخص الذي أصدرها. واعتماد الجهات المسلحة على السلاح لإصدار عملة مُعيّنة، كان نوعاً من الظلم الشديد للعامة. وقد اعتمد جدّي على هذه الطريقة لكي يتمكن من توفير المبالغ الطائلة التي تكلفتها الجنازة المهيبية التي أقامها لجدتي. وبعد انسحاب قوات لينغ ماتزه التابعة للحزب الوطني وقوات جياو قاو التابعة للحزب الشيوعي، كانت الأوراق المالية التي أصدرتها فرقة جدّي هي أكثر الأوراق المالية ثباتاً في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، غير أن هذا الوضع الجيد قد استمر لمدة بضعة شهور فقط، فبعد انتهاء المراسم الجنائزية المهيبية التي أُقيمت لجدتي، كانت هذه الأوراق قد تحوّلت إلى أوراق مالية عديمة القيمة.

ودخل الطبيب الخيمة تحت قبضة اثنين من أفراد التنظيم، ضايقه ضوء الشموع التي كانت تمتلئ بها الخيمة.

وسألهم جدّي غاضباً: «ماذا بكم!»

فسجد أحدهم على ركبة واحدة ووضع يديه على صلعته ثم قال: «جئنا لنُعلمكم أيها النائب أننا قبضنا على هذا الخائن!»

فصرب رئيس التنظيم السيد أبو شامة، ذلك الرجل الأسود الضخم، المنضدة الممدودة أمامه، ثم صاح بصوت مرتفع: «اسحبوه إلى خارج الخيمة وقطعوه إرباً إرباً، أتوني بقلبه!»

فتحدث جدّي إلى الرجلين قائلاً: «مهلاً مهلاً!» ثم توجّه بحديث إلى السيد رئيس التنظيم قائلاً: «يا أخي الأكبر، ألا ترى أنه يجب علينا أن نستقصي حقيقة الأمر قبل أن نأمر بقتله؟»

فصرب أبو شامة إبريق الشاي الموضوع أعلى المنضدة والمصنوع من الصلصال ثم وقف وقال: «عمّ نسأله ابن اللعينة؟!» ثم استلّ بندقيته المربوطة حول خصره وراح ينظر غاضباً إلى ذلك الرجل الذي دخل وأذاع عليهم خبر هذا الخائن.

قال الرجل عضو التنظيم وهو في غاية الرعب: «أيها الرئيس!»

فراح أبو شامة يكيّل له من السباب اللعين قائلاً: «اللعنة على أمك يا جو شيون، ألا تزال تعتبرني رئيساً؟ يا ابن اللعينة، حذارٍ أن تجعلني أراك ثانية، إنني أكره رؤيتك أيها اللعين ابن اللعينة!» ثم ضرب أبو شامة الإبريق الذي سقط من أعلى المنضدة حتى تفتت إلى قطع صغيرة، تطايرت ودخلت في قلب الأزهار التي كانت تحيط بتابوت جدتي.

قام رجل في عمر جَدِّي تقريباَ وانحنى قليلاً وراح يجمع القطع الصغيرة التي ملأت المكان وتطايرت إلى الأزهار الموضوعة حول التابوت، وألقى بها إلى خارج الخيمة. وخاطب جَدِّي ذلك الرجل الذي قام بجمع قطع الإبريق قائلاً: «يا فو لاي، ساعد السيد الرئيس واصطحبه ليأخذ قسطاً من الراحة، لقد شرب حتى الثمالة!» فتقدم السيد فو لاي وسندَ ذراعي الرئيس أبو شامة، الذي أراحه بعيداً عنه. ثم قال: «تقول إنني سكرتُ، من هذا الذي شرب حتى الثمالة؟ أيها الكلب الناكِر للجميل! أنا الذي اجتهدتُ في تكوين هذا التنظيم وبنيتُه بنفسِي، هل تنوي أن تحصد ما زرعتُ يداي بهذه البساطة؟ فالنمور تأكل أولاً ثم تطعم الكلاب والدببة! لم أخدعك من قبل، وأنا لستُ طمّاعاً! كما أنني أعرف ما أفعل جيداً! والأيام بيننا!» فقال جدي: «أخي الفاضل، ألا تخشى أن تفقد شخصيتك أمام هذا الجمع الكبير من الإخوة؟»

ارتسمتُ على وجه جَدِّي ابتسامة قاسية، وبدت تجاعيد وجهه المرعبة. ومد أبو شامة يده إلى خصره وتحسّس زناد مسدسه، وبدت حنجرته متعبّة فراح يسب جَدِّي بكلمات لازعة: «اغرب عني أيها الكلب اللعين! اغرب عني أنت وكلبك الصغير أيها اللعين ابن اللعينة!»

فقال جدي: «دخول الحمام مش زي خروجه.» فأخرج أبو شامة مسدسه وراح يلوح به في وجه جدي. مد جَدِّي يده وأخذ كوباً من النبيذ وشرب منه شربة، ثم تجشأ بصوت مسموع، ثم ألقى بما في جوفه من نبيذ في وجه أبي شامة. وما إن رفع جَدِّي يده قليلاً حتى سقط الكوب في حجم البيضة الكبيرة على مسدس أبي شامة، فتحطم الكوب إلى قطع صغيرة سقطت على الأرض. وانشغل أبو شامة بمسدسه. فخاطبه جَدِّي بصوت قوي قائلاً: «اسحب سلاحك! فإن هناك حساباً قديماً لم أصفّه معك، فلا تستعجل نهايتك.»

راح أبو شامة يتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم أعاد المسدس إلى حيث كان، وعاد ليجلس على مقعده الذي كان جالساً عليه منذ قليل. فرماه جَدِّي بنظرة تمتلئ بالسخرية والازدراء الشديد، وردَّ هو على جَدِّي بنظرية أشد سخرية وازدراءً.

وفجأة سمعوا صوت ضحك ذلك الطبيب أو المتَّهم الخائن الذي كانت تعلق وجهه تعبيرات تسخر من جميع ما حوله، وقد استمر في الضحك المميت وراح يضرب بذراعه

بشكل عشوائي وكأن أحداً يجبره على ذلك. وشعر جميع من في الخيمة بالتوتر الشديد تجاه تصرّف هذا الرجل، وقد أصبحوا في حيرة من أمرهم. بينما كان الرجل لا يزال مستمرّاً في الضحك بشكلٍ مُلفتٍ للنظر، وقد فاضت عيناه بالدموع من شدة الضحك.

فقال أبو العيون السود: «ما الذي يضحك يا ابن اللعينة؟»

وفجأةً سكت الرجل عن الضحك، وقال بصوت صارم: «تسب أمي، فلتذهب إليها إذا كنت تشتهيها؟ لقد ماتت منذ زمن بعيد، وواراها التراب منذ عشر سنوات، فلتذهب إليها!»

فخرس لسان أبي شامة، ثم قفز أعلى المنضدة والمقاعد المصفوفة حولها وضرب الطبيب لكمة في وجهه. فسال الدم من وجهه مروراً بأنفه ثم شفتيه حتى ذقنه.

سأله جدي: «ومن الذي أرسلك إلى هنا؟»

فراح الطبيب يهز رقبته وكأنه قد ابتلع بعض الدماء التي أغرقت وجهه ثم قال: «أين بغلي؟ إلى أين أخذتم بغلي؟»

فقال أبو شامة: «إنه بالتأكيد أحد الخونة التابعين لليابانيين! أتوني بالسوط لكي أقوم بتأديب هذا الكلب!»

راح الطبيب يصيح بصوت مرتفع قائلاً: «بغلي! أعيديوا لي بغلي! أعيديوا لي بغلي.» ثم جرى مسرعاً نحو الخيمة، فاعترضه اثنان من أفراد التنظيمات الحديدية وأمسكوا بذراعيه، فراح يصرعهم بشكل جنوني. فرفع أحدهم يده عاليةً وضربه ضربة قوية على جبهته أحدثت صوتاً مسموعاً، حتى انحنت رقبته لأسفل مثل عود الذرة المكسور، ثم سقط على الأرض.

قال جدي: «فَتَشُوهُ!»

فقام أفراد التنظيم بتفتيشه تفتيشاً دقيقاً، وعثروا معه على زوج من الكرات الزجاجية التي يلعب بها الأطفال الصغار، كرة خضراء والأخرى حمراء زاهية. وهناك فتحتان صغيرتان في جانب كل كرة منهما. فأخذهما جدي وراح يتفحصهما أمام ضوء الشموع، وقد بدت الكرتان لامعتين جذابتين. فهز جدي رأسه بطريقة غير مفهومة، ووضع الكرتين فوق المنضدة. فتسلل أبي إلى جوار المنضدة حتى تمكّن من سرقتها.

وقال جدي: «أعطوا أحدهما للأخ فو لاي.»

وهنا سارع جدي بمد يده أمام وجه فو لاي خادم أبي شامة وقال: «أيهما تريد؟»

فقال فو لاي: «أريد الكرة الحمراء.»

قال أبي: «لا يمكن، سأعطيك الخضراء!»
فرد فو لاي: «إنني أريد الكرة الحمراء!»
أصرَّ أبي على موقفه قائلاً: «سأعطيك الكرة الخضراء.»
فقال فو لاي مضطراً: «حسناً فلتكن الكرة الخضراء.»
الخضراء.

واستطاع الطبيب أن يرفع رقبته رويداً رويداً، ولم تتوقف عيناه عن إرسال تلك
النظرات الحادة.

فسأله جدي: «فلتُجب، هل أنت أحد الخونة التابعين لليابانيين؟»
فرح الطبيب يردد مثل الأطفال جملته المعهودة: «بغلي! بغلي! لن أتفوه بكلمة واحدة
حتى تعيدوا لي بغلي!»
ضحك جدي ضحكة طفولية، وقال بصدر رحب: «فلتأتوا له ببغله، ولنرَ ماذا هو
فاعِل.»

وجاءوا له بذلك البغل النحيف إلى الخيمة، وما إن نظر البغل إلى الشموع المضاءة
والتابوت والأوراق التي تمتلئ بها الخيمة حتى شعر برعب شديد ولم يحتمل الوقوف
أمام الخيمة. فتقدم إليه صاحبه ووضَع يديه فوق عينيه وسحبه إلى داخل الخيمة. ووقف
البغل أمام جدي وأمام أبي شامة وغيرهما من رجال التنظيم وأرجله النحيقة لا تتوقف
عن الارتعاش، وأخرج ريحاً تجاه الصندوق الذي يحتوي على روح جدي.

احتضن الطبيب رقبة البغل، وراح يمسح على جبهته التي بدت جامدة مثل لوح
الخشب، وراح يخاطبه بودٍّ: «أيها الرفيق، هل أنت خائف؟ لا تخف، نعم أقول لك لا
تخف، لا تخف حتى إذا أصرُّوا على تقطيعك إرباً إرباً وقدّموك في القدور!»

فقال أبو شامة: «ما أكبره من قدرا!»
وقال الطبيب: «مهما يكن فلا تخف أيها البطل، فإنك ما زلتَ بطلاً بعد عشرين
عاماً مضت!»

فسأله جدي: «فلتُخبرنا إذاً! من الذي أرسلك إلى هنا؟ وما هدفك من هذه الزيارة؟»
فرد الرجل قائلاً: «لقد أرسلتني روح أبي، أرسلتني إلى هنا لأبيع لكم الدواء.» ثم مد
يده إلى زكية على ظهر البغل وأخرج كيس دواء وراح يتغنَّى قائلاً: «حبة بازلاء وزوج

من البادزهر،^٢ ثلاث حبات من الذراريح، وأربعة أعواد من المسك، سبع حبات من البصل، وسبع حبات من التمر، وسبع حبات من الفلفل ومثلها من الزنجبيل.»
 وقف الجميع حائرين في أمر هذا الرجل وراحوا ينظرون إلى وجهه وإلى فمه الذي لا يتوقف عن الغناء، وإلى ملامح وجهه وإلى يديه وإلى كيس الدواء الذي يُمسك به. وقد بدأ البغل النحيف يتكَيَّف تدريجياً مع الجو المحيط، حيث تَوَقَّفت أرجله عن الارتعاش، وراح يُحرِّك حوافره المتهاكلة الشاحبة باطمئنان.
 وسأل أبو شامة: «ما هذا الدواء؟»

فضحك الطبيب ضحكة ماكرة ثم قال: «إنه دواء فعَّال لسرعة الطَّلُق أثناء الولادة.»
 ثم قال: «إن هذا الدواء فعَّال للتعامل مع هذه الحالات مهمًا كانت صعوبتها، قرص واحد ثلاث مرات يوميًا، وإذا لم تحصل على النتيجة المرجوة، فإنني سأكون ملزمًا أمامك برد المبلغ المدفوع!»

فراح أبو شامة يَسْبُه قائلًا: «اللعنة عليك أيها الكلب ابن الكلب!»
 ثم مد الطبيب يده إلى الزكيبة وأخرج كيسًا من الدواء وقال: «ويوجد أيضًا أدوية أخرى!» ثم رفع الكيس لأعلى وراح يتغنى من جديد: «دواء فعَّال صالح لعلاج جميع الأمراض.»

فسأله أبو شامة: «وماذا يعالج هذا الدواء؟»
 - «يعالج الضعف عند الرجال مهما كانت صعوبة الحالة، قرص واحد ثلاث مرات يوميًا، وإذا لم تحصل على النتيجة المرجوة، فسأكون ملزمًا أمامك برد المبلغ المدفوع!»
 فراح أبو شامة يعبث بصلعته، ثم انخرط في الضحك.
 واصل أبو شامة سبابه قائلًا: «يا ابن اللعينة، أنت أيها السيد المحتال الذي لا شأن لك بما يفعله الرجال!» هكذا راح يُوبِّخ الطبيب لكي يحثه على إعطائه الدواء ليتعرف عليه.

فأخذ الطبيب الزكيبة وحملها إلى أمام جدِّي وأبي شامة. ثم أخرج منها بعض الأدوية، وكان يمد يده ليخرج بعض الأدوية وهو لا يتوقف عن تعريفهم بأسماء تلك الأدوية الغريبة. وفتح أبو شامة كيسًا من الأدوية وأخرج منه شيئًا يشبه أعواد الأشجار الجافة ووضعه عند فمه ليتدَوَّقَه ثم قال: «اللعنة، إنه من فضلات الكلاب»

^٢ البادزهر: من المواد المستخدمة في الطب الصيني التقليدي. (المترجم)

فقال الطبيب: «نعم إنه مُنتَج حقيقي وذو فعالية حقيقية مستخرج من فضلات الكلاب السوداء!»

ثم قدّم أبو شامة ذلك الشيء إلى جدّي قائلاً: «أخي يو، فلتتعرف عليه، إنه بالتأكيد مستخرج من جذور الأشجار الجافة»، فأخذه جدّي منه وقربه إلى الشموع المضاءة وراح يتفحصه جيّداً.

وفجأة بدأ الطبيب يرتجف بشدة، وبدأت ذقنه تهتز ولمعت أجزاء وجهه التي لم تلحقها الدماء التي كانت تسيل من أنفه. فتوقّف أبي عن اللعب بالكرة الزجاجية وبدأ قلبه يقفز بشدة، وهو ينظر إلى حركات جسم الطبيب الغريبة. ورفع البغل الأسود العجوز رأسه عالياً، وانعكس ضوء الشموع على رقبتة الجامدة مثل قطعة الخشب، وبدت عليه معالم الحيرة وعدم الاطمئنان، وسال من أنفه سائل أخضر اللون، وهنا عرف أبي أن البغل قد أصيب بالتأكد بداء الخيل الذي ذكره العم السائس من قبل.

وأثناء ارتجاجه بشدة، مد الطبيب يده اليسرى إلى الزكيبة، ثم رفع يده اليمنى عالياً فتناثرت كمية الدواء الصيني التي كانت في يده على وجه جدي. ثم لمع الضوء في يد الطبيب اليسرى. ورأى أبي أن ضوء الشموع قد انعكس على خنجر صغير. وهنا أصيب الجميع بالذهول وراحوا ينظرون في سكون إلى الطبيب وحركاته البهلوانية، وإلى الضوء الأخضر الذي سلّطه على حنجرة جدي. وبعد لحظات بسيطة من تلقّي جدّي للدواء الصيني الذي تناثر على وجهه، كان جدّي قد فكر في أن يقفز بعيداً ليتجنب هذا الدواء العجيب، ولكنه تمكّن فقط من رفع ذراعه عالياً ليحمي وجهه من هذا الدواء. فضرب الطبيب بكمه ليرسل هواءً شديداً تجاه وجه جدي. استطاع جدّي أن يتقي الخنجر، إلا أن حد الخنجر أصابه بجرح كبير في ذراعه. فركل جدّي المنضدة بعيداً، ثم أخرج مسدسه بمهارة فائقة وأطلق ثلاث طلقات. غير أن ذلك الدواء الذي تناثر على وجهه قد أجبره على أن يغمض عينيه بعض الوقت، بدأ ذلك الدواء الغريب بما فيه من فضلات الكلاب والأغنام في التجمع حول أنفه. ثم أطلق جدي طلقة أصابت الخيمة، وأخرى أصابت التابوت، غير أن التابوت المطلي بطبقات عديدة من الزيت كان قوياً جداً، فسقطت الطلقة إلى جانبه وتفتت إلى ثلاث قطع صغيرة أو خمس تطايرت كلها إلى خارج الخيمة، وطلقة ثالثة أصابت قدم البغل الأمامية اليمنى، فانحنى البغل إلى الأمام حتى لامست رأسه الأرض، ثم قفز على الفور وراح يتوجع من قدمه، وبدأ يتساقط من ركبته سائل أبيض. ثم قفز ثانية صوب الأزهار التي كانت تحيط بالتابوت، تساقطت أوراق الأزهار، واصطدمت بالشموع

التي كانت مثبتة فوق غطاء التابوت، فاشتعلت الشموع في أوراق الأزهار الورقية. وهكذا اشتعل شاهد جدتي الذي كان مظلمًا منذ قليل، وامتدت ألسنة اللهب للخيمة. فانفض أفراد التنظيم وهبوا جميعًا مسرعين نحو الخيمة. وفي تلك الأثناء، انقض الطيب الذي بدا جلده لامعًا مثل النحاس تمامًا على جدي. وقد رأى أبي ذلك الخنجر الذي كان يمسك به والذي كان يبدو ملتويًا مثل الأفعى، رأى الخنجر وهو يقترب من حنجرة جدي. وأمسك أبو شامة بمسدسه ولكنه لم يضغط على الزناد، وارتسمت على وجهه ابتسامة وكأنه يفرح في مصائب الآخرين. وهنا أخرج أبي مسدسه واستعد جيدًا قبل أن يطلق منه طلقة لتصيب كتف الطبيب. رفع الطبيب ذراعه عاليًا ليسقط الخنجر من يده على المنضدة القريبة منه. ثم مال هو أيضًا ليتكئ على المنضدة. أمسك أبي بالمسدس وأوشك أن يخرج الطلقة الثانية. وهنا خاطبه جدي وقد بدت عيناه شديدي الاحمرار قائلاً: «تَوَقَّف!» وقد سمعوا صوت مسدس «أبو العيون السود»، ثم رأوا رأس الطبيب وقد تَفَتَّت تمامًا مثل البيضة التي تم وضعها على النار لمدة طويلة جدًا.

فنظر إليه جدي نظرة ممتلئة بحقدٍ دفينٍ.

وتوافد على الخيمة عدد من أفراد التنظيم. امتدت ألسنة اللهب في الخيمة، وعم الهرج والمرج داخلها. وقد ساعدت جثة البغل العجوز الملقاة داخل الخيمة في إخماد النيران، ولكن ما إن تحركت الجثة قليلاً حتى نشبت النار ثانيةً. وامتدت النيران إلى جلد البغل لتفوح رائحته الكريهة داخل المكان.

فسارع الجمع بالانصراف من داخل الخيمة.

ثم سمعوا صوت أبي شامة يصيح بصوت مرتفع: «النجدة! النجدة! النجدة! أنقذوا التابوت، مكافأة قدرها خمسون مليون ورقة مالية لمن ينقذ التابوت!»

كانت الأمطار الربيعية قد انتهت منذ فترة قريبة، وبدا المصرف الواقع خارج القرية خاليًا من المياه، واجتمع أفراد التنظيم والأهالي الذين احتشدوا لحضور مراسم الجنازة، معًا لإنقاذ التابوت، حتى استطاعوا أن يخدموا النيران المشتعلة داخل الخيمة.

حاصرت النيران تابوت جدتي حصارًا تامًا، وأخيرًا استطاع الجمع إطفاءه بعد أن سكبوا عليه عشرات البراميل من المياه. بدا التابوت وسط تلك الظلمة التي لفت المكان مهيبًا. وبدت جثة البغل النحيف، ملقاة إلى جوار التابوت، وانتشرت رائحتها الكريهة في جميع الأرجاء، حاول الجميع اتقاء هذه الرائحة بأن وضعوا أكمامهم على أنوفهم، وراحوا يستمعون إلى صوت احتراق الزيوت التي كانت تغطي تابوت جدتي.

على الرغم من الأحداث الخطيرة التي شهدتها ليلة البارحة، فإن موعد جنازة جدتي لم يتغيّر. كان الساييس العجوز الذي لديه بعض الخبرة في مجال الطب، قد قام ليلة أمس بتضميد جرح جدّي وساعده في لف ذراعه، كان أبو شامة واقفاً إلى جانبهم، وراح يقترح على جدّي تأجيل موعد الجنازة، إلا أن جدّي لم يُعره أدنى اهتمام وراح ينظر بعيداً عنه، ثم أعرب عن عدم موافقته على رأي أبي شامة بشأن تأجيل موعد الجنازة.

ولم يَنَمْ جدّي طيلة هذه الليلة، وجلس على مقعد صغير داخل الخيمة وعيناه شديداً الاحمرار شبه مفتوحتين، وكانت يده الباردة تضغط على زناد المسدس دون أن تتحرك وكأنها قد التصقت بهذا الجزء من المسدس.

رقد أبي إلى جوار أبيه وراح يتابعه حتى غطّ في نوم عميق. أفاق مرة قُبيل الفجر، واختلس نظرة إلى جدّي الذي كان لا يزال يجلس شارداً أمام ضوء الشموع، ونظر إلى آثار الدماء السوداء، التي كانت تسيل من الشاش المربوط حول ذراعه، ولم يجرؤ على أن يتفوه بكلمة واحدة، ثم أغمض عينيه ثانيةً. وكان الزّمار المسؤل عن جنازة جدتي، والذي كان قد حضر بعد ظهر ذلك اليوم، قد بدأ يستخدم البوق الكبير في إحداث صوت مرتفع رداً على زملاء المهنة الذين يحسدونه على المشاركة في هذه الجنازة المهيبية، وتسبب هذا الصوت المرتفع في مضايقة أبي وإفلاقه. فنهض ومضى يفكر أنه قد بلغ هذا العام السادسة عشرة من عمره. وأنه لا يعرف متى ستنتهي هذه الحرب التي جعلته يعيش في قلقٍ مستمرٍ. وراح أبي يفكر في جرح جدّي والدماء التي تسيل منه، وفجأة سيطر عليه شعور غريب بالحزن الشديد، الذي هو أكبر كثيراً من عمره. ثم سمع صوت صياح الديكة في جميع أرجاء القرية إيذاناً بطلوع صبح يوم جديد، وقُبيل الفجر هبّت رياح شهر أبريل الخانقة على الخيمة، حتى استطاعت أن تطفئ الشموع المشتعلة داخلها. واضطر أبي أن ينزوي داخل خيمته بعد أن استمع إلى أحاديث أهالي القرية وأصوات خيول الحرب وإلى صوت رياح الصبح الساكنة. راح أبي يفكر في الفتاة تشينغ إر التي ستكون أمي في المستقبل، وفي السيدة ليو التي أصبحت فيما بعد زوجة جدّي الثالثة، واللّتين كانتا قد فقّدتا منذ ثلاثة شهور مَصّت. وقتها كان جدّي وأبي قد انتقلا مع التنظيمات الحديدية إلى مكان ناءٍ جنوب شريط السكة الحديد للتدريب على القتال. وعندما عادا إلى الخيمة اكتشفاً أنها كانت خالية تماماً، كانت الخيمة التي نصبوها في شتاء عام ١٩٣٩م قد بدت مهجورة تماماً.

وعند غروب شمس ذلك اليوم، بدأت القرية تزدهم وعَلَّتْ أصوات الباعة الذين كانوا ينادون على بضائعهم، وانتشرت رائحة الأطعمة في شوارع القرية. ونشب شجار بين أحد الباعة الذين يبيعون الفطائر، وأحد زبائنه، كان البائع قد رفض قبول العملة الورقية التي قَدَّمها له الزبون الفلَّاح والصادرة عن الجيش الثامن، في حين أصرَّ الفلاح على عدم قبول العملة الورقية التي أصدرتها عصابة جَدِّي المُسلَّحة. وكان الفلاح قد أكل بالفعل عشرين فطيرة من فطائر هذا التاجر. راح الفلاح يقول للبائع: «إذا أردت ثمن فطائرِكَ فلك هذه الأوراق النقدية، وإذا لم تقبلها فلتحتسب أن الفطائر العشرين التي أكلتها قد ضاعت منك.» وراح الأهالي المحتشدون لمشاهدة الشَّجار ينصحون البائع بأن يقبل الأوراق النقدية التي يقدمها له الفلاح، والصادرة عن الجيش الثامن التابع للحزب الشيوعي، ولتنتظر حتى تعود قوات الجيش الثامن إلى القرية ثانية، وعندها ستكون هذه الأوراق النقدية ذات قيمة كبيرة. وبعد هذا التدخل للوساطة بين التاجر والفلَّاح، تفرق الأهالي المحتشدون، وقَبِلَ التاجر هذه الأوراق النقدية ثم مضى يتمم وينادي على بضاعته: «الفطائر! الفطائر، الفطائر المحشوة باللحم الساخنة جدًّا!» وتجمَّع الأهالي الذين انتهوا من تناول الطعام حول الخيمة في انتظار الجنازة، غير أنهم لم يجرءوا على الاقتراب من الخيمة أكثر من ذلك بسبب أفراد التنظيم المسلحين الذين كانوا يطوقونها، كانت الخيمة قد تعرَّضت للدمار الشديد بسبب النيران التي امتدت إليها ليلة أمس، وقد تم إلقاء جثة الطبيب وبغله اللتين تَفَحَّمَتَا داخل الخيمة إلى المصرف الذي يبعد حوالي خمسين خطوة من الخيمة، وتجمَّعت على الجثتين أعداد كبيرة من الغربان راحت تحوم حول الجثتين ثم انقضَّت عليهما، ووسط هذا الهجوم الشرس من الغربان، اختلطت جثة البغل بجثة الإنسان. ومضى الأهالي المحتشدون يفكرون في أمر ذلك الطبيب وبغله، كأننا حتى مغرب يوم أمس حَيَّين يملآن هذا المكان، والآن قد أصبحا وجبة ثمينة لجماعة الغربان، وقد راودتهم أفكار ومشاعر مختلفة حول هذا الأمر، ولكنهم كانوا صامتين تمامًا.

وهكذا أحيط التابوت ببقايا الخيمة التي تهدمت ليلة أمس، وتقدَّم بعض أفراد التنظيم ممسكين بالمقشاة وبدءوا في تنظيف المكان المحيط بالتابوت. وسقط عدد من أكواب النبيذ على الأرض وتحولت إلى فتات صغيرة. بدا تابوت جدتي في صبيحة ذلك اليوم غريبًا ومرعبًا. زال اللون الأحمر الأرجواني الذي كان يغطيه، كما احترقت قطع القماش الحريرية التي كانت تلفه، وتركت آثارها في جسمه. أصبحت جميع الأدوات التي ستستخدم في جنازة جدتي مدهونة بالشواء. كان هذا التابوت كبير جدًّا، فكان أبي —

ذلك الشاب الذي في سن السادسة عشرة — يبدو إلى جانب التابوت مجرد كائن صغير، أعاق التابوت قدرته على التنفس بحرية. ومضى يفكر في أن يقوم بسرقة هذا التابوت ... رأى تلك السيدة العجوز ذات الأعوام المائة التي ترقد داخله وقد أمسكت بالتابوت بكل ما أوتيت من قوة، وراحت تصيح إنه تابوتي ... ولا أحد يمكنه أن يسلبني إياه ... إنني مثقفة كبيرة من عصر أسرة تشينغ، كان يحترمني الجميع بمن فيهم رئيس المدينة وينادونني بالأخت الكبرى ... هل تَنوون قتلِي ... أيها اللصوص ... وبعد أن بَكَت العجوز راحت تُوَجِّه لي سيلاً من الشتائم. ولم يخرج جدِّي في ذلك اليوم ليشهد حمل التابوت، كان قد أناب عنه رئيس فرقة الخيول والذي يُعْتَبَر الصديق الحميم لجددي، وقد تبعه أبي. سمع أبي آنذاك أن هذا التابوت الضخم مصنوع من أربعة ألواح كبير من خشب السرو. كان هذا التابوت قد تم تجهيزه خلال العام الأول من تأسيس الصين الوطنية،^٣ وكان يتم في كل عام إضافة طبقة من الحرير المدهون بالزيت للتابوت الضخم، استمر هذا العمل لمدة ثلاثين عاماً ... كانت السيدة العجوز قبل وُضْعِها في هذا التابوت، تتمرغ في الأرض مثل الحمار وهي تصيح بصوت مرتفع بين البكاء والضحك، وكأنها قد أُصِيبَتْ بالجنون. وقام السيد رئيس فرقة الخيول بإلقاء مجموعة من الأوراق النَّقْدِيَّة التي أصدرها التنظيم والتي يظهر أعلاها شخص يركب فوق ظهر النمر، قام بإلقاء هذه الأوراق النقدية فوق التابوت،^٤ ثم عَبَس الرجل بحاجبيه وقال، أيها الوغدة العجوز إننا نشترك بهذا المبلغ الكبير من المال. وراح الرجل يفتح أكياس الأوراق النقدية بكلتا يديه، ثم راح يعرض بعض الأوراق النقدية بقليل من أسنانه المتبقية داخل فمه وهو لا يتوقف عن السباب قائلاً، آه من قُطَاع الطُّرُق! إن جنازتك تفوق جنازة الإمبراطور، آه منكم أيها اللصوص الأوغاد! ... ثم راح السيد رئيس فرقة الخيول يخاطب روح جدتي في التابوت قائلاً: إنني أقول إنك وغدة عجوز، فلتستمتعي جيداً، إننا جميعاً مسئولون عن حماية بلادنا ومقاومة المعتدي الياباني، وأنت أيتها الحمار، ماذا لو كنا أتينا بعدد من أوراق الذرة ونثرناها على تابوتك بدلاً من هذه الأوراق النقدية، فأنتِ غير جديرة بأن توضع روحك في هذا التابوت الضخم!

^٣ الصين الوطنية: أي جمهورية الصين الوطنية التي تأسست منذ عام ١٩١٩م، واستمرت حتى تأسيس

جمهورية الصين الشعبية في ١٠/١٠/١٩٤٩م. (المترجم)

^٤ في الصين القديمة قبل عام ١٩٤٩م، كان ينتشر تقليد إلقاء الأوراق النقدية على تابوت المُتَوَفَّى عند تشييع

الجنازة. (المترجم)

إن مثل هذا التابوت يصلح فقط لأبطال المقاومة ضد اليابان! وإذا سألتني من هم هؤلاء الأبطال؟ فسأجيبك، إنهم من أمثال زوجك القائد يو آنذاك، والسيد يو زعيم التنظيم الآن. آه منك أيتها الوغدة! إن السماء والأرض لن تغفرا لك هذا الجرّم الكبير! ولن أقبل أن تحتل امرأة مثلك مكاني تحت الأرض ... وهنا راح الرجل ينحني على الأرض ويخبط نفسه بالتابوت. وقد أحدثتُ رأسه صوتاً مسموعاً من قوة اصطدامها بحافة التابوت. وانتبه أبي إلى حركات الرجل المريبة واصطدامه بتابوت جدتي، وراح أبي يفكر في ضرورة أن يخبر جدّي بكل ما حدث من هذا الرجل، ولكن ما إن رأى الحالة التي كان عليها وجه جدّي من العيوس والحزن الشديد، حتى تخلّى عن فكرته هذه.

كان جدّي قد استخدم قطعة قماش سوداء وربط بها ذراعه المصابة إلى رقبته، وظهر على وجهه التعب والإرهاق الشديدان. ثم جاء إليه السيد رئيس فرقة الخيول ذو الحاجبين الطويلين قادماً من إسطنبول الخيول، وسأله جدّي عن أمر ما. كان أبي يقف آنذاك عند مدخل الخيمة التي يستريح فيها خلال الليل، وسمع جدّي يرد على الرجل قائلاً: «يا أخي وولان تزه، لا تنتظر ردي بشأن هذا الأمر، ولتذهب على الفور!» انتبه أبي إلى أن جدّي قد أشار للسيد وولان تزه رئيس فرقة الخيول إشارة، فهز الرجل رأسه واستدار بجسده وتوجه صوب الإسطنبول.

ثم خرج أبو شامة من خيمة مجاورة. ومد رجليه ووقف في طريق وولان تزه وقال بغضب شديد: «ماذا أنت فاعل؟»

فرد عليه وولان تزه ببرود شديد: «إنني ذاهب لكي أمتطي جوادي وأخرج للحراسة.»

فقال أبو شامة: «ولكنني لم أمرك بذلك!»

فقال وولان تزه متعجباً: «لم تأمرني بذلك!»

ثم تقدّم إليهما جدّي وابتسم ابتسامة مصطنعة ثم قال: «أخي أبو شامة، هل نُصِرُ على الاختلاف معي؟»

فقال أبو شامة: «ليس لي شأن بهذا الأمر، ولكنني أسأله سؤالاً اعتباطياً بغرض المعرفة فحسب.»

ضرب جدّي بيده السليمة على كتف أبي شامة ثم قال: «إن لك علاقة وثيقة جداً بجنازة زوجتي، فما رأيك أن نُصِفِّي حساباتنا بعد أن ننتهي من مراسم الجنازة؟»

فسكت أبو شامة ولم ينبس ببنت شفة، فقط اكتفى بأن هز ذلك الكتف الذي ضرب عليه جدّي بيده السليمة، ونظر إلى جموع الأهالي المحتشدين بعيداً وراح يسبهم قائلاً:

«ابعدوا أيها الأوغاد! اللعنة عليكم جميعاً! هل تطمحون إلى استغلال هذه الفرصة لإثبات بركم تجاه المرحومة؟»

وقف السيد و لو ان تزه أسفل شجرة الصفصاف المربوط عندها خيول التنظيم، ثم أخرج من صدره صافرة نحاسية صفراء، وأطلق ثلاث صافرات ليخرج إليه فور سماع صوت الصافرة خمسون فرداً من أفراد التنظيم من داخل خيمة بالقرب من شجرة الصفصاف، سارع كلُّ منهم بسحب حصانه. بينما راحت الخيول تصهل وهي تضرب الأرض بأقدامها، حتى كادت الخيول أن تقتلع شجرة الصفصاف من شدة الضرب على الأرض. كان هؤلاء الأفراد الخمسون رجالاً نشيطين ماهرين في استخدام السلاح، أمسك كل منهم بسيف وعلّق على ظهره بندقية يابانية الصنع. وكان السيد و لو ان تزه وأربعة من الرجال ذوو البنية القوية، لا يحملون البنادق اليابانية، ولكنهم كانوا يتسلّحون برشاشات روسية الصنع. وقفز الجميع كل على فرسه، وانطلقوا في مجموعتين، بدأت الخيول تضرب الأرض بأقدامها وهي تجري بسرعة معقولة، كانت تجري تجاه الطريق الترابي المؤدي إلى جسر نهر موا شوى. وقد بدت حوافر الخيول تهتز خلال الرياح الصباحية، وانعكس عليها ضوء الشمس، ثم ظهر أفراد التنظيم وهم يتحركون حركات متماتلة على سروج الخيول. وكان السيد و لو ان تزه يمتطي حصاناً ملوناً قوياً ويسير في مقدمة المجموعة، وبعد لحظات قليلة نظر أبي أمامه، فإذا بالخيول قد فرت مسرعة مبتعدة عن مرمى بصره.

كان السيد الراهب سه شه الذي يرتدي جلباباً طويلاً ويتسم بروح فريدة وأخلاق يقف على مقعد عالٍ، وهو يصيح بصوت مرتفع: «فرقة الزّمارين والطّبالين.» فخرجت في لمح البصر مجموعة من الزّمارين والطّبالين في زي أسود وقُبعة حمراء وكأنهم قد خرجوا من باطن الأرض، وتجمّعوا بسرعة أعلى مسرح الزّمارين والطّبالين على جانب الطريق. صنّع المسرح من عدد من الألواح الخشبية وحصير من القصب، ويبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار أو سبعة. امتلأت الشوارع عن آخرها بالاحتشدين، فراح الزّمارون والطّبالون يشقّون طريقهم وسط الصفوف، ويصعدون على الألواح الخشبية حتى اعتلوا أماكنهم على المسرح.

فصاح الراهب سه شه: «ابدءوا»

فبدأت تلعو أصوات الأبواق. وبدأت الجموع المحتشدة تتزاحم لمشاهدة العرض، مد الجميع رقابهم إلى الأمام ليفوزوا بنظرة عن قُرب. بينما جاءت تندفق جماعات أخرى من

الخلف، حتى عم الهرج والمرج بالقرب من المسرح وبدأ الزَّمارون والطَّبَّالون يصيحون كالمجانين، ووصل هذا الصَّخب إلى الأبقار والحمير المربوطة تحت الأشجار على جانبي الطريق والتي راحت تُشارِكهم الصخب.

قال جَدِّي بتواضعٍ شديدٍ: «ما العمل يا أخي أبو شامة؟»

فصاح أبو شامة بصوت مرتفع: «أنت يا لاو سان، مُر بسحب فرقة الزَّمارين والطَّبَّالين!»

ثم ظهر بين جموع الأهالي المحتشدين ما يزيد على خمسين فردًا من أفراد التنظيم المُسلَّحين وكأنهم قد خرجوا أيضًا من بطن الأرض، وراحوا يرفَعون بنادقهم ويَشُقُّون طريقهم وسط الأهالي المتزاحمين، كان قد احتشد في ذلك اليوم عشرات الآلاف من الأهالي لمشاهدة هذه الجنازة المهيبة، حتى إن خمسين فردًا من أفراد التنظيم المُسلَّحين، قد عجزوا عن التعامل مع هذا العدد الضخم من الأهالي.

أخرج أبو شامة مُسدَّسه وأطلق طلقة في الهواء لتفريق جموع المحتشدين، ثم أعقبها بطلقة ثانية فوق الرؤوس. كما تبعه أفراد التنظيم وراحوا يطلقون عدة طلقات نارية في الهواء. وما إن دَوَّت أصوات الطلقات النارية في المكان، حتى عادت جموع المحتشدين الذين كانوا في المُقدِّمة إلى الخلف، بينما راح الذين كانوا في الخلف يتزاحمون إلى الأمام، وارتفعت الجماعة التي كانت تقف في الوسط، وكأنها طلعت فوق ظهور المحتشدين. وامتلاً المكان بصياح الأطفال الذين داسهم الأهالي المحتشدون تحت أقدامهم. ووسط هذا الصخب الكبير، سقط جزء من المسرح الذي يعتليه الزَّمارون والطَّبَّالون، فراح الزَّمارون والطَّبَّالون يَتَدافعون إلى أسفل المسرح وهم يصيحون مُسرِّعين للتخفِّي داخل جموع الأهالي. وعمَّت أصوات صياح الزَّمارين والطَّبَّالين وأصوات صياح الأهالي الذين داستهم الأقدام وسط الزحام، وفجأة ارتفع فوق الأهالي المُحتشدين حمار وكأنه قد غرس أقدامه داخل وحل المُستنقعات، وراح يَتابع الموقف بعينيه الجاحظتين. ووسط هذه الفوضى العارمة، لَقِيَ ما يزيد على عشرة أشخاص من كبار السَّنِّ والمرضى والضعفاء، مَصْرَعهم تحت أقدام الجموع المحتشدة. كما اكْتُشِفَت بعد مُضي عدَّة شهور رائحةُ جثث بعض الحمير والأبقار التي لقيت مصرعها في ذلك اليوم.

وأخيرًا هدأت جموع المحتشدين تحت سيطرة أفراد التنظيم المسلحين. واختلطت أصوات بعض النساء اللاتي كُنَّ يَصْحَنُ خلال معركة التهذئة، مع صوت الموسيقى التي عاود الزَّمارون والطَّبَّالون إصدارها من أعلى المسرح. كما فرَّ عدد من الأهالي خارج القرية

خشية هذه الفوضى العارمة، وانتظروا هنالك على جانبي الطريق المؤدّي إلى قبر جدتي لحضور مراسم الجنازة المهيبة ومتابعتها بعيداً عن الصخب، حيث كان القائد الشاب الوسيم وو لوان تزه يعسكر بقواته في ذلك المكان.

ووقف الراهب سه شه والذي قد بدأ يُعاود هدوءه أعلى المقعد العالي وراح يصيح: «أعطوني الغطاء.»

فحمل إليه اثنان من أفراد التنظيم غطاءً صغيراً أزرق اللون. بلغ ارتفاع هذا الغطاء ما يزيد على متر، وكان غطاءً مربعاً، به فتحة مثل الصنبور، ويظهر أعلاه ذرة زجاجية حمراء داكنة.

صاح الراهب سه شه: «فلتفضّلوا بتقديم الشاهد.»

كانت أُمي قد أخبرتني أن الشاهد هو شاهد الرُوح، ولكنني اجتهدتُ بعد ذلك في التّوصّل إلى أن الشاهد ليس ذلك الشاهد الذي تُقدّم عليه القرابين، ولكنه ذلك الشاهد الذي يُقدّم أثناء الجنازة للتأكيد على هويّة المتوفّي الموضوع جثمانه داخل التابوت، وأن أفضل تسمية له هي «صاحب الرُوح»، كان الشاهد الخاص بجدتي قد احترق تماماً داخل الخيمة، والشاهد المؤقت الجديد الذي تم عمله لم تجفّ من عليه آثار الحبر بعد، وقد قدّمه إلى الراهب اثنان من أفراد التنظيم ذواً وجه نصر، وكُتب أعلى هذا الشاهد: وُلدت في الساعة السابعة حتى الساعة التاسعة من صباح اليوم الخامس من الشهر الخامس من العام الثاني والثلاثين من حكم تشينغ قوانغ شيو. ° وتوفيت في ظهيرة اليوم التاسع من الشهر الثامن من العام الثامن والعشرين من عصر الصين الوطنية. ٦ شاهد روح السيدة داي زوجة قائد عصابة الفدائيين وزعيم التنظيمات الحديدية المسلّحة يو جان أو بقرية دونغ ببي مدينة قاو مي بجمهورية الصين الوطنية. عاشت لمدة اثنين وثلاثين عاماً. وقد دُفنت جنوب جبل باي ما شان وشمال نهر موا شوى.

° العام الثاني والثلاثين من حكم قوانغ شيو (١٨٧١-١٩٠٨م): ويقصد به عام ١٩٠٢م من حكم قوانغ شيو الإمبراطور الحادي عشر من أسرة تشينغ، آخر أسرة ملكية في تاريخ الصين. والتي انتهت عام ١٩١١م بتأسيس جمهورية الصين الوطنية (١٩١١-١٩٤٩م). (المترجم)

٦ العام الثامن والعشرون من عصر الصين الوطنية: ويقصد به عام ١٩٣٩م. (المترجم)

تم لف شاهد جدتي بقطعة جذابة من الحرير الأبيض طولها حوالي متر، وقام رجلان من أفراد التنظيم بوضع الشاهد بحرص شديد داخل الغطاء الصغير، ثم تراجعا إلى مكانهما ووقفًا ينتظران الأوامر من الراهب.

وهنا صاح الراهب سه شه: «الغطاء الكبير».

ووسط أصوات الزَّمْر والطَّبْل، تَقَدَّمت مجموعة من أفراد التنظيم يبلغ عددها أربعة وستين فردًا حامِلين الغطاء الكبير الأحمر والمُرصَّع بجزء في أعلاه يشبه ثمرة البطيخ. كان يَتَقَدَّم الغطاء أحد أفراد التنظيم وكان يَرَفَع صاحجه من النحاس على إصبعه، وكان يُصْدِر لحنًا واطئًا، التزم أفراد التنظيم الأربعة والستون في خطواتهم صوت هذا اللحن. وتوقفت جميع الأصوات التي كان يعج بها المكان منذ قليل، وبقي فقط صوت الآلات التي يستخدمها الزَّمَّارون والطَّبَّالون، بينما كانت بعض النساء اللاتي مات أطفالهن تحت أقدام الجموع المُحتشدة لا يَزَلْنَ يبكين بكاءً شديدًا، وراح الجمع ينظر إلى الغطاء الكبير الذي بدأ لهم مثل فضاء كبير يهتز ببطء، ثم خيم على المحتشدين جو صارم ولقَّت الجميع دوامة واحدة خلطت بين جميع الأفكار التي تراودهم في تلك اللحظة.

كانت ذبابة كبيرة مُقْلقة تَلْفُ حول ذراع جَدِّي المصاب، كانت لا تريد أن تبتعد عن الدم الأسود الذي كان يسيل من جرح جدي. وعندما كان جدي يرفع ذراعه السليم لإبعادها عنه، كانت تطير قليلاً مُرغمة ثم تُحَلِّق فوق رأسه غاضبة، وتُصْدِر صوتًا مزعجًا جدًّا. وود جَدِّي أنذاك لو ينزل عليها بقبضة واحدة فيقطعها إربًا إربًا، ولكنه كان في كل مرة يفشل في الإمساك بها، وفي كل مرة تنزل قبضته على ذراعه المصابة فيتألم ألماً شديدًا. وتم وُضِع الغطاء الكبير أمام شاهد جدتي، وأثار منظر الغطاء والموسيقى والأصوات التي صاحبت تلك اللحظات ذكريات جَدِّي حول عمله في مطلع حياته.

كان جَدِّي قد بلغ الثامنة عشرة من عمره عندما قام بقتل الراهب، ثم فرَّ بعدها من مسقط رأسه وتشرَّد في مختلف الأماكن حتى الحادية والعشرين من عمره، عاد بعدها ليعمل في «شركة خدمات الأفراح والجنائز» بقرية دونغ ببي بمدينة قاو مي. كان جَدِّي قد مر وتمرَّس على جميع الصعاب، وتعرَّض لشتى أنواع الإهانة والذُّل في الشارع، فأصبح قلبه جامدًا وبنيته قوية، وهكذا أصبح يَتَمَتَّع بالصفات الرئيسية لقطاع الطُّرُق وأفراد العصابات المُسلَّحة، وكان يعرف جيدًا أن العمل في شركات خدمات الأفراح والجنائز وحمل هودج العرس وتوايبت الموتى، ليس أمرًا يسيرًا، ولكنه لم يَحْشَ ذلك أبدًا. ولا يستطيع جَدِّي أن ينسى أبدًا ذلك الذُّل الذي تعرَّض له حين صُفِعَ على وجهه في منزل

عائلة لين بقرية تشي خان بمدينة جياو شيان عام ١٩٢٠م. وهنا نسي جدِّي تلك الذبابة التي كانت تضايقه منذ قليل، والتي استغلت الفرصة وراحت تقف على الشاش الأبيض الممتلئ بالدم، وانشغلت بفريستها التي توصلت إليها بعد عناءٍ شديد. واستمر الزَّمارون والطَّبَّالون في عملهم حتى بدت عليهم معالم التعب ونزل العرق من جباههم إلى رقابهم، وسال لعابهم ليملاً الأبواق التي كانوا يستخدمونها. وراح الأهالي المحتشدون لمشاهدة الجنازة يرفعون قاماتهم لأعلى لاختلاس النظر إلى ما يحدث في المُقدِّمة، وهم يُحدِّقون فيما يحدث أمامهم بنظرات حادَّة، وأثارت هذه النظرات الحاقدة غضب أبي. كان أبي يرتدي آنذاك ثوبَ الجَداد، وهو قميص من القماش الأبيض يُغطِّي الرُّكبة، كما يلفُّ حول خصره ضفيرة من الكتان الرمادي والأبيض، ويرتدي قُبعة الحداد الكبيرة التي كانت تُغطِّي رأسه الصلعاء. شعر أبي بضيق شديد من رائحة العرق المنبعثة من أجساد جموع الأهالي المحتشدين ورائحة الزيت المدهون به تابوت جدتي. كما شعر بالضيق الشديد من جمع الأهالي الكبير والعيون التي كانت تُلاحقه وأصوات الطُّبل والزَّمَر التي ملأت المكان. وقد بدا تابوت جدتي من الوهلة الأولى دميم الشُّكل، بداً قبيحاً بتلك الهيئة التي ظهر عليها حتى جَعَلَتْه تلك الهيئة يبدو وكأنه حيوان ضخم، كان أبي يشعر دائماً أن هذا التابوت الضخم قبيح الشكل سيقف فجأة، ويَنقُضُ على جموع المُحتشدين من حوله. وبدت أصوات هذا التابوت الأسود في وعي أبي تتضخَّم وتتعاظَّم شيئاً فشيئاً، وجُثمان جدتي المُسجَّى بين ألواح الخشب السميكة ومسحوق الطوب الأحمر يظهر أمام عينيه. وفي صباح ذلك اليوم وعلى ضفة نهر موا شوى، كان جدِّي قد أخذ بالفأس وراح يُجهِّز قبر جدتي، وقد نظف القبر تماماً من كثير من سيقان الذرة التي كانت تملأ المكان، حتى مشهد جثمان جدتي الذي رآه آنذاك كان يبدو حياً لا يزال يتراءى أمام عينيه. وكما لا يستطيع أبي أن ينسى مشهد وقوف جدتي وهي تراقب زراعات الذرة الحمراء الممتدة أمامها، فإنه لا يستطيع أن ينسى أبداً وجهها وهي تخرج من قبرها، وقد احتضنتها رياح الربيع الدافئة. وهكذا كان أبي يتذكر هذه التفاصيل من ذكرياته مع جدتي بينما يَنفُذ تعاليم الراهب مرتدياً ثياب الجَداد. وهنا سه شه الذي تأثَّر وجْههُ بالشمس فأصبح مثل وجه ذئب، راح الراهب يصيح قائلاً: «ارفعوا التابوت» فتجمَّع أربعة وستون رجلاً من أفراد التنظيم أمام التابوت، ثم صاحوا في صوتٍ واحدٍ، غير أن التابوت كان مسمَّراً في مكانه لا يتحرَّك، ثم التَّقَّوا حول التابوت، وكانهم جماعة من النمل أحاطت بجثة حيوان

ميت. وأخيراً تمكَّن جدِّي من طَرْد تلك الذبابة، وراح ينظر بازدرء إلى هؤلاء الأفراد الذين كانوا يحملون التابوت بطريقة عشوائية، فأشار بيده إلى زعيم هؤلاء الأفراد وقال له: «اذهب وأحضِر قطعة من القماش القطني، وإلا ستعانون حتى طلوع الصبح ولن تتمكنوا من إنجاز مهمتكم، كما أنك لن تستطيع إدخال التابوت داخل الغطاء!» فراح الرجل ينظر بحيرة شديدة إلى عَيْنَي جدِّي، غير أن جدِّي وجَّه عينيه بعيداً عنه، وكأنه وجَّهها لينظر إلى حاجز نهر موا شوى الممتد في السهول الفسيحة.

وضع أمام منزل عائلة تشي بمدينة جياو شيان سَارِيَتاً أعلام حمراء اللون، كان هذا يَرْمُزُ إلى شرف عائلة تشي وحَسَبِهَا ونَسَبِهَا، كان السيد خان ليان من أواخر عصر أسرة تشينغ قد تُوْفِّي، وأقام له أبناؤه وأحفاده الذين تمتعوا بالخير الكبير أثناء حياته جنازة مهيبة. وجَهَّزوا له كل الترتيبات اللازمة على خير وجه، غير أنهم كانوا يُوجِّلون يوم تشييع الجنازة ولا يُعلِنُونَه على الملأ. وكانت العائلة تسكن فناءً كبيراً، وقد وضعوا التابوت داخل غرفة في الجزء الداخلي من الدار الواسعة. وكان عليهم أن يمروا بسبعة مداخل ضيقة حتى يستطيعوا حمل التابوت إلى الشارع. وعلى الرغم من المبلغ الكبير الذي رصدته عائلة تشي لحمل التابوت، فإن أكثر من مدير من مديري شركات خدمات الأفراح والجناز قد رفضوا حمله بمجرد رؤيتهم حجمه والمكان الذي وُضِعَ فيه.

وصل الخبر إلى «شركة خدمات الأفراح والجناز» بقرية دونغ ببي بمدينة قاو مي. وأغرى مبلغ خمسمائة جنيه فضة، والذي رَصَدَتْه عائلة تشي لحمل هذا التابوت؛ جدِّي والفرقة التي يعمل معها، وجعلتهم يفكرون في هذا الأمر ليل نهار، وأصبحوا وكأنهم مثل الصبية الصغيرة التي صادفت أميراً وسيماً وأعرب لها عن حُبِّه وأهداها أُسُورَةَ ذهبية نفيسة. وهكذا ذهب جدِّي ورفاقه لمقابلة السيد المسئول تساو إر، وأقسموا له أنهم سيسحقون مهابة قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي ويكسبون هذا المَبْلُغَ الكبير البالغ خمسمائة جنيه من الفضة. فجلس السيد تساو إر على كرسيه وقد بدأ عليه الجمود تماماً. ولم يسمع جدِّي ورفاقه أي رد منه حول سؤالهم إيَّاه، واكتفوا فقط بالنظر إلى مُقْلَتَه الصارمة. واستمعوا إلى صوت اضطراب مياه النرجيلة التي أمسك بها بكلتا يديه. فتحمَّس جدِّي ورفاقه وبدَّءوا يخاطبونه من جديد: أيها السيد تساو إر، إننا لا ننظر فقط إلى المبلغ الذي رصده! فالإنسان خلال حياته يجب أن يثبث ذاته! وإننا نأمل ألا يستخفوا بنا، وأن يعتقدوا أن أهل قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي عاجزون! وهنا تحرك السيد تساو إر فوق كرسيه، وأصدر رِيحاً ثم قال فلتعودوا الآن إلى أماكن راحتكم، فإنكم

إذا فشلتم أو حدث لكم مكروه ستجلبون الخزي والعار لقرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، وستدمرون تجارتي، وإذا كنتم بحاجة للمال، فإنني سأمنحكم مكافأة وحسبكم من الحديث في هذا الأمر. وبمجرد أن انتهى السيد تساو إر من حديثه أغمض عينيه، بينما زاد حماس جدِّي ورفاقه الحَمَلِين، فقالوا في صوت واحد، أيها السيد تساو، لا تَقْضِ على طموحنا! فقال السيد تساو لا تفكروا في أشياء هي أكبر بكثير من إمكاناتكم، وهل تعتقدون أن الحصول على مبلغ خمسمائة جنيه من الفضة بالأمر اليسير! إن هناك سبعة أبواب داخل فناء عائلة تشي، كما أن التابوت ثقيل جدًّا، كذلك فإن داخله ممتلئ بالزئبق! الزئبق! الزئبق! ولتستخدِموا عقولكم هذه التي هي مثل عقول الكلاب، ولتفكروا في وزن هذا التابوت الممتلئ بالزئبق، وهكذا بعد أن انتهى السيد تساو من توجيه السباب لهم، راح يرميهم بنظرات ازدراء واضحة. فتبادل الرفاق النظرات فيما بينهم، ولسان حالهم يقول إنهم لن يتراجعوا عن هذا الأمر، ولكنهم كانوا يخشون أيضًا الفشل في مهمتهم. وما إن رآهم السيد تساو هكذا حتى ضحك ضحكة ساخرة ثم قال: «فلتعودوا إلى أماكنكم، انتظروا هؤلاء الأبطال الذين سيقومون بهذا العمل والذين سيربحون هذا المبلغ الكبير! أما أنتم، فمجرد صغار ليسوا مؤهلين لكسب هذا المبلغ الكبير ويكفيكم ثلاثون أو عشرون جنيهًا، ويكفيكم فخرًا أن تستطيعوا حمل توابيت العائلات الفقيرة الخفيفة!»

بدا كلام السيد تساو إر مثل السُم اللاذع الذي أصاب قلوب هؤلاء الحَمَلِين الطموحين. فتقدم جدِّي خطوة إلى الأمام ثم صاح في وجه السيد تساو قائلًا: «أنت أيها السيد تساو إر، إننا سئمنا العمل معك أيها الإنسان التافه الحقير، وستقضي على طموحاتنا وشجاعتنا واحدًا واحدًا، وإنني لن أعمل معك بعد اليوم!»

وهنا صاح جميع الحَمَلِين الشباب في صوتٍ واحدٍ مؤيدين لكلام جدي، فوقف السيد تساو إر بينهم وتقدَّم إلى أمام جدِّي بخطوات متثاقلة، وراح يضرب على كتف جدِّي بشيء من القوة، ثم خاطبه بلهجة يملؤها الإخلاص والحنان قائلًا: «ما أشجعك يا جان أو! إنك حقًا من رجال قرية دونغ ببي الشجعان! وإن المكافأة الكبيرة التي رصدتها عائلة تشي ستكون بالتأكيد من نصيبنا، وإذا استطعتم أيها الرفاق القيام بهذا العمل الكبير، فإنه سيكون شرفًا لقريتنا وفرصة لإعلاء اسمها بين القرى، فالشرف والمجد لا يمكن شراؤهما بالمال والكنوز. ولكنني أريد أن ألفت انتباهكم إلى أن عائلة تشي هذه من نسل أسرة تشينغ الملكية، وأنهم يلتزمون بالقوانين الصارمة، وأن القيام بحمل هذا التابوت ليس بالأمر اليسير، وأرى أيها الرفاق أن تفكروا في هذا الأمر جيدًا طوال هذه الليلة، وكيف ستتمكنون من عبور الأبواب السبعة وأنتم تحملون ذلك التابوت الثقيل.»

راح الرفاق يتناقشون فيما بينهم وكأنهم كانوا قد اتَّفَقوا على أمر ما، وهنا دخل إليهم رجلان في زي مهيب أنيق، وعَرَّفَا نفسيهما بأنهما مُوظَّفان مسئولان لدى عائلة تشي خان الكبيرة، وأنها جاءت لدعوة الرِّفاق الحَمَّالين من قرية دونغ ببي ليرَبِّحوا مبلغًا كبيرًا من المال.

وأفصح الرجلان عن الغرض الذي جاء من أجله، فراح السيد تساو إر يسألهما بتكاسُّل واضح: «وكم المبلغ الذي ستقدمونه لنا؟»

فقال أحدهم: «خمسمائة دا يانغ! أيها المعلم، إنها فرصة نادرة جدًا لأن تَرَصُد عائلة هذا المبلغ الكبير!»

فألقي السيد تساو إر بخرطوم النرجيلة على المنضدة، وضحك ضحكة صفراء، ثم قال: «أولًا نحن هنا لسنا عاطِلين عن العمل وتَنقُصنا هذه الصفقة، ثانيًا لسنا بحاجة للمال، فلتذهبوا وتبحثوا عن جماعة أخرى تساعدكم في هذا الأمر!»

فضحك ذلك الرجل مندوب أسرة تشي خان ضحكة تنم عن ذكائه الشديد، ثم قال: «أيها المدير، إننا أيضًا قد عملنا بالتجارة لمدة طويلة!»

فقال السيد تساو إر: «نعم نعم. إنكم بالتأكيد ستعثرون على مَنْ يقبل هذا المبلغ الكبير للقيام بهذا العمل.»

وهنا أغمض السيد تساو إر عينيه وسرح بعيدًا. فتبادل الرجلان النظرات فيما بينهما. وقال أحدهما: «أيها المدير، كفانًا من اللف والدوران، ولتفصح عن المبلغ الذي تريده!»

فقال السيد تساو إر: «إنني لن أرتكب هذا الجرم الكبير بأن أضحي بحياة عدد من رجالي مقابل حفنة من جنيهاً الفضة!»

فقال الرجل المسئول: «سنقدم ستمائة جنية من الفضة! نعم ستمائة جنية!»

فجلس السيد تساو إر مكانه دون أن ينيس بينت شفة.

— «سبعمائة جنية من الفضة! سبعمائة جنية! أيها المعلم، التجارة تحتاج أيضًا إلى شيء من الضمير في طلب الأجر!»

فزم السيد تساو شفثيه قليلًا.

— «ثمانمائة جنية من الفضة! ولن نزيد على ذلك جنيهاً واحدًا!»

وهنا فتح السيد تساو عينيه وتحدث بجملة واحدة معلناً: «ألف جنية من الفضة! فذهل الرجلان نهولاً شديداً وراحا ينظران إلى وجه السيد تساو الصارم. «أيها المعلم

... إذًا فإن الأمر خرج من أيدينا تمامًا.»

«إذًا فلترجعوا إلى أصحاب الأمر، وأخبروهم أننا نريد ألف جنيه من الفضة، ولن نقبل أقل من ذلك ولو بجنيه واحد.»

«حسنًا، ولتنتظر منا الرد.»

في صباح اليوم التالي حضر الرجل المسئول من عائلة تشي من مدينة جياو شيان يمتطي حصانًا أورجواني اللون، وأخبر السيد تساو بأنه قد تم تحديد موعد رفع التابوت، وأنه سيدفع له خمسمائة جنيه مقدمًا، وسيدفعون له المبلغ المتبقي وقدره خمسمائة جنيه بعد رفع التابوت. وكان الحصان يجري بسرعة شديدة وقد تصبَّب جسده عرقًا، وامتلات المنطقة المحيطة بالمحيطه بفمه بسائل أبيض.

وفي يوم الجنازة، تحرَّك أربعة وستون رجلًا من الحمَّالين ليلاً، وأوقدوا النيران وأعدوا طعامهم بنفسمهم، وجهزوا عدتهم وساروا تحت ضوء النجوم قاصدين مدينة جياو شيان. وقد ركب السيد تساو إر حمارًا أسود اللون وسار خلف الحمَّالين.

لا يزال جدِّي يذكر جيدًا أنه في صباح ذلك اليوم كان هناك عدد قليل من النجوم في السماء، وأن الجو كان باردًا، كما كان الخطَّاف الثقيل الذي يخفيه حول خصره، قد ألمه كثيرًا. وصلوا إلى مدينة جياو شيان، وما إن انبلج الصباح، امتلات الشوارع بالأهالي الذين احتشدوا ليشهدوا هذه الجنازة المهيبة، وقد سدَّت الطرقات من كثرة الجموع المحتشدة. وراح جدِّي ورفاقه يسيرون وسط الشوارع يستمعون إلى همسات الجموع المحتشدة، وقد نفخوا صدورهم وودوا لو أعلنوا للجميع عن شجاعتهم وبطولتهم، غير أنهم شعروا بشيء من عدم الاطمئنان وساورهم قلق شديد.

كانت دار عائلة تشي كبيرة جدًّا وقد احتلَّت جزءًا كبيرًا من الشارع. وتبع جدِّي ورفاقه بعضًا من خدم عائلة تشي وعبروا ثلاثة أبواب داخل الدار الواسعة، وتوقفوا داخل ركن من فناء صغير. امتلأ هذا الفناء بالأزهار والورود، وامتلات الأرض بالأوراق النقدية الورقية، وفاحت رائحة الدخان الذكية، وبدت الحالة اليسيرة جدًّا التي تتميز بها هذه العائلة الشريفة.

دعا المسئول من عائلة تشي أحد أسياده من العائلة لمقابلة السيد تساو إر. وكان عُمر ذلك الرجل من عائلة تشي حوالي خمسين عامًا، وقد بدأ نحيفًا، تبعد أنفه الصغيرة كثيرًا عن فمه الكبير. وعندما نظر الرجل بعينه إلى الحمَّالين الذين جاء بهم السيد تساو إر لحمل التابوت، انتبه جدِّي إلى أن عيني الرجل كانتا تدوران في كل مكان، تحرِّقان كل من تسلَّطان عليه.

فهز الرجل رأسه تجاه السيد تساو إر، ثم قال: «إن طلبكم ألف جنيه يتطلب منكم الالتزام بما يفرضه هذا المبلغ.»

فهز السيد تساو رأسه، ثم تبع الخادم إلى الباب الأخير داخل الدار الواسعة. وعندما خرج السيد تساو من الغرفة الداخلية، إذا بوجهه قد تَغَيَّرَ كثيرًا عمَّا عهدِه جَدِّي ورفاقه من قبل، وإذا به يرفع إصبعه ذا الظفر الطويل ويحك به رأسه، ثم جمع الحمالين الذين جاءوا معه إلى مكان بجانب سور الغرفة، وراح يخاطبهم وهو يعرض على أسنانه قائلاً: «أيها الرفاق، لقد هلكنا جميعاً!» فسأله جدي: «ماذا حدث يا سيد تساو؟»

فرد السيد تساو إر قائلاً: «أيها الرفاق، إن عرض ذلك التابوت يكاد يكون مثل عرض المدخل، كما يوجد أعلى غطاء التابوت قدر كبير من النيبيذ. وقد أخبرني ذلك السيد من عائلة تشي أنه إذا انسكبت قطرة من النيبيذ فسيتم تغريمنا مائة جنيه!» فشعر الجميع بحيرة شديدة. لفَّهْم الصمت. بينما بدا صوت النحيب القادم من قاعة الحداد مثل صوت الغناء الجميل.

وسأل السيد تساو إر جَدِّي قائلاً: «ما قولك يا جان أو في هذه المشكلة العويصة؟» فرد جَدِّي قائلاً: «طالما أننا وصلنا إلى هذه اللحظة فلا يُجديي الخوف والتراجع، وسنقوم بحمل هذا التابوت مهما كان وزنه ومهما كانت خطورته!»

فقال السيد تساو إر بصوت خفيض: «إذاً فلتتقدموا أيها الرفاق، ولكم جميع ما تجنونه من هذه المهمة، وإنني المعلم تساو لن أطلب لنفسي جنيهاً واحداً من الألف جنيه التي ستحصلون عليها!»

فرماه جَدِّي بنظرة ثم قال: «إذاً كفاك من هذه الثرثرة!» فقال السيد تساو إر: «إذاً فلتبدءوا مهمتكم، أما أنتم يا جان أو ويا سه كوى، فليقف أحدكما في الأمام والآخر في الخلف، لتتحكما جيداً في هذا الحمل الثقيل. وأما الرفاق الآخرون، فيدخل عشرون منكم الغرفة، وليدفعوا التابوت فور رفعه من على الأرض، وليستخدموا الدعائم للسيطرة على التابوت. أما العدد المتبقي فلينتظر عند المدخل وينتظر سماع صوت الصَّاجَة التي بيدي. أيها الرفاق، إن السيد تساو إر يشرككم كثيراً على شجاعتكم!»

في الأيام العادية كان السيد تساو إر — هذا الظالم المستبد! — ما إن ينحني بجسده المُتَرَهِّل قليلاً يذرف الكثير من الدموع وينهض ثانيةً.

واصطحب ذلك السيد من عائلة تشي بعضاً من الخدم وتقدّم إلى جماعة الحمالين، ثم ابتسم إليهم ابتسامة مصطنعة وقال: «مهلاً مهلاً، يجب أن تخضعوا للتفتيش!» فرد عليه السيد تساو إر غاضباً: «ما هذه القواعد الغريبة؟» فقال السيد من عائلة تشي ببرودٍ شديدٍ: «إنها القواعد الخاصة بمبلغ ألف جنيه من الذهب.»

فقام خدم عائلة تشي بتفتيش جدّي ورفاقه تفتيشاً دقيقاً حتى أخرجوا منهم تلك الخطافات التي يستخدمونها في رفع الأشياء وحملها، وألقوا بها على الأرض فأحدثت صوتاً عالياً إثر اصطدامها بالأرض، بينما بدأ الوجوم الشديد على الحمّالين. وراح ذلك السيد من عائلة تشي يحملق في تلك الخطافات وهو يبتسم ابتسامته المصطنعة.

فمضى جدّي يفكر ويقول لنفسه حسناً! إننا لن نكون رجالاً شجعاناً إذا اعتمدنا على هذه الخطافات الحديدية في رفع التابوت وحمله، وهنا شعر بشيء من الحزن يخيم على قلبه وكأنه يتقدم نحو ساحة الإعدام. فربط لفافة حول ساقه جيداً، جمّع نفسه ثم أحكم لف قطعة من القماش حول معدّته.

وما إن دخل الحمالون قاعة الحداد، حتى توقّف الرجال والنساء من عائلة تشي المحيطون بالتابوت عن البكاء والنحيب. وراحوا يُحدّقون في هؤلاء الحمّالين وفي قدر النبيذ الموضوع أعلى التابوت. وقد بدأ الوجوم والحزن الشديد على جميع من كانوا في قاعة الحداد، بينما كانوا يُحمّلون في السماء.

بدأ التابوت الأسود الضخم الخاص بالسيد تشي خان لين مثل السفينة الكبيرة التي ترسو على أربع قواعد قصيرة، وما إن رآه الحمّالون حتى شعروا برهبة شديدة.

وتقدّم جدّي وأنزل من على ظهره حبلاً دقيقاً مصنوعاً من الخيش، ومرره من أسفل التابوت. بينما قام رفاقه بربط عشرات القطع القطنية الدقيقة في الحبل الذي مرّره جدي، ووزعوا تلك القطع القطنية من جانبي التابوت وأحكموا قبضتهم عليها.

وأخذ السيد تساو إر بالصاجّة، وراح يضرب عليها مُحدّثاً صوتاً مسموعاً. وجلس جدّي عند مقدمة التابوت، أصعب وأهم وأخطر منطقة في رفع التابوت. وقد أعاقه التابوت، الذي بدأ مثل السفينة الضخمة عن الوقوف، أحكم الحزام القطني حول رقبته وكتفه، فشعر بثقل التابوت قبل أن يهم بالوقوف.

ضرب السيد تساو إر على صاجته ثلاث ضربات جديدة، ثم راح يصيح في رجاله أن: «ابدءوا!»

وما إن سمع جَدِّي صوت صاجة السيد تساو، حتى حبس أنفاسه جيداً، وتَرَكَّزَتْ قُوَّتُه وعزيمته في ركبتيه، كان قد سمع إشارة السيد تساو بتشوش، ركز قوته جيداً في ركبتيه مستعداً للخطوة القادمة. وراح جَدِّي يَتَخَيَّلُ أن التابوت الضخم الذي يحتوي على جثمان السيد خان لين قد بدأ يتحرك من على الأرض، وأنه قد بدأ في رحلة إبحاره من هذا المكان، ولكنه تَوَقَّف فجأة عن الاستمرار في حلمه هذا عندما شعر بألمٍ شديدٍ في مُؤَخَّرَتِه، حيث اصطدمت بقطعة من الطوب.

وكان السيد تساو إر حتى ذلك الحين لا يزال واقفاً على قدميه، فنظر إلى التابوت الضخم، فإذا به يبدو مثل الشجرة الضخمة التي لا تزال تضرب بجذورها في بطن الأرض، بينما بدأ رجاله الشجعان مثل العصفور الضعيف الذي يضرب بمنقاره على الزجاج، وقد سقطوا جميعاً على الأرض من شدة التعب، وبَدَتْ معالم وجوههم وقد تَغَيَّرَتْ من اللون الأحمر إلى الأرجواني ثم إلى الأبيض الشاحب. وعندها عرف أنه قد هلك وهلكوا جميعاً! وأنه قد آن لهذه المسرحية أن تنتهي! وعندما نظر إلى جان أو بدأ مُلقى على الأرض.

وبداً لجدي أنه يستمع إلى صوت ضحكة السيد خان لين الباردة المصطنعة من داخل تابوته الممتلئ بالزئبق، وعندها مضى يفكر أن أهل عائلة تشي سواء كانوا أمواتاً أم أحياء، فهم فقط يعرفون الضحك البارد المُصطنع ولا يعرفون الابتسام والضحك البريء مثل بني البشر. وعندها شعر جَدِّي ببعض الدُّل والغضب تجاه الأشياء الكبيرة الضخمة والرُّعب الشديد من الموت.

صاح السيد تساو إر: «أيها الرفاق ... أيها الرفاق ... انهضوا لرفع التابوت ... انهضوا ... ليس من أجلي أنا ... انهضوا من أجل قريبتكم قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي.»

صاح السيد تساو بصوت مرتفع جداً كاد أن يَفْتِك مَعَدَتِه، وقد امتلأ وجهه بالعرق الشديد، ثم مضى في صياحه وتشجيعه لهم وهو يقول: «أيها الرِّفاق، نعم إنه من أجل قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي!»

سمع الحمالون صوت صاجة السيد تساو، وعندها شعر جَدِّي بألمٍ شديدٍ في قلبه، وكأن هذا الصوت لم يكن بسبب الضرب على الصاجة، وإنما كان على قلبه هو وقلب رفاقه.

وعندئذٍ أغمض جَدِّي عينيه، ومضى يتقدم إلى الأمام بجنون وكأنه مُقَدِّم على الانتحار (وفي بداية تَحَرُّك الحمالين لرفع التابوت، كان السيد تساو إر قد انتبه إلى ذلك الحَمَالِ)

المُلقَّب بـ «الديك الصغير» وقد ألصق فمه بِقَدْرِ النبيذ الموضوع أعلى التابوت وشرب منه شربة كبيرة). وهنا استطاعوا أن يزحزحوا التابوت عن المقاعد الأربعة التي كان يرقد عليها، ولف الغرفة سكون مميت، وسمعوا صوت طقطقة مفاصل هؤلاء الحمالين، التي أحدثت صوتاً عالياً مثل المفترقات لحظة انفجارها.

ولا يعرف جَدِّي أن وجهه لحظة تزحزح التابوت عن المقاعد كان قد بدأ شاحباً مثل وجه الأموات، وأنه كان قد شعر فقط آنذاك أن ظهره قد تألَّم ألماً شديداً، وأن فقراته قد تكسرت إلى قطع صغيرة. حتى إنه لم يستطع أن يرفع ظهره مستقيماً، وقد سيطر عليه شعور بالإحباط الشديد دام برهة قصيرة، وبدت قدماه مقوستين مثل قطعة حديد. وهكذا فإن ضعف حيلة جَدِّي قد جعلت الزئبق يتحرك داخل التابوت، مالت مقدمة التابوت على ظهر جدي. كما مال قدر النبيذ الكبير الموضوع أعلى غطاء التابوت، وراح النبيذ يتحرك داخل القدر دون أن ينسكب شيء، وراح أفراد عائلة تشي يُحدِّقون إلى إناء النبيذ.

وهنا صفع السيد تساو وجه جَدِّي صفعة قوية. ولا يزال يذكر جَدِّي أن تلك الصفعة قد دَوَّى رَيْنِهَا وَجَلَّجَتْ رأسه، وأنه فقد الشعور تماماً بقدميه وظهره وكتفه ورقبته، وبقي مذهولاً بضع لحظات عقب تلك الصفعة المميتة، وَغَطَّتْ عينيه سحابة سوداء.

وعندما تمكن جَدِّي من رفع ظهره مستقيماً، كان التابوت الضخم قد ارتفع عن سطح الأرض أكثر من متر، حيث رأى ستة من رفاقه الحمالين أسفل التابوت وأربعة آخرين منبطحين على الأرض يرفعون التابوت على ظهورهم. عندها أخذ جَدِّي نَفْسًا عميقاً، وشعر ببعض الدفء يسري في جميع أعضاء جسده.

وأخيراً خرج التابوت من الأبواب السبعة، وتم نَقْلُهُ إلى غطاء كبير أزرق اللون. وهكذا راح جَدِّي — الذي كان قد قام بأعظم مُهْمَةٍ شاقّة — ينظر بازدراء إلى أفراد التنظيم الذين كانوا يحيطون بتابوت جدتي، وقد بدوا له غير مُتَقِنِينَ لهذا العمل الذي يُعَدُّ هو ضليعاً فيه، ولكنه لم يرغب في أن يدخل معهم في حوار جديد، وانتظر حتى أتى أحدُهم بقطعة قماش مُبلَّلة بمياه الخليج، ثم تَقَدَّمَ جَدِّي وراح يلفها بنفسه حول التابوت، اختار ستّة عشر فرداً من أفراد التنظيم ووزع عليهم العمل، وصاح فيهم أن ابدؤوا، حتى تَمَكَّنُوا من رفع التابوت من على سطح الأرض ... وقاموا بوضْع تابوت جدتي في غطاء كبير مكوّن من اثنتين وثلاثين عقلة. ثم مضى جَدِّي يتذكر ذلك المشهد أثناء جنازة السيد

خان لين، حيث بدت جنازته المهيبية مثل تين أبيض ضخم، وقد مرت الجنازة من خلال الطريق المرصوف بالحجارة بمدينة جياو شيان، وانشغل المارة بمشاهدة ذلك المنظر المهيب، ومشاهدة وجوه هؤلاء الحمالين الأربعة والستين، بدت وجوههم شاحبة تمامًا، ومشاهدة الدماء التي كانت تسيل من أنوف سبعة أو ثمانية من هؤلاء الحمالين. كان جدِّي قد انتقل آنذاك إلى مؤخرة التابوت، وراح يمسك بأخف جزء من أحمال التابوت، شعر بسخونة سرت في جسده، وراح يجري بسرعة على ذلك الطريق المرصوف بالحجارة.

٣

أمسك أبي ببندقيته ولبس ثوب الجداد من الكتان الأبيض، ووقف أعلى مقعد عالٍ ووجه بصره صوب الجنوب الغربي، وراح يعبث بامسورة البندقية في الأرض أسفل المقعد، ثم راح يصيح بصوت مرتفع: «أمي، أمي، وداعًا إلى الجنوب الغربي، إلى الطريق الفسيح، على ظهر السفينة الكبيرة، على ظهر الحصان السريع، أمي لقد استرحت بعد رحلة معاناة طويلة.»

وأوصى الراهب سه شه أبي أن يتلو هذا النشيد ثلاث مرات متتالية، وهكذا تم تشييع روح جدتي وسط دعوات الأهل والأقرباء إلى الجنوب الغربي إلى عالم الراحة والسعادة. ولكن أبي تلا ذلك النشيد مرة واحدة ولم يستطع أن يستمر بسبب الدموع الغزيرة التي سدّت حلقة، فأمسك ببندقيته وبقي ساكنًا في مكانه. وفجأة انخرط في الصياح والنداء على أمه بصوت مرتعش، وراح يتابع الفراشات التي تركت لأجنحتها العنان وحلقت صوب الجنوب الغربي، حيث البرية الواسعة والهواء العليل، وحيث سطعت شمس الثامن من أبريل غير المستقرة على صفحة مياه نهر موا شوى حتى خلقت على سطحها حاجزًا أبيض، كان من الصعب على جدتي أن تتخطى هذا الحاجز، ترددت قليلًا ثم عادت ثانية صوب الشرق، فعلى الرغم من أن أبي كان قد ودّعها إلى الجنوب الغربي لتتعم هناك بالمتعة الأبدية، فإن جدتي لم ترغب في الذهاب إلى هناك، حيث راحت تسير بمحاذاة حافة النهر التي كانت تسير عليها من قبل وهي تذهب بالطعام لجدتي وفرقتها، تنظر بعينيها الذهبيتين إلى الخلف لتنادي على أبي. ولو لم يكن أبي آنذاك يستند على بندقيته، فإنه كان بالتأكيد قد سقط من فترة طويلة على الأرض. هنا جاء إليه ذلك الشخص الغريب أبو شامة واحتضنه وأنزله من أعلى المقعد العالي الذي كان يقف عليه منذ وقت طويل. وهنا لف صوت الزمر والطبل الجميل ورائحة الجموع المحتشدة وروعة المراسم الجنائزية،

لَفَّتْ هذه المشاعر مجتمعة أبي بجسده ورُوحه وكأنها طبقة بلاستيكية عالية الجودة أطيقت عليه تمامًا.

قبل عشرين يومًا مضت، كان جدِّي قد اصطحب أبي وذهبًا معًا لحفر قبر جدتي. ولم يكن ذلك اليوم يومًا سعيدًا بالنسبة لطيور السنونو، حيث تَغَطَّت السماء في ذلك اليوم باثنتي عشرة سحابة مُتَقَطَّعة، وفاحت بين السحب رائحة بعض الأسماك المُتَعَفِّنة، وهبَّت على نهر موا شوى ريح شريرة، وطفَّت على سطحه أرواح الأشباح، وتناثرت بين الأعشاب الذابلة على ضفتي النهر أشلاء جثث الكلاب التي لقيت حتفها انفجارًا بالقذائف اليدوية، خلال المعركة التي وَقَعَتْ بين البشر والكلاب في شتاء العام الماضي، بينما راحت تُحَلِّق جماعات السنونو التي جاءت مهاجرة منذ وقت قريب من جزيرة خاي نان وهي في رعبٍ شديدٍ، وكانت الضفادع في تلك الأثناء قد بدأت في التعانق مع بعضها بعضًا، كانت الضفادع تقفز في كل مكان منتشية بنشوة الحب الجميلة التي لَفَّتْ تلك الضفادع السوداء النحيفة.

وراح أبي ينظر إلى جماعات السنونو والضفادع، وإلى جسر نهر موا شوى الذي لا تزال تظهر عليه آثار جراح عام ١٩٣٩م، شَعَرَ أبي بشعور أشبه ما يكون بالوحدة والحيرة. وخرجت جموع الأهالي التي استراحت طيلة الشتاء، خرجوا إلى الحقول لزراعة الذرة، وبدأ صوت الآلات الزراعية القادم من بعيد واضحًا جدًّا. وسار أبي خلف جدِّي ومعهم ما يزيد على عشرة من أفراد التنظيم حتى وقفوا أمام قبر جدتي. وبدأ قبرها مع قبور أعضاء فرقته في شكل أفعى كبيرة، وبدأ الطين الذي يُغَطِّي القبر باهتًا، ونبت داخله عدد من زهور القرنبيط البرِّي.

لَفَّ الصمت الجميع لمدة ثلاث دقائق.

وسأل جدي: «يا دوو قوان، هل أنت متأكّد من هذا القبر؟»

فقال أبي: «نعم، إنني لن أنساه أبدًا.»

قال جدي: «إدًا فابدءوا الحفر!»

أمسك أفراد التنظيم بالآلات التي جاءوا بها، إلا أنهم وقفوا مُتردِّدين ولم يجروا على البدء في الحفر. وأخذ جدِّي بِمِعْوَل على شكل الصليب وراح يضرب به على فتحة قبر مكتنز يبدو مثل ثدي الأنثى، أحدثت ضربات المِعْوَل صوتًا مسمومًا وهي تتعمَّق إلى بطن الأرض، ثم سحبه بقوة، فخرج المِعْوَل بقطعة طمي كبيرة، فرماها جدِّي إلى جانب القبر، وهنا برزت كومة التراب أعلى القبر.

وعندما ضرب جَدِّي بمعوله كومة التراب أعلى القبر، شعر أبي أن قلبه ينقبض، ولفَّه شعور بالخوف والكُرْه الشديد تجاه جَدِّي ذلك الرجل قاسي القلب.

ألقي جَدِّي بالمعول جانبًا، وقال بصوت ضعيف: «احفروا، احفروا.»

فأحاط أفراد التنظيم بقبر جدتي، وانشغلوا بعملهم حتى استطاعوا خلال وقت قصير تسوية كومة التراب المكومة أعلى القبر بسطح الأرض، وألقوا بالتراب في كل مكان، حتى تمكنوا من توضيح معالم القبر المربع الشكل، كان التراب ناعمًا جدًّا، وبدا القبر مثل حفرة كبيرة، فراح أفراد التنظيم يستخدمون المِجْرَفَات في نزع التراب من القبر. فقال جدي: «احفروا بكل جرأة، فإنه لا يزال أمامنا مُتَسَّع من الوقت.»

ومضى أبي يَتَذَكَّر مشهد دفن جثة جدتي ليلة اليوم التاسع من الشهر الثامن عام ١٩٣٩م، حيث سطعت مشاعل اللهب التي كانت مرفوعة أعلى سطح الجسر وما يزيد على عشرة مشاعل كانت تحيط بالقبر على وجه جدتي الميتة حتى بدأ وجهها ينبض بالحياة، ثم قضى التراب بعد ذلك على هذا الانطباع تمامًا. والآن فإن هذه الآلات المعدنية تكشف عن هذا الانطباع من جديد، وكلما أصبحت طبقة التراب رقيقة ازداد توتُّر أبي، وكأن هذه الطبقة الرقيقة من التراب تفصله عن ابتسامة جدتي التي أخفاها الموت.

أخذ العم أبو شامة أبي إلى مكان ظليل بارد، وراح يمسح على وجنته براحته يده، ثم نادى عليه قائلاً: «استيقظ يا دوو قوان!»

فأفاق أبي على الفور، ولكنه لم يكن يرغب في أن يفتح عينيه، وقد بدأ جسده ينضج بالعرق الساخن، إلا أنه كان يبدو باردًا، وكأن الهواء البارد الذي كان يخرج من قبر جدتي قد تسرَّب إلى أعماق قلبه ... وقد برز القبر واضحًا الآن، واصطدمت المعاول وآلات الحفر بأعواد الدُّرَّة وأحدثت صوتًا مسموعًا، بينما بدت أيدي أفراد التنظيم ترتجف. وبعد أن انتهى الأفراد من تنظيف أعواد الدُّرَّة من التراب الذي علق بها، توقَّفوا عن العمل، وراحوا ينظرون إلى جَدِّي وأبي بتوسُّل، ورأى أبي وجوههم الحزينة وأنوفهم المُتَشَنِّجَة. ثم سَرَّت في تلك الأثناء رائحة عَفْنَة قوية. وراح أبي يتابع تلك الرائحة وكأنه يشمها، كانت تنبعث عن صدر جدتي، بينما هو يرقد على صدرها للرضاعة.

«واصلوا الحفر، واصلوا الحفر» هكذا راح جَدِّي يصيح غاضبًا في وجوه هؤلاء الرجال المُتَعَبِينَ دون أدنى إحساس بالشفقة والعطف تجاههم.

وهكذا اضطر هؤلاء الأفراد إلى مواصلة العمل وراحوا يستلون أعواد الذرة ويلقون بها إلى خارج القبر، وقد لمعت قطرات المياه على الأعواد الخالية من الأوراق، وبدت تلك الأعواد محمرة وملساء وكأنها قطع من اليشم المبلل بالمياه.

واشتدت تدريجياً تلك الرائحة المنبعثة من داخل القبر، فسارَعَ العمال بوضع أكمامهم على أنوفهم وأفواههم ليتقوا تلك الرائحة القوية، بينما دمعت أعينهم وكأنها قد تعرّضت للحك الشديد بالثوم. وتحوّلت تلك الرائحة في أنف أبي إلى رائحة نبيذ الذرة ذي الرائحة الذكية القوية، حتى كاد يشعر بالسُّكْر من شَمِّها. رأى أبي أعواد الذرة تزداد ألوانها حمرة كلما ازدادت قطرات المياه المتساقطة عليها. ومضى يفكر في أنه ربما تكون تلك السترة الحمراء التي ترتديها جدتي مشبعة بنبيذ الذرة، يعرف جيداً أن جسدها قبيل وفاتها كان لامعاً وشفافاً مثل الحرير، وأن لون تلك السترة الحمراء هو بالتأكيد الذي طُفح على أعواد الذرة الخضراء لتبدو مُحمرّة. وعندما مضى العمال في رفع تلك الأكوام من أعلى الذرة ووصلوا إلى آخر طبقة منها، كان أبي يتمنى أن ينظر إلى وجه أمه التي ترقد تحت هذه الكومة من أعواد الذرة، ولكنه في الوقت ذاته كان يخشى أن يرى وجهها.

وكلما قلّت كمية أعواد الذرة المتبقية داخل القبر فوق جثة جدتي، كان أبي يشعر بأنها أضحت بعيدة عنه تماماً، حيث زالت الحواجز المرئية بين عالم الأحياء وعالم الأموات، في حين ازدادت سماكة الحواجز غير المرئية بين العالمين. وفجأة سمع الجميع صوت وشوشة خرج من بين آخر مجموعة أعواد ذرة في القبر، فذهل أفراد التنظيم ذهولاً شديداً ومنهم من راح يصيح بصوت مرتفع، ومنهم من وقف مذهولاً من هول ما سمع، وكأنهم قد تعرضوا جميعاً لموجة عاتية خرجت عليهم فجأة من بطن القبر وألقت بهم إلى خارجه.

بدت وجوههم شاحبة لمدة طويلة بعد خروجهم من داخل القبر، حتى عادوا إليه ثانية بعد أن تقدّم أبي وراح يحثهم على مواصلة عملهم، وما إن نظر أبي إلى القبر حتى رأى أربعة فئران من الفئران البرية تتسلق جدار القبر، وكان هناك فأر أبيض اللون يجلس هنالك أعلى عود من أعواد الذرة الجميلة جداً الملقاة داخل القبر وكأنه يقوم بالتنجيم. انتبه الجميع إلى الفئران الأربعة، التي ما إن صعدت إلى أعلى سطح القبر حتى لاذت بالفرار، بينما كان ذلك الفأر الأبيض لا يزال يجلس في مكانه وهو ينظر إليهم بعينيه الصغيرتين السوداوين. أمسك أبي بحفنة من التراب وألقاها على الفأر الأبيض، فقفز لأعلى حوالي أقل من متر ولكنه لم يستطع أن يصل إلى سطح القبر، فسقط ثانيةً وراح يجري بجنون داخله. وسلط أفراد التنظيم جُلّ بغضهم على ذلك الفأر الأبيض، وراحوا يهيولون عليه

كميات كبيرة من التراب المشبع بمياه الأمطار، حتى تمكنوا أخيراً من قتله داخل القبر. وعندما وصل التراب إلى آخر مجموعة أعواد ذرة داخل القبر، شعر أبي عندها بالندم الشديد لأنه بدأ بنفسه هذه الحملة من إهالة التراب على الفأر الذي كان يرقد داخل القبر، الأمر الذي تبعه فيه باقي الأفراد، ومعظم تلك الكمية الكبيرة من التراب لم تسقط على الفأر مباشرة، ولكنها كانت تسقط على جثة جدتي.

كان أبي يعتقد على الدوام أن أمه فور خروجها من بطن القبر ستبدو جميلة نضرة، وأن قبرها سيبدو مشرقاً ومبهراً تفوح منه رائحة ذكية، وسيكون ذلك المشهد مثل المشاهد الجميلة التي تتكرر في الحكايات والأساطير. غير أن أفراد التنظيم كانوا ينفون هذه المقولة التي يؤكد أبي على صحتها، وكانوا كلما ذكروا هذا الأمر شعروا بامتعاض شديد، وراحوا يصفون صورة جثة جدتي المتعفنة والرائحة الخانقة التي تنبعث عنها. في حين أن أبي كان على ثقة بأن كلامهم هذا مجرد هراء، حيث إنه كان لا يزال يذكر جيداً أنه عندما تم رفع آخر عود من أعواد الذرة من أعلى جثة جدتي، كان قد رأى بأم عينيه وجهها الجميل الباسم. كما أنه لا يزال يذكر تلك الرائحة الذكية التي انبعثت من جسدها، ولكن تلك اللحظة كانت للأسف لحظة قصيرة جداً. وبمجرد أن خرجت جثة أمه من داخل القبر، تلاشت صورتها الجميلة الباسمة، وتبعثرت تلك الرائحة الذكية، ولم يبقَ فقط سوى هيكلها الأبيض الناصع، ويقر أبي أنه كان قد شمَّ آنذاك رائحة كريهة جداً، ولكنه كان ينفي من أعماق قلبه أن يكون هذا هو هيكل أمه، ومن ثم فإن تلك الرائحة الكريهة ليست رائحتها.

بدأ الحزن الشديد على جدي. وفر الأفراد السبعة الذين قاموا بإخراج جثة جدتي المتعفنة من داخل القبر مسرعين إلى نهر موا شوى، وراحوا يتقيئون مما شعروا به خلال إخراج الجثة. وتقدم جدي وفرد قطعة قماش بيضاء كبيرة، وطلب من أبي أن يساعده في نقل جثة جدتي على قطعة القماش الكبيرة. وشعر أبي بأنه قد وصلت إليه عدوى التقيؤ من هؤلاء الأفراد الواقفين على حافة النهر، وراح يرفع رقبته لأعلى وهو يشعر بمرارة كبيرة. كان لا يرغب أبداً أن يتقدم بتحريك تلك العظام الملقاة أمامه، وقد شعر تجاهها آنذاك بالامتعاض والكره الشديد.

فخاطبه جدي قائلاً: «ما بالك يا دوو قوان تُعرض هكذا عن عظام أمك وتتعَلَلْ بأنها عظام قدرة؟ هل تشارك الآخرين كُرّه عظام أمك؟»

وهنا تأثر أبي كثيراً بمعالم الحزن الشديد التي رآها على وجه جدي، وقليلًا ما ترتسم على وجهه مثل هذه المشاعر، فأمال أبي ظهره وراح محاولاً الإمساك برأس جدتي. وقد

أحس ببرودة جنتها الشاحبة، وقد شعر ببرودة تسري في جميع أوصاله. وأمسك جدي بكتفي جدي، وراح يحركها بخفة، ولكن هيكل جدي تفتت في تلك اللحظات إلى قطع صغيرة ملأت الأرض المحيطة بالغطاء الأبيض الكبير. وغطى شعر جثة جدي قلمي جدي، ثم رأى زوجاً من النمل الأحمر الكبير يتسلق الجثة. وهنا ألقى أبي بقدم جدي والتفت إلى الورااء وفرَّ بعيداً وقد انخرط في البكاء بصوت مرتفع.

٤

انتهت جميع مراسم الجنازة في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وصاح الراهب سه شه بصوت مرتفع: «فلتتحركوا الآن!» وهنا تدفقت جموع المحتشدين المشاركين في تشييع الجنازة نحو الحقول. ورأت جموع الأهالي المشيعين الذين كانوا ينتظرون منذ وقت طويل على مشارف القرية، الجموع الغفيرة القادمة من داخل القرية، كما رأوا جنازة عائلتنا، عائلة يو المهيبة، والتي بدت مثل التنين الضخم. وقد انتشرت على جانبي الطريق مجموعة كبيرة من الخيام الكبيرة، وكانت المسافة بينها حوالي مائتي متر، وقد امتلأت الخيام بالموائد الفخمة التي تحتوي على شتى أنواع الأطعمة التي يسيل لها لعاب الأهالي المحتشدين لتشييع هذه الجنازة المهيبة. بينما كانت تجري فرقة الخيول التي يقودها وو لوان تزه داخل حقول الذرة الممتدة على جانبي الطريق. واشتدَّت حرارة الظهيرة، وتناثرت كميات كبيرة من التراب، وتصبَّبت أجساد الخيول بالعرق الشديد، وامتلات حواف أفواهاها بسائل امتزج بالتراب الذي ملأ المكان. وانعكست شمس الظهيرة الحارَّة على أرداف الخيول اللامعة، بينما علَّت كميات التراب الكبيرة المنبعثة عن ركُض الخيول. وكان يتقدَّم الجنازة راهب ممتلئ الجسم يرتدي عباءة صفراء، ممسكًا بحربة حديدية تُحدث صوتًا مسموعًا، يُدويُّ حوله وفي عنان السماء، ثم يدوي بين جموع المحتشدين. وكان تلك الحربة الصغيرة كانت مربوطة بيد الراهب، فكانت تبدو ملتصقة بيده مَهْمَا اشتدت الرياح. وكان نصف عدد الجموع المحتشدة لتشييع الجنازة يعرفون ذلك الراهب ممتلئ الجسم، يعرفون أنه رجل فقير من معبد تيان تشي، وأنه راهب فقير لا يقوم بحرق البخور وتلاوة كتاب بوذا، وأنه كان ييمن شراب النبيذ وأكل الأسماك، وكان يأوي معه في المعبد امرأة شابة ولدت له مجموعة كبيرة من الرُهبان الصغار. فراح الراهب الفقير يضرب بحرْبته ليُفسح لنفسه الطريق بين صفوف الأهالي، وما إن رفع

الحربة تجاه رؤوسهم امتثلوا له وتراجعوا عن التقدُّم للأمام. وهنا بدت على وجهه علامات السرور.

وكان هناك رجل من أفراد التنظيم يسير خلف الراهب مباشرةً، وهو يرفع عصا طويلة، علّق أعلاها علمًا جنائزيًا، وبدت العصا ممتلئة باثنتين وثلاثين قصاصة ورقية بعد السنوات التي عاشتها جدتي. راح العلم الجنائزي يرفرف في السماء الساكنة. وكان يقف خلف رجل آخر من أفراد التنظيم قوي البنية يرفع راية بيضاء ارتفاعها حوالي عشرة أمتار، وقد امتلأت الراية بهذه الكلمات المكتوبة بالحبر الأسود: نعش السيدة داي زوجة القائد يو جان أو قائد فرقة العصابات بقرية دونغ ببي بمدينة قاو مي بالصين الوطنية، وبالبلغة من العمر اثنين وثلاثين عامًا. ظهر خلف الراية ذلك الغطاء الصغير الذي كان يلف شاهد جدتي، وخلف الشاهد ظهر الغطاء الكبير الذي كان يحمل نعشها. ووسط الأصوات الحزينة التي هزت المكان، تقدّم أربعة وستون رجلًا من أفراد التنظيم في خطوة واحدة. وقد غطى التابوت عددًا كبيرًا من المظلات والقصاصات الورقية على شكل فرس وعدد كبير من الأزهار ذات الألوان المختلفة. وظهر أبي مرتديًا ثوب الجداد وممسكًا في يده بعضًا الأحزان المصنوعة من خشب الصفصاف، حمله اثنان من أفراد التنظيم ذوي الرؤوس الصلعاء كانوا يتقدمون إلى الأمام خطوة خطوة وفق صوت أبي. وكان أبي يولول ولولة ممتازة، وقد بدت عيناه ذاهلتين، وصوت ولولته مُلِفت للنظر حتى تأثرت به قلوب عدد كبير جدًا من جموع الأهالي المحتشدين لتشييع الجنازة.

كان جدّي والسيد أبو شامة يسيران جنبًا إلى جنب خلف أبي، وقد بدت عليهم معالم الحزن الشديد، ولم يكن أحد يستطيع في تلك اللحظات أن يُخمن ما كان يدور داخل رأس كل منهما.

وأحاط بكلّ من جدّي وأبي شامة ما يزيد على عشرين من أفراد التنظيم المسلّحين بالبنادق، بدأ عليهم التوتر الشديد وكأنهم مُقدِّمون على ملاقاته عدو قوي. وكان يسير خلفهم ما يزيد على عشر من فرق الطّبّالين والرّمّارين بقرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، كانوا يعزفون موسيقى غاية في الجمال، تجعل الإنسان يسبح معها بعيدًا في عالم الأساطير.

وهكذا بلغ طول جنازة جدتي المهيبه حوالي كيلومتر، وامتلاً الطريق الضيّق بالأعداد الغفيرة من المشيعين، وكانوا يتقدمون للأمام بصعوبة بالغة وسط ذلك الطريق الضيق، كانت الجنازة تعرج خلال ذلك الطريق الطويل على خيام المآدب المنتشرة على طول

الطريق لشكرها، وكانت كُلِّمَا مرَّت بخيمة تقف عندها لإحراق قليل من البخور على روح الميت، وكان الراهب سه سه يمسك عندها بوعاء من النحاس ويقوم بعمل بعض الطقوس القديمة المتبعة في المراسم الجنائزية، ومن ثَمَّ فقد كان موكب الجنازة يسير بخطوات بطيئة جداً. وكان الراهب قد شعر بالتعب الشديد من كثرة اللعب بالحربة، وتَصَبَّب جسمه عرقاً، وتَبَلَّثت عباة الصفرَاء وحَمَد صوت الحربة كثيراً، ولم يَعد يدوي بعيداً عن مكان تَمَرُّكُز الراهب. شعر جميع الأهالي المشاركون في الجنازة بالإرهاق الجسدي والمعنوي الشديد، وراحوا يتمنون من أعماق قلوبهم أن تنتهي هذه الجنازة الشاقَّة. وراح أفراد التنظيم الذين يحملون الغطاء الكبير ينظرون غاضبين إلى الراهب سه سه، الذي كان لا يزال ممسكاً بالوعاء منهمكاً في القيام ببعض الطقوس، ومَعالم الحزن التي ترتسم على وجهه، وودُّوا لو انقُضوا عليه دفعةً واحدة وأخرسوا لسانه الثرثار. كانت فرقة الخيول التي يقودها وو لوان تزه هي أكثر المجموعات التي تحمَّلت التعب والعناء الشديد خلال مراسم الجنازة، كانوا قد انطلقوا في رحلة مكوكية من القرية إلى منطقة المقابر، ثم من المقابر إلى القرية مرة أخرى، وقد بدأ التعب على الخيول التي راحت تلهث وقد بدت أقدامها وبطونها ملطخة بالتراب الكثيف.

وبعد أن ابتعد موكب الجنازة عن القرية نحو كيلو ونصف الكيلومتر، وقف ثانية عند إحدى الخيام لشكرها على المأدبة العامرة التي أقامتها، حيث كان الراهب سه سه لا يزال يتقدم الموكب بروح معنوية عالية وصرامة واضحة، وفجأة سمعوا صوت طلق نار يديوي قريباً منهم، وما إن نظروا إليهم حتى رأوا ذلك الرجل من أفراد التنظيم الذي كان يمسك بالراية جالساً على الأرض، وقد مالت الراية على جانب الطريق، ثم سقطت على رءوس الأهالي المشاركين في تشييع الجنازة. وقد عمَّ المكان فوضى عارمة فور سماع صوت الطلُّق الناري، وتَجَمَّع الأهالي في مجموعة واحدة مثل سربٍ كبيرٍ من النمل حول فريسة كبيرة، كنت ترى فقط أقدامهم وهي تتحرك ورءوسهم وهي تهتز وسط ذلك التكتل الكبير، وامتزجت أصوات البكاء والصياح والفرع لتعم أرجاء المكان.

وفور سكون صوت الطلق الناري، تطاير عدد من القذائف اليدوية فوق رءوس الأهالي المُتجمِّعين على جانبي الطريق، وقد سقطت بعض القذائف تحت أقدام أفراد التنظيم، فامتلاً المكان بالدخان الأبيض الكثيف.

ثم سمعوا صوت أحد الأشخاص على جانب الطريق وهو يصيح بصوت مرتفع: «انبطحوا أيها الأهالي!»

فراح جموع الأهالي المحتشدين ينظرون إلى أفراد التنظيم ثم انبطحوا بسرعة وقد بدأ عليهم القلق والفرع، وتمكّنوا فقط من رؤية القذائف التي تهتز في السماء والأصوات المدوّية التي تصدّر عن انفجارها، وانتشر بينهم شعور كبير بالفرع والرعب الشديد من شبح الموت الذي يقترب منهم.

توالى انفجار القذائف اليدوية، ولقّت المكان صورة مأساوية؛ حيث أسفرت الانفجارات عن مصرع وإصابة ما يزيد على عشرة من أفراد التنظيم، كما أصيب العم أبو شامة إصابة بالغة في مؤخرته ونزف كمية كبيرة من الدم. فراح يمكس بمكان الجرح ويصيح بصوت مرتفع: «يا فو لاي! يا فو لاي!» ولم يستمع لرد خادمه فو لاي، الذي كان عمره من عمر أبي تقريباً، وبالتالي لم يتمكن فو لاي من مساعدته وإنقاذه في تلك اللحظات الحرجة. كان أبي قد أهدى للخادم فو لاي إحدى الكرتين الزجاجيتين اللتين عثر عليهما ليلة أمس مع الطبيب التقليدي، حيث كان أبي قد احتفظ لنفسه بالكرة الحمراء وأهدى الكرة الخضراء للخادم فو لاي، وقد فرح بها فو لاي كثيراً وكأنه قد وقع على كنز ثمين، وكان دائماً ما يظهر وهو يلعب بها في فمه. كان أبي ينظر إلى الكرة الخضراء في فم فو لاي وقد بدت مخضبة بالدماء التي سألت من فمه، ولع لونها الأخضر الجميل وكأنها مثل إكسير الحياة في الحكايات والأساطير. وأصابت إحدى الشظايا رقبة الراهب سه شه الذي كان منشغلاً بطقوسه، فقطعت شرايينه وانفجر منها بحر من الدماء، ثم سقطت رقبتة على الأرض وامتزج دمه بتراب الأرض. وبدأ دم الراهب سه شه مثل قطرات الأمطار الشديدة التي كانت تسقط على التراب لتخلق فيه بعض الحفر، وسقط جزء من الغطاء الكبير ليكشف عن تابوت جدتي الأسود.

ثم سمعوا صوت شخص آخر يصيح بين جموع المحتشدين على جانب الطريق: «أيها الأهالي انبطحوا أرضاً!» وفي تلك الأثناء سقطت عليهم مجموعة جديدة من القذائف. فاحتضن جدّي ابنه وراح يحبو على الأرض حتى وصل إلى أخدود ضحل على جانب الطريق، داست عشرات الأقدام على ذراع جدي المصاب، حتى أحس بثقل شديد يجثم على ذراعه، ولكنه لم يتألم كثيراً من تلك الأقدام. أما أفراد التنظيم الذين كانوا يقفون على جانبي الطريق، فقد ألقى ما يزيد على نصفهم البنادق التي كانوا يمسون بها وفروا كالجرذان، وأما الأفراد الباقون الذين لم يلقوا ببنادقهم بعد، فقد ظلّوا شاردين في أماكنهم على جانبي الطريق، في انتظار انفجار قذائف جديدة. وأخيراً تمكّن جدّي من رؤية أحد هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يلقون بالقذائف. وأحس للوهلة الأولى أن وجه

ذلك الرجل كان يبدو مثل الطريق الممتلئ عن آخره بالتراب الكثيف، والذي انبعثت منه رائحة الثعالب الماكرة. بدت على ذلك الوجه علامات رجال الجيش الثامن، إنه من فريق جياو قاو! إنه من رجال القائد جيانغ! إنه من رجال الجيش الثامن!

ثم دوى صوت انفجار القذائف من جديد، وامتلاً الطريق الترابي بالغبار الكثيف الذي تطاير بكميات كبيرة إلى عنان السماء، وتطايرت الشظايا إلى جانبي الطريق، فراح جموع الأهالي المشاركون في تشييع الجنازة يتساقطون على الأرض مثل أعواد الأرز. توثب عدد كبير من أفراد التنظيم على جانبي الطريق بفعل تلك الشظايا، التي أصابت أيديهم وأقدامهم، وأجسادهم لتسيل منها كميات كبيرة من الدماء، والتي راحت تتناثر فوق رعوس الأهالي مثل مشاعر الحب الرقيقة.

وهنا مد جدي يده ليخرج بندقيته وقد بدأ عليه الاضطراب والارتباك، وحدد هدفه جيداً نحو ذلك الرجل من الجيش الثامن، ثم داس على زناد بندقيته برفق، لتخرج الرصاصة من داخل البندقية ويتابعها بنظراته الدقيقة.

وراح رجال الجيش الثامن يصيحون بين جموع الأهالي قائلين: «أيها الرفاق! انقضوا عليهم واستولوا على أسلحتهم!»

وهنا توجه أبو شامة وبعض أفراد التنظيم الذين أفاقوا من هول صدمة القذائف، توجّهوا نحو ذلك الجمع من الناس وراحوا يطلقون النيران بصورة عشوائية، كانت الطلقات التي خرجت من أسلحتهم فتأكة جداً، كانت تخترق عدداً من الأجساد قبل أن تستقر داخل جسد أحد الأشخاص أو قبل أن تسقط داخل التراب.

وهنا تمكّن جدي من التعرف على الملامح الرئيسية لرجال الجيش الثامن وسط ذلك الجمع الكبير من الناس، والذين بدوا يقاتلون باستماتة وسط جموع الناس، وقد راح جدي يتأمل تعابير وجوههم القاسية وهو يشعر وكأن سكيناً حاداً يخز قلبه الضعيف. والآن تحوّلت المشاعر الطيبة التي كانت قد تكوّنت لديه تدريجياً تجاه رجال الجيش الثامن، تحوّلت تلك المشاعر الآن إلى حقدٍ وبُغضٍ دفين، صوّب جدي بندقيته نحو الكثير من تلك الوجوه المتوحشة، وكان يثق تماماً أنه لم يقتل أحداً منهم، كان قد عرف بعد ذلك أن هؤلاء الذين أصابتهم الطلقات العشوائية التي أطلقها أبو شامة وأفراد التنظيم، كانوا جميعاً من الأهالي الأبرياء.

تمكّن أبي أن يخرج من تحت إبط جدي، ثم أخرج مسدسه البرونينج، كان قد شعر بالضيق والأذى الشديد من شدة صوت الطلقات النارية التي دوت من حوله. فخرجت

من مسدسه طلقة عن غير قصد منه. وراح يتبع عادته المعهودة عندما يطلق الطلقات النارية من سلاحه الخاص، فراح يلاحق تلك الرصاصة التي خرجت من مسدسه. وقد اكتشف أنها سارت في طريق مستقيم حتى استقرت داخل فم كان مفتوحًا. كان ذلك الفم يخص امرأة شابة فوق العشرين من عمرها، امرأة جميلة ذات شفيتين حمراوين نضرتين، وأسنان ناصعة البياض، وذقن ممتلئ. وقد سمع أبي صوتًا مبوحًا يخرج من ذلك الفم المصاب، وخرجت منه كتل من الدماء التي امتزجت ببعض الأسنان البيضاء الجميلة التي تكسرت بفعل الرصاصة، ففتحت المرأة الشابة الجميلة عينيها الخضراوين الرماديتين وراحت تنظر إلى أبي، ثم سقطت بعدها على الأرض، وقام بعض الناس الحاضرين على الفور بإخفائها عن أعين الجميع.

دَوَّت صافرة الإنذار داخل القرية، واستطاع جَدِّي أن يرى ما يزيد على مائة رجل من قوات فريق جياو قاو وهم يُلَوِّحون ببنادقهم وهراويلهم، ويتقدمون تحت قيادة القائد جيانغ ويصيحون بكلمة الهجوم. وكان وو لوان تزه قد قطع مؤخرة فرسه الملون داخل حقول الذرة الممتدة جنوب القرية، ثم تقدّم فرقة الخيول وفر ناحية الشمال. تألم الحصان الملون كثيرًا مما أصابه، وتصيب رقبته بالعرق الشديد. وسدت جموع الأهالي المنهزمة الفأرة الطريق أمام فرقة وو لوان تزه ورجاله، فراح وو لوان تزه يضرب حصانه ويحثه على التقدم بين جموع الأهالي المعترضين طريقه، ثم تبعه في ذلك رجاله، وعندها لم يتمكن الأهالي من اعتراض طريق الخيول، فانقضوا إلى أعلى ظهور الخيول، فسقطت الخيول داخل إحدى المستنقعات، ورفعت رقابها وراحت تصهل بصوت يُعبّر عن إحباطها. وإلى جانب وو لوان تزه، كان هناك حصانان أسقطتهما جموع الأهالي الذين انقضوا عليهما بشكل جنوني، كما سقط الرجلان اللذان كانا يمتطيان هذين الحصانين، وراح عدد كبير من الأقدام يعبر فوق الحصانين المقتولين وصاحبيهما، وصدر صوت ممتلئ بالحزن والأسى عن الحصانين وصاحبيهما. تمكّن الأهالي من القبض على أحد رجال فرقة جياو قاو كان بحوزته مسدس ماوزر — ربما يكون هو الذي قام بقتل ذلك الرجل من أفراد التنظيم الذي كان يرفع راية الجنازة — وقدموه إلى وو لوان تزه، وما إن رآه وو لوان تزه حتى غضب غضبًا شديدًا، وقد أطلق ذلك الرجل من فرقة جياو قاو طلقة، إلا أنها لم تُصب وو لوان تزه وطارت في عنان السماء، فانترع وو لوان تزه سيفه الياباني اللامع، وقطع به رأس الأسير من فرقة جياو قاو. فطارت تلك الرأس فوق رؤوس الأهالي، وتناثرت دماؤها فوق وجوه بعضهم.

وتَجَمَّع أفراد التنظيم المُرابِضون على جانبي الطريق إثر سماعهم صوت توبيخ جَدِّي لهم، واحتموا بأعلام ورايات الجنازة والخيام المنتصبه على جانبي الطريق، وراحوا يواجهون فرقة جياو قاو التابعة للجيش الثامن.

وهكذا تَمَكَّن جَدِّي من خطف رجال فرقة جياو قاو والتي كانت قد ضُعفت كثيراً، فلم يكن لديهم عدد من الأسلحة الجيدة، وكانوا فقط يمتلكون روح التضحية العالية. فعلى الرغم من عدم توقُّف الطلقات النارية التي يُوجَّهها نحوهم أفراد عصابة جَدِّي حتى أسقطوا منهم عدداً كبيراً، فإنهم لم يتراجعوا عن التَّقَدُّم بكل شجاعة ولم يتوقَّف صياحهم: الهجوم الهجوم، هذا بالإضافة إلى أن الأسلحة البدائية التي كانوا يمسكون بها، كانت فقط تفيدهم في حالة حدوث احتكاك مباشر وجهاً لوجه مع خصمهم. وقد شكَّلت هذه الروح القتالية وروح التضحية الكبيرة التي يتمتعون بها، خطورة كبيرة على عدوهم، حتى تمكنوا من تفكيك معسكرات عصابة جدي ورفاقه. وطارت الطلقات النارية التي أطلقها أفراد التنظيم بعيداً عنهم. في حين تَمَكَّن رجال فرقة جياو قاو المُنقِضون عليهم ببسالة كبيرة، من رميهم بعدد من القذائف اليدوية، نجحت في تخويف أفراد التنظيم الذين فَرُّوا من أمامهم وهم يجرون أسلحتهم دون مواجهتهم بها، في حين لاحقَتهم تلك الشظايا المنبعثة عن القذائف والتي تَمَكَّنَت من إصابة عدد كبير منهم. وقد جعلت هذه القذائف الفتاكة جماعة الزمارين والطبالين والأسد والطواله، يشعرون بخيبة الأمل. تطايرت تلك الآلات التي كان يستخدمها الطبالون والزمارون متأثرة بصوت انفجار القذائف، في حين تَعَثَّر هؤلاء الرجال الذين كانوا يسيرون على الطواله، ومالوا على جانبي الطريق، وَعَرَّست أقدامهم في الوحل، وبدوا مثل الأشجار الجافة التي انزعت وسط حقول الذرة. وصدَّرت عنهم أصوات في غاية الحزن والقسوة، وبدأ على وجوههم الخوف والرعب الشديد.

وما إن رأى وو لوان تزه أفراد التنظيم الفارِّين من أمام رجال فرقة جياو قاو، بدأ عليه القلق الشديد، فراح يرمي رجاله غاضباً بالسيف الذي يمسك به، كما بدأ حصانه مثل الكلب تماماً وقد كان لا يتوقف عن عضُّ الرجال القريبين منه، وقد سمع وو لوان تزه من أمامه ومن خلفه أصوات الأجساد التي يصيبها السيف وضحكات الأهالي الذين ارتجفت قلوبهم من هول الموت المُحْدِق بهم.

قاد وو لوان تزه فرقته نحو الطريق العام، حيث صادفوا مجموعة من القذائف التي رمتها فرقة جياو قاو. وبعد سنوات عديدة من تلك الحادثة، كان جَدِّي وأبي قد تَدَكَّرَا تلك

المهارة الفائقة التي أظهرها رجال فرقة جياو قاو في استخدام القذائف اليدوية، لقد بدوا آنذاك مثل ملك الشطرنج الذي مُني بهزيمة نكراء على يد لاعب شطرنج لا يملك أدنى خبرة في هذه اللعبة، والذي يكون فمه مضطراً لتقبُّل الهزيمة، في حين يشعر من داخله بأنه لقي هذه الهزيمة بسبب ضعفه وجُبْنه. وفي ذلك اليوم الذي كان جَدِّي وأبي يَنْسَجِبَان صوب نهر موا شوى، كان أبي قد أصيب بطلقة نارية من بنادق جياو قاو الماوزر في ردفه. ولم يكن جَدِّي قد رأى مثل ذلك الجرح الذي أصيب به أبي من قَبْل، سألت منه كمية كبيرة جداً من الدماء وكأنه قد تعرَّض لعضة قوية من كلب مسعور. وكلما نقصت الذخيرة من أيدي رجال فرقة جياو قاو، كانوا يسارعون بجمع الرصاصات الفارغة وإرسالها لمصنعهم الحربي لإعادة تصنيعها مرة أخرى، ولم يكن جَدِّي يعلم كيفية صناعتهم لرهوس الطلقات النارية، التي ما إن تخرج من بنادقهم حتى تذوب مثل سائل الأنف وتلاحق من يقف أمامها. وهكذا كان أبي قد أصيب بطلقة من هذه الطلقات الغريبة. وقد استطاعت هذه المجموعة من القذائف اليدوية أن تنهي تماماً على فرقة وو لوان تزه برجالها وخيولها. كان حسان وو لوان تزه الملون قد انهار تماماً مثل الجدار المائل بعد أن راح يقفز عدة قفزات، ليصاب إصابة خطيرة في بطنه سالت منها كمية كبيرة من الدماء. وبعد أن تمكن وو لوان تزه من الفرار والاختفاء داخل أخدود على جانب الطريق، وتسلق حافة الأخدود، رأى أحد رجال الجيش الثامن ينقض عليه بخنجر لاعم. فرفع على الفور الرشاش الذي كان معلقاً في رقبته وأطلق دفعة من الطلقات النارية، فتساقط أمامه ما يزيد على عشرة أفراد من رجالها، وتمكن ما يزيد على عشرة أفراد من أفراد عصابة جَدِّي الذين لم يصابوا خلال تلك المعركة، تمكنوا من الهجوم على فرقة الجيش الثامن، وراحوا يقتلون رجالها، في حين احتفى رجال الجيش الثامن بخناجر أسلحتهم وراحوا يضربون بها بطون خيول أفراد عصابة جدي. وهكذا اشتبك هؤلاء الأفراد من عصابة جَدِّي ورجال فرقة جياو قاو في معركة حامية، تساقطوا جميعاً وامتزجت دماؤهم بتربة قرية دونغ بيي بمدينة قاو مي. ونجا من تلك المعركة زوج من الخيول، فرًا هارِبَيْن صوب نهر موا شوى، وراحت ركاب سرجيهما تضرب بطنيهما، بينما كان ذيلهما يرفرفان عالياً وسط الغبار الأسود الذي ملأ المكان، حتى بدأ يركضان بلا تكلف.

تمكن ثلاثة من أفراد فرقة جياو قاو من غرز خناجر أسلحتهم بكل غضب في بطن وصدر قائد فرقة خيول التنظيم، ذلك الرجل الشرير. فأمسك وو لوان تزه ماسورة رشاشه بكلتا يديه ومال إلى الأمام، ثم راح ينظر هنا وهناك حتى توقفت عيناه عن الإبصار تماماً. وغطى حاجباه الطويلان عينيه الرماديتين، وسال الدم من فمه. ومد أفراد فرقة جياو

قاو أيديهم وسحبوا خناجرهم بكل قوة من صدره. فوقف وو لوان تزه برهة ثم سقط صريعاً داخل الأخدود. وسطعت الشمس على عينيه، لتعكس شعاعاً من الضوء الباهت. وهنا انقض هؤلاء الرجال الثلاثة من فرقة جياو قاو عليه واستولوا على الرشاش الروسي الصنع، الذي كان مربوطاً برقبته والمسدس الماوزر الألماني، الذي كان مربوطاً حول خصره. ثم تسَلَّقت صدره سحلية ذات أرجل كثيرة، ووقفت على صدره وقد امتلاً جسمها بالدماء، بينما لمع من عينيهما ذلك الشعاع المخيف الذي ينطلق من أعين الحشرات المُتسلِّقة. وقام شاب من أفراد التنظيم كان قد كُسِرَت قدمه من أثر الانفجار، بوضع بندقيته وسيفه أمامه ورفع يديه الشاحبتين عالياً معلناً الاستسلام لفرقة جياو قاو، وقد بدأ يتمم بكلمات من بين شفتيه الرقيقتين، ونزلت من عينيه دموع الخوف من الموت، وراح يتوسل إليهم قائلاً: «أيها العم ... لا تقتلني ... أيها العم ... لا تقتلني». وهنا تراجع ذلك الرجل صاحب المَقْلَة الصفراء من فرقة جياو قاو بعد تَرُدُّد، تراجع عن رمي ذلك الشاب بقذيفة كان ينوي أن ينهي حياته بها، ثم أحنى ظهره وأخذ البندقية والسيف، ولم ينتظر حتى يرفع ظهره، وانقض على ذلك الشاب من عصابة جَدِّي بماسورة البندقية لتدخل في بطنه وتخرج من ظهره، وقد انتبه ذلك الرجل ذو المقلة الصفراء آنذاك إلى ارتعاش جسد الشاب الذي كان يبدو جميلاً جمال ثمرة الخيار الطازجة، وقد أمسك الشاب بماسورة البندقية المغروزة في بطنه وراح يصيح منادياً: «يا أمي.» ثم تساقطت رأسه الجميلة على ذراعيه. وهنا استدار أبو المقلة الصفراء غاضباً وراح ينظر إلى رفيقه الذي أصيب برصاصة في منطقة الخصر — وكان رفيقه في منتصف العمر مستنيداً وهو يتألم على ماسورة البندقية التي يمسك بها الشاب من عصابة جَدِّي — وكان أبو المقلة الصفراء قد أصيب برصاصة من مسدس أحد أفراد عصابة جدي الماوزر عندما قام ذلك الرجل في منتصف العمر من فرقة جياو قاو بغرز ماسورة البندقية في بطن أحد أفراد عصابة جدي.

فَتَرَّت عزيمة التنظيم وهَمَّتَه بمجرد انهيار فرقة الخيول التي كان يقودها وو لوان تزه، فَرَّ عدد من أفراد التنظيم الذين احتموا خلال المعركة بأعلام ورايات الجنازة بأسلحتهم إلى الجنوب، لم يَسْتَطِع جدي وأبو شامة إقناع هؤلاء الجبناء بالبقاء والعودة عن قرار الفِرار. وبعد أن حاول جَدِّي معهم، حمل أبي وراح يدافع عن نفسه وعن أبي حتى تمكَّن من الهرب في اتجاه نهر موا شوى.

وتمكَّن رجال فرقة جياو قاو الشجعان الماهرون في فنون الحرب من جَمْع الأسلحة التي تركها أفراد التنظيم، ومضوا في طريقهم يَتَقَدَّمُهم القائد جيانغ (صاحب القدم

الصغيرة) وهم في غاية السرور بما حققوه من نصر عظيم. وقد استطاع جَدِّي أن يعثر على بندقية يابانية الصنع كان قد ألقى بها أحد أفراد التنظيم الفارّين، واحتفى بكومة من فضلات الحيوانات وحشر بداخلها عددًا من الطلقات النارية، وبعد سماع صوت أول طلقة تخرج منها، قام جَدِّي بفك ذراعه المصابة المربوط إلى رقبته، ورفع البندقية على كتفه الذي تورّم من أثر حمل ذراعه المصاب، وكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه، وراحت رأس القائد جيانغ صاحب القدم الصغيرة تتحرك أمام فوهة بندقية جدي. ولمزيد من الدقّة، فقد حدّد جدي هدفه صوب صدر القائد جيانغ. وأطلق رصاصته، وفي الوقت الذي دوّى فيه صوت الطلقة، رأى أبي القائد جيانغ يسقط على الأرض. سقط القائد المغرور جيانغ قائد فرقة جياو قاو، وانتهز جَدِّي تلك الفرصة وسحب أبي ومضيا مُسرّعين ليلحقًا بأعضاء فرقته الذين انسحبوا من ساحة المعركة.

أصاب تلك الطلقة التي خرجت من بندقية جدي، عَظْم الكاحل عند القائد جيانغ، وجاء الطبيب في عجلة لعلاج ولف المنطقة المصابة. وجاء مساعد القائد للاطمئنان عليه، في حين بدأ وجه القائد جيانغ صاحب القدم الصغيرة شاحبًا وقد تصبب وجهه عرقًا، ولكنه كان لا يزال يرفض بحزم بقاءه إلى جواره، حيث قال: «أسرعوا، أسرعوا والحقوا بهم ولا تشغلوا أنفُسكم بي! أسرعوا واستولوا على أسلحتهم ولا تتركوا قطعة سلاح واحدة، أسرعوا أيها الرفاق!»

وهنا انتفض أفراد فرقة جياو قاو الجالسون على الأرض بتشجيع القائد جيانغ، وهبوا في اتجاه الطلقات النارية بقوة وهمة عالية. في حين توقف أفراد عصابة جَدِّي الذين قتلهم التعب، وألقوا بأسلحتهم وانتظروا أن يُعلنوا استسلامهم لرجال فرقة جياو قاو.

فصاح فيهم جَدِّي غاضبًا: «أطلقوا النيران، أطلقوا النيران!» فرد عليه رجل سانج من أفراد التنظيم: «أيها القائد، لا داعي لأن تُثير غضبهم، إن كل ما يطمحون إليه هو السلاح، فلنُعطيه لهم، ولنعد إلى قريتنا لزراعة الذرة.»

وأطلق أبو شامة طلقة طارت في الهواء تمامًا ولم تصب شعرة من أي إنسان، ولكنها أثارت غضب فرقة جياو قاو الذين وجهوا نحو التنظيم ثلاثة رشاشات ألمانية الصنع طراز MP18،^٧ مما أدّى إلى مَصْرَع رجل وإصابة ثلاثة آخرين من أفراد التنظيم. وكانت

^٧ رشاش MP18، أحد أشهر المدافع الرشاشة الألمانية في الحربين العالميتين الأولى والثانية. دخل الخدمة خلال الفترة من ١٩١٨م حتى ١٩٤٥م. (المترجم)

تلك الرشاشات الثلاثة قد حصل عليها جَدِّي من فرقة لينغ ماتزه فدية عن بعض رجاله، والآن أصبحت أداة يستخدمها الآخرون لمهاجمته هو. ولم يكن هناك أحد على وجه الكرة الأرضية يعرف من أين أتى لينغ ماتزه بتلك الرشاشات الفتاكة.

هَمَّ أبو شامة أن يستمر في إطلاق النيران، فاعترضه أحد أفراد التنظيم. قال له: «يكفي هذا القدر أيها القائد، وكفى إثارة غضب هؤلاء الكلاب المسعورين.»

واقترب رجال فرقة جياو قاو أكثر فأكثر، وما إن رأى جَدِّي هؤلاء الرجال الشريرين اللطيفين حتى اضطر إلى إنزال بندقيته.

زلزلت أصوات الرشاشات الألمانية آنذاك المنطقة الواقعة عند ضفتي نهر موا شوى، كانت هناك معركة أكثر شراسة تنتظر أفراد عصابة جدي فرقة جياو قاو.

٥

عقب انتهاء خريف عام ١٩٣٩م الغائم الماطر، حلَّ فصل الشتاء وكان شتاءً قارصاً جداً؛ حيث تجمّدت جثث الكلاب التي تمكّن أبي بمشاركة رفقائه من فرقة جَدِّي من قتلها باستخدام المسدسات والقذائف اليدوية، تجمّدت تلك الجثث مع سيقان الذرة التي تساقطت داخل وديان المياه. كما تجمّدت أيضاً جثث الكلاب التي قتلت بالقذائف اليابانية خلال الصراع على الزعامة، تجمدت مع الأعشاب المائية داخل المجرى المائي لنهر موا شوى. وراحت جماعات الغربان التي ألهاها الجوع الشديد تنهش في جثث الكلاب المتجمدة التي بدت مثل الكتل السوداء الصلبة، والتي كانت تتحرك فيما بين مجرى نهر موا شوى ووديان المياه. وقد تجمّدت مياه نهر موا شوى، وظهرت فضلات الغربان الخضراء بالقرب من جثث الكلاب أعلى سطح المياه المتجمدة. كما تجمعت كتل من الجليد أعلى الوديان، وبما أنّ مياه تلك الأودية كانت ضحلة بالمقارنة مع النهر، فإن تلك الكتل الجليدية بدت متصلة بسطح الأرض، كانت تتكسر من كثرة السير أعلاها. وخلال فصل الشتاء الطويل، استغرق جَدِّي وأبي وأمي والسيدة ليو في بيات شتوي طويل في تلك القرية التي انهارت تماماً. كان أبي وأمي قد علّما بطبيعة العلاقة التي تربط بين جَدِّي والسيدة ليو، ولم يُبدياً أي اعتراض على ذلك؛ حيث كانت السيدة ليو قد أبدت اهتماماً ورعاية كبيرة لجدي وأبي وأمي خلال تلك الفترة العصيبة من حياتهم، ولم ينسَ أفراد عائلتي لها ذلك خلال عشرات السنين، حيث لا نزال حتى يومنا هذا نكتب اسم السيدة ليو في «شجرة العائلة.»

ومكانها يأتي مباشرةً بعد ليان إر، وتأتي ليان إر مباشرةً بعد جدتي، وتأتي جدتي مباشرةً بعد جدي.

كان جدِّي قد وقع فريسة للإحباط الشديد عقب الإصابة الخطيرة التي أصابت إحدى خصيتي أبي بواسطة كلب العائلة الأحمر. وكانت السيدة ليو قد واست جدتي قائلةً «كل نبي عاهة جبار.» كما كانت تشينغ إر (أمي) قد تجرأت بتكليف من السيدة ليو على الاقتراب من قضيب أبي، كان شكله آنذاك يبدو غريباً جداً بسبب إصابة الكلب، ومن ثمَّ فقد استطاعت السيدة ليو أن تثبت لجدي أن نسل عائلة يو لن ينقطع، وكان جدِّي قد فرح آنذاك فرحاً كبيراً، وفرَّ إلى خارج الخيمة ورفع يديه إلى السماء وراح يدعو ويشكر السماء على اطمئنانه على نسل العائلة، وكانت هذه الحكايات جميعها قد حدثت خلال فصل الخريف المنصرم، كانت السماء آنذاك قد امتلأت بأسراب الطيور التي تُحلّق صوب الجنوب، وبدأت كتل الجليد تظهر في وديان المياه، وهبت الرياح الشمالية الغربية أكثر من مرة، حتى حل الشتاء الأكثر برودة في تاريخ الصين حتى ذلك الحين.

وكانت الخيمة التي يرقد بها جدِّي ورفاقه ممتلئة بأوراق الذرة الجافة، بينما كانت الخيمة التي يستخدمونها للطعام ممتلئة بكميات كبيرة من مخزون الذرة. ولأجل تقوية عظامهما وبنيتهما والحفاظ على الصحة الجيدة، كان جدِّي وأبي دائماً يخرجان لصيد الكلاب،^٨ وكانا يرتديان الثياب المصنوعة من جلود الكلاب التي كانت تحيكها لهما السيدة ليو، ويرتديان قبعات من جلود الكلاب كانت تصنعها لهما أمي والسيدة ليو معاً، ويخرجان إلى أعلى تلك الهضبة الواقعة خلف الوادي للصيد. أما الكلاب التي كانت تتقدم إلى الوادي لأكل الجثث، فكانت كلاباً برية غير منظمة. فمنذ حادثة قتل كلب عائلتي الأحمر، أصبحت الكلاب في قرية دونغ ببي تسير متفرقة دون قائد يتزعمها وينظم تحركاتها، ولم تظهر منذ ذلك الحين أية تنظيمات للكلاب، تحوّلت صورة العالم الإنساني الذي كانت الكلاب قد سيطرت عليه تماماً خلال فصل الخريف المنصرم، وأصبح الوضع الآن هو انتصار البشر على الكلاب، كما تحوّلت الطرُق التي كانت خاصةً بجماعات الكلاب

^٨ من المعروف أن الشعب الصيني يأكل جميع ما يمشي على الأرض فيما عدا البشر، وتنتشر في الصين حتى الآن مطاعم تقدم لحوم الكلاب والحمير وغيرها من الحيوانات الأخرى التي تختلف تماماً مع الثقافة العربية والإسلامية. (المترجم)

إلى طُرق ترابية مثل غيرها من الطُّرُق المنتشرة في القرية، ولن يستطيع المرء التَّعرُّف على ذلك الطريق القديم إلاَّ في خياله وذكرياته.

كان جَدِّي وأبي يقومان كل يومين بصيد كلب واحد. وهكذا ساعدتهما تلك الكلاب السمينة على أن يَتَمَتَّعا بصحة وبنية قوية خلال عام واحد من صيد الكلاب، كأننا يقومان بتعليق جلود الكلاب التي يأكلونها على جدران القرية، وينظران إليها من بعيد وكأنها جداريات جميلة. وفي ربيع عام ١٩٤٠م، كان أبي قد تَحَوَّل إلى شاب قوي البنية مفتول العضلات ذي صحة جيدة بفضل لحوم الكلاب السمينة التي تَغَذَّى عليها، والتي كان لها أثر واضح على قلبه الميت فيما بعد، فقد كان يُقْبَل على القتل دون أن يرتجف له جفن. وبالطبع فقد حاول جَدِّي وأبي أن يُعَيِّرَا تلك الوجبة السمينة التي اعتادا عليها خلال عام كامل. فاصطحب جَدِّي ابنه إلى الوادي لصيد الإوز الصيني.

كانا قد تحرَّكا عند غروب الشمس، واختفيا داخل حقول الذرة المظلمة، حتى شاهدا قرص الشمس الكبير الذي بدأ لهما مثل فطيرة كبيرة من كتل الدم، شاهدا الشمس وهي تختفي عن الأنظار، ونظرا إلى الوادي، فإذا بطبقة من الدماء تعلق صفحته المتجمدة، حيث علت جثث البشر وجثث الكلاب التي كانت تملأ مياه الوادي. أما جماعات الغربان التي ملأت بطونها من تلك الجثث، فقد راحت تهز أجنحتها معلنةً عودتها إلى أعشاشها فوق الأشجار العالية في القرية. ولع بريق النيران المشتعلة في الوادي. وارتدى جَدِّي وأبي الثياب المصنوعة من جلود الكلاب، حيث جعلوا الجزء الداخلي من الجلد من الداخل، والجزء الذي يظهر به شعر الكلاب من الخارج، حتى أصبحا أشبه بالكلاب أكثر من شبههم بالبشر. وكان أبي يتمتع برغبة كبيرة في الأكل، وانقض على الفطائر المصنوعة من الذرة، والتي كانت محشوة بلحم الكلاب. أمره جَدِّي أن يأكل برفق دون أن يحدث هذا الصخب حتى لا يزعج الإوز الذي يُحَلَّق على مسافات منخفضة، فقد أخبره جَدِّي بأن الإوز يتمتع بحاسة سمع قوية جداً، حيث يمكنه أن يستمع الأصوات لمسافة خمسة كيلومترات إذا كان الصوت في اتجاه الرياح، ولمسافة اثنين كيلو ونصف إذا كان الصوت عكس اتجاه الرياح. غير أن أبي لم يصدِّقه واستمرَّ في التَّهام فطائر الذرة المحشوة بلحم الكلاب، ولكن دون أدنى صوت هذه المرة. وبعد غروب شمس ذلك اليوم، امتلأت السماء بغيوم خفيفة، وخيم الظلام على المياه المتجمدة، وظهر ما يزيد على أربعين إوزة من الإوز الصيني، كانت تارة تُحَلَّق على مسافات منخفضة وتارة تبطبط. وقد بدأ صوت بطبطة الإوز حزينا جداً، وهنا راح أبي يفكر في أمه. وخرجت منه ريح كريهة جداً. فسارع جَدِّي بوضع يده

على أنفه وقال متأففاً: «فلتقلل من كميات الطعام الكبيرة التي تلتهمها!» فضحك أبي ثم قال: «يا لها من رائحة كلابية كريهة جداً.» فقرصه جدِّي قرصة ثم قال: «آه منك أيها الكلب الصغير!» وراحت جماعات الإوز تطير على سطح المياه المتجمدة، راحت كل واحدة تمد رقبتها وتداعب قدميها دون أن تحدث أي صوت، وصدر صوت بسيط عن قيام الإوز بهز أجنحتها. جمع جدِّي وأبي أنفاسهما في انتظار سقوط فريسة من الإوز، ثم شاهداً إوزة تسقط على المياه المتجمدة، تبعتها جماعة من الإوز. وقد راحت جماعة الإوز تتحرك فوق سطح المياه المتجمدة، على بعد عشر خطوات فقط من ذلك المكان الذي يختبئ فيه جدِّي وأبي. ثم تجمَّع الإوز في مجموعة واحدة، ولكن بدت إوزة تقف بعيداً عن المجموعة وقد رفعت رأسها ونصبت صدرها مثل جندي الحراسة. وامتلأت الأرض بفضلات الإوز التي بدت في البداية صفراء برتقالية، ثم تحولت إلى رمادية ثم إلى فضلات سوداء. ولعت سبع نجوم أو ثماني وهي تتلأأ في السماء، إلا أنه لم تظهر أية شرارات لضوء النجوم على سطح الجليد الذي يتجمع عنده الإوز، وهكذا فقد بدت جماعة الإوز كالظل المظلم. وهنا أخرج جدِّي ساق الذرة المشتعل الذي كان يخبئه في ماسورة حديدية، فأصدرت تلك الإوزة التي كانت تقوم بدور جندي الحراسة إشارة الإنذار، فأفاقت جماعة الإوز التي كانت تغفو فوق سطح الجليد، وما إن أفاق الإوز، حتى طار في السماء، ولم يكن بالصورة المعروفة عنه في الحكايات، حيث تذكر الحكايات المعروفة عن هذا النوع من الإوز، أنه عندما يخرج الصيادون المختفون ويرفعون المشاعل، فإن الإوزة المكلفة بالحراسة تصدر إشارة الإنذار، فيفريق باقي الإوز ويراقبون المكان جيداً، وعندما يتأكدون من هدوء المكان وأمانه يواصلون النوم، أما لو قامت الإوزة المكلفة بالحراسة بإصدار صوت الإنذار ثلاث مرات، فتعرف جماعة الإوز على الفور أنها تبلغهم بتحركات العدو، ثم تنقض جماعة الإوز على تلك الإوزة لنقرها، وخلال تلك الفوضى ينقض الصيادون على الإوز وقد يتمكّنون من الإمساك بالكثير منه حياً. وقد تبدو هذه الحكاية منطقية بعض الشيء، إلا أنه يصعب تطبيقها. وربما قد يتصادف حدوثها مرة أو مرتين كل عشرة آلاف مرة. ولكن على الرغم من جمال هذه الحكاية وروعته، فإنها ليست بروعة حيلة «صيد الإوز بالصنارة» التي اخترعها أبي آنذاك، كان أبي قد اقترح على أمي وهما داخل الخيمة هذه الحيلة قائلاً: «يا تشينغ إر، هيا بنا نخرج لصيد الإوز، ولنستخدم في ذلك صنارة صيد الأسماك، ولنعلق قطعة من لحم الكلاب غير المطهي على الصنارة، ونربط الصنارة بسلك طويل جداً، حتى إذا ما أكل الإوز من قطعة اللحم، يتوالى وقوع عدد كبير من الإوز

في أيدينا، فما رأيك في هذه الحيلة الجديدة؟» فقالت أمي: «لقد جُنِنَت من كثرة أكل لحم الكلاب!»، وعندما حلقت جماعات الإوز، انقض عليها أبي مسرعًا، وكأنه كان يعتقد أنه سيمسك بالإوز من الوهلة الأولى لمهاجمة جماعة الإوز، إلا أنه في نهاية الأمر لم يتمكن من ذلك. وقد أحس بهواء بارد يضرب وجهه بفرار جماعة الإوز بعيدة عنه. وفي اليوم التالي، أمسك أبي بندقيته وراح يهاجم الإوز حتى استطاع إصابة ثلاثة إوزات، ثم أخذها وعاد بها إلى الخيمة وسلخها جيدًا وأخرج أمعائها ونظفها ثم ألقى بها داخل القدر حتى نضجت تمامًا، وجلس أبي وأمي وجدي والسيدة ليو حول مائدة واحدة ليأكلوا من لحم الإوز، وما إن قصت أمي على مسامعهم حيلة «صيد الإوز بالصنارة» التي اخترعها أبي حتى علت أصوات ضحكهم داخل الخيمة. وهبت في تلك الليلة رياح قادمة من البرية، كانت الرياح قوية حتى سمعوا صوت اصطدام أعواد الذرة ببعضها بعضًا، وسمعوا أيضًا أصوات الإوز في السماء، ثم صوت نباح الكلاب على مسافة بعيدة من الخيمة. وقد أحسوا بأن لحم الإوز به طعم الأعشاب الخضراء، وأن هذا النوع من اللحوم يبدو خشنًا ورائحته عادية جدًا.

انتهى فصل الشتاء ذو البرد القارص، وحل فصل الربيع. وهبت في الليلة الأولى الرياح الجنوبية الشرقية المنعشة، وفي اليوم التالي سمعوا أصوات تفكك الجليد، الذي كان يغطي سطح مياه نهر موا شوى. وظهرت بعض البراعم الصغيرة أعلى أشجار الصفصاف، وتزيّنت أشجار الخوخ بالبراعم الوردية الجميلة، وراحت جماعات السنونو تُحلّق في الوادي وفي مجرى النهر، بينما راحت الأرناب البرية تلاحقها، واخضرت الأرض وأزهرت الأشجار. وبعد تساقط بعض الأمطار الربيعية، خلع جدي وأبي الملابس المصنوعة من جلود الكلاب، التي كانوا يرتدونها خلال فصل الشتاء القارص. ولم تتوقف الأصوات التي كانت تهز جميع أرجاء قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي.

لم يحتمل جدّي وأبي، اللذان أصبحا يتمتعان ببنية قوية بفضل التغذية على لحوم الكلاب، البقاء داخل الخيمة، فخرجًا للنزهة على حافة نهر موا شوى، وراحا يتمشيان على الجسر الحجري أعلى النهر، ثم وقفًا هنالك أمام قبر جدتي وقبور هؤلاء الرفاق من فرقة جدي.

فقال أبي مخاطبًا جدي، فلنستسلم للجيش الثامن يا أبي.

فهزّ جدّي رأسه بعدم الموافقة.

– هل تعني أننا سنسلم أنفسنا لفرقة لينغ ماتزه؟

فهز جَدِّي رأسه بعدم الموافقة أيضًا.

وفي صباح ذلك اليوم، بدأ ضوء الشمس ساحرًا جذابًا بصورة لم يسبق لها مثيل. وخلت السماء تمامًا من الغيوم، وقد وقف جَدِّي وأبي أمام قبر جدتي صامتين. وراحا ينظران إلى سبعة خيول تسير مُتفرِّقة قادمة من بعيد على حافة النهر الشمالية شرق الجسر الحجري، كان يمتطي تلك الخيول سبعة أشخاص ذوو وجوه غريبة، تظهر صلعة في مقدمة رءوسهم، أما الرجل الذي كان في المقدمة، فكان رجلًا ضخماً أسمر اللون، ظهرت شامة سوداء إلى جانب عينه اليمنى. وكان ذلك الرجل هو أبو شامة قائد التنظيم من قرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي، وكان قد لمع اسمه عندما كان جَدِّي يعمل قاطع طريق، حيث كان هناك عدم توافق كبير آنذاك بين قُطَاع الطُّرُق وبين رجال هذا التنظيم، وكان جَدِّي يحتقر أبا شامة احتقارًا شديدًا. وفي مطلع شتاء عام ١٩٢٩م، وقعت معركة بين جَدِّي وأبي شامة على شاطئ المياه المالحة، كانت معركة حامية حتى لم يَتَمَكَّنوا من تحديد المنتصر والخاسر.

تقدَّمت الخيول السبعة إلى أمام قبر جدتي، وهنا سحب أبو شامة لجام حصانه، فوقف الحصان على الفور، وراح يهز شعره، وأحنى رأسه ومضى يلتهم بعض الحشائش الجافة على حافة الطريق.

وهنا مد جَدِّي يده ليضغط على غطاء مسدسه الياباني الصنع.

واستقر أبو شامة على ظهر حصانه جيدًا، ثم قال: «أأنت أيها القائد يو؟!»

فرماه جَدِّي بنظرة تحدُّ واضحة. فضحك أبو شامة بصورة بلهاء، ثم قفز من أعلى ظهر الحصان، ووقف على حافة النهر وراح ينظر إلى قبر جدتي وهو يقول: «هل ماتت؟» فأجابه جَدِّي قائلاً: «نعم لقد ماتت!»

فقال أبو شامة غاضبًا: «اللعنة كل اللعنة عليك، لقد ضاعت هذه المرأة الجميلة

بمجرد أن وقعت في يدك!»

وهنا تطاير الشرر من عيني جدي.

فقال أبو شامة: «لو كانت اختارتني أنا لم تكن لتتعرض لهذه النهاية!»

فأخرج جَدِّي مسدسه الماوزر وراح يُصوِّبه نحو أبي شامة.

فقال أبو شامة بثبات واضح: «إذا كنت رجلاً حقًا فإذهب لتتأثر لها، أما إذا قتلتني

أنا فهذا خير دليل على عدم استطاعتك لأن تتأثر لها!»

كلُّ منا لديه إجابة خاصة به حول ما الحب؟ ولقد قضى هذا الشيء الغريب على

حياة الكثير من الأبطال والشجعان والجميلات والموهوبات. وهكذا استطعت وفق تاريخ

حب جَدِّي وجماح حب أبي وصحراء حبي الشاحب الهزيل، استطعتُ أن أصل إلى هذه القاعدة الثابتة التي تناسب فقط حب هذه الأجيال الثلاثة من عائلتي: فالعنصر الأول الذي يُشكّل الحُب الجنوني هو المعاناة الشديدة. وقد يذرف القلب المُعذَّب هنا كميات كبيرة جدًّا من الدماء بسبب معاناته من الحب. أما العنصر الثاني الذي يُشكّل الحُب القاسي فهو النَّقْد الذي لا رحمة ولا هواده فيه، حيث يودُّ كل من طرفي هذا الحب لو يسلخ الطرف الثاني حيًّا لمتزج دماء الجسد ودماء الروح ودماء القلب والدماء المعنوية والدماء المادية، ويُخْرِج طرف جميع أحشاء الطرف الثاني بما في ذلك القلب الأسود أو الأحمر، ثم يلقي بعد ذلك كل طرف بقلبه للطرف الثاني، ويتلاقى الطرفان في الهواء ويتصارعان حتى يَسْقُطًا إربًا إربًا، والعنصر الثالث الذي يُشكّل الحُبَّ البارد هو الصمت الدائم، فالمشاعر الباردة تُؤدِّي إلى تحوُّل طرفي الحب إلى مجرد أصابع جيلاتي مجمدة، تتجمد بدايةً خلال الرياح الباردة ثم تتجمد وسط الثلج، ثم تتجمد داخل الأنهار، ثم توضع أخيرًا لتتجمد داخل المبردات الحديثة، ثم يتم تعليقها لتتجمد داخل الثلجات المستخدمة في حفظ اللحوم. وهكذا فإن طرفي الحُب الحقيقيين يكون وجههما مثل الصقيع، وتكون درجة حرارتهما ٢٥ درجة مئوية، ويكونان قادرين فقط على التصفيق، غير قادرين على الكلام، ليس لأنهما لا يرغبان في الكلام، ولكن لأنهما لم يعد باستطاعتهم الكلام، في حين يعتقد الآخرون أنهما يتظاهران بالخرس.

ومن ثم فإن الحب الجنوني والقاسي والبارد يعادل نزيف الدماء والسلخ حيًّا والتظاهر بالخرس. وهكذا تدور الدائرة دون انقطاع.

وهكذا تتحول دماء الحب الطازجة إلى فضلات، ويظهر الحب في صورة شخصين من لحم ودم يرقدان إلى جوار بعضهما، في حين تكون نهاية هذا الحب زوجًا من أصابع الجيلاتني، يفتحان أعينهما الرمادية المستديرة.

في صيف عام ١٩٢٣م، كان جَدِّي قد خطف جدتي من على ظهر الحمار، وأخذها إلى داخل الذرة وافترشًا ثيابه المصنوعة من القش، وهذه كانت بداية مرحلة «النزيف» في علاقة حبهما. وفي صيف عام ١٩٢٦م، وعندما كان أبي في الثانية من عمره، كانت خادمة جدتي الفتاة ليان إر قد أغرّت جدي بجمالها وحشّرت نفسها بينه وبين جدتي كزوجة ثانية له، وهذه كانت بداية مرحلة «السُّلخ حيًّا» لعلاقتهم العاطفية، وهكذا سقط حُبُّهما من علياء جنونه إلى جحيم قسوته ووحشيته.

كانت الفتاة ليان إر تصغر جدتي بعام واحد، كانت قد بلغت التاسعة عشرة من عمرها في ربيع عام ١٩٢٦م. وتتمتع وهي في الثامنة عشرة من عمرها ببنية قوية وبساقين طويلتين وقدمين صغيرتين، وعينين مستديرتين سوداوين وأنف صغيرة ودقيقة، وبشفتين سميكتين مثيرتين. وقد صادف ذلك الحين مرحلة الازدهار الكبير، التي يشهدها فرن صناعة النبيذ المملوكة لعائلتي، كانت تمتلئ القرى والمدن المحيطة بالنبيذ الأبيض ذي الجودة العالية المصنوع من الذرة الذي ينتجه فرن عائلتي، وتفوح رائحة النبيذ الذكية داخل فناء العائلة والغرف الداخلية طوال العام، وهكذا كان جميع أهل العائلة من الرجال والنساء يتمتعون بقُدرة كبيرة على الشراب تأثرًا بحياتهم داخل ذلك الفرن الكبير المتخصص في صناعة النبيذ. ولا داعي هنا لأن نتحدث عن القدرة الكبيرة التي كان يتمتع بها جدِّي وجدتي على شرب النبيذ المصنوع من الذرة، حتى السيدة ليو تلك السيدة التي لم تنشأ في تلك العائلة كانت أيضًا قادرة على شرب قدر كبير من النبيذ. وكانت الفتاة الشابة ليان إر قد رافقت في بداية الأمر جدتي في الشرب، حتى وصلت فيما بعد إلى مرحلة صعبة وأصبح لا يمكنها العيش دون النبيذ. كانوا يشعرون بأن الخمر يجعل الإنسان منتشيًا وشجاعًا لا يهاب الموت، وتجعله أيضًا يتمادى في الشراب حتى السكر وما يتبع ذلك من فساد في حياته وتدهور في صحته. وكان جدِّي قد بدأ في ذلك الحين حياته كأحد أفراد قُطَاع الطُّرُق، ولم يكن دافعه إلى ذلك الحصول على المال، ولكن كان بهدف أن يحافظ على حياته ليس إلا، إن الثأر هذا القانون القاسي قد جعل ذلك الرجل الطبيب الضعيف من عامة الشعب يتحوَّل إلى قاطع طريق ذي قلب أسود قاسٍ جريء على ارتكاب أعظم الجرائم. كان جدِّي قد استطاع أن يقتل خوا بوا تزه ورجاله بعد تدريبه على فنون استخدام السلاح. وفي تلك الأثناء، كان والد جدِّي ذلك الرجل الطماع قد غادر فرن النبيذ، وسار وسط الزراعات الخضراء يحتمي بها من أهوال الطريق، وبدأ حياة السُّب والنهب. وكانت عصابات قُطَاع الطُّرُق لا تنتهي أبدًا في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، فقد صنعتهم الحكومة الرسمية بيديها، وصنَّعهم الفقر، وصنَّعَتْهم الجرائم المنتشرة في القرية، وصنعوا أنفسهم بأنفسهم. وقد انتشر خبر قيام جدِّي بقتل خوا بوا تزه زعيم عصابة قُطَاع الطُّرُق في قرية دونغ ببي وأتباعه عند نهر موا شوى، انتشر الخبر في أرجاء القرية التي راحت تتحدث عن شجاعة جدِّي وبطولته، وتوافد عليه صغار قُطَاع الطُّرُق، حتى كانت الفترة من عام ١٩٢٥م حتى عام ١٩٢٨م هي العصر الذهبي

في تاريخ عصابات قُطَاع الطُّرُق بقرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، وذاع صيت جدي، وأصبح مصدر رعب كبير للجهات الرسمية.

وخلال تلك الفترة، كان السيد تساو مينغ جيو لا يزال يشغل رئيس مدينة قاو مي. وكان جَدِّي لا يزال يذكر قيام السيد تساو رئيس المدينة بضربه بالحذاء على وجهه، وقد أضمر له حقداً دفيناً وأصرَّ على أن يثأر منه، كانت جرأة جَدِّي على المواجهة المباشرة مع السُّلطات الرسمية أحد الأسباب المهمة، التي جعلته يشتهر ويذيع صيته بوصفه بطلاً شجاعاً. وفي مطلع عام ١٩٢٦م، كان جَدِّي قد اصطحب معه اثنين من رجاله وذهباً إلى المدينة وقاماً بخطف الابن الوحيد لرئيس المدينة تساو مينغ جيو البالغ من العمر أربعة عشر عاماً. وكان جَدِّي قد اقتاد ذلك الطفل الوسيم حاملاً مسدسه في يده وسار به في شوارع المدينة، حتى وصل إلى مبنى حكومة المدينة، وجاء إليه يان لوا قو زعيم القبض على اللصوص ومعه أعداد كبيرة من جنود حكومة المدينة، كانوا يصيحون من بعيد غير قادرين على الاقتراب منه خطوة واحدة. وقد راحوا يطلقون النيران بشكل عشوائي، وكانت جميع الطلقات بعيداً جداً عن جدي. وهنا وقف جَدِّي مكانه وترنَّح قليلاً ثم صَوَّب مسدسه تجاه صدغ الطفل، وراح يصيح بصوت مرتفع: «فلترجع يا يان لوا قو إلى سيدك الكلب تساو مينغ جيو وتخبره أن يأتيني بعشرة آلاف جنيه يفندي بها ابنه الوحيد، وأمامه ثلاثة أيام فقط، وبعدها سيتم فسخ هذا التعاقد!»

فسأله يان لوا قو بثبات وهدوء واضح: «وأين سنتقابل أيها القائد يو؟» فأجابه جَدِّي قائلاً: «سنتقابل وسط الجسر الخشبي أعلى نهر موا شوى بقرية دونغ ببي بمدينة قاو مي.»

فاصطحب يان لوا قو جنوده وعادوا إلى مبنى حكومة المدينة. وما إن خرج جَدِّي خارج حدود المدينة، حتى راح الطفل المخطوف يبكي بكاءً شديداً ويصارع للخلاص من قبضة جدي. واحمرَّ وجه الطفل من شدة البكاء، إلا أنه كان لا يزال طفلاً لطيفاً. فخاطبه جَدِّي قائلاً: «كفك هذا البكاء، فأنا أبوك بالتَّبَنِّي والآن أصطحبُك إلى أمك بالتَّبَنِّي!» وعندها كاد الطفل أن ينهار من شدة البكاء. فغضب جَدِّي غضباً شديداً، واستلَّ سيفه وراح يُلوِّح به في وجه الطفل، ثم قال: «كفَّ عن البكاء، وإلا قطعْتُ أذنك!» فسكت الطفل وراح ينظر إليهم بذهول وقد اصطحبه الرَّجُلان ومضيا في طريقهما إلى قرية دونغ ببي.

وعندما ابتعدوا عن حدود المدينة بحوالي كيلومترين ونصف الكيلومتر، سمع جَدِّي صوت حوافر خيول تتبعهم. فنظر جَدِّي نظرة سريعة إلى ذلك الصوت، فإذا به يرى

مجموعة من الخيول تركض نحوهم بسرعة شديدة. وانتبه إلى أن تلك المجموعة من الخيول يتقدمها يان لوا قو ذلك الرجل الذكي القوي. وما إن أدرك جدِّي صعوبة الموقف، أمر الرجلين من قُطَاع الطُّرُق أن يَخْتَفِيا على جانبي الطريق، ثم ينقض ثلاثتهم ويأخذوا بأسلحتهم ويوجهونها نحو رأس الطفل.

وعندما كان يان لوا قو ورجاله على بُعد خطوات قليلة من جدي ورجليه، ربط يان لوا قو فرسه ودخل إلى حقول الذُّرَّة المجاورة. كانت حقول الذُّرَّة عقب موسم الحصاد خالية تمامًا من أعواد الذُّرَّة إلا من بعض السيقان الجافة، وقد جاءت رياح الشتاء بالكثير من الأتربة حتى بدت تربة الحقول صلبة جدًا. فراح رجال يان لوا قو يتبعونه حتى وصلوا إلى المكان الذي يختبئ فيه جدِّي والرجلان من قُطَاع الطُّرُق، ثم مالوا على جانب الطريق الترابي، واندفعوا نحو قرية دونغ بيي.

بقي جدِّي مضطربًا لبعض الوقت، ثم أفاق بسرعة. وراح يضرب على رجليه بكفه ثم قال: «يا لها من خسارة كبيرة، لقد خسرنا هذه الرهينة!»
ووقف هذان الرجلان من قُطَاع الطُّرُق مذهولَين، ثم سألا جدِّي بحماقة: «أين ذهب هؤلاء؟»

فلم يجبهما جدِّي وراح يطلق النيران في اتجاه جماعة الخيول التي اندفعت نحو القرية، ولكن الخيول كانت قد ابتعدت كثيرًا، ولم يستطع مسدسه أن يصل إلى الخيول وأصاب فقط ذلك الغبار الذي خلفته وراءها.

قاد يان لوا قو ذلك الذكي الماهر فرقة الخيول إلى قرية دونغ بيي وشن هجومه على قريتنا، انقضُّوا على منزلنا، وبدأ أنه يعرف الطريق إلى هناك جيدًا. وفي تلك الأثناء كان جدِّي قد بدأ يتحرَّك نحو القرية. وبما أنَّ الابن الوحيد للسيد تساو مينغ جيو نشأ نشأة طيبة في بيئة مرفهة، فكيف يمكنه أن يتحمل كل هذه المعاناة التي تعرض لها منذ أن وقع رهينة في يد جدي؟ فما إن جرى مع جدِّي ورفاقه مسافة نصف كيلومتر حتى سقط على الأرض منهكًا، فاقترح أحد الرجلين من قُطَاع الطُّرُق على جدِّي اقتراحًا أن: «نقله ونوفر على أنفسنا مشقة مضايقته لنا خلال الطريق.» فقال جدي: «إن يان لوا قو بالتأكيد يستعد الآن للقبض على ابني!»

فهز جدِّي رأس ذلك الطفل، حتى نهض الطفل وسار بخطوات بطيئة. فراح الرجل قاطع الطريق يحث جدِّي قائلاً: «لقد جاء قراره متأخرًا، والآن ليس عليك الاستعجال، فلن يحدث لابنك أي مكروه ما دام أن هذا الحيوان الصغير تحت قبضتنا.»

قام يان لوا قو ورجاله باقتحام منزل عائلتي وألقى القبض على جدتي وأبي وربطهما في أقدام الخيول.

فراحت جدتي تسبهم غاضبة: «مهلاً أيها العميان! إنني ابنة السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة بالتبني!»

فكشّر يان لوا قو عن أنيابه ثم قال: «وإننا جئنا نقصدك أنت أيتها الابنة بالتبني!» والتقت فرقة يان لوا قو بجدي ورجاله في منتصف الطريق. وأشار كل طرف من الطرفين بسلاحه إلى «رهينته»، وكانوا قد مروا على مسافة قريبة من بعضهما بعضاً دون أن يتجرأ أي من الطرفين على التصرف بطيش تجاه الطرف الآخر.

ونظر جدّي إلى جدتي التي كانت مُكبّلة من يديها أعلى ظهر الحصان، ثم نظر إلى أبي الذي كان محاصراً في حضن يان لوا قو.

ومرّت خيول يان لوا قو من جانب جدّي بخفة شديدة، وسمع جدّي صوت رنين الأجراس المعلقة في رقاب الخيول، وانتبه إلى البسمة التي كانت تعلو هؤلاء الجنود الذين كانوا يمتطون الخيول، بينما ظهر على وجه جدتي الغضب الشديد، وراحت تنظر إلى جدّي الذي يقف على جانب الطريق وقد بدأ عليه الحزن الشديد، ثم صاحت بصوت مرتفع: «يا جان آو، فلتطلق سراح هذا الطفل أخي بالتبني حتى تستطيع أن تنقذنا من قبضتهم.»

فقبض جدّي على يد ذلك الطفل الرهينة بشدة، وكان جدّي يعرف جيداً أنه عاجلاً أم آجلاً سيطلق سراح هذا الطفل، ولكن لم يحن وقت إطلاق سراحه بعد.

لم يُغيّر الطرفان مكان تبادل الرهائن أعلى جسر نهر موا شوى الخشبي. وعباً جدّي ما يزيد على ٢٣٠ رجلاً يمثلون تقريباً جميع أفراد عصابات قُطَاع الطُّرُق في قرية دونغ بيي، واستعدّوا جيداً بأسلحتهم الممتلئة بالذخيرة الحية، وتجمّعوا أعلى الجسر الخشبي إما راقدين أو جالسين في انتظار اللحظة الحاسمة. كان جليد النهر لم يدب بعد، ذاب الجزء القريب من حافة النهر بفعل جو الربيع الدافئ، وقد خلّقت المنطقة المذابة شريطين من المياه الخضراء، وبدت قطع الجليد متفرقة في وسطها، وامتلاّت بطبقة من التراب جاءت بها الرياح الشمالية.

وفي صباح ذلك اليوم، وصلت فرقة الخيول التابعة لحكومة المدينة إلى حافة النهر في خطوط متعرجة، وكان يتوسطهم هودج صغير يحمله أربعة رجال، وقد بدأ الهودج يهتز بصورة مُلفتة.

ووقف الرجال القادمون من المدينة في الناحية الجنوبية من الجسر الخشبي وراحوا يتبادلون الحديث مع جدِّي ورجاله في الناحية الشمالية للجسر. وبدأ السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة الوسيم الوقور الجليل في تبادل أطراف الحديث مع جدي. حيث راح السيد رئيس المدينة يخاطب جدِّي وقد علت وجهه ابتسامة ودودة قائلاً: «يا جان أو، إنك تُعتبر زوج ابنتي بالتَّبَنِّي، فكيف تقوم باختطاف أخي زوجتك الصغير؟ فإذا كنت بحاجة للمال، فأخبر أباك بالتَّبَنِّي وسيكون لك ما تطلب!»

فقال جدي: «إنني لستُ بحاجة للمال، ولن أنسى الثلاثمائة ضربة بنعال الأحذية التي ضَرَبْتَنِي بِهَا!»

فضحك السيد تساو مينغ جيو منتشياً ثم قال: «إنه سوء فهم، إنه سوء فهم فحسب! وكما يقول المثل لا محبة إلا بعد عداوة! فيا زوج ابنتي العزيز، أنت بطل كبير تَمَكَّنْتَ من القضاء على خوا بوا تزه، وأنا بالتأكيد أريد مكافأتك على بطولتك وإنجازتك العظيمة.» فرد عليه جدِّي بأسلوب فيه تَعَنُّتٌ وتَعَسُّفٌ واضح: «ومَن الذي طلب منك أن تكافئه حسب بطولاته وإنجازاته؟» وعلى الرغم من أنه رد عليه هذا الرد بلسانه، فإنه كان يخفي بداخله عكس ذلك.

حرك يان لوا قو ستارة الهودج، فخرجت منه جدتي تحتضن أبي ببطء ملحوظ. وسارت حتى رأس الجسر حتى اعترض يان لوا قو طريقها، وصاح بصوت مرتفع: «يا يو جان أو، أُرْسِل ابن السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة إلى رأس الجسر، ولتَنفَقُ معاً على إطلاق الرهائن في التوقيت نفسه.»

فصاح يان لوا قو بصوت مرتفع: «أطلقوا الرهائن!» فانطلق ابن السيد تساو رئيس المدينة فاراً إلى أبيه على الناحية الجنوبية من الجسر، بينما انطلقت جدِّي محتضنة أبي إلى الناحية الشمالية من الجسر.

فرفع قُطَاع الطُّرُق من رجال جدِّي مسدساتهم، بينما رفع جنود المدينة بنادقهم. تقابلت جدتي مع ذلك الطفل الرهينة وسط الجسر الخشبي. وأخنت جدتي ظهرها لتتحدث معه فبكى الطفل وابتعد عنها، ثم فرَّ مسرعاً إلى الناحية الجنوبية من الجسر الخشبي.

وخلال هذه العملية من عمليات اختطاف الرهائن التي هي أشبه ما تكون بالألعاب، تَكَوَّنَتْ فجأة عند السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة حيلة على غرار حيل «الدويلات

الثلاثة المتحاربة»^٩ والتي كان يخطط لها من وقت طويل، وقد نجحت هذه الحيلة العبقرية في إنهاء العصر الذهبي لعصابات قُطَاع الطُّرُق بقرية دونغ ببي بمدينة قاو مي.

وفي شهر مارس من ذلك العام مات والد جدتي. فاصْطَحَبَتِ جدتي أبي وركبًا على ظهر بغل أسود وتوجَّهًا إلى مسقط رأسها لعمل الترتيبات اللازمة لجنازة والدها، قالت إنهما سيعودان بعد ثلاثة أيام فقط، ولكن من يعلم تقلبات الطقس الغريبة المقصودة، ففي اليوم الثاني من وصول جدتي إلى مسقط رأسها بدأت تهطل أمطار غزيرة جدًّا، حتى امتلأت الطرقات بالمياه ولم يُعَدَّ بها موضع قدم لم تصل إليه الأمطار الغزيرة، حتى كادت السماء أن تتصل بالأرض من خلال مياه الأمطار. ولم يحتمل جدِّي ورفاقه البقاء في البرية، فعاد كل منهم إلى بيته، ففي مثل ذلك الطقس الشديد، لم يكن هناك أي مخلوقات قادرة على البقاء خارج مكانها الأصلي، حتى طيور السنونو طارت إلى أعشاشها تحتمي من المطر الغزير، كما سكن جنود المدينة تمامًا ولم يُعَدَّ لهم تحرُّكات واضحة في الشوارع والطرقات، بالإضافة إلى أنه عقب حادثة الاختطاف الغريبة التي وقعت خلال ربيع ذلك العام، كان السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة قد توصلَّ مع جدِّي إلى اتِّفَاقٍ سرِّي، وهكذا شَهِدَتِ مدينة قاو مي صورة من السلام بين العسكر وقُطَاع الطُّرُق، عاد قُطَاع الطُّرُق إلى بيوتهم وقاموا بإخفاء أسلحتهم تحت وساداتهم، وبدءوا منذ ذلك الحين ينعمون بالنوم العميق في بيوتهم.

وارتفع صوت الأمطار أكثر فأكثر، وزاد تدفُّق مياهها أعلى المساكن المبنية من الطُّوب اللَّيِّن. وتجمعت كميات كبيرة من مياه الأمطار تغطي نصف طول الإنسان وسط فناء المنزل. وقد خُصِبَتِ مياه الأمطار تربة الفناء الواسع، حيث ظهرت بعض من الأزهار المائية وسط أطلال سوره، فما إن سقط السور، حتى دخل لون المروج الخضراء إلى

^٩ رواية «الدويلات الثلاثة المتحاربة»: أحد أمهات الكُتُب الصينية الأربعة المعروفة، والتي تضم إلى جانب رواية «الدويلات الثلاثة المتحاربة» رواية «حلم المقصورة الحمراء»، و«أبطال البحيرة»، و«رحلة إلى الغرب». وتُعتَبَر رواية «الدويلات الثلاثة المتحاربة» لمؤلِّفها لُوو قُوَان جُونغ (حوالي ١٣٣٠- حتى حوالي ١٤٠٠م) أول رواية تاريخية في تاريخ الأدب الصيني، وقد صورت الرواية بنجاح الصراعات والخلافات السياسية والعسكرية بين دويلة وي (٢٢٠-٢٦٥م) ودويلة شو (٢٢١-٢٦٣م) ودويلة وو (٢٢٢-٢٨٠م). (المترجم)

وسط الفناء عَبْرَ النوافذ الكبيرة. وقد اضطجع جَدِّي ثم جلس القرفصاء حول المدفأة، وراح يتأمل منظر المساحات الشاسعة من الذُّرَّة الرفيعة الخضراء، وقد اختَفَت السُّحُب المنخفضة الارتفاع تحت أعواد الذُّرَّة السامقة، واستمر صوت أعواد الذُّرَّة، وامتلأت أرجاء الفناء برائحة التربة الممتزجة برائحة الأعشاب الخضراء الذكية. وقد استطاعت تلك الأمطار القوية أن تجعل جَدِّي في حيرة من أمره، وأن يفقد الشعور تمامًا بكل ما حوله، فراح ينسى ذلك كله بشرب كميات كبيرة من النبيذ التي لم يكن يستفيق منها، حتى عجز تمامًا عن أن يفرق بين الليل والنهار والسماء والأرض. استطاع بغل العائلة الأسود أن يقطع الحبل المربوط به ويهرب من حظيرته الصيفية في الجزء الشرقي من فناء المنزل، ثم وقف متمسراً أمام نافذة جدتي. وحدَّق جَدِّي بعينه اللتين احمرَّتَا من كثرة الشراب إلى ذلك البغل الأحمق، ثم انتابه شعور بالراحة والهدوء. وقد رأى مياه الأمطار القوية تنزل على جسد البغل كالسهام الحادَّة، ومنها ما يسقط على جسده بسرعة، ومنها ما يسير على جسده مروراً بأذنيه المظلمتين، ثم تتجمع أسفل بطنه، ثم تسقط أخيراً على الأرض وسط مياه الأمطار التي ملأت وسط الفناء. بدأت مياه الأمطار تتحرَّك مُحدِّثة صوتاً مسموعاً، بينما لا يزال البغل ثابتاً في مكانه لا يُحرِّك ساكناً إلا عينيه اللتين بدتَا مثل زوج من البيض، كان يفتحهما قليلاً ثم يُعاود إغماضهما بسرعة. وانتابت جَدِّي حالة من الملل لم يشعر بها من قبل. فخلع جلبابه، ثم خلع بنطاله، وأبقى فقط على سروال داخلي، ثم راح يحك بيده شعر صدره وقدميه، كان كلما حكه بشدة شعر بأنه في حاجة لأن يستمر في ذلك، وشم رائحة أنثوية تعبق أرجاء المكان، فأخذ بسلطانية النبيذ وألقى بها إلى المدفأة، فقفز إليه في الحال فأر صغير ذو فم طويل وراح يرميه بنظرات ساخرة، ثم فرَّ الفأر مسرعاً إلى حافة النافذة الخلفية، وراح يحك جسده بقدميه الخلفيتين. وما إن رفع جَدِّي مسدسه، حتى قفز الفأر بسرعة ليسقط خارج النافذة، ثم دَوَّى صوت الطلقة النارية داخل أرجاء الغرفة.

وهنا دخلت الفتاة ليان إر بشعرها الأشعث، وراحت تنظر إلى جدي الجالس إلى جوار المدفأة شابكاً ذراعيه فوق ركبتيه، ولم تتحدث الفتاة معه بكلمة واحدة، وانحنَت لتجمع بقايا السلطانية التي تحطَّمت منذ قليل، ثم استدارت نحو باب الغرفة مستعدة للخروج.

هنا أحس جَدِّي بحشجة قوية في حلقه، فسعل قليلاً، ثم تحدث إلى الفتاة ليان إر بصوت مُجهد: «أنت يا ... توقفي».

فاستدارت الفتاة ناحيته، وراحت تعض بأسنانها البيضاء على شفثيها السميكتين، ثم ابتسمت ابتسامة جميلة أضاعت جميع جنبات الغرفة المظلمة، وقد حجبت أعواد الذرة الخضراء صوت الأمطار الشديدة خارج المنزل. وهنا راح جدِّي ينظر إلى شعر الفتاة ليان إر الأشعث وأذنيها الصغيرتين وإلى صدرها البارز ثم قال: «لقد كبرت أيتها الفتاة.»

فعضت ليان إر على حافة فمها عضه بها بعض المكر.

فسألها جدي: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

فأجابت الفتاة وهي تتأهب: «لقد غلبني النعاس!» ثم قالت: «آه من هذا الطقس السيئ، إلى متى سيستمر هطول هذه الأمطار الشديدة، لقد كادت الأمطار أن تُغرق جميع أرجاء الأرض.»

فقال جدي: «لقد احتجرت هذه الأمطار الشديدة دوو قوان وأمه في مسقط رأسها، ألم يقولاً بأنهما سيعودان بعد ثلاثة أيام؟ لقد كادت أن تضيع هذه الزوجة الشابة!»

فسألته ليان إر: «وهل تأمر بشيء؟»

فطأطأ جدِّي رأسه ومضى يفكر قليلاً ثم قال: «لا عليك الآن.»

فعاودت ليان إر العض على شفثيها وهي تبتسم، ثم هزّت مؤخرتها قليلاً وغادرت الغرفة.

وهنا عاود الظلام يُلّف أرجاء الغرفة، واشتدَّت الأمطار خارج النافذة. بينما كان البغل الأسود لا يزال قابلاً في مكانه لا يتحرك، وغرقت أقدامه داخل مياه الأمطار الغزيرة. وقد انتبه جدِّي إلى حركة مناطق من جسده وهو يهز بذيله.

وعادت الفتاة ليان إر إلى الغرفة مرة ثانية، واتكأت على إطار الباب وهي تنظر إلى جدِّي نظرات مريبة. وقد تغطَّت عيناها اللتان كانتا مشرقتين منذ قليلة بسحابة زرقاء. وابتعد صوت الأمطار ثانيةً، وأحس جدِّي بأن راحتي قدميه وراحتي يديه قد تصبَّبت جميعها بالعرق.

فسألها جدي: «ماذا تريدين؟»

فعضت ليان إر على شفثيها وابتسمت ابتسامة رقيقة. وعندها انتبه جدِّي إلى أن هالة من الضوء الذهبي قد ملأت أرجاء الغرفة.

وسألت الفتاة: «هل تشرب النبيذ؟»

– «وهل تريدين أن تشربي معي؟»

– «نعم، سأشرب معك.»

فأحضرت الفتاة ليان إر زجاجة من النبيذ، وقطعت ملء طبق من البيض المملح. وازدادت قوة صوت الأمطار خارج النافذة، وبدأ البغل الأسود مثل قطعة حجرية سوداء من شدة البرد، وسرت البرودة إلى داخل الغرفة، حتى لفت جسد جدّي العاري فراح يرتعش من شدة البرد.

فسألته ليان إر بنبرة تخلو من الاحترام: «هل تشعر بالبرودة؟»

فأجابها جدّي غاضباً: «إنني أشعر بالحرارة الشديدة!»

فسكبت الفتاة سلطانتين من النبيذ، قدّمت لجلي واحدة واحتفظت بالثانية لنفسها. ثم ضربتا السلطانتين ببعضهما بعضاً. سقطت سلطانتا النبيذ الفارغة على الأرض، وانشغلا بالنظر إلى السلطانتا الملقاة على الأرض.

ورأى جدّي السنة لهب ذهبية مشتعلة تملأ أرجاء الغرفة، وقد ظهرت بينها السنة لهب زرقاء، فأشعلت السنة اللهب الذهبية جسده، بينما أشعلت السنة اللهب الزرقاء قلبه.

وراح جدّي يُعيد المسدس إلى جرابه وهو يقول وقد شعر بالبرودة الشديدة: «إن الرجل الشجاع سيأخذ ثأره ولو بعد حين!»

أما السيد أبو شامة والذي كان واقفاً على حافة النهر، فقد سار حتى وصل إلى جانب قبر جدي، وراح يلفّ حول القبر وهو يضرب بقدمه التراب الذي يغطي سطح القبر، ثم قال متأثراً: «ما أقصر حياة الإنسان! ولقد قرّر يو جان أو والتنظيمات الحديدية أن يُقاوموا المعتدي الياباني، فلتنضم إلينا!»

فرّم جدّي شفّتيه وقال متعجباً: «أنضم إلى عصابتك أنت أيها المخادع؟!»

فراح أبو شامة يضرب بقدمه على قبر جدي ويقول: «كُفّ عن الغرور يا ابن اللعينة، فالتنظيمات الحديدية تستند إلى دعم الآلهة وتتّفق مع رغبة السماء ورغبة عامة الشعب، وموافقة التنظيم على ضمك يُعتبر مكرمة كبيرة، وزعيم التنظيم وافق على انضمامك احتراماً لمشاعرها هي.»

فقال جدي: «إنني لست بحاجة لشفقتك يا ابن اللعينة، وسيأتي الوقت الذي سأصفي

فيه حسابي معك، ولا تعتقد أن الأمر قد انتهى إلى هذا الحد!»

ضرب أبو شامة على مسدسه المربوط حول خصره وقال: «وهل تعتقد أنني أخشى

لقاءك، أنا أيضاً أحسن استخدام السلاح!»

ثم وصل إلى حافة النهر رجل من أفراد التنظيم وسيم بهي الطلعة، وسحب يد جدي وراح يتحدث إليه بتواضع واحترام جم قائلًا: «أيها القائد يو، إن جميع أفراد التنظيم يُكنون لك كل الاحترام والتقدير، ونأمل جميعًا أن تنضم إلينا، فالمثل يقول: «أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب!» ويجب علينا جميعًا أن نتكاتف معًا لمواجهة المعتدي الياباني. ولننظر إلى تلك الخلافات الشخصية بعد أن تنتهي من حربنا ضد المعتدي.»

فراح جدي ينظر إلى ذلك الشاب وقد شعر تجاهه بالراحة، ومضى يفكر في نائبه — ذلك الشاب البطل الذي لقي حتفه بسبب خروج طلقة من مسدسه أثناء قيامه بتنظيفه، ثم سأله جدي ساخرًا: «وهل أنت من أتباع الحزب الشيوعي؟» فقال الشاب: «إنني لست من أتباع الحزب الشيوعي ولا الحزب الوطني. وإنني أكره الحزب الشيوعي والحزب الوطني.»

فقال جدي: «يا لك من رجل شجاع!»

فقال الشاب: «أما أنا فأدعى وو لوان تزه.»

فضرب جدي على يده ضربة خفيفة ثم قال: «عرفتك.»

كان أبي يقف إلى جوار جدي، قابلاً في مكانه لم يتحرك منذ وقت طويل. وقد راح ينظر إلى رأس ذلك الشاب بفضول واضح. وانتبه إلى صلعة الشاب التي تُعتبر علامة على أنه من أفراد التنظيم، ولم يكن أبي يعرف السبب في هذه العلامة.

٦

وقضى جدي مع الفتاة ليان إر ثلاثة أيام بلياليها، حتى تَوَرَّمت شفتها وسألت منها الدماء، راحت تنزل إلى داخل فمها وتنساب بين أسنانها البيضاء، حتى إنه كان يشم رائحة تلك الدماء كلما كان يُقبلها فيما بعد. وبعد مُضي تلك الأيام الثلاثة، وبعد أن اختفى صوت تساقط الأمطار واختفى اللون الذهبي واللون الأزرق الذي ملأ الغرفة، سمع جدي أصوات أعواد الذرة في الحقول الممتدة خارج النافذة، وسمع نقيق الضفادع وصوت الأرنب البرية. وقد جاء ذلك الهواء البارد محملاً بروائح كثيرة، كان أبرزها وأشدّها قوة رائحة ذلك البغل الأسود. الذي كان واقفًا في مكانه لا يتحرك حتى غاص نصف جسده في المياه. كان جدي يشعر بخطورة البغل كلما شم رائحته القوية. وكان يفكر في أنه عاجلاً أم آجلاً ستحين الفرصة التي يجهز عليه فيها بمسدسه ويحطم رأسه. وكان قد

انتوى ذلك وصوب مسدسه تجاهه أكثر من مرة، ولكن كلما رفع المسدس صوب البغل كان اللهب الذهبي والأزرق يملأ أرجاء الغرفة.

في صباح اليوم الرابع، انتبه جدِّي إلى نحافة جسد الفتاة ليان إر التي كانت تترقد إلى جواره، وإلى تلك الزرقة التي تحيط بعينيها المغمضتين وإلى بياض شفيتها الجافتين. وسمع في ذلك الحين صوت انهيار عدد من منازل القرية. فارتدى ملابسه في عجلة، وقفز بسرعة من أعلى المدفأة حتى تعثرت قدمه، فسقط على الأرض وشعر بألم في معدته، فراح يجاهد حتى انتصب ثانية، ثم راح ينادي بصوت منهك على العمه ليو، ولكن لم يجب أحد. فسارع باقتحام باب تلك الغرفة التي تسكنها الفتاة ليان إر والعمه ليو، وراح ينظر داخل الغرفة، فرأى ضفدعة خضراء تترقد أعلى المدفأة، ولا يوجد أي أثر للعمه ليو. فرجع جدِّي إلى تلك الغرفة التي يقف أمامها البغل الأسود، وراح يلتقط عددًا من البيض الملح الذي أكله بقشره. وقد شعر بالجوع الشديد بعد أن أكل البيض الملح، فدخل الفرن وراح يبحث في جميع الخزانات حتى عثر على أربع قطع من الخبز، وتسع بيضات مملحة وقطعتين من الصويا ذات الرائحة الكريهة، وثلاثة رءوس من البصل، ثم شرب ملعقة كبيرة من زيت الفول السوداني.

وسطعت الشمس القادمة من حقول الذرة داخل الغرفة، بينما كانت ليان إر لا تزال تغط في نوم عميق، فراح جدِّي ينظر إلى جسدها اللامع مثل جلد البغل الأسود، وقد لاح أمام عينيه الضوء الذهبي. وقد أتت الشمس الحمراء خارج النافذة على هذا الضوء الذهبي. فراح جدِّي يضرب على بطنها بمسدسه ضربًا خفيفًا، ففتحت ليان إر عينيها وابتسمت له ابتسامة رقيقة، وقد لمعت زرقة عينيها. ثم قفز جدِّي إلى وسط الفناء، وراح يتأمل الشمس التي غابت عن الفناء لفترة طويلة، وقد سطعت على المياه المتجمعة في الفناء فاكتست باللون الأحمر، ثم سمع صوت المياه في الشارع وقد راحت تنساب إلى داخل حقول الذرة. حتى كادت الذرة أن تغرق في برك المياه.

ونقصت المياه في الفناء شيئًا فشيئًا، حتى اختفت تمامًا ليظهر سطح أرض الفناء من جديد. كما كان الدمار قد أصاب الجزأين الشرقي والغربي من الفناء الواسع، وخرج الجد لولو خان، والعمه ليو وعمال الفرن مُسرعين ليتمتعوا بالشمس التي ملأت أرجاء الفناء الكبير. ورأى جدِّي أيديهم ووجوههم وقد اكتست بطبقة من اللون الأخضر.

فسألهم جدي: «هل لعبتم القمار خلال الأيام الثلاثة الماضية؟»

فأجاب الجد لولو خان: «نعم لقد لعبنا القمار.»

فقال جدي: «لقد غاص البغل في حفرة العام الماضي، فلتأخذوا حبلاً وتذهبوا لرفعه من داخل الحفرة.»

فأخذ عمال الفرن بالحبيل ووضعوه أسفل بطن البغل، وجعلوا به عقدتين عند ظهر البغل، ووضعوا داخلهما لوحين من الخشب، ثم اجتمع ما يزيد على عشرة أشخاص وسحبوا البغل من داخل الحفرة وكأنهم يسحبون واحدة من ثمار الجزر.

بدا الجو صحواً بعد توقُّف الأمطار، واختفت مياه الأمطار تماماً، واكتست الأرض بطبقة من الطين اللامع. وجاءت جدتي وأبي على ظهر بغل من خلال حقول الذرة الممتلئة بالوحد. وقد امتلأت أقدام البغل وبطنه بالوحد. وكان البغلان الأسودان ما إن يَشْمًا رائحة الوحد حتى يَضْرِبًا بأقدامهما ويرفعا رقبتهما ويصيحان بصوت مرتفع، ثم يتعانقان بمودة بينما هما مربوطان معاً.

واستقبل جدي جدتي بخجلٍ شديدٍ، ومدَّ يديه واحتضن أبي. وقد بدت عينا جدتي مُحَمَّرَتَيْنِ من الإرهاق الشديد، وفاحت منها رائحة كريهة. وسألها جدي: «هل انتهيت من الجنازة؟»

فأجابته جدتي قائلةً: «لقد انتهينا من دفن الجثة صباح اليوم، ولولا توقُّف الأمطار الشديدة، لكان قد أصبح وجبة سائغة لديدان الأرض.»

فاحتضن جدي ابنه ثم قال: «آه من هذه الأمطار الشديدة، لقد كادت أن تغرق الأرض بما عليها. يا صغيري دوو قوان، أسمعني صوتك وأنت تنادي يا أبي!» فقالت جدتي: «بل من الأفضل أن يناديك «أبي بالتبني» «أبي الذي رباني منذ أن كنتُ صغيراً!» والآن سأذهب أنا لتغيير ملابسِي.»

فاحتضن جدي أبي وراح يلفُّ به أرجاء الفناء الواسع، ثم أشار إلى الحفرة التي غاص فيها البغل، وقال: «يا دوو قوان، يا صغيري دوو قوان! انظر إلى هذه الحفرة التي سقط فيها البغل الأسود، لقد مكث البغل بداخلها ثلاثة أيام بلياليها.»

وأحضرت الفتاة ليان إر طستاً من النحاس لتملأه بالمياه، ثم نظرت إلى جدي وهي تعض على شفيتها وتزمهما، فابتسم إليها جدي ابتسامة مقصودة، بينما كَشَّرت هي عن أنيابها وأظهرت له عدم سعادتها برؤيته.

سألها جدي بصوتٍ خفيضٍ: «ماذا بك؟»

فأجابت ليان إر بلهجة يملؤها الغضب والحقد: «اللوم كل اللوم على الأمطار اللعينة!»

حملت ليان إر المياه إلى الغرفة، وسمع جدِّي صوت جدتي تسألها: «فيم كنتما تتحدثان؟»

فأجابت ليان إر: «لم نتحدث في أيِّ شيءٍ.»

– «وماذا تعنين بقولك، عليك أن تلوم تلك الأمطار اللعينة؟»

فقال ليان إر: «لا شيء، لا شيء، لقد كادت تلك الأمطار اللعينة أن تغرق الأرض بما عليها!»

فتأوَّهت جدتي قليلاً كأنها قد عرفت الإجابة عن سؤالها، وسمع جدي أنذاك صوت خرير المياه داخل الطست النحاسي.

وعندما خرجت ليان إر لتسكب المياه المتبقية في الطست، انتبه جدي إلى احمرار وجهها وإلى نظراتها المُشْتَتَّة.

وبعد مُضي ثلاثة أيام، قالت جدتي إنها تنوي العودة إلى مسقط رأسها للقيام بطقس إلقاء الأوراق المالية على جثة والدها. وعندما احتضنت أبي ورَكَبَا على ظهر البغل، قالت جدتي مخاطبة ليان إر: «إنني لن أعود اليوم.»

وفي مساء ذلك اليوم، كانت العمدة ليو قد ذهبَتْ إلى الجزء الشرقي من الفناء حيث مكان إقامة عمال فرن النييذ لتشاركهم لعب القمار، وعندها عاد اللهيبي الذهبي يملأ أرجاء غرفة جدتي من جديد.

وعادت جدتي على ظهر بغلها في جوف الليل. وَقَفَتْ عند النافذة واستمعت بعض الأصوات التي تصدر من داخل غرفتها، ثم أطلَقَتْ سَيْلاً من السباب البذيء.

وأوجعت جدتي الفتاة ليان إر ضرباً على وجهها الممتلئ، حتى سالت منه الدماء، ثم صَفَعَتْ جَدِّي صَفْعَةً قَوِيَّةً على خده الأيسر، فضحك جَدِّي فور تلقي صفعتها، ورفَعَتْ جدتي يدها تنوي صفعه صفة ثانية، إلا أن يدها شلت تماماً فور اقترابها من خد جدي، فنزلت يدها على كتفه. وهنا أحكم جَدِّي قبضته وصفعها صفعَةً أسْقَطَتْها على الأرض.

فراحت جدتي تبكي بصوت مرتفع.

واصطحب جَدِّي ليان إر إلى خارج الغرفة.

٧

وَفَرَّ أعضاء التنظيم حصاناً لكي يركبه جَدِّي وأبي، كان أبو شامة يتقدَّم الرُكْب وهو يجري بفرسه بسرعة شديدة، بينما سار الشاب وو لوان تزه ذو اللهجة الواضحة، والذي

يكره الحزب الشيوعي والحزب الوطني، سار ببطء بمحاذاة جَدِّي وأبي. كان الحصان الذي ركبه الشاب وو لوان تزه حصاناً صغيراً في ريعان شبابه، وقد راح ينظر إلى الأحصنة الخمسة التي تسير في المقدمة بسرعة شديدة، وراح يهز رأسه تعبيراً عن رغبته الشديدة في اللحاق بها، بينما أصر راكمه على شد لجامه وأجبره على التَّخَلِّي عن رغبته في الفرار لملاحقة الأحصنة التي تتقدَّم الرُّكْب. وهنا راح الحصان الصغير الملوَّن يُعَبِّر عن غضبه بأن راح يداعب الحصان الأسود الذي يركبه جَدِّي تعبيراً عن غضبه من سيده. رفع الحصان الأسود حافره في وجه الحصان الملوَّن مدافعاً عن نفسه، وتدخل جَدِّي بأن شدَّ لجام حصانه وراح يصرف الحصان الملوَّن بعيداً عنه. وبدأت مياه نهر موا شوى الزرقاء الدافئة تتحرَّك حركات خفيفة، وسرت رائحتها تجاه الحقول الممتدة على جانبي النهر. وبسبب الحرب الطاحنة التي تشهدها المنطقة، اكتست الحقول باللون الأصفر الذابل، كان قد سقط ما يزيد على نصف أعواد الذرة، ظهرت جماعات قليلة من الفلاحين داخل الحقول، كما قام عدد من الفلاحين الأذكىء بإضرار النيران في أعواد الذرة الجافة حتى تحوَّلت إلى رماد، وعادت ثانية إلى الأرض التي أنبتتها.

وعلاً اللهب الناتج عن إضرار الفلاحين النيران في أعواد الذرة الجافة على جانبي نهر موا شوى، حتى تحوَّلت اللهب إلى ستارة حمراء أمام الحقول الممتدة على جانبي النهر، وعلا الدخان في سماء المكان، وتغلغلت رائحة احتراق أعواد الذرة إلى داخل أنف جَدِّي وحلقه. وانحنى الشاب وو لوان تزه برأسه، وراح يسأل جَدِّي قائلاً: «أيها القائد يو، لقد تحدَّثت إليك كثيراً، ولم أستمع حتى الآن إلى رأيكم السديد!»

فابتسم جَدِّي ابتسامة مُصطنعة، ثم قال: «إنني جاهل لا أعرف أكثر من مائتي كلمة، وإنني سأحسن القول تماماً إذا ما تحدَّثنا عن القتل والسلب والنهب، أما ما يتعلَّق بالوطن والأحزاب وغيرها من هذه الأمور فإنني أجهلها تماماً!»

— «إذًا، فلنستمع إلى رأيكم حول من الذي سيحكم الصين بعد طرد المعتدي الياباني؟»

— «هذا الأمر لا يخصني في شيء، وعلى أية حال مَهَمَّا كان ذلك الحاكم فإنه لن يجروُ

على المساس بي!»

— «وما رأيكم في تسليم هذه المهمة للحزب الشيوعي؟»

فرفع جَدِّي أنفه ساخرًا، وأخرج صوتاً من أنفه.

— «أم أنك ترى أن يتولاها الحزب الوطني؟»

— «هؤلاء الكلاب!»

- «نعم نعم، إن الحزب الوطني يتميز بالمكر والخداع، والحزب الشيوعي يتميز بالمرأوخة والدهاء، فالصين بحاجة إلى إمبراطور يحكمها! وكنتُ قد طالعتُ في صغري روايتي «الدويلات الثلاثة المتحاربة»،^{١٠} و«أبطال البحيرة»،^{١١} وتوصَّلتُ إلى هذا الرأي، أنه مَهْمَا يَكُنْ فإن الصين لا بد أن تقع في قبضة إمبراطور، فالدولة إنما هي عبارة عن أسرة هذا الإمبراطور، والأسرة هي دولة الإمبراطور، وهكذا سيبدل الحاكم قسارى جهده لأجل هذا الوطن. أما إذا تَمَكَّنْ حزب ما من حكم دولة ما، فإنه ستكون هناك آراء كثيرة متفرقة، ولن يتوقف الشعب عن التذمر والشكوى من هذا وذلك، حتى تتشتت الآراء وتضيع البلاد.»

وهنا أوقف الشاب وو لوان تزه حصانه لانتظار حصان جَدِّي الذي كان يجري خلفه، ومال الشاب بجسده ناحية جدي، وقال بشيء من السرية: «أيها القائد يو، كما أخبرتك أنني طالعتُ منذ طفولتي روايتي «الدويلات الثلاث المتحاربة» و«أبطال البحيرة»، وعلمتُ جيداً بما فيهما من خطط ومؤامرات، وجرأة في المواجهة. وكنتُ أعتقد فيما قبل أن السيد أبا شامة بطلٌ شجاع، وهكذا هجرتُ منزلي وتركتُ بلدي وسارعتُ بالانضمام إليه، كنتُ أتمنى من أعماق قلبي تحقيق طموحاتي العالية والاستماتة من أجل بلوغ هدفي من الانضمام لهذا التنظيم، وأن نحقق على أرض الواقع إسهامات وإنجازات كبرى، ونؤمِّن حياة زوجاتنا وأطفالنا، ولكنَّ مَنْ كان يدري أن أبا شامة هذا إنما هو رجل أحمق مثل الخنزير، غبي مثل البقرة، جبان ضعيف الحيلة، وأن كل ما يفكر فيه هو حماية ممتلكاته الخاصة في قرية يان شوى كوو تزه، وكما يقول القدماء: إن الذكي هو من يتحين الفرصة المناسبة لاستخدام ذكائه. وقد توصَّلتُ بعد تفكيرٍ مِلي، إلى أنك أنتَ البطل الوحيد في هذه القرية الكبيرة؛ ومن ثم فقد تواصلتُ مع عشرات الإخوة من أعضاء هذا التنظيم، واتَّفَقْنَا معاً على مطالبة أبي شامة بأن يدعوك للانضمام إلينا، وهذا من قبيل

^{١٠} رواية «الدويلات الثلاث المتحاربة» تم الإشارة إليها في مكان سابق من هذا الباب. (المترجم)

^{١١} رواية «أبطال البحيرة»: من أمهات الكتب الصينية الأربعة. وتُعتبر أول رواية في تاريخ الصين تُكتب باللغة الحديثة. وهناك اختلاف حول مؤلِّفها، حيث تشير الآراء إلى أن مؤلِّفها هو شه ناي يان، وهناك رأي آخر يقول بأنها كانت تأليفاً مشتركاً بين شه ناي يان ولوو قوان جونج. وتتكوَّن الرواية من ١٢٠ فصلاً، وتدور أحداثها حول حكاية انتفاضة سونغ جيانغ من أواخر عصر أسرة سونغ الشمالية (٩٦٠-١١٢٧م)، وهي من أهم الروايات الصينية التي تناولت أحداثها انتفاضات الفلاحين في الصين ضد الظلم الواقع عليهم من قِبَل المجتمع الإقطاعي الغاشم. (المترجم)

إغراء الفريسة حتى تقع في الفخ المنصوب لها. وأنك فور انضمامك لنا ستعتمد على عمك واجتهادك حتى تحظى بتعاطف جميع أعضاء التنظيم والإعلاء من مكانتك بيننا، وعندها سأتحين الفرصة للإطاحة بأبي شامة ونعلن تنصيبك زعيماً لنا، ونبدأ عهداً جديداً تحت زعامتك، حيث الالتزام بالقواعد الصارمة والعمل على زيادة حجم قوّاتنا، وتوطيد أقدامنا بدايةً في قرية دونغ بيي بمدينة قاو مي، ثم نتوسع شمالاً للسيطرة على قرية دونغ نان بمدينة بينغ دو، ثم السيطرة على القرى الشمالية من مدينة جياو شيان، وتوحيد هذه القرى تحت زعامتنا. وفي ذلك الحين سنتمكن من تأسيس عاصمتنا في يان شوى كوو تز، و نرفع عليها علم تنظيم المقاومة ضد اليابان، والذي ستكون أنت أميراً له. ثم نقوم بعدها بتقسيم أنفسنا إلى ثلاث فرق رئيسية، الفرقة الأولى تهاجم مدينة جياو شيان، والفرقة الثانية لمهاجمة مدينة قاو مي، أما الفرقة الثالثة فتهاجم مدينة بينغ دو، وهكذا حتى ندمر الحزب الشيوعي والحزب الوطني والشياطين اليابانيين، وبعد الاستيلاء على هذه المدن الثلاث، فسنكون قد استولينا تماماً على الصين قاطبة!»

وهنا كاد جدّي أن يسقط من أعلى ظهر حصانه، وراح ينظر بذهول شديد إلى ذلك الشاب الوسيم المفعم بالحماس، وأحس برغبة قوية تسيطر على قلبه، فشدّ جدّي لجام حصانه، ثم انتظر حتى زال السواد الذي كان يظهر أمام مرمى بصره، ثم نزل من على ظهر حصانه، وقد فكر في أن يركع أمام الشاب، ولكنه عدل عن ذلك، ومد يده إلى يد الشاب وو لوان تز، التي كانت مبللة بالعرق، وراح يقول بصوت متلعثم: «أيها السيد! يا لك من صلوك! كيف لم نتقابل من قبل! لسوء الحظ أننا تعارفنا متأخرًا.»

قال الشاب وو لوان تز بعينين دامعتين: «دعنا من المجاملة، ولنعمل ونخطط معًا لتحقيق الإنجازات والمآثر الكبرى!»

كان أبو شامة يحث حصانه على الجري بسرعة، وهو يصيح بصوت مرتفع: «يا هذا، إلى متى ستمكثون في مكانكم؟»

فوضع وو لوان تز قبضة يده على فمه، وراح يرد عليه: «سنتحرك فورًا، لقد انقطع حبل حسان السيد يو، وها نحن نقوم بإصلاحه!»

سمعوا السيد أبا شامة يسبهم آنذاك ببعض الألفاظ القبيحة، وقد راح يضرب على ظهر حصانه، حتى تألم الحصان كثيرًا ومضى يجري بسرعة شديدة مثل الأرانب البرية. ونظر الشاب وو لوان تز إلى أبي ذلك الفتى ذي العينين اللامعتين، الذي كان جالسًا على ظهر الحصان، ثم خاطبه قائلاً: «أيها الأمير الصغير، إن ما دار بيني وبين والدك القائد يو منذ قليل كلام في غاية الخطورة، وعليك ألا تفشيهِ أبدًا!»

هزَّ أبي رأسه هزةً شديدةً بالموافقة.

فأرْخى وو لوان تزه لجام حصانه، وترك له العنان، ففرَّ الحصان مسرعًا، وقد تطايرت خلفه كميات كبيرة من الأتربة التي حملتها الرياح إلى مجرى النهر. وأحسَّ جدِّي بصدق ووضوح لم يعهدهما في حياته من قبل، أحسَّ وكأنَّ كلام الشاب وو لوان تزه قد نظَّف قلبه تمامًا حتى جعله مثل المرأة اللامعة، وشعر بداخله بسعادة بالغة، وأنه أخيرًا قد عرف هدف رحلة كفاحه الطويلة. وراح يُحرِّك شفتيه، ويتمتم بكلمات غير مفهومة تمامًا، حتى إنَّ أبي الذي كان جالسًا في حضنه قد عجز عن فهم ما يُتمِّم به. وقال جدي: «لتكن مشيئة السماء!»

وسار الحصان في طريقه مسرعًا حينًا ومبطئنًا حينًا، حتى وصل إلى أسفل حافة نهر موا شوى وجعل النهر من خلفه، وعند غروب شمس ذلك اليوم، جلس جدِّي على ظهر حصانه، وراح ينظر إلى نهر يان شوى، ذلك النهر الضيق الذي يضيق مجراه عن نهر موا شوى، ويجري في خطوط مُتعرِّجة وسط الأراضي المالحة، وبدت مياه النهر مثل زجاج رمادي يكشف عن صورة غير واضحة.

٨

أما تلك المؤامرة التي خطط لها السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة، والتي قضت على عصابات قُطاع الطُّرق في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، والتي كان يتزعَّمها جدي، فكانت قد وقعت في خريف عام ١٩٢٨ م. وعندما كان جدِّي في المنطقة الجبلية بجزيرة هوكايدو اليابانية، لم يكن يتوقَّف عن تذكُّر تلك الفترة التاريخية المحزنة، تذكُّر مدى سعادته وزهوه بنفسه ومدى حماقته وبلاهته عندما كان قد استقل السيارة «الشيفرولية» السوداء وراح يتمايل بها على الطريق المتعرج بقرية دونغ ببي. وتذكر أنه كان مثل الطائر البارح الذي أوقع ما يزيد على ثمانمائة رجل في شبابه. وعندما تذكر صورة هؤلاء الرجال، وقد أصابهم وابل من الطلقات النارية الرشاشة حتى سقطوا صرعى في مجرى النهر خارج مبنى حكومة مدينة جي نان،^{١٢} شعر بأن جميع أطرافه ترتعد. وعندما كان

^{١٢} مدينة جي نان: تأسست في يوليو عام ١٩٢٩ م، وهي العاصمة الحالية لمقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين، وتُعتبر مركزًا سياسيًا واقتصاديًا وسياحيًا وثقافيًا مهمًا على مستوى المقاطعة كلها، كانت

يرتدي جوال الخيش البالي وينزل للصيد في شاخه، كان يتمكن من رؤية الأمواج الزرقاء التي تتلاطم في الخليج، وعندها يتذكر نَهْرِيّ ما شوى ويان شوى بمسقط رأسه، وعندما كان يشعل النيران في أعواد الأشجار ليطهو بها الأسماك التي كان يصطادها من شاخه في جزيرة هوكايدو اليابانية، عندها كان يتذكّر الحزن الشديد الذي ألمّ به عقب قيامه بدفن جثث هؤلاء الرجال الثمانمائة الذين لقوا حتفهم بسبب الخطأ الكبير الذي ارتكبه هو.

وقُبَيْل فجر ذلك اليوم، استطاع جَدِّي أن يتسلّق سور مكتب شرطة حكومة مدينة جي نان العالي، ثم سار على السور حتى سقط بجانب الجدار على كومة من الأعشاب البالية، فأثار سقوطه زعر زوج من القطط البرية. وتسلّل إلى داخل أحد المنازل بالمدينة، وغيرّ الزبي العسكري الذي كان يرتديه ببعض الملابس القديمة، وراح يسير وسط سوق المدينة بين جموع الأهالي، ورأى بلدياته ورفاقه وقد تم حَجْرُهُم داخل عربات مغلقة تماماً. ورأى حارس المحطة يقف هناك وقد علا وجهه الحزن الشديد، ثم رأى الدخان المتطاير من العربات المغلقة التي تقل بلدياته ورفاقه، فراح جَدِّي يسير على قضيبين من السكك الحديدية صوب الجنوب، سار يوماً بليته، وفي صباح اليوم التالي، شم رائحة دماء شديدة بالقرب من مجرى مائي جافّ، فراح يسير أعلى جسر خشبي مكسور، ومضى ينظر إلى آثار الدماء الطازجة ورءوس البشر التي تظهر جلية على الأحجار الملقاة أسفل الجسر الخشبي، كانت جثث ما يزيد على ثمانمائة من أفراد قُطَاع الطُّرُق بقرية دونغ ببي تملأ ما يقارب نصف مساحة مجرى النهر ... وشعر جَدِّي في تلك اللحظة بحزن ورعبٍ وحقد دفين، ووقف أعلى الجسر الخشبي المكسور، وقد أصبحت لديه الآن رغبة قوية في البقاء، لقد ملّ حياة القاتل والمقتول والمجرم السّفّاح، والذي يقع فريسة للسّفّاح. ومضى يتذكّر تلك القرى الآمنة التي تمتلئ بدخان المواقد لإعداد الطعام، ومياه البئر الصافية التي تصعد لأعلى من خلال البكرات المربوطة أعلى الآبار، وقد مد حمار ما رقبته وراح يروي ظمأه من مياه الجردل، وقد وقف ديك أعلى السور العالي وراح يشدو بصوته ليعلن بدء يوم جديد ... هنا قرر جَدِّي العودة إلى منزله. فمنذ لحظة ميلاده وهو يسكن قرية دونغ ببي، وهذه هي المرة الأولى التي يغادر فيها قريته، وقد شعر أن منزله يبدو

قد تعرضت في عام ١٩٢٨م لمذبحة الثالث من مايو على يد القوات اليابانية التي غزت مقاطعة شان دونغ آنذاك، وقُتِل فيها ١٢ ألف مواطن من مدينة جي نان. (الترجم)

الآن بعيداً عنه، حيث كانوا قد استقلوا القطار حتى وصلوا إلى مدينة جي نان، يذكر جيداً أن قاطرة القطار كانت تسير آنذاك صوب الغرب، والآن إذا تمكن من السير في اتجاه الشرق، فإنه حتماً سيتمكن من الوصول إلى مدينة قاو مي. سار جدي بمحاذاة شريط السكة الحديد، وكان يساوره التردد أحياناً عندما يلاحظ أن شريط السكة الحديد يمتد في اتجاه مختلف، ولكنه كان يرجع في الحال عن تردده وشكوكه، كان يفكر في أنه حتى نهر اليانجستي^{١٣} ذلك النهر الكبير يجري في مَجْرَى مُتَعَرِّجٍ، فكيف لا يمتد هذا الشريط الحديدي الذي صنعه الإنسان في خطوط متعرجة. وكان يرى خلال رحلته على شريط السكة الحديد عدداً من الكلاب التي تتبول على الشريط الحديدي. وعندما يأتي القطار، كان جدي ينبطح داخل الأخدود على جانب الطريق، أو يُلقي بنفسه داخل الزروع الممتدة على جانبي الشريط الحديدي، ويمضي يتأمل عجلات القطار الحمراء أو السوداء وهي تسير على القضبان محدثةً صوتاً عالياً، وتعرجات القضبان أسفل عجلات القطار، ويستمتع إلى صفارة القطار العالية، كانت تعلن عن شدتها بهز الزروع وإثارة الغبار الكثيف. وما إن يمر القطار، حتى تستعيد القضبان حالتها الطبيعية بعد أن تأملت لمدة وجيزة، أصبح من الصعب عليه أن يهرب من رؤية اللون الأسود والرمادي، وشم الروائح الكريهة المنبعثة من فضلات الصينيين واليابانيين ... كان جدي يتسوّل بعض الطعام كلما مر بقرية على طول الشريط الحديدي، ثم يشرب من مياه النهر، وهو يمضي في طريقه شرقاً، وقد فقد الإحساس بالزمن. وأخيراً وبعد خمسة عشر يوماً، رأى المقصورتين العاليتين اللتين يعرفهما جيداً أعلى محطة القطار بمدينة قاو مي. رأى على المحطة جموعاً من وجهاء مدينة قاو مي يُودِّعون السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة السابق، والذي تمّت ترقبته إلى رئيس مكتب شرطة مقاطعة شان دونغ، ومد جدي يده يتحسس خصره، فاكتشف أنه خالٍ تماماً من أية أسلحة، فراح يفكر في أسرع حركة ينزرع بها داخل الأرض ليختفي عن الأنظار، وبعد وقت طويل جداً استطاع أن يتذوق طعم التربة السوداء المزوجة بالدماء.

^{١٣} نهر اليانجستي: (Changjiang River) أطول نهر في قارة آسيا، يبلغ طوله ٦٣٨٠ كيلومتراً، ويعتبر والنهر الأصفر من أهم وأكبر الأنهار في الصين، وهو ثالث أطول نهر على مستوى العالم بعد نهر النيل ونهر الأمازون، وينبع نهر اليانجستي من قمة قه لا دان بجبل تانغ قو لا بمقاطعة تشينغ خاي غرب الصين، ليصب في البحر عند مدينة شنغهاي بجنوب شرق الصين. (المترجم)

أخيراً، وبعد التفكير مرارًا وتكرارًا، قرَّر جدِّي العُدول عن العودة إلى المنزل للاطمئنان على جدي وأبي، على الرغم من أنه قد راوده في أحلامه جسد جدي الأبيض، وابتسامه أبي البريئة والغريبة، كان قد أحس فور استيقاظه بدموع غزيرة بللت وجهه المتسخ، وبوخزة شديدة في قلبه، كان يعلم جيدًا وهو يتأمل في النجوم مدى اشتياقه لزوجته وابنه. أما الآن فإنه يقف على ناصية القرية التي يعرفها جيدًا، ويشم رائحة النبيذ القريبة إلى قلبه، ولكنه لا يزال مترددًا. لقد استطاعت تلك الصفعة التي صفعتها إيَّها جدي أن تُفرِّق بينهما، كانت قد سبَّته: يا حمار! يا خنزير! وقفَّت أمامه وهي تضع يديها في وسطها وترفع رقبتها لأعلى، ورأى الدماء الحمراء الداكنة تسيل داخل فمها ... هذه الصورة القبيحة جعلته في غاية الاضطراب، حيث مضى يفكر في أنه لم يتعرض أبدًا خلال حياته الطويلة للسب والسبب من قِبَل امرأة، كما أنه لم تَجْرؤُ امرأة على صفعه على وجهه. وعلى الرغم من شعوره بوخز الضمير خلال علاقته السريَّة مع الفتاة ليان إر، فإنه بعد تعرُّضه للسب والصفع من قِبَل جدي، قد زال شعوره بوخز الضمير، وزال شعوره بنقد ذاته على قيامه بمثل تلك الفعلة، والآن زال هذا الشعور تمامًا، وحل محله شعور قوي بالانتقام. فتشجَّع على مغادرة المنزل مصطحبًا معه الفتاة ليان إر، وقد غادر إلى قرية شيان شوى كوو تزه التي تبعد مسافة سبعة كيلومترات ونصف الكيلومتر عن قريتنا، واشترى لهما بتلك القرية مسكنًا يقيمان فيه. وكان يعرف جيدًا أن حياته لم تكن تسير على ما يرام خلال تلك الفترة، فلقد اكتشف الكثير من مزايا جدي من خلال عيوب الفتاة ليان إر التي اتَّضحَت له من خلال عِشْرَتها ... والآن وبعد نجاته من الهلاك المُحتم، فإن أقدامه قد أتت به إلى هنا مرة ثانية، وهو الآن يشم رائحة مُحَبَّبة إلى قلبه، شعر بحزنٍ شديدٍ يُخيم على قلبه. ومضى يفكر في أن يتغاضى عن كل ما حدث ويرمي بنفسه داخل ذلك الفناء الذي يحوي الكثير من الذكريات القبيحة والمفجعة والجميلة ليستعيد الأيام الجميلة التي قضاها داخل جدرانها، ولكن صوت السبب المفجع، وتلك الصورة القبيحة يقفان حاجزًا كبيرًا، يعوقان طريقه إلى الفناء.

وعند منتصف الليل، وصل جدِّي أخيرًا إلى قرية شيان شوى كوو تزه، وقد بدأ عليه التعب الشديد، ووقف أمام المسكن الذي كان قد اشتراه قبل عامين، وراح يتأمل قمر ما بعد منتصف الليل الذي ظهر عاليًا في السماء ناحية جنوب غرب المسكن. بدت السماء رمادية فضية، بينما كان القمر ذهبيًا ناقصًا واضحًا تمامًا، أحاط به عدد من النجوم المتفرقة، وسطع ضوء القمر والنجوم أعلى سطح المسكن والشوارع المحيطة به. ولاح

أمام عينيه جسد ليان إر الأسمر القوي الطويل، ومضى يفكر في ذلك اللهب الذهبي الذي كان ينبعث من جسدها، والشعاع الأزرق الذي كانت ترسله عيناها، وهنا استطاعت هذه الذكريات الجميلة أن تجعله ينسى آلامه الجسدية والمعنوية، فتسلق سور المسكن ودلف إلى داخل الفناء.

طرق جَدِّي على حافة النافذة، فاجتمع حماسه، وراح ينادي بصوت خفيض: «يا ليان إر ... ليان إر.»

وسمع صوت صراخ داخل الغرفة، ثم صوت ارتعاد شديد، ثم صوت بكاء متقطع.

«ليان إر، ليان إر، هل تسمعين صوتي؟ إنني يو جان أو!»

- «أخي ... أخي الحميم! إنك لن تستطيع إرهابي! وإنني أتمنى لقاءك حتى لو كنتَ عفريت يو جان أو! وإنني أعلم أنك تَحَوَّلْتَ إلى عفريت، وأنا في غاية السعادة لأن تأتي للاطمئنان عليّ بعد أن تَحَوَّلْتَ إلى عفريت ... فإن هذا يدل على أنك لا تزال تفكر فيّ ... تقدّم ... تقدّم.»

«ليان إر، إنني لست عفريتاً، إنني لا زلتُ حياً، لقد استطعتُ النجاة حياً!»، وراح جَدِّي يضرب بقبضة يده على النافذة، ثم قال: «فلتسمعي هذا الصوت، وهل يستطيع العفريت أن يطرق النافذة؟»

فسمع صوت بكائها داخل الغرفة.

فقال جدي: «كُفِّي عن البكاء حتى لا يسمع أحد صوتنا.»

اقترب من الباب، ووقف عنده ثابتاً لتجيء ليان إر مثل السمكة الكبيرة وترمي بنفسها في أحضانه.

واضطجع جَدِّي أمام المدفأة، وراح ينظر بذهول إلى السقف المطلي بالورق، ومكث بالمنزل طيلة شهرين كاملين لم تطأ قدمه خلالهما عتبة المنزل، كانت ليان إر تنقل له كل يوم ما يثار من أحاديث حول عصابات قُطَاع الطُّرُق في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، ومن ثمّ، فإنه كان يبدو كل يوم غارقاً في ذكريات تلك المأساة الكبرى. ومضى يُفكّر في أنه قضى عمره في صيد الإوز، ولكنه الآن وقع بفعل الإوز، وأنه كان قادراً أكثر من مرة على الفتك بذلك الكلب تساو مينغ جيو، ولكنه كان دائماً ما يعفو عنه. وهنا راح يفكر في جدتي، إن علاقتها المشكوك فيها كابنة بالتبنيّ لذلك الكلب تساو مينغ جيو كانت أحد الأسباب التي أوقعته في يد ذلك الكلب، وأنه كما يكره تساو مينغ جيو، فإنه يكرهها كرهاً شديداً. وربما تكون قد حَطَّطت مع ذلك الكلب وحَفَرَ له تلك الحفرة معاً، وخاصةً

أنه سمع ليان إر تقول له إنك لا تستطيع أن تنساها، ولكنها نَسَيْتُكَ منذ زمن طويل، فبعد أن غادرت القرية على متن القطار، كانت قد رحلت مع أبي شامة زعيم التنظيم، ومكثت لبضعة شهور في قرية شيان شوى كوو نزه، ولم تُعد إلى القرية حتى يومنا هذا. كانت ليان إر تُفْضِي إليه بهذه الأسرار، بينما هي تفرك بيدها أضلاعه. وما إن انتبه جَدِّي إلى جسدها الأسود حتى شعر ببعض الاشمئزاز، وهنا راح يفكر في جسد جدتي الأبيض الناصع، ثم راح يفكر بعيداً في تلك الظهيرة التي اختطفها فيها إلى داخل حقول الذرة، وقضى معها لحظات لن تُنسى إلى الأبد.

تَقَلَّبَ جَدِّي قليلاً ثم قال: «وهل لا يزال مسدسي موجوداً؟»

فاحتضنت ليان إر ذراع جدي، وقد شعرت بخوف شديد، ثم أجابت: «ماذا تريد أن تفعل؟»

فقال جدي: «أريد أن أقتل هؤلاء الكلاب!»

فقالت ليان إر: «يا جان آو، يجب أن تتوقَّف عن القتل! فلقد قتلت الكثير من الناس خلال رحلة حياتك الطويلة!»

فركلها جَدِّي ركلة في بطنها، ثم قال: «كفاك من هذه الثرثرة، واثتيني بالمسدس!» فشعرت ليان إر ببعض الضيق، ثم فتحت الوسادة وأخرجت منها ذلك المسدس الماوزر.

وعاود جَدِّي وأبي يركبان على ظهر ذلك الحصان الأسود، وراحا يلحقان بذلك الشاب من أعضاء التنظيم، وقد قطعاً مسافة طويلة حتى لاح أمامهما أخيراً نهر يان شوى، وعندما رأيا ذلك الخلاء الواسع الممتد على ضفتي نهر يان شوى، فإنه على الرغم من أنه لم يكن قد هدأ بعدُ من كلام الشاب وو لوان تزه المثير جدًّا، فإنه مضى يُفكِّر في مشهد اشتباكه مع أبي شامة على حافة نهر يان شوى.

أحكم جَدِّي وضع مسدسه الماوزر، وركب على ظهر حمار كبير وقطع مسافة طويلة خلال صبيحة ذلك اليوم، حتى وصل إلى قرية يان شوى كوو نزه، وقام فور وصوله بربط حماره إلى جذع شجرة من أشجار الدردار خارج حدود القرية، وراح الحمار يقضم في لحاء الشجرة، وأنزل جَدِّي قبعته القديمة على عينيه ومضى يسير في عجلة إلى داخل القرية. وعلى الرغم من اتساع تلك القرية فإنه لم يتوقف للسؤال عن الطريق، وراح يتوغل إلى داخل القرية في اتجاه صفوف المنازل العالية المبنية من الطوب. صادف الوقت حينها أواخر شهر الخريف ومطلع الشتاء، وقد رأى حركة مجموعة من أشجار الكستناء ذات

الأوراق الجافة تهتز بفعل الرياح، ولم تكن الرياح قوية، إلا أن صوتها كان قوياً بعض الشيء. ودخل جدي إلى فناء المسكن الكبير المبني من الطوب، حيث صادف وقت دخوله اجتماع أعضاء التنظيم. رأى لوحة كبيرة صفراء اللون مُعلّقة على سور الصالة الكبيرة، وقد ظهر عليها رسم عجوز ذي ملامح غريبة يركب نمراً ضخماً مخططاً. وقد رأى أسفل اللوحة مجموعة من الأشياء الغريبة جداً (استوضح جديّ فيما بعد أن تلك الأشياء كانت عبارة عن أقدام قرد، عظام دجاج، مرارة خنزير، رأس قطة، حوافر بغل)، ووسط هالة من الدخان ذي الرائحة الذكية، رأى جديّ رجلاً تظهر في وجهه شامة يجلس على مقعد مستدير من الحديد، وقد رفع الرجل يده اليسرى ليمسح على صلعته، بينما وضع يده اليمنى على ردفه، وهو يتلو بصوت مرتفع مجموعة من التعاويذ.

وعرف جديّ على الفور أن ذلك الرجل الجالس أمامه هو أبو شامة، ذلك الشيطان المعروف في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي.

وفور الانتهاء من تلاوة التعاويذ، نهذ أبو شامة بسرعة، وراح يسجد ثلاث سجدة أمام تلك اللوحة، ثم عاد بعد ذلك ليجلس على المقعد الحديدي، ثم قبض على يديه ليجعل أظافر أصابعه العشرة تختفي داخل قبضته. ثم راح يهز ذقنه لمجموعة من أعضاء التنظيم الجالسين في الصالة الفسيحة. راح أعضاء التنظيم يمسحون على صلعاتهم بأيديهم اليسرى، ويضعون أيديهم اليمنى على أردافهم، ثم أغمضوا أعينهم وراحوا يُردّدون تلك التعاويذ التي انتهى منها أبو شامة، كان صوت تلاوة تلك التعاويذ مؤثراً جداً، وأحس جديّ بأرواح غريبة تملأ المكان، واختفى الغضب الشديد الذي دخل به، وأخفى حنقه الشديد تجاه أبي شامة.

راح أعضاء التنظيم يتلون تلك التعاويذ في صوت واحد، ثم يسجدون معاً أمام ذلك العجوز الذي يركب النمر المخطط، ثم نهضوا ووقفوا في صفين في مواجهة السيد أبي شامة. ورأى قديراً أحمر كبيراً يوضع أمام أبي شامة، امتلأ القدر الكبير بالذرة الرفيعة، حيث كان جديّ قد سمع من قبل أن أعضاء هذا التنظيم يأكلون حب الذرة دون طهوه، وقد رأى هذا أخيراً بأمر عينيه؛ رأى أعضاء التنظيم يتقدمون الواحد تلو الآخر إلى ذلك القدر ويأخذون سلطانية من الذرة يشربونها دفعة واحدة، ثم يقفون أمام المنضدة القرابين، ويمسحون على رؤوسهم بتلك القرابين الموضوعة أعلى المنضدة بما فيها من أقدام القروذ وحوافر البغال وعظام الدجاج.

وانتهى أعضاء التنظيم من هذه الطقوس عند غروب الشمس، وقد تجرأ جَدِّي وأطلق طلقة على تلك اللوحة الكبيرة، حتى أحدث ثقباً كبيراً في وجه ذلك العجوز الذي تملأ صورته اللوحة الكبيرة؛ فذعر أعضاء التنظيم وخرجوا في جماعة واحدة وحاصروا جَدِّي وسطهم.

وراح أبو شامة يسبه بصوت مرتفع: «مَنْ أنت أيها اللص الجريء!» فرجع جَدِّي إلى الخلف، ووقف أمام كومة من الطوب، وراح يرفع قبعته إلى أعلى مستخدماً ماسورة مسدسه التي لم يهدأ دخانها بعد، ثم قال: «إنني جَدُّك وجَدُّ آبائك يو جان أو!»

فقال أبو شامة: «هل لا زلتَ على قيد الحياة؟» فقال جدي: «وَدِدْتُ أَنْ أراك قبل أن أفارق هذه الحياة!» فقال أبو شامة: «وهل تعتقد أنك ستتمكن من قتلي بهذه الحركات الطائشة؟ أيها الرفاق، ائتوني بالسكين!»

جاءه أحد أعضاء التنظيم بسكين ذبح الخنازير، وحبس أبو شامة أنفاسه قليلاً، ثم أعطى إشارة إلى ذلك الرجل من أعضاء التنظيم. وهنا رأى جَدِّي بأم عينيه ذلك السكين الحاد عندما انفرست في جسد أبي شامة، وقد بدت وكأنها تشق قطعة من الخشب الصلب جدًّا، حيث سمع صوت السكين وهي تحاول اختراق جسده، ولكن دون جدوى، أحدثت فقط بعض الآثار البيضاء البسيطة في جسده.

راح أعضاء التنظيم يُردِّدون تعاويذهم: «آه ما آه لا آه ما آه لا، رعوس من حديد وأذرع من حديد وأرواح من حديد ... وأجساد حديدية وطاعة كاملة للإله الذي يركب النمر المُخَطَّط، آه ما آه لا ... آه ما آه لا.»

شعر جَدِّي بدهشة بالغة أخفاها في نفسه، لم يكن يتخيل أبداً أن يرى جسداً يبدو كسدٍّ منيعٍ أمام الطلقات النارية والسكاكين الحادَّة، وراح يفكر في مضمون التعاويذ التي يتلوها أعضاء التنظيم، حيث يذكرون كلمات أجساد من حديد، ولكنهم لم يقولوا أعياناً من حديد.

فسأل جَدِّي الزعيم أبا شامة: «هل تستطيع عينك أن تتصدى لطلقاتي النارية؟» فرد عليه أبو شامة السؤال بسؤال أصعب: «وهل تستطيع بطنك أن تتصدى لسكيني؟»

كان جَدِّي يعلم جيداً أن بطنه لن تقوى على التصدى لسكينة الحادِّ، كما يعلم أن عيني أبي شامة لن تقوى على صد طلقات مسدسه الماوزر.

فأخذ أعضاء التنظيم الموجودون في داخل الصالة الفسيحة السكاكين والسيوف والأسلحة وأحاطوا بجدي.

كان جَدِّي يعلم أن مسدسه يحتوي فقط على تسع طلقات نارية، وأنه بعد قيامه بقتل أبي شامة سينقض عليه أعضاء التنظيم كالكلاب ويقطعونه إرباً إرباً.
فقال جَدِّي مخاطباً أبا شامة: «يا أبا شامة، كما أرى بأَم عيني أنك تبدو رجلاً ذا شأن، فقد قرَّرتُ أن أمنحك فرصة للنجاة! فإذا سلمتني تلك العاهرة، فسأعتبرُ أن ما بيننا من نزاع قد انتهى تماماً!»

فرد أبو شامة قائلاً: «وهل هي تخصك؟ وهل ستقبلُ ذلك إذا طلبتُ منها هذا الأمر؟ وهل تزوجتَها زواجاً رسمياً؟ فإن من يُؤو أرملة أو كلباً ضالاً يَكُن هو صاحب الحق فيما يُؤوي! وعليك أن تعي هذه الحقيقة جيداً وتغرب عن وجهي، وإلا فلا تلمني على ما سيكون مني تجاهك!»

فرفع جَدِّي مسدسه، واستعد أعضاء التنظيم بأسلحتهم اللامعة، وما إن رأى جَدِّي هؤلاء الرجال وقد بدءوا في تلاوة التعاويذ، حتى راح يفكر في نفسه قائلاً: فلتكن رأس مقابل رأس!

وفي تلك الأثناء خرجت عليهم جدتي، وهي تبتم ابتسامة باردة، وهنا أنزل جَدِّي مسدسه إلى جانبه.

وتقدّمتُ جدتي، وهي تحتضن أبي ووقفت على درجة سلّم حجري، وقد لفتها أشعة الشمس حتى بدا جسدها يبرق أمامه. ورأى شعرها المرسل اللامع، ووجهها المتورّد، وعينيها الصافيتين البراقتين، وملامحها اللطيفة والمثيرة للكُرّه الشديد.

راح جَدِّي يعض على أسنانه ويسبها: «أيتها العاهرة!»
فردتُ عليه جدتي بسوء أدب واضح: «أيها الحمار! أيها الخنزير! أيها الوضيع! إنك فقط تصلح لمُضاجعة الخادِمات!»
فرفع جَدِّي مسدسه.

فقال جدي: «فلتطلق النار إذاً! فلتقتلني! ولتقتل ابني!»

وهنا سمع جَدِّي صوت أبي يناديه: «أبي بالتَّبني!»

فأنزل جَدِّي مسدسه للمرة الثانية.

ومضى يتذكر ظهر ذلك اليوم الذي جمعه وإياها داخل حقول الذُّرة الخضراء، وذلك البغل الأسود الذي غاص في الوحل خارج النافذة، وهذا الجسد الغض عندما يرتمي في أحضان أبي شامة.

فقال جدي: «يا أبا شامة، إذا فلتكن بيننا المواجهة رجلاً لرجل، مُجرّدين من أية أسلحة، ولتكن معركة حياة أو موت، وسأنتظرك عند حافة النهر خارج حدود القرية.» وأعاد جَدِّي مسدسه إلى الجراب المربوط حول خصره، وشق طريقه بين أعضاء التنظيم الذين وقفوا أمامه شاردين، ثم نظر إلى أبي دون أن ينظر إلى جدي، ومضى مسرعاً إلى خارج حدود القرية.

وما إن وصل جَدِّي إلى شاطئ نهر يان شوى، حتى خلع سترته القطنية وألقى بمسدسه الماوزر، وشد حزامه جيداً، ووقف ينتظر مجيء أبي شامة، كان يعلم أنه حتماً سيأتي للقائه.

بدأت مياه نهر يان شوى آنذاك صافية انعكست داخلها أشعة الشمس، وبدأت الأعشاب القصيرة داخلها منتصبه وواضحة. وجاء أبو شامة.

وجاءت أيضاً جدي، وهي تحمل أبي بين يديها، وقد بدأت نظراتها غريبة جداً.

وجاء أيضاً جميع أعضاء التنظيم الذي يتزعمه أبو شامة.

وسأل أبو شامة: «هل تُفضّل القتال المُهدَّب أم القتال العشوائي؟»

فسأله جدي: «وكيف يكون القتال المُهدَّب؟ وكيف يكون القتال العشوائي؟»

فأجاب أبو شامة: «القتال المُهدَّب هو أن تضربني ثلاث ضربات، ثم أضربك ثلاثاً،

أما القتال العشوائي، فهو أن نتقاتل بشكل عشوائي دون الالتزام بقواعد مُحدّدة!»

ففكر جَدِّي قليلاً، ثم أجابه قائلاً: «فليكن القتال المُهدَّب!»

فقال أبو شامة، وقد بدأ عليه أنه مستعد تماماً لهذا النوع من القتال: «هل سأبدأ

بمهاجمتك أم أنك الذي ستبدأ؟»

فقال جدي: «فلنحتكم إلى السماء، وليكن الاقتراع من خلال الأعشاب، وسيبدأ الذي

يختار العُشبة الأطول!»

فسأله أبو شامة: «ومن الذي سيحكم هذا الاقتراع؟»

فقامت جدي بوضع أبي على الأرض، ثم قالت: «أنا الذي سأتولى ذلك.»

فأخذت جدي بزوج من الأعشاب الجافة ووضعتُهما خلف ظهرها، ثم قدّمت يديها

إلى الأمام، وقالت: «فلتختار!»

ونظرت إلى جَدِّي نظرة خاطفة، فبدأ جَدِّي بالاختيار، ففتحت يدها لتظهر العُشبة

التي اختارها جدي.

وقالت جدتي: «لقد اخترت العشب الأطول، ولتبدأ أنت بضربه ثلاث ضربات!» فأحكم جدِّي قبضته جيدًا وضرب أبا شامة في بطنه، فصاح أبو شامة بصوت مرتفع.

وأفاق أبو شامة قليلاً، ونصب بطنه ثانيةً، وراح ينتظر الضربة الثانية، وهو يرمي جدِّي بنظرات قاتلة.

ثم نزل عليه جدِّي باللكمة الثانية في معدته.

فتراجع أبو شامة خطوة إلى الخلف.

أما اللكمة الثالثة والأخيرة، فقد استعدَّ لها جدِّي جيدًا، ونزل بكل ما أوتي من قوة على صدر أبي شامة.

فتراجع أبو شامة خطوتين إلى الخلف، وبدا وجهه شاحبًا، وأمسك بصدره وراح يسعل قليلاً، وبصق دمًا.

ثم راح أبو شامة يمسح فمه من بقايا الدم، وهو يهز رأسه أمام جدي، وجمع جدِّي أنفاسه جيدًا في انتظار ردِّ أبي شامة.

رفع أبو شامة قبضته الكبيرة في حجم حافر الحصان، ورفع يده حتى هم أن ينزل بها على جسد جدي، ثم استعادها مرة ثانية.

وقال أبو شامة: «سأعفيك من هذه اللكمة لأجل السماء!»

ثم لوح أبو شامة بيده الثانية مستعدًّا للكلمة الثانية، ثم قال: «وسأعفيك أيضًا من هذه اللكمة لأجل الأرض!»

أما اللكمة الثالثة التي نزل بها أبو شامة على جدي، فقد تقلَّب على إثرها في السماء مثل كتلة من الطين، ثم سقط على الأرض الصلبة.

نهض جدِّي بصعوبة، وراح يرفع سترته ومسده، وقد تصبب وجهه عرقًا. وقال: «وُلنلتِّ بعد عشر سنوات.»

وانتبه جدِّي إلى قطعة من لحاء الشجر تعوم فوق سطح مياه النهر، فأطلق عليها تسع رصاصات متتالية، حتى تحوَّلت إلى قطع صغيرة جدًّا، ثم أعاد المسدس إلى خصره، ومضى في طريقه مترنحًا إلى البرية المالحة. وانعكست أشعة الشمس على كتفه العاري وعلى ظهره المنحني، حتى بدأ جسده لامعًا مثل البرونز.

وراح أبو شامة ينظر إلى قطع لحاء الشجر التي ملأت سطح المياه، ثم بصق دمًا، وجلس على الأرض.

وحملتُ جدتي أبي وراحت تنادي على جدي، وهي تبكي قائلة: «يا جان أو.» ثم راحت تجري وراءه مُتَعَثِّرة الخُطَى.

٩

دَوَّتْ أصوات الرِّشَّاشات خلف حافة نهر موا شوى لمدة ثلاث دقائق، ثم شَهِدْتُ بعد فترة توقُّف قصيرة تَجَمُّع رجال فريق جياو قاو الذين كانوا يصيحون منذ قليل أن استغلوا فرصة الانتصار وواصلوا القتال، تَجَمَّع هؤلاء وسقطوا وسط الطريق ووسط حقول الذرة الجافة، أما أعضاء التنظيم التابعون لجدي الذين كانوا في مواجهة أفراد فريق جياو قاو، والذين استعدُّوا للاستسلام، فقد بدوا مثل أعواد الذرة المكسورة، كان من بينهم أعضاء قدامى انضموا إلى التنظيم منذ ما يزيد على عشرة أعوام متأثرين بخداع أبي شامة لهم، ومن بينهم أعضاء جُدد انضمُّوا إلى التنظيم منذ وقت قريب متأثرين في ذلك بِسُمْعَةِ جَدِّي وبطولاته، أما ما ظهر عليهم جميعًا من الصلعات وأكل حبوب الذرة دون طهيها، وذلك الإله الحديدي الذي يحميمهم، وحوافر البغال ومخالب القروذ وعظام الدجاج وغيرها من الأشياء الغريبة، فإن ذلك كله لم يستطع أن يحميمهم من الطلقات النارية الفتاكة التي أصابتهم من تلك الرشاشات التي حطمت فقراتهم وعظامهم تحطيمًا، واخترقت صدورهم وبطونهم، واختلطت أجساد أعضاء التنظيم بأجساد أفراد فريق جياو قاو الملطخة بالدماء، واختلطت دماء أفراد جياو قاو الحمراء بدماء أعضاء التنظيم الخضراء مكونةً برَّكًا من الدماء البنفسجية، خضبت الحقول والأرض التي افترشتها تلك الأجساد، حيث أصبحت تلك الأماكن بعد عدة سنوات من أخصب الأراضي في المنطقة؛ إذ كانت محاصيل الذرة الرفيعة التي تزرع في تلك الأماكن تنمو بشكل سريع، وذات سيقان براقية وتتمتع بصفات تميزها عن غيرها من الذرة في الأماكن الأخرى، وكأنها كانت تتمتع بقدرات خارقة على التخصيب والنمو.

وهكذا، وقعت معركة حامية بين فريق جياو قاو وأعضاء التنظيم الذي يتبع جدي، إلا أن هذين الخصمين العنيدين تحوَّلا في لَمَحِ البصر إلى رُفقاء حرب بينهما خطوط مناوشات، وقد كانوا إمَّا أن يحيوا معًا أو يموتوا معًا يجمعهم مصير واحد، وقد اجتمع القائد جيانغ قائد فريق جياو قاو المصاب في قدمه مع جَدِّي قائد التنظيم المصاب في ذراعه، وعندما كان جَدِّي يضع رأسه بالقرب من قدم القائد جيانغ الملقوفة بالشاش،

كان قد اكتشف أن قدمه ليست على ذلك النحو من الصغر، وشم جدِّي رائحة الدماء التي تنزف من جرحه تحت الشاش.

ثم دَوَّى صوت الرشاشات خلف حافة النهر من جديد، وكانت الطلقات النارية تأتي في اتجاه عرض الطريق وداخل حقول الذُّرَّة، وقد خَلَّفت وراءها كميات كبيرة من الأتربة التي ملأت المكان، وامتزج صوت القذائف المدوِّية التي تضرب الأرض مع صوت ضَرْبها للأجساد حتى بدأ الصوت مرعبًا، وقد ودَّ أعضاء فريق جياو قاو والجماعة الحديدية لو اختفوا تحت الأرض من شدة ذلك الصوت.

وتَغَيَّرت معالم الأرض المحيطة بموقع المعركة، وأصبحت الأرض مُنْبَسِطَةً، وقد خَلَّت من جميع الأشياء التي كانت تُغَطِّي سطحها، وبدت الطلقات النارية الكثيفة كما لو كانت مَجْرَفَةٌ تَجْرِف كل ما يعترض طريقها.

ثم حَيَّمْتُ على المكان فترة راحة، سمع جدِّي خلالها صوت القائد جيانغ يصيح قائلاً: «القذائف اليدوية!»

ثم ارتفع صوت دَوِي الرشاشات من جديد، وخدم الصوت بعد لحظات قليلة، وقام أعضاء فريق جياو قاو الماهرين في استخدام القذائف اليدوية بإلقاء ما يزيد على عشر قذائف خلف حافة النهر، سمعوا بعدها أصوات نحيب هؤلاء الأبطال المُخْتَفِين هناك، وتطايَّر إلى خَلْف حافة النهر ذراع شخص ملفوف بقطعة قماش رمادية، ورأى جدِّي أصابع ذلك الذراع القصير وكأنها تبعث إلى القائد جيانغ برسالة تقول: «إنه القائد لينغ ماتزه! إنه ذلك الكلب لينغ ماتزه.»

ثم قام أعضاء فريق جياو قاو بإلقاء دفعة ثانية من القذائف اليدوية، ملأ صوت انفجارها جميع أرجاء المكان، وتناثرت كميات كبيرة من الضَّبَاب خلف حافة النهر، وتقدَّم سبعة أو ثمانية من أعضاء الفريق بشجاعة إلى حافة النهر حاملين الرشاشات، وما إن تقدَّموا إلى الأمام، تَلَقَّوا سيلاً من الطلقات النارية أردنَّهم ما بين قتيل وجريح.

وصاح القائد جيانغ: «انسحبوا!»

وقام أعضاء فريق جياو قاو بإلقاء دفعة ثالثة من القذائف اليدوية، وما إن دَوَّى صوت الانفجار حتى راح بعض الأفراد يحاولون الفرار ناحية الشمال. قام اثنان من أعضاء الفريق بمساعدة القائد جيانغ ليلحق بأعضاء الفريق الذين بدءوا الانسحاب من مسرح المعركة، بينما كان جدِّي لا يزال منبسطًا على الأرض لا يتحرَّك، كان قد أحس بخطورة الفرار والانسحاب في تلك اللحظة، كان يرغب في الفرار، ولكنه كان على ثقة

بأن ذلك التوقيت ليس توقيتاً مناسباً للفرار من أرض المعركة. وانضم عدد من أعضاء الجماعة الحديدية لأعضاء فريق جياو قاو الذين فرّوا من أرض المعركة، بينما بقي عدد آخر إلى جانب جدّي وقد بدأوا مُتردّدين، فراح جدّي يخاطبهم بصوت خفيض: «اثبتوا في أماكنكم.»

وامتلاً المكان بالدخان الكثيف، وعلت أصوات مُعانة الجرحى خلف حافة النهر، وسمع جدّي صوتاً يعرفه جيداً يصيح متألماً: «اضربوهم بالرّشاشات، اضربوهم بالرّشاشات!» وما إن تيقن جدّي من صوت القائد لينغ ماتزه حتى علّت وجهه ابتسامة يائسة.

اصطحب جدّي أبي معه وانضمّاً للجماعة الحديدية، ووفقاً لقواعد الجماعة، فقد قاماً في مساء ذلك اليوم بخلق الشعر الذي يعلو جبهتهما علامةً على كونهما من أفراد الجماعة الحديدية، وعندما كانا يقومان بالسجود أمام ذلك العجوز الذي يركب فوق النمر، انتبه جدّي آنذاك إلى آثار إصابة طلق ناري في وجه ذلك العجوز، فراح جدّي يبتسم ابتسامة أخفاها عن الحضور. وقام أبي أيضاً بخلق شعر رأسه، وما إن رأى المقص الأسود في يد أبي شامة حتى شعر برعشةٍ شديدةٍ سرت في جسده، لا يزال يذكر ذلك الموقف الذي مر عليه أكثر من عشر سنوات كما لو كان ليلة البارحة. وبعد أن تم حلق شعر رأس أبي، قام السيد أبو شامة بفرك صلعة أبي بتلك الأشياء الغريبة من أقدام القروذ وحوافر البغال وعظام الدجاج، وبعد انتهاء مراسم الانضمام للجماعة الحديدية، شعر أبي بأن جسده قد أصبح في غاية الصلابة، وكان أعضاء جميعها قد أصبحت أعضاء حديدية.

ورحب أعضاء الجماعة الحديدية بجدي ترحيباً حاراً، وقد راحوا يُلحّون على أبي أن يُلقِي على مسامعهم بعضاً من بطولات جدّي خلال المعركة التي دارت عند نهر موا شوى. وبتشجيع من وو لوان تزه، استطاع أعضاء الجماعة الحديدية أن يتّحدوا معاً ويطالبوا السيد أبا شامة بالاعتراف بجدي نائباً لرئيس الجماعة الحديدية.

وبعد أن تم الاعتراف بجدي نائباً لرئيس الجماعة، راح وو لوان تزه يُحفّز أعضاء الجماعة على القتال والوقوف أمام الشياطين اليابانيين، وقال: «لقد أمضينا وقتاً طويلاً في تجهيز هذا الجيش الكبير، وما هو النفوذ الياباني يزداد، وقد تعرّضت البلاد والعباد للدمار الشديد على أيدي الغزاة اليابانيين، وإلى متى ينتظر أفراد هذه الجماعة الحديدية المُدرّبون على فنون القتال حتى يقفوا أمام الغزاة؟» وكان عدد كبير من أفراد الجماعة

الحديدية شاباً ذوي حماس شديد، كانوا يكرهون اليابانيين كرهاً شديداً، وما إن استمعوا إلى تشجيع وولان تزه حتى زادت رغبتهم في النزول لأرض المعركة ومواجهة اليابانيين وتقديم مهاراتهم الفائقة في فنون القتال. وقد وجد السيد أبو شامة نفسه مضطراً لموافقتهم على ما توصلوا إليه معاً. وراح جدّي يسأل وولان تزه خلصةً: «هل أنت واثق من قدرة مهاراتهم على التصدي للطلقات النارية التي يمتلكها اليابانيون؟» فضحك وولان تزه ضحكة ماكرة، ولم يُعْطِه أية إجابة على سؤاله.

كانت أول معركة تُشارك فيها قوات الجماعة الحديدية معركة متواضعة، كانوا قد اشتبكوا مع فريق قاو بينغ التابع لسرية جانغ جو شي الموالية للقوات اليابانية، فعندما همت قوات الجماعة الحديدية أن تُباغت مواقع مدافع سرية جانغ، صادف ذلك عودة فريق قاو بينغ الذي كان قد خرج لسرقة كميات من الحبوب الغذائية، وعندها التقى الفريقان عند ناصية الطريق في معركة متواضعة، وكانت قوات فريق قاو بينغ تتألف مما يزيد على ستين رجلاً، وكانوا يرتدون زياً عسكرياً مشمشي اللون، وقد ظهروا وهم مُسلّحون بالبنادق والذخيرة، وكانوا يسوقون عشرات البغال والحمير المُحمّلة بالحبوب الغذائية التي استولوا عليها، بينما ظهرت قوات الجماعة الحديدية في لباس أسود وهم يحملون الخناجر، فيما عدا ما يزيد على عشرة أفراد منهم كانوا يحملون المسدسات. وسأل أحد زعماء قوات قاو بينغ كان ممتلئ الجسم، وهو أعلى فرسه: «وإلى أي جماعة تنتمون؟»

فمد جدّي يده إلى خصره حيث موضع مسدسه، وما إن استلّ مسدسه حتى راح يصيح بصوت مرتفع: «إننا من تلك الجماعة المكلفة بقتل الخونة!» وهنا سقط الزعيم السمين من على فرسه، وقد غرق في دمائه.

وراح أعضاء الجماعة الحديدية يصيحون في صوتٍ واحدٍ: «آه ما لا آه ما لا»، ثم انقضوا يتقدمون إلى الأمام بجرأة كبيرة، بينما راحت البغال والحمير المُحمّلة بالحبوب تتصارع محاولة الفرار من أمامهم، وتبعها في ذلك هؤلاء الخونة الذين بدؤوا يحاولون الهرب والنجاة بأنفسهم، وعندها تعرّضوا لخناجر أفراد الجماعة الحديدية الذين تمكنوا من السيطرة عليهم تماماً.

وعندما فرّ الخونة إلى مسافة قريبة من أفراد الجماعة الحديدية، بدؤوا يدركون أنهم قد وقعوا في قبضة أفراد الجماعة الحديدية فتجمّعوا معاً وأشهروا أسلحتهم، وهنا انقضّ أفراد الجماعة الحديدية عليهم وهم يرمونهم بسيل من اللعنات.

وصاح جَدِّي بصوت مرتفع: «تَفَرَّقُوا، اْحْنُوا ظهوركم.»
 وقد طَغَتْ أصوات لعنات أفراد العصابة الحديدية على صوت صياح جدي ومناداته
 عليهم، وتَجَمَّعوا معًا وَمَضُوا يَتَقَدَّمُونَ إلى الأمام لملاقاة الخونة.
 أطلق الخونة عددًا من الطلقات النارية سقط على إثرها عدد من أفراد الجماعة
 الحديدية، وامتلأت الأرض بدمائهم، وارتفعت أصوات صُراخ وتَأوُّه المصابين منهم.
 وهنا شعر أفراد الجماعة الحديدية بذهول شديد من هول ما أصابهم، فأطلق الخونة
 عددًا من الطلقات النارية، حتى تمكنوا من إصابة عدد أكبر من أفراد الجماعة الحديدية.
 راح جَدِّي يصيح بأعلى صوته: «تَفَرَّقُوا، انبِطْحُوا أَرْضًا»
 فتقدم الخونة إلى الأمام وهم لا يتوقفون عن إطلاق النيران، فانحنى جَدِّي ومد يده
 إلى مسدسه ودس بداخله عددًا من الطلقات النارية، ورفع أبو شامة نصف جسده وراح
 يصيح في رجاله غاضبًا: «انهضوا، ارفعوا أصواتكم بنشيد الجماعة، ولتقفوا معًا يا من
 تملكون الرؤوس الحديدية والأذرع الحديدية والقلوب الحديدية أمام الطلقات النارية
 التي لا يمكنها أن تصيب السيد الذي يركب فوق ظهر النمر.»
 وهنا طارت رصاصة من أعلى رأس السيد أبي شامة زعيم العصابة الحديدية، فألقى
 بنفسه أرضًا مثل الكلب الجبان، وبدا وجهه شاحبًا.
 ضحك جَدِّي ضحكة فاترة، وانحنى قليلًا ومدَّ يده واستل مسدس السيد أبي شامة،
 ثم نادى على أبي قائلاً: «يا دوو قوان!»
 فقفز أبي على الفور أمامه وأجابه: «نعم يا والدي، إنني هنا!»
 فقدم جَدِّي مسدس الزعيم أبي شامة إلى أبي، ثم قال: «اجمع نفسك جيدًا والتزم
 الصَّمْتَ وعدم الحركة، ولا تطلق النيران حتى يقتربوا منا.»
 ثم صاح جَدِّي بصوت مرتفع: «فَلْيَسْتَعِدَّ كل من يحمل السلاح، ولتَبْدُءُوا في إطلاق
 النيران فور اقترابهم منا!»
 وهنا تقدَّمت قوات الخونة إلى الأمام بجرأة واضحة.
 وَمَضُوا يَتَقَدَّمُونَ من تجاه جَدِّي حتى أصبحوا على بعد خمسين مترًا، ثم أربعين مترًا،
 ثم عشرين مترًا، ثم عشرة أمتار، ومضوا يتقدمون حتى استطاع أبي أن يرى بوضوح
 أسنانهم الصفراء.
 قفز جَدِّي قفزة إلى الأمام، وراح يلوح بيده اليمنى نحو اليمين ويده اليسرى نحو
 اليسار، حتى تَمَكَّن من إصابة سبعة أو ثمانية من جيش الخونة، تمكن أبي والشاب وو

لوان تزه من إصابة أهدافهما بنجاح كبير، وهنا انسحب أفراد جيش الخونة ولانوا بالفرار من أمام جدي ورفاقه، لاحقهم جدِّي ورفاقه وأمطروهم بوابل من الطلقات النارية، حيث إنهم لم يكتفوا بمسدساتهم التي كانوا يحملونها معهم، فراحوا يجمعون البنادق التي سقطت من أفراد جيش الخونة.

وهكذا، عَصَدَت تلك المعركة المتواضعة من مكانة جدِّي وزعامته بين أفراد الجماعة الحديدية، كما أَنَّ مقتل العشرات من أفراد الجماعة قد أدَّى إلى كشف النقاب عن عدم جدوى تلك المعتقدات السَّخِيفَة التي يُنادي بها الزعيم أبو شامة. ومنذ ذلك الحين بدأ أفراد الجماعة يمتنعون عن الالتزام بالقيام بالطقوس اليومية التي كان أبو شامة يُجبرهم على الالتزام بها، وبدءوا يعلنون حاجتهم إلى السلاح، نعم السلاح ليس غيره، وأن تلك القوى الخارقة، والسحر الذي كان ينادي به أبو شامة، لا يمكنهما أن يَقفَا في وجه مجموعة صغيرة من الأسلحة.

استخدم جدِّي وأبي حيلة ارتداء الملابس العسكرية المُزيَّفَة واندسَّا وسط فريق جياو قاو، واستطاعا في وضح النهار أن يخطفا القائد جيانغ قائد فريق جياو قاو، ثم استخدم طريقة الانتقال الخادع إلى معسكر فريق القائد لينغ ماتزه، حتى تَمَكَّنَا من اختطاف القائد لينغ ماتزه نفسه مطالبين فريقه بقدية.

وهكذا، استطاعا أن يحصلَّا على كمية كبيرة جدًّا من الأسلحة والذخيرة والخيول مقابل هاتين الرهينتين، كما ساعدت هذه الحيلة على توطيد مكانة جدِّي وسط أفراد الجماعة الحديدية، حتى أصبح الزعيم أبو شامة زعيماً لا فائدة منه في هذه الجماعة، الأمر الذي جعل الشاب وو لوان تزه يفكر أكثر من مرة في التخلُّص منه، ولكن جدِّي كان يمنعه من تحقيق رغبته.

وبعد حادثة الاختطاف، ازداد نفوذ الجماعة الحديدية في محيط قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، بينما توارى فريق جياو قاو وفريق لينغ ماتزه عن الأنظار، وكان الساحة قد أُفْرِغَت تماماً أمام الجماعة الحديدية، والسلام قد عمَّ جميع أرجاء المنطقة، وهنا بدأت تلح على جدِّي فكرة إقامة جنازة كبيرة لتأبين جدتي، ثم بدأ بعد ذلك يمضي في طريقه إلى جمع الأموال والقتل والسلب والنهب، حتى التصقت هذه الأعمال بسمعة عائلة يو التي يُمثِّلها جدي، الأمر الذي زاد الطين بلة، كما أَنَّ جدِّي كان قد نسي تماماً تلك المقولة البسيطة التي تقول بأنه ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، وهكذا كانت تلك الجنازة المهيبَة التي أقامها لتأبين جدتي من أكبر الأخطاء التي ارتكبها في تلك الفترة من حياته.

دوّت أصوات الرشاشات من جديد خلف حافة النهر، واستوضح جدّي أن هذا الصوت مصدره زوج من الرشاشات الآلية، وأن بقية الرشاشات الأخرى قد تعرّضت للتدمير الكامل بفعل القذائف اليدوية التي ألقت بها قوات فريق جياو قاو، وتمكّنت الطلقات النارية التي خرجت من هذين الرشاشين من تطويق أفراد فريق جياو قاو الذين فروا على بعد ما يزيد على مائة متر من حافة النهر، كما طوّقت أيضاً أفراد الجماعة الحديدية الذين اندسّوا وسط أفراد فريق جياو قاو، ومضى جدّي يفكر في أن القائد الماكر لينغ ماتزه لن يتقدّم لرد هجماته بهذه البساطة، وأنه قرر أن يطلق فقط زوجاً من الرشاشات لإحداث بعض الفوضى أمام العدو.

ورأى جدّي جسداً نحيفاً ملطخاً بالدماء بين أفراد فريق جياو قاو الذين كان يزيد عددهم عن عشرة أفراد، رآه يزحف ببطء شديد محاولاً الصعود إلى حافة النهر، كان الرجل يزحف ببطء ملحوظ أبداً كثيراً من حركة دودة القز ودودة الأرض والحلزون، ورأى جسده ينزف مع كل حركة كميات كبيرة من الدماء، وكأنه قد تم تقطيعه إلى قطع منفصلة عن بعضها البعض، وهنا عرف جدّي على الفور أن هذا الشخص المائل أمامه هو أحد الأبطال الشجعان وأحد الرجال الذين يمثلون شجاعة وشهامة قرية دونغ بيبي. وما إن تمكّن ذلك الرجل من أفراد فريق جياو قاو من الصعود إلى منتصف حافة النهر حتى توقف عن مواصلة الزحف إلى أعلى، ومضى جدي يتابعه وهو يميل بجسده بصعوبة ملحوظة، ثم مدّ يده إلى خصره وأخرج قذيفة يدوية ملطخة بالدماء وكأنه قد أخرج من بطنه جنيناً صغيراً، قرّب القذيفة إلى فمه ليفتح فوهتها، ثم شد فتيلها بأسنانه، ألقى بنفسه على الأعشاب الخضراء على حافة النهر، وانتشر دخان القذيفة على حافة النهر، ثم إلى خارج حدود حافة النهر.

وهنا ندم جدّي ندماً شديداً، فكان يجب عليه ألا يبدي ما أبداه من رقة القلب والتعاطف الشديد، ففي اليوم الذي تمكّن فيه جدّي من اختطاف لينغ ماتزه رهينة، طلب منه فقط مائة بندقية وخمسة رشاشات وخمسين رأساً من الخيول. كان عليه منذ بداية الأمر أن يطلب الرشاشات الثمانية التي يمتلكها القائد لينغ ماتزه، ولكنه كان قد نسي أمر هذه الرشاشات، أو لنقل إنه كان يشعر آنذاك أن هذه الرشاشات ليست ذات قيمة كبيرة، حيث إن الفترة الطويلة التي قضاها كقاطع طريق جعلته يعترف فقط بقيمة المسدسات وينكر قيمة البنادق والرشاشات، وأنه لو كان قد أدرج الرشاشات الثمانية في طلبه لإطلاق سراح لينغ ماتزه، لما كان قد تعرض لهذا المأزق الشديد الذي أوقعه فيه لينغ ماتزه.

وعندما سقط ذلك الرجل الجريح من أفراد فريق جياو قاو على الأعشاب الخضراء على حافة النهر، كان قد ألقى بالقذيفة التي كانت في يده، فحدث صوت انفجار على حافة النهر، وتطايرت الرشاشات إلى أعلى ثم سقطت ثانيةً. وسقط ذلك الرجل الذي ألقى بالقذيفة مغشياً عليه، رأى جَدِّي الدماء تسيل من جسده بصورة مستمرة، حتى شعر تجاهه بالشفقة.

وهكذا، فرغت جميع الرشاشات التي يمتلكها القائد لينغ ماتزه. فراح جَدِّي ينادي على أبي بصوت مرتفع: «يا دوو قوان!»

كان أبي لا يزال محاصرًا بجثتين ثقيلتين، كانتا تُطبِقان عليه بشدة حتى كاد يدرك أنه قد أشرف على الموت، بدأ جسده ملطخًا بالدماء، ولم يكِد يَعْرِف هل هذه الدماء الكثيفة مصدرها هاتان الجثتان أو أنها تسيل من جسده هو، وهنا سمع أبي صوت جَدِّي ينادي عليه، فرفع رأسه من أسفل الجثتين وراح يرفع ذراعه ليمسح الدماء التي ملأت وجهه، ثم قال وهو يتنهد: «نعم يا أبي، إنني هنا.»

خرج أفراد فريق لينغ ماتزه من خلف حافة النهر حاملين السلاح، وكأنهم مثل نباتات عيش الغراب التي أصبح أكثر حيوية عقب نزول الأمطار، ومضوا يتقدمون إلى الأمام حاملين السلاح، وقد قابلهم أفراد فريق جياو قاو بإطلاق النيران على بُعد مائة متر، أبلوا بلاءً حسنًا في إطلاق النيران بواسطة الرشاشات التي حصلوا عليها من فريق الخيول الذي يقوده وو لوان تزه، وهنا بدأ رجال لينغ ماتزه ينسحبون من أمامهم مثل السلاحف.

وتقدم جَدِّي وراح يزيح الجثتين ليفسح الطريق أمام أبي ليخرج من أسفلهما.

وسأل جدي: «هل جُرِحْتَ يا صغيري؟»

فراح أبي يحرك يديه وقدميه قليلاً ثم أجاب: «لا يا أبي، وهذا الجرح الذي يظهر في ذراعي هو جرح قد أصابني منذ قليل من قِبَل أفراد قوات جيش با لو.»

فقال جدي: «أيها الرفاق، فلتنجوا بحياتكم!»

نهض ما يزيد على عشرين رجلاً من أفراد الجماعة الحديدية، ظهرت عليهم آثار دماء، نهضوا ممسكين بأسلحتهم وساروا جهة الشمال، ولم يبق أفراد فريق جياو قاو بإطلاق النيران عليهم، في حين أطلق أفراد فريق القائد لينغ ماتزه بعض الطلقات النارية، ولكن جميع الطلقات أطلقت في الهواء ولم تُصَوِّب تجاه هؤلاء الأفراد المنسحبين.

ثم جاءت طلقة من الخلف، فشعر جَدِّي أن رقبته قد تعرضت لصفعة قوية من الخلف، وشعر بسخونة شديدة في تلك المنطقة من جسده، فمد جَدِّي يده يتحسس تلك

السخونة، فإذا بيده تمتلئ بالدماء الطازجة، ثم نظر جدي نظرة إلى الخلف، فإذا به يرى الزعيم أبا شامة يقبع في مكانه مثل الضفدع، وقد ظهرت على وجهه دمعتان ذهبيتان، فابتسم إليه جدي ابتسامة خفيفة ثم هزَّ إليه رأسه، ثم سحب جَدِّي أبي وغادراً المكان بخطوات بطيئة.

دوى صوت طلقة نارية خلف ظهريهما.

فتنهذ جَدِّي تنهيدة طويلة، وراح أبي ينظر إلى الخلف، فإذا به يرى فتحة سوداء صغيرة تظهر على جبين أبي شامة، وقد سال على وجهه خيط سائل أبيض اللون. وفي أصيل ذلك اليوم، تمكنت قوات القائد لينغ ماتره من مُحاصرة أفراد فريق جياو قاو وأفراد الجماعة الحديدية اللذين يتزعمهم جدي داخل المكان المُعد لإقامة جنازة جدتي، وراح الفريقان اللذان أطلقاً جميع الذخيرة التي كانت بحوزتهما، راحا يحقدان النظر إلى فريق تشي جونج التابع لفريق لينغ ماتره، والذي كان يقترب منهما شيئاً فشيئاً. وعند غروب الشمس، لفَّ المكان حزن شديد، وامتلأت الأرض بعدد كبير من أبناء وبنات قرية دونغ بيبي بمدينة قاو مي، الذين تربوا على حبوب الذرة الرفيعة الحمراء، وقد سالت دماؤهم في جدول مضى يسير ليصب في مجرى النهر الكبير. جذبت رائحة تلك الدماء الطازجة جماعات الغربان، التي نسيت العودة إلى أعشاشها وبدأت تُحلّق فوق تلك الدماء، وحلّق معظم تلك الغربان أعلى جثث الخيول التي ملأت المكان، وبدت جماعات الغربان وكأنها مجموعة من الأطفال الذين يتلهفون على أكل طعام لذيذ جذّاب.

برز تابوت جدتي من تحت المظلة الكبيرة التي كانت تحجبه عن الأعين، وقد ظهرت بعض الفتحات الصغيرة في جسم التابوت، وكانت عبارة عن آثار لطلقات نارية أصابت التابوت، كان ذلك التابوت قبل ساعات قليلة عبارة عن حاجز مهم خلال المعركة التي دارت بين جيش با لو والجماعة الحديدية من جهة وفريق لينغ ماتره من جهة أخرى. امتلأت خيام الحِداد الممتدة على جانبي الطريق بلحوم الدجاج والبط والأغنام والخنازير. وخلال المعركة، كانت قوات جيش با لو تُواصل القتال، وهي تتغذى بتلك اللحوم المُعدة لهذه الجنازة المهيبة.

وتقدّم عدد من فريق جياو قاو إلى الأمام حاملين الخناجر، فتعرّضوا لوابل من الطلقات النارية من قبل قوات لينغ ماتره حتى سارَعوا بالانبطاح أرضاً.

ورفع القائد لينغ ماتره سلاحه وراح يصيح بصوت مرتفع: «ارفعوا أيديكم وأغلنوا

استسلامكم!»

فراح كل من جَدِّي والقائد جيانغ قائد فريق جياو قاو ينظران إلى بعضهما البعض، ولم ينبس أحدهما ببنت شفة، ولكنهما رفعاً أيديهما لأعلى في توقيت واحد. تبعهما في ذلك هؤلاء الأفراد المتبقون من فريق جياو قاو والجماعة الحديدية. وتقدّم إليهم القائد لينغ ماتزه الذي كان يرتدي قفازاً أبيض اللون، أحاط به بعض من رجاله لحراسته، وراح الرجل يضحك بصوت مسموع وهو يقول: «أيها القائد يو، أيها القائد جيانغ، لقد التقينا من جديد، فما الذي يدور ببالكما الآن أيها البطلان؟» فقال جَدِّي بلهجة حزينة: «إنه الندم!»

وقال القائد جيانغ: «أما أنا فأريد أن أقدم تقريراً للقيادة في يان آن حول جريمة قيام الحزب الوطني بتدمير الوحدة القومية لحرب المقاومة ضد اليابان!» قام القائد لينغ ماتزه بضرب القائد جيانغ بالسوط، ثم راح يسبه قائلاً: «اللعنة عليك أيها القائد من جيش با لو، إن كلامك أشد صلابةً من عظامك!» ولوح القائد لينغ بيده إلى رجاله أن «خذوه للحبس داخل القرية!»

كانت قوات فريق لينغ ماتزه قد قضت تلك الليلة داخل قريتنا، قاموا بحبس أفراد فريق جياو قاو وأفراد الجماعة الحديدية داخل إحدى الخيام، وقام اثنا عشر رجلاً من فريق لينغ ماتزه الذين يحملون الرشاشات الملونة بمحاصرة الخيمة، ولأجل الحفاظ على أرواح جميع من كانوا بداخل الخيمة، لم يقم أي منهم بأي حركة تثير غضب هؤلاء الحُرَّاس المُسلَّحين بالرشاشات، هذا ولم تتوقف طوال تلك الليلة تأوّهات الجرحى وأصوات بكاء الشباب الذين اشتاقوا إلى أمهاتهم وزوجاتهم ومحوباتهم. وقد ارتمى أبي في حضن والده مثل العصفور الجريح المسكين، وراح يستمع إلى دقات قلب جَدِّي التي بدت سريعة حيناً وبطيئة حيناً، وكأنه كان يستمع إلى صوت موسيقى رنان. وأخيراً استطاع أبي أن يستسلم للنوم تحت تأثير الرياح الجنوبية الحانية. ورأى في منامه سيدة تشبه جدتي وتشبه في الوقت ذاته الفتاة تشينغ إر، راحت تلك السيدة تداعب بلطف جرحه حول عضوه التناسلي، وسرّت في جسده رعشة شديدة ... فأفاق أبي من نومه فجأة، وبدأ كمن فقد شيئاً غالياً، وسمع صوت ولولة أحياء وأموات يملأ الخلاء الفسيح. وهنا راح يتذكر ذلك المشهد الذي رآه في منامه، وشعر بدهشة وخوف شديد، ولم يجرؤ أن يخبر جَدِّي بما يحدث معه، فجلس في هدوء شديد، وراح ينظر إلى درب التبانة من خلال فتحة الخيمة. ثم تذكر فجأة أنه سوف يبلغ عمّاً قريب السادسة عشرة من عمره!

وبعد طلوع الصبح، قام رجال فريق لينغ ماتزه بهدم الخيام التي نصبوها ليلة البارحة، وحصلوا على عدد من الحبال الطويلة، وقاموا بربط الأسرى في مجموعات، تكونت

كل مجموعة من خمسة أفراد في حبل واحد، وقادوا أسراهم إلى شجرة الصفصاف جانب الخليج التي كان أفراد الجماعة الحديدية يربطون خيولهم عندها ليلة البارحة، وقد ربطوا القائد جيانغ وجدي وأبي معاً، وجعلوهم في الجزء الأمامي من الشجرة، كان أبي في المقدمة وجدي في الوسط ثم القائد جيانغ في آخر الصف. وكانت قدماً أبي تغوصان في كميات كبيرة من نفايات الخيول، وتحول جسد ذلك الطبيب وبغله إلى هيكل يخلو من أي قطعة لحم، وكان قبر يو دا يا يظهر هناك أسفل تلك الشجرة الوحيدة الموجودة في ذلك المكان، وكانت نباتات النيلوفر لا تزال موجودة في مكانها، وقد بدت أوراقها واضحة فوق صفحة المياه، وكانت جماعات الضفادع تشق طريقها وسط الطحالب الكثيفة الصفراء التي تملأ الخليج، وما إن عبروا السور الترابي المحيط بالقرية، حتى رأى أبي أن الحقول لا تزال بها بعض الآثار الواضحة لما حدث بالأمس، سقطت أعلام ورايات الجنازة على الطريق، وبدت وكأنها حية ضخمة تم ضربها ضرباً شديداً حتى سقطت جثة هامدة. وراح ما يزيد على عشرة أفراد من قوات فريق لينغ ماتزه يشقون جثث الخيول بالمعاول والخناجر، وانتشرت على الفور رائحة الدماء في أرجاء المكان.

سمع أبي صوت تنهيدة عميقة صدرت عن القائد جيانغ، فالتفت إلى الورا، وفعل جدِّي مثله، ورأى أبي جدِّي والقائد جيانغ ينظران نظرات فاحصة في جميع الاتجاهات، وقد علا وجههما الحزن والتعب الشديد، تدهورت حالة ذراع جدِّي المصاب، وفاحت منه رائحة عفنة، جذبت جماعات كثيرة من الذباب الذي كان يتكدس حول عظام الطبيب وبغله، كما سقطت تلك اللفافة التي كانت تغطي قدم القائد جيانغ صاحب القدم الصغيرة، وكان ذلك الجرح الذي أحدثه به جدِّي لا يزال تسيل منه بعض الدماء السوداء. وانتبه أبي إلى جدِّي والقائد جيانغ وهما ينظران إلى بعضهما البعض، وكأنهما يريدان أن يتحدثاً إلى بعضهما البعض، ولكن لم يحدث ذلك بينهما. فتنهَّد أبي ثم التفت إلى الورا، وراح ينظر إلى تلك السهول الفسيحة ذات التربة الطينية، وسمع صوت بكاء تلك الأرواح المظلومة التي لفظت أنفاسها على تلك السهول، واستطاع أبي أن يستمع ويرى بعض رجال فريق القائد لينغ، وهم ينقلون ويحملون ويرفعون بعض قطع لحوم الخيول المليئة بالدماء إلى حافة الخليج، وقد حلقت فوقهم جماعات من الغربان التي استقرت أعلى شجرة الصفصاف.

بلغ عدد أفراد فريق جياو قاو والجماعة الحديدية الذين تم ربطهم إلى شجرة الصفصاف ما يزيد على ثمانين رجلاً. من بينهم ما يزيد على عشرين رجلاً من أفراد

الجماعة الحديدية الذين اختلطوا بأفراد فريق جياو قاو، ورأى أبي رجلاً من أفراد الجماعة الحديدية فوق الأربعين، كان يبكي بصوت مسموع، حيث بدأ أن عظامه قد أصيبت بفعل تلك القذائف اليدوية، وقد راح أحد أفراد فريق جياو قاو الذي كان يقف إلى جواره يضرب على كتفه ويواسيه قائلاً: «يا زوج أختي الكبرى! فلتكف عن البكاء، وحتماً سيأتي اليوم الذي سننتقم فيه من العميل الخائن جانغ جو شي!»، فأدار ذلك الرجل من أفراد الجماعة الحديدية رأسه تجاه كتفه، وراح يمسح وجهه المتسخ بملابسه المتسخة، ثم قال بصوت متشنج: «إنني لا أبكي على أختك الكبرى! فإنها على أية حال قد ماتت ولا فائدة من البكاء عليها، إنني أبكي على حالنا نحن، لقد كنا في الأصل قرويين لا نفارق أرضنا وديارنا، ولم نكن ننظر إلى أبعد من ذلك أبداً، فما الذي جاء بنا إلى هذا المكان؟ إنني أبكي على ابن أختك، أبكي على ابني دا بين تزه، الذي انضم معي للجماعة الحديدية وعمره لا يزيد على الثامنة عشرة، والذي كان في بداية الأمر يسعى إلى الانتقام لأختك الكبرى، وما هو لم يتمكّن من ذلك، بل سقط على أيديكم، نعم لقد قتلتموه بأسلحتكم، وكان قد أعلن استسلامه لكم، وقد رأيته بأمر عيني يعلن استسلامه، ولكنكم قتلتموه! أه منكم أيها الكلاب أصحاب القلوب القاسية! أليس لديكم أبناء مثله؟»

جفت دموع ذلك الرجل من أعضاء الجماعة الحديدية القدامى بفعل الغضب الشديد الذي عبّر عنه للتو، ثم رفع رأسه وراح يطلق سيلاً من الشتائم على ذلك الرجل من فريق جياو قاو، والذي كان مربوطاً مثله بحبل من الخيش، راح يسبه قائلاً: «أيها الحيوانات! فلتذهبوا لقتال اليابانيين إذا كانت لديكم الجرأة على القتال! فلتذهبوا لقتال هؤلاء الغزاة ذوي البشرة الصفراء! وما الفائدة من قتالنا نحن أعضاء الجماعة الحديدية؟ أه منكم أيها الخونة! أه من هؤلاء الخونة أمثال جانغ بانغ تشانغ، وتشين قوي وغيرهما من الخونة!»

«يا زوج أختي الكبرى، يا زوج أختي الكبرى، أرجوك ألا تغضب.» هكذا راح أخو زوجته الذي يعمل جندياً في فريق جياو قاو ينصحه بهذه الكلمات.

«من ذا زوج أختك الكبرى؟ وهل نسيت أن لك زوج أخت عندما قُمتَ بإلقاء القذائف اليدوية على ابن أختك؟ إنكم أعضاء جيش با لو الشيوعيون أصحاب قلوب متحجرة؟ أليس لديكم زوجة وأولاد؟» بدأت الدماء تسيل من جرح ذلك الرجل من أعضاء الجماعة الحديدية حينما اشتد غضبه.

«أيها العجوز، لا تنظر إلى الأمر من ناحية واحدة فقط! فإنكم أعضاء الجماعة الحديدية لو لم تكونوا قد قمتم باختطاف قائدنا القائد جيانغ، والاستيلاء على مائة بندقية من أسلحتنا، فإننا لم نكن لنقاتلكم أبداً، إن السبب الرئيسي في قتالنا إياكم هو

استعادة تلك الأسلحة التي نستخدمها في مقاومة اليابانيين، ولُنزود من تسلحنا أمام اليابانيين ونمضي إلى حرب كبرى مع هؤلاء المعتدين، ولنكون رواداً على طريق المقاومة ضد المعتدي الياباني!» هكذا راح أحد قادة فريق جياو قاو يردُّ على اتهامات ذلك الرجل من أعضاء الجماعة الحديدية.

وراح أبي يرد على ذلك القائد بلهجة غاضبة قائلاً: «إنكم أنتم الذين بدأتُم بسرقة الأسلحة التي كُنَّا نخفيها داخل البئر، وأنتم الذين سرقتم جلود الكلاب التي كنا نعلقها أعلى السور، وقد قمنا باختطاف قائدكم رداً على ما قمتم به!»

ثم بصق أبي بصقة قوية تجاه ذلك القائد من فريق جياو قاو، ولكن بصقته لم تصل إلى ذلك القائد واصطدمت بجبهة أحد أعضاء الجماعة الحديدية.

فأشاح ذلك الرجل الذي تلقى البصقة بوجهه بعيداً، وشعر بحزن شديد مما أصابه، وراح يمسح ما أصابه بجذع الشجرة. ثم استدار بجسده غاضباً — غضب غضباً شديداً لم يكن ليغضبه حتى لو تم إطلاق النار عليه — وراح يسب أبي قائلاً: «اللعنة كل اللعنة عليك يا دوو قوان!»

وضحك الأسرى الذين كانوا مربوطين بحبال من الكتان، والذين لم يكونوا على علم بما ينتظرهم من حظ سيئ.

ابتسم جدِّي ابتسامة صفراء، ثم قال: «فيم تختلفون؟ إنكم جميعاً أسرى جيش مهزوم منكسر.»

وقبل أن ينتهي جدِّي من كلامه إلى أبي ومن معه من الأسرى، أحس أن ذراعه المصابة قد حُشِرَت في الحبل، فاستدار بجسده حتى أرخى الحبل عن ذراعه قليلاً، وعندها رأى القائد جيانغ حزيناً، وقد تورّمت قدمه المصابة ورماً شديداً حتى أصبحت في حجم ثمرة الشمام الشتوي، وسال منها سائل مثل الدم.

وهنا اندفع نحوه عدد من رجال فريق جياو قاو، ولكن اعترضتهم الحبال التي كانوا مربوطين بها، واكتفوا فقط بالنظر إلى قائدهم الذي كان مُلقى أمامهم ما بين اليقظة والنوم.

وتحرّرت الشمس من الضباب الكثيف الذي كان يحجبها عن سطح الكرة الأرضية، وعمَّ ضوءها جميع الأرجاء، وامتلأت الأرض بدفتها وحنوها، كان طباخ فريق لينغ ماتزه مشغولاً باستخدام القدور التي استخدمها أمس أفراد الجماعة الحديدية لإعداد الأرز المطبوخ، وقد بدأ الأرز يغلي في القدور، واختلطت رائحة الأرز المطبوخ الذكية برائحة

الدماء ورائحة الجثث المتعفنة التي كانت تملأ المكان، وتقدّم أربعة رجال من أفراد فريق لينغ ماتزه، وقد حَمَلُوا معاً درفتي باب علقوا أعلاههما قطعة كبيرة من لحم حصان مذبوح وقَدَم الحصان كاملة، حتى وصلوا إلى حافة الخليج. وما إن وصلوا إلى الخليج حتى راحوا ينظرون بشفقة على هؤلاء الأسرى المربوطين إلى أشجار الصفصاف، وقد كان من بين هؤلاء الأسرى من هو مشغول بالنظر إلى القائد جيانغ الذي يرقد مغشياً عليه، ومنهم من ينشغل بالنظر إلى الحراس الذين يحملون السلاح ويقفون أعلى السور الترابي الواقع إلى شمال القرية، وقد بدت حراب أسلحتهم تبرق، ومنهم من كان منشغلاً بالنظر إلى الضَّبَاب الكثيف الذي كان يملأ سماء نهر موا شوى، بينما انشغل أبي بالنظر إلى هؤلاء الرجال الأربعة من فريق لينغ ماتزه الذين جاءوا إلى حافة الخليج يحملون لَحْم الحصان. وما إن وصل الرُّكْب إلى حافة الخليج حتى قاموا بوضع درفتي الباب إلى جانب مياه الخليج، فانقلبت الدرفتان وسالت منهما بعض الدماء، وجرت الدماء إلى داخل الخليج، ومنها إلى أعلى الطحالب الصفراء التي تملأ الخليج، وقد انقلب عدد من تلك الطحالب ليظهر على السطح لونها الرمادي المخضر، وانعكس الضوء الوردى الذي تعكسه تلك الطحالب الصفراء على وجوه هؤلاء الأفراد من فريق لينغ ماتزه.

ما أكثر الطحالب التي تملأ مياه هذا الخليج! هكذا علق أحد الرجال الأربعة، بدأ شخصاً نحيفاً جداً مثل طائر أبي قردان، وبدت أوراق تلك الطحالب تملأ صفحة الخليج، وكأنها عدد كبير من جلود الخيول.

– وما أقذر مياه هذا الخليج!

– إن الجميع يقولون إن من يشرب من مياهه سيُصاب بالبرص.

– وكيف يكون ذلك؟

– قبل عدة سنوات، كان قد نزل في هذا الخليج رجلان مصابان بالبرص، حتى إن

العدوى أصابت الأسماك الصغيرة التي كانت تملأ مياه الخليج.

وغاصت قَدَمًا ذلك الرجل النحيف داخل وحل الخليج، وراح يحاول بسرعة أن يتخلص من الورطة التي وقع فيها، وراح يحرك قدميه بشدة حتى امتلأ حذاؤه الياباني بالوحل.

ومضى أبي يتدكّر مشهد قيام أفراد فريق لينغ ماتزه بالاستيلاء على أحذية الجنود اليابانيين الذين كانوا قد سقطوا خلال المعركة التي دارت على الجسر الكبير أعلى نهر موى شوى، كانوا قد قاموا بخلع تلك الأحذية الجلدية الطويلة من أقدام القتلى اليابانيين، وألقوا بأحذيتهم المصنوعة من القماش وارتدوا الأحذية اليابانية الجلدية الطويلة. ولا

يزال أبي يذكر صورة هؤلاء الرجال من فريق لينغ ماتزه الذين قاموا بارتداء الأحذية اليابانية، وقد بدوا مثل البغال والخيول التي تم تعليق أجراس حديدية جديدة برقبتها، وراحوا يسرون بصعوبة واضحة، وبدًا عليهم الخوف والرعب من السقوط في أي لحظة. قام أفراد فريق لينغ ماتزه باستخدام بعض الألواح الخشبية في إزاحة الطحالب التي كانت تملأ صفحة مياه الخليج، حتى استطاعوا الكشف عن بقعة مياه خضراء خالية من الطحالب، ثم تدفقت على الفور كميات جديدة من الطحالب التي جاءت من مساحات تبعد عنهم لتماماً صفحة المياه التي خلت من الطحالب، وقد أحدث تدفق تلك الطحالب صوتاً بدأ مزعجاً لأبي.

وأطلت من وسط الطحالب رأس أفعى من تلك الأفاعي التي تقيم داخل المياه، وبعد لحظات قليلة ظهر جسم الأفعى كاملاً أعلى صفحة مياه الخليج، ثم راحت الأفعى تسبح داخل المياه، ولكنها اختفت بعد وقت قليل. ثم عاد السكون إلى مياه الخليج من جديد بعد تلك الجلبة التي أحدثتها الأفعى منذ قليل.

رأى أبي هؤلاء الرجال الأربعة، وهم يتابعون تلك الأفعى، كان الوحل قد غطى منطقة الكاحل في أقدامهم، وقد نسوا أن يتحركوا ليخلصوا أنفسهم من الوحل.

واختفت الأفعى من أمامهم، وعندها تنهد الرجال الأربعة تنهيدة عميقة، واستمر الرجال الذين يمسكون بالعصي الخشبية في إبعاد الطحالب من على سطح المياه، ورفع ذلك الرجل طويل القامة قدم الحصان المذبوح، وألقى بها في المياه محدثاً صوتاً مسموعاً، ثم تناثرت المياه في كل مكان وظهرت فقاعات مثل باقات الورد الخضراء.

راح ذلك الرجل الذي كان يمسك بفأس حادة يوبخه على فعلته قائلاً: «فلتتحرك ببطء يا ابن الملعونة» فحمل ذلك الرجل صاحب القامة الطويلة قدم الحصان وراح يحركها إلى أعلى وإلى أسفل، وتطايرت الطحالب في كل مكان.

وقال الرجل الذي كان يحمل الفأس: «حسنًا، يكفي ذلك، وعلى أية حال، فإن هذه القدم سوف تُطبخ داخل القدر.»

ثم قام الرجل صاحب القامة الطويلة بإلقاء قدم الحصان على درفة الباب، وقام الرجل الذي يحمل الفأس بتقطيع القدم إلى قطع صغيرة محدثاً صوتاً قوياً مثل صوت ضرب المياه بالعصي.

واستمر أبي في مشاهدة هؤلاء الرجال الأربعة، وقد قاموا بحمل قدم الحصان التي غسلوها جيداً ثم قطعوها بالفأس ووضعوها أعلى درفة الباب، ثم تابعهم بعد ذلك حتى

قاموا بوضع قطع اللحم داخل القدر الكبير، وقد بدأ اللهب أسفل القدر شديدًا جدًّا، وأخذ أحد الطباخين بسكينه قطعة من اللحم من داخل القدر ووضعها أعلى النار ليشويها، أصدرت قطع اللحم صوتًا مرتفعًا، وكأنها تعرف أنها تتعرض لعملية شوي شديدة.

وفي تلك الأثناء رأى أبي القائد لينغ ماتزه يخرج من خيمته في لباسه الكامل المُنسَّق، وقد حمل سوطاً ومضى يتقدم بمرافقة حراسه لمشاهدة مئات البنادق والقذيفتين اليدويتين التي استولوا عليها من الجماعة الحديدية وفريق جياو قاو، وارتسمت على وجهه ابتسامة الرضا عمًّا حققه من نصر، وراح يلوح بسوطه ويقترّب من هؤلاء الأسرى المربوطين إلى شجرة الصفصاف، وسمع أبي حينذاك صوت تنهدات تأتي من خلفه. ولم يلتفت إلى الخلف، ولكنه استطاع أن يرى السخط الشديد الذي علا وجه جدي، وراح القائد لينغ يحرك شفثيه والتجاعيد التي تظهر على وجنتيه.

وقال القائد لينغ بلهجة ساخرة: «أيها القائد يو، هل فكَّرتَ كيف سأُتصرف معك؟» فقال جدي: «فلتتصرف كما يحلو لك!»

فقال القائد لينغ: «إذا قتلتُك فإنك للأسف تُعتَبَرُ أحد الرجال الشجعان، وإذا لم أقتلك، فإنه من المحتمل أنك ستعاود اختطافي في يوم من الأيام!»

فقال جدي: «لن يهدأ لي بال حتى بعد موتي!»

وهنا قفز أبي قفزة ليلقي بقطعة من روث الخيول على صدر القائد لينغ. فرفع القائد لينغ سوطه، ثم أنزله ثانيةً، وقال ضاحكًا: «لقد سمعتُ أن هذا الحيوان يمتلك خصية واحدة فقط، أيها الحراس! أسرعوا بقطع الخصية المتبقية وائتوني بها في الحال، حتى لا يعاود القفز بهذه الطريقة ثانيةً!»

فقال جدي: «يا سيد لينغ، إنه طفل، اتركه لشأنه ولتفعل بي ما تشاء!»

فقال القائد لينغ: «طفل، إن هذا الحيوان الهجين أشد شراسة من صغار الذئاب!»

وهنا تيقظ القائد جيانغ، وجاء يحبو على يديه.

فسأله القائد لينغ بلهجة ساخرة: «أيها القائد جيانغ، ما رأيك في الطريقة التي سأقضي عليه بها؟»

فقال القائد جيانغ: «أيها القائد لينغ، لم يكن لديك الحق في قتلي قبل تحطيم الجبهة

الموحدة بين الحزب الشيوعي والحزب الوطني.»

فقال القائد لينغ: «إن قتلي إيَّاك إنما هو مثل تخلُّمي من نملة ضعيفة!»

ورأى أبي زوجًا من القمل يسرح أعلى رقبة القائد جيانغ الطويلة، وراح يتخلص منهما، وتذكر أبي ذلك اليوم الذي قاموا فيه باختطاف القائد جيانغ، ومشهد قيام أفراد فريق جياو قاو باصطياد القمل تحت شعاع الشمس.

وقال القائد جيانغ بثقة وشجاعة واضحة: «أيها القائد لينغ، إنك لن تتمكن من تحقيق نتيجة جيدة إذا ما قتلتني، فإننا أعضاء جيش با لو لا ننتهي أبدًا، وسيأتي اليوم الذي سيصفي فيه الشعب حسابه معك على جريمتك بقتل أحد أبطال المقاومة ضد اليابان!»

فقال القائد لينغ: «فلتنتظر هنا قليلًا، وسأعود إليك فور تناول الطعام!» وتجمّع أعضاء فريق لينغ ماتزه معًا ليأكلوا من لحم الحصان ويشربوا نبيذ الذرة. وأطلق الحارس الذي كان يقف عند السور الترابي شمال القرية طلقة، وحمل بندقيته وراح يجري إلى داخل القرية وهو يصيح بأعلى صوته: «لقد جاء الشياطين، لقد جاء الشياطين.»

فانفجر أعضاء فريق لينغ ماتزه غاضبين، وراحوا يصطدمون ببعضهم البعض، وقد ألقوا بما أمامهم من الطعام والنبيذ.

وجاء الحارس وهو يلهث، وأمسك به القائد لينغ من تلايبه وراح يسأله: «كم عدد الشياطين؟ وهل هم من الشياطين اليابانيين أم من العملاء؟» فأجاب الحارس: «يبدو أنهم من العملاء، حيث إنهم يرتدون الزي الأصفر، ويمضون إلى داخل القرية.»

فقال القائد لينغ مصدرًا وأمره لرجاله: «إنهم من العملاء، فلتقتلوا هؤلاء الكلاب. أنت أيها القائد تشي أسرع بحشد قواتك حول السور الترابي!»

فحمل أفراد فريق القائد لينغ أسلحتهم وانقضوا نحو السور الترابي عند مدخل القرية، وأمر القائد لينغ اثنين من رجاله الذين يحملون الرشاشات الملونة قائلًا: «راقبوهم جيدًا، وإذا حدث منهم أي خيانة فاقضوا عليهم جميعًا!»

وَقَرَّ القائد لينغ في حماية عدد من الحراس إلى شمال القرية. وبعد مُضي ما يزيد على عشر دقائق، وبعد الاشتباك بالنيران الذي حدث في الجزء الشمالي من القرية، وبعد سماع صوت البنادق المتفرقة، دَوَّى صوت الطلقات النارية من الرشاشات، وبعد وقت قليل انفجرت بعض القذائف داخل القرية، أصابت القذائف الأسوار والأشجار، علّت بين أصوات البشر الذين دُعِرُوا من هول القذائف أصوات أناس أجانب.

إنهم من الشياطين الحقيقيين وليسوا من العملاء. وقد راح أفراد فريق القائد لينغ يقاومون عند السور الترابي، وقد انسحب عدد من الرجال الذين أصيبوا منهم خلال تلك المعركة.

وبعد مُضي نصف الساعة، تخلّى فريق القائد لينغ عن السور، وتراجعوا إلى الجدران المتحطمة، وراحوا يقاومون الشياطين الذين احتلوا السور الترابي.

وسقطت قنابل الشياطين اليابانيين عند جانب الخليج المائي، ولم يُعدّ أفراد الجماعة الحديدية وأفراد فريق جياو قاو يحتملون الصبر أكثر من ذلك، فراحوا يسبون في غضبٍ شديدٍ: «فُكُّوا قيودنا! فُكُّوا قيودنا، اللعنة عليكم جميعاً!»

فراح الرجلان من أعضاء فريق القائد لينغ اللذان كانا يحملان الرشاشين الملونين ينظران إلى بعضهما البعض، ولكنهما كانا عاجزين عن اتخاذ قرار بشأن هؤلاء الأسرى. فقال جدي: «إذا كنتم صينيين من ظهور صينيين فسارعوا بإطلاق سراحنا، أما إذا كنتم من ظهور يابانيين فسارعوا بقتلنا!»

فأسرع الرجلان إلى كومة الأسلحة، وأحضرا زوجاً من السيوف، وقطعا تلك الحبال التي كانا يربطان بها هؤلاء الأسرى.

فانقضى ما يزيد على ثمانين رجلاً بجنون على كومة الأسلحة والقذائف، ثم انقضىوا تجاه مصدر القنابل اليابانية غير عابئين بتعبهم وجوعهم وعطشهم.

وبعد مضي ما يزيد على عشر دقائق، امتدت ألسنة اللهب خلف السور الترابي، وكان ذلك نتيجة أول مجموعة من القذائف التي ألقى بها أفراد الجماعة الحديدية وفريق جياو قاو.

النهاية الغريبة

١

كانت الشفتان الحمراء والامتلتان اللتان تتميز بهما النساء ذوات البشرة السمراء، قد جعلتا زوجة جدِّي ليان إر تتمتع بجاذبية قوية، وكانت الأيام قد استطاعت أن تدفن كل ما يتعلق بأصل ليان إر وفصلها، حيث وارت التربة الصفراء جسدها الشاب الممتلي، ورأت وجهها الممتلي وعينيها الزرقاوين اللتين لم يُؤثّر فيهما الموت، واستطاعت تلك التربة الصفراء أن تُوقّف نظراتها الغاضبة والساخطة والمتحدية لهذا العالم القذر، والتي تتعطش إلى عالم يعج بالجمال الخالص. وفي حقيقة الأمر، فإن زوجة جدِّي ليان إر كانت قد دُفنت داخل التربة السوداء في مسقط رأسي، كانت جثتها قد وُضعت داخل تابوت من خشب الصفصاف، وفاحت رائحة دماؤها من داخل التابوت الرقيق، وقد تم دهن الجزء الخارجي من التابوت بطبقة من اللون الأحمر الغامق والفاتح، ولم يستطع ذلك اللون الأحمر أن يُخفي تلك الثقوب التي ملأت خشب التابوت. ولكن صورة تغطية جسدها الأسمر اللامع بالتربة الصفراء اللامعة لا تزال حاضرة في ذهني، ولن تضيع تلك الصورة من أمام عيني إلى الأبد، حيث رأيتُ كما لو كانت عيناى تقع على قمة جبلية من الرمال الصفراء التي تنعكس عليها أشعة الشمس الحمراء، وقد بدأ أمامي شعرها الطويل المُرسَل وثدياها العاليان، وبرزت شفتاها المثيرتان من بين الرمال الذهبية، وعرفتُ أن هذا كله مُجرّد تخيلات، أعلم جيدًا أن تربة مسقط رأسي السوداء قد وارت جسد زوجة جدي، وأن كل ما يحيط بقبرها الآن هو عبارة عن حقول الدُّرة الحمراء، وأنك إذا وقفت أمام قبرها فلن يكون باستطاعتك أن ترى أي شيء سوى الدُّرة الرفيعة الحمراء، حيث إن حقول الدُّرة الممتدة حول قبرها ستحجب عنك الرؤية، وتجعلك تعجز عن أن ترى أكثر من شبر

أمامك. إذًا، فلترفع وجهك عاليًا وتحاول أن تنظر من خلال أعواد الذُّرَّة إلى صفحة السماء الزرقاء المفزعة! ولتحاول أن تستمع إلى الأصوات القادمة من الأرواح التي تسكن السماء!

٢

في صباح ذلك اليوم، كانت السماء قد تلونت باللون الأزرق الجميل، وقبل أن تطلع الشمس امتلأ الأفق بحمرة داكنة. وكان العم لاو قينغ قد أطلق رصاصة محلية على ثعلب أحمر اللون بدا ذيله مثل شعلة من اللهب. ويعتبر العم لاو قينغ صيادًا من فئة الصيادين الفريدين في قرية شيان شوى كوو تزه، كان ماهرًا في صيد ومهاجمة الإوز والأرانب البرية والبط البري وابن عرس والثعالب والعصافير. وفي مطلع فصل الشتاء ومنتصف الخريف من كل عام، كانت العصافير تتجمع بكميات كبيرة في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، وتغطي جماعات سماء حقول القرية، ثم تطير عائدة إلى القرية وتسقط أعلى شجرة الصفصاف الوحيدة ذات الأوراق الذابلة، وتمتلئ أوراق شجرة الصفصاف الذابلة العارية بأعداد كبيرة من العصافير. وما إن يحل وقت الغروب حتى تتزين شجرة الصفصاف بتلك العصافير وعيونها البراقة، وتمضي العصافير في حركة مستمرة فوق أعواد الشجرة الكبيرة. وهنا يحمل العم لاو قينغ بندقيته ويغمض إحدى عينيه واضعًا إصبعه على زناد بندقيته، ثم يطلق رصاصة يسقط على إثرها جماعة من العصافير، ويعج المكان بأصوات العصافير، حيث تمضي العصافير التي لم تصبها رصاصة العم لاو قينغ تطير هنا وهناك وتنظر إلى العصافير التي سقطت على الأرض مصابة برصاصته، ثم تطير مسرعة محلقة في السماء. وكان أبي قد أكل في صباه من تلك العصافير التي كان يقوم العم لاو قينغ بصيدها، كان لحمها طيب المذاق غنيًا بالبروتينات اللازمة لتقوية الجسم. وبعد ثلاثين عامًا من ذلك التاريخ، كنتُ قد رافقت أخي الأكبر وخرجنا إلى حقول الذُّرَّة المهجنة للقيام ببعض التجارب على محصول الذُّرَّة، وكنا قد اشتبكتنا في معركة حامية مع جماعات العصافير الماكرة. كان العم لاو قينغ قد بلغ آنذاك السبعين من عمره، يعيش بمفرده ويتمتع بمزايا نظام «الضمانات الخمسة»^١ وكان من الشخصيات ذات السمعة الطيبة

^١ «نظام الضمانات الخمسة» ويشير إلى نظام الضمانات الذي سنَّته الحكومة الصينية لمساعدة الشيوخ وذوي العاهات والقاصرين الذين تتوافق ظروفهم وشروط هذا النظام، حيث تضمن لهم الدولة المأكل والملبس والعلاج والإقامة ومصاريف الجنازة ومصاريف التعليم لأبنائهم اليتامى. (المترجم)

على مستوى القرية، وكان كلما حل مهرجان الشكوى الكبير، يصعد إلى المنصة الرئيسية ويبدأ في بث آلامه أمام الملاء. وفي كل مرة يصعد فيها إلى المنصة الرئيسية لبث آلامه، يقوم بخلع ملابسه الخارجية، ويكشف عن بعض آثار الجروح في جسده. وكان دائماً ما يقول أمام الملاء: «لقد قام الشياطين اليابانيون بطعني ثماني عشرة طعنة، حتى غرق جسدي في بركة من الدماء، ولكنني لم أمتُ بعدُ. فلماذا لم أمتُ رغم كل هذه الطعنات؟ لقد كان السبب في ذلك الإله الثعلب الذي أنقذني وحماني من بطش الشياطين اليابانيين، وكنتُ قد رقدت فترة طويلة، وما إن فتحتُ عيني حتى وجدتهما متمثلتان بشعاع أحمر، وكان الإله الثعلب الرحيم العطوف يمد لسانه إليّ ويلق جراحى.»

كان الجد لاو قينغ قد أقام في منزله لوحة مُخصَّصة للإله الثعلب، وفي مطلع فترة «الثورة الثقافية الكبرى»، قدم إلى منزله بعض الحراس من الجيش الأحمر لهدم تلك اللوحة، فسارع الجد لاو قينغ بأخذ سكين كبيرة وقرص أمام اللوحة، حتى اضطر الحراس إلى التراجع عن هدفهم وتركوه لحاله.

وكان الجد لاو قينغ قد تحقق في وقت طويل من أمر ذلك الثعلب الذي يعتقد بأنه يملك قدرات الآلهة، ولكنه لم يقم بقتله، حيث كان الجد لاو قينغ يتابع نمو الثعلب ونمو ريشه الأحمر الجميل، حتى صار ثعلباً كبيراً جميلاً، وتأكّد من أنه سيحصل على مبلغ كبير في حالة قيامه ببيعه. وهنا عرف أن الوقت قد حان للتخلص منه، وأنه قد عاش في هذه الدنيا فترة كافية، كان الثعلب يسرق في كل ليلة دجاجة يأكلها كاملة، ويتمكن من الحصول على دجاجته يومياً على الرغم من قيام أهل القرية بحماية ما يملكون من دجاج بشتى الوسائل، ويتمكن من النجاة من جميع الفخاخ التي كانوا ينصبونها له، وكانت بطنه قد أصبحت هي المستودع الوحيد الذي امتلأ به دجاج أهل القرية في ذلك العام، وخرج لاو قينغ بعد سماع صياح الديكة إلى خارج حدود القرية، ونصب كميناً خلف سور ترابي قصير عند الوادي الذي يقع عند مدخل القرية، وانتظر الثعلب حتى يعود بفريسته. وكان الوادي يمتلئ بكمية من القصب يصل ارتفاعها إلى نصف طول الإنسان، وتجمعت مياه الخريف وسطح الضوء على تلك المياه الباردة، وظهرت جماعات من الأسماك الصغيرة، ثم انعكس الضوء على المياه والقصب، وشمّ لاو قينغ رائحة الثعلب، وانتبه إلى حركته بين القصب، فقام بوضع أصابع يده اليمنى المتجمدة من شدة البرودة أمام فمه، حيث غلبه النعاس، ثم وضع يده على زناد بندقيته. وقفز الثعلب من بين القصب، ووقف أعلى المياه المتجمدة، انعكس الضوء الأحمر على تلك المياه حتى بدت مثل أسنة اللهب المشتعلة، ظهرت آثار دماء الدجاج على فم الثعلب، ظهر بعض من ريش

الدجاج وقد علق بشاربه، راح الثعلب يتبختر أعلى سطح المياه، فأصدر لآو قينغ صوتاً مسموعاً، فوقف الثعلب على الفور، وراح ينظر إلى السور الترابي، وسرت رعشة شديدة في جسد لآو قينغ، وما إن نظر إلى معالم الغضب التي ارتسمت على وجه الثعلب حتى ساوره خوف وقلق شديد، ومضى الثعلب إلى وكّره بين القصب، فأغمض لآو قينغ عينه وضغط على زناد بندقيته، وقد جعلته حركة البندقية يشعر برجفة شديدة تهزه هزاً عنيفاً حتى جلس على الأرض، وانزوى الثعلب بسرعة وسط القصب، ووقف لآو قينغ وحمل بندقيته وراح يتابع الدخان الكثيف الذي ملأ سماء المكان، كان يعلم أن الثعلب لا يزال وسط القصب يراقبه بحقدٍ شديدٍ؛ فوقف لآو قينغ في مكانه، وقد بدأ ذا جسد ضخم كبير، وفجأة شعر بشعور أقرب ما يكون إلى وَخز الضمير، وندم على ما قام به، ومضى يتذكر تلك الثقة الكبيرة التي منحه إيّاها الثعلب خلال عام كامل، وأن الثعلب حتماً يعلم جيداً أنه يختبئ الآن خلف السور الترابي، إلا أنه لا يزال يسير أعلى سطح المياه المتجمدة، وكأنه يقوم باختبار ضميره؛ فأطلق لآو قينغ رصاصة، وكانت بلا شك خير تعبير عن خيانتته لذلك الصديق الذي ينتمي إلى جماعة غير بني البشر، ثم راح ينظر داخل مساحة القصب التي يختبئ بداخلها الثعلب، ومضى يتعمق إلى داخل القصب ولم يتلفت وراءه أبداً.

وأحس بعد ذلك ببرد شديد يسري داخل جسده، فاستدار قليلاً، وسقطت بندقيته أعلى سطح المياه المتجمدة، وشعر بسخونة شديدة تسري داخل بنطاله القطني، ونظر أمامه فإذا به يرى ما يزيد على عشرة رجال في زي أصفر، كانوا يحملون بنادق كبيرة مزودة بحراب لأمعة، وهنا صاح وقد أحس برعب شديد: «اليابانيين!» وتقدّم الجنود اليابانيون نحوه وطعنه كل واحد منهم طعنة في صدره وفي بطنه؛ فراح لآو قينغ يصدر صوتاً حزيناً وكأنه يتوسل إلى الثعلب لكي يخرج لإنقاذه، ثم سقط أعلى سطح المياه المتجمدة، واصطدمت رأسه بالمياه المتجمدة حتى كشفت عن باطن المياه، وسالت دماؤه داخل المياه، وشعر بسخونة شديدة في الجزء الأعلى من جسده، وكأنه قد وضع على جمرات من اللهب الشديد، فراح يقطع بكلتا يديه تلك السترة القطنية التي تغطي الجزء الأعلى من جسده.

وفي تلك اللحظات التي كان فيها شاردًا، رأى ذلك الثعلب ذا الشعر الأحمر الجميل يخرج من وكّره داخل القصب، ثم راح الثعلب يلف حوله، ثم جلس أمامه وراح ينظر إليه في شفقة، وبدأ شعر الثعلب جميلاً جداً، وبدت عيناه جميلتين كما لو كانتا من الأحجار الكريمة الخضراء الجميلة، ثم شعر بعد ذلك بشعر الثعلب، وقد اقترب من جسده، وبدأ ينتظر أسنان الثعلب لكي ينقض عليه ويفتك به، كان لآو قينغ يعلم جيداً أن الإنسان

الذي يخون الوعد أحقر من الحيوانات؛ لذا فإنه لن يشكو إذا ما انقضَّ عليه الثعلب لينهي حياته، وهنا مد الثعلب لسانه البارد وراح يلحق جراح الجد لاو قينغ. تيقن الجد لاو قينغ أن ذلك الثعلب قد قابل السيئة بالحسنة وأنقذ حياته، وأنه من الصعب أن يجد في هذا العالم إنساناً غيره تعود إليه الحياة من جديد بعد أن يُطعن ثمانى عشرة طعنة، وأنه بالتأكيد هناك دواء فعال في لسان ذلك الثعلب، قال الجد لاو قينغ: إن أي منطقة كان يمر عليها لسان الثعلب، كانت تُشقى في الحال، وكأنها قد دُهنت بزيت النعناع.

٣

كان بعض أهالي القرية الذين نزلوا إلى المدينة لبيع الأحذية المصنوعة من القش قد ذكروا أن اليابانيين استولوا على مدينة قاو مي، ورفَعوا علم اليابان على مدخل المدينة، وما إن سمع أهل القرية ذلك النبأ، حتى أصبحوا في حيرة شديدة ولم يهدأ لهم بال، وراحوا ينتظرون المصيبة الكبرى التي ستحل بهم عمًّا قريب. وفي الوقت الذي كان القلق والخوف الشديد قد سيطر على جميع أهل القرية، كان هناك شخصان لا يساورهما أدنى قلق أو خوف ممَّا ترامى إلى سمعهما، وكانا لا يزالان يزاوان أعمالهما كما كان عليه الوضع قبل سماع ذلك النبأ، كان الشخصان هما الجد لاو قينغ ذلك الصياد الماهر الذي ذكرناه آنفًا، أما الشخص الثاني فهو تشينغ ما تزه، والذي كان قد عمل زمارًا، وكان يعيش غناء أعمال أوبرا بكين.

وقف تشينغ ما تزه أمام أهل القرية وراح يخطب فيهم قائلاً: «ما الذي يخيفكم؟ وما الذي يحزنكم؟ سنكون شعبًا مطيعًا لأي حاكم يحكمنا. أولاً لن نشكو من قلة الغذاء، وثانياً، لن نحتج على الضرائب التي تُفرض علينا، وسننفذ جميع الأوامر التي تُفرض علينا، وعندئذٍ من ذا الذي سيُسيء إلينا؟ من الذي سيُسيء إلينا؟»

وهكذا، عملت نصيحة تشينغ ما تزه على تهدئة عدد كبير من أهل القرية، وعاد الجميع إلى ممارسة حياتهم بشكل اعتيادي فراحوا ينامون ويأكلون ويعملون كما لو أن شيئاً لم يحدث. ولم يكد يمر وقت طويل حتى عاث اليابانيون في المدينة فساداً، وانتشر طغيانهم واستبدادهم إلى أبعد الحدود، فراحوا يقتلون الأهالي ويطلقون المدافع الرشاشة ويلقون بجثث القتلى للكلاب ويغتصبون النساء اللائي تزيد أعمارهن على الستين، ويعلقون الأهالي على الكابلات الكهربائية في المدينة. وعلى الرغم من أن الأهالي

حاولوا تقليد تشينغ ما تزه والجد لاو قينغ في هدوئهما وعدم مبالتهما بما يحدث في المدينة، فإنهم عجزوا عن ذلك تمامًا، ولم يستطيعوا أن ينسوا في يقظتهم ونومهم ما يقوم به اليابانيون من جرائم لا تُغتفر.

وهكذا، كان تشينغ ما تزه يبدو سعيدًا على الدوام، وازدادت سعادته بسماعه خبر اقتراب قدوم اليابانيين إلى القرية، حيث إن قدومهم سيؤدي إلى زيادة كمية فضلات الكلاب التي يقوم بجمعها في صباح كل يوم، وأن أحدًا من أهل القرية لن يجروا على الخروج لمشاركته في ذلك. وفي فجر ذلك اليوم، خرج تشينغ ما تزه إلى خارج حدود القرية، والتقى هناك بالجد لاو قينغ الذي كان يحمل بندقية الصيد، وحيًا تشينغ ما تزه، ثم مضى كل منهم إلى طريقه. ولم يكد يمر وقت طويل حتى استطاع تشينغ ما تزه أن يملأ سلته بفضلات الكلاب. وهنا وضع تشينغ سلته وحمل مجرفة حديدية، ووقف أعلى السور الترابي جنوب القرية، وراح يتنفس نفسًا باردًا منعشًا، ثم شعر بحكة في حنجرته، فسلك حنجرته قليلًا ثم راح يتغنى، وقد شعر بسعادة غامرة.

ودوى صوت طلق ناري.

وطارت تلك القبعة البالية التي كان تشينغ ما تزه يضعها فوق رأسه، ثم طأطأ رقبته واختفى خلف السور الترابي، واصطدمت رأسه بتراب السور، ولكنه لم يشعر بأي ألم أو حكة، ثم اكتشف بعد ذلك أن فمه قد امتلأ بكمية من التراب الممتزج بالفحم، ورأى فأرًا ميتًا ملقى هنالك إلى جانب مقشة قديمة، ولم يدرك إذا ما كان هو نفسه حيًا أو ميتًا، فراح يحرك ذراعيه وقدميه ويقفز، ولكن اكتشف أن ذراعيه وقدميه لا تطاوعه في الحركة ثم اكتشف أن سرواله مبلل. وهنا شعر برهبة شديدة، ومضى يفكر في أنه حتمًا قد انتهى، وأنه قد جرح، وحاول أن يجلس، ومد يده إلى سرواله يتحسس ما بداخله، وانتظر يده أن تخرج مغسولة باللون الأحمر، فرفعها أمام عينيه، فاكتشف وكأنها قد غُسلت باللون الأصفر وليس الأحمر. وامتلاّت أنفه برائحة شتلات نباتات مُتعفّنة، فراح يمسح يده في الأرض ليتخلص من تلك الرائحة، ولكنه لم يتمكن من ذلك، فأمسك بالمقشة القديمة ليمسح عن يده تلك الرائحة الكريهة، وما إن هم أن يستخدم المقشة حتى سمع صوتًا قادمًا من خارج الوادي يصيح فيه قائلًا: «قف!»

رفع رأسه فإذا بالشخص الذي يأمره رجل في الثلاثين من عمره، ذو وجه حادّ في جِدّة السيف، وبشرة صفراء وذقن طويلة، يرتدي فوق رأسه قبعة ملونة، ويمسك بمسدس أسود حالك. ثم نظر خلف ذلك الرجل فرأى عشرات الأقدام الصفراء الملقوف حولها شارات من القماش الملون، ثم نظر أعلى تلك الأقدام ليرى وجوهًا لأشخاص غريبين

عن وطنه، وقد علت تلك الوجوه سعادة واضحة، ونظر أعلاهم ليرى علماً مربّعاً يتوسطه قرص الشمس. وهنا أحس تشينغ ما تزه برعشة شديدة.

وصاح فيه ذلك الرجل الذي كان يرتدي القبعة الملونة غاضباً: «انهض!» فأحكم تشينغ ما تزه ربط حزامه ثم صعد إلى أعلى الخندق، وكان في ارتباك شديد ولم يَتَمَكَّنْ من السيطرة على نفسه، وبدأ وجهه شاحباً ولم يعرف ماذا يقول لذلك الشخص الغريب، فراح يهز رأسه وينحني أمامه.

فسأل الرجل تشينغ ما تزه: «هل هناك بالقرية قوات تابعة للحزب الوطني؟» فذُهل تشينغ ما تزه ذهولاً شديداً وراح ينظر إلى السائل.

فتقدّم نحوه جندي ياباني وقد راح يلوح أمامه بخنجر ملطخ بالدماء، راح يلوح بالخنجر أمام صدر تشينغ ما تزه ووجهه، وأحس تشينغ ما تزه أن رجفة الخنجر قد تسللت إلى صدره وعينيه، وأحس بأن بطنه تصدر صوتاً مسموعاً، وأن معدته تهتز بشدة، ثم أحس بسعادة كبيرة جعلته كاد أن يرقص من شدة الفرح. فصاح الجندي الياباني ثم نزل بخنجره ليشق سترته القطنية، ثم تغلغل الخنجر ليحدث ألماً شديداً أسفل السترة القديمة. فراح تشينغ ما تزه ينزوي بعيداً عنه، وكاد أن يغرق في دموعه ومُخاطبه وبرازه وبوله.

غمغم الجندي الياباني بجملة غير مفهومة، ثم مضى يغمغم بكلام كثير، فراح تشينغ ما تزه ينظر متألماً إلى وجه الجندي الياباني الذي اشتاط غضباً، ثم انخرط في البكاء بصوتٍ مرتفع.

أمسك ذلك الرجل الذي يرتدي القبعة بمسدسه وضرب تشينغ ما تزه على جبهته، ثم قال: «اسكت عن البكاء! واستمع إلى سؤالي! ما اسم هذه القرية؟ هل هي قرية شيان شوى كوو تزه؟»

فجاهد تشينغ ما تزه ليكتم بكاءه، وراح يهز رأسه ليجيب عن سؤال ذلك الرجل. ثم سأله الرجل بطريقة لطيفة بعض الشيء قائلاً: «هل يوجد في هذه القرية أحذية مصنوعة من القش؟»

وهنا لم يُبالِ تشينغ ما تزه بألمه، وراح يجيب على سؤال الرجل وكأنه يتودّد إليه قائلاً: «يوجد، يوجد، يوجد.»

فسأله الرجل: «لقد كان يوم أمس هو يوم سوق مدينة قاو مي، فهل ذهب أي من أهل هذه القرية إلى سوق مدينة قاو مي لبيع الأحذية المصنوعة من القش؟»

فأجاب تشينغ ما تزه: «نعم نعم نعم، لقد ذهب بعض أهل القرية إلى هناك لبيع الأذية المصنوعة من القش»، وبدأت الدماء الساخنة تسيل من صدره إلى منطقة معدته. «وهل يوجد بينهم مَنْ يُدعى شيان تساي قه دا؟»
«لا أعرف ... لا أعرف.»

وهنا قام صاحب القبة المصنوعة من الصوف بصفحة صفة قوية، ثم قال غاضباً: «تكلّم! هل كان بينهم شخص يُدعى شيان تساي قه دا؟»
فراح تشينغ ما تزه يجيبه مغلوباً على أمره قائلاً: «نعم نعم نعم أيها القائد»، ثم قال: «أيها القائد، إن جميع الأسر هنا لا تخلو من شيان تساي قه دا،^٢ وجميع الأواني الكبيرة التي تمتلكها الأهالي في هذه البلدة تحتوي على شيان تساي قه دا.»
فقام القائد الياباني صاحب القبة بصفحة على وجهه قائلاً: «اللعة على أمك، كيف تتظاهر بهذه الحماسة؟ أسألك هل يوجد بين هؤلاء شخص يُدعى شيان تساي قه دا؟»
ثم راح يسبّه «أيها المخادع الحقير، إنني أسألك هل يوجد بينهم شخص يدعى شيان تساي قه دا؟»

فقال المواطن تشينغ ما تزه، وقد سقط مغشياً عليه من قوة صفعات القائد الياباني «يوجد ... لا يوجد ... لا يوجد ... لا يوجد ... أيها القائد أتوسل إليك ألا تصفني ثانية ... لا تصفني أيها القائد!»

وهنا تحدث أحد الجنود اليابانيين ببعض الكلمات، وعندها قام القائد الياباني بخلع قبعته وراح يركع أمام أحد الشياطين اليابانيين، ثم استدار بجسده واختفت تلك الابتسامة التي كانت تعلق وجهه منذ قليل، ودفع تشينغ ما تزه دفعة، ثم قال بلهجة غاضبة: «تقدّم إلى الأمام لتقودنا إلى هذه القرية، وأصحبنا إلى جميع من يقومون ببيع الأذية المصنوعة من القش.»

كان تشينغ ما تزه لا يزال مشغولاً كثيراً بسلته الممتلئة بفضلات الكلاب، والتي كانت لا تزال ملقاة عند السور الترابي، وما إن التفت إلى الورا ينظر إليها حتى اصطدم وجهه بخنجر لاعم. وهنا أدرك جيداً أن حياته أهم بكثير من تلك السلّة والقيمة التي تساويها الفضلات التي تمتلئ بها، فمضى إلى القرية ولم يُعد الالتفات إلى السلّة ثانية. وقد تبعه

^٢ شيان تساي قه دا: وتعني في اللغة الصينية عناقيد الخضر المملحة، حيث يقوم أهل شمال شرق الصين بالاحتفاظ بكميات من الخضر بتمليحها واستخدامها في فصل الشتاء القارص. (المترجم)

عشرات الجنود اليابانيين، الذين كانوا يرتدون أحذية جلدية عالية كانت تحدث صوتًا مسموعًا، وصاحت بعض الكلاب الرمادية التي كانت تختبئ عند السور الترابي، وبدأت أشعة شمس الصباح تنعكس على الأرض من تحت أقدامهم، وحطمت أصوات بكاء بعض الأطفال ذلك السكون الذي كان يخيم على القرية، وكانت أصوات أحذية الجنود اليابانيين تهز أذنيه وتجتثم على صدره، وأحس بأن جرح صدره أصبح أكثر سخونة، وأن سرواله المبلل قد أصبح أكثر برودة. وهنا أدرك أنه قد صادف حظًا سيئًا مثل الفضلات التي خرج ليجمعها على الرغم من امتناع الآخرين عن الخروج في ذلك اليوم. وشعر بالظلم والأسى الشديد؛ لأن الجنود اليابانيين لا يعرفون أنه مواطن مطيع، واستطاع في أسرع وقت أن يصحبهم إلى الأماكن المخصصة لصناعة الأحذية المصنوعة من القش، وقد أصبح على ثقة بأن جميع من سيصدق عليه اسم شيان تساي قه دا سيتعرض للتكيد به على يد هؤلاء الجنود، وراح ينظر إلى منزله من مسافة بعيدة جدًا، وقد نمت بعض الأعشاب أعلى سقف المنزل بفعل الأمطار الصيفية الشديدة التي نزلت على القرية، وراح ينظر إلى منزله، وقد أحس بأنه للمرة الأولى في حياته يشعر بهذا الإحساس والحنين تجاه منزله، ومضى يفكر في أنه سيعود إليه فور انتهائه من صحبة اليابانيين، ويسارع بتغيير سرواله المبلل، ويطلب من زوجته المساعدة في تضميد الجرح الذي أصابه في صدره ووضع بعض الجير داخل الجرح، كانت الدماء قد بدأت تتوقف عن السيل، وشعر بارتخاء قدميه، وبتقزز شديد، إذ إنه لم يكن قد تعرض طيلة حياته لمثل هذا المأزق الشديد، بل إنه لم يتعرض أي من الزمارين في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي لمثل هذا المأزق من قبل، ومضى في طريقه غارقًا في دموعه، ويفكر في زوجته الجميلة المصابة مثله بمرض الجدري، والتي قبلت الزواج منه، والتي ارتبطت معه برباط مقدس إلى الأبد.

٤

في صباح ذلك اليوم، أفاقت زوجة جَدِّي من حلمها الذي كانت تتشاجر فيه مع جدتي على صوت دوي إطلاق النيران خارج حدود القرية. وجلست زوجة جَدِّي على سريرها، وكان قلبها يدق دقات مضطربة، وَمَضَتْ تُفَكِّرُ طويلًا، ولكنها عَجَزَتْ عن الوصول إلى ماذا حدث عند حدود القرية حتى تسمع صوت الطلقات النارية الكثيفة، أم ترى أنها كانت لا تزال في عالم الأحلام، وانعكس ضوء الصباح على نافذة حجرتها، وشعرت زوجة جدي ببرودة عند كتفيتها فمالت بوجهها ونظرت إلى ابنتها التي كانت لا تزال غارقة في نومها

إلى جانبها واستطاع صوت تَنفُّس تلك الفتاة الصغيرة ذات الخمسة أعوام أن يهدئ من روع زوجة جدي، حيث مَضَتْ تُفَكِّرُ في أن صوت الطلقات النارية ربما يكون مصدره قيام العم لاو قينغ بممارسة هوايته في صيد القلط والحيوانات البرية، ولم تكن تعلم أن تخمينها هذا لم يكن له أي أساس من الصحة، كما أنها لم تكن تعلم أنه في الوقت الذي كانت تفكر فيه في هذا الأمر، وقد شددت غطاءها لتعاود النوم، كانت الخناجر اليابانية الحادة تخترق جسد العم لاو قينغ، واستدارت عمتي الصغيرة قليلاً لترتمي في حضن زوجة جدي، فاحتضنتها وقد شعرتُ بأن دفء تَنفُّس صغيرتها قد ملأ صدرها، وكانت قد مضت ثمانية أعوام على قيام جدتي بطرد زوجة جَدِّي من منزل العائلة، وخلال تلك الفترة كان جَدِّي قد احتُجِزَ لدى حكومة جي نان حتى كاد أن يفقد حياته، ثم تمكن جَدِّي من النجاة وعاد إلى قريته، ليكتشف أن جدتي كانت قد قامَت باصطحاب أبي وأقامت مع الزعيم أبي شامة زعيم الجماعة الحديدية، فاشتبك جَدِّي مع أبي شامة عند نهر يان شوى، وعلى الرغم من هزيمة جَدِّي في تلك المعركة، فإن ظهوره قد أُنْعَشَ عاطفة جدتي تجاهه، فلاحقته جدتي وعاداً معاً إلى قريتهما، وعملاً معاً على إنعاش تجارة النبيذ التي كانت تشتهر بها العائلة، وقد تَخَلَّى جَدِّي عن استخدام السلاح وقيادة فريق قُطَاع الطُّرُق، وعمل عدة سنوات كفلاح من الفلاحين الموسرين في القرية، وكان جَدِّي قد عانى خلال تلك السنوات من الإزعاج والقلق الشديد الذي كان مصدره النزاع المستمر بين جدتي وزوجة جدي. وكانت نتيجة ذلك النزاع والغيرة التي دَبَّتَ بينهما أن تم توقيع «اتفاق ثلاثي فيما بينهم»، ويقضي الاتفاق بأن يقيم جَدِّي فترة عشرة أيام مع جدتي، ثم ينتقل بعدها للإقامة فترة عشرة أيام مماثلة مع زوجته الثانية، ولا يجوز لأي من الأطراف الثلاثة مخالفة الاتفاق المُبرَمَ بينهم. واستطاع جَدِّي أن يلتزم على الدوام بهذا الاتفاق؛ لأنه كان يعلم جيداً بخطورة زوجته، وأنه لن تتنازل أي منهن عن حقها لصالح ضرتها، احتضنت زوجة جَدِّي عمتي الصغيرة، وقد أحسَّت بحزنٍ شديد. فقد كانت في ذلك الحين حاملاً في شهرها الثالث، والمرأة الحامل عادةً ما تتحول إلى امرأة طيبة لطيفة، ولكنها تكون في حاجة ماسّة إلى الرعاية والاهتمام بها. وهكذا كانت زوجة جدي، في أثناء حملها الثاني تُعَدُّ الأيام والليالي في انتظار عودة جدي، وكان موعد عودته هو يوم الغد ... ولكنها تسمع الآن صوت الطلقات النارية الكثيفة عند مدخل القرية.

قفزت زوجة جَدِّي في عجالة وراحت ترتدي ملابسها، وقد شعرتُ برعشة شديدة تهزها هزاً، وكان قد ترامى إلى سمعها منذ وقت طويل خبر اقتراب وصول اليابانيين إلى

القرية، فقضت يومها في حيرة شديدة وكانت تشعر باقتراب وقوع الكارثة، حتى إنها كانت قد فكرت في العودة مع جدي، وأن تصبر على مضايقة جدتي وسبابها خير لها وأهون عليها من الرعب الشديد الذي تشعر به في قرية شيان شوى كوو تز، وحاولت أن تفصح عن رغبتها في ذلك إلى جدي، ولكنه رفض رفضاً قاطعاً، وأعتقد أن سبب رفض جَدِّي إنما يرجع إلى المعاناة الشديدة التي يعيشها مع جدتي زوجته الثانية، كان جَدِّي قد ندم ندمًا شديدًا على موقفه من هذا الأمر، كان قد رأى المصيبة الكبرى التي ألمت به من جرّاء ذلك عندما وقف في صباح يوم الغد وسط الفناء الكبير الذي كان يمتلئ بأثار الحيوانات البرية.

استيقظت عمتي الصغيرة، وفتحت عينيها المشرقتين، وراحت تتظاهر بأنها تتنأب، ثم تنهدت تنهيدة عميقة، وذهلت زوجة جَدِّي ذهولًا شديدًا عندما رأت ابنتها تبدو أمامها على تلك الحالة، وراحت تنظر إلى الدموع التي ذرفتها عيناها في أثناء التثاؤب، وصمتت لمدة طويلة.

وقالت عمتي الصغيرة مخاطبةً أمها: «أمي، ساعديني في ارتداء ملابسني..» أخذت زوجة جَدِّي بمعطف عمتي القطني الصغير الأحمر، ثم راحت تنظر إلى وجه صغيرتها بدهشة شديدة، وقد لاحظت هذا التغير الشديد الذي طرأ على ابنتها التي أصبحت تستيقظ بنفسها كل يوم بعد أن كانت تجد صعوبة كبيرة في إيقاظها فيما مضى، ونظرت إلى التجاعيد الكثيرة التي ملأت وجهها الصغير، وإلى حاجبيها اللذين نزلًا إلى فمها حتى بدت تلك الفتاة الصغيرة وكأنها سيدة عجوز، وشعرت زوجة جَدِّي برعشة شديدة تهز قلبها، وأحسّت ببرودة المعطف الصغير الذي تمسكه بيديها، سرّت تلك البرودة إلى قلبها، فراحت تنادي على عمتي بكنيتها: «يا شيانغ قوان ... يا شيانغ قوان ... انتظري حتى تساعدك أمك في تسخين هذا المعطف البارد.»

فأجابت عمتي: «لا داعي، لا داعي لتسخينه يا أماه.» وبدأت عينا زوجة جَدِّي تذرفان الدموع، لم تعد قادرة على رؤية وجه طفلتها الذي أصبح شاحبًا بعد أن كان في غاية النضارة والإشراق، ثم هربت مسرعةً إلى غرفة الطهي، وأشعلت النار في بعض من أعواد القمح وراحت تسخن معطف ابنتها البارد، أحدثت أعواد القمح عند اشتعالها صوتًا قويًا مثل دوي طلاقات نارية، وبدأ المعطف يتقلب وسط اللهب حتى سرت السخونة إلى يدي زوجة جدي، وخمدت النيران فجأة، وبقيت كومة من الرماد الذي تبقى من أثار إشعال أعواد القمح، وتناثر الدخان إلى سقف الغرفة، وهنا

نادت عمتي الصغيرة التي كانت في الغرفة الداخلية على أمها، فأيقظتها، كانت تمسك بالمعطف الصغير داخل غرفة الطهي، فحملت الأم المعطف الساخن وتوجّهت إلى الغرفة الداخلية، فرأت ابنتها تجلس أعلى مصطبة التدفئة، وقد التحفت باللحاف، وشاهدت ذلك التناقض الواضح بين بشرة تلك الطفلة البيضاء ولون اللحاف البنفسجي، فقامت زوجة جدّي بوضع ذراعي ابنتها الضعيفتين داخل أكمام المعطف القطني الأحمر، بدت عمتي مطيعة لها على غير عادتها تمامًا، حتى إن دوي الطلقات النارية الذي كان يهز القرية بأكملها لم يستطع أن يعرقل قيام زوجة جدّي بمساعدة عمتي في ارتداء المعطف القطني الصغير.

بدا صوت الانفجار وكأنه قادم من أعماق الأرض، كان الصوت مكتومًا واستمر لفترة طويلة، وبدأت ستارة النافذة تهتز بشدة، وسمعوا صوت هروب العصافير التي كانت تبحث عن الحَب وسط الفناء الكبير. وما إن انتهى صوت الانفجار، سمعوا صوت إطلاق بعض المدافع الرشاشة، فعاودت الفوضى تعم أرجاء القرية، وسمعوا بعض الأصوات المرعوبة من تلك الأصوات، فاحتضنت زوجة جدّي صغيرتها بشدة، والتصقت الأم وابنتها ببعضهما البعض، وراحتا ترتجفان من شدة الخوف.

وتوقفت أصوات الضجيج لفترة مؤقتة، ولفّ القرية صمت مميت، وسكنت جميع الأصوات في القرية إلا من وقع خطوات ثقيلة أو نباح بعض الكلاب ودوي بعض الطلقات النارية، ثم دوى صوت انفجارين متتابعين علت معهما أصوات الأهالي الذين دُعروا دُعرًا شديدًا، ثم عمّت الفوضى والضجيج القرية من جديد، واختلطت أصوات صراخ النساء وبكاء الأطفال وصياح الديكة ونهيق الحمير التي كانت تُصارع للتخلص من قيودها. وأغلقت زوجة جدّي باب الغرفة، وأنت بعضوين وأحكمت بهما غلق الباب، ثم قفرت إلى دكة المدفأة وانزوت إلى جانب الحائط، وراحت تنتظر وقوع الكارثة، وكانت في تلك اللحظة تشتاق إلى جدّي كثيرًا، وتكرهه كثيرًا. ومضت تُفكّر في أنها ستبكي أمامه بكاءً شديدًا عندما يعود إليها في الغد، وستفتعل معه شجارًا عنيفًا. انعكس ضوء الشمس المشرق على زجاج النافذة، وذابت كُرات الصقيع التي كانت مُكدّسة على النافذة، وتحوّلت إلى قطرات مياه راحت تتساقط على زجاج النافذة. وارتفع صوت دوي الطلقات النارية داخل القرية، وارتفع معه صوت صراخ النساء الذي ملأ أرجاء القرية، وكانت زوجة جدّي تعرّف بالطبع سبب صراخ نساء القرية، كانت قد سمعت أن هؤلاء الجنود اليابانيين مثل الحيوانات في الاعتداء على نساء القرية، حتى إنهم كانوا لا يرحمون النساء اللاتي

بلغن السبعين، وسرت إلى داخل الغرفة رائحة الدخان القادم من خارج المنزل، وسمعت أصوات صراخ الرجال في الخارج، وهنا شعرت زوجة جدِّي بالشلل التام، سمعت صوت باب المدخل، بالإضافة إلى لهجة غريبة كانت بالتأكيد لهجة اليابانيين، كما سمعت أصوات نزاع الأهالي عند مدخل الفناء الكبير؛ فحدقت عمتي، ثم صممت برهة، لتنخرط في البكاء بصوت مرتفع، مدت أمها يدها ووضعتها على فمها تكتم صوت بكائها. واهتزت درفتا باب المدخل، فنزلت الأم من أعلى مصطبة التدفئة، وملأت يديها بقبضتين من الرماد ونثرته على وجهها، كما قامت بنثر بعض الرماد على وجه صغيرتها، واهتزت درفتا الباب اهتزازاً شديداً كما لو أنهما كادت أن تتحطماً تحطيماً، وبدأ الرعب يسيطر على الأم، حيث لم تتوقف مقلتاها عن النظر هنا وهناك. ومضت تفكر في نفسها، إن هؤلاء الجنود إذا كانوا لا يرحمون العجائز في سن السبعين، فإنهم يجب أن يرحموا الحوامل؟ ثم فكرت الأم في حيلة تحاول أن تنقي بها شر المعتدين، سحبت صرة من أعلى مصطبة التدفئة، ثم فكت حزام بنطالها، ووضعت الصرة بداخله وأحكمت ربطها جيداً، ثم شدت البنطال جيداً، وحاولت جاهدة أن تضبط وضع الصرة كي لا تضايقها خشية أن يكتشف اليابانيون أمرها. بينما انزوت عمتي إلى جوار الحائط، وراحت تُراقب تصرفات أمها الغربية.

فُتح باب المدخل الكبير، وسقطت إحدى درفتيه الكبيرتين الثقيلتين على الأرض، وبمجرد أن سمعت زوجة جدِّي صوت سقوط الدرفة على الأرض سارعت بالاختفاء أسفل المرجل، وراحت تنثر الرماد على وجهها، وعمت الفوضى أرجاء الفناء، فسارعت زوجة جدِّي بالوصول إلى الغرفة الداخلية وأغلقت بابها، وصعدت أعلى مصطبة التدفئة واحتضنت صغيرتها وحاولت جاهدة أن تكتم صوتها، وسمعت صوت متممة الجنود اليابانيين وقد بدءوا يستخدمون أسلحتهم في تحطيم باب الغرفة، كان باب الغرفة الوسطى أضعف بكثير من باب المدخل، لم يصمد أمام محاولتهم، وسمعت الأم صوت فتح باب الغرفة الوسطى، ونظرت إلى العَصَوَيْن خلف الباب وقد سقطتا على الأرض، ثم تأكدت من أنهم قد نجحوا في اقتحام الغرفة الوسطى. وبقيت الدرفتان الصغيرتان اللتان كانتا تستندان إلى حائط الغرفة كأخر حاجز بينها وبين المعتدين. وبالطبع فقد كانت الدرفتان أضعف بكثير من باب المدخل وباب الغرفة الوسطى، وما داموا قد نجحوا في تحطيم باب المدخل وباب الغرفة الوسطى، فإن تحطيم الدرفتين سيكون أمراً تافهاً بالنسبة لهم، والأمر كله يتوقف على إذا ما كانت لدى الجنود اليابانيين الرغبة في اقتحام الدرفتين وتحطيمها، ويتوقف على إذا ما كانوا يمتلكون رغبة تحطيم جميع الحواجز بهدف الوصول إلى فريستهم؛ وما دام

الأمر هكذا، فإنه لا يزال لديها بصيص من الحظ؛ لأن الخطر الذي يمكن أن يأتي لها من ذلك الحاجز هو على أية حال مجرد توقُّعات من الصعب أن تتحوَّل إلى واقع، ثم راحت زوجة جَدِّي تُحدِّق إلى ذلك الحاجز في حالة من القلق الشديد الذي شعرت به بسماع وقع أقدام الجنود اليابانيين وحواراتهم التي لا تفهم منها شيئاً، وكانت الدرفتان نواتي لون أحمر داكن، وقد امتلأت بكراتهما ببعض التراب الرمادي، كما ظهرت بعض آثار الدماء الحمراء الداكنة القذرة على مزلاج الباب، وكانت تلك الدماء تخص فأراً أسود قتل في ذلك الموضع، ومضت زوجة جدي تتذكر عندما قامت بقتل ابن عرس الأسود، أطلق صوتاً قوياً ثم راح يتلوى على الأرض حتى فقد القدرة تماماً على الحركة، وكانت بالطبع تكره ابن عرس الثُرس من أعماق قلبها، ففي أصيل أحد أيام خريف عام ١٩٣١م، وبينما كانت زوجة جَدِّي تقوم بجمع بعض الخضراوات البرية من وسط حقول الذُّرة الرفيعة، رأت ابن عرس يقف أعلى قبر صغير مُغطَّى بالأعشاب الصفراء، وبدأ جسده متشحاً بالصفار، بينما بدأ فمه شديد السواد مثل الحبر الأسود تماماً، وقد انتبهت إليه عندما كانت تقوم بقضاء حاجتها وسط حقول الذُّرة. رآته واقفاً أعلى ذلك القبر، يرتكز على قدميه، ويرفع مخالبه ويهزهما في اتجاهها. وفجأة أحسَّت كما لو أنها صُعِقَتْ بتيار كهربائي شديد، سرت بجسدها رعشة شديدة من رأسها حتى أخمص قدميها، فتمسَّرت وسط حقول الذُّرة وراحت تصيح بكلام غير مفهوم، وعندما عادت إلى حالتها الطبيعية، لفَّ الظلام حقول الذُّرة، وامتلات السماء بالنجوم، وراحت تبحث لها عن مخرج من هذا الظلام، حتى توصلت إلى طريق ترابي يقودها إلى داخل القرية، واختفى من أمام عينيها خيال ابن عرس، ثم ظهر مرة ثانية. وقد أجبرها ذلك الخيال على أن تصيح بأعلى صوتها، حتى إنها صاحت بصوت أحسَّت بأنه ليس صوتاً طبيعياً، وأنها تشعر بدهشة وخوف شديد لسماع ذلك الصوت الذي يختلف تماماً عن صوت صياح الإنسان العادي، أصيبت زوجة جَدِّي بحالة من الجنون لفترة طويلة، وشعرت أنها استطاعت أن تتحكم في نفسها، ولا بد أن تلتزم بقواعد الجنون، فراحت تصرخ وتضحك بصوت مرتفع، وتَهْذِي بكلام غير مفهوم وتتصرَّف تصرفات غريبة، وكلما كانت تعاودها تلك الحالة، كانت تشعر وكأنها شخصان مختلفان تماماً، وأنها كانت تصارع داخل حفرة ممتلئة بالشهوة والموت، وأنها تعجز عن الخروج من تلك الحفرة. وأحسَّت كما لو أن يديها قبضتاً على طوق النجاة الذي يمكن أن يخرجها من تلك الحفرة، ولكن ما إن تقبض عليه بشدة حتى يتحوَّل ذلك الطُّوق إلى جزء من الوحل يصعب السيطرة عليه، لتسقط داخل الحفرة من جديد. ووسط كل هذه

المعاناة، كان ابن عرس ذو الفم الأسود لا يتوقّف عن الظهور أمامها، وهو يكثّر لها عن أنيابه ضاحكًا، ويهز لها ذيله، كانت تصرخ بصوت عالٍ كلّمًا لأمس ذيله جسدها، وفي النهاية غادر ابن عرس وقد أنهكه التعب، وسقطت زوجة جدّي مغشيًا عليها، وقد تصبّب جسدها عرقًا، واصفر وجهها من شدة التعب. ولكي يتم معالجة الجنون الذي أصاب زوجة جدي، كان جدّي قد ركّب بغلته وقصد قرية باي لان يستقدم السيد لي شان رن المتخصص في طرد الأرواح والقبض على العفاريت، كان السيد لي شان رن قد قام بحرق البخور وإشعال الشموع، ورسم باللون الأحمر الداكن علامة غريبة على ورقة صفراء، ثم حرقها حتى تحولت إلى كتلة من الرماد ومزجها بدم كلب أسود اللون، ثم وضع الخليط داخل أنف زوجة جدّي وفمها. حتى راح ذلك العفرير الذي كان يلبسها يتلوّى ويصيح بصوت جنوني إلى أن خرج من داخلها، ثم عادت زوجة جدّي إلى حالتها الطبيعية منذ ذلك اليوم. وفيما بعد كان ابن عرس قد عاد إلى منزلها لسرقة بعض الدجاج، فاشتبك مع الديك الأحمر القوي في معركة شرسة، انتهت بهزيمة ابن عرس، وقد تمكن الديك من أن يفقده إحدى عينيه، فراح ابن عرس يتلوّى وسط الفناء، فاستغلت زوجة جدّي الفرصة، وحملت مزلاج الباب وخرجت إلى الفناء، وراحت تضرب ابن عرس ضربات انتقام قوية. حتى تمكّنت من الثأر لنفسها وشفّت غليلها من ذلك الحيوان الشرس، حملت ذلك المزلاج الملطخ بالدماء، ووقفت وسط الفناء شاردة لبعض الوقت. ثم واصلت ضرب ابن عرس حتى حطمت جسده تمامًا، وعادت إلى غرفتها وقد أحسّت أنها انتقمت منه أشد الانتقام. راحت زوجة جدّي تُحدّق في آثار الدماء التي تملأ المزلاج، وتذكّرت تلك الحادثة القديمة، وأحسّت وكأنها تسمع صوتًا مربعًا جدًّا يأتي من أعماقها.

اهتزت درفة الباب الضعيفة قليلًا ثم فتحت على مصراعيتها، ودخل إلى الغرفة جندي ياباني ذو بشرة صفراء يمك ببنديقية مزودة بحربة، واستطاعت زوجة جدّي وسط صراخها وعدم تركيز عينيها أن تحدد ملامح ذلك الجندي الياباني، غير أن فمه ووجنتيه وشكله المهذب قد تحول في لحظة إلى نفس ملامح ابن عرس الذي انتهت حياته بين يديها. بدأ لها فمه المدبّب وشاربه الأسود ونظراته المتلصصة تشبه ابن عرس إلى حدّ كبير، إلا أن ابن عرس كان أضخم منه، وكان شعره أكثر اصفرارًا ونظراته أكثر مكرًا، وهكذا راحت زوجة جدّي تستعيد ما حدث خلال تلك المعركة التي أبلت فيها بلاءً حسنًا، تأذت عمتي الصغيرة كثيرًا من شدة صراخ أمها، وشعرت بخوف ورعب شديد من منظر وجهها الذي لطحته بالرماد، فراحت الفتاة تحاول جاهدة الخلاص من بين ذراعي أمها اللتين بدتا لها

مثل سياج حديدي، فقفزت لتجلس أعلى حافة النافذة، حتى تمكّنت من رؤية ستة من الجنود اليابانيين، كانت أول وآخر مرة تراهم في حياتها القصيرة.

ووقف الجنود اليابانيون الستة أمام مدفأة زوجة جدي، كانوا يحملون جميعاً بنادق مزودة بمحاريب لامعة، وقد بدوا في زحامٍ شديدٍ داخل الغرفة، علّت وجوههم ابتسامة ماكرة وحمقاء كابتسامة ابن عرس، وبدت بالنسبة لتلك الفتاة الصغيرة مصفرة ومحمرّة وجميلة ودافئة وودودة مثل خبز الذرة الذي خرج لتوّه من الفرن. ولم تكن عمّتي تخاف آنذاك من أي شيء أمامها إلاّ من تلك الحراب التي كانت مزودة بها بنادق هؤلاء الجنود اليابانيين، كانت تخاف أيضاً من وجه أمها الجاف مثل واحدة القرع الجافة، وبدت وجوه هؤلاء الجنود اليابانيين عامل جذب مألوف لها.

راح الجنود اليابانيين يضحكون كاشفين عن أسنانهم المكشّرة أو المنتظمة أو المتباعدة عن بعضها البعض، وهنا انتاب زوجة جديّ الرعب الشديد بسبب بعض الجنون الذي تبقى من آثار ابن عرس وبسبب ضحكات هؤلاء الجنود، واستطاعت أن تخمن من خلال تلك الضحكات أن هناك خطراً شديداً سيواجهها عمّاً قريب، مثلما كانت قد استطاعت فيما مضى أن تتنبأ بما وقع من ابن عرس تجاهها في تلك الحادثة القديمة. ومن ثم، فقد راحت تصيح بصوت عالٍ، وهي تضغط بكلتا يديها على بطنها، وتميل بجسدها ناحية الحائط.

وتقدم إلى المدفأة جندي ياباني يصل طوله إلى حوالي متر وخمسة وستين سنتيمتراً تقريباً — وربما يكون أطول أو أقصر من ذلك قليلاً — ويبلغ عمره ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين، خلع قبعته العسكرية، ومسح على صلعته، وعلت وجهه نظرة غامضة، وراح يتحدث بلغة صينية متلعثمة قائلاً: «أنت يا، أنت أيتها الفتاة الجميلة، لا تخافي أيتها الجميلة!» ثم سند بندقيته إلى جانب سور المدفأة، وأمسك بالسور، وقفز إلى أعلى مصطبة التدفئة، ثم راح يتلوى مثل الدودة حتى وصل أمام زوجة جدي، وهنا ودت المرأة لو أن ابتلعها شقوق الحائط، ثم اختلطت دموعها الغزيرة ببقايا الرماد الذي كان يملأ وجهها، ليكشف عن بشرة سوداء لامعة. فراح الجندي الياباني يستمر في ثرثرته، ومد أصابعه القصيرة الغليظة وقرص وجه زوجة جدي قرصة سريعة. وما إن طالت يده وجهها، حتى شعرت المرأة بامتعاض شديد، وكأن ضفدعاً تسلل إلى داخل بنطالها. فراحت تصيح بصوت مرتفع، فأمسك الجندي الياباني برجليها وراح يدفعها بقوة للخلف، فسقطت المرأة على مصطبة التدفئة واصطدمت رأسها بحائط الغرفة. وبعد أن رقدت زوجة جدي

على مصطبة التدفئة، بدت بطنها مثل هضبة صغيرة، فبدأ الجندي الياباني بالمسح على بطنها، ثم نظر بطرف عينيه إلى تلك البطن المزيفة وخبطها خبطة قوية، راح الجندي الياباني يحكم سيطرته على قدمي المرأة بكلتا ركبتيه، وبدأ يفك رباط بطنالها، بينما راحت هي تمنعه بكل ما أُوتيت من قوة وهي تتلوى، ثم تمكنت أخيراً من عضه عضه قوية في أنفه التي بدت مثل رأس الثوم، فصرخ صرخة غريبة، وأرخى يديه وراح يمسك بأنفه ليمنع الدماء التي بدأت تسيل منها، ثم راح ينظر نظرات مريبة إلى زوجة جدّي التي انزوت إلى جانب الحائط، وهنا ضحك الجنود الخمسة الذين كانوا يقفون أسفل مصطبة التدفئة. بينما سارع ذلك الجندي المصاب بإخراج منديل يد أسود ووضعه على أنفه وراح يضغط عليه بشدة، ثم وقف أعلى مصطبة التدفئة، وقد تغيرت تعبيرات وجهه التي كانت منذ قليل تبدو وكأنها تعبيرات شاعر غزل أثناء إنشاد أبيات من الشعر العاطفي، تغيرت ملامحه لتكشف عن حقيقته كذئب مفترس، فرفع بندقيته وصوبها تجاه بطن زوجة جدّي المرتفعة، وقد انعكس ضوء الشمس على حربة البندقية، ولمع ضوء الشمس، وهنا صرخت زوجة جدّي آخر صرخة ثم أغمضت عينها.

جلست عمتي أعلى حافة النافذة، كانت قد تابعت باهتمام شديد ما حدث بين أمها وذلك الجندي الياباني الممتلئ الجسم، ولكنها لم تستطع أن تتحقق من نية ذلك الجندي الياباني السيئة من خلال وجهه الذي بدأ أمامها، حتى إنها راحت تمسك بحب استطلاع ذلك الضوء الذي انعكس على صلته، بل إنها استهجن صوت صراخ أمها الذي بدا لها مثل صوت الحيوانات البرية، ولكنها ما إن رأت ذلك التغير الكبير الذي طرأ على ملامح ذلك الجندي وقيامه بتصويب حربته تجاه بطن أمها، نقول ما إن رأت ذلك حتى سيطر عليها شعور بالخوف الشديد على نفسها وشعرت بالحب العميق لأمها. وعندها قفزت الفتاة من أعلى حافة النافذة وألقت بنفسها على أمها.

وتحدث ذلك الجندي سليل اللسان الذي سبقهم في الدخول إلى الغرفة ببعض الكلمات مع ذلك الجندي الممتلئ الجسم الذي كان يقف أعلى مصطبة التدفئة، ثم صعد هو إلى أعلى مصطبة التدفئة، وأزاح الجندي إلى أسفل، ثم رماه بابتسامة ساخرة. ثم أدار وجهه وأخذ يحمل بندقيته بإحدى يديه، بينما راح يجذب شعر الفتاة بيده الأخرى وكأنه يجذب رأس واحدة من اللفت، حتى استطاع أن يقتلعها من حضن أمها، وكأنه يقتلع رأس اللفت من بطن تربة صلبة، دفعها بقوة إلى خلف النافذة، ثم جذبها إلى أعلى مصطبة التدفئة. وقد أدت تلك الدفعات القوية إلى تحطيم النافذة. حبست الفتاة صراخها

وتغيرت ملامحها من شدة الغضب، وهنا تحررت زوجة جدّي من سيطرة ابن عرس عليها في خيالها وانقضت على ذلك الجندي مثل الحيوان المفترس، فاستقبلها الجندي الياباني بركلة قوية في بطنها. وعلى الرغم من أن ركلته قد أصابت بشكل مباشر تلك الصرة التي كانت تضعها في بطنها، فإن ركلته القوية استطاعت أن تحدث تأثيراً قوياً على بطنها الحقيقية، واستطاعت أن تدفعها إلى حائط الغرفة، ليصطدم ظهرها ورأسها بالحائط، وعندما جلست على الأرض مغشياً عليه، شعرت بألم شديد في بطنها، ولم تستطع الفتاة الصغيرة أن تكتم صراخها أكثر من ذلك، فراحت تصرخ بصوت مرتفع للغاية، واستطاع صوت صراخها المرتفع أن يوقظ الأم، لتنتبه إلى أن ذلك الجندي الياباني النحيف الذي يقف أمامها الآن قد انفصل تماماً عن صورة ابن عرس التي كانت تسيطر عليها منذ قليل. وانتبهت جيداً إلى وجهه النحيف وأنفه الطويل المدب، وعينيه السوداوين اللامعتين، وكأنه مثقف ذكي سريع البديهة واسع الاطلاع والمعرفة. فسجدت زوجة جدّي على مصطبة التدفئة وراحت تذرّف الدموع وهي تتوسل إليه قائلة: «أيها السيد ... أيها السيد المحترم ... فلتعفّ عنا ... أليس لديكم زوجة وأبناء مثلنا ... أليس لديكم أخوات مثلنا؟!»

وتحركت حدود الجندي الياباني التي بدت مثل حدود فأر صغير ممتلئ الجسم، ولاحت في عينيه الزرقاوين طبقة دخان أزرق، فمع أنه لم يفهم كلام زوجة جدي، فإنه على الأقل قد فهم مضمون ما تفوهت به. وانتبهت زوجة جدّي إلى حركة كتفيه واهتزاز وجنتيه عندما سمع صوت صراخ عمتي، وإلى نظرة الشفقة التي علت وجهه آنذاك، فنظر بجبن ملحوظ إلى رفقاءه الذين كانوا يقفون أسفل مصطبة التدفئة، وقد لاحقته عيون زوجة جدّي التي راحت تتأمل وجوه هؤلاء الجنود الخمسة، علت وجوه هؤلاء الجنود نظرات وتعبيرات مختلفة، غير أن زوجة جدّي شعرت أن نظراتهم وتعبيرات وجوههم تخفي بعض اللين والعطف، كانوا يحاولون جاهدين التمسك بالجدية والصرامة في التعامل ويعلمون عن تلك التعبيرات والنظرات القاسية الساخرة تجاه ذلك الجندي النحيف أعلى مصطبة التدفئة. حول الجندي النحيف نظرتة عن هؤلاء الجنود الخمسة، بينما راحت زوجة جدّي تتابع نظرات عينيه، ولاحظت خمود نظراته، وبدأت وجنتاه ترتعشان بشدة، بدأت عضلاته تهتز بشكل ملحوظ، فراح الرجل يعض على أسنانه وكأنه يخفي شيئاً ما، ثم وجه حربة بندقيته اللامعة تجاه فم عمتي الصغير.

وبدأ الرجل يتحدث بلغة صينية وبلهجة قاسية قائلاً: «أنت يا، اخلي بنطالك! اخلي بنطالك!» كانت لغته الصينية أفضل من لغة ذلك الجندي السمين الأصلع.

وكانت زوجة جدِّي قد تحررت منذ قليل من تخيلاتهما لابن عرس، ولم تكن قد عادت لحالتها الطبيعية بعد، كان ذلك الجندي النحيف يبدو لها أحياناً مثل المثقف واسع المعرفة وأحياناً أخرى مثل ابن عرس ذي الفم الأسود، فراحت ترتجف حيناً وتصرخ حيناً، حيث كادت تلك الحربة اللامعة أن تندفع إلى داخل فم ابنتها الصغيرة، وهنا أفاقت من تخيلاتهما، وشعرت بألم شديد يعتصر قلبها، خلعت بنطالها ثم خلعت ملابسها الداخلية، حتى بدت عارية تماماً، ثم ألقت بتلك الصرة التي كانت تضعها في بطنها إلى أسفل مصطبة التدفئة، حتى اصطدمت تلك الصرة بوجه أحد الجنود اليابانيين، والذي بدا شاباً يافعاً وسيماً، وعندما سقطت تلك الصرة على الأرض، راح ذلك الجندي الشاب الوسيم يتابعها بعينيه الجميلتين وهو في ذهول شديد، فابتسمت إليه زوجة جدي ابتسامة غريبة، بينما كانت عيناها تذرغان الدموع، ثم رقدت أعلى مصطبة التدفئة وراحت تقول بصوت مرتفع: «فلتتقدم! فلتتقدموا جميعاً! ولا تلمسوا ابنتي! لا تلمسوا ابنتي!»

استعاد ذلك الجندي النحيف حربته، وأنزل ذراعه الذي بدا عليه التعب، وكأنه قد شلَّ تماماً، وافترش جسد زوجة جدِّي الغض مصطبة التدفئة، وبدت عيون هؤلاء الجنود اليابانيين شاردة ووجوههم جامدة وكأنهم تماثيل من الصلصال، بينما راحت زوجة جدِّي تنتظر هجومهم على جسدها، وهي متبلدة الشعور، وقد علا وجهها الشحوب.

وها أنا أفكر الآن هل زوجة جدِّي كان سيمكنها تجنب تلك الإهانة الكبيرة لو كانت قد واجهت جندياً يابانياً واحداً فقط؟ لا، لم يكن بإمكانها تجنب تلك الإهانة التي تعرضت لها، فعندما يكون هناك إنسان وحش مفترس بمفرده، لن يكون مضطراً لأن يرتدي قناع الإنسانية وسيضاعف من جنونه وطيشه، وسيخلص من جميع الألقعة والكلمات الجميلة وسينقض على فريسته بكل وحشية. في الظروف العادية، نجد أن القوة الأخلاقية قد تجبر تلك الحيوانات البرية التي تعيش وسط البشر على التخفي وراء ملابس أنيقة تُخفي شكلها الحقيقي، فالمجتمع المستقر الآمن يعتبر مسرحاً لتدريب البشر، تماماً كما لو وضعنا بعض النمر والذئاب داخل قفص لمدة طويلة، فإن تلك الحيوانات ستتلوث ببعض صفات البشر. أليس كذلك؟ نعم؟ لا؟ أليس كذلك؟ إنني لو لم أكن رجلاً، لو أمسكت بخنجر فسأقوم بقتل جميع الرجال على سطح الأرض! وربما لو كان ذلك الذي تعرض لزوجة جدِّي في ذلك اليوم جندياً يابانياً واحداً فقط، فلربما فكر في أمه أو زوجته، ولو فكر في هؤلاء فقد يتخلى عن رغبته، أليس كذلك؟

تشبث هؤلاء الجنود اليابانيون الستة بموقفهم تجاه زوجة جدي، ووقفوا أمام جسدها العاري بخشوع تامٍّ وكأنهم يقفون أمام ضريح، حيث لم يكن يرغب أو يجرؤ

أحد منهم على الترحيح من مكانه، رقدت هي أمامهم مثل سمكة كبيرة تتعرض لأشعة الشمس، وبكت عمتي بكاءً شديداً حتى بُحَّ صوتها من كثرة البكاء. وفي حقيقة الأمر، إن هؤلاء الجنود كانوا قد تأثروا بما قامت به زوجة جدِّي وتقديم نفسها لهم، فعندما رقدت أمام هؤلاء الأبناء بقلب الأم، راح كل منهم يستعيد مسار حياته الطويلة.

وأعتقد أنها لو كانت استطاعت أن تصبر قليلاً، فإنه ربما كان بإمكانها أن تنتصر عليهم. فيا زوجة جدِّي لماذا سارعتِ بارتداء ملابسك فور أن رقدتِ على مصطبة التدفئة؟ فإنك ما إن بدأتِ في وضع إحدى قدميك داخل بنطالك عمدتِ الفوضى بين هؤلاء الجنود الخمسين المنتظرين أسفل مصطبة التدفئة، وقام ذلك الجندي الذي تعرضت أنفه لعضة شديدة من أسنانك بإلقاء بندقيته وقفز إلى أعلى مصطبة التدفئة، وقد رحت تنظرين بتقرز إلى أنفه المصاب، ثم لم تتمكني من السيطرة على حالة الجنون الذي يعود إليك بين الحين والآخر، أما ذلك الجندي النحيف الذي تمكَّن من التغلب عليك بحيلته الماكرة فقد ركل الجندي السمين إلى أسفل مصطبة التدفئة، ثم لوح بقبضته للجنود الواقفين أسفل مصطبة التدفئة وهو يتكلم بكلمات غير مفهومة لك، ثم قام بالصعود أعلى جسدك، والتصق جسده بجسدك وامتلأ وجهك بالرذاذ الكثيف الذي كان يخرج من فمه الكريه. ثم لاحت أمام عينيك صورة ابن عرس ذي الفم الأسود المدبب، فبدأت في الصراخ بجنون، وقد أصيب الجنود اليابانيون بالعدوى وراحوا يصرخون مثلك بصورة غير طبيعية.

نعم، إنه ذلك الجندي الياباني الأصلع في منتصف العمر الذي أراح الجندي النحيف من أعلى جسدك. والتصق وجهه بوجهك، فأغمضتِ عينيك وقد شعرت بامتعاض شديد من هيئته المخيفة، وشعرت بألم شديد يتعرض له ذلك الجنين صاحب الأشهر الثلاثة في بطنك العالية، وسمعت صوت بكاء عمتي، وصوت تنهد ذلك الجندي الأصلع السمين مثل الخنزير، وصوت قيام هؤلاء الجنود الواقفين أسفل مصطبة التدفئة بدق الأرض وصوت ضحكاتهم الفاجرة. قام الجندي الأصلع بعضك عضه قوية في وجهك، وكأنه كان ينتقم لنفسه من تلك العضة القوية التي تركت أثراً واضحاً في فمه، وامتلأ وجهك بالدموع والدماء وعرق ذلك الجندي الأصلع، وخرجت من فمك كتلة من الدماء الساخنة، وامتلأ أنفك برائحة كريهة، وزاد الألم الذي يطبق على جنينك، وأصيبت جميع عضلات جسمك وأعصابك بتشنج شديد، وأصبحت مثل القوس المشدود، وشعرت بأن جنينك يحاول بأقصى استطاعته أن يختفي في مكان عميق داخل بطنك العالية، يحاول أن يختفي من

تلك المهانة التي تتعرضين لها الآن، وبدت على وجهك علامات الغضب الشديد، فعندما لامس خد ذلك الجندي الياباني فمك، إذا بك تنقّصين على وجهه بعضه قوية من أسنانك الحادة، وقد بدأ لحم خده مثل المطاط الناعم، وأحسست برائحة لحمه الكريهة، فبدأت ترخي أسنانك قليلاً، ثم أعقب ذلك ارتخاء أعصابك وعضلاتك.

كانت زوجة جدّي قد سمعت بعد ذلك صوت صراخ عمتي المفجع القادم من مكان بعيد جداً، فراحت تفتح عينيها بصعوبة شديدة لترى أمامها صورة كما في عالم الخيال، رأّت ذلك الجندي الياباني الشاب الوسيم يقف أعلى مصطبة التدفئة، وقد كان يستفز عمتي بحربة بندقيته، وهو يلوح بالحربة أمام عينيها، فقفزت عمتي إلى أسفل مصطبة التدفئة بسرعة شديدة، وقد انفتح معطفها الأحمر الصغير تحت أشعة الشمس ليبدو مثل قطعة من الحرير الأحمر الأملس، راح المعطف يتطاير داخل الغرفة من الأمواج، ووقف شُعر رأسها خلال قفزتها السريعة من أعلى مصطبة التدفئة، فحمل الجندي الياباني الشاب بندقيته، وتساقت من عينيه قطرات من الدموع الزرقاء.

صرخت زوجة جدّي صرخة قوية، وودّت لو طارت إلى ابنتها، ولكن جسدها كان قد أصبح مثل الجثة الهامدة، ورأت أمامها هالة من الضوء الأصفر أعقبها ظهور هالة جديدة من الضوء الأخضر، وفي النهاية احتضنتها مياه المستنقع السوداء.

فلتقطعي أيتها الخناجر الحادّة رقاب هؤلاء الشياطين!

واحمرّت الدُّرة الرفيعة، وجاء الشياطين اليابانيون.

واستباحوا تراب وطننا، واستباحوا جسد زوجة جدي.

فلتأخذوا جرابكم وأسلحتكم، ولتأخذوا معاولكم وعصيّكم، ولتقاتلوا الشياطين، وتحمّوا بلادكم، ولتغسلوا عاركم!

٥

كان جدّي قد وصل إلى قرية شيان شوى كوو تزه في صباح اليوم التالي لاعتداء الجنود اليابانيين على زوجته وابنته، جاء على ظهر أحد البغلين الأسودين المملوكين لعائلي، انطلق قبيل فجر ذلك اليوم، ووصل عند مطلع شمس اليوم نفسه، كان يشعر بضيق شديد طوال رحلته بسبب ذلك الخلاف الذي دبّ بينه وبين جدتي قبيل تحركه إلى قرية شيان شوى كوو تزه، حتى إنه لم يهتم بالتمتع بمنظر حقول الدُّرة الجميل لحظة طلوع الشمس ومراقبة جماعات الغربان التي تُحلّق في عَنان السماء في الصباح المبكر، تلقّى

ذلك البغل الأسود المسكين ضربات قاسية تحته على الجري بأقصى سرعة، وحوال البغل المسكين أن يسترق النظر غاضباً إلى سيده الذي يركب على ظهره، والذي لا يتوقف عن ضربه، ورأى البغل أنه يحاول تنفيذ أوامر سيده قدر استطاعته، كان يجري بأقصى سرعة ممكنة. نعم، كان البغل يجري بسرعة شديدة. ففي صباح ذلك اليوم، انطلق ذلك البغل الأسود حاملاً جدّي على ظهره، وراح يقطع ذلك الطريق الترابي المتعرج بأقصى سرعة، كانت أقدامه تدك الأرض دكاً، وكان الطريق الترابي يمتلئ بآثار فيضان مياه الخريف وآثار سير العربات ذات العجلات الخشبية. ومضى جدّي يتقدم على ظهر البغل ووجهه شاحب، وجسده المتصلب يهتز إلى أعلى وإلى أسفل مع تلك السرعة الشديدة التي كان يقطع بها البغل ذلك الطريق الطويل. حتى شعرت جماعات فئران الحقول التي خرجت تبحث عن رزقها مبكراً بالفزع الشديد.

كان جدي، والجد لoo الذي بدأت تظهر عليه ملامح الشيخوخة، قد سمعاً في أثناء حديثهما داخل الحانة صوت دوي الطلقات النارية والانفجارات القادمة من الجهة الشمالية الغربية، وكان جدّي قد شعر ببعض القلق، فخرج إلى خارج المنزل وراح يتفقد الشارع، ليكتشف أن هناك حالة من السكون التام قد عمّت المكان بما فيه، فعاد ثانية إلى الحانة ليشارك الجد لoo خان الشراب، كان الجد لoo خان لا يزال يتولّى مهام المشرف على فرن صناعة النبيذ التي تمتلكها عائلتي، ففي عام ١٩٢٩م عندما تعرّض جدّي للتنكيل به وغادرت جدتي البلدة، وهجر عمال الفرن عملهم بحثاً عن لقمة عيش في مكان جديد آمن، مكث الجد لoo خان في بيت العائلة للحفاظ على الفرن وحمايته مثل الكلب المخلص لسيده، وكان يؤمن بأنه مهما طال الظلام لا بد أن يبده نور الصباح، وراح ينتظر في صبر زوال الغمة عن جدّي وخروجه من سجنه، وعودة جدتي إلى زوجها وبيتها. وحملت جدتي أبي وعاداً بصحبة جدّي من قرية يان شوى كoo تزه إلى مسقط رأسهم، وطرقوا باب الفناء الكبير الموحش ليخرج إليهم الجد لoo خان مثل العفريت المخيف من وسط كومة كبيرة من الأعشاب، وما إن رأى الشيخ سيده وسيده قد عادا إلى منزلهما، حتى سجد أمامهما وقد فاضت عيناه بالدموع، وكان جدّي وجدتي يُعاملان الجد لoo خان كوالدهما؛ نظراً لما كان يتمتع به الرجل من أخلاق حميدة وإخلاص لعائلتي، حتى إنهما كانا قد أوكلتا له إدارة شئون فرن صناعة النبيذ، ولم يكونا يسألانه عن أي شيء يتعلق بحسابات الفرن.

وعندما مالت الشمس نحو الجنوب الشرقي، دَوَّى صوت بعض الطلقات النارية، واستطاع جَدِّي أن يحدد مصدرها بأنها إما أن تكون بالقرب من قرية شيان شوى كوو تزه أو أن تكون داخل حدود القرية نفسها. وهنا اشتد بجدي القلق، وسحب بغله وهمَّ بالتَّوجُّه إلى قرية شيان شوى كوو تزه، ولكن الجد لوو خان نصَّحه بأن ينتظر بعض الوقت، وألا يَتَّخِذ هذا القرار المتهور، وإلا عرَّض نفسه للخطر الشديد؛ فاستجاب جَدِّي لنصيحة الجد لوو خان، وانتظر داخل الحانة وهو في غاية القلق، وراح ينتظر عامل الفرن الذي أرسله الجد لوو خان إلى هناك لتَقْصِي الأَخْبَار، وعاد ذلك العامل في وقت الظهرية يلهث من شدة التعب، وقد امتلأ وجهه بالعَرَق وامتلاً جسده بالوحل، حيث ذكر العامل أنه في صباح ذلك اليوم قام اليابانيون بمحاصرة قرية شيان شوى كوو تزه، ولكن كان من الصعب أن يقف على الحالة الداخلية للقرية، وأنه كان قد تَمَكَّن من الاختفاء داخل حقول القصب التي تبعد مسافة كيلومتر ونصف عن القرية، واستمع إلى صراخ أهل القرية الشديد، كما تَمَكَّن من رؤية بعض ألسنة اللهب تمتد في سماء القرية. وما إن خرج العامل من أمامهما، حتى حمل جدي سلطانية من النبيذ ورفعها على فمه لينتهي منها في شربة واحدة، ثم عاد مسرعاً إلى غرفته، وراح يبحث عن مسدسه الماوزر الذي لم يخرج من مخبئه وسط الحائط منذ فترة طويلة.

كان جَدِّي قد التقى عند خروجه من الحانة بحوالي سبعة أو ثمانية من اللاجئيين في ثياب ممزقة وذوي وجوه شاحبة، تَمَكَّنوا من الفرار من بطش اليابانيين من قرية شيان شوى كوو تزه. وكانوا يجرُّون حماراً عجوزاً ذا عينين جاحظتين، وضعوا فوق ظهره سَلَّتَيْن، أما السلة التي على اليسار فقد كانت تحتوي على لحاف قُطْنِي، والسَّلَّة التي على اليمين رقد بداخلها صبي في الرابعة من عمره تقريباً، وقد رأى جَدِّي ذلك الصبي الصغير الذي كان ذا رقبة نحيفة طويلة ورأس كبير، وأذنين سميكتين كبيرتين. جلس الصبي داخل السلة وبدت نظراته تُعبِّر عن شعوره بالطمأنينة والأمان، كان يمسك بمنجل قديم اعتلاه الصداً وينشغل بتقشير عصا من خشب الصفصاف الأبيض، وكان لا يتوقف عن مص شفثيه لانشغاله بتقشير العصا بقوة، بينما كانت تتطاير نشارة الخشب إلى خارج السلة، وأحس جَدِّي أن ذلك الصبي يتمتع بجاذبية قوية، وفي الوقت الذي أجبرته تلك الجاذبية على التقرب من والدي الصبي للاستفسار عن ظروف القرية القادمين منها، كان جَدِّي لا يتوقف عن التفكير في التقرب من الصبي ومشاهدة حركاته الدقيقة في تقشير العصي الخشبية والتحديق في أذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى سعادته الكبيرة

وعمره المديد وقدرته الكبيرة على الابتكار. قام والدًا الصبي بتقديم صورة كاملة لجدي عمًا قام به اليابانيون في قرية شيان شوى كوو تزه، كما ذُكرًا أن الفضل في تَمَكُّنهما من الفرار من أيدي اليابانيين إنما يعود إلى ذلك الصبي، فلم يتوقَّف الصبي عن البكاء الشديد منذ بعدَ ظُهرَ اليوم الأول من دخول اليابانيين إلى القرية، كان يريد إقناع والديه بالسَّفر خارج القرية لزيارة جده لأمه، ولم يستطع والداه أن يقنعا به بعدَم السَّفر بكل الوسائل بما فيها التهديد والإغراء. وأخيرًا استجاب الوالدان لرأي الصبي، واستيقظوا مبكرًا وجَهَّزُوا حمارهم، وخرجوا من القرية مع سماع أول صوت انفجار في شرق القرية. وما إن تَمَكَّنوا من الفرار إلى خارج حدود القرية، حتى قام اليابانيون بمحاصرة القرية، قام اللاجئون الآخرون بسرد تجاربهم في الفرار من بَطْش المعتدين اليابانيين، كانت جميعها أمثلة وقصصًا مؤثرة. وعندما قام جدي بسؤالهم عن أحوال زوجته ليان إر وابنته شيانغ قوان، راح هؤلاء اللاجئون يترنَّحون هنا وهناك، وقد بدت على وجوههم الحيرة وعجزوا عن التَّفَوُّه بكلمة واحدة، وهنا قام ذلك الصبي الجالس داخل السَّلَّة بوضع يديه على بطنه ورفع رأسه لأعلى وأغمض عينيه وراح يجيب جَدِّي قائلًا: «إنهنَّ لم يخرجن من القرية بعد، إنهن ينتظرن الموت.» وهنا دُعر والدًا الصبي ذعرًا شديدًا، وكأنهما كانا يفكران في الكلام نفسه الذي تفوَّه به ابنيهما، أو كأنهما أفاقا فجأة، وراحت والدة الصبي تنظر إلى جدي، وراح والده يضرب على ظهر الحمار، بينما مضى اللاجئون في طريقهم مثل الكلاب الضالة والأسماك التي نجت من شباك الصيادين، وراح جَدِّي يودعهم بنظراته، وخاصةً ذلك الصبي ذا الأذنين الكبيرتين، ولقد صدَّق إحساس جَدِّي ورأيه في ذلك الصعلوك الصغير، حيث أصبح ذلك الصبي بعد عشرين عامًا من ذلك اليوم أحد الصعاليك الشياطين في قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي.

أسرع جَدِّي إلى الغرفة الغربية، ودفع جدار الغرفة غاضبًا، وراح يبحث عن مسدسه الماوزر، غير أنه لم يعثر على المسدس، واكتشف فقط بعض الآثار التي تدل على وجوده هنا من قبل، فأدار جَدِّي جسده غاضبًا، ليقع نظره على ابتسامة ساخرة من جدتي، وقابلته جدتي بوجهها المشرق المُظلم الكئيب في الوقت نفسه، بدأ حاجباها مُتهدِّلين إلى أسفل، وهي تزُمُّ بشفتيها، وتركَّزت ابتسامتها الساخرة عند وجنتيها؛ فراح جدي يرميها بنظرات تَفِيض بالانتقام، ثم صاح فيها وقد بدأ عليه القلق الشديد: «أين مسدسي؟» فرفعت جدتي فمها لأعلى وراحت تخرج هواءً باردًا من أنفها، وأدارت جسدها بعيدًا عنه دون أن تُعيِّره أدنى اهتمام، ورفعت منفضة من ريش الدجاج وراحت تضرب بها على اللحاف الموضوع أعلى مصطبة التدفئة.

صاح جَدِّي غاضبًا: «أين مسدسي؟»
فأجابته جدتي غاضبة: «فلتسأل عنه العفاريت!» بينما كانت لا تزال منشغلة
بتنفيض اللحاف.

حاول جَدِّي التحكم في غضبه وخاطبها قائلاً: «أعطيني المسدس»، ثم راح يشرح
لها الأمر بصوت خفيض قائلاً: «لقد حاصر اليابانيون قرية شيان شوى كوو تزه، وأريد
الذهاب للاطمئنان على زوجتي وابنتي.»

فأدارت جدتي جسدها، وقالت غاضبة: «فلتذهب للاطمئنان على زوجتك وابنتك! وما
شأني أنا بهذا الأمر؟!»

فقال جدي: «أعطيني المسدس!»
فقالت جدتي: «أخبرتك بأنني لا أعلم شيئاً عنه، فلا تطلبه مني ثانية!»
فتقدّم جَدِّي خطوة إلى الأمام، ثم قال: «ألسيت أنتِ التي سرقتِ مسدسي وأهديتِه لأبي
شامة؟»

- «نعم، لقد سرقته وأهديته له! ولم أهد له المسدس فقط، بل إنني أهديته نفسي
أيضاً، وقضيتُ معه ليالي جميلة جداً! وما أسعدَ وألذَّ الليالي التي قضيتهاُ معه!»
تأوّه جَدِّي قليلاً، ورفع قبضته لأعلى ونزل بها على أنف جدتي، فسالت من أنفها
كمية كبيرة من الدم الأسود، وتألّمت ثم سقطت على الأرض، وما إن استطاعت التحامل
على نفسها ونهضت، حتى استقبلها جَدِّي بلكمة في رقبته، وكانت تلك اللكمة قوية جداً
أطاحت بها مسافة ثلاثة إلى خمسة أمتار، لتسقط هنالك أعلى الخزانة الموضوعة إلى جوار
الحائط.

راح جَدِّي يعض على أسنانه ويسبها: «أيتها العاهرة! أيتها الفاجرة!» وقد جمع
سبابه كل الحقد والكره الشديد الذي كان يُكنُّه تجاهها خلال السنوات الماضية. وراح
يتذكر تلك المهانة التي تعرّض لها عندما طرحه أبو شامة أرضاً، وتذكّر تلك المرات
العديدة التي تخيل فيها جدتي بين أحضان أبي شامة، وتذكّر تلك الحالة التي كانت
تنتابُه عندما يفكر في ذلك، وسرّت في جسده سخونة شديدة، فخلع مزلاج الباب المصنوع
من جذوع النخل وصوبه تجاه رأس جدتي التي كانت تحاول النهوض من أعلى الخزانة،
وهي تميل برقبته وقد امتلأ وجهها بالدماء.

نادى عليه أبي الذي عاد مسرعاً من خارج المنزل: «أبي بالتّبني!» وقد اضطره سماع
صوت أبي إلى بقاء يده معلقة في الهواء، وهي تقبض على المزلاج.

ولولا نداء أبي في تلك اللحظة، لكان ذلك المزلاج قد أنهى حياة جدي لا محالة، وكان قضاؤها وقدرها ألا تموت على يد جدي، كان قضاؤها وقدرها أن تموت برصاص المعتدي الياباني، كان قضاؤها وقدرها أن يكون موتها موتاً مُشرفاً مُشرفاً مثل الذرة الرفيعة الناضجة.

زحفتُ جدي حتى قدّمي جدي، وسجدت بركبتيها على الأرض، وتشبّنت بذراعيها بقدميه، وراحت تمسح بيديها الساخنتين على قدميه المتصلبتين، ثم رفعت وجهها المكفهر وراحت تتوسل إليه باكية: «يا جان آو، يا جان آو، يا أخي الأكبر يا زوجي، فلتقتلني، اقتلني. فإنك لا تعلم كم يعز عليّ فراقك وبُعدك عنيّ، ولا تعلم كم أتمنى ألا تذهب إلى هناك، فإنك إذا ذهبت لن تعود ثانية. إن هناك أعداداً كبيرة من اليابانيين، أما أنتَ ففردٌ وحيد، ومهما بلغت قوتك وشجاعتك فلن تقوى على مواجهتهم، فالكثرة تغلب الشجاعة يا أخي الحبيب، وإن تلك العاهرة لهي السبب في هذه الكارثة التي نتعرض لها، وإنني لم أنسك لحظة عندما كنتُ إلى جوار أبي شامة؛ فإنك لا يمكن أن تلقني بنفسك إلى التهلكة يا أخي العزيز! وكيف يمكنني العيش لحظة واحدة بعد مماتك، أما إذا كنتَ مصرّاً على الذهاب إليها، فليكن في الغد، فإن فترة الأيام العشرة التي تقضيها معي ستكتمل غداً، وقد نجحت في مشاركتي فيك ... وعلى أية حال فلتذهب الآن ... فسأتنازل لها عن يوم.»

ألصقت جدي رأسها بركبة جدي، وأحس جدي أن رأسها ذات سخونة شديدة وكأنها قطعة من الجمر الملتهب، وهنا راح يتذكر بسرعة بعض المزايا التي تتمتع بها جدي، وشعر جدي بالندم الشديد، وزاد ندمه عندما رأى أبي الذي كان يختبئ خلف باب الغرفة، وراح يلوم نفسه أنه كان عنيفاً جداً معها، فانحنى واحتضنها إلى أعلى مصطبة التدفئة، وقرّر أن يؤجل رحلته إلى زوجته الثانية وابنته في قرية شيان شوى كوو تزه إلى صباح اليوم التالي، وليحفظهما الرب آمينين سالمين من كل مكروه.

ركب جدي بغله وفرّ مسرعاً سالكاً الطريق الترابي الممتد من قريتنا إلى قرية شيان شوى كوو تزه، وقد بدأ الطريق الذي يبلغ طوله سبعة كيلومترات ونصف طويلاً جداً، وكان البغل يقطعه بسرعته الجنونية، بينما كان جدي يلومه على بطئه، ولا يتوقف عن ضربه ضرباً مبرحاً على مؤخرته. وبدأ الطريق طويلاً جداً وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية. وامتلاً جانباً الطريق الترابي بكميات كبيرة من الغبار التي خلفها البغل الأسود وراءه وهو يقطع الطريق بسرعة جنونية، حتى بدأ الطريق وكأنه مغطى بسحابة سوداء تعوق الرؤية تماماً، انتشرت الروائح الغريبة القادمة من قرية شيان شوى كوو تزه لتملأ سماء الطريق.

وتقدّم جدّي على ظهر بغله حتى تمكّن من دخول القرية، ولم يهتم بالذهاب لرؤية جثث البشر والحيوانات التي كانت مُكوّمة وسط القرية، ولكنه توجّه إلى منزل زوجته مباشرةً، ونزل عن بغله ودخل إلى الفناء. وما إن رأى باب المدخل محطماً شعر بقلق شديد، ثم تقدّم إلى الأمام ليشم رائحة الدماء التي تملأ المكان، راح يجاهد نفسه لعدم الاهتمام بتلك الرائحة. قطع الفناء واقتحم الغرفة الداخلية، ثم تخطّى بسرعة باب الغرفة، ليشعر عندها بأن قلبه قد أصبح مثل قطعة حجرية صلبة، كانت زوجة جدّي لا تزال في وضع قيامها بحماية عمتي شيانغ قوان، مُعلّقة فوق مصطبة التدفئة، بينما كانت عمتي ملقاة على الأرض الطينية المقابلة للسريّر، وقد غطس وجهها الصغير في الوحل، وهي تفتح فمها فتحة كبيرة، وكأنها تطلق صرخة صامتة.

صاح جدّي صيحة قوية، ثم أخرج مسدسه ورفعها عاليًا، وفرّ إلى خارج المنزل مُتعتّر الخُطى، وقفز أعلى ظهر بغله الأسود المنهك، ضرب البغل على كفّله بماسورة المسدس ليحثه على الفرار إلى المدينة، ليبحث عن هؤلاء المعتدين اليابانيين ويغسل عاره بيديه. وما إن رأته عيناها حقول القصب الذابل حتى عرف أنه سلك طريقًا خاطئًا، فعدّل جدّي رأس البغل ووضعه على الطريق الصحيح المؤدي إلى المدينة. وسمع صوت صياح غامض من خلفه، إلا أنه لم يلتفت إلى الورا، وراح يضرب البغل بماسورة المسدس ليحثه على الجري بسرعة. ولكن البغل لم يكن باستطاعته تحمّل كل تلك المعاناة والمعاملة القاسية، فكان كلما تعرّض لضربة من جدّي راح يرفع قدميه الخلفيتين وكفّله لأعلى. وكلما زاد عناد البغل، اشتاط جدّي غضبًا وراح يوجعه ضربًا. صبّ جدّي جام غضبه وكرهه تجاه اليابانيين على كفّل ذلك البغل الأسود، فراح البغل المسكين يتلوى على الأرض ويجري بجنون، حتى قام أخيرًا برمي سيده وسط حقول الدرة المتراكمة من العام الماضي.

وراح جدّي ينهض مثل الحيوان الجريح، ثم رفع مسدسه وصوبه تجاه رأس البغل الذي امتلأ جسمه بالعرق الغزير، بينما كان متسمّرًا في مكانه مُكبّل الأقدام، وقد ظهر في كفّله تورّم في حجم البيضة، وظهرت على جسده آثار دماء سوداء. كانت يد جدّي التي تحمل المسدس لا تزال مرفوعة عاليًا، ثم بدأت ترتعش. وفي تلك الأثناء، ظهر أمامه بغل العائلة الثاني قادمًا تحت أشعة الشمس الحمراء، وظهر الجد لولو خان يركب أعلى ظهر البغل، وبدأ جلد البغل الثاني وكأنه مدهون بطبقة من مسحوق الذهب، رأى جدّي حوافر البغل تتحرك حركات شديدة.

قفز الجد لولو خان من على ظهر بغله وقد انتابه بعض القلق، ومال جسده الهزيل إلى الأمام قليلًا حتى كاد أن يسقط على الأرض. ووقف في المنطقة الواقعة بين جدّي وبين

بغله الأسود، ثم رفع يده وأنزل يد جَدِّي التي كانت ترفع المسدس وراح يخاطبه قائلاً: «يا جان آو، ارجع عن هذا التصرف الطائش!»

وما إن رأى جَدِّي الجد لوو خان أمامه حتى تحوّل غضبه الشديد إلى مزيج من الحزن والغضب، وفاضت عيناه بالدموع. وراح يشكو إليه بصوت مُجهد قائلاً: «أيها العم لوو خان، لقد تعرّضت زوجتي وابنتي للهلاك على أيدي المعتدين اليابانيين.»

وجلس جَدِّي على الأرض وقد انتابه شعور قوي بالحزن والغضب الشديد. وساعده الجد لوو خان لكي ينهض ثانيةً، وقال الجد لوو خان مشجعاً: «يا سيدي الفاضل، إن الرجل الشجاع يثأر ويغسل عاره ولو بعد حين! والآن عليك بالعودة للانتهاء من مراسم دَفْنِهِن حتى يَرْتَحَن في تُرْبَتِهِن.»

فوقف جَدِّي وراح يسلك الطريق المؤدّي إلى القرية مترنحاً بخطوات متثاقلة، بينما سحب الجد لوو خان البغلين وسار خلف جَدِّي عائدين إلى القرية.

ولم تكن زوجة جَدِّي قد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد، راحت تفتح عينيها ناظرة إلى جَدِّي والجد لوو خان اللذين كانا يقفان أسفل مصطبة التدفئة مُحَدِّقِينَ إلى جسدها الملقى جثة هامدة فوق مصطبة التدفئة. ونظر جدي إلى حاجبيها السميكين وعينيها الغائمتين وأنفها المصاب وشفتيها المتورمتين، شعر جَدِّي بحزن شديد على حالها ثم انتابه شعور بالقلق على حياتها. وبدأت عيناه تذرفان الدموع، واهتزت شفثاها وراحت تنادي على جَدِّي قائلةً: «أخي الكبير!»

وناداهها جَدِّي بصوت يعترضه الألم: «يا ليان إر!»

بينما انسحب الجد لوو خان إلى خارج الغرفة.

صعد جَدِّي إلى أعلى مصطبة التدفئة ليساعد زوجته في ارتداء ملابسها. وما إن لامست يدها جلدها، حتى صرخت صرخة قوية، وراحت تهذي بكلمات غير مفهومة وعاودتها تلك الحالة التي كانت تنتابها منذ سنوات عندما كان يهاجمها شبح ابن عرس. فراح جَدِّي يحاول جاهداً شلّ حركة يديها، واجتهد في دس البنطال حول الجزء الأسفل من جسدها، والذي كان شبه ميت وغير نظيف تماماً.

ثم عادَ الجد لوو خان إلى الغرفة، وقال مخاطباً جدي: «سيدي، لقد استعرتُ عربة من الجيران لنحمل عليها زوجتك وابنتك ونعود بهما إلى قريتنا لنعتني بها.»

ومضى الجد لوو خان في كلامه وهو ينتظر سماع رأي جدي، إلى أن هز جَدِّي رأسه بالموافقة.

فحمل الجد لولو خان زوجًا من الألفحة وغادر الغرفة، ثم راح يفرش بهما العربة ذات العجلات الخشبية.

حمل جدّي زوجته بين يديه، وجعل إحدى يديه عند رقبتها والأخرى عند ركبتها، وحملها بعناية وحرص شديد كما لو كانت كنزًا نفيسًا، وخطأ بها إلى خارج الغرفة ثم باب المدخل ثم إلى الفناء الذي لا تزال آثار أقدام الجنود اليابانيين واضحة على أرضه، ثم تخطى الباب الرئيسي المتساقط حتى وصل إلى العربة الواقفة في عرض الشارع والمتوجّهة صوب الجنوب الشرقي. كان الجد لولو خان قد ربط أحد البغلين الأسودين في مقدمة العربة، بينما ربط البغل الكبير الذي تورّم جسده من شدة ضرب جدّي له في مؤخرة العربة. وهنا قام جدّي بوضع زوجته، والتي لم تكن تتوقف عن الصياح داخل العربة. عرف جدّي من خلال نظرات زوجته كم تودّ لو كانت تمتلك القدرة والقوة الشديدة لتحمي نفسها، ولكنها كانت على عكس ذلك تمامًا. فوضعها جدّي داخل العربة، ونظر إلى الخلف ليرى الجد لولو خان يحتضن جثة عمتي شيانغ قوان، وقد فاضت عيناه بالدموع. شعر جدّي وكأن كمامة انغرزت داخل حلقه، فراحت الدموع تنهمر من عينيه وهو يسعل ويتقيأ بشدة، ثم راح يستند على العربة وقد رفع وجهه لأعلى، واستغرق يتأمل عجلات العربة الخشبية التي بدت مثل قرص الشمس الكبير.

وسلمّ الجد لولو خان جثة عمتي شيانغ قوان إلى جدي، فراح جدّي يتأمل وجهها الصغير الذي تبدو عليه آثار المعاناة والألم الشديد الذي تحمّلته، ثم سقطت من عينيه دموعتان حارقتان.

وقام جدّي بوضع جثة ابنته إلى جوار الجزء السفلي من جسد أمها، الذي بدا شبه مشلول، ثم سحب طرف اللحاف وغطى به وجه الطفلة المرعب.

قال الجد لولو خان: «سيدي، فلتجلس داخل العربة.»

فجلس جدّي أعلى عمود العربة شاردًا، وجعل قدميه تتدليان خارج العربة. وسحب الجد لولو خان حبل البغل ومضى يسير ببطء ملحوظ. وراحت العربة تقطع الطريق وهي تهتز محدثة صوتًا مسموعًا. وأخيرًا خرجت العربة من حدود القرية وسلكت الطريق الترابي لتسير في اتجاه قرينتنا التي تفوح جميع أرجائها بنبيذ الدرة. وواجهت العربة صعوبة كبيرة في أثناء سيرها على الطريق الترابي غير الممهّد، وارتفع صوت عمود العربة، والذي كان يطلق صوتًا قويًا وكأنه يحتضر. أدار جدّي جسده، وجعل قدميه تتدليان داخل العربة. وعلى الرغم من اهتزاز العربة المستمر، فإن زوجة جدّي بدا أنها قد

استسلمت للنوم وعيناها الرماديتان مفتوحتان. فسارع جدِّي بوضع إصبعه أمام فتحة أنفها ليتأكد ما إذا كانت قد قطعتِ النَّفس أم أنها لا تزال على قيد الحياة، وجد أنها لا تزال تتنفس بصورة طبيعية، وعندها اطمأن قلبه قليلاً.

وسارت تلك العربة الحزينة وسط البرية الواسعة، وقد تناثرت خلفها كميات كبيرة من التراب، مضت تسير في اتجاه قريتنا. جلس جدِّي داخلها وأحس بأن جميع الأشياء من حوله تكتسي باللون الأخضر.

وبدا عريش تلك العربة بالنسبة لبغل العائلة ضيقاً جداً، وبدت عجلاتها خفيفة جداً. وأحس البغل بضيق شديد، فقد كان يتمنى أن يجري بسرعة إلا أن الجد لوو خان كان يمنعه من ذلك من خلال سيطرته المحكمة على السلسلة المعدنية الموضوعة في فمه، فاضطر البغل للاستسلام ومضى يسير وفق رغبة سيده. بينما كان الجد لوو خان لا يتوقف عن سب هؤلاء المعتدين اليابانيين قائلاً: «هؤلاء الحيوانات ... هؤلاء الحيوانات الذين لا علاقة لهم بالجنس البشري ... لقد قاموا أيضاً بقتل جميع أهل الدار المجاورة، وبقرؤا بطن تلك السيدة ... لقد قتلوا ذلك الجنين المسكين الذي تكوّن داخل بطن أمه منذ أيام قليلة ... يا لها من جريمة كبرى! ... إن ذلك الجنين يبدو مثل الفأر الصغير الذي سلخ جلدُه ... والذي ترك آثار فضلاته داخل القدر ... آه من هؤلاء الحيوانات!»

وهنا راح الجد لوو خان يتكلم مع نفسه، وربما كان يعلم أن جدِّي كان يستمع إلى كلامه، ولكنه لم يلتفت إلى جدي. مضى يمسك بالسلسلة الموضوعة في فم البغل مانعاً إيّاه من الجري بسرعة، بينما كان البغل لا يتوقف عن هز ذيله، ويضرب به جسم العربة محدثاً صوتاً مسموعاً. أما البغل الذي كان مربوطاً بالخلف، فقد كان يسير مطأطئ الرأس حزيناً، وقد يحار المرء أن يحدد من خلال وجهه المتجهّم إذا ما كان حاقداً أو خجولاً أو يائساً.

٦

لا يزال أبي يذكر جيداً أن تلك العربة التي يجرها البغل، والتي كانت تحمل زوجة جدِّي بين الحياة والموت وجثة عمتي شيانغ قوان، لا يزال يذكر أن تلك العربة كانت قد وصلت إلى القرية في وقت الظهر. وقد هبّت في ذلك التوقيت رياح شمالية غربية عاتية، وامتلأت شوارع القرية بالغبار الكثيف وأوراق الشجر. كان الجو حاراً رطباً، وقد بدت معالم ذلك الجو على شفّتي أبي. كان أبي قد اكتشف أن البغلين المربوطين في مقدمة ومؤخرة

العربة، ما إن وصلنا إلى مدخل القرية حتى زادت سرعتهما. وقد تقدّم الجد لوو خان يسير بخطوات مُتعرّجة، وعجلات العربة لا تتوقف عن الاهتزاز. امتلأت أطراف عيون البغلين وأطراف عينيّ جدّي والجد لوو خان بقاذورات مثل فضلات العصافير، وامتلت تلك القاذورات بالأتربة. فجلس جدّي فوق عمود العربة ووضع يديه الكبيرتين على رأسه وكأنه تمثال من الصلصال. وسرح في تلك المناظر المحيطة به دون أن ينبس ببنت شفة. وتقدّم أبي إلى مكان يبعد حوالي عشرين مترًا عن العربة التي يجرها البغل، وراح يشم بأنفه الحساس — وإذا صدقنا القول فإن أنفه لم يكن أنفًا عاديًا، بل كان مثل أدوات تجارب الشم الحساسة — واستطاع أن يتأكد من تلك الرائحة غير الطيبة التي تنبعث من داخل العربة. ثم فر مسرعًا عائداً إلى المنزل، وراح يصيح منادياً على جدتي التي كانت تقطع الغرفة زهاباً وإياباً وهي في حيرة شديدة: «أمي، أمي، لقد عاد أبي بالتبني، اكتشفت أن بغلنا يجر عربة خشبية على ظهرها جثة شخص ميت، ورأيت أبي بالتبني يجلس فوق العربة والجد لوو خان يجر البغل، بينما هناك بغل آخر يسير خلف العربة.» وما إن انتهى أبي من تقديم تقريره إلى جدتي، حتى تغيّرت فجأة ملامح وجهها، ثم سارت مسرعة بصحبة أبي إلى خارج المنزل.

ومضت العربة تهتز حتى سكّت صوتها تماماً لتقف خارج منزلنا، وقفز جدّي من أعلى العربة، وراح يرمق جدتي بعينين حراوين، بينما راح أبي ينظر إلى عينيّ والده وهو في غاية الرُعب، وقد بدت له عيناً جدّي مثل عينيّ الهر التي تتغيّر كثيراً في طرفة عين.

قال جدّي مخاطباً جدتي بلهجة قاسية غاضبة: «لقد أتت الرياح هذه المرة كما تشتهين بالضبط!»

فلم تجرؤ جدتي على الدفاع عن نفسها، وتقدّمت إلى العربة وهي تُقدم رجلاً وتؤخر الأخرى، وتبعها أبي وراح ينظر إلى داخل العربة. امتلأ أعلى اللحاف القطني بالتراب الكثيف، وبدأ هناك شيء ما تحت اللحاف. ورفعت اللحاف قليلاً، ثم سحبت يدها بسرعة وكأنها قد لامست شيئاً ساخناً جداً. واستخدم أبي حاسة بصره القوية ليتمكن من رؤية وجه زوجة جدّي الذي بدا مثل ثمرة الباذنجان التالفة أسفل اللحاف وفم عمتي المفتوح المتيبّس.

وقد أثار فم عمتي المفتوح بعض الذكريات الطيبة لدى أبي، حتى إنه كان أبي قد خالف من قبل أوامر أمه وأقام أكثر من مرة في قرية شيان شوى كوو تزه. وكان

جَدِّي قد طالبه بأن ينادي على زوجة جَدِّي ليان إر بأمي الثانية، وكانت زوجة جَدِّي تُعاملُ أبي بوُدُّ وحب شديد، حتى إنه كان يثق في أنها امرأة ذات قلب طيب. وقد تركت في ذكرياته انطباعاً طيباً لن يُنسى إلى الأبد، فما إن تذكَّرها أبي حتى أحسَّ وكأنه يراها أمام عينيه. بينما كانت عمتي الصغيرة شيانغ قوان تتمتع بلسان عذب حلو يقطر شهداً وهي لا تتوقف عن مناجاته يا أخي الكبير يا أخي الكبير. كان أبي يعشق أخته الصغيرة جداً، كان يعشق بياض وجهها الجميل وعينيها البرَّاقَتَيْن. ولكن كلما تعمَّقت العلاقة بين أبي وأخته الصغيرة وانخرطاً في اللعب معاً إلى درجة يعز عليهما فراق بعضهما البعض، كانت جدتي تسارع بإرسال مَنْ يُجبرُ أبي على العودة إليها في الحال. فيركب أبي البغل وهو لا يتوقف عن النظر خلفه إلى عيني أخته الصغيرة التي تفيض بالدموع، وعندها يشعر بألم وحزن شديد يعتصر قلبه، ولم يكن يعرف السبب وراء ذلك الحقد الدفين والكره بين جدتي وزوجة جَدِّي ليان إر.

تذكَّرُ أبي ذلك المشهد عندما ذهب بصحبة أمه إلى مقبرة الأطفال الأموات المكشوفة لوزن الأطفال الأموات. وكانت تلك الزيارة في مساء أحد الأيام قبل حوالي عامين، كان أبي قد ذهب بصحبة جدتي إلى «مقبرة الأطفال الأموات المكشوفة» التي تبعد حوالي كيلومتر ونصف شرق القرية — وكانت تلك المقبرة عبارة عن مكان فسيح يُلقى فيه الأهالي موتاهم من الأطفال الصغار حيث كانت تنتشر في القرية عادة تقول بأن الطفل الذي يموت دون الخامسة من عمره لا يمكن دفنه مثل باقي الأموات، وإنما يجب إلقاؤه في مكان مكشوف لتأكله الكلاب الضالة، وكانت تنتشر في ذلك الحين الطُّرُق التقليدية في استقبال المواليد، بالإضافة إلى تَدَنِّي مستوى الخدمة الطبية، مما أدَّى إلى ارتفاع نسبة الوفيات للأطفال، بينما كانوا ينظرون إلى الناجين من الأطفال على أنهم شجعان. كنتُ أفكر في بعض الأحيان تفكيراً غريباً في أن تراجُع النوع الإنساني له علاقة وثيقة بالحياة الرغدة المريحة التي يحيها الإنسان. ولكن بما أنَّ السعي إلى تلك الحياة الرغدة المريحة يُعْتَبَرُ هدفاً يسعى إليه كل إنسان، وهدفاً يُعْتَبَرُ الجميع أنه لا بُدَّ من الوصول إليه حتى تكتمل له الراحة، فإن ذلك سيؤدي بلا شك إلى تناقض عميق يجعل الإنسان في قلق شديد. فالبشر يجتهدون الآن في الاعتماد على جهودهم للقضاء على بعض الصفات الجيدة الخاصة بهم. وعندما رافق أبي جدتي إلى ذلك المكان المُخَصَّص للتخلص من جثث الأطفال الأموات، كانت جدتي مَوْلعة جداً بنظام «المقامرة بالزهور» (وهو أحد أشكال المقامرة، ويشبه إلى حدِّ كبير «ورق اليانصيب»، و«الجوائز البنكية»، و«جوائز المشتريات» في العصر الحالي)،

كانت جدتي تحاول بقدر استطاعتها أن تكون أحد «المقامرين». كان جميع أهل القرية وخاصةً جمهور النساء يعشقون ذلك النوع من المقامرة. وكان جدِّي يعيش آنذاك عيشة رغدة، وقد نصَّبَه جميع أهل القرية رئيسًا لمهرجان المُقامرة بالزهور، كان جدِّي يقوم بوضع اثنتين وثلاثين زهرة داخل سلة من البامبو، ويقوم بملامسة الزهور مرتين يوميًا في صباح ومساء كل يوم، وكانت تلك الزهور تتكون أساسًا من زهور «الفوانيا الصينية»، و«الورد الصيني»، و«الورد البلدي»، و«زهرة البنفسج». وعلى الشخص الذي يُراهن بدفع ثلاثين ضعف المبلغ الذي يُراهن عليه. وبالطبع كانت معظم تلك الأموال تقع في يد جدي. كما كانت النساء العاشقات لذلك النوع من المُقامرة يسبحن في خيالهن ويتخيلن الكثير من المهارات الخاصة بتخمين الفائز، والتي كان من بينها وضع طفلة صغيرة داخل قدر كبير ممتلئ بالنبيد على أن يثقوا في كلامها فور خروجها من النبيذ، والحكم على الفائز من خلال الأحلام التي تراودهن وغيرها من الطُّرُق ... التي كان من الصعب إحصاؤها. إلا أن طريقة وزن الأطفال الموتى كانت طريقة جديدة اخترعتها جدتي من وحي خيالها. صنعت جدتي ميزانًا، ووزنت به اثنتين وثلاثين زهرة من زهور المُقامرة.

وكانت تلك الليلة ليلة حالكة، قامت جدتي بإيقاظ أبي عند منتصف الليل، وشعر أبي بأنه استيقظ رغماً عنه، فاشتد غضبه وتمنى أن يرمي أمه بسيل من الشتائم. فقرَّبت جدتي فمها إلى أذنه وراحت تهمس إليه قائلةً: «التزم الصمت التام، وهيا اذهب معي لنقوم بتخمين الفائز في رهان الزهور». كان أبي يشعر بحب استطلاع تجاه تلك الأمور الغريبة، فانتفض مسرعًا وارتدى حذاءه وقبَّعته، وخرج من المنزل والقرية مُتخفياً عن أعين جدي. وسارًا بحذرٍ شديدٍ ولم يشعر بحركتهم إنسان أو حيوان. سلَّم أبي يده اليسرى لأمه لتسحبه وراءها، بينما كانت يده اليمنى تحمل مصباحًا صغيرًا مصنوعًا من الورق الأحمر، أما جدتي فقد كانت تسحب أبي بيدها اليمنى، وتحمل بيدها اليسرى ذلك الميزان الذي تستخدمه في وزن الأطفال الموتى.

وما إن خرجوا خارج حدود القرية حتى سمع أبي صوت الرياح الجنوبية الشرقية التي كانت تعصف بحقول الدُّرة الممتدة خارج القرية، وشم رائحة مياه نهر موا شوى القادمة من بعيد. وسارًا بحذرٍ شديدٍ تجاه مقبرة الأطفال الموتى المكشوفة. وعندما سارًا مسافة حوالي نصف كيلومتر، كانت عينًا أبي قد تكيفت مع الظلام الحالك، وأصبح بإمكانه أن يميز لون الطريق الرمادي ولون الدُّرة الممتدة على جانبي الطريق. وزادت

قوة صوت الرياح داخل حقول الذرة لتزيد من غرابة تلك الليلة المظلمة، ثم سمعوا صوت نَعِيب بومة مخيف جداً، وعجزوا عن تحديد المكان القادم منه الصوت.
وأخيراً تأكّدوا من أن البومة كانت تقف أعلى شجرة الصفصاف الواقعة في منتصف الوادي الفسيح الممتلئ بجثث الأطفال الموتى، وأنها قد راحت تنعب بصوت مرتفع بعد أن أكلت حتى شبعت من تلك الجثث. وعندما اقتربت جدتي يتبعها أبي من تلك الشجرة، كانت البومة لا تزال أعلى الشجرة تنعب بشكل متواصل. كانت تلك الشجرة تظهر وسط وادٍ فسيح، وإذا رأيتها في النهار ستقع عينك على أوراقها الحمراء. وقد هزّ صوت البومة الوادي الفسيح، وأحسّ أبي أن عيني البومة الخضراوين تلمعان بصرامة بين أوراق شجرة الصفصاف. وهنا أحس بأن أسنانه تُطَقِّط من شدة الخوف وسرت بجسده رعشة شديدة، فراح يقبض بشدة على يد جدتي، وأحس للتوّ أن ذلك الرعب كاد أن يحطم رأسه تحطيمًا.

كان وادي الجثث يمتلئ برائحة كريهة، وعمّ الظلام الشديد أسفل شجرة الصفصاف، وسمع أبي أصوات الصراصير أسفل الشجرة، وتساقطت من أعلى الشجرة قطرات أمطار في حجم العملة المعدنية، محدثةً صوتاً مسموعاً حطم الصمت الرهيب الذي كان يخيم على المكان. فضربت جدتي على يد ابنها وألمحت له أن يُقرِّص مكانه. فنفضّ أبي أمرها بسرعة، وقد لامست قدماه ويده الأعشاب التي تنمو في ذلك الوادي، وضايقت أوراقها زقنه، وكأن هناك الكثير من عيون هؤلاء الأطفال الموتى تُحدِّق في ظهره. وسمع أبي صوت ركض وضحكات جماعة كبيرة من هؤلاء الأطفال الموتى.

ودقّت جدتي بهدوء على حَجَر القَدَاحة، ليخرج بعض اللهب الذي انعكس على يديها المرتعشتين. وهذأت النار، فراحت جدتي تنفخ فيها حتى سمع أبي صوت الهواء الشديد الذي يخرج من فمها. وهكذا حتى اشتعلت النار من جديد وملأ ضوءها المكان، ثم أشعلت جدتي شمعة المصباح الورقي لتخرج منه كتلة من الضوء الأحمر، وهنا توقفت البومة عن النعيب، وتوافدت جماعات الأطفال الموتى وأحاطوا بأبي وجدتي والمصباح الورقي. تقدّمت جدتي حاملة المصباح الورقي وراحت تبحث عن شيء ما وسط الوادي الفسيح، واصطدم بعض البعوض بالمصباح محدثاً صوتاً مسموعاً. وكان الوادي يمتلئ بالأعشاب البرية، وامتلاّت أرضه بالوحل، مما أعاق حركة جدتي بسهولة وسط الوادي، فراحت تنقل قدميها بحذر شديد. ولم يكن أبي يعرف ذلك الشيء الذي تبحث عنه جدتي، كان لديه حب استطلاع لأن يعرف ولكنه لم يجرؤ على سؤالها، فراح يسير وراءها في

صمت تامً. كانت أطراف الأطفال الموتى ملقاة في جميع أرجاء الوادي، وامتلأ الوادي برائحة كريهة. وانتبهت جدتي إلى قطعة حصير مطوية ملقاة أسفل الأعشاب البرية، فأعطت جدتي المصباح لأبي ووضعت الميزان على الأرض، ثم انحنت لتأخذ قطعة الحصير المطوية. رأى أبي تحت ضوء المصباح أصابع جدتي وهي تتحرك مثل دودة الأرض الحمراء. ثم فتحت الحصير لتكشف عن رضيع صغير ملفوف بداخل صرة صغيرة. وبدت رأسه صلعاء تمامًا. فارتعش أبي مما رأى. وأخذت جدتي بعلاقة الميزان ووضعتها على قطعة قماش بالية. وراحت تمسك بإحدى يديها حبل الميزان وتدفع بالأخرى رمانة الميزان. وانفتحت قطعة القماش البالية ليسقط الرضيع على الأرض، وتسقط رمانة الميزان على قدم جدتي، بينما اصطدمت علاقة الميزان برأس أبي. فصرخ أبي صرخة، وكاد أن يُلقي بالمصباح من يده. وهنا ضحكت البومة أعلى الشجرة ضحكة ساخرة، وكأنها كانت تسخر من تصرفاتهم الحمقاء. فمدت جدتي يدها تلتقط رمانة الميزان من على الأرض، وراحت تغرز علاقة الميزان بقسوة داخل لحم الطفل الميت. وشعر أبي برجفة شديدة من صوت غرر علاقة الميزان داخل جسم الرضيع. فأشاح بوجهه بعيداً، وما إن أدار وجهه ثانية حتى رأى يد أمه تتحرك حول ذراع الميزان، وراح ذراع الميزان يتحرك إلى أعلى وإلى أسفل حتى استقر أخيراً عند نقطة متوسطة. وعندها أشارت جدتي إلى أبي لكي يقترب بالمصباح، انعكس ضوء المصباح الورقي على ذراع الميزان، بينما كان مؤشر الميزان يقف عند زهرة «الفوانيا الصينية».

وعندما وصل أبي برفقة أمه إلى مدخل القرية، كان لا يزال بإمكانه سماع نعيب البومة الغاضب.

ووضعت جدتي أعلى «زهرة الفوانيا الصينية» مبلغاً من المال. وكانت الزهرة التي ربحته الرهان في ذلك اليوم هي زهرة «المايهوا». ومن ثم فقد أصيبت جدتي حينها بوعكة صحية شديدة. وما إن رأى أبي أمه أخته الصغيرة شيانغ قوان مفتوحاً، حتى تدكّر فجأة أن فم ذلك الرضيع الذي وزنته أمه في ذلك اليوم كان مفتوحاً أيضاً، وأحس أنه يسمع صوت غناء البومة الذي كان يبدو حزيناً حيناً وسعيداً حيناً، ثم غرق في التفكير في جو الوادي الندي الرطب. وانتابه قلق وحيرة شديدة من الجو الحار الرطب والغبار الكثيف الذي كانت ترمي به الرياح الشمالية الغربية في كل مكان من حوله.

رأى أبي تلك النظرات الحادة التي كان جدّي يرمي بها جدتي آنذاك، وكأنه يستعد للانقضاض عليها ليفترسها في أي لحظة. وفجأة احدوَّب ظهر جدتي، ومالت على العربة

وراحت تضرب على اللحاف، وهي تبكي، وقد فاضت عيناها بالدموع: «أختي الحبيبة! ... أختي الحبيبة! ... يا شيانغ قوان! ... يا ابنتي الغالية!»

وحققت حدة غضب جدِّي بعد سماعه صوت بكاء جدتي. وتقدّم الجد لـو خان إلى جوار جدتي وراح ينصحها بصوت خفيض قائلاً: «سيدتي، لا عليك بالبكاء، ولنهتّم الآن بحملهن إلى داخل المنزل.»

فتقدّمت جدتي وفتحت اللحاف، ثم احتضنت عمتي شيانغ قوان وسارت بها إلى داخل المنزل، بينما حمل جدِّي زوجته الثانية وتبع جدتي إلى داخل المنزل.

ووقف أبي خارج المنزل، وراح ينظر إلى الجد لـو خان، وهو يفك البغل عن العربة، بدت بطن البغل وقد أصيب بأثار جراح من طول مدة ربطها بالعربة، ثم نظر إلى الجد لـو خان، وهو يفك البغل الأسود الذي كان مربوطاً بمؤخرة العربة. وما إن تحرّر البغلان من قيودهما حتى راحا يتقلبان على الأرض رافعين بطنهما إلى السماء حيناً وملصقيهما بالأرض حيناً. وبعد أن انتهى البغلان من التمرغ في التراب، راحا يهزان جسديهما بشدة، وتطايرت كميات كبيرة من الأتربة من أعلى جسديهما، فسحبهما الجد لـو خان وتوجّه بهما إلى الفناء الشرقي، وتبعه أبي إلى حيث ذهب. فقال الجد لـو خان: «يا دوو قوان، فلتعد إلى المنزل، لتعد إلى المنزل.»

جلست جدتي أمام الموقد، وراحت تُوقد النيران لتغلي نصف قدر من المياه، وتسلك أبي إلى داخل الغرفة ليرى زوجة جدِّي راقدة فوق مصطبة التدفئة، مُحدقة العينين ولا تتوقف وجنتاها عن الحركة. ثم رأى أبي أخته الصغيرة شيانغ قوان راقدة أعلى مصطبة التدفئة، وقد تم تغطية وجهها بـصرة حمراء، غطت وجهها تماماً، ثم مضى أبي يتذكر بعض مشاهد تلك الليلة المظلمة التي رافق فيها جدتي إلى مقبرة الأطفال الموتى المكشوفة. وبدا صوت نهيق البغال في الفناء الشرقي مثل صوت نعيب البومة في تلك الليلة المظلمة. شم أبي رائحة تعفن الجثة، ثم مضى يفكر في أن أخته الصغيرة ستكون بعد قليل وسط ذلك الوادي الممتلئ بجثث الأطفال الموتى، لكي تكون وجبة دسمة للبوم والكلاب الضالة. لم يكن أبي يتخيل أن الإنسان يكون على هذه الدرجة من القبح بعد موته، وقد مثل له وجه أخته المختفي تحت الصرة الحمراء قوة جذب كبيرة، وكان يتمنى من أعماقه أن يفتح الصرة وينظر إلى وجهها الصغير.

عادت جدتي إلى الغرفة، وهي تحمل طستاً نحاسياً ممتلئاً بالماء الساخن، ووضعت الماء على حافة مصطبة التدفئة، وراحت تطرد أبي قائلة: «اخرُج من هنا!»

خرج أبي غاضبًا، وسمع صوت غلق الباب فور خروجه من الغرفة. ولم يستطع أن يتحكم في حب الاستطلاع الذي يسيطر عليه، فوضع عينه عند شق الباب وراح يشاهد ما يحدث داخل الغرفة. فرأى جدِّي وجدتي وقد جلسا أعلى مصطبة التدفئة، ثم قاما بخلع الملابس التي كانت ترتديها زوجة جدي، وألقيا بها على الأرض، فسقط بنطالها الذي كان مبللًا على الأرض محدثًا صوتًا خفيًا. ثم شم أبي رائحة كريهة مقززة. وتساقت ذراعا زوجة جدِّي إلى جوارها وخرج من فمها صوت غريب. وقد بدأ ذلك الصوت لأبي مثل صوت نعيب البومة وسط مقبرة الأطفال الموتى المكشوفة في الوادي الفسيح.

وقالت جدتي لجدي متوسلة إليه: «فلتضغط أنت على ذراعيها». وقد بدأ وجهُ كل من جدِّي وجدتي غائمًا وسط البخار الذي ملأ سماء الغرفة.

وأخرجت جدتي منديل يد أبيض من داخل الطست النحاسي الممتلئ بالماء الساخن، وراحت تعصره وقد نزلت منه المياه إلى داخل الطست. كان المنديل ساخنًا جدًّا حتى عجزت جدتي أن تحتفظ به فراحت تقلبه بين يديها، ثم فتحت جدتي المنديل الساخن ووضعت على وجه زوجة جدي المتسخ، بينما كان جدِّي منشغلًا بالضغط على ذراعي زوجته، فراحت زوجة جدِّي تهز رقبتها بشدة وتصرخ بصوت مُرعب مثل صوت البومة. ورفعت جدِّي المنديل من فوق وجهها، وبدأ المنديل متسخًا جدًّا. ثم وضعت جدتي المنديل داخل الطست ثانيةً وراحت تشطفه ثم رفعته لأعلى، وعصرته قليلًا وراحت تمسح به على جسد زوجة جدي.

وفترت سخونة المياه داخل الطست النحاسي، وتصبَّب جبين جدتي عرقًا، فراحت تُخاطب جدِّي قائلةً: «فلتسكب المياه المتسخة وتغيِّرها بقدر من المياه النظيفة.»
فرَّ أبي مسرعًا إلى الفناء الرئيسي وراح ينظر إلى جدِّي وهو يحمل الطست النحاسي بكلتا يديه، وقد انحنى ظهره من ثقل الطست، ومضى يترنح حتى وصل إلى جانب سور المرحاض القصير، ورفع ذراعه وراح يسكب المياه المتسخة التي بدت تجري وسط الفناء مثل الشلال حتى فرغ الطست تمامًا.

وعندما عاد أبي ليضع عينه عند شق الباب ثانيةً، كان جسد زوجة جدي يلمع مثل قطعة أثاث من خشب الصندل الأحمر التي تم تلميعها منذ وقت قليل، وحفَّت حِدَّة صوت صراخها وتحوَّل إلى مُجرَّد تأوُّه. وطلبتُ جدتي من جدي أن يحتضن زوجته الثانية، ثم ألقَتْ باللحاف والملاءة إلى أسفل مصطبة التدفئة، وفرشتُ حصيرة نظيفة تمامًا. فوضع جدِّي زوجته على الحصيرة، بينما قامت جدتي بوضع كمية من القطن بين قدمي زوجة

جدي، ثم سحبت لحافاً وَعَطَّتْ به جسدها. وراحت تتحدث إليها بصوت خفيض ناعم: «أختي الصغيرة، فلتنامي الآن، لترتاحي بعض الوقت، أنا وجان أو سنبقى هنا للاهتمام بك.»

أغمضت زوجة جَدِّي عينيها بهدوء وسلام.

ثم خرج جَدِّي لِيُغَيِّرَ مياه الطست مرة ثانية.

وعندما هَمَّتْ جدتي أن تغسل جسد عمتي الصغيرة شيانغ قوان، تجرُّ أبي وتسلل إلى داخل الغرفة، ووقف أمام مصطبة التدفئة، فرمقته جدتي بنظرة دون أن تطلب منه مغادرة الغرفة. وراحت جدتي تنشغل بتنظيف الدماء الجافة التي ملأت جسد عمتي وفاضت عيناها بالدموع. وبمجرد أن انتهت جدتي من تنظيف جسد عمتي، سَدَّتْ رأسها على الحائط وسرحت فترة طويلة دون أن تتحرك حتى بدت مثل الجثة الهامدة.

وفي أصيل ذلك اليوم، قام جَدِّي بلف ابنته في لحاف واحتضنها إلى خارج المنزل، وتبعه أبي إلى مدخل البيت، فقال جَدِّي مخاطباً أبي: «فلترجع أنت يا دوو قوان، ولتبق إلى جوار أمك الأولى وأمك الثانية.»

فاعترض الجد لوو خان جَدِّي عند مدخل الفناء الشرقي قائلاً: «سيدي، فلترجع أنت أيضاً، ولأتولَّى أنا تشييعها.»

فسلم جَدِّي عمتي شيانغ قوان إلى الجد لوو خان وعاد هو إلى مدخل الفناء الواسع، وأمسك بيد أبي وراحاً يودعان الجد لوو خان بنظراتهما حتى وصل إلى خارج القرية.

٧

وفي اليوم الثالث والعشرين من الشهر الثاني عشر القمري وفق التقويم الصيني لعام ١٩٧٣م، كان السيد قينغ صاحب الثماني عشرة طعنة قد بلغ الثمانين من عمره. وعندما استيقظ في صباح ذلك اليوم، سمع صوتاً قوياً قادماً من المذيع وسط القرية، وسمع صوت امرأة عجوز تنادي في المذيع قائلة: «يا يونغ تشي!»: فسألها رجل ذو صوت أجش: «أمي، هل تشعرين بأنك قد تحسنت اليوم؟» فقالت العجوز: «لا، لم أشعر بأي تحسن بعد، بل إنني أشعر بدوار شديد منذ الصباح.»

ضغَطَ قينغ صاحب الثماني عشرة طعنة على حصيرة المصطبة الباردة ثم جلس عليها، وأحس هو أيضاً بمزيد من الدوار منذ أن استيقظ صباح اليوم. واشتدَّت الرياح الباردة خارج النافذة، وبدأت نطف الثلج تضرب ستارة سطح النافذة مُحدِثَةً صوتاً

مسموعًا. والتحف قينغ بسترتة المصنوعة من جلد الكلاب، والتي ظهرت بها آثار عبث الحشرات، ثم نزل من أعلى المصطبة ومد يده ليأخذ بعصاه التي يتزين أعلاها برأس تنين، والموضوعة خلف باب الغرفة، ثم توجه إلى خارج الغرفة. كان فناء المنزل قد امتلأ بطبقة سميكة من الثلج، وكانت عيناه لا ترى سوى لون الثلج الأبيض الذي ملأ الفناء حتى أعلى السور الترابي المحيط بالفناء، بينما كانت تمتد على المدى البعيد قليل أعواد الدُّرَّة وسط الحقول الفسيحة. واستمر هطول كُرَات الثلج، ولم يكن يعرف متى ستتوقف السماء عن إرسال هذه الكميات الكبيرة من الثلج. فاستدار بجسده سعيدًا بما يرى، وراح يفتح بعصاه غطاء قُدْر الدُّرَّة وقُدْر الدقيق، ليكتشف أنهما فارغان تمامًا، وعندها تأكد من أن عينيه لم تَحْنُه عندما نظر إليهما بالأمس. لم يكن الطعام قد دخل جوفه منذ يومين كاملين، وبدأت معدته تتلوى من شدة الجوع، واستعد ليتوجه بكل حزم ودون أدنى خوف إلى مكتب سكرتير الحزب في القرية ليطلب بعض الحبوب. واشتد شعوره بالجوع والعطش والبرد، وكان يعلم جيدًا أن سكرتير الحزب المسئول بقريته هو مجرد صعلوك ذي قلب مُتَحَجَّر، وأنه ليس من السهل التفاوض معه لطلب كمية بسيطة من الحبوب. فقرر أن يغلي قليلًا من الماء ليشعر ببعض الدفء في معدته، واستعد ليخوض آخر معركة مع ذلك الصعلوك. مدَّ عصاه ليفتح القدر المخصص للاحتفاظ بالمياه، ليكتشف أن به قدرًا ضئيلًا من الثلج، وأنه يخلو تمامًا من المياه، وهنا تذكر أنه لم يوقد النار في بيته منذ ثلاثة أيام، وأنه لا يمتلك جرَّة يحمل بداخلها ما يحتاج من الماء من البئر المخصص لذلك. فراح يبحث عن مِغْرَفَة قديمة، وعَرَف بها ما يزيد على عشرين غرفة من الثلوج التي تملأ فناء المنزل، ثم راح يسكبها داخل القدر الذي لم يَقْم بتنظيفه أبدًا. وضع الغطاء أعلى القدر ثانيةً وراح يبحث عن بعض الحطب والكبريت، وفشل في العثور على ذلك وسط الفناء، فدخل إلى غرفته، وجعل يأخذ قليلًا من أعواد القمح من الموقد أسفل مصطبة التدفئة، وأخذ يستخدم السكين في جمع بعض أعواد الدُّرَّة والأعشاب الأخرى، ثم أشعل فيها النار بواسطة القداحة، انتهى عصر علبه الكبريت التي كان يشتريها بقرشين، وأصبح الناس يحصلون على الكبريت على بطاقات التموين، ولا يمكن شراء الكبريت خارج بطاقات التموين، وكان يعرف جيدًا حجم نفسه وأنه مجرد صعلوك وضيع لا يساوي مليمًا واحدًا في هذا المجتمع. واشتعلت ألسنة اللهب داخل الموقد، فتقدم نحوها وراح يمنح صدره قدرًا من الدفء وسط برودة الجو الشديدة، بينما كان ظهره لا يزال يشعر بالبرودة، أضاف كمية من الأعشاب ليشتد اشتعال النار، ثم أدار جسده ليمنح ظهره

بعض الدفء. وهنا سرت البرودة في صدره من جديد، وهكذا، فإن عدم قدرته على تدفئة جسده كاملاً في نفس التوقيت قد زاد من معاناته. فتوقف عن ذلك، وراح يقذف بالأعشاب داخل النار منتظراً غليان المياه. كان يعتقد أنه إذا شرب قدرًا من الماء المغلي ومنح معدته بعض الدفء، سيكون قادرًا على أن يكون خصمًا قويًا أمام ذلك الصعلوك، وأنه إذا فشل في الحصول على الحبوب الغذائية التي يحتاج إليها، فإنه لن يسمح لذلك الصعلوك بأن يطرده بسهولة. وعندما أوشكت النار أن تخدم، أخذ بأخر كمية من الأعشاب وألقى بها وسط النار وراح يتوسل إلى إله النار أن يجعل تلك الأعشاب تشتعل لأطول فترة ممكنة، إلا أنها انطفأت في أسرع وقت. وعندما سكنت النار تمامًا، قفز بسرعة شديدة عائدًا إلى غرفته، وسحب آخر كمية من الأعشاب المكومة أسفل مصطبة التدفئة وألقى بها في النار حتى تشتعل وتذيب كمية الثلج داخل القدر. كما ألقى بمقعد ذي ثلاثة أرجل ومكنسة قديمة داخل النار ليزيد من اشتعالها. وهنا اشتدت أسنة اللهب وسمع صوت اشتعال المقعد والمكنسة وامتلاً المكان بالدخان الكثيف. فذعر ذعرًا شديدًا، ومد عصاه يسحب تلك المروحة الصغيرة المعلقة على الحائط، وراح يهوي بها على النار حتى نجح في السيطرة على الدخان، ليرى أسنة اللهب تأكل في المقعد والمكنسة. كان يعلم جيدًا أن الأخشاب تشتعل ببطء أكثر من غيرها من المواد الأخرى، وهنا شعر ببعض الراحة. وبما أن عيون الشيوخ الكبار تعجز تمامًا عن التصدي للدخان، فقد راحت تدرف عيناه الدموع التي نزلت على وجهه حتى ذقنه. وسمع صوت غليان المياه المستمر داخل القدر. فراح ينصت إلى صوت المياه وغمرته سعادة جمّة، وعلت وجهه ابتسامة بريئة. وعندما خفت حدة اشتعال النار داخل الموقد، سحب تلك الابتسامة البريئة وتراكت علامات الخوف الشديد على صفحة وجهه، فهب واقفًا وراح يمسح المكان من حوله بنظرات حادة باحثًا عن أي شيء قابل للاشتعال، وبالطبع فإن عوارض وسقيفة المنزل من المواد القابلة للاشتعال، ولكنه يعجز عن الإتيان بها. وهنا تذكر على الفور حكاية الأعرج تشويه قواي لي أحد الملائكة الثمانية، وقيامه بإشعال النار في قدمه. وتقول الحكاية بأن تشويه قواي لي كان قد وضع قدمه داخل النار المشتعلة حتى سمع صوت اشتعالها يرن في أذنيه، فجاءت إليه زوجة أخيه، وقالت له: «أنت كده يا أخي صرت أعرج!»، وبما أن فم النساء عنوان الشؤم، فقد أصيب قدمه بالعرج. وكان يعرف جيدًا أنه ليس ملاكًا، وأنه إذا حرقت قدمه فلن تقوى على السير خطوة واحدة، ومن ثمّ فإنه لن يستطيع الذهاب إلى سكرتير الحزب لطلب ما يحتاج من الحبوب الغذائية. وأخيرًا وفي تلك اللحظة التي أوشكت أن تخدم

فيها النار أمامه، حرق في المحراب المحفور داخل الحائط. كانت هناك لوحة سوداء حالكة موضوعة أمام المحراب، فراح يلكز تلك اللوحة بعصاه إلى أن أحدثت صوتاً مسموعاً، وتساقطت من أعلاها كمية من التراب، إلى أن كشفت عن لون خشبها الأصلي الذي كان يغطيه التراب منذ فترة طويلة. وهنا خفق قلبه وشعر بألم شديد. وبينما هو يتألم ألقى بتلك اللوحة التي احتفظ بها أمام المحراب طيلة ستة وثلاثين عاماً في بطن النار. واستقبلت النار تلك اللوحة بحفاوة شديدة فراحت تلتهمها التهاماً، وظهرت آثار عرق أحمر داكن أعلى تلك اللوحة وهي تشتعل وسط النار، وبدت له آثار العرق وكأنه يحرق لحم ذلك الثعلب الأحمر ... مد الثعلب لسانه وراح يلحق الثمانية عشر جرحاً التي كان يمتلئ بها جسده، وما هو لا يزال بعد هذه المدة الطويلة يتذكر لسان ذلك الثعلب البارد اللطيف. كان على ثقة بأن لسان الثعلب كان دواء شافياً لجميع الأمراض. حتى إنه بعد أن عاد إلى القرية لم يلتهب أي من تلك الجراح الثمانية عشر، شُفيت تماماً دون أن يضع عليها أي دواء. وكان كلما قص حكاية لسان الثعلب على مسامع الأصغر منه سناً، يرى علامات الشك تملو وجوههم. فيخلع عنه سترته الخارجية غاضباً، ويجعلهم يرون بأعينهم آثار الجراح التي كانت تملأ جسده، إلا أنهم كانوا لا يزالون ثابتين على موقفهم تجاه حكايته الغربية. وكان يثق بأنه لن يموت رغم كل الصعاب، وأنه ينتظر حظاً كبيراً سيأتي إليه، إلا أن ذلك الحظ لا يزال يأبى. وبعد أن أصبح واحداً من أبناء الشعب الذين يتمتعون «بالضمانات الخمسة»، تأكد عندها من أنه قد واثاه الحظ أخيراً. ثم زال عنه ذلك الحظ فيما بعد، وعندها لم يعد أحد من أهل القرية يهتم بأمره. ذلك الطفل الذي كان يجلس آنذاك داخل السلة الموضوعة أعلى ظهر الحمار، والذي كان مشغولاً بتقشير تلك العصا الخشبية، أصبح ذلك الصعلوك الصغير سكرتيراً للحزب في القرية — ولو لم يقم ذلك الصعلوك بقتل تسعة أرواح بشرية خلال سنوات «القفزة الكبرى»، لكان من الممكن أن يصبح سكرتير الحزب على مستوى المقاطعة، قام ذلك الصعلوك بشطب اسمه من قائمة المستفيدين من «الضمانات الخمسة» ... وراحت تلك اللوحة تشتعل بصعوبة كبيرة وكأنها مثل لحم الثعالب، سمع صوت غليان المياه داخل القدر، وأخيراً نجح في تسخين المياه داخل القدر.

راح يتجرع تلك المياه الساخنة، وما إن دخلت إلى جوفه أول جرعة من الماء الساخن، شعر براحة كبيرة وارتعش جسمه، فراح يتجرع المزيد من الماء الساخن وشعر بأنه قد ارتفع إلى مصاف الملائكة.

وما إن شرب سطلين من الماء الساخن، حتى تصبب جسده عرقاً، وأيقظت سخونة جسده جماعات القمل التي راحت تجري على جسده دون أن تقرصه. وعلى الرغم من شعوره بالجوع والعطش الشديد، فإنه أحس بأن جسده قد استعاد بعض القوة. فأمسك بعصاه وراح يخترق كومة الثلج الكثيفة وسمع صوت تساقط الثلج، فشعر بارتياح وصفاء. وكان الشارع يخلو من المارّة، وقد رأى كلباً أسود تعلو ظهره كمية من الثلج يسير وسط الشارع بحذر واضح، وكان الكلب يسير مسافة ثم يتوقف ويهز جسده ليتطاير من أعلى ظهره كميات من الثلج، حتى يكشف عن لون جلده الأسود، إلا أنه كانت هناك كمية جديدة من الثلج تتراكم بسرعة فوق ظهره. وتبع الشيخ قينغ صاحب الثماني عشرة طعنة الكلب الأسود إلى داخل منزل ذلك الصعلوك سكرتير الحزب بالقرية. كان باب منزل الصعلوك الأسود الكبير مغلقاً، وكانت تطل من داخل السور بعض من أزهار المايخوا شديدة الحمرة. ولم يكن للسيد قينغ مزاج ليتمتع بجمال تلك الأزهار، فصعد درجات السلم الحجرية، وراح يلهث قليلاً، ثم أحكم بعد ذلك قبضته جيداً وجعل يضرب على درفة الباب. فإذا به يجد الفناء ساكناً تماماً إلا من نباح الكلاب. اعتراه الغضب الشديد، وراح يستند على جانب الباب الكبير، ورفع عصاه وراح يضرب بها على قفل الببال، فراحت الكلاب تنبح وسط الفناء بشكل جنوني.

وأخيراً انفتح باب المنزل الرئيسي، واصطدم أول ما اصطدم بكلب سمين ذي عينين وشعر لامع، ولم يُبالِ الكلب السمين بأي خطر يواجهه وراح يهجم على الشيخ قينغ صاحب الثماني عشرة طعنة، وهنا راح الشيخ يلوح بعصاه مدافعاً عن نفسه، فتراجع الكلب وكشف عن أنيابه البيضاء الجميلة وينبح بشكل مستمر، وبعدها رأى وجه امرأة في منتصف العمر ممتلئة الجسم ذات وجه مضيء. فجعلت المرأة تنظر إلى قينغ صاحب الثماني عشرة طعنة، ثم خاطبته بلهجة ودودة قائلة: «إنه أتت أيها الجد قينغ، هل لديك مسألة ما؟» فرد عليها الشيخ قينغ بصوت مبحوح قائلاً: «أريد مقابلة السيد السكرتير!» فقالت المرأة بلهجة حانية تنم عن تعاطفها مع الشيخ: «لقد خرج لحضور اجتماع الجمعية العمومية للقرية.» فراح الشيخ قينغ يصيح بصوت متعجب «فلتركيني أدخل! فإنني على الرغم من تعرضي لثماني عشرة طعنة بيد اليابانيين، فإنني لم أمُت، فهل هو يريد أن أموت جوعاً وعطشاً تحت قدميه؟» فقالت المرأة وقد شعرت بكثير من الحزن: «أيها الجد قينغ، إنه حقاً خارج المنزل، لقد خرج منذ وقت مبكر لحضور اجتماع الجمعية. وإذا كنت جوعان، فلتتفضل إلى منزلنا لتأكل بعض الطعام، وفي الحقيقة إننا

ليس لدينا طعام فاخر، فالميسر لدينا هو الخبز المحشو بالبطاطا.» قال الشيخ ببرود: «تقولين الخبز المحشو بالبطاطا؟ إن كلابكم لن ترضى أن تأكل هذا الخبز المحشو بالبطاطا!» فشعرت المرأة بشيء من عدم الارتياح إلى كلامه، فقالت: «إذًا فلا داعي لأن تأكل هذا الخبز. وإنه الآن ليس موجودًا بالمنزل. إنه ذهب لحضور اجتماع الجمعية. وإذا كنت تريده، فلتذهب لمقابلته هناك!» ثم دخلت المرأة إلى المنزل، وأغلقت الباب الرئيسي. فرفع الشيخ عصاه وراح يضرب على الباب من جديد، وقد شعر بالإرهاق الشديد حتى كاد أن يسقط على الأرض. ثم راح يخطو إلى الشارع القريب من كومات الثلج، وهو يحدث نفسه قائلاً: «ذهب إلى اجتماع الجمعية ... ذهب إلى اجتماع الجمعية ... إنني أتهم هذا الصعلوك الحقير ... أتهمه بظلم واضطهاد المواطنين البسطاء الصالحين، أتهمه بأنه اغتصب الحبوب الغذائية التي تخصني.» وراح الشيخ يسير بصعوبة مثل الكلب الأعرج، وقد تركت قدماه آثارًا واضحة وسط الثلج. وبعد أن ابتعد مسافة طويلة عن المنزل، كان لا يزال يشم رائحة أزهار المايخوا العطرة، فأدار جسده ونظر إلى ذلك الباب الأسود الكبير وبصق نحوه بصقة شديدة، بينما كانت أزهار المايخوا الحمراء ترفرف عالية.

وأخيرًا وصل الشيخ قينغ إلى خارج مدخل الجمعية قبيل غروب الشمس. كان الباب مصنوعًا من الحديد، يصل قطر سيخ الحديد فيه إلى حجم سمك إصبع الإبهام، وكان الباب عاليًا لدرجة أن أي شاب يفكر جيدًا قبل أن يقدم على القفز من أعلاه. استطاع أن ينظر من خلال السياج الحديدي، ليرى الثلج داخل الفناء وقد بدا أسود متسخًا. ورأى عددًا من الأشخاص يتحركون داخل الفناء يرتدون ملابس جديدة وقبعات جديدة، ودوي رعوس وأذان كبيرة وأسنان لامعة. ومنهم من كان يحمل رأس خنزير تخلو من الشعر، وقد بدت آذان الخنزير حمراء، ومنهم من كان يحمل واحدة من السمك الشريطي الفضي، ومنهم من كان يحمل الدجاج والبط المذبوح. فراح الشيخ قينغ يضرب بعصاه الباب الحديدي محدثًا صوتًا مسموعًا، وكأن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يقطعون الفناء زهابًا وإيابًا منشغلين جدًا، لم ينظر أحد منهم إلى الشيخ واستمرّوا في حركاتهم وسط الفناء. فراح الشيخ قينغ يبكي ويصيح بصوت مرتفع قائلاً: «أيها المسئولون! ... أيها القادة! ... إنني مظلوم ... لقد كاد الجوع أن يقتلني!»

وتقدّم نحوه شاب في ريعان شباب يظهر داخل جيب قميصه ثلاثة من الأقلام الجافة، وراح الشاب يسأله ببرود: «وما الذي يحملك على هذا الصراخ هنا؟» وما إن رأى الشيخ قينغ ذلك الشاب والأقلام الجافة التي تطل من جيب قميصه، حتى اعتقد بأنه

واحد من المسئولين الكبار قد خرج إليه ليسمع شكواه، فسجد الشيخ قينغ أمام الشباب وراح يمسك بالسياج الحديدي، وبدأ يشكو إليه حاله باكيًا: «أيها المسئول الكبير، لقد استولى سكرتير القرية على حصة الحبوب الغذائية المخصصة لي، ولم يدخل جوفي طعام منذ ثلاثة أيام، وها أنا كدتُ أن أموت من شدة الجوع. والطعنات الثماني عشرة التي تلقيتها من المعتدين اليابانيين لم تستطع النيل مني، وها أنا سأموت جوعًا!»

فسأله الشاب: «وإلى أي قرية تنتمي أيها الشيخ؟»

فسأله الشيخ قينغ مندهشًا: «أيها المسئول الكبير، ألا تعرفني؟ إنني قينغ صاحب

الثماني عشرة طعنة!»

فضحك الشاب، ثم قال: «وكيف أعرف أنك قينغ صاحب الثماني عشرة طعنة؟

فلترجع وتبحث عن السيد المسئول عنكم، فإن هيئة الجمعية في عطلة الآن.»

راح الشيخ قينغ يضرب على الباب الحديدية لمدة طويلة، ولكن لم يُعزهِ أحد أدنى اهتمام. وانعكس ضوء أصفر على نافذة الفناء الكبير، وراحت تتساقط أعلى النافذة كميات من الثلج في حجم ريش الإوز في صمت تام. ودوى في القرية صوت انفجار بعض المفرقات، فتذكر فجأة أنه قد حان وقت الافتراق عن الموقد، وأنه قد حان وقت صعود إله الموقد إلى السماء. ففكر في العودة إلى منزله، ولكن ما إن تقدّم خطوة سقط منكبًا على وجهه وكأن هناك شخصًا ما قد دفعه من الخلف. وشعر بدفء شديد عندما لامس وجهه نتف الثلج التي تملأ الأرض. وقد جعله هذا الشعور بالدفء يتذكر حزن أمه الدافئ الحنون، لا بطن أمه الدافئة. فعندما كان طفلًا صغيرًا مغمض العينين في بطن أمه، كان مثل السمكة الصغيرة التي تتحرك بحرية تامة، ولم يكن يشكو من الجوع أو اللباس أو كان يساوره أدنى قلق أو خوف. وقد شعر بسعادة أن يستعيد ذكرياته داخل بطن أمه، وجعله الشعور بعدم الجوع والعطش والبرودة يشعر بسعادة بالغة. وجعله صوت نباح الكلاب الذي كان يملأ جميع أرجاء القرية يتأكد من أنه قد غادر بطن أمه إلى هذه الدنيا. بدا ذلك الضوء الأصفر في فناء الجمعية وحمرة أزهار المايخوا في منزل سكرتير الحزب، بدا مثل هالة من النور أضاءت جميع الأرجاء، وشعر بالنور يغمر جميع الأماكن، بينما كانت نتف الثلج تتساقط بشكل متواصل، وقد امتطت آلهة المواقد خيولًا من الورق وفرت إلى ذلك الفردوس البعيد. وهنا شعر بسخونة شديدة تسري داخله. راح يخلع في عجلة تلك السترة القديمة من جلود الكلاب، ثم خلع سرواله القطني البالي، ثم حذاه القطني، فوجد أنه لا يزال يشعر بالسخونة، راح يخلع قبعته القديمة من اللباد، ولكنه لا يزال

يشعر بسخونة، فخلع جميع ملابسه حتى أصبح عاريًا كما ولدته أمه، ولكنه كان لا يزال يشعر بالسخونة. فأتكا على كومة الثلج، فإذا بالثلج يلسعه لسعة شديدة، فراح يتلوى وهو لا يزال يشعر بالسخونة الشديدة. فراح يبتلع كميات كبيرة من الثلج، فإذا بقطع الثلج تلسع حلقه بشدة، وكأنها حصى ساخنة جدًا في أيام الحر الشديد. ولا يزال يشعر بالسخونة! فانتفض من أعلى كومة الثلج، وراح يمك بسبخ حديدي من أسياخ سور الجمعية، فإذا بالسبخ يلسع يده لسعة قوية جدًا، حتى التصقت يده بالسور الحديدي وعجز أن ينتزعها منه، واستمر في صياحه: سخونة شديدة! سخونة شديدة!

وخرج ذلك الشاب صاحب الأقدام الجافة مبكرًا ليكنس الثلج المتركم وسط الفناء، وما إن أطل من سور الجمعية حتى دُعر دُعرًا شديدًا؛ حيث رأى ذلك الشيخ الذي كان يُقدّم نفسه على أنه قينغ صاحب الثماني عشرة طعنة، رآه معلقًا على باب المدخل عاريًا كما ولدته أمه وفي حالة صعبة جدًا. وقد انتبه إلى ملامح الشيخ المسودة، وأطرافه المرتخية، وهو يحدق في فناء الجمعية. ولم يكن أحد يصدق لأول وهلة أن هذا الشخص هو شيخ وحيد مات من شدة الجوع والعطش والبرد.

تعمد ذلك الشاب أن يحصي آثار الجراح على جسم الشيخ قينغ، ليجد أنها ثمانية عشر جرحًا بالتمام والكمال.

٨

استطاع تشينغ ما تزه أن يتحرر من أسر الجنود اليابانيين، بعد أن دلهم على جميع الورش التي تعمل في مجال صناعة الأحذية من القش. فسأله ذلك الجندي صاحب القبعة المصنوعة من الصوف بلهجة صارمة: «ألا تزال هناك ورش أخرى لم نرّها بعد؟» فقال تشينغ ما تزه مؤكّدًا: «لا يا سيدي، حقًا إنه ليس هناك أي ورش أخرى.» فنظر صاحب القبعة نظرة إلى الجنود المحيطين به، فهزّوا إليه رأسهم بالموافقة، وعندها سمع تشينغ صاحب القبعة يأمره: «انصرف!» فهز تشينغ رأسه وانحنى أمامه وأخذ يتراجع خطوات إلى الخلف، ثم أدار جسده بسرعة شديدة، كان يتمنى أن يفر مسرعًا من أمامهم، إلا أن قدميه لم تساعده على ذلك، وعجز عن أن يخطو خطوة واحدة. وبدأت جراح صدره تؤلمه ألمًا شديدًا، وشعر ببرودة داخل سرواله. فاستند إلى جذع شجرة وأخذ نفسًا عميقًا، وراح يستمع إلى الصراخ الشديد القادم من جميع منازل القرية، وعجزت قدماه عن الحركة. واحتك ظهره بلحاء شجرة الصفصاف الجاف. وملاً دخان القذائف اليدوية الكثيف

سماة القرية. وقام الجنود اليابانيون بإلقاء مئات القنابل السوداء الصغيرة على الورش الاثنتي عشرة المتخصصة في صناعة الأحذية من القش، كانت القنابل تتساقط من نوافذ الورش لتخرج من مداخلها. وبعد أن انتهى هؤلاء الجنود اليابانيين من إلقاء القنابل على الورش، راحوا يطوفون حول الورش المحترقة دون أن يتحرك لهم ساكن. ودوّت أصوات الانفجارات داخل الورش وقد رجت الأرض رجاً، وتصاعدت كميات كبيرة من الدخان الكثيف من نوافذ الورش المحترقة وسط صرخات استغاثة هؤلاء العمال الذين لم يلفظوا أنفاسهم الأخيرة بعد. راح الجنود اليابانيون يلقون بكميات من القش عبر النوافذ ليزداد اشتعال النيران بداخل الورش، حتى خفت حدة صرخات الاستغاثة، وأصبح من الصعب الاستماع إليها. وهكذا قاد تشينغ إلى تلك الورش الاثنتي عشرة في القرية. كان يعلم جيداً أن ثلاثة أرباع رجال القرية يعملون ويقضون الليل داخل تلك الورش، ويبدو أنه لن يخرج أحد منهم حياً. وفجأة أحس بأنه ارتكب جريمة لا تُغتفر. لم يكن الجنود اليابانيون يستطيعون التوصل إلى تلك الورشة الواقعة شرق القرية دون الاعتماد عليه، وتعتبر تلك الورشة أكبر ورشة على مستوى القرية، يجتمع داخلها يومياً حوالي ثلاثين أو عشرين رجلاً ما بين العمل في صناعة الأحذية وبين التسامر. ألقى الجنود اليابانيون على تلك الورشة وحدها ما يزيد على أربعين قنبلة، حتى نجحوا في تدميرها تماماً. أصبحت الورشة فور تدميرها عبارة عن مقبرة بارزة، وبرز بين الركاب عمود خشبي بدا وكأنه فوهة بندقية موجهة نحو السماء.

خاف خوفاً شديداً وندم ندماً أشد. وأحس كأنه يرى تلك الوجوه التي تعرف وقد أحاطت به وراحت توبخه توبيخاً شديداً. راح هو يدافع عن نفسه قائلاً: «إن الجنود اليابانيين هم الذين أجبروني بأسلحتهم على ارتكاب هذا الخطأ، وحتى لو امتنعت عن مساعدتهم، فإنه بإمكانهم أن يتوصلوا إلى جميع الورش في القرية ويدمروها تدميراً.» وقد راح هؤلاء الضحايا يتبادلون النظرات البائسة فيما بينهم، ثم اختفوا عنه. فراح ينظر إلى أشلائهم، وعلى الرغم من عدم شعوره بوخز الضمير، فإنه أحس ببرودة شديدة تسري بداخله، وكأنه قد نُقِع في نهرٍ شديد البرودة.

وجاهد حتى استطاع العودة إلى منزله، ليكتشف أن زوجته الجميلة وابنته ذات الثلاثة عشر عاماً ترقدان عاريتين وسط الفناء، خرجت أعضاؤهن على الأرض. فاسودت الدنيا أمام عينيه، حتى سقط مغشياً عليه ... فرقد على الأرض ما بين الحياة والموت ... ثم مضى يتقدّم نحو الجنوب الغربي. كان الجنوب الغربي تعلوه سماء ودية تمتلئ

بسحب وردية، وقد وقف بين تلك السحب الوردية زوجته وابنته والعديد من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال الذين يعرفهم من أهل القرية. فراح يقفز بسرعة رافعاً وجهه لأعلى يحاول اللحاق بتلك السحب الوردية التي كانت تتحرك ببطء شديد. إلا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يسيرون وسط السحب لم يعيروه أدنى اهتمام، بل راحوا يبصقون عليه بما فيهم زوجته وابنته. فهدب يداً عن نفسه أمامهم، راح يقول بأنه كان مضطراً إلى مساعدة هؤلاء الجنود اليابانيين وإرشادهم إلى ورش صناعة القس، إلا أن البصق كان ينزل عليه بشدة مثل الأمطار الغزيرة. ورأى أن تلك السحب قد بدأت تبتعد عنه. حتى تحولت أخيراً إلى نقاط حمراء ... كانت زوجته سيدة جميلة شابة يشع وجهها بالنور، وظلمت ظملاً شديداً من زواجها بشخص مثله مصاب بالجدري ... كان تشينغ ما تزه ينفخ في بوقه نفخاً حزياً مساء كل يوم عندما كان يقيم بقرية زوجته، وكان صوت نفخه يقطع قلبها تقطيعاً ... يمكن القول بأنها عشت وتزوجت من بوقه. وعندما شعرت بالملل من تكرار صوت بوقه وملامح وجهه المصاب بالجدري، شعرت بالملل الشديد من العيش في هذا المنزل. فهربت مع بائع متجول، إلا أنه استطاع القبض عليها وإعادتها إلى منزله ثانية. أوجعها ضرباً مبرحاً على أردافها ووجهها. فاستسلمت له وراحت تقضي أيامها معه برضاها. وأنجبت منه ابنة ثم ولداً ... وما إن أفاق من غيبوبته حتى راح يبحث عن ابنه، ليكتشف أن ابنه صاحب الثمانية أعوام كان منزرعاً داخل قدر المياه، رأسه إلى أسفل وقدماه إلى أعلى، وقد بدأ جسده متصلباً تماماً مثل العصا.

فسارع تشينغ ما تزه بربط حبل إلى إطار الباب، وجعل في وسطه فتحة أدخل فيها رأسه، وترك قدميه تسند على مقعد صغير، وأحكم ربط الحبل حول رقبته. وهنا تقدّم شاب يمسك بسكين، وقطع الحبل. فسقط تشينغ ما تزه على عتبة الباب. وقد انشغل الشاب في إسعافه مدة طويلة حتى أفاق ثانية.

قال الشاب بلهجة غاضبة: «أيها العم تشينغ ما تزه! ألم يكف قيام اليابانيين بقتلنا؟ فلماذا تُقبل على الانتحار؟ عليك أيها العم أن تحيا حتى تغسل عارك»
فراح تشينغ ما تزه يشكو إلى الشاب باكياً: «يا ابن أخي تشون شينغ! لقد ماتت عمّك وابنتي لان تزه وابني جو تزه، وأصبحت لا أهل ولا دار لي!»

فحمل الشاب تشون شينغ سكينه وتقدّم إلى داخل الفناء، وعندما خرج ثانية بدأ وجهه شاحباً وعيناه محمرتين، وراح يشد تشينغ ما تزه من يده قائلاً: «هيا بنا أيها العم تشينغ! هيا بنا ننضم لقوات الجيش الثامن! فإن فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن يقوم في الوقت الحالي بجمع الجنود وشراء الخيول في قرية ليانغ شيان!»

فقال تشينغ ما تزه متعجباً: «وماذا عن منزلي وممتلكاتي؟»
- «أيها الشيخ الأحمق! وإلى من كنت ستترك منزلك وممتلكاتك وقد كنت مقدماً على الانتحار منذ قليل؟ هيا بنا!»

وفي مطلع ربيع عام ١٩٤٠م، كان الطقس على غير عادته شديد البرودة، وتحولت جميع أنحاء قرية دونغ بيي بمدينة قاو مي إلى مجرد أطلال، بينما راح الناجون من جموع الأهالي يعيشون داخل جحورهم مثل الفئران. وبدأ البرد والجوع والعطش يشتد بأعضاء فريق جياو قاو، وظهرت بين صفوفه الكثير من الأمراض، وبدت وجوه جميع أعضاء الفريق من القائد حتى الجندي العادي شاحبة من شدة الجوع، يرتعد الواحد منهم بين الثياب الخفيفة البالية التي يرتديها، ولجأ هؤلاء الناجون للاختفاء في إحدى القرى القريبة من قرية شيان شوى كوو تزه، كانوا يخرجون في مطلع كل صباح إلى جانب السور يقبضون على القمل ويعرضونه للشمس. وكانوا يخشون مهاجمة العدو في وضح النهار، أما الليل فقد كان برده شديداً جداً، وكانوا يخشون إذا خرجوا في هذا الليل البارد فإنهم حتى ولو نجوا من أيدي اليابانيين، فإنهم سيموتون من شدة البرد. وفي تلك الأثناء أصبح تشينغ ما تزه بطلاً معروفاً بين أعضاء فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن، بل إنه نجح في كسب ثقة قائد الفريق السيد جيانغ. وكان تشينغ لا يفضل استخدام البنادق والرشاشات في مهاجمة العدو، وكان يُفضل استخدام القذائف اليدوية، وفي كل معركة يخوضها الفريق، كان تشينغ يتقدم إلى الأمام بشجاعة ويلقي بالقذائف على العدو مغمضاً عينيه. حتى إنه كان باستطاعته أن يتقدم على مسافة سبعة أو ثمانية أمتار من العدو ليلقي بالقذائف، ومن الغرابة أنه لم يكن حتى يسارع بالاختفاء عقب إلقاء القذيفة تجنباً للشذرات المتطايرة، كانت تطير من فوقه دون أن تصيبه بأذى. وكان السيد جيانغ قائد فريق جياو قاو قد عقد اجتماعاً لمناقشة كيفية حل مشكلة البرودة الشديدة والجوع والعطش. فإذا بتشينغ ما تزه يدخل بطيش ويجلس وسط الحضور عبّوس الوجه دون أن يتكلم بكلمة واحدة. فسأله القائد جيانغ: «سيد تشينغ، هل لديك رأي في هذه المسألة؟»

فاستمر تشينغ ما تزه في صمته.

فقال قائد شاب مثقف: «بالنظر إلى أوضاعنا الحالية، فإنه إذا لزمنا التقوقع داخل قرية دونغ بيي بمدينة قاو مي، فإننا بلا شك ننتظر الموت. فيجب علينا أن ننجو بأنفسنا من هذه المنطقة ونفر إلى مناطق إنتاج القطن بمدينة جياو نان لنصنع لأنفسنا بعض

الثياب القطنية لتقينا البرد الشديد، كما أنّ تلك المنطقة تشتهر بإنتاج البطاطا التي ستسد جوعنا.»

أخرج القائد جيانغ من جيبه قصاصة جريدة، وقال: «إنه وفقاً لجريدة لجنة الحزب، فإن الوضع في مدينة جياو نان أشد تآزماً من هذه المدينة، وقد نجحت القوات اليابانية في محاصرة قوات الجماعة الحديدية، وقد قضوا عليهم تماماً. وإذا قارناً بين المنطقتين، فإن قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي هي أنسب مكان لمهاجمة العدو، حيث تتمتع هذه المنطقة بمساحة شاسعة وتفصل بين قرأها مسافات بعيدة، كما أن قوة عملاء القوات اليابانية ضعيفة جداً، ولم يتم حصاد مساحات كبيرة من محصول الذرة الرفيعة منذ العام الماضي، وستكون هذه المساحات أماكن مناسبة لأن نختبئ بداخلها، وإذا تمكنا من التوصل إلى حل لمشكلة المأكل والملبس، سيمكننا الصمود حتى نتحيز الفرصة المناسبة لقتال العدو الياباني.»

فقال أحد قادة الفريق، وبدأ وجهه شاحباً: «وهل يمكن ذلك؟ وأين لنا بالقماش؟ وأين لنا بالقطن؟ وأين لنا بالغذاء؟ إننا سنموت إذا اكتفينا بأكل حفنة من الذرة المنبته! أرى أنه يجب أن نتظاهر بالاستسلام، ونقدم أنفسنا إلى القائد العميل جانغ جو شي، ثم نهرب من بين صفوفه بعد أن نحصل على الثياب القطنية ونتزود بالكمية الكافية من الذخيرة.»

فانتفض القائد الشاب المثقف غاضباً، ثم قال: «هل تريدنا أن نكون عملاء؟» فراح ذلك القائد ذو الوجه الشاحب يوضح وجهة نظره قائلاً: «من الذي طلب منك أن تكون عميلاً؟ إنني أقصد التظاهر بالاستسلام! ففي عصر الدويلات الثلاث المتحاربة، استخدم كل من جيانغ وي، وخوانغ قاي حيلة التظاهر بالاستسلام أو الاستسلام المزيف!» - «إننا ننتمي إلى الحزب الشيوعي، وإننا لن نطأ طئ رءوسنا وننحني لعدونا ولو متنا من الجوع والبرد، وإنني سأقف بسلاحي هذا في وجه من يفكر في بيع نفسه للعدو!» فقال ذلك القائد ذو الوجه الشاحب بلهجة قوية: «وهل يعني انتماؤنا للحزب الشيوعي أن نموت من الجوع والبرد؟ إن الحزب الشيوعي يتمتع بذكاء حاد، وعلينا أن نعمل ذكاءنا ونخطط للوصول إلى الهدف السامي، ولن نتمكن من إحراز النصر في معركتنا أمام العدو الياباني إلا إذا حافظنا على الروح الثورية العظيمة التي نتمتع بها!» فقال القائد جيانغ: «أيها الرفاق، أيها الرفاق، لا داعي للتشاجر، وعلينا أن نتناقش بهدوء.»

قال تشينغ ما تزه: «أيها القائد العام، إن لدي خطة محددة.»

وما إن قدم تشينغ ما تزه خطته، حتى أعجب بها القائد جيانغ كثيراً وراح يصفق له على ذكائه الحادّ.

وهكذا أخذ فريق جياو قاو بخطة تشينغ ما تزه، كانوا قد استغلّوا ظلمة الليل وقاموا بالاستيلاء على جلود الكلاب التي تزيد على مائة جلد، والتي كان يخفيها جدّي وأبي على بعض الأطلال في القرية، كما سرّقوا أيضاً خمسة عشر رشاشاً كان جدّي يخفيها داخل إحدى الآبار في القرية، ثم قاموا وفق الخطة بمهاجمة الكلاب ليحلوا مشاكل المأكل، ثم وزّعوا جلود الكلاب فيما بينهم بمعدل جلد واحد لكل فرد يتقي به البرد الشديد. وفي ربيع ذلك العام الذي اتسم بالبرودة الشديدة، انتشر في محيط قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي جماعة من الأبطال الذين كانوا يلتحفون بجلود الكلاب، خاضوا أكثر من عشر معارك قوية، حتى تمكّنوا من تحقيق النصر على قوات العملاء الموالين للجيش الياباني وخاصةً قوات القائد العميل جانغ جو شي.

أما أول معركة اشترك فيها رجال فريق جياو قاو فقد وقعت في اليوم الثاني من الشهر الثاني حسب التقويم القديم، وقعت في ذلك اليوم الذي يُعرّف باليوم الذي يرفع التين فيه رأسه عاليًا، حيث كان رجال فريق جياو قاو الذين كانوا يلتحفون بجلود الكلاب قد دخلوا قرية ما ديان، ونجحوا في محاصرة السرية التاسعة التابعة لجيش القائد العميل جانغ جو شي وإحدى الفرق اليابانية الصغيرة، والذين كانوا مُكلّفين بحراسة قرية ما ديان. وكانت قوات القائد العميل تُعسكر في مدرسة قرية ما ديان الابتدائية، وكانت تتكون من أربع غرف مبنية بالطوب وسور عالٍ. كانت هناك شبكة من الأسلاك الحديدية تمتد فوق السور، وكان هناك حصن شيدّه الشياطين اليابانيون في منتصف الغرفة الأربع في عام ١٩٣٨م، وكان الحصن قد تأثر بسقوط الأمطار في العام الماضي حتى سقطت قاعدته وحدث به انحناء واضح. فهجره اليابانيون وتم هدم الحصن، ومع دخول فصل الشتاء القارص وعدم القدرة على العمل على إعادة بناء الحصن، اضطر اليابانيون والسرية التاسعة التابعة لجيش القائد العميل إلى الإقامة داخل هذه الغرفة الأربع في مدرسة القرية الابتدائية.

كان قائد السرية التاسعة رجلاً صينيًا من مدينة قاو مي، وكان معروفًا بقسوته وبطشه الشديد، في حين كانت الابتسامة لا تُفارق وجهه طوال النهار، كان قد بدأ منذ مطلع فصل الشتاء في جمع الطوب والأحجار والأخشاب للاستعداد لإعادة بناء الحصن، وأنفق مبالغ طائلة خلال مرحلة جمع المواد اللازمة لإعادة بناء الحصن، الأمر الذي أدّى إلى أن كرهه أهالي القرية كرهًا شديدًا.

أما قرية ما ديان، فكانت تتبع القرى الشمالية الغربية لمدينة جياو، تجاور قرية دونغ ببي بمدينة قاو مي، وتبعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً عن معسكر فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن. وكان فريق جياو قاو قد غادر القرية قبيل غروب شمس ذلك اليوم، وكان بعض من أهالي القرية قد شاهدوا الفريق لحظة خروجه من القرية: فقبيل غروب الشمس، غادر القرية مجموعة من رجال الجيش الثامن يزيد عددهم على مائتي شخص. كانوا يلتحفون جلود الكلاب، وقد جعلوا شعر الكلب من الخارج، بينما كان يتدلى ذيل الكلب بين قدمي الواحد منهم، وقد سطع الضوء على شعر الكلاب فبدا لامعاً ذا ألوان متعددة، جميلاً وغريباً في الوقت نفسه، وكأنهم مجموعة من العفاريت.

كان أعضاء فريق جياو قاو الذين خرجوا ملتحفين بجلود الكلاب ليخوضوا أول معركة ضد العدو، قد بدوا مثل الشياطين تماماً، وعندما انعكست شمس الغروب على جلود الكلاب التي يلتحفون بها، راحوا يسيرون في سرب واحد مُسرّعي الخُطى حيناً ومُبطئين حيناً آخر.

وكان القائد العام جيانغ يسير في المقدمة ملتحقاً بجلد كلب أحمر كبير — وكان ذلك الجلد الأحمر الكبير يخص كلب عائلتي الأحمر — يسير ببطء وقد راح جلد الكلب الأحمر يتدحرج فوق جسده، بينما يتدلى ذيل الكلب بين قدميه وهو يتحرك ملامساً الأرض. والتحف تشينغ ما تزه بجلد كلب أسود، وعلق أمام صدره كيساً من القماش يمتلئ بثمن عشريين قذيفة يدوية. وكانوا قد التزموا بشكل واحدٍ في التّحافهم بجلود الكلاب: ربطوا قدمي الكلب الأماميتين بحبل، وجعلوا هذا الجزء من جلد الكلب يتدلى أسفل رقبة الواحد منهم، ثم أحدثوا فتحتين في جانبي جلد بطن الكلب، ثم ربطوا الفتحتين بحبلين، وربطوا الحبلين عند صرة كل واحد منهم.

كانوا قد دخلوا قرية ما ديان في منتصف الليل، وقد امتلأت سماء القرية بالنجوم وكان البرد شديداً، وكان أعضاء فريق جياو قاو الملتحفون بجلود الكلاب قد شعروا بالبرد الشديد في صدورهم، بينما كانت ظهورهم دافئة، وما إن دخلوا القرية، حتى استقبلتهم مجموعة من الكلاب بحفاوة. قام أحد أعضاء الفريق، وكان يتمتع بروح فكاهية، بتعلم نباح الكلاب، وعندها أحس جميع أعضاء الفريق برغبة قوية في ضرورة تعلم صوت النباح، وسمعوا صوت القائد جيانغ من المقدمة يأمرهم بأنه: غير مسموح بتعلم نباح الكلاب! غير مسموح بتعلم النباح! ممنوع النباح منعاً باتاً!

ووفق استطلاعهم للمنطقة وخطتهم المُعدَّة سلفاً، قام الفريق بنصب كمينه في منطقة تبعد حوالي مائة متر من مدخل القرية الرئيسي، كانت تتكوم في تلك المنطقة كميات الطوب والأحجار التي جمعها القائد العميل جانغ لإعادة بناء الحصن. قال القائد العام جيانغ مخاطباً تشينغ ما تزه الذي كان يتبعه مباشرة: «يا ما تزه، فلتتحركوا الآن!»

فنادى تشينغ ما تزه بصوت خفيض: «فلنتحرك يا ليو تزه وتشون شينغ.» ولكي يمكنه التحرك بسهولة، قام تشينغ ما تزه بفك الكيس القطني الممتلئ بالقذائف والمعلق أمام صدره، وأخذ قذيفة ودسها عند خصره، ثم قدم كيس القذائف إلى رجل من أعضاء الفريق ذي قامة عالية قائلاً: «سلمني هذا الكيس عندما أنجح في اختراق الباب.» فهز ذلك الرجل ذو القامة العالية رأسه بالموافقة.

وانعكس ضوء النجوم الخافت على الأرض من تحتهم، ورأوا هنالك ما يزيد على عشرة مصابيح مُعلَّقة فوق معسكر جيش العملاء، حتى بدا فناء المعسكر مضيئاً كوقت الغروب؛ فقفز أحد أعضاء فريق جياو قاو من خلف كومة الطوب والأحجار، ثم تبعه ثلاثة من رفاقه الذين كانوا جميعاً يلتحفون بجلود الكلاب، وراحوا يجاهدون حتى اقتربوا من الباب الرئيسي. وتجمَّع ثلاثة منهم إلى جانب كومة من الأخشاب، كانت تلك الكومة تبعد ما يزيد على عشر خطوات من الباب الرئيسي، وراحوا ينظرون إلى الباب من بعيد وكأنهم يتنافسون على وجبة شهية دسمة.

كان القائد جيانغ يتابع من خلف كومة الطوب والأحجار راضياً ما يقوم به تشينغ ما تزه ورفاقه، وراح يتذكر منظر تشينغ ما تزه فوق التحاقه بالفريق، حيث كان آنذاك جباناً جداً، وكان مثل النساء العجائز لا يتوقَّف عن البكاء من شدة الخوف.

استمر تشينغ ما تزه ورفاقه في النباح بصبر وسط المنطقة المظلمة عند كومة الأخشاب، وهنا راح يستمع إلى صوت نباحهم اثنان من جنود الحراسة، وهما في ذهول مما يسمعان. فانحنى أحد جنود جيش العملاء على الأرض وأمسك بحجر ورمى به إلى تلك المنطقة المظلمة، ثم راح يسب قائلاً: «أه من هذه الكلاب المريضة!»

راح تشينغ ما تزه يقلد صوت الكلاب عندما تتعرض لهجوم من قِبَل طَرَفٍ آخر، وكان صوته قريباً جداً من صوت الكلاب، حتى كاد القائد جيانغ ألا يتمالك نفسه وينفجر ضاحكاً.

وكان أعضاء فريق جياو قاو قد بدءوا يتعلمون جميع ما يتعلق بنباح الكلاب فور وضع خطة الهجوم على قرية ما ديان. وبما أنَّ تشينغ ما تزه كان يتعَنَّى من قبل بأعمال

أوبرا بكين، وكانت له تجارب في نفخ الأبواق، وكان يتمتع بحنجرة قوية وصوت جهوري، فقد أصبح أفضل من يقلد صوت نباح الكلاب بين أعضاء الفريق، كما بلغ كل من ليو تزه وتشون شينغ مستوىً جيدًا في تعلُّم نباح الكلاب، ومن ثم، فقد أُوكِّلت إلى ثلاثتهم مهمة استدراج جنود الحراسة في جيش العدو والقضاء عليهم.

وهنا لم يستطع جنود حراسة جيش العملاء الصبر أكثر من ذلك، فتقدموا في حذر شديد إلى جانب كومة الأخشاب حاملين الرشاشات المزودة بالحِراب، وعند ذلك ازدادت حدة النباح. وعندما كان جنود جيش العملاء على مسافة ثلاث أو خمس خطوات من كومة الأخشاب، انخفض صوت نباح الكلاب، وكأنهم بدءوا يشعرون بالخوف من العدو القادم إليهم، ولكنهم لم يُغادروا أماكنهم بعد.

تقدم اثنان من جنود حراسة جيش العملاء خطوة إلى الأمام في حذر شديد. وهنا انقضَّ عليهم تشينغ ما تزه ورفاقه، وقد انعكس ضوء المصابيح على جلود الكلاب التي يلتحفون بها، ثم ألقى تشينغ بقذيفة نحو رأس أحد الجنديين، بينما طعن كل من ليو تزه وتشون شينغ الجندي الثاني بحراب رشاشاتهم في بطنه. فتساقط الجنديان على الأرض محدثين صوتًا مسموعًا.

وانقضَّ باقي أعضاء فريق جياو قاو الملتحفون بجلود الكلاب على معسكر جيش العملاء، وقد استرد تشينغ ما تزه كيسه القطني الممتلئ بالقذائف عند الباب الرئيسي، وراح يلقي بالقذائف نحو غرف المعسكر بجنون.

وهكذا، حطَّ دَوِي الطلقات النارية والقذائف اليدوية والصياح المتعالي وصراخ الجنود اليابانيين وجنود جيش العملاء الخونة، حطَّ ذلك كله الصمت الرهيب الذي كان يلف قرية ما ديان، وملاً نباح الكلاب جميع أرجاء القرية.

وحَدَّد تشينغ ما تزه هدفه نحو إحدى نوافذ غرف المعسكر وألقى بداخلها عشرين قذيفة يدوية، حتى إن دَوِي الانفجارات وصراخ الجنود اليابانيين المصابين جعله يتذكر مشهد قيام الجنود اليابانيين قبل عدة سنوات بإلقاء القنابل على ورش صناعة الأحذية، إلا أن التشابه الكبير بين المشهدين لم يجعله يشعر بنشوة الثأر وغسل العار، وأحسَّ بألم شديد وكأن سكينًا حادًا يمزق قلبه.

وتُعتَبَر هذه المعركة أكبر المارك التي خاضها فريق جياو قاو منذ تأسيسه، كما أنها حَقَّقَتْ أعظم انتصار على مدار تاريخ حروب المقاومة ضد اليابان في منطقة بين خاي بأكملها. ومن ثَمَّ فقد أصدرت لجنة الحزب الشيوعي بمنطقة بين خاي آنذاك أوامرها

بمكافأة فريق جياو قاو. وفي تلك الأيام، كان أعضاء فريق جياو قاو يعيشون أسعد أيام حياتهم، إلا أن هذه السعادة البالغة لم تدم طويلاً، فبعد أيام قليلة وقعت حادثتان عكّرتا صَفْوهم: أما الحادثة الأولى فهي قيام سَرِيَّة بين خاي المستقلة بالاستيلاء على كميات الأسلحة والذخيرة الكبيرة التي حصل عليها أعضاء فريق جياو قاو خلال معركة قرية ما ديان. وكان القائد جيانغ قائد فريق جياو جيانغ قد أدرك بصفته قائداً أن قرار لجنة الحزب الشيوعي في ضم الأسلحة والذخيرة قرار صائب تماماً، إلا أن أعضاء الفريق من الجنود العاديين كانوا متذمرين ومستائين من هذا القرار ولا يتوقفون عن توجيه اللوم والسباب للجنة. وعندما جاء أعضاء سرية بين خاي المستقلة لنقل الأسلحة والذخيرة، كانوا قد رأوا أعضاء فريق جياو قاو شاحبي الوجوه، وقد بدأ عليهم الندم على ما كان منهم، أما الحادثة الثانية فهي موت تشينغ ما تزه الذي كان قد أبلى بلاءً حسناً خلال معركة قرية ما ديان شتقاً معلقاً على شجرة صفصاف عند مدخل القرية، وأشارت جميع الأدلة إلى أنه قد انتحر، ولم يكن قد خلع عنه آنذاك جلد الكلب الذي كان يلتحف به، مما أدّى إلى أنه كان يبدو من الخلف، وكأن المنتحر كلب، بينما كان يبدو من الأمام إنساناً.

٩

ومنذ أن قامت جدتي بغسل جسد زوجة جدّي بالماء الساخن، توقّفت زوجة جدّي تماماً عن الصياح والصراخ، كانت الابتسامة الرقيقة لا تُفارق وجهها الممتلئ بأثار الجروح، لم يتوقف النزيف من الجزء الأسفل من جسدها، وكان جدّي قد أحضر لها طبيباً من القرية، وأخذت كمّاً كبيراً من الأدوية، إلا أن النزيف كان يزداد يوماً بعد يوم. امتلأت غرفة جدتي آنذاك بكميات كبيرة من الدم، فقد كانت زوجة جدّي قد نزفت تقريباً كل دماؤها، حتى بدت أذناها شفافة تماماً مثل هلام النشاء.

أما آخر طبيب جاء لعلاج زوجة جدّي فكان شيخاً أحضره الجد لُوو خان من مدينة بينغ دو، وكان ذلك الطبيب شيخاً فوق الثمانين، ذا لحية فضية ورأس أصلع وأظافر طويلة، يعلق في عروة عبايته مشطاً من قرن الأبقار لتمشيط لحيته الطويلة، وخلة أسنان من العظم وقطنة لتنظيف أذنه، وكان أبي قد رأى هذا الطبيب وهو يضغط بأصابع يده على معصم زوجة جدي. وما إن انتهى من الضغط على معصمها الأيسر، راح يضغط على معصمها الأيمن، وبعد أن انتهى من الضغط على المعصم الأيمن حتى قال: «جَهْزُوا لجنازتها!»

راح جدِّي وجدتي يشيعون الطبيب الشيخ، وبدءوا يشعرون بحزن شديد. انشغلت جدتي طوال الليل في حياكة ثوب الحداد لزوجتي جدي، بينما أرسل جدِّي الجد لوو خان إلى النجار ليصنع لها تابوتًا.

في اليوم التالي، استطاعت جدتي بمساعدة عدد من جاراتها حياكة ثياب جديدة لزوجتي جدي، وارتدت زوجة جدِّي الثياب الجديدة، كانت عبارة عن عباءة من الحرير الأحمر وسروال من الساتان الأزرق وتَنوُّرة من الحرير الأخضر، وحذاء مطرز من الساتان الأحمر، ثم رَقَدَتْ زوجة جدي أعلى مصطبة التدفئة، وعلت وجهها ابتسامة مشرقة. وفي الظهيرة رأى أبي بومة سوداء تقف أعلى سقف الغرفة، أصدرت صوتًا حزينًا، فعثر أبي على حجرٍ صغيرٍ وضربها به، فقفزت البومة مسرعة حتى لاذت بالفرار من أمامه.

وفي موعد إشعال المصابيح، عاد مجموعة من عمال فرن صناعة النبيذ بالتابوت الخشبي، وقامت جدتي بإشعال مصباح الزيت داخل الغرفة ووضعت بداخله ثلاثة من أعواد الإضاءة نظرًا للظروف الخاصة استعدادًا لجنائزة زوجة جدي، وانتشرت من ذلك المصباح رائحة ذكية مثل رائحة لحم الغنم المحترق، وراح الجميع ينتظرون قلقين تلك اللحظة التي ستلفظ فيها زوجة جدِّي أنفاسها الأخيرة. اختبأ أبي خلف باب الغرفة وراح ينظر إلى أذني زوجة أبيه التي كانت تبدو شفافة تمامًا مثل الكهرمان، وقد انتابه شعور بالغربة الشديدة مما ترى عيناه. شعر أبي بأن طوب الغرفة يتساقط بفعل تلك البومة السوداء، وأحس وكأنه يرى عيني البومة البارقتين، وأنه يسمع صوت نعيها. كان شعر رأس أبي يقف مثل السلك المعدني عندما يحيره أمر ما. وفجأة فتحت زوجة جدي عينيها، وبدت عيناها ثابتتين، وجفناها يتحركان وكأنهما قطرات من المطر المرَّكز. بينما كان لحم وجنتيها يتحرك وشفتهاها تهتزان بشكل متواصل، ثم سمعها تصيح بصوت أسوأ من مواء القطط. وانتبه أبي إلى تحوُّل لون الفتيل داخل المصباح إلى اللون الأخضر، وفقد وجه زوجة أبيه ملامحه البشرية تحت ضوء المصباح الأخضر.

وفي بداية الأمر كانت جدتي في غاية السعادة بعودة الروح إلى زوجة جدي، ولكن لم يكد يمر وقت طويل حتى تحوّلت تلك السعادة إلى رعب شديد.

قالت جدتي: «ما الذي أصابك يا أختي الصغيرة؟»
فراحت زوجة جدِّي تسبها قائلة: «أيتها العاهرة! إنني لن أرحمك أبدًا، لقد قتلت جسدي، ولكنك لن تستطيعي قتل قلبي، إنني سوف أنتقم منك شر انتقام، سأسلخ جلدك سلخًا لا هوادة فيه!»

وقد استطاع أبي أن يميز أن الصوت الذي يسمعه الآن ليس صوت زوجة أبيه الذي يعرفه، إنه أقرب ما يكون لصوت عجوز طاعنة في السن.

استطاعت زوجة جدي بسبابها أن تجبر جدتي على السكوت. وهكذا راح جفنًا زوجة جدي يرتجفان بشكل سريع، بينما كانت لا تتوقف عن الصراخ حينًا والسباب حينًا آخر، وقد هز صوتها جميع أرجاء الغرفة، وسرت داخل الغرفة نوبة هواء باردة جدًا. واستطاع أبي أن يرى بوضوح أن حنجرة زوجة جدي كانت متصلبة تمامًا، وعجز عن أن يعرف مصدر ذلك الصراخ.

كان جدي في حيرة وقلق شديدين، فأرسل أبي إلى الفناء الشرقي ليستدعي الجدو لولو خان. وقد كان بإمكانه أن يسمع وسط الفناء الشرقي صوت صراخ زوجة جدي المرعب. كان هناك سبعة أو ثمانية من عمال فرن النبيذ يتحدّثون داخل غرفة الجد لولو خان، وما إن رأوا أبي يدخل إلى الغرفة، بادروا بالصمت، فقال أبي: «أيها الجد لولو خان، إن أبي بالتبني يدعوك إليه.»

فدخل الجد لولو الغرفة، وبدأ بإلقاء نظرة على زوجة جدي، ثم سحب جدي من طرف ثيابه إلى خارج الغرفة، وتبعهم أبي إلى الخارج، وقال الجد لولو خان مخاطبًا جدي: «سيدي الفاضل، لقد ماتت منذ وقت طويل، ولا أعرف أي روح شيطانية سكنت جسدها.»

لاذ الجد لولو خان بالصمت ولم ينبس ببنت شفة، وعندها سمع زوجة جدي تكيل له السباب المقذع بصوت مرتفع قائلة: «وأنت أيها الكلب لولو خان! يجب أن تموت شر ميتة، فسأسلخ جلدك وأقطع لك مذاكيرك.»

فنظر جدي والجد لولو خان إلى بعضهما البعض مرعوبين دون أن يتفوه أحدهما بكلمة واحدة.

وفكّر الجد لولو خان قليلاً، ثم قال: «فلتصبوا عليها قدرًا من مياه الخليج، فإن مياهه قادرة على طرد الأرواح الشريرة.»

هذا بينما كانت زوجة جدي داخل الغرفة تكيل له السباب المقذع. فحمل الجد لولو خان قدرًا من مياه الخليج المتسخة، واصطحب معه أربعة من عمال فرن النبيذ ذوي بنية قوية، وما إن وصلوا إلى وسط الفناء حتى سمعوا صوت زوجة جدي، وهي تضحك بصوت مرتفع قائلة: «أيها الكلب لولو خان، فلتصب مياهك، فلتصب مياهك، فإن سيدتك ستشربها كاملة!»

ورأى أبي أحد العمال، وقد راح يحشر قمعاً معدنيًا من الأقماع المستخدمة في بيع النبيذ داخل فم زوجة أبيه، بينما رفع عاملٍ آخرِ قَدْرَ المياه، وراح يصب الماء داخل فمها، وقد انسابت المياه داخل القمع بسرعة، حتى يكاد الناظر أن يشك في أن تلك المياه قد انسابت جميعها داخل جوف زوجة جدي.

وما إن انتهوا من صب قدر المياه داخل جوف زوجة جدي، حتى هدأت تمامًا، وبدت بطنها منبسطة وصدورها يتحرك، وكأنها تأخذ نفسًا عميقًا.

وهنا التقط الحضور أنفاسهم مسرورين بعودة الحياة إليها من جديد.

فقال الجد لـ لو خان: «حسنًا حسنًا!»

وأحس أبي مرة ثانية أن هناك وَقْعُ أقدام فوق سقف الغرفة، وكأنه وقع أقدام تلك البومة السوداء.

وعاود وجه زوجة جَدِّي الضامر يشرق بابتسامة جذابة، وبدت رقبتها مشدودة مثل رقبة دجاجة لحظة الصباح، ولملح جسدها، وقد خرجت كمية من المياه من داخل فمها في أثناء الصباح، وتجمعت المياه للتفرُّق فجأة في جميع الاتجاهات وكأنها براعم زهور الأقحوان، وتناثرت لتملاً ثوب جدّاتها.

شعر العمال الأربعة بالرعب من خروج تلك الكمية الكبيرة من المياه من فمها، ففروا من جانبها، بينما راحت زوجة جَدِّي تصيح فيهم قائلَةً: «فروا، فروا، فروا، ولكنكم لن تتمكنوا من الهروب مني ولن تفلتوا من يدي.»

شعر العمال بالرعب الشديد من صراخها وتهديدها لهم.

وراح الجد لـ لو خان ينظر إلى جَدِّي متوسلاً إليه، وجدي يبادلُه النظرة نفسه. وتقابلت عيونهم لتصدر عنهما تهيدة تمتلئ بالرعب الشديد مما يرون.

اشتدت حِدَّة سباب زوجة جدي، حتى إنها لم تكثف بالسباب فقط، بل راحت تهز ذراعيها وقدميها هزًّا قويًّا. قالت: «أيها الكلاب اليابانية، وأيها الكلاب الصينية، إنكم سوف تنتشرون بعد ثلاثين عامًا في كل مكان، وأنت يا يو جان أو، لن تفلت مني أبدًا، فالنصر دائمًا للأقوى، ومصيبتك الأكبر لم تأت بعدًا!»

فانحنى جسد زوجة جَدِّي مثل القوس، وكأنها تستعد للجلوس.

وصاح الجد لـ لو خان بصوت مرتفع: «لا تتركوها هكذا، يجب حمل الجثة كما هي!

أسرعوا وائتوا بمنجل معدني!»

فألقت إليهم جدتي بالمنجل.

فتشجع جدِّي وراح يحكم سيطرته على زوجته، بينما تقدم الجد لـو خان وراح يضغط على قلبها بالمنجل، ولكن أُنِّي لهم ذلك؟
قام الجد لـو خان، وهمَّ أن يغادر المكان، فخاطبه جدِّي قائلاً: «لا يمكن أن تغادر أيها العم لـو!»

فصاح الجد لـو خان: «فلتسرعي يا سيدتي وتأتي لنا بمجرِّفة معدنية!»
وهكذا هدأت زوجة جدِّي بعد أن قاموا بالضغط على صدرها بواسطة مجرِّفة تستخدم في تجريف الأرض الزراعية.

وهنا تحرَّك جدِّي والجد لـو خان، ثم تبعهم أبي إلى خارج الغرفة.
وبقيت زوجة جدِّي وحيدة تتعذب داخل الغرفة، وقد تركها جدِّي والجد لـو خان وأبي وخرجوا إلى الفناء الكبير.

راحت زوجة جدِّي تصيح داخل الغرفة قائلةً: «يا يو جان آو، إنني أرغب في أكل دجاجة ذات أقدام صفراء!»

فقال جدي: «فلتصطادوا لها الدجاجة التي طلبتُها!»

فقال الجد لـو خان: «مستحيل، مستحيل، إنها قد فارقت الحياة منذ وقت طويل!»

فقالت جدتي: «أيها العم لـو خان، فتفكر بسرعة في حل يرضيها!»

فقال الجد لـو خان: «أسرع يا جان آو بالذهاب إلى باي لان جي واستدع أحد

ساكني الجبال!»

وعند فجر ذلك اليوم، اشتد صوت سباب وصراخ زوجة جدي، وقد راحت تسب الجد

لـو خان قائلةً: «أيها الكلب لـو خان، لتكن بيني وبينك عداوة إلى أبد الآبدين!»

ورافق الجد لـو خان ذلك الرجل من أهل الجبل إلى داخل الفناء، بينما كان صوت

سباب زوجة جدِّي قد تحوَّل إلى مُجرَّد تنهدات.

كان ذلك الرجل من أهل الجبال في حوالي السبعين من عمره، يرتدي عباءة سوداء،

مرسوماً عليها من الأمام والخلف صور غريبة جداً. يحمل فوق ظهره حربة تستخدم في

تقطيع الأخشاب، ويقبض بيده على صرة.

واستقبله جدِّي عند مدخل الغرفة، وعرف أنه هو الشيخ لي الذي كان قد ساعد

زوجة جدِّي في طرد روح ابن عرس الشريرة التي لبستها منذ عدة سنوات مضت، ولكن

الشيخ لي بدأ الآن نحيفاً أكثر مما كان عليه آنذاك.

وضرب الشيخ لي ستارة النافذة بحربته، وراح ينظر إلى داخل الغرفة، ثم حوّل نظره عن الغرف، وقد علّا وجهه الشحوب، ثم راح ينحني أمام جدّي بخضوع قائلاً: «سيدي الفاضل، إن قوة هذه الروح أقوى من قدراتي بكثير، وأخشى أن أعجز عن طردها.»
انتاب جدّي قلقاً شديداً، وقال مخاطباً الشيخ الكبير: «أيها الشيخ لي، إنه لا يمكنك مغادرة هذا المكان إلا بعد أن تساعدنا في التخلص من هذه الروح، وعندها سأشكرك شكراً جزيلاً وأجزل لك العطاء.»

فرمش الرجل بعينيه الغريبتين، ثم قال: «حسنًا، ولتدعوني أرتشف رشفة من حساء دم الخنزير، وسأظهر بعدها قوة تحطم الجبال!»
وهكذا، فإنه لا يزال أهل القرية حتى يومنا هذا يتداولون فيما بينهم حكاية نجاح ذلك الرجل من أهل الجبل في طرد تلك الروح الشريرة من جسد زوجة جدي.
قيل بأن ذلك الشيخ لي كان يسير وسط الفناء، وهو يتلو بعض الكلمات، ويُلَوِّح بحربته، بينما كانت زوجة جدّي تتقلّب على المصطبة ولا تتوقّف عن البكاء بصوت يهز المكان هزًّا.

وفي نهاية الأمر، طلب الشيخ من جدتي أن تحضر له طستًا خشبيًا، وتملأه حتى منتصفه بالمياه الصافية، ثم أخرج الرجل من صرته بعض أكياس الدواء وصبها داخل الطست، وراح يخلطها بالمياه الصافية بواسطة حربته، وأثناء ذلك كان لا يتوقف عن تلاوة بعض التعاويذ، وبدأت مياه الطست تتحول تدريجيًا إلى اللون الأحمر في حمرة الدماء، ثم قفز الرجل قفزة على الأرض، وقد تصبب وجهه عرقًا، وراح يقفز لأعلى ثم يتساقط على الأرض وهو يبصق هنا وهناك حتى سقط مغشيًا عليه.
وعندما أفاق الرجل من غيبوبته، كانت زوجة جدّي قد لفظت نفسها الأخير، وخرجت رائحة جسدها المتعفن عبر النافذة.

وعندما همّوا أن يلفوها بثياب الحداد، كان الجميع يضعون على أفواههم فوطًا تم نقعها في نبيذ الدرة.

١٠

مرت عشرة أعوام كاملة على هجري لمسقط رأسي، ثم عدتُ بعدها مُحملاً بمشاعر المودة الزائفة التي أُصِبتُ بالعدوى بها من الطبقة الراقية، عدتُ بجسدي الذي لوثته حياة المدينة، ووقفت من جديد أمام قبر زوجة جدي، بعد أن قمتُ بزيارة الكثير من القبور

التي صادفتني في طريقي إلى قبرها. تركت حياة زوجة جدِّي المُشْرِقة ذكرى مثيرة للانتباه الشديد في تاريخ مسقط رأسي «الذي يُعتبر تاريخاً مليئاً بالأبطال والشجعان والصعاليك». استطاعت من خلال تجربة موتها الغربية أن تثير كمًّا كبيراً من المشاعر الغامضة التي كانت تكمن في أعماق نفوس أهل قرية دونغ بيي بمدينة قاو مي، هذه المشاعر الغامضة لا يمكن أن تنبت وتنمو وتتعاظم وتصبح سلاحاً فكرياً بإمكانه مواجهة عالم الجهول، نقول إنها لا يمكن أن تحقق ذلك إلا في العالم الفكري لشيوخ مسقط رأسي الذي يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ سُكَّر البنجر حلو المذاق، والذين يشغلهم تاريخ هذه البلدة. كنت في كل مرة أعود فيها إلى مسقط رأسي، أكتسب الكثير من وحي هذه القوة الغامضة من خلال عيون أهل هذه البلدة المخمورة. وكنت في ذلك الحين لا أرغب في عقد أية مقارنات أو مقابلات، إلا أن ذلك القصور الذاتي في فكري المنطقي قد أجبرني على الخوض في دوامة المقارنة والمقابلة. اكتشفتُ مذعوراً من خلال الفكر المتواصل أن تلك العيون الجميلة التي تعرَّفْتُ عليها جيداً خلال بُعدي عن مسقط رأسي على مدى عشرة أعوام، اكتشفتُ أن جزءاً كبيراً من تلك العيون إنما هي مثبتة في رءوس أرناب منزلية ذكية بارعة، وأن الرغبة القوية هي التي جعلت تلك العيون تبدو محمرة مثل التفاح الجبلي، وتظهر بها بعض النقاط السوداء. حتى إنني أعتقد من خلال المقارنة والمقابلة، في وجود نوعين مختلفين من البشر، وأن هؤلاء جميعاً يتطوَّرونَ وَفْقَ نَظْمٍ تخص كل جماعة منهم، وأن كل نوع منهم يسير نحو ذلك العالم الكامل الذي تُحدِّده قيمه الخاصة. وأخشى كثيراً أن تُصاب عيناى بالعدوى وتظهر مثل ذلك الذكاء البارع، أخشى أن يكرر لساني تلك الكلمات التي سرقها آخرون من كُتُبٍ آخَرِينَ، وأخشى أيضاً أن أصبح كتاباً رائجاً من كتب «مقتطفات القراء».

وهنا خرجتُ زوجة جدِّي من داخل قبرها، ممسكة بمرآة نحاسية مُذهَّبة، وقد ظهرتُ بعض التجاعيد على جانبي شفيتها المكتنزتين، وقالت: «أيها الحفيد الذي لم أده، حافظُ على كرامتك!»

بدأت زوجة جدِّي في تلك اللحظة في ثياب أنيقة، كما كانت لحظة لفها بثياب الحداد، وبدأت ملامحها أكثر شباباً وجمالاً مما تخيلت، ومضمون ما تحدثت به إليَّ يشير إلى أنها تمتلك فكراً أعمق بكثير من فكري المحدود، فهي تمتلك فكراً ومشاعر تفيض بالحنو والوقار والمهابة والمرونة، بينما يبدو فكري مثل غلاف مزمار يهتز في السماء.

رأيتُ نفسي في مرآة زوجة جدي، واكتشفتُ أن عينيَّ تمتلكان ذكاء وبراعة تلك الأرناب المنزلية، وأن هناك صوتاً لا يَخْصُنِي يخرج من فمي، تماماً مثل ذلك الصوت

الذي كان يصدر عن زوجة جدِّي أثناء احتضارها والذي لا يخصها على الإطلاق، وإنني أصبحتُ مهوَّراً بختم الأشخاص المعروفين. وكاد الخوف يقتلني.

قالت جدتي بلهجة يملؤها التسامح واللين: «عُد يا حفيدي! عد حتى نُكْتَبَ لك النجاة. إنني أعلم جيداً أنك لا ترغب في العودة، أعلم أنك تخشى أكوام الذباب والناموس والحشرات، أعلم أنك تخشى الأفاعي التي تملأ حقول الدُّرَّة الرفيعة. أعلم أنك تُقدِّس الأبطال، وأنت تكره الصعاليك. ولكن من منَّا لا ينتمي إلى هؤلاء الأبطال والشجعان والصعاليك؟ إنني الآن أشم رائحة الأرناب المنزلية الماكرة التي عُدتَ بها من تلك المدينة، فلنسرع يا حفيدي إلى نهر موا شوى وتغطس بداخله ثلاثة أيام بلياليها — ولكنني أخشى أن تشرب صغار الأسماك من المياه الكريهة التي تغتسل بها، وأن يظهر في رءوسها آذان مثل آذان تلك الأرناب المنزلية الماكرة!»

اختفتُ زوجة جدِّي فجأة داخل قبرها، وعمَّ حقول الدُّرَّة صمت وهدوء شديداً، وانعكست على المكان أشعة الشمس الحارقة، وسكنت الرياح. وقد تغطَّى قبر جدتي بكميات كبيرة من الأعشاب المختلفة، عبَّقت المكان برائحتها الزكية، وكأن شيئاً لم يحدث، وجاء من بعيد صوت غناء الفلاحين الذين كانوا مُنْشَغِلِينَ بعزق الأرض.

كان قبر زوجة جدِّي قد أحاطت به مساحات شاسعة من الدُّرَّة الرفيعة المهجنة التي جاء بها الفلاحون من جزيرة خاي نان، وامتلأت تلك المساحات الشاسعة من أراضي ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي بتلك الدُّرَّة الرفيعة المهجنة. وها هي الدُّرَّة الرفيعة الحمراء في حمرة الدم، والتي كثيراً ما تَغْنِيَتْ بها، قد اختفت تماماً بفعل فيضان الثورة العارم، لتحل محلها هذه الدُّرَّة الرفيعة المهجنة ذات السيقان القصيرة والأوراق الكثيفة والمسحوق الأبيض والسنابل الطويلة مثل ذيول الكلاب، والتي تتمتع بمحصول وفير جداً، ومذاق مر لاذع أدَّى إلى حالات إمساك كثيرة بين جموع الشعب. كانت وجوه جميع أهل القرية فيما عدا سكرتير الحزب والقيادات الأعلى منه، كانت وجوه جميع الأهالي تبدو شاحبة كألحة ضامرة مثل قطعة حديد أصابها الصدأ.

إنني أكره الدُّرَّة المهجنة كرهاً شديداً.

فهذه الدُّرَّة المهجنة تبدو لي وكأنها لن تنضج إلى الأبد، وأنها ستبقى إلى أبد الأبد على هذه الحالة عيونها الرمادية الخضراء شبه مُغلَّقة. وقفتُ أمام قبر زوجة جدي، ورحتُ أنظر إلى حقول الدُّرَّة المُهَجَّنَة القبيحة، التي احتلَّت مساحة كبيرة جداً من مساحة الدُّرَّة

الرفيعة الحمراء الأصيلة. إن الذرة المهجنة تملك على أية حال اسم الذرة، إلا أنها لا تمتلك السيقان العالية التي تتميز بها نباتات الذرة. تملك اسم الذرة، ولكنها تفتقر إلى لون الذرة المشرق، أهم ما ينقص هذه الذرة المهجنة هو روح نباتات الذرة، لقد استطاعت أن تلوث بلامحها الغامضة ذلك الجو الصافي الذي يتميز به ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي.

شعرتُ بآس شديد، وأنا محاصرٌ وسط المساحات الشاسعة من الذرة المهجنة. وقفتُ وسط معسكرات الذرة المهجنة وانشغلتُ بالتفكير في تلك الصورة الجميلة الخلافة التي لم يُعد لها أثر في أرض الواقع، في تلك الحمرة الشديدة التي كانت تمتد على مدى مساحات الذرة الحمراء في شهر أغسطس وتحت السماء الصافية والهواء المنعش. وإذا ما فاضت مياه الخريف، تحوّلت عندها مساحات الذرة إلى محيطات صغيرة، وبَدَت أعواد الذرة الحمراء ترتفع نحو السماء العالية، وهي منغرسة داخل المياه الصفراء المُعكّرة. وإذا ما طلعت شمس الصباح وانعكست على مساحات المياه الكبيرة الممتدة وسط حقول الذرة، فإنها تملأ الأرض بألوانها المُتعدّدة الجميلة الخلافة.

تلك هي البيئة الإنسانية الجميلة التي أتطلع وسأظل أتطلع إليها إلى الأبد.

لكنني أبدو الآن محاصرًا وسط حقول الذرة المهجنة، وقد طوقتني أوراقها مثل حية كبيرة حتى عجزتُ عن الفكك منها، تسممت أفكارني بسمومها الخضراء الداكنة، حتى أصبح من الصعب أن أتنفس وهي تحاصرني حصارًا شديدًا. وهكذا، غرقتُ في الحزن الشديد لعجزني عن أن أنجو بنفسني من هذه المعاناة.

عندها سمعتُ صوتًا حزينًا من أعماق الأرض، بدأ صوتًا مألوفًا وغريبًا في الوقت نفسه، صوتًا يشبه صوت جدي، صوت أبي، صوت الجد لولو خان، صوت جدتي، ويشبه صوت زوجة جدي الثانية. وهنا سمعتُ أرواح عائلتي يدلونني إلى طريق النجاة: أيها الابن المسكين، الضعيف، الغيور، الحقود، كثير الشك، الذي أضلّه شراب النبيذ السام، أسرع أيها الابن إلى نهر موا شوى وانقَع جسدك داخل مياهه ثلاثة أيام بلياليها، تذكّر جيدًا هذه المدة، لا يمكن أن تزيد أو تنقص يومًا واحدًا، حتى تغسل جسدك وروحك مما علق بهما، عندها سيمكنك العودة إلى عالمك الذي تبحث عنه. هناك جنوب جبل باي ما شان وشمال نهر موا شوى، توجد شتلة ذرة رفيعة حمراء أصيلة، عليك أن تبذل قصارى جهدك حتى تعثر عليها، ارفعها عاليّة واخترق بها عالمك المليء بالأشواك المستبدة، هي تميمتك، وطوِّم شرف هذه العائلة ومجدها، إنها رمزُ روح تراث ريف دونغ ببي بمدينة قاو مي!

